رؤية تصحيحية للتاريخ الإسلامي

(العصر الأموى)

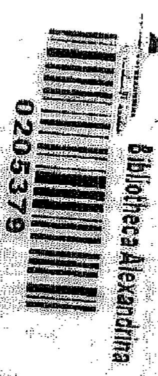
الدولة الأموية المفترَى عليها

دراسة الشبهات وردّ المفتريات

تأليف الدكتور

حمدى شاهين

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة





رؤية تصحيحية للتاريخ الإسلامي
(العصر الأموى)

الدولة الأموية المُفترَى عليها

دراسة الشبهات وردّ المفتريات

دراسة في مصادر التاريخ الأموي وأسباب تحريفه ، وبحث الشبهات التي أثارها المؤرخون حوله في مختلف النواحي ؛ مثل : حقيقة موقف الأمويين من الإسلام منذ بداية الدعوة الإسلامية ، ووسائلهم للوصول إلى الخلافة ، وموقفهم من الشورى وولاية العهد ، وسياستهم تجاه المعارضة السلمية ، وبحث أبرز الثورات ضدهم : ثورة أهل المدينة وابن الزبير مع التركيز على ثورة الحسين وموقف الأمويين من آل البيت ، ودراسة اتهام الأمويين بالعصبية القبلية وظلم الموالي ، مع بحث التجاوزات المالية والإنجازات الحضارية للأمويين ..

دكتور حمدي شاهين

كلية دار العلوم جامعة القاهرة

الناشر

دار القاهرة للكتاب

١١٦ شارع محمد فريد . ت ٣٩٢٩١٩٢

اسم الكتــــاب :	الدولة الأموية المفترى عليها دراسة الشبهات ورد المفتريات
اسـم المــؤلــف :	الدكتورة / حمدى شاهين
عدد الصفحات :	٥٠٧
رقــم الإيــداع :	١٨٨٢٣
التـرقـيم الدولى :	I. S. B. N. 977 - 314 - 115 - 2
سنة النشـر :	٢٠٠١
النـاشــــر :	دار القاهرة للكتاب
الـعـنــوان :	١١٦ شارع محمد فريد ـ القاهرة
الــبــلــد :	القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
تليــفــون :	٣٩٢٩١٩٢
فــــاكس :	٣٩٢٩١٩٢ ـ ٣٩٣٣٩٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى؛ واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون .

سورة المائدة ، آية : ٨



مقدمة

يبحث هذا الموضوع ـــ الذي سنتناوله في هذا الكتاب إن شاء الله ـــ في تاريخ الدولة الأموية ؛ ويطمح إلى استجلاء ملامحها الأساسية على حقيقتها ، محاولا التحرر من تلك العوامل التي أسهمت على مدار قرون عديدة في تشويه تاريخ هذه الدولة ورجالها وأعمالها .. وذلك من خلال بحث الروايات التاريخية التي كانت عماد هذه النظرة المتحاملة على الأمويين ، وبيان مدى الصدق أو الزيف فيها ..

والبحث عن حقيقة التاريخ الأموي لا يعد ضرورة ثقافية فقط بل يستمد أهمية تربوية ومعنوية خاصة ، في ضوء ما نلمسه كبارا وناشئة من فوارق جمة بين نقاء عصر النبوة والخلفاء الراشدين ـــ كما تصوره صفحات التاريخ ـــ وقتامة عصر الأمويين كما تصفه هذه الصفحات ، حتى لكأننا ننتقل في تصور هذين العصرين من حلم جميل إلى واقع ثقيل .. إن هذه النقلة المفتعلة قصد منها ـــ آلي حد كبير تقليص سنوات الأسوة والمجد والوضاءة في التاريخ الإسلامي .. لأغراض يعرفها من يقدرون دور التاريخ في صياغة الأمم ؛ والدفع بها إلي آفاق أرحب ..

إن قبول التاريخ الأموي كما يعرض علينا في جل كتابات القدماء والمحدثين يضعنا أمام تساؤلات ملحة تفرضها عدة تناقضات حادة ؛ فنحن أمام دولة حققت إنجازات كبرى في مجالات الفكر والعلم والأدب ، وشهدت قفزات هائلة ـــ لم تتكرر ـــ في مجال الفتوح ونشر الإسلام ، وقدمت شخصيات فذة تركت آثارا ضخمة في ميدان السياسة والحرب والإدارة ، واستمرت تقود المسلمين آنذاك ـــ على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم وطموحاتهم أكثر من تسعين عاما في دولة واحدة ، امتدت من حدود الصين إلى جنوبي فرنسا ..

غير أن كثيرا مما وصلنا من تاريخ تلك الدولة لا يتفق مع عظمة منجزاتها السالفة الذكر ، فقد ذاع عن ذلك العصر أنه كان عصر مؤامرات سياسية وردة خلقية واضطراب اجتماعي وخلل اقتصادي واستهانة بمقدسات المسلمين ، فتولدت عن ذلك ثورات كثيرة وسالت دماء غزيرة ، وهو العصر الذي شهد ـــ كما استقر في أذهان كثير من المسلمين ـــ توارث الحكم بعد أن كان شورى ، وتبديد أموال الدولة على هوى حكامها بعد أن كانت مصونة ، وهو العصر الذي شهد قتل الحسين ، وصلب ابن الزبير ، وضرب الكعبة بالمجانيق ، وانتهاك حرمة المدينة المنورة ، وظلم الموالى .. إلى آخر ما يشيع عن بني أمية ، وما أصبح يشكل في وعي الكثيرين صورة عن عصر قاتم ..

أما الإنجازات الكبرى التي سبقت الإشارة إليها فيثور حولها لغط كبير وغبش وجدال تصعب معه الرؤية الصافية والنظرة المتسقة ..

وبعيداً عن ذلك التباين والتناقض غير المبرر بين المنجزات والمثالب نرتد إلى هذه المسلّمات الأساسية الواضحة ؛ إن تاريخ هذه الدولة يقع في دائرة خير القرون ؛ المشهود لها بذاك من المعصوم ﷺ في قوله " خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم" (متفق عليه) ، ولا يمكن للعقل تصور هذه النقلة الكبيرة التي يتحدث عنها المؤرخون بين صفاء عصر الراشدين وظلام عصر بني أمية ؛ وليس الثاني إلا امتداد طبيعي للأول ، فيه عاش بقية رجاله ، ومن تبعهم بإحسان ، وصاغوا تاريخه وأمجاده .. مع التسليم بوجود فارق لابد منه بين هذا العصر وذاك.

وإن ما خلفه الأمويون من آثار تاريخية خالدة ــ سبق بيان بعضها ــ لا يصدر عن حقبة تاريخية بهذه السوءات التي لا تلبث تضخمها كثير من كتابات المؤرخين وغيرهم.

كما أن التاريخ لا ينفرد بصياغته في عصر ما ثلّة من الرجال ــ ولو كانوا ممتازين ــ على امتداد هذه العقود من الزمان التي عمرها الدولة الأموية ، وإنما هو نتاج عوامل شتى تتداخل فيها تأثيرات الزمان والمكان والبشر ، وتلعب فيها قوى المجتمع وتكويناته الظاهرة والمستترة دوراً كبيراً ... ومن خلال هذا المنظور ينبغي تفسير التاريخ الأموي ، فلا يجوز أن يتحمل حكامه من بني أمية كل أوزاره ومثالبه ، ولا أن ترد جميعها إلى صنعهم وتأثيرهم ، تماماً كما لا ينبغي أن تنسب إليهم وحدهم شرف كل أمجاده ومفاخره ...

إن هذه الحقائق الثابتة تقودنا إلى البداية الطبيعية للبحث عن حقيقة التاريخ الأموي ، ألا وهي بحث الظروف التاريخية التي دُوّن فيها ذلك التاريخ ، والعوامل المتعددة التي حكمت ذلك التدوين أو أثرت فيه ، فقد تمت كتابة التاريخ الأموي في العصر العباسي، وفى أجواء معادية لبني أمية ، وعلى أيدي رجال تعددت مذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية وولاءاتهم السياسية ، وقد ترك ذلك كله آثاراً ضخمة على تناولهم تاريخ هذه الحقبة بالغة الأهمية والحساسية .. وعلى ذلك تأتي دراسة مصادر ذلك التاريخ وتحليل موقفها من بني أمية واتجاهات أصحابها ومؤلفيها في مكان الصدارة من هذا البحث ..

وإن دراسة مصادر ذلك التاريخ ، وكونها تمثل المادة الأولى للتاريخ الأموي لا يغني بحال عن دراسة كتابات المؤرخين المعاصرين عن هذه الفترة ؛ حيث أسهمت بشكل واسع في تشكيل رؤى الكثيرين عن الدولة الأموية .. ولما كان من الصعب تتبع كل هذه الكتابات المتشبعة والمتكاثرة بلغتنا العربية وبغيرها ، فقد اكتفيت بدراسة اتجاهاتها العامة

وملامحها البارزة من حيث موقفها من بني أمية وتاريخهم إنصافاً أو تحريفاً ، مع تحليل نماذج محدودة من هذه الاتجاهات .. وقد شغلت هذه الدراسة الباب الأول من هذا الكتاب ..

وبعد ذلك جاء دور البحث في التاريخ الأموي نفسه في نواحيه المختلفة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ... ولما كان التقيد بالبحث في كل هذه النواحي ـ كما يقتضي عنوان الكتاب ـ يبدو عملاً ضخماً يعجز عنه فرد واحد أو مجموعة محدودة من الأفراد ؛ لامتداد ذلك التاريخ زماناً ومكاناً ، وتشعب نواحيه وكثرة مصادره .. فقد اكتفيت بدراسة الشبهات البارزة التي لصقت بذلك التاريخ في عدة نواحٍ منه ؛ وحاولت إبانة وجه الحق فيها ، ودراسة أقوال المؤرخين عنها ؛ في إنصاف وعدالة .. وقد احتلت هذه الدراسة الباب الثاني من هذا الكتاب ؛ حيث خصصنا الفصلين الأولين لبحث الشبهات المثارة حول موقف الأمويين من الإسلام منذ البعثة النبوية حتى قيام الخلافة الأموية ، مع ما سبق قيامها ـ وواكبه ـ من أحداث خطيرة الشأن مثيرة للجدل وتباين الرؤى ، وكذا دراسة الشبهات المثارة حول تدين الحكومة والمجتمع ودوافع الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي ، وفي الفصل الثالث سنجد دراسة عن النظام السياسي في العصر الأموي مع بحث دعوى الاستبداد السياسي عند الأمويين ، وفي الفصل الرابع سندرس موقفهم تجاه المعارضة السلمية والمسلحة ؛ وبخاصة موقفهم من آل البيت وثورة الحسين رضوان الله عليه ، ثم بحثنا في الفصل الخامس موقفهم من الموالي والعصبيات القبلية التي تفجرت في عهدهم ، وخُصص الفصل السادس لدراسة الشبهات التي ثارت حول سياستهم المالية ، في حين تناول الفصل الأخير الحديث عن منجزاتهم في ميدان الحضارة والفكر والعلوم ..

ورغم وفرة ما كُتب عن الأمويين فإن أكثره يتميز بالتكرار الملحوظ ، وسيطرة الآراء السائدة عن الأمويين ، وعديد منها لم يفد البحث إفادة حقيقية ، إذ يكتفي بترديد روايات القدماء مع زهد واضح في بحثها وتمحيصها .. وقليل من هذه الكتابات الكثيرة تكفّل ببحث بعض الشبهات المثارة حول تاريخ هذه الدولة ، وبعضها أعطى إشارات مركزة من الإنصاف لجوانب مختلفة من التاريخ الأموي دون أن يتفرغ لبحث الشبهات المثارة حول هذه الجوانب بحثاً مستفيضاً .

ولذا فإني أرجو أن تسد هذه الدراسة التي بين يدينا مكاناً شاغراً في المكتبة الإسلامية ، وأن تقدم جديداً في هذا الميدان الذي مازال يحتاج كثيراً من الجهد والعمل الدءوب من أجل بحث جوانب هذا التاريخ المختلفة بحثاً جديداً يستهدف النصفة والعدل ، وينفي عنها شبهات موروثة أفرزتها عوامل تاريخية خاصة مضى زمانها ..

ويدين هذا البحث لبعض هذه المصادر التاريخية الأولى والكتابات المعاصرة التي رسمت أطر الإنصاف للأمويين ، ونبهت إلى ما أصاب تاريخهم من غبن وتحريف ، وقدمت الروايات التاريخية التي أسهمت في تقديم الرؤية المنصفة لهم ، وتقويم النظرة الموروثة عنهم .. فمن هذه المصادر تاريخ الطبري المعروف باسم تاريخ الرسل والملوك ؛ الذي أسهم بفيض رواياته، وذكر أسماء رواته ، في معرفة اتجاهات هؤلاء الرواة ودورهم في تحريف التاريخ الأموي أو إنصافه ... وهي نفس المهمة التي أفادت فيها بصورة مباشرة كتب علم الرجال ؛ التي اهتم أصحابها ببيان أحوال الرواة ، وبعض هؤلاء كانوا يعملون في ميدان التاريخ والحديث معاً، وقد قدمت هذه الكتب رأى علماء الحديث في عدالة هؤلاء الرجال أو جرحهم ، وهي آراء يجب أن يستأنس بها أو يلتزم الباحث في روايات التاريخ التي رواها هؤلاء الرجال .. وقد أفادت ، بصورة خاصة ، كتب المتأخرين من علماء هذا الشأن ، الذين جمعوا أقوال سابقيهم من العلماء ، مثل كتابي " لسان الميزان " و" تهذيب التهذيب " لابن حجر العسقلاني ، على حين ترجم لعديد من هؤلاء الرواة والمؤرخين ياقوت الحموي في كتابه " معجم الأدباء " وابن النديم في كتابه " الفهرست " ، وقد أفدت من هذين الكتابين إفادة كبيرة ، وتكلفت كتب التراجم والطبقات بتقديم مزيد من المعلومات الضرورية عن هؤلاء الرواة والمؤرخين ، ونذكر منها بصورة خاصة " وفيات الأعيان " لابن خلكان و"تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي ، وغيرهما .

إن كتب الطبقات والتراجم قد أدت خدمة جليلة أخرى ، حيث قدمت رؤى أكثر موضوعية لبعض مشاهير بني أمية من الصحابة والتابعين ، ومن هذه الكتب " الطبقات الكبرى " لابن سعد و" سير أعلام النبلاء " للحافظ الذهبي و" الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر و " تاريخ دمشق " لابن عساكر ، وغيرها ..

ومن المصادر القديمة التي أفادت البحث إفادة كبيرة : " فتوح البلدان " للبلاذري ؛ حيث يقدم معلومات مهمة فيما يخص الفتوحات الإسلامية في العهد الأموي ، ويقدم صورا عديدة للاهتمامات الحضارية للأمويين ، وهو مصدر لا غنى عنه في هذا الجانب ، كما أنه ضروري لبحث السياسة المالية لبني أمية ، تماما كما تفيد كتب الخراج في هذا المجال وعلى رأسها " الخراج " لأبي يوسف ..

أما كتب الأدب ــ بمفهومه العام ــ فقد قدمت معلومات مهمة لفهم الحياة الاجتماعية في العصر الأموي . ولكنها يجب أن تدرس بمزيد من العناية والحذر ، مثل " الأغاني للأصفهاني ، وكتابات الجاحظ المتنوعة ..

ومن المصادر المهمة في هذا المجال كتابات الفقهاء التاريخية حيث تناولت مسائل غاية في الأهمية فيما يخص مكانة زعماء بني أمية الأولين من الصحابة وكبار التابعين وقدمت تأويلات مهمة لاجتهاداتهم ، كما ناقشت المسائل المثيرة للتحامل على الأمويين ، مثل قتال معاوية عليا ، وتوليته العهد ابنه يزيد ، وقتل الحسين بن علي ، والثورات الأخرى ضد الأمويين مثل ثورة أهل المدينة ، وثورة ابن الزبير . وقد حاولت عرض هذه المباحث بشكل منصف للأمويين ؛ منبهة إلى حدوث تحريف كبير لتاريخهم، ومن هذه الكتابات "منهاج السنة النبوية " لابن تيمية " ومقدمة " ابن خلدون و" العواصم من القواصم " لابن العربي ..

ومن الكتابات الحديثة التي تتصف بالرغبة في تحري الحقيقة ولا تستسلم للآراء التاريخية السائدة تعليقات الشيخ محب الدين الخطيب في تحقيقه لكتاب ابن العربي " العواصم من القواصم " وكتاب " المنتقى من منهاج الاعتدال " لابن تيمية ، وكذلك كتاب " محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية " للشيخ محمد الخضري ، و"مقدمة في تاريخ صدر الإسلام " للدكتور عبد العزيز الدوري وغيرها ... حيث تبهت هذه الكتابات إلى ما حدث من تحامل على الأمويين وعرضت نماذج لإنصافهم ..

وختاما فإني لأرجو أن يتقبل الله تعالى هذا العمل ؛ وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يغفر لي ما شابه من نقص وتقصير وادعاء ؛ فقد كتب سبحانه على عباده النقص وتفرد بالكمال ... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

الباب الأول

اتجاهات الكتابات التاريخية عن الدولة الأموية

تمهيد: صورة قاتمة عن الأمويين في التاريخ:

ليس الغرض من عرض هذه الصورة القاتمة عن الأمويين تكرار ما شاع عنهم من مثالب وعيوب ، ولا ما أحاط دولتهم من مطاعن واتهامات ، فذلك ما تكاد تزخر به كثير من كتابات المؤرخين عنهم في القديم والحديث ، ولكن يبدو أنه من الأجدى إعادة هذا الغرض بين يدي الحديث عن الأمويين وما تعرضوا له من إنصاف أو إجحاف ، لتستبين سبيل المقارنة البصيرة بين حقيقة ذلك التاريخ كما حدث ، والصورة الشائعة التي عرفها كثير من الناس واستقرت في أذهانهم ، على أن هذه الشبهات التي ثارت حول تاريخهم سوف تكون موضع دراسة في خطوطها العريضة واتجاهاتها الكبرى في الجزأين التاليين من هذا الكتاب .. بمشيئة الله ...

أ) حول علاقة بني أمية وبني هاشم :

رغم أن بني أمية وبنى هاشم ينتمون إلى جد واحد هو عبد مناف ؛ إلا أن عديدا من المؤرخين قد خصوهم بمطاعن جمة في نسبهم وشرف آبائهم في الجاهلية والإسلام على السواء [١]..
وقد ارتد بعض المؤرخين بصور العداء بين بني أمية وبنى هاشم في الإسلام ليجعل لها أصولا منذ أيامهم الأولى ، فجعلوا هاشما وعبد شمس يولدان ملتصقين فلا يفرق بينهما إلا بالسيف[٢]؛ فسالت الدماء بينهما في لحظة الميلاد ؛ ويمتد أثر ذلك فيتمثل في المفاخرات الدائمة ـــ على ما يزعم هؤلاء المؤرخون ـــ بين أمية وعمه هاشم بن عبد مناف ، وبين حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم ، وفى كل مرة ينخذل بنو أمية وينتصر بنو هاشم [٣] ..

---

[١] المقريزي ::النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبنى هاشم ص21ـــ22 ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 336/1 ، العقاد : أبو الشهداء الحسين ص 6ـــ47

[٢] المقريزى : النزاع والتخاصم ص 18

[٣] سا والملوك 252 ـــ 254 ، المقريزى النزاع والتخاصم 21/20

فلما جاء الإسلام تحكم العداء الموروث ــ كما يصور المؤرخون ــ في موقف الأمويين من الدين الجديد ، فحاربوه وطاردوا المؤمنين به بدافع العصبية المقيتة [١]، واستمر ذلك العداء بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة ، فقاد بنو أمية الجيوش ضد الإسلام في بدر وأحد والخندق وغيرها ، وقد اختلطت عداوة النساء بعداوة الرجال ، فمثلت هند بنت عتبة بجسد حمزة بن عبد المطلب يوم أحد؛ وأخرجت كبده فلاكتها ولفظتها لما لم تسغها [٢] ..

ولما انتصر الإسلام وفتحت مكة ، دخل بنو أمية في الإسلام ، ولكنهم ــ كما يرى بعض مؤرخينا ــ لم يكونوا صادقين في إسلامهم ؛ بل دخلوه مدفوعين بدوافع المصلحة الشخصية ، إذ رأوا في انتشار الدين الجديد عاملاً من عوامل ارتفاع شأنهم وإعلاء كلمتهم [٣] ، وظلوا دائما موسومين بأنهم الطلقاء ..

ب) الأمويون في الطريق إلى الخلافة :

ولى الأمويون بعض الأعمال في حياة الرسول ﷺ ــ بعد الفتح ــ وفى خلافة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولكن كان دورهم أكثر بروزا مع خلافة عثمان ﷺ ــ وهو أحد بني أمية.

وقد أحاطت بخلافة عثمان شبهات كثيرة عند المؤرخين ، ولكنهم يرجعون معظم أسباب الثورة عليه إلى الأمويين الذين كانوا ــ فيما يزعمون ــ وراء الدفع به نحو تولى الخلافة ، ثم كانوا ــ فيما يرى هؤلاء المؤرخون مستغلين تلك الخلافة حتى ولوا له معظم الولايات ، واتسمت ولايتهم لها بالاستهتار وعدم الكفاية ، وتنصب معظم الاتهامات هنا على مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان والوليد بن عقبة ، فلما حوصر عثمان نتيجة ممارسات أقاربه من الأمويين ــ فيما يروى مؤرخونا ــ استنجد بمعاوية وبنى أمية فخذلوه ولم ينجدوه ؛ حتى قتله الثائرون عليه [٤]..

---

[١] سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص 41 ، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي 375/1ــ376 ، د. الطيب النجار : الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ص 23

[٢] ابن هشام : السيرة النبوية 31/3 ، الطبري تاريخ الرسل والملوك 254/2

[٣] انظر سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص 41 ، د. حسن إبراهيم : السابق 284/1 ، على سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 229/2

[٥] راجع : جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤/ ٦٣-٦٤ ، د . محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص ٥٧ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ١٣٣ ، د . طه حسين : الفتنة الكبرى ١/ ٩٨-١٢٥ ، د . إبراهيم بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية ص ١٦١ ، د . الخربوطلي · تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ١٤ ، د محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص ٦٧-٧٧ ، محمد مهدي شمس الدين · ثورة الحسين ص ٣٩-٤٠ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربيه ص ٤٠-٤١ سندلي جوري من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٦٠

فلما بويع علي بالخلافة تمرد عليه معاوية بحجة الطلب بدم الخليفة الشهيد ؛ واتخذ ذلك ستارا للخروج على الخليفة الشرعي للمسلمين وطلب الخلافة لنفسه [١] ، وقد تم له ما أراد عبر ممارسات عديدة هي موضع النقد الشديد عند كثير من المؤرخين [٢] .. وكما تخلص من علي بن أبي طالب ــ كما يزعم المؤرخون ــ [٣] فعل مع منافسيه الآخرين حتى صفا له الجو فورث الخلافة لولده يزيد بن معاوية لتصبح ملكا يتوارث بعد أن كانت خلافة رحمة وشورى ..

ج) تاريخ الخلفاء والولاة:

تعرض تاريخ الخلفاء الأمويين لقدر كبير من التشويه ، ولم يسلم من ذلك أحد ؛ وإن علا قدره في مضمار السياسة أو العلم ..

وظفر معاوية بن أبي سفيان بحظ وافر من فيض المطاعن والاتهامات وكانت مواجهته علي ابن أبي طالب ــ بمكانته السامية عند المسلمين ــ سببا في ذيوع هذه الاتهامات وترسخها .. فوصفوا سياسته "بالميكيافيلية " وإرهاب الخصوم وإحياء النزعة القبلية وتخذيل المعارضة بشل الروح الثورية وبث روح الجبر والإرجاء [٤] ، وقتل الخصوم بالسم والدهاء ؛ فكل من مات ولم يعرف سبب وفاته اتهم معاوية بقتله ؛ وذكروا من ذلك موت الأشتر النخعي والحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص وغيرهم [٥] ، هذا علاوة على الاتهام القديم بتحويل مسيرة الأمة في الحكم وسلب حقها في اختيار خليفتها وجعل الخلافة ملكا هرقليا ، كلما مات هرقل قام هرقل [٦]..

---

[١] السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠ ، الإمامة والسياسة ٩٨/١ ، دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا ٤٥/١ ، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ص ١٦

[٢] ابن طباطبا : الفخري ص 91 – 93 ، راضي آل ياسين : صلح الحسن ص 57 ــ58 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 130 ، العقاد :عبقرية علي ص 81 ، عمر أبو النصر . الحسين بن علي ص 31ـــ32

[٣] الطبري : السابق 150/5 ــ 151

[٤] المراجع السابقة ، علي سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 229/2 بل شككوا في دينه ــ وهو كاتب الوحي ــ وزعموا أن الشافعي كان لا يقبل شهادة أربعة أحدهم معاوية : انظر أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر 186/1، وزعم الجاحظ أن معاوية خرج من حكم الفجار إلى حكم الكفار ، وهو قول عجيب أملته الخصومة المذهبية من رجل المعتزلة البارز ، أنظر رسالة في النابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ 12/2

[٥] الطبري : السابق ٩٥/٥-٩٦ ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٦٠ ، وانظر دحض ابن تيمية هذه الاتهامات في : منهاج السنة النبوية ٢٢٥/٢

[٦] محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص ١٥٨-١٥٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يقل نصيب يزيد بن معاوية من المطاعن عن نصيب أبيه ؛ إن لم يفقه ؛ ومشهور عنه ذلك الوصف بشرب الخمر والتفنن في ضروب اللهو والعبث [١]، وكما كانت حروب معاوية لعلى كرم الله وجهه سببا في اشتداد الحملة عليه كان مقتل الحسين بن على زمن يزيد بن معاوية سببا في إثارة قدر هائل من الكراهية والبغض له وبخاصة أن عصره شهد ثورة ابن الزبير وضرب الكعبة بالمجانيق وإنهاء ثورة أهل المدينة المنورة بعد اقتحامها بصورة مروعة حسبما يفصل هؤلاء الرواة والمؤرخون [٢]..

ولما مات يزيد وتولى بعده ابنه معاوية بن يزيد ـ وكان شابا زاهدا مشفقا من تبعات الموقف تنازل عن الخلافة ورد الأمر شورى إلى الأمة ، ولكن المؤرخين لم يغفلوا عن إلصاق سبب موته السريع بعد ذلك بعشيرته من الأمويين الذين زعموا أنهم دسوا له السم فقتلوه [٣] ..

واستطاع مروان بن الحكم أن يعيد للبيت الأموي وحدته ، ورد له سيطرته على الشام ومصر فوصفوه بعد موته بوضاعة النسب [٤]، وجعلوا وفاته ضربا من الشذوذ حيث خنقته امرأته بوسادتها حتى مات [٥] ..

وجاء بعده ابنه عبد الملك بن مروان ، فاستطاع بمواهبه الفذة إعادة توحيد الأمة تحت قيادته ، ولم يجد معارضوه في حياته سبيلا لتحقيق آمالهم ، فأظهروا تاريخه بعد انقضاء دولته مزيجا من الأخبار المضطربة والروايات المتناقضة ، فهو كريم ولكنهم يلقبونه رشح الحجر لبخله [٦] ؛ وهو مهيب ولكنهم يلقبونه بأبي الذبان لبخره ، ويزعمون أن الذباب كان لا يمر لذلك أمام فمه إلا مات لوقته [٧]؛ وهو فقيه عالم ، ولكنهم يجعلونه لما يأتيه خبر استخلافه يطبق المصحف في حجره ويقول هذا آخر العهد بك [٨]، ويزعمون أنه منع المسلمين بالشام من الحج أيام ابن الزبير وبنى لهم قبة الصخرة ليطوفوا حولها بدلا من الكعبة [٩] ..

---

[١] ابن الأثير : الكامل ٣/٣١٧-٣١٨ ، حيث يزعم أنه كان يشرب الخمر بحضرة الحسين بن علي ويدعوه لشربها معه !!

[٢] يصفه المسعودي بأنه كان يسير سيرة فرعون ؛ بل كان فرعون أعدل منه في رعيته ؛ وأفضل منه لخاصته وعامته (راجع : مروج الذهب ٣/٧٨)

[٣] المسعودى مروج الذهب 82/3

[٤] زعموا أن أمه كانت بغيا من ذوات الرايات : ابن طباطبا : الفخري ص 119

[٥] الطبري : السابق 5/610ـ611

[٦] ابن قتيبة : المعارف ص 105، القلقشندى : صبح الأعشى 477/5

[٧] النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب 98/21

[٨] السابق والصفحة

[٩] اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى 7/3

أما إنجازاته الحضارية مثل سك العملة والتعريب فنسبوها إلى أسباب تافهة أو جعلوا دواعيها دواعي شخصية [١] ..

وكذلك صنعوا مع الوليد بن عبد الملك الذي كان ذا نزعة معمارية واضحة ، فقد جعلوا مثلاً إعادة بنائه مسجد الرسول ﷺ بغية إزالة حجرات النبي كيلا يقيم بها أبناء فاطمة الزهراء [٢] ..

وصوّر المؤرخون سليمان بن عبد الملك حقوداً قاسياً عصبي المزاج ـ فقد عزل قادة الفتح العظام مثل قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير مدفوعا بعوامل شخصية [٣] ؛ وزعموا أنه كره رؤية المجذومين فأمر بحرقهم لولا شفاعة عمر بن عبد العزيز [٤] ؛ كما أسرفوا في الحديث عن نهمه وحبه الشديد للطعام [٥] ..

واتهموا عمر بن عبد العزيز ـ خامس الراشدين ـ بالسلفية والتزمت [٦] ، وبأن ممارساته السياسية عجلت بنهاية حكم أسرته [٧] ؛ وتمادى بعضهم فنسب إليه ما لا يليق ولا يصدقه عقل [٨] ، ووصفه أحد الكذابين بأنه أعور بين عميان .. منافق يدعي الورع [٩] !

وسطروا الأساطير عن يزيد بن عبد الملك وصوروه خليفة لاهياً عن مصالح دولته لاهثاً خلف جاريتيه ؛ ولما ماتت إحداهما رفض أن يدفنها وظل مقيما بجوارها يبكي حتى جيّفت ، ولما دفنوها عاد ينبشها من جديد [١٠] ..

---

[١] د. عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص 15ـ16 ، البيهقي : المحاسن والمساوى 1/ 467ـ469 حيث يزعم أن سك العملة كان بمشورة الإمام الباقر محمد بن علي زين العابدين بن الحسين ؛ وعلى هذا فلا فضل لعبد الملك بن مروان إلا التنفيذ لوصية الإمام !

[٢] ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص 68

[٣] د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي 331/1 ، د . وفاء محمد علي : سليمان بن عبد الملك وعهد تصفية الحسابات (مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي ص ٨٧٢-٣١٣ ، العدد ٨ سنة ١٤١٠/١٩٩٠)

[٤] فنفاهم بعد شفاعته إلى قرية معزولة (انظر اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي35/3)

[٥] المسعودى : مروج الذهب 155/3

[٦] فان فلوتن : السيطرة العربية ترجمة إبراهيم بيضون ص 115 ، د . بيضون :الدولة الأموية والمعارضة ص 34 ، د. حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص 279

[٧] فان فلوتن : السيطرة العربية 115ـ116

[٨] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي 7/3

[٩] ابن أبي الحديد · شرح نهج البلاغة 254/15 ، المقريزى : النزاع والتخاصم ص 16

[١٠] الأصفهاني الأغاني 147/13 ـ 158 القرماني : آثار الدول ص 141، ابن أبي الدم : التاريخ المظفري 302/1

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما هشام بن عبد الملك فحكوا الكثير عن بخله [١] ، وزعموا أنه أخذ يعلم ولده ذات يـــوم فجور قريش : قتل هذا وأخذ مال هذا [٢]..

وكان الوليد بن يزيد محوراً لكثير من التشويه التاريخي الذي رسم له صورة الشاعر العابث الذي لا يقيم وزناً لحرمات الدين ومقدسات المسلمين ، وينشد الأشعار التي يعلن فيها كفره البـــواح ، ويجعل المصحف غرضاً لسهامه في نوبة من نوبات الطيش والنزق [٣]، إلى غير ذلك مـــن خيـــالات كثيرة وأساطير مستطيلة ، يستهجن ذكرها ويحسن إغفالها [٤] ..

وظل حال الدولة بعده في الهيار، فقد ثار عليه أهله وجنده فقتلوه وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي لم يطل عهده فولي بعده أخوه إبراهيم بن الوليد فلم يستقم له الأمر حتى جاء مـروان " الحمار " كما يلقبه المؤرخون فحاول رد العافية إلى الجسد العليل ؛ فلم يفلح أمره ، واستمر حكمـه في تضعضع وثورات حتى قامت دولة العباسيين !

ولاة الأمويين :

يمتاز التاريخ الأموي ببروز عديد من شخصيات الولاة الذين تركوا بصماقم واضحة على أحداث ذلك العصر ، وإن عدداً من الأسماء المثيرة للجدل مثل عمرو بن العاص والمغيرة بن شـــعبة وزياد بن أبيه وعبيد الله ابنه والحجاج بن يوسف وخالد القسري وغيرهم لجدير بأن يلفـــت انتبـــاه المؤرخين فيقفوا عندهم طويلاً ، ويتلوّن تاريخهم لهم بألوان شتى من الإعجاب آو الحيرة آو البغـــض الشديد .. وكما نلحظ دائما في التاريخ الأموي توارت الروايات التي تشيد بهؤلاء الرجال فلا تظـهر إلا على استحياء ، وتوزعت الصورة النهائية لهم بين الحديث عن " دهاء" هؤلاء الولاة والحديث عـن " قسوتهم وجبروتهم " واستهتارهم بحرمات الدين !

فوصف المؤرخون عمرو بن العاص بالدهاء الذي يكاد يكون مرادفاً لمعاني النفعية السياسية، فقد كان ـــ فيما يرون ـــ من المحرضين على عثمان ثم تحالف مع معاوية بن أبي سفيان للطلب بدمه [٥]، ووصفوا هذا التحالف بين الصحابيين الجليلين بأنه " تحالف الصبيـــــة الأشـــقياء " [٦]، وأســـرفوا في

---

[١] الطبري : السابق 204/7 ـــ 205 ، المسعودى : مروج الذهب 222/3

[٢] ابن عبد ربه : العقد الفريد 448/4

[٣] المسعودى : السابق 228/3ـــ229 ، ابن طباطبا : الفخري ص 134 ، ابن أعثم الكوفي : الفتـــوح 137/8 ـــ 140 ، اليعقوبي : السابق 62/3 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 460/4

[٤] الأصفهاني : الأغاني 60/7 ، ص 19 171ـــ172 ، المسعودى : السابق 228/3

[٥] فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 130 ، راضى آل ياسين صلح الحسن هامش ص 227 ، العقاد : معاوية بن أبي سفيان في الميزان ص 100

[٦] د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص 83

الحديث عن دهاء عمرو الذي أنقذه من الموت في صفين بطريقة لا تليق [١]، لينقذ معه معاوية من الهزيمة المحققة بخدعة التحكيم ، فظفر بعد قليل بولاية مصر طعمة جزاء له على خدماته الكبيرة [٢] ..

واتهموا المغيرة بن شعبة بالكذب والاستغلال [٣] والسخرية بأحكام الدين [٤] ، وزعموا أنه كان وراء استخلاف معاوية لابنه يزيد كي يضمن استمرار ولايته على العراق [٥] .

وتحدثوا كثيرا عن استلحاق معاوية زياد بن أبيه وكيف تحكمت رغبة معاوية في ضم زياد إليه والإفادة من ذكائه وخبراته في إتمام هذا الاستلحاق [٦] ..

أما الحجاج بن يوسف فأحاطته أجواء الدعاية بغيوم ملبدة من يوم أن ولد حتى مات ! .. فكان مولده في جو دموي نسجته أسطورة تزعم انه ولد مشوها لا دبر له ؛ وأنه أبي أن يقبل ثدي أمه أو غيرها حتى تمثل لهم الشيطان في صورة الحارث بن كلدة فوصف لهم أن يذبحوا ذبائح ويولغوه دمها ثلاثة أيام فسوف يقبل الثدي في اليوم الرابع [٧]، وخرجوا بقسوة الحجاج المعروفة عن حدود المعقول ؛ فزعموا أنه قتل في يوم واحد في مسجد البصرة سبعين ألفا ، وأنه قتل صبرا مائة وعشرين ألفا ؛ سوى من قتل في معاركه وحروبه ، وانه مات في سجنه ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهم ست عشرة ألفا مجردة [٨] ، وأنه — فيما يزعمون — صلب ابن الزبير لما هزمه بعد أن سلخ جلده وحشاه تبنا [٩] !!

---

[١] الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة 107/1 ، البيهقي : المحاسن والمساوئ 1/ 53 حيث يزعمان أنه بارز عليا فلما علاه علي بالسيف وأدرك أنه مقتول سقط عن فرسه وتلقى عليا بعورته فاستحيا وتركه ..

[٢] راضي آل ياسين : صلح الحسن هامش ص 227

[٣] فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 111

[٤] الطبري السابق 160/5 — 161 ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ 202/3

[٥] الإمامة والسياسة 165/1

[٦] انظر أبا الفدا : المختصر في تاريخ البشر 186/1

[٧] المسعودي : مروج الذهب 132/3 ، ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب 107/1 ،العيني : عقد الجمان 401/11

[٨] الإمامة والسياسة 32/2—33 ، المسعودي : مروج الذهب 175/3

[٩] ابن الأثير : الكامل في التاريخ 27/4 — بل يزعمون أنه صلبه سنة حتى عشش فيه الحمام والفرخ وعندما تسلمته أمه تقطع ثم تماسك وأنها حاضت آنذاك — وهي في حوالي التسعين من العمر — ونزل اللبن من ثديها ؛ فقالت :" قد حنت إليه مواضعه ، ودرت عليه مراضعه ". الكتبي فوات الوفيات 212/1

أما عن دينه فقد أخرجه بعضهم من حظيرة الإسلام ، واقمه بالكفر ، وما الظن برجل يرمونه بالتطاول على أنبياء الله ؛ فضلا عن أوليائه [١]..

وجاء خالد بن عبد الله القسري ــ أمير الحجاز ثم العراق ــ في إبان انبعاث العصبية القبلية بين المضرية واليمنية فجاء تاريخه مهلهلا ، فشكك المؤرخون في نسبه ؛ وحاول بعضهم نفيه من قبيلته " قسر" ورده إلى يهود تيماء [٢] ، وشككوا في أخلاقه فاقموه بالتخنث واللهو، ثم رموه بالزندقة والتطاول على أنبياء الله وأوليائه [٣]، وكانت أمه نصرانية فكان ــ فيما يزعمون ــ يولي النصارى والمجوس على المسلمين ، وكانوا يشترون الجواري المسلمات ويطئوهن فيطلق ذلك لهم ولا يغير عليهم [٤] ، وهكذا قدموا تاريخ هؤلاء الولاة في صورة كريهة تنطق بالتحامل والعداء ..

د) تصوير المؤرخين نظام الحكم والمجتمع في العصر الأموي:

صور كثير من المؤرخين الحكم الأموي بأنه كان حكم استبداد وسفك دماء وإرهاب في مناخ مشبع بالخوف بواسطة طبقة من الأرستقراطية القرشية [٥] ووصفوه بأنه الحكم الذي جوع الشعب المسلم وصرف أمواله في الملذات والرشا وشراء الضمائر وقمع حركات التحرر واكتنز الأموال بالقهر والعسف [٦].. واقموه بالفساد الخلقي وشيوع الانحلال والعبث [٧]، والعودة إلى روح الجاهلية بأحقادها وصراعاتها القبلية [٨]، وانعكس أثر ذلك على المجتمع والشعب الذي سرت فيه

---

[١] المسعودي : السابق ١٥١/٣ ، حيث يزعم أنه وصف سليمان عليه السلام بالحسد والبخل ، بينما يناقض نفسه فينقل عنه قبل ذلك بصفحة واحدة وصفه إياه بالعبد الصالح !!

[٢] الأصفهاني : الأغاني ١٧/٢٢-١٨

[٣] السابق ٢٢-١٥-١٧ ، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٣٢/٢

[٤] الأغاني 16/22

[٥] د. حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي 331/1 ، النظم الإسلامية 23 ، إبراهيم بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية ص 248 ، الدولة الأموية والمعارضة ص 24

[٦] محمد مهدى شمس الدين : ثورة الحسين ص 177 ، جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 87/4 ، 89

[٧] حيث زعموا شيوع قصص الحب العذري والصريح في ذلك العهد (انظر لتفنيد ذلك محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 42/4ــ43) حتى اعتبر بعضهم موسم الحج موسما للشعر والغناء ، ومعرضا إسلاميا للجمال (انظر طه حسين :حديث الأربعاء 292/1 ــ 293)

[٨] د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٢٨٤ ، د. محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام

السلبية والجهل والاستخفاف بالدين [١]، حتى أصبح بعض أشياخهم وأهل النعمة والرياسة فيهم لا يعرفون أهل بيت نبيهم فيما يزعم هؤلاء المؤرخون [٢]..

هـ) الفتوحات الإسلامية في عصر بني أمية وأحوال الموالي:

امتدت الفتوحات الإسلامية في عهد الأمويين لتشمل ما بين حدود الصين في أقصى الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في أقصى الغرب؛ وما بين النوبة في الجنوب إلى أراضى آسيا الصغرى وتهديد القسطنطينية ــ عاصمة البيزنطيين العتيدة ــ في أقصى الشمال وحصارها عدة مرات[٣].

لكن بعض المؤرخين وجدوا في هذه المفاخر وسائل للهجوم أيضا فصوروا التقدم الإسلامي والفتوحات بأنها كانت " احتلالا مسلحا يذكرنا بالاحتلال الروماني قديما والاحتلال الإنجليزي حديثا [٤]، وعلى ذلك فلا يصح اعتباره تلاحما بين جنس وآخر أو انتصارا روحيا لدعوة ما [٥]، بل جعلوه صورة لشعب يعيش عالة على شعب آخر[٦]، وجعلوا الهدف من هذه الفتوحات العظيمة التغلب وحشد الأموال [٧]، ورآها آخرون أحيانا حملات للإرهاب وقطع الطريق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام [٨] ..

ونعى كثير من المؤرخين حال الموالي وما تعرضوا له من ظلم على يد الأمويين على ما يتصور هؤلاء ، فزعموا أن نظرة الأمويين إلى الشعوب المغلوبة كانت نظرة السيد للمسود ، ونظرة الاحتقار والازدراء [٩].

---

[١] فكانوا لا يفرقون بين الجمل والناقة في دمشق (انظر : المسعودى : مروج الذهب ٣/ ٤١) ويصلي بهم معاوية ــ فيما يزعمون ــ الجمعة يوم الأربعاء (المسعودى : السابق والصفحة) ويتناول بعض أمرائهم الطعام على منبر الرسول ﷺ بالمدينة فيما يزعم صاحب الإمامة والسياسة (٢/ ١٧ــ١٨) !!

[٢] المسعودى : السابق ٣/ ٤٢ــ٤٤

[٣] سيأتي حديث اكثر تفصيلا عن الفتوح في الجزء الثاني .

[٤] سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ٧٣

[٥] فان فلوتن : السيطرة العربية ، ترجمة بيضون ص ٧٧

[٦] السابق ص 78

[٧] جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤/ ٩٣

[٨] فلوتن . السابق ٨١

[٩] د حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي 542/1 ، وانظر ص ٣٤٩

و) موقف الأمويين من حركات المعارضة :

واجه الأمويون عديدا من حركات المعارضين لهم كالشيعة والخوارج والزبيريين والموالى ، وكان كثير من هذه المواجهات عنيفا ، أريقت فيه الدماء ، وبددت فيه طاقات الأمة .. والاتجاه العام لتناول المؤرخين لهذا المبحث يتجه إلى وجهتين :

١ ـــ تمجيد الحركات المعارضة للأمويين فكرا وقيادة :

فيصور بعض المؤرخين حركات المعارضة على أنها حركات تقدمية ضد السلطة الطاغية ؛ فالتشيع ـــ كظاهرة سياسية ـــ يرمي إلى معارضة السلطة الجائرة عبر ثورة إصلاحية [١]، والخوارج شكلوا حزبا سياسيا يتبنى العدالة الاجتماعية كما نادى بها الإسلام [٢]، وثورات الموالي كانت بسبب الظلم الذي تعرضوا له من الأمويين ذوي النظرة العصبية الضيقة [٣] ، أما العباسيون الذين ظفروا ببني أمية في نهاية الأمر فقد كانت دولتهم هي "الدولة المباركة" [٤] ، وهي التي أنقذت المسلمين من دولة الأمويين التي كانت على ما يصف ابن طباطبا "مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة ؛ ثقيلة الوطأة ، مستهترة بالمعاصي والقبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون دولة بني العباس صباح مساء [٥] !

وقادة المعارضة كانوا ـــ كما يصورهم المؤرخون ـــ أطهارا حواريين بخلاف بني أمية .. وتعدت محاولات تمجيد معارضي الأمويين مجال الرواية التاريخية إلى محاولة وضع الأحاديث النبوية لتمجيدهم ، وقد تتبع ابن الجوزي في كتابه " الموضوعات " ـــ الذي أوضح فيه كثيرا من الأحاديث الموضوعة ـــ بعض هذه المحاولات ، ويظهر منها أنهم جعلوا الحسن والحسين رضي الله عنهما إمامين معصومين شأن أئمة الشيعة ، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ نعيه الحسين ولعنه قاتله [٦] ، وزعموا أن الله تعالى أوحى إلى رسوله أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا ، وأني قاتل بابن بنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا [٧] ..!!

---

[١] د. بيضون : الدولة الأموية والمعارضة ص 47

[٢] د. محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام ص 15

[٣] فلوتن : السيطرة العربية 113 ، 222

[٤] البلاذري : فتوح البلدان ص 147

[٥] ابن طباطبا : الفخري ص 143

[٦] ابن الجوزى : الموضوعات 409/1

[٧] نفسه 408/1

أما عبد الله بن الزبير ؛ فقد كان معروفا بكثرة عبادته ، غير أن بعض المؤرخين يبـــالغ في ذلك فيجعله قد قسم دهره على ثلاث أحوال : فليلة قائما حتى يصبح ، وليلة راكعا حتى يصبـــح ، وليلة ساجدا حتى يصبح [١] ، وزعموا أنه مكث أربعين سنة لم ينزع ثوبه عن ظهره [٢] ..

ونال العباسيون مزيدا من التمجيد لجدهم العباس بن عبد المطلب فنسبوا إليه وإلى ولـــده من الفضائل الكثير ، وأسبغوا المشروعية ــ على لسان النبي ﷺ ــ على ثورتهم ؛ فقد جعلوا العباس وصي النبي ﷺ ووارثه ورفيقه في الجنة [٣]، ونسبوا إلى الرسول ﷺ قوله ــ فيما يزعمون أنه رواه عن ربه ــ : " إذا سكن بنوك السواد ولبسوا السداد وكان شيعتهم أهل خراسان لم يزل الأمر فيهم حتى يدفعوه إلى عيسى بن مريم" [٤] ..

٢- تجريم المواجهة الأموية لحركات المعارضة :

ومواجهة الأمويين للمعارضة ــ في تصور هؤلاء المؤرخين ــ تتسم بالقسوة والوحشـــية ، ويجدر دراسة أسباب هذه القسوة في داخل نفوس بني أمية وخلفياتهم الجاهلية ، فيما يـــرى هـــؤلاء المؤرخون ، لا من خلال الممارسات السياسية للمرحلة والمعطيات التاريخية الخاصة لعصرهم .

فيزعمون أن تلك الروح الجاهلية والثأر لأجداد الأمويين الصرعـــى في معاركـــهم ضـــد الإسلام قبل الفتح ، كانت وراء عنف مواجهتهم لثورة الحسين حتى إن مروان بن الحكم لما أتته رأس الحسين رمى بها نحو قبر النبي عليه السلام ـــ كما يزعم بعض المؤرخين ــ وهو يقول : يا محمد ؛ يوم بيوم بدر" [٥] .. وأنه لما قتل الحسين هتف يزيد بن معاوية فيما يزعمون قائلا :

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل [٦]

وادعى بعض المؤرخين أن الأمويين استباحوا المدينة المنورة في موقعة الحرة في خلافة يزيـــد ثأرا من أهلها الذين قاتلوا الأمويين في بدر وأحد وغيرهما [٧]..

إلى غير ذلك من مبالغات وأغاليط سوف نعرض لبعضها عند الحديث عن هذه الثورات ..

---

[١] النويرى نهاية الأرب 143/21

[٢] السابق : 145/21

[٣] ابن الجوزى : الموضوعات 31/2 ــ 32

[٤] السابق والصفحة

[٥] ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 72/4

[٦] ابن عبد ربه العقد الفريد ٣٩٠/٤

[٧] د طه حسين الفتنة الكبرى 226/2 ، د. بيضون الحجاز والدولة الإسلامية 207 208

ز) دور بعض كتب التفسير والحديث في تحريف التاريخ الأموي:

لعبت كتب التفسير والحديث دورا مهما في تحريف التاريخ الأموي ؛ وقام رواة الفرق الإسلامية خاصة الشيعة ببث أفكارهم وتصوراتهم في هذا المجال [١]، والحقيقة أن هذه الجهود لم يستشر خطرها ــ مثلما حدث في روايات التاريخ ــ وذلك لأن العلماء المسلمين قد تعقبوا محاولات الكذب في التفسير والحديث منذ عصر مبكر ، فنبهوا إليها وحذروا منها ؛ فانكشف أمرها ، وقل خطرها ..

فقد عقد السيوطي فصلين في كتابه " تاريخ الخلفاء " يتضح فيهما إلى أي مدى تسرب الطعن ضد بني أمية إلى الحديث الشريف الذي بذل علماء الأمة جهودا مضنية في صيانته وحفظه .. أما الفصل الأول فتحت عنوان : " فصل في الأحاديث المنذرة بخلافة بني أمية " وأما الفصل الثاني فتحت عنوان : " فصل في الأحاديث المبشرة بخلافة بني العباس".

وجاء في الفصل الأول عدة أحاديث منها : قال رجل للحسن بن علي لما صالح معاوية بن أبي سفيان :" سودت وجوه المؤمنين ، فقال : لا تؤنبني رحمك الله ؛ فإن النبي ﷺ رأى بني أمية على منبره فساءه ذلك ، فنزلت : إنا أعطيناك الكوثر " ونزلت : " إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر " يملكها بنو أمية بعدك يا محمد [٢] .. وروى ابن جرير الطبري في تفسيره : " رأى رسول الله ﷺ بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكا حتى مات ، وانزل الله في ذلك " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس " [٣] .. وجاء في الفصل الثاني عدة أحاديث تمتدح العباس وبنيه وتبشر باستمرار خلافتهم حتى نهاية العالم [٤] ..

---

[١] انظر . ابن رستة الأعلاق النفسية ص 65 ، الكليني : الكافي 424/1 ، وانظر مبحث " موقف الشيعة من القرآن وأدلة اعتقادهم تحريفه " في كتاب الشيعة والسنة لاحسان إلهي ظهير ص 57 وما بعدها .. وابن حزم الظاهري : الفصل في الملل والأهواء والنحل 146/4 ، وراجع : ناهد عبد المجيد : مسائل الخلاف الفقهي بين الشيعة الإمامية وأهل السنة ، فصل بعنوان :رأي الشيعة في تحريف القرآن ص ٧٢-١٠٦

[٢] ابن الأثير الكامل في التاريخ 204/3 ، وقال ابن كثير في البداية والنهاية 19/8 : حديث غريب ، بل منكر جدا

[٣] سورة الإسراء من آية ١٧ ، وراجع الطبري : جامع البيان ١٤/ ٧٥-٧٩ ، الشوكاني : فتح القدير ٢٣٠/٣

[٤] السيوطي13ـــ15 ، ومما يستغرب لجوء السيوطي إلى رواية هذه الأحاديث مع علمه بحقيقة وضعها ؛ ولكن ذلك الاستغراب يقل حين نعرف مدى عمق الصلة بين السيوطي والخليفة العباسي المتوكل في القاهرة ؛ حتى لقد كتب له رسالة بعنوان " الأساس في مناقب بني العباس " ؛ جمع فيها بناء على طلب الخليفة أربعين حديثا نبويا في فضائل بني العباس ؛ ولا ريب أن معظمها أحاديث موضوعة مثل التي مضى ذكرها (راجع هذه الرسالة وهي مخطوطة في المكتبة الأزهرية تحت رقم ٤٠٢٢ تاريخ ، وراجع عن صلات السيوطي بهذا الخليفة العباسي مقال د. حسنين ربيع : منهج

وهذه الأحاديث ــ كما هو واضح ــ ظاهرة الوضع ؛ وقد نبه السيوطي نفسه إلى ذلك عند سرد بعضها ...

وربما تتبع الوضاعون خلفاء بني أمية واحدا واحدا يضعون في ذمهم الأحاديث ؛ وقد ظفر معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد بحظ وافر منها .. فمما وضعوا في معاوية حديث " إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري هذا فاقتلوه" [١]، وحديث " لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمة على واسع السرم ، ضخم البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر ، ولا في الأرض ناصر ، وإنه لمعاوية ، وإني عرفت أن الله بالغ أمره" [٢] ..

وقد يجمعون معاوية مع عمرو بن العاص أحيانا ، مثل زعمهم أنه ﷺ سمعهما يتغنيان فقال " اللهم اركسهما في الفتنة ركسا ، اللهم دعهما في النار دعا " [٣] ، كما يجمعون معاوية وابنه يزيد في مثل زعمهم أنه ﷺ قال : " يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي ، فطلع معاوية ، وقام النبي ﷺ خطيبا : فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة ، فقال النبي ﷺ :" لعن الله القائد والمقود ، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة" [٤] ، كما نسبوا إلى الرسول ﷺ حديثا يقول : " لا بارك الله في يزيد الطعان اللعان ، أما إنه نعي إلى حبيبي حسين ، وأتيت بتربته ، وأريت قاتله ، أما إنه لا يقتل بين ظهراني قوم ولا ينصروه إلا عمهم الله بعقاب [٥]، وقالوا إنه ﷺ قال " لا يزال أمر أمتي قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد " [٦] ..

وكما ذكروا اسم يزيد هذا لعله يصلح لابن معاوية أو لابن عبد الملك أو لابن الوليد ، أو لهم جميعا ، فقد ذكروا اسم الوليد في هذا الحديث الموضوع : " ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له

السيوطي في كتابة التاريخ ، ضمن كتاب : جلال الدين السيوطي ص ٥١-٥٢ ، و د. الخربوطلي : دراسات نقدية وتحليلية لكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي ، مقال ضمن المرجع السابق ص ١٦٤)

[١] ابن الجوزي : الموضوعات 24/2ــ26 ، السيوطي : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٢٢٠-٢٢١

[٢] الأصفهاني مقاتل الطالبيين 76 وقال الذهبي في منهاج الاعتدال : سفيان (راوي الخبر) مجهول والخبر منكر ..

[٣] ابن الجوزي الموضوعات 28/2 : السيوطي : اللآلئ المصنوعة ٢٢١/١-٢٢٢

[٤] ابن تيمية : منهاج الاعتدال (اختصره) الحافظ الذهبي ص 258 ــ 259

[٥] قال ابن الجوزي في الموضوعات 46/2 : هذا الحديث موضوع بلا شك ...

[٦] السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 139 ، ابن طولون : قيد الشريد في أخبار يزيد ص 36ــ37 ، ورواه البخاري في التاريخ الكبير وقال حديث معلول وانظر الهيثمي مجمع الزوائد٢٤١/٥-٢٤٢

الوليد ؛ لهو شر على هذه الأمة من فرعون لقومه " [١] ؛ لعله ينطبق على الوليد بن عبـــد الملـــك أو الوليد بن يزيد أو عليهما جميعا [٢] ..

هذا ناهيك عن وضع أحاديث كثيرة في فضائل على بن أبي طالب [٣] والحسن والحســين [٤] والعباس بن عبد المطلب [٥] وعلى بن الحسين بن علي[٦]، وفى كثير منها يقـــذف بـــني أميـــة بأشـــنع الأوصاف [٧] ..

---

[١] ابن الجوزي : الموضوعات 46/2

[٢] وقد ذهب ابن الجوزي آلي هذا الظن بالفعل ،فقال:"فإن صحت هذه الرواية ودلت على ثبوت الحديث ؛ فـالوليد ابن يزيد أولى به لأنه كان مشهورا بالإلحاد ، مبارزا بالعناد " (الموضوعات ٢/47)

[٣] ابن الجوزي :السابق 338/1ـ339،347ـ350 ،355 ـ 370

[٤] ابن الجوزي : السابق 405/1 ـ409

[٥] السابق 30/2ـ39

[٦] السابق 44/2 ـ 45

[٧] السابق 371/1، 409، 12/2

الفصل الأول

أدلة تحريف التاريخ الأموي وأسباب ذلك التحريف

المبحث الأول : أدلة تحريف التاريخ الأموي

رأينا فيما مضى أمثلة لتلك الروايات التاريخية آلتي تشم منها رائحة الوضع والمبالغة والاختلاق ، ويتضح منها مدى التحامل الذي تعرض له بنو أمية عند تدوين تاريخهم .. كما مرت بنا أمثلة أخرى لمحاولات تشويه تاريخ الأمويين بالكذب والدس في بعض كتب التفسير وبعض الأحاديث الشريفة ؛ على ما في ذلك من خطورة عظمى لما للقرآن والحديث من مكانة خاصة عند المسلمين ،مما دفع بجمهرة من علماء الأمة إلى التصدي لهذه المحاولات وكشف زيفها وتعقب أصحابها.

وإذا كان الله تعالى قد قيض للحديث الشريف من يكشف صحيحه من ضعيفه وموضوعه، لما له من أهمية تشريعية خاصة فإن طبيعة علم التاريخ واتساع مجاله وتعدد عصوره وفيض رواياته قد وقفت حائلا دون تتبع كل محاولات التحريف والكذب فيه ، على اتساع مصادره وتنوعها .. ورغم ذلك فقد ظلت هناك أدلة متعددة على حدوث تحريف كبير للتاريخ الإسلامي بوجه عام والتاريخ الأموي ــ الذي هو جزء منه ــ على نحو خاص ... ومن هذه الأدلة :

أولا : إثبات بعض المؤرخين القدماء حدوث التحريف في التاريخ الإسلامي وتحذيرهم منه :

لقد تنبه بعض كبار مؤرخينا القدماء إلى شيوع الوضع في الرواية التاريخية إلى درجة أن هؤلاء المؤرخين لم يجدوا بدا من ذكر هذه الأخبار الموضوعة لشيوعها أحيانا ولكيلا يتهمهم أحد بجهل شيء ذكره آخرون ، أو لأنهم كانوا يعتبرون من الأمانة العلمية أن يذكر أحدهم كل ما يروى له ، واتجه فريق آخر منهم إلى الانتقاء من هذا الركام الكبير فاختار ما صح عنده ونبه إلى زيف كثير مما عداه .. فيقول شيخ مؤرخينا القدماء ابن جرير الطبري في مقدمة كتابة " تاريخ الرسل والملوك " : " فما في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا " [1] .. ويروى أبو الفرج الأصفهاني ما يعتبره من الأكاذيب وبينه إليه أحيانا فيقول

---

[1] الطبري : السابق 8/1

: "…. وهذا من أكاذيب ابن الكلبي ، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه" [١] ..

هذا بينما ينتقي ابن الأثير بعض الروايات ويهمل بعضها ويقول في سبب ذلك : " لم أذكر في موقعة الجمل إلا ما ذكره أبو جعفر(يعنى الطبري) إذ كان أوثق من نقل التاريخ ، فان الناس قد حشدوا تواريخهم بمقتضى الأهواء " [٢] .. ويشن ابن العربي حملة عنيفة على أهل الأهواء من المؤرخين ولا يثق إلا برواية أهل الحديث الذين يتفحصون رواياقم ويميزون بين غثها وسمينها، فيقول :" ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث، ولا تسمعوا كلاما لمؤرخ إلا للطبري [٣] وغير ذلك هو الموت الأحمر والخطر الأكبر ، فإنهم ينشئون أحاديث استحقار الصحابة والسلف والاستخفاف بهم ، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم ،… فإذا قاطعتم أهل الباطن واقتصرتم على رواية العدول سلمتم من هذه الحبائل " [٤] .. ويحذر ابن خلدون من قبول الروايات الموضوعة في حق الصحابة والتابعين ، فيقول :" فكثيرا ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم ، أكثرها من أهل الأهواء " [٥] ، ولا يكتفي ابن خلدون بذلك بل يتوقف بحسه التاريخي الواعي لدراسة هذه الظاهرة وشرح عللها وأسبابها [٦] ..

ثانيا : شيوع الكذب على الأمويين في دولتهم وبعد زوالها :

في أيام دولتهم تعرض الأمويون لعداء عديد من الفرق الإسلامية ـ كما سيأتي بيانه ـ فحاول بعض أنصارها تشويه صورة رجال هذه الدولة أثناء وجودها وبعد زوالها …

من ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني من أنه لما تزوج خالد بن يزيد بن معاوية رملة بنت الزبير بن العوام أنشد فيها أبياتا من الشعر تقول:

أحب بني العوام طرا لحبها … ومن حبها أحببت أخوالها كلبا ..

فتلقف بعض خصوم الأمويين هذه الأبيات وزاد فيها ..

فإن تسلمي نسلم ، وإن تتنصري … يخط رجال بين أعينهم صلبا

---

[١] الأغاني 40/10 ، 182/18

[٢] الكامل في التاريخ 25/4

[3] بسبب ذكره أسانيد رواياته فيبين منها أصحاب الصدق أو الكذب من الرواة ..

[٤] العواصم من القواصم 260ـ261

[٥] العبر 188/2

[٦] راجع : المقدمة 35/1

فلما سمع عبد الملك بن مروان هذا الشعر قال لخالد : تنصرت يا خالد ؟ فقال : وما ذاك ؟ فأنشده هذا البيت ، فقال خالد : على من قاله ومن نحلنيه لعنة الله [1] ..

وقد يكون الخوف من بني أمية حال أحيانا دون التمادي في صنع الروايات ضدهم ، فلما ذهبت دولتهم اتسع نطاق الكذب عليهم ، حتى أصبح الكذابون يقدمون قصصا مخترعة بكاملها ؛ فقد ذكر الأصفهاني أيضا أنه قد وقع فخار بين رجل من زنادقة الشعوبية ورجل من ولد الوليد بن عبد الملك ــ وذلك في دولة بني العباس ــ خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة ، فوضع الشعوبي عليهم كتابا زعم فيه أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك عشقت الشاعر وضاح اليمن ، فكانت تدخله صندوقا عندها إن خافت عليه أن ينكشف أمره ، فوقف على ذلك خادم للوليد فأنهاه إليه ، وأراه الصندوق فأخذه الوليد فدفنه ودفن الشاعر فيه حيا [2] ـ وسوف يأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن دور الفرق الإسلامية في الكذب على الأمويين ـ

ثالثا : كتب ضائعة في فضائل بني أمية :

حكمت دولة بني أمية المسلمين أكثر من تسعين سنة ، وكان لهم في هذه المدة دعاة وأولياء وحواريون من مؤرخين وفقهاء ومتأدبين وشعراء ، وعلى ذلك فمن البدهي أن نفترض أنه كان هنالك نتاج ضخم من الكتابات لصالح بني أمية ودولتهم ، لم يأخذ حظه من العناية والتدوين ، أو من النشر والإذاعة ، أو تعرض عمدا للإضاعة والإخفاء ؛ ويذكر المسعودى ما يعزز هذا الافتراض بقوله : " فقد رأينا بعض المتأخرين ممن ينحرف عن الهاشميين ــ الطالبيين منهم والعباسيين ــ ويتحيز إلى الأمويين ويقول بإمامتهم ، ويذكر أنه كانت لمن ملك من بني أمية ألقاب كألقاب خلفاء العباسيين" [3] ، ويقول في موضع أخر :" ورأيت في سنة 324 بمدينة طبرية من بلاد الأردن من أرض الشام عند بعض موالي بني أمية ــ ممن ينتحل العلم والأدب ، ويتحيز إلى العثمانية ــ كتابا فيه نحو من ثلاثمائة ورقة بخط مجموع مترجم بكتاب " البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوي من فضائلهم ، أبواب مترجمة ، ودلائل مفصلة " [4] ..

وإن ضياع هذه الكتب وهذه الروايات التي لابد أن هؤلاء المتأخرين المنحرفين عن الهاشميين والموالين لبني أمية كانوا يتناقلونها ويحتجون بها ، إن ضياع هذه الثروة يجعلنا نتساءل بشغف عن

---

[1] الأغاني 260/17 ـ 261

[2] السابق 211/6

[3] التنبيه والإشراف ص 289ـ 290

[4] السابق 291

الظروف التي صاحبت عصر التدوين الأموي لدولة بني أمية ، والمؤثرات أو العوامل التي أثرت فيه .. وهو ما سنتناوله في المبحث التالي ...

المبحث الثاني : أسباب تحريف التاريخ الأموي

شاع عند كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين أن تدوين العلوم الإسلامية ومنها التاريخ ـ قد بدأ في العصر العباسي ، وأن هذه العلوم كانت قبل ذلك تنتقل بواسطة الرواية الشفهية من راو إلى آخر ، ومن جيل إلى آخر [1]، غير أن دراسات حديثة أثبتت أن بدايات التدوين ترتد إلى ما قبل العصر العباسي بكثير ، وأن بعض الآثار المكتوبة وجدت منذ عصر الرسول ﷺ وصحابته ، الذين أخذ عنهم جيل التابعين [2] ؛ ولكن من المرجح أن هذه الآثار المكتوبة ظلت محدودة ، وأنها كانت تمثل مذكرات يستعين بها الرواة والعلماء الذين ظلوا يعتمدون على الرواية الشفهية كدلالة على سعة العلم وعلو الشأن ، وينظرون بتوجس إلى احتمالات التحريف والتصحيف في الآثار المكتوبة .. وأن تدوين العلوم لم يصبح ظاهره واسعة مشتهرة يقر بها العلماء والمريدون إلا في العصر العباسي؛ وإن كان ذلك لم يحدث فجأة ، وإنما سبقته مراحل طويلة من الكتابة ..

وقد وجدت عدة عوامل أحاطت بذلك التدوين التاريخي في طوره التمهيدي الباكر قبل العصر العباسي ، وفي طوره النشط الذي أصبح فيه ظاهرة عامة زمن العباسيين ... وبعض هذه العوامل أثر تأثيرا كبيرا على تحريف التاريخ الأموي بما يستدعي وقفة تفصيلية نذكر فيها بعض هذه العوامل وكيفية تأثيرها ..

أولا : ضياع معظم النتاج التاريخي الباكر :

لقد ضاع كثير من ذلك الجهد التاريخي الباكر والضخم الذي بذله علماء القرن الأول للإسلام ، وما أكثرهم ، فلم يصلنا منه شيء ذو بال إلا ما حفظه لنا المؤرخون المتأخرون ونسبوه إلى أصحابه ، فحفظوا لنا قائمة كبيرة من أسماء العلماء والرواة ، الذين ـ لولا هذه الاقتباسات ـ لم تكن سنعرف عن جهودهم الكثير .. ومن المؤكد أن كثيرا من ذلك النتاج التاريخي كان سينصف بني أمية ، وسيلقى مزيدا من الضوء على تاريخهم ، وسيعطي وجهات نظر محايدة عنهم ، أو مؤيدة

---

[1] حاجي خليفة : كشف الظنون 26/1 ، الغزالي : إحياء علوم الدين 97/1 ، الذهبي : تذكرة الحفاظ 151/1 ، 229

[2] ممن اهتموا بتقرير ذلك فؤاد سزكين في كتابه : تاريخ التراث العربي ، وعثمان موافي : منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي ص 53ـ55

لهم، إذ إن معظمه إنما كتب في عهدهم ، وبيد بعض رجالهم ، أو علمائهم المقربين منهم والخبيرين بهم ، وبعض هذا النتاج كان لبعض الخلفاء والولاة فضل فيه وفي إتمامه ، كما سوف نعرف حين يأتي الحديث عن دور الأمويين في نهضة العلوم الإسلامية ، كما ضاعت جل الوثائق السياسية لذلك العصر، بما تحمل من دلالات قوية على سير الحياة فيه من وجهة نظر حكومية أو إدارية .

وقد ساعدت عدة أسباب على ضياع ذلك التاريخ ، منها نظرة العلماء آنذاك إلى الآثار المكتوبة كعامل مساعد على التذكرة والحفظ ؛ غير أنه لا يصح أن يعول عليها بشكل أساس في التعليم وحلقات الدرس ، وذلك لتخوفهم مما يعرض للكتابة من تغيير وتبديل أو نسخ وإزالة أو تحريف وتصحيف ، فكان شعارهم " لا يفتي الناس صحفي ولا يقرئهم مصحفي " ، وكان من منهجهم " لا تأخذوا العلم من الصحفيين " [1] ..

ومن أسباب ضياع هذه الآثار قيام كثير من الثورات التي أكلت كثيرا من التراث المعارض لها وسط مظاهر الغضب الجامح ، مثلما حدث بقيام الثورة العباسية ، ثم قيام الدويلات المستقلة عنها ، مما أتلف كثيرا من الوثائق السياسية للحكومات البائدة ؛ أو إضاعة هذه الوثائق أو إخفائها بسبب الخصومات السياسية والمذهبية .. بل إن كثيرا من هذه الوثائق السياسية الخاصة بالعصر الأموي لحقها الدمار حين تعرضت بعض الدواوين التي كانت تحفظ فيها للحريق في أيام بني أمية ، مثلما حدث في ديوان الكوفة الذي احترق بما كان يضمه من وثائق سنة 82 هـ إبان فتنة ابن الأشعث [2]، ومثلما حدث لديوان الفسطاط الذي تعرض للحريق أيضا في العصر الأموي [3] .. وهكذا لم يصلنا شيء من مستندات الدولة الأموية غير مجموعة قليلة خاصة بمصر عثر عليها مع مجموعة من الأوراق البردية المكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية [4] ، وبعض النصوص الوثائقية التي حفظتها لنا كتب التاريخ المتأخرة مثل كتب ابن سعد والبلاذري والقلقشندي وغيرهم ، ويجب تناولها بحذر شديد إذ إنه قد نقل معظمها من كتب مقدمة وليس من الأصول [5]، كما أنه قد عثر أخيرا على بعض المسكوكات التي توضح بعض ملامح التصور السياسي والمالي للدولة ، وأسفرت جهود العلماء

---

[1] الخطيب البغدادي : الكفاية في علوم الحديث 162ـ163

[2] أبو يوسف الخراج 68 ، وراجع جواد علي : موارد.تاريخ الطبري ص ١٥٦ مجلة المجمع العلمي العراقي ج١ سنة ١٩٥٠م

[3] راجع د.السيد عبد العزيز سالم التاريخ والمؤرخون العرب 135ـ136

[4] د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 12/1

[5] السابق والصفحة

حديثا عن اكتشاف بعض قصور الخلفاء والأمراء الأمويين بالشام ، مما يعطي صورة قريبة من الواقع للتطور المعماري والفني للأمويين واهتمامهم بهذه النواحي الحضارية ، ومدى ما بلغوه في هذا الشأن[١] .

ومن المؤكد أن ضياع هذه الآثار التاريخية عن دولة الأمويين قد أساء كثيرا إلى تاريخهم ؛ حيث انفردت الكتابات المتأخرة والتي تم معظمها في العصر العباسي بالتأثير الأكبر والدور الأعظم في رسم صورة بني أمية ، ومعروف عداء العباسيين للأمويين كما سيأتي ..

ويجدر بنا أن نقدم نموذجا لما كان يمكن أن تسهم به الوثائق السياسية ـــ لو سلمت ـــ من خدمات جليلة في إنصاف الأمويين .. فمصادرنا التاريخية لا تقدم صورة طيبة لعامل الأمويين على مصر قرة بن شريك (90ـــ96 هـــ) حيث تسرف في الحديث عن جشعة وحبه للمال وقسوته مع رعيته من أهل مصر ، على حين تظهره أوراق البردي التي عثر عليها في كوم أشقا بمصر في صورة الحاكم العادل اليقظ الذي لا تغيب عنه أخبار رعيته ، والحازم الذي لا تخدعه ألاعيب ولاته ، ففي إحدى هذه البرديات ذكر أن قرة بن شريك قد أرسل إلى صاحب الكورة يطلب منه ما تجمع لديه من الضرائب ؛ لكنه خاف أن يظلم العامل رعيته فأوصاه أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئا يكرهونه ؛ ونراه في مرة أخرى يرسل إلى عامله هناك يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ؛ ويطلب من ذلك العامل أن يرد ما جمعه من غرامة حتى يرسل إليه في هذا الشأن .. وفى كتاب آخر نجد قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة أشقوة يطلب منه سداد الدين عن أحد رعيته ، ونجده أيضا يأمر بالقبض على أحد المجرمين ، مما يدل على يقظته وإحاطته بأخبار رعيته ، وفى كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون في بناء السفن ، ويخشى أن يترك تحديد ذلك إلى صاحب الكورة التي منها الصناع مخافة أن يجور أو يحابي[٢] ..

ثانيا : تأثير الحزبية السياسية على تدوين التاريخ الأموي :

شهد العصر الأموي تكوين عدد من التجمعات الإسلامية التي ناصبت الأمويين العداء ، ودخلت في صراع معها استمر حتى سقطت دولة بني أمية ، وبعض هذه التجمعات أو الفرق الإسلامية ظهر مبكرا كالشيعة والخوارج والزبيريين ؛ وبعضها نشأ متأخرا نتيجة اجتهادات دينية وكلامية مثل المعتزلة، كما كان هناك بعض الموالي الفرس الذين اعتصموا بقوميتهم الفارسية ، وشكلوا جبهة مناوئة للأمويين في معظم فترات تاريخهم ..

---

[١] راجع الفصل الخاص بالمنجزات الحضارية في العصر الأموي بالجزء الثالث ..

[٢] د. سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام 30 ، الوليد بن عبد الملك ص 80 ـــ89 ، جروهمان :أوراق البردي المصرية 23/3 ـــ 24 وانظر نماذج لعدله وحرصه على بيت المال 3/3 ـــ 43

وقد كان لهذه التجمعات جهود بارزة في تشويه صورة بني أمية كحلقة من حلقات العداء لهم , أثناء قيام دولتهم وسيطرتها ، كما ساهم بعضها في تحريف تاريخهم لما كتب ذلك التاريخ بعد ذهاب دولتهم ، حيث برز كثير من المؤرخين الذين يدينون بأفكار هذه الاتجاهات المعادية للأمويين وكان من الطبعي أن تأتي كتاباتهم عنها متأثرة بذلك العداء وسوف نخص بمزيد من التفصيل بعض هذه الاتجاهات وتأثيرها على تدوين تاريخ الأمويين وتحريفه .

ـ الشيعة :

ولعل أبرز جهودهم في ذلك المجال اتجهت صوب تمجيد زعمائهم من الثائرين على بني أمية، أو تعظيم علي ﷺ وأبنائه ، واختلاق الفضائل لهم ـ وهم غير محتاجين إليها ـ كما مر بنا ، حتى بلغ عدد الأحاديث الموضوعة في فضل على بن آبي طالب أربعة وستين حديثا ، كما ذكر الشوكاني حتى قال مؤرخهم ابن أبي الحديد :" وأعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من وجهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقة في صاحبهم . حملهم على وضعها عداوة الخصوم [٢] ، وكان الإمام الشعبي يقول عنهم : لو أردت أن يعطوني رقابهم عبيدا ، وأن يملئوا بيتي ذهبا على أن أكذب لهم على علي لفعلوا ، ولكن والله لا كذبت أبدا [٣]

وكان المختار بن أبي عبيد أحد الذين ادعوا التشيع ـ ليصل من خلال ذلك إلى الخلافة ـ مناوئا لبني أمية ، وقد تمت له السيطرة على الكوفة بعد مقتل يزيد بن معاوية واضطراب الأمر بالشام ، وأراد أن يضم إليه آنذاك إبراهيم بن الأشتر لينجح به ثورته ، فلم يجد أيسر من اختلاق وثيقة مدعاة زعم أنها رسالة إليه من محمد بن الحنفية يلقبه فيها بالمهدى ، ويجعله وزيرا له ؛ طالبا بدماء آل البيت

وقد أحكم المختار أمره فأعد شهود الزور الذين يشهدون بصحة هذه الرسالة أمام إبراهيم بن الأشتر ليقتنع بذلك بوجوب نصرة المختار ، وقد تم له ما أراد [٤]

وكان المختار نفسه يقول لأحد أصحاب الحديث : ضع لي حديثا عن النبي ﷺ بأني كائن بعده خليفة ، وطالب له بترة ولده . وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخادم ، فقال الرجل : أما عن النبي ﷺ فلا . ولكن اختر من شئت من الصحابة ، وأحطك من الثمن ما شئت فقال عن النبي ﷺ أوكد . فقال الرجل . والعذاب أشد [٥] ، وكان بعض الصادقين من آل البيت

الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة 330 ـ 384 ونقل ذلك عنه د مصطفى حلمي نظام الخلافة في الفكر الإسلامي 190ـ191

[٢] شرح نهج البلاغة 48/11

[٣] ابن الجوزي الموضوعات 338/1

[٤] الطبري السابق 16/6ـ17

[٥] ابن الجوزي الموضوعات 39/1

يبرءون من هؤلاء الكذابين على الملأ ؛ ويحذرون منهم مثل علي زين العابدين [١] وجعفر الصـــادق [٢] وعمر بن علي بن الحسين [٣] ..

وإذا كان ذلك الكذب كله قد تم في العصر الأموي ، وفي أثناء سيطرة الأمويـــين ، وفي الحديث الشريف والتاريخ معا ، فإنه قد ظهر جماعة في العصر العباسي من كبار المؤرخين الذين ترجموا تلك العداوة المتأصلة إلى تزيد في روايات التاريخ الأموي ، واختلاق لبعض الأخبار التي تســـيء إلى بني أمية وتشوه سيرتهم ، وتلون أخبار ثورات الشيعة ضدهم بألوان البطولة والتعاطف مع الثـائرين ، والاتهام والتشنيع على الأمويين ، ومن هؤلاء المؤرخين البارزين أبو مخنف لوط بن يحيى وهشام بـــن الكلبي وأبوه محمد بن السائب الكلبي ثم الأصفهاني واليعقوبي والمسعودي وغيرهم ممن سوف تـــأتي تراجم لهم وبيان لمدى تحاملهم على الدولة الأموية...

ــ الموالــــــــــي :

وقد شاع بين المؤرخين اتهام الأمويين بالتعصب للعرب واضطهاد الموالي ، وهذا الاتهام لـــه حظه من البحث والدراسة في موضع تال إن شاء الله ؛ ولكننا هنا نؤكد أن بعض هؤلاء الموالي قـــد صدق إسلامه وخلص انتماؤه للدين والعربية ، حتى برعوا في العلوم الإسلامية فكان منهم أمثـــال سيبويه في النحو ، والطبري في التفسير ، وأبي حنيفة في الفقـــه ، والبخـــاري ومســـلم والـترمذي والسجستاني في الحديث ، وآلاف غيرهم في شتى نواحي العلوم الإسلامية [٤]؛ كما برع بعضـــهم في التاريخ وروايته مثل الواقدي والمدائني وابن إسحاق وأبي معشر السندي وأبي عبيـــدة والبـــلاذري والطبري والدينوري وغيرهم [٥] ؛ على حين احتفظ آخرون بقوميتهم الفارسية وأحقادهم على العرب واستعلائهم عليهم ، فشكلوا طائفة الشعوبية، وهي حركة اجتماعية عنصرية استهدفت ضرب الكيان العرب الإسلامي من خلال ثقافته وفكره وكل القيم التي تضمنها تراثه الحضاري [٦] ، وأصبح همـــها المقيم " تشويه الهالة التي وضعها الدين الإسلامي والفكر الإسلامي من حـــول العـــرب بتشـــويه تاريخهم ، والدس عليهم ، والأخذ بأخبار المثالب ، وإبراز النقائص وتقصيها " [٧] ، وزاد من خطر هذه

---

[١] إحسان إلهي ظهير : السنة والشيعة 30

[٢] السابق والصفحة

[٣] مصعب الزبيري : نسب قريش 62

[٤] راجع د. شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون 447/1 ــ 448

[٥] السابق 87/1

[٦] د فاروق عمر . حول طبيعة الحركة الشعوبية مقال بمجلة المجتمع العلمي العراقي الجزء الثاني من المجلد السادس والثلاثين سنة 1405هــ / سنة 1985 م ص 197

[٧] د شاكر مصطفى التاريخ العرب والمؤرخون 68/1 ــ 87

الشعوبية أنها ازدهرت في عصر تدوين العلوم ، فكان ذلك من سوء حظ العلم [١] ؛ وكانت لها آثارها السيئة على تدوين التاريخ والأدب والأنساب [٢] ...

وبرع الشعوبيون في تأليف كتب المثالب يجمعون فيها كل ما يشتهون من مساوئ العرب وقبائلهم ورجالهم وقد ينسبون بعض هذه الكتب إلى رجال من قادة العرب أنفسهم ، ليخفي عرضهم . ويشيع وضعهم ، فقد نسبوا إلى زياد بن أبي سفيان وضع كتاب في " المثالب " ، فيقول الأصفهاني : " وأصل المثالب زياد ـــ لعنه الله ـــ فانه لما ادعى إلى أبي سفيان ، وعلم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمها بنسبه ، ومع سوء آثاره فيهم ، عمل كتاب المثالب ، فألصق بالعرب كلها كل عيب وعار ، وحق وباطل " [٣] ..

وكأن زيادا لما اتصل نسبه بأكبر بيوتات العرب أراد هدم كرامة العرب كلهم ؛ وزياد الذي اشتهر بعقله لا يمكن أن يفعل ذلك ، ولا يمكن أن يقبله منه بنو أمية الذين التحق به نسبهم ، ولا أشراف العرب الذين استمرت به صلاتهم ، لكنها براعة الكذب ، أن يلصقوا فعلتهم بأحد قادة العرب ويظلوا هم برآء !

وزعموا أن هشام بن عبد الملك أمر النضر بن شميل وخالد بن سلمة المخزومي فوضعا كتابا في مثالب العرب ومناقبها ؛ وليس لقريش في هذا الكتاب ذكر [٤] ؛ وتلك أيضا دعوى بلا دليل ، تسير في ذات الطريق التي اتهموا فيها زيادا ، وهي دعوى مشتهرة تلقفها القدماء والمحدثون [٥] .

وجاء أبو عبيدة معمر بن المثنى فجدد الكتاب المنسوب إلى زياد وزاد فيه وكتب كتاب" الموالى" و" فضائل الفرس " ، ورغم منزلته العلمية العالية فإن أخباره تكشف عن مثالب بشعة [٦] .. ثم نشأ غيلان الشعوبي ؛ واسمه علان ـــ أو غيلان بن الحسن الوراق وعرف بالشعوبي لعصبية الشديدة على العرب وبغضه لهم [٧] ؛ كما أنه كان " زنديقا ثنويا لا يشك فيه ، عرف في حياته بعض مذهبه .. ثم انكشف أمره بعد وفاته ، فأبدع كتابا لطاهر بن الحسين [٨] ، وكان شديد التشعب والعصبية

---

[١] أحمد أمين : ضحى الإسلام 77/1

[٢] راجع السابق 66/1 ـــ 77 ، د عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 12

[٣] الأغاني 21/20

[٤] حسن السندوبي : هامش البيان والتبيين للجاحظ ج 3 ص 4

[٥] انظر ذكرها عند بعض المحدثين مثل د. شاكر مصطفى التاريخ العرب والمؤرخون ج 1 ص 95

[٦] الثعالبي : لطائف المعارف ص ٩٩ ، ابن النديم : الفهرست ص ٧٩-٨٠

[٧] د محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص 563

[٨] طاهر بن الحسين : قائد جيش المأمون في صراعه مع أخيه الأمين ثم واليه على خراسان ، وتغير طاهر على خليفته فأعلن استقلاله بخراسان فأرسل وزير المأمون احمد بن أبي خالد الأحول من دس له السم (انظر : ابن طباطبا الفخري ص 214 ـــ 215 ـــ 224)

خارجا عن الإسلام ، فبدأ فيه بمثالب بنى هاشم وذكر مناكحهم وأمهاقم وصنائعهم ، وبدأ منـــــهم بالطيب الطاهر رسول الله ﷺ فغمصه وذكره ، ثم والى بين أهل بيته الأذكياء والنجباء عليهم السلام؛ ثم ببطون قريش على الولاء ، ثم بسائر العرب فألصق بهم كل كذب وزور ، ووضع عليهم كل خبر باطل " [١] .

وما يذكر عن علان الشعوبي ثري الدلالة على ما بلغته حركة الشعوبية من قوة وخطورة ؛ حتى إن أحد أكابر دعاتها لا ينكشف أمره إلا بعد وفاته ـــ كما حدث مع علان هذا ـــ وحـــتى إن أحد كبار رجال الدولة المقربين إلى خليفتها ، بل صاحب الفضل الكبير في نصره واستخلافه ؛ كـــان أحد الشعوبيين المبرزين ، يمارس نشاط الهدام متحصنا بمركزه ومكانه ..

ولا ريب أن كتب المثالب هذه وجدت بغيتها في ثلب بني أمية ، تدفعها إلى ذلك ثـــارات التاريخ وما يحمله الموالي للأمويين من ذكريات سيئة ؛ حيث كان دورهم في دولتهم أكثر تحجيمــــا ، ومكانتهم فيها أقل شأنا مما أصابوه مع العباسيين فقد كانت لهم معهم اليد الطولى والخطر الأكـــــبر ، وساعد على استمرار ثلبهم للأمويين اشتهاء الحكام ذلك ، وما الظن بالهجوم على قريـــــش ـــ وآل العباس هم الحاكمون ـــ وأحد الشعوبيين إذا انتقد جدهم العباس بشيء كان جزاءه السجن عـــــدد سنين ـــ كما حدث مع الهيثم بن عدى [٢] ؛ ما الظن بالهجوم على قريش إلا إذا انصب معظمه علــــى الأمويين .. وقد ضاعت كتب المثالب فلم تصلنا ، ولكن وصلتنا روايات أصحابها في كتب التاريخ ؛ وما أحرانا أن نقف عندها وقفة متريثة وقد عرفنا اتجاهات أصحابها ونواياهم ..

أمثلة لتأثير الشعوبيين على التاريخ الأموي :

ونكتفي هنا بذكر اليسير من ذلك ، فسوف يأتي مزيد من صور التشويه الشعوبي للتـــاريخ الأموي ـــ عند الحديث عن رواهم ومؤرخيهم فيما بعد إن شاء الله ..

زعم الهيثم بن عدى أن المهلب بن أبي صفرة كان أبوه مشركا أسلم زمن عمر بن الخطاب ، ولم يكن اختتن ، فاختتن هو وامرأته ، وأنه كان من موالى الأزد ـــ أزد عمان ـــ وليس من خـــلص العرب ، وقد عقب الأصفهاني على ذلك بقوله : وليس هذا من الأقوال المعول عليها [٣] ، ويـــردف ذلك فيقول عن الهيثم بن عدى : إنه كان دعيا فأراد أن يعر أهل البيوتات تشفيا منهم [٤] ..

ويقول د. عبد العزيز الدوري عن تحريفهم للتاريخ الإسلامي ".. فكلما لاحظ الشــــعوبية عملا رائعا حاولوا تقليل شأنه ، بنسبته إلى أمور تافهة ، فحركة التعريب الكبرى في زمن عبد الملـــك

---

[١] الأصفهاني · الأغاني 22/20

[٢] ابن خلكان : وفيات الأعيان 302/2

[٣] الأغاني 21/20

[٤] السابق 20/21ـــ22

والوليد وهشام تلك الحركة التي شملت الدواوين والنقد والطرز ، كانت مرحلة حاسمة في التطــــور الثقافي وفي الاستقرار السياسي والاقتصادي ، وربما كان التعريب هذا أعظم حدث ثقافي سياســـي بعد جمع القرآن ، نظم وفق خطة شاملة ، ولكن الروايات تظهره مرتجلا ، وتنسبه إلى أمور تافهـــة ، كغضب الخليفة على دلال كاتب ، أو غضب وال من تباطؤ مولى .. أو بسبب تهديد البيزنطيين بـأن يشتموا الرسول على النقود ، كأن النقود صحف للدعاية ، وكأن الناس يقرءون الحروف اليونانية ، وكأن البيزنطيين كانوا يسكون النقود للعرب "[1]...

ـ المعتزلـــة :

وقد ظهرت هذه الفرقة على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد في الفترة الأخيرة مـــن عمر الدولة الأموية ، وموقف المعتزلة من الأمويين موقف سافر العداء ؛ إذ يعدونهم فاسقين وساقطي العدالة الواجب توافرها في الخلفاء ، وهم يعتبرون أن الفاسق في منزلة بين الإيمان والكفر ـ وهو مـا يعبرون عنه في أحد أصولهم الخمسة ـ بالمنزلة بين المنزلتين [2]، وهو على ذلك في النار إذ لا توجـد في الآخرة إلا الجنة والنار .

وقد بدأ بحثهم عن الأمويين حين تعرضوا للحديث عن القتال الذي نشب بين الصحابـة في موقعة الجمل ، فرأوا أن أحد الفريقين المتحاربين في النار ، ولا يعينونه ؛ إذ غم عليهم تحديـده [3] ؛ ولكنهم في صراع علي مع معاوية وأهل الشام يرون أن عليا كان على الحق ، وأن معاوية وأتباعــه كانوا بغاة خارجين على الإمام الحق ، ولذا فهم يتبرءون من معاوية وعمرو بن العاص ومن كـــان في صفهما [4] ..

والمعتزلة يشترطون توافر العدالة في الخلفاء ، ويرون أنها لم تتوافر في خلفاء بـــني أميــة ؛ ولذلك تجوز الثورة عليهم إعمالا لأصل ثان من أصولهم الخمسة وهو الأمر بالمعروف والنـــهي عـــن المنكر[5]، وقد كان معاوية باغيا فاسقا ـ فيما يزعمون ـ لأنه غصب الحق أهله [6] ، ولم يكن العـــام الذي بويع فيه بالخلافة وسمي عام الجماعة ، عاما للجماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة،

---

[1] مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 15ـ16

[2] عن هذه الأصول الخمسة ومذهب المعتزلة راجع البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١١٤ وما بعدها ، القاضي عبـــد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، زهدي الجار الله : المعتزلة ص ٥١-١٠٤

[3] البغدادي : السابق ص ١١٩-١٢٠

[4] ابن الخياط : الانتصار ص 98 ، د. عبد الرحمن سالم : التاريخ السياسي للمعتزلة ص 100

[5] د. عبد الرحمن سالم : السابق ص 91 ـ 92

[6] القاضي عبد الجبار : المغنى 7123

والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً ، والخلافة منصباً قهرياً ، على ما يرى شيوخ المعتزلة [1] .. ومعروف أن الصلة وثيقة بين التشيع والاعتزال ، فقد تأثر المعتزلة كثيرًا ببعض آراء الشيعة [2] ، وقد أدى ذلك إلى كراهية مشتركة للأمويين وتحامل عليهم .

وسوف نرى فيما بعد أن جماعة من أبرز المؤرخين والأدباء كان يدين بالاعتزال ، وقد ظهر ذلك واضحاً في كتابتهم المعادية للأمويين والتي يُخرج بعضها الأمويين عن دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر لا الفسوق فحسب ، ومن أشهر هؤلاء وأشدهم عداء للأمويين الجاحظ وابن أبي الحديد ، وسوف تأتي أمثلة لكتاباقم عن بني أمية ودولتهم ..

وهكذا يتضح لنا أن هذه الأحزاب السياسية والدينية التي ناصبت الأمويين العداء إبان دولتهم ، قد استمرت تناصبهم العداء بعد زوال هذه الدولة ؛ وذلك من منطلقات دينية وسياسية أيضاً ، وأن خطورة هذا العداء قد نجمت من كون بعض كبار مؤرخينا كانوا ينتمون إلى هذه الأحزاب ويدينون بمعتقداها وقت تدوينهم تاريخ الدولة الأموية ، وقد انعكس ذلك العداء على رؤيتهم لها ، ونظرقم لتاريخها ، فجاء كثير منه مشوهًا قاتمًا بصورة تناقض الثابت من منجزاها التي لا تقوم بها دولة عاجزة ذات تاريخ قاتم ..

ثالثا : تأثير السلطة العباسية على تدوين التاريخ الأموي :

مر بنا القول بأن حركة تدوين التاريخ ــ والعلوم عامة ــ إنما نشطت وأصبحت ظاهرة عامة في العصر العباسي ... وقد كان ذلك من سوء حظ بني أمية ــ خصوم العباسيين ــ الذين كُتب تاريخهم في ظل السيطرة العباسية كتاريخ دولة مهزومة ، يحيط بتدوين تاريخها مناخ فكرى معاد لها ، ومناخ سياسي متسلط ضدها ، وقديماً قيل " ويل للدولة المهزومة حين يكتب تاريخها المنتصرون " ..

وقيام دولة مكان دولة لا ينتهي بسقوط خليفة وظهور خليفة آخر ، بل إن هذا التبدل في شخص الحاكم يمثل نهاية مرحلة الإعداد الناجح للثورة ، وتبقى أمامها مراحل أخرى من الهدم والبناء ، فهي لاشك إنما جاءت لتهدم كثيراً من البناء السابق عليها ، وتبنى بناءها الخاص على أسس فكرية وشعورية جديدة .. وبقدر عمق البناء القديم وقوته يكون عنف الثورة وقسوة التغيير ،

---

[1] الجاحظ . النابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ 12/2 ــ 14 ، د.عبد الرحمن سالم . السابق 94

[2] راجع د. سامي النشار . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 230/2 ــ 233 ، د. حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام السياسي 434/1ــ436 د مصطفى حلمي نظام الخلافة في الفكر الإسلامي 381ــ382 . د الريس النظريات السياسية 70/71

وكذلك كان الأمر لما قامت ثورة العباسيين ودولتهم ؛ فقد كانت للأمويين دولة شامخة ترتكز على عصبيات قوية ومنجزات كبرى ، وتاريخ ممتد لما يزيد عن تسعين عاما...

ولم تنته قوة الأمويين بانهيار دولتهم ، بل انبعث أحدهم ـ عبد الرحمن بن معاوية الداخل ـ عبر البحار والمفازات ليصل إلى بلاد الأندلس فيقيم بها دولة ظلت تنافس العباسيين وتهددهم في بعض الأحيان ، وظلت ذكراهم عالقة في نفوس بعض المسلمين الذين صدمهم الواقع بعد ذهاب دولة الأمويين وتبخر الأحلام في تغيير حقيقي وردي ، حتى قال قائلهم :

يا ليت جور بني أمية عاد لنا ... يا ليت عدل بني العباس في النار[1]

ونتيجة هذا الخوف من الخطر الجاثم في الشمال الغربي الأقصى ـ الأندلس ـ واحتمالات امتداده عبر ما تبقى من عصبية للأمويين في المشرق ، مع ما يغذي هذه المخاوف من ماض مؤلم من الحروب والصراع بين الأمويين وخصومهم إبان حكمهم ، نتيجة هذه العوامل جاء الانتقام المريع من الأمويين على يد العباسيين وأعوانهم ..

حول انتقام العباسيين من الأمويين وإثارة الكراهية ضدهم :

وقصص هذا الانتقام تملأ صفحات من التاريخ ، ورغم ما قد يكون فيها من تحيز ومبالغة وافتعال " فإنها تظل حية الدلالة على مشاعر الكراهية التي حكمت سنوات من خلافة العباسيين ضد الأمويين ، فقد أعمل العباسيون القتل الذريع فيمن اشتهر من رجال بني أمية ، حتى اضطر كثير منهم إلى الاختفاء عن العيون[2] والتسمي بغير أسمائهم ، والإنتساب إلى غير جدودهم[3] ، حتى تزعم بعض الروايات أن العباسيين في الشام قد نبشوا قبور بني أمية وأحرقوا ما وجدوه فيها من العظام البالية . ولم ينج منهم إلا قبر عمر بن عبد العزيز[4] ، ووجد الشعراء الموتورون ، أو المتزلفون إلى الحكام الجدد ، السبيل إلى رفع شعارات الموت للأمويين والتحريض عليهم ، فقال أحدهم للخليفة العباسي السفاح :

لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس

أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس[5]

وقال آخر أمام عبد الله بن علي العباسي :

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ١٧/ ٢٥١ ، والبيت لأبي العطاء السندي ..

[2] ابن عبد ربه : العقد الفريد 188/2 ، ابن الأثير : الكامل 174/5 ـ175 ، الأصفهاني : الأغاني 91/4 ـ94 ، ابن حجر : تهذيب التهذيب 340/7 ـ 341 ، مؤلف مجهول : محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي 79ـ81

[3] د. محمد أحمد خلف الله : صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني 33 ، أبو نعيم : أخبار أصفهان 182/2

[4] المسعودى ٠ مروج الذهب 192/3 ـ 219

[5] الأصفهاني الأغاني 348/4 ، المبرد الكامل 307/2

فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويا [١]

وفى كل من حالات الإثارة هذه كان رد فعل الأمراء والخلفاء فوريا ودمويا .

وإذا كان العباسيون قد ارتكبوا كل ذلك أو كثيرا منه ، بقصد التخلص من خطر الأمويين السياسي على دولتهم ، وإنهاء قوتهم ونفوذهم فقد قاموا أيضا بعمل دءوب للتخلص من مكانة الأمويين عند أفراد الشعب الذي استمر تحت حكمهم أكثر من تسعين عاما ، ولذلك فقد تعرض الأمويون لحملات شديدة تهدف إلى إثارة كراهية الناس ضدهم ، وبغضهم لهم ، من ذلك ما ذكروه من أن الخليفة المنصور بعث المستهل بن الكميت الشاعر خطيبا يرتقى منابر الشام يذكر مناقب بني هاشم ، ومثالب بني أمية فأخذ المستهل ينفذ أوامر الخليفة وينتقل من مدينة إلى مدينة يعبئ الشعور ضد بني أمية ولمصلحة العباسيين [٢] ؛ وظلت هذه المحاولات تثور بين الحين والآخر ، حتى بعد مضي ردح طويل من الزمان على سقوط بني أمية وذهاب خطرهم ودولتهم ، مما ينبئ باستمرار ولاء قطاعات مهمة من المسلمين لبعض رموز الأمويين التاريخية واعترافهم بجلالهم !

ففي سنة 212 هـ أمر الخليفة المأمون مناديه بالنداء ببراءة الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير ، أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، بل أنه أراد أن يكتب ـ فيما يزعم الرواة ـ إلى الآفاق بلعن معاوية على المنابر لولا أن أشار عليه القاضي يحيى بن أكثم بترك ذلك خوفا من هياج العامة ، وفى السنة نفسها فرض المأمون على الناس تفضيل على بن أبي طالب على غيره من الصحابة [٣] ..

وما لم يجرؤ المأمون على فعله ، من لعن معاوية ، فعله الخليفة المعتضد [٤] سنة 284 هـ حيث أصدر منشورا جاء فيه : اللهم العن أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ويزيد بن معاوية ومروان ابن الحكم وولده ، اللهم العن أئمة الكفر ، وقادة الضلال ، وأعداء الدين ومجاهدي الرسول ومغيري الأحكام وسفاكي الدم الحرام ، اللهم إنا نبرأ إليك من موالاة أعدائك ... الخ [٥]

ولما ضعف سلطان الخلفاء وذهبت قوة الخلافة في العصر العباسي الثاني ؛ أصبحت السلطة الكاملة في يد المتغلبين من الجند ، وقامت الدويلات المستقلة التي اتخذ بعضها التشيع المغالي مذهبا ، كالفاطميين والبويهيين ، ولقد ظهر في ذلك العصر جماعة من أشهر وأنشط المؤرخين في تاريخ

---

[١] المبرد : السابق 306/2 ـ 307 ، الأصفهاني : السابق 351/4

[٢] ابن أبي الدم : التاريخ المظفري 288/1

[٣] الطبري : 8 / ٦١٨ ، ابن أبي الحديد :شرح نهج البلاغة 342/3 ـ 344 ، شارل بلات : الجاحظ في بغداد ص 391

[٤] هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل بويع سنة 279 هـ ومات سنة 289 هـ (ابن طباطبا : الفخري 256ـ257)

[٥] الطبري ١٠/ ٥٤- ٦٣

الإسلام كالطبري (ت 310 هـ) والمسعودى (ت 346هـ) وابن الأثير (ت 630 هـ) ، ولم يعد توجه الدولة السياسي متجها صوب معاداة بني أمية ، فقد ذهبت دولتهم وزوال خطرهم ، وظهرت مستجدات سياسية جديدة ، غير أن عوامل أخرى ساهمت في استمرار النظرة التاريخية المتحاملة على الأمويين ؛ منها استقرار الرواية التاريخية إلى حد كبير بشأن الدولة الأموية ، فبعد مضي عقود من الزمان على ذهاب هذه الدولة كانت أجيال من الرواة لأخبارها الذين شبوا في عصر العداء الشديد لها ، قد تركوا رواياتهم وكتبهم لتمثل المادة التي سيبني عليها المتأخرون من المؤرخين في العصر العباسي الثاني وما تلاه ، ومنها أنه في غياب السلطة الشرعية المؤثرة للخلافة المقهورة ، وشيوع روح الخوف والبطش من الجند المتغلبين على الخلافة علا شأن طبقة من العوام والغوغاء ، تغذوها مشاعر الكراهية التي تأصلت منذ عصور سالفة ضد الأمويين ، كما تغذوها اتجاهات بعض الدويلات المستقلة من التشيع والمغالاة والرفض ؛ "وطبقة كهذه من الغوغاء أصبحت مخيفة ، أزعجت الرواة فلم ينقلوا من مفاخر الأمويين كل ما كان يمكن أن ينقل ، وأزعجت الكتاب فلم يبرزوا ما وصلهم من أقوال الرواة " [1].

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم بعض صور الرعب التي عاشها بعض المؤرخين خوفا من العامة في ذلك العصر الذي أصبح عصر إرهاب وفوضى " فلم تعد أمور الناس تجرى على طمأنينة وأمن ، بل عاشوا حياة يسودها الفزع والخوف ، الظفر فيها لمن غلب " [2]؛ فقد توفى أبو بكر محمد بن يحيى بن العباس الصولي ، صاحب كتاب " الأوراق " مستترا بالبصرة ؛ لأنه روى خبرا ضد علي بن أبي طالب ﷺ ؛ فطلبته العامة والخاصة لقتله [3]، كما قتل أبو العبر الهاشمي محمد بن أحمد ابن عبد الله العباسي بيد قوم من الرافضة سمعوه يتناول عليا ﷺ فرموا به من فوق سطح بيت كان نائما عليه ، فمات سنة خمسين ومائتين [4] !!

حول علاقات العباسيين بالعلماء والمؤرخين :

من المعروف أن بعض العلماء قد تعرض لضغوط وأذى على أيدي العباسيين ، وأن العباسيين كانوا يتدخلون بصور شتى في حياة هؤلاء العلماء وحرياتهم ، والأمثلة على ذلك عديدة لعل أشهرها ما تعرض له الأئمة الثلاثة أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل من ضرب وافتنان بسبب

---

[1] د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 18/2

[2] د. ثروت عكاشة مقدمة تحقيق لكتاب المعارف لابن قتيبة ص (ا ، ب)

[3] ابن النديم : الفهرست 215

[4] السابق ص 217

أفكارهم ومواقفهم المعارضة لبعض أفكار وأراء بنى العباس [١] ، كما شهد ذلك العصر تدخلا في علوم النحو والفقه والأدب والشعر [٢] ..

ولدينا مثال رائع من أمثلة الأنفة والاعتزاز بالرأي جاءنا هذه المرة من أحد أشهر رواة العلم ـ بمفهومه الواسع ـ أبي عمرو بن العلاء ، قال أبو عبيدة : دخل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن علي ـ عم السفاح ـ فسأله عن شيء فصدقه ، فلم يعجبه ما قاله ، فوجد أبو عمرو في نفسه وخرج وهو يقول :

أنفت من الذل عند الملوك ... وإن كرموني وإن قربوا

إذا ما صدقتهم خفتهم ... ويرضون مني بأن يكذبوا [٣]

ورغم هذه النماذج الرائعة من بعض العلماء " فليس كل العلماء في أي وقت وفى أية أمة بالذين يتنزهون عن الغرض دائما ، ولا يغرهم المال والجاه أبدا ، فكان من بين العلماء من استمسك بالحق وخالف تعاليم الدولة وميولها وتعرض للعذاب ، ومنهم من شايعها وأخذ يؤيد بعلمه وجهة نظرها فأغدقت عليه مالها [٤] ..

ومن أمثلة الساعين إلى الراحة في قصر السلطان ؛ أو المشفقين من السباحة في وجه التيار ؛ ما روى عن الهيثم بن عدى (ت 206 أو 207 هـ) الذي اعتاد ثلب الناس والطعن في أنسابهم وذكر معايبهم ، فذكر ضمن ذلك العباس بن عبد المطلب بشيء ، فحبس لذلك عدة سنوات [٥] ، ولم يكن الهيثم هذا من أصحاب المبادئ الذين يضحون في سبيلها ، بل كان حاطب ليل بحاثة عن مثالب الناس ، فوقع في شرك بغيض [٦] ..

وغض الواقدي محمد بن عمر (ت 207هـ) الطرف عن ذكر اسم العباس بن عبد المطلب ضمن أسرى بدر من المشركين [٧] ..

وروى الطبري عن محمد بن عمر بن حفص قال :" كان هشام الكلبي صديقا لي ، فكنا نتلاقي فنتحدث ونتناشد ، وكنت أراه في حالة رثة ، وفى أخلاق ، وعلى بغلة هزيلة ، والضر بين فيه وعلى بغلته ، فما راعني إلا وقد لقيني يوما على بغلة شقراء من بغال الخلافة ، وسرج ولجام من

---

[١] راجع احمد أمين : ضحى الإسلام 2 / ٣٠-٣٦

[٢] السابق 25/2 ـ26 ، 32 ـ 36

[٣] ابن خلكان : وفيات الأعيان 551/1

[٤] أحمد أمين : ضحى الإسلام 25/2

[٥] ابن خلكان : وفيات الأعيان 302/2

[٦] سيأتي حديث عن الهيثم بن عدي في موضع تال من هذا الكتاب ..

[٧] الواقدي كتاب المغازي 138/1

سروج الخلافة ولجمها ، وفي ثياب جداد ورائحة طيبة ؛ فأظهرت السرور ثم قلت لـه : أرى نعمة ظاهرة ، قال لي : نعم ، أخبرك عنها فاكتم ، بينا أنا في منزلي منذ أيام بين الظهر والعصر إذ أتاني رسول المهدي ، فصرت إليه ودخلت عليه وهو جالس خال ، ليس عنده أحد ، وبين يديه كتاب ، فقال ؛ ادن يا هشام ، فدنوت فجلست بين يديه ، فقال : خذ هذا الكتاب ، فاقرأه ، ولا يمنعنك مما فيه مما تستفظعه أن تقرأه، قال : فنظرت في الكتاب ، فلما قرأت بعضه استفظعته ... فإذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلبا عجيبا ، ولم يبق له فيه شيئا ، فقلت : يا أمير المؤمنين: من هذا الملعون ؟ قال : هذا صاحب الأندلس ، قلت : فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وأمهاته ؛ قال : ثم اندرأت أذكر مثالبهم ، فسر بذلك ، وقال : أقسمت عليك لما أملت مثالبهم كلها على كاتب ، ودعا بكاتب من كتاب السر ، فأمره فجلس ناحية ، وأمرني فصرت إليه ، فصدر الكاتب من المهدي جوابا ، وأمللت عليه مثالبهم ، فأكثرت فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ، ثم عرضته عليه ، فأظهر السرور ، ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم ، وجعل في خريطة ، ودفع إلى صاحب البريد ، وأمر بتعجيله إلى الأندلس ، قال : ثم دعا لي بمنديل فيه عشرة أثواب من جياد الثياب ، وعشرة آلاف درهم ، وهذه البغلة بسرجها ولجامها فأعطاني ذلك ، وقال لي : اكتم ما سمعت [١] ..

إن وضوح التأثير السياسي للخلافة العباسية على تدوين تاريخ الأمويين أمر قد لفت انتباه كثير من الباحثين المحدثين الذين رغم اعتقاد بعضهم بأن التاريخ لم يصبح عملا رسميا في العصر العباسي [٢] ، إلا أنهم يلحظون عظيم تأثيره على تدوين التاريخ الأموي بوجه خاص [٣] ؛ وهو أمر متوقع على أية حال ، فالمؤرخ بشر يتأثر بالأجواء المحيطة به قطعا؛ والضغوط الواقعة عليه أحيانا ، والتأريخ بطبيعته عظيم التأثير على صنع الرأي العام للجماهير ، وتوجيه تأييدها للسلطة الحاكمة أو الإيحاء بذلك ...

---

[١] الطبري : السابق 13/10

[٢] راجع حول ذلك المعنى : د. سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي 48 ، د. حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي 75 د. شاكر مصطفى : التاريخ العرب والمؤرخون 90/1 ، روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ص 91

[٣] أحمد أمين ضحى الإسلام 27/22ـ28 ، د. شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي18/2 ، وشاكر مصطفى : التاريخ العرب والمؤرخون 449/1 ، محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 50/4 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 21/1 ، محب الدين الخطيب : هامش العواصم من القواصم 179 ، د. محمد جاسم المشهداني موارد البلاذري عن الأسرة الأموية 41/1 ، وانظر روزنتال : مرجع سابق ص 90 ، عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ص 11

محاولات قديمة لتحريف التاريخ في العصر الأموي :

ولذا فإن من النصفة أن نذكر أن عصورا أخرى ، غير العصر العباسي ، قد شهدت تدخلا في حياة العلماء والمؤرخين لاكتساب المحامد ونفي المثالب ؛ منها العصر الأموي ذاته الـــذي شـــهد نشاطا في الرواية التاريخية وتأصيلها ، حيث وجدنا وجهي التأثير المتوقعين :

الأول : محاولة التأثير على بعض العلماء لتشويه المعارضين للأمويين وقياداتهم ورموزهم ، مثلما ذكـــر عن محاولة هشام بن عبد الملك الضغط على ابن شهاب الزهري ليقول إن" الذي تولى كبره منـــهم " في حديث الإفك هو علي بن أبي طالب وليس عبد الله بن أبي ، فلما أصر الزهري على أنه ابـــن أبي قال له هشام : كذبت ، فقال الزهري : أنا اكذب لا أبا لك، فوالله لو نادى مناد من السـماء إن الله أحل الكذب ما كذبت .." [1] ..

ولكن هذه الروايات على أية حال نادرة ، وربما لم يوجد منها إلا الروايــة السـابقة لـــو صحت ، وليس كل العلماء كالزهري في ورعه وشجاعته وليس كل الخلفاء كهشام يسمع رجـــلا يقول له : لا أبا لك ، ويحدثه خشن الحديث ؛ ثم يصفح عنه ؛ ويظل قريبا منه حتى موته !

والثاني : ما وجد من روايات تمجد بعض قادة بني أمية المرموقين مثل معاوية بن أبي ســـفيان الـــذي وضع الكاذبون في مناقبه أحاديث عديدة ، تعقبها العلماء فبينوا زيفها وكذبها [2]، كما حاولوا تمجيـد عمر بن عبد العزيز بصورة مبالغ فيها ؛ فنسبوا إليه من دلائل الورع والزهد ما يضره ولا ينفعـه [3] ، وإن كان بلا شك قد صح ما يؤكد زهده وورعه .. حتى قال د. حسين مؤنس عن ذلك : " وقـــد كثرت خلال العصر الأموي القصص التي تظهر فضائل معاوية ومروان وعبد الملك بن مروان ومـــن إليهم ؛ فلما جاء العصر العباسي عمد المؤرخون والرواة إلى تعديل هذه القصص بما يوافق صـــالح الدولة الجديدة ، وحذف معظم ما وضع في مدح الأمويين من كتب التاريخ التي كتبت في المشـــرق أيام العباسيين ، ولم يبق منها إلا ما يبرز مساوئ الأمويين ، ويظهر فضائل العباسيين والعلويين " [4].

هذه هي أبرز العوامل التي أدت إلى تحريف التاريخ الأموي ، وقد وجدت عوامل أخـــرى أدت إلى نفس النتيجة وإن لم تقصد إليها ، ومن ذلك مثلا دور العصبية القبليـــة والإقليميـــة الـــتي نشطت في العصر الأموي . حيث وجد بعض المؤرخين من أصحاب هذه العصبيات أو ممثليـــها ، وفي

---

[1] د. نصار : نشأة التدوين التاريخي 75ـــ76 ، روى ذلك عن الذهبي تراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق ص 72

[2] ابن حجر : فتح الباري 131/7

[3] راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى 397/5 ، حيث زعموا انه لم يغتسل من جنابه أو احتلام منذ استخلفه الله حتى قبض وحتى شكته زوجته فاطمة بنت عبد الملك إلى بعض الفقهاء .. وقد روى ابن سعد نفسه مـــا ينـــاقض ذلـــك (السابق 3378/5ـــ379)

[4] هامش كتاب تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ج 4 ص 91

أثناء محاولة كل فريق أن يظهر فضائله وأمجاده ؛ ويغض من شأن الآخرين ؛ كان مزيد من الغبش والتحريف ينال أفرادا من قادة الأمويين ومواقفهم ؛ من ذلك مثلا اتهام أبي مخنف الأزدي الراوية بشر ابن مروان بتحريض عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ـ قائده لحرب الخوارج ـ على عصيان أوامر القائد الأعلى للقتال المهلب بن أبي صفرة الأزدي أيضا ، بغية تمجيد شأن عبد الرحمن بن مخنف الذي رفض ذلك التحريض واستنقص أمر بشر بن مروان [١] ..

كما برز التأثير التاريخي للعصبيات الإقليمية عندما ظهرت مدارس تاريخية متميزة في عدد من الأمصار الإسلامية مثل مدرسة العراق والحجاز ومصر والشام [٢].. وقد نشطت حركة التدوين التاريخي في مدرستي العراق والحجاز ؛ وكلا المصرين كان من المعارضين في أحيان كثيرة للأمويين ، فتأثرت كتابات مؤرخيه بهذا العداء القديم ، ونظرة عجلى في تاريخ الطبري تثبت تغلب الروايات الحجازية والعراقية على ما سواها ، والطبري شيخ لكثير ممن تلاه ، وعلى ذلك جاءت معظم أخبار أحداث ثورة الحسين وغيرها من ثورات الشيعة ، وثورات الخوارج ، ومعظم أخبار ولاة الأمويين البارزين كزياد والحجاج وخالد القسري من رواة مدرسة العراق ؛ مما لونها بألوان العداء للأمويين .. كذلك جاءت معظم أخبار أحداث ثورة أهل المدينة زمن يزيد بن معاوية وثورة ابن الزبير وأخبار مجتمع الحجاز متأثرة برواة مدرسة الحجاز التاريخية...

ومن المؤسف له ذلك الضمور الملحوظ في نشاط التدوين في مدرسة الشام آنذاك ؛ والتي كنا نتوقع أن تجيء أكثر إنصافا للأمويين ودولتهم ..

---

[١] الطبري : السابق 196/6 ـ 197

[٢] راجع د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي من المؤرخون 50/1 وما بعدها

الفصل الثاني

دراسة في مصادر التاريخ الأموي

مقدمة: كلمة عن مصادر التاريخ الأموي:

تتعدد مصادر التاريخ الأموي وتتناثر المعلومات التاريخية عنه في كثير من فروع التراث العربي المختلفة ؛ فليست كتب التاريخ العام التي تتناول غالباً التاريخ السياسي للدولة هي وحدها المصدر المهم للتاريخ الأموي فإن هناك مصادر أخرى لا تقل أهمية عنها ؛ إن لم تفقها في بعض الأحيان ؛ فكتب الفتوح الإسلامية والمصادر الجغرافية والنقوش التاريخية ودواوين الشعر وكتب الأدب العربي وكتب الطبقات والأنساب والتراجم التاريخية ؛ ناهيك عن كتب الفقه الإسلامي والفرق الإسلامية وكتابات المتكلمين .. كل هذه مصادر مهمة للتاريخ الإسلامي ساهمت في تكوين ملامح الصورة العامة لعصر بني أمية بكل ما تحويه من إنصاف أو تحريف ..

وسوف يأتي هذا الفصل في أربعة مباحث ؛ الأول منها يتناول بالدراسة بعض رواة التاريخ الأموي البارزين موضحاً آراءهم الفكرية ومعتقداتهم السياسية ودور ذلك في روايتهم عن الأمويين ؛ إذ إن هؤلاء الرواة ورواياتهم هي التي مثلت المادة الخام التي بنى عليها المؤرخون فيما بعد كتبهم وأحكامهم وأفكارهم ؛ ثم في المبحث الثاني نتحدث عن كتب التاريخ العام وأحوال بعض كبار مؤرخي الدولة الأموية واتجاهاتهم الفكرية والمذهبية وأثر ذلك على روايتهم .. بينما يتناول المبحثان الباقيان كتابات الأدباء والفقهاء التي تحدثت عن تاريخ الأمويين ، ومواقف أصحابها من بني أمية وتاريخهم ، إنصافاً لهم ، أو تحاملاً عليهم ..

المبحث الأول : دراسة عن بعض رواة التاريخ الأموي

تميزت بعض مصادر التاريخ الإسلامي بالاحتفاظ بإسناد الرواية التاريخية ، ذلك الإسناد الذي يتسلسل من لدن الشيخ المباشر للمؤرخ ويمتد حتى يصل إلى راوي الخبر الأول .. وقد تساهل بعض هؤلاء المؤرخين في إيراد العديد من الروايات الضعيفة والموضوعة بحجة أنه يسند كل رواية إلى رواقما ويثق بفهم القارئ لأحوال هؤلاء الرواة واتجاهاقم الفكرية والمذهبية ، وفى أنه سيأخذ ممن يشق به ويترك من لا يأتمنه أو يشك في حيدته ونزاهته ، مما يجعل من الضروري على الباحث في تاريخ هذه الحقبة أن يعرف المعلومات الأساسية عن هؤلاء الرواة وميولهم واعتقاداقم حتى يكون على بينة من أمره ؛ ويحسن فهم المادة التاريخية من مصادرها الأصيلة ؛ والإفادة منها ، وينفي عنها ما يشوبها من تناقض أو غبش من خلال هذه المعرفة برواقما ؛ ومن خلال منهج المؤرخ في النقد الداخلي للخبر .. ولذا فسوف أقدم في تلك الصفحات المقبلة دراسة لبعض أخطر هؤلاء الرواة شأنا ؛ إذ تتعذر الإحاطة بكل رواة التاريخ الأموي المعروفين وتقديم رؤية عامة عنهم ..

١- عوانة بن الحكم الكلبي (ت ١٤٧ هـ) :

يزعم بعض الباحثين أن عوانة هذا كان عثمانيا ، ينتصر لعثمان بن عفان ويميل لبني أمية ؛ ويحتجون على ذلك بما رواه ياقوت الحموي من أن عوانة بن الحكم كان عثمانيا ، وكان يضع الأخبار لبنى أمية [١] ، ويرجح محرر دائرة المعارف الإسلامية هذا الرأي [٢] ، ويذكر الدكتور عبد العزيز الدوري تبريرا لذلك الرأي فيقول : " ويحتمل أن عوانة بن الحكم كان عثمانيا في ميوله ، أي أنه كان أقرب إلى الأمويين ، فنراه يقدم روايات أموية ، ولجده يبدي بعض التسامح حتى مع يزيد (بن معاوية) ؛ إذ يروى عن سكينة (بنت الحسين) قولها : ما رأيت رجلا كافرا بالله خيرا من يزيد [٣] ، ومع أنه يعرض رأى جابر بن عبد الله عن بيعة معاوية بأنها بيعة ضلالة إلا أنه يظهر الصراع خلال الفتنة على أنها نزاع بين شيعة عثمان وشيعة علي ، ويفسح المجال في أخباره لوجهة النظر الأموية في التأكيد على القضاء والقدر ، ويورد عوانة أن يزيد بن معاوية كان يخاطب علي بن الحسين إثر فاجعة كربلاء ويبين له أن والده لم يتذكر الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك

---

[١] ياقوت : معجم الأدباء 137/16 ، 162

[٢] دائرة المعارف الإسلامية مادة عوانة

[٣] الطبري : السابق 464/5

ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير)[١] ، وعلى كل فإن الأخباريين عامة يؤكدون على مسئوليه البشر عن الحوادث ، ولا يحبذون فكرة الجبر في الشئون العامة "[٢] ..

وعلى ذلك فإنهم يبنون الرأي القائل بعثمانية عوانة على مثل هذه الحجج ؛ وبذا يكون قول سكينة : إن يزيد رجل كافر ، تسامحاً مع الأمويين ! ويكون تصوير الصراع بين علي ومعاوية على أنه نزاع بين شيعة عثمان وشيعة علي تسامحاً مع الأمويين ! كما يكون الاحتجاج بآية من القران ـــ إن صحت هذه الرواية الآنفة الذكر ـــ مدعاة لاتهام الأمويين بالجبر ! ويكون عرض هذه الروايات من عوانة دليلاً على القول بعثمانيته وميله إلى الأمويين ..وهذا تأويل لا ينهض بحجه قائله.

ولذا فان مؤرخين آخرين يقفون موقف الشك من دعوى تحيز عوانة للأمويين أو عثمانيته[٣] ؛ إذ إننا نجد روايات عديدة لعوانة هذا شديدة التحامل على الأمويين، واضحة العداء لهم، مثل روايته عن امتناع أبي سفيان بن حرب عن بيعة أبي بكر بالخلافة إذ كان يفضل أن تكون الخلافة في بني عبد مناف وفي علي بن أبي طالب خاصة ، ويزعم عوانة أن علياً زجره عن ذلك ، وقال له : إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة ، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً ، لا حاجة لنا في نصيحتك[٤]، ويروي عوانة أيضاً أن وقعات صفين بين علي ومعاوية كانت أربعين وقعة كلها لصالح علي وأهل العراق ! فلما خاف عمرو بن العاص على أهل الشام الهلاك أو الهزيمة أشار على معاوية برفع المصاحف وطلب التحكيم فافتتن بذلك أهل العراق[٥]، إلى غير ذلك من روايات[٦] ..

ولعل هذه الشبهة عن تحيز عوانة للأمويين ووضعه الأخبار لهم جاءت لسببين ؛ أولهما أنه قد يظهر في روايات عوانة بعض الاعتدال في مواطن الصراع المهيج للعواطف ، والذي تسير الروايات التاريخية فيه على نحو معاد للأمويين ، وثانيهما انتماء عوانة إلى قبيلة كلب بولائه ـــ وموطنها الأصلي بالشام ـــ جعله أكثر تعرضا للروايات الخاصة بقبيلته التي ساندت بني أمية وملكهم

---

[١] سورة آل عمران آية 21

[٢] د.الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ 133

[٣] شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 128/1 ، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 97

[٤] الطبري : السابق 209/3

[٥] ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب 326/1 نسخة مصورة عن مخطوط بأيا صوفيا رقم 3036 نشر معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية فرانكفورت 1988 م

[٦] راجع د. الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ 36ـــ37 حيث أورد عن ذلك روايات أخرى ..

ولكن ذلك لا يعني أن عوانة كان عثماني الهوى ، أو أنه كان يضع الأخبار لبني أمية ، وإلا لوجدنا صورة مناقضة إلى حد كبير لروايات أبي مخنف ونصر بن مزاحم وغيرهما من رواة الشيعة ...

لقد كان عوانة فيما يبدو جمّاعة للروايات التاريخية التي تصل إليه، يرى أنه من العلم أن يجمعها جميعاً من شتى الرواة والاتجاهات ، ثم يسندها إلى أصحابها فيكون قد حفظ العلم من الضياع ، وألقى التبعة على الرواة ، وترك سامعيه وقارئيه أمام مسئوليتهم في نقد الخبر ونقد الرجال ؛ وهكذا فعل الطبري فيما بعد وفعل بعض الأخباريين الذين سنتناول الحديث عنهم بعد قليل ..

٢- أبو مخنف لوط بن يحيى (ت 157 هـ) :

هو لوط بن يحيى بن مخنف بن سليمان الأزدي ، كان جده مخنف بن سليمان من أصحاب علي بن أبي طالب وقد روى عن النبي ﷺ .. وكان أبو مخنف راوية أخبارياً صاحب تصانيف في الفتوح وحروب الإسلام ، وكتاباته " تقدم أحياناً صورة أخاذة حية للحوادث ، مع كثير من الخطب والمحاورات ، ويتخللها الشعر في بعض المناسبات ، وهكذا نجده يعكس أثر مجالس السمر وشيئاً من وجهة قصص الأيام في أسلوبه " [١] ، وزيادة على هذا المنحى القصصي في أخباره ، والذي يلقى ظلالاً من الشكوك حولها ، نجد أن رواياته متحزبة نحو التشيع " فهو أميل للعلويين تجاه الأمويين ، كما أن اعتزاز القبائل بمآثرها ينعكس أحيانا في رواياته ، فهو يعتمد بكثرة على روايات قبيلته الأزد ، وان استفاد من الروايات الكوفية الأخرى أحياناً " [٢] ..

وأمر تشيعه جعله متروكا عند أصحاب الحديث ، قال عنه ابن حجر: " أخباري تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره ، وقال الدارقطني : ضعيف ، وقال يحيى بن معين : ليس بثقة ، وقال ابن عدي : شيعي محترق ، صاحب أخبارهم [٣] ، وقد ترجم له بعض الشيعة في كتبهم وامتدحوه كما في أعيان الشيعة للعاملي [٤] ..

وبعض رواياته تنبئ عن تعصب مقيت والتزام كامل بآراء غلاة الشيعة ، قال في كتاب " الجمل " ـ على ما يروى ابن أبي الحديد ـ : إن علياً بعد انتصاره على أصحاب الجمل استعرض القتلى فوجد فيهم طلحة بن عبيد الله ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة فزعم أبو مخنف أن علياً لما رآه

---

[١] الدوري : السابق 36

[٢] السابق 35 ، على بكر حسن : الطبري ومنهجه في التاريخ 335 رسالة ماجستير بدار العلوم ، وانظر عن اثر قبليته الأزدية في رواياته : الطبري : السابق 5/615 ـ 622 ، 6/196ـ 197 ، 211 ـ 215 ، 301ـ308

[٣] ابن حجر : لسان الميزان 4/492

[٤] محسن الأمين : أعيان الشيعة ج 1 ق 1 ص 127

قال : ويل أمك طلحة ، لقد كان لك قدم لو نفعك ، ولكن الشيطان أضلك فأزلك فجعلك إلى النار [١]، ورغم ذلك يقول عنه المستشرق الألماني فلهوزن معلقاً على روايته في مقتل الحسين : وأبو مخنف هو الحجة الكبرى ، وبوصفه كذلك اعتمد على اسمه المزيفون فيما بعد ، فنسبوا إليه الأسطورة المتأخرة المتعلقة بمقتل الحسين [٢]، ويزعم ابن أبي الحديد أن أبا مخنف من المحدثين ، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها [٣] ، ويمتدحه أحد الكتاب المعاصرين بقوله عنه أنه يُعرف بدقة رواياته [٤] وبموضوعيته فيها [٥] ..

ولا ريب أن اعتماد أبي مخنف كأحد الرواة أو المؤرخين المبكرين الموثوق بهم سوف يقود إلى نتائج وخيمة على نزاهة البحث العلمي وسوف يمرر ذلك روايات شيعية صرفة ومكذوبة تدين مسالك الصحابة والتابعين في صدر الإسلام ..

وقد اعتمد الطبري في تاريخه على روايات أبي مخنف اعتماداً يكاد يكون كاملاً في بعض المواقف التي كان الأولى به أن يعتمد فيها على رواة محايدين عدول ، مثل رواياته عن موقعه صفين ومقتل الحسين وثورات الشيعة والخوارج ، وإذا كان الطبري قد رسم منهجه وحدد مساره في مقدمة كتابه في أنه يذكر كل ما يروى له ويترك للقارئ الحصيف مهمة الاختيار والموازنة ؛ فإن ترك الطبري عديداً من الروايات والأخبار والكتب المصنفة في هذه الأحداث واعتماده أساسا على رواية أبي مخنف يظل أمراً يحتاج إلى تعليل .. وربما كان السبب في ذلك أن روايات أبي مخنف أكثر تفصيلاً من غيرها إذ عاش صاحبها في الكوفة في أسرة شيعية قريبة من الأحداث ، وربما كان السبب أن أبا مخنف أقرب زمنياً إلى هذه الأحداث من غيره من الأخباريين المشهورين الذين كتبوا عنها كالواقدي ، فقد كان أبو مخنف (ت 157هـ) يمارس نشاطاته التاريخية قبل الواقدي (ت207هـ) بنحو خمسين عاما [٦] ..

---

[١] ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 248/1

[٢] فلهوزن : الخوارج والشيعة 179 ، وانظر نقده لروايته تلك ص180ـ186

[٣] ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 147/1

[٤] د. بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية 209

[٥] السابق 279

[٦] راجع علي بكر حسن : الطبري ومنهجه في التاريخ 335ـ336

٣- هشام بن محمد الكلبي (ت 204 هـ / ٨١٩ م) :

هو من أنشط المؤرخين العالمين بالنسب ، وقد روى الطبري روايات أبي مخنف وكثير من روايات عوانة بن الحكم عن طريقه ، وذلك موطن خطورة لاشك فيه ؛ إذ إن هشاما معروف بعدائه لبني أمية . وقد ورث عن أبيه محمد بن السائب الكلبي التشيع والرفض [١] ؛ كما كانت أسرته معروفة بكراهيتها الشديدة للأمويين ، حيث قاتل أبوه الحجاج بن يوسف عامل الأمويين على العراق والمشرق ضمن صفوف عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته المشهورة . كما قتل جده السائب الكلبي مع مصعب بن الزبير في حروبه ضد عبد الملك بن مروان ، وكان جده الأكبر بشر مع علي ابن أبي طالب في موقعتي الجمل وصفين [٢] .

وفضلا عن ذلك كان هشام متين الصلة بالعباسيين قريبا من خلفائهم وأمرائهم ، فقد كتب كتابة " الملوكي " في الأنساب لجعفر البرمكي كما ألف كتابه " الفريد " في الأنساب للمأمون[٣]، وقد سبقت الإشارة إلى دخوله على المهدى العباسي وثلبه الأمويين في الأندلس وأجدادهم إرضاء له ، فظهرت علية بعدها دلائل النعمة وعلائم الرخاء ، وكان قبلها في فقر وضر...

وهو علاوة على ما مضى سيئ السمعة عند أصحاب الحديث ورجاله الخبيرين بأحوال الرواة ، فقد ضعفه أحمد بن حنبل والدارقطني وابن عساكر ويحيى بن معين وغيرهم [٤] ، بل اتهمه بعض الأدباء بالكذب مثل الأصمعي [٥] والأصفهاني الذي ذكر بعض رواياته ثم قال : " هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها ، والتوليد بين فيها وفى أشعارها " [٦] ..

وعلى ذلك فإننا لا نعجب أن نرى مثل هذه الخرافات التي ذكرها عن بني أمية وأجدادهم ومكانتهم في الجاهلية [٧] ؛ ولا أن نقرأ له مثل هذه الرواية الساقطة القدر الواضحة الكذب :" كتب معاوية إلى قيس بن سعد : أما بعد ؛ فإنك يهودي ابن يهودي .. فكتب إليه قيس : أما بعد فإنك وثن

---

[١] راجع عن أبيه واتهامه بالتشيع والكذب واشتهاره بذلك : ابن حجر : تهذيب التهذيب 180/9 ، ابن خلكان : وفيات الأعيان 625/1 ، محب الدين الخطيب : هامش المنتقى من منهاج الاعتدال لابن تيمية 318ـ319

[٢] أحمد أمين : ضحى الإسلام 340/2

[٣] ابن النديم . الفهرست 97 ، شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 192/1

[٤] راجع ابن حجر : لسان الميزان 196/6ـ197 ، والبخاري : التاريخ الكبير 20/4 ترجمة رقم ٢٧٠٨

[٥] ابن حجر : السابق 197/6 ، وانظر : جواد علي : موارد تاريخ الطبري ، مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥١م ج٢ ص ١٣٧

[٦] الأصفهاني : الأغاني 40/10

[٧] راجع ص من هذا الكتاب

ابن وثن ، دخلت في الإسلام كرها وخرجت منه طوعا .. ووصفه في رسالة أخرى كتبها إلى معاوية بقوله إنه ولد ضالين مضلين ، طاغوت من طواغيت إبليس [١] ...

٤- الهيثم بن عدي (ت 206 هـ أو 207 هـ) :

هو أحد النشط مؤرخينا الباكرين وله مكانة عالية في التأليف التاريخي[٢] ولكنه رغم ذلك مرمي بالكذب ، متهم بالشعوبية ، ينسب إلى رأي الخوارج ، وقد جعله كل ذلك ذا جناية كبيرة على التاريخ الأموي ..

فقد كان أبو نواس الشاعر يتهمه بالتلون وادعاء الأنساب [٣] وكانت جاريته تقول عنه : " كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي ، فإذا أصبح جلس يكذب " [٤] ، أي يروى الأخبار الكاذبة ، بينما كان الجاحظ يصفه بأنه يرى رأي الخوارج [٥] وأنه كان يحرف الأخبار لعداوات شخصية [٦] ، كما كان شديد الميل إلى العباسيين ، قوي الصلة بهم فكان ذلك مما زاد من عداوته لبني أمية وتحريفه أخبارهم [٧] ، ويبدو أن العباسيين كانوا – على صلاتهم به – لا يأمنونه لسلاطة لسانه ، فلما ذكر أنساب الناس ومعايبهم وذكر العباس بن عبد المطلب بشيء حبسه العباسيون بضع سنين [٨]، وقد أثار غرامه بذكر مثالب الناس وعيوبهم أبا الفرج الأصفهاني حتى علل ذلك بأن الهيثم كان دعيا فأراد أن يعر أهل البيوتات تشفيا منهم [٩] وأن جده كان يهوديا أسلم على يد بعض آل أبي بكر الصديق فانتمى إلى ولاء بني تميم [١٠]..

---

[١] الجاحظ : البيان والتبيين 68/2 – 69

[٢] شاكر مصطفى :مرجع سابق 184/1 – 185 ، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 109 ، الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ 32

[٣] راجع الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 52/14 ، ابن حجر : لسان الميزان 211/6

[٤] الخطيب البغدادي : السابق والصفحة ، ابن حجر: السابق 210/6

[٥] الجاحظ : البيان والتبيين 274/1

[٦] السابق 63/1

[٧] د. جاسم المشهداني : موارد البلاذري 433/1

[٨] ابن خلكان : وفيات الأعيان 302/2

[٩] الأصفهاني : الأغاني 21/20 –22

[١٠] السابق 22/20

وهو متهم بالتأكيد عند علماء الحديث حيث ينفون عنه العدالة والصدق فيقول عنه علي ابن المديني : " لا أرضاه في الحديث ، ولا في الأنساب ، ولا في شيء "[١]، وكذبه البخاري وأبو داود والنسائي وأبو حاتم وأبو زرعة وغيرهم كثير ، وقال فيه احمد بن حنبل : كان صاحب أخبار وتدليس[٢] ، وقد مر بنا ذكر لمحاولته نسبة شناعات إلى سيرة المهلب بن أبي صفرة وانتقاص مكانته[٣]، كما أنه قد حاول تشويه تدين هشام بن عبد الملك وأخلاقه إذ زعم انه كان يعلم ولده فجور قريش ؛ قتل هذا واخذ مال هذا[٤] ، وله أخبار بشعة ينسبها إلى الوليد بن يزيد الخليفة الأموي تدخل في باب الفحش والإسفاف الذي لا يدرك مداه[٥] ..

٥- الواقدي محمد بن عمر (130 ـ ٢٠٧ هـ) :

وهو أحد الموالي البارزين في التاريخ وغيره من العلوم ، حيث علت مكانته في ذلك المجال[٦]، وكان قوي الصلة بالعباسيين ، متصلا بوزيرهم يحيى بن خالد البرمكي[٧] ، كما اتصل بالرشيد والمأمون وولى له قضاء بعض البلدان وتلقى منه صلاته وهباته[٨] ، وقد روى أنه كان يتشيع ولكنه يلزم التقية ؛ وأنه هو الذي روى أن عليا ﷺ كان من معجزات النبي ﷺ كالعصا لموسى عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى بن مريم عليه السلام ، وغير ذلك من أخبار تدل على تشيعه[٩] ، ولعل قالتزامه التقية جعل بعض الباحثين يرى أنه كان بعيدا عن التحزب[١٠]

---

[١] الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 51/14 ـ 52

[٢] ابن حجر: لسان الميزان 210/6

[٣] راجع ص من هذا الكتاب

[٤] ابن عبد ربه: : العقد الفريد 448/4

[٥] راجع الأصفهاني : الأغاني 171/19 ـ 172

[٦] ابن النديم: الفهرست 144 ، الخطيب البغدادي: السابق 5/3 ـ 6 ،. الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ 31ـ32 ، شاكر مصطفى : مرجع سابق 163/1 ـ 164 مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 108

[٧] الخطيب البغدادي : السابق 4/3ـ5

[٨] السابق ٣/٤ ، 19ـ20 ابن النديم : السابق 144 ، شاكر مصطفى : السابق 163/1

[٩] ابن النديم : السابق 144ـ145

[١٠] د. الدوري :السابق 31 ، شاكر مصطفى : السابق 165/1

يعدونه في رجالهم [١] ، رغم أن بعضهم ترجم له في كتبه مثل أعيان الشيعة لمحسن الأمين [٢] وروضات الجنات للخوانسارى [٣] ، وغيرها [٤] ..

وقد اختلف موقف علماء الحديث منه فبعضهم يوثقه وآخرون يكذبونه ويضعفونه[٥]...

وحين ننظر في تأريخه نجد تأثير الاتصال بالعباسيين ، حيث حذف اسم العباس عم النبي ﷺ من قائمة أسرى بدر [٦] ، كما تنطق أخباره عن الفتنة في عهد عثمان بتحامل كبير عليه وعلى غيره من الصحابة؛ مما قد يدل على نزعات شيعية فيه ، حتى لقد تحفظ الطبري ــ وهو الذي حدد منهجه في نطاق الرواية للأخبار لا نقدها ــ على رواية الواقدى لهذه الأحداث وقال : " وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسير المصريين (الثوار) إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أمورا كثيرة منها ما تقدم ذكره ، ومنها ما أعرضت عن ذكره ، كراهة منى لبشاعته " [٧] ولذلك فإننا نجد أخبارا عديدة يرويها شديدة التحامل على الأمويين منها : زعمه أن زعيم الثائرين على يزيد بن معاوية بالمدينة ــ عبد الله بن حنظلة الغسيل ــ كان يقول :" والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ، إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ، ويشرب الخمر " [٨]، وهذا كذب لاشك فيه على يزيد ، ومنها زعمه أن عبد الملك بن مروان ــ رغم المعروف من فقهه وعدالته ــ أول من أخر الصلاة من الظهر إلى العصر [٩]، ومنها زعمه أن عامل الأمويين على مكة ــ خالد القسري ــ كان يعلن في بعض خطبه إن الخليفة أفضل من رسول الله ! وأن البئر التي حفرها الوليد بن عبد الملك بمكة أفضل من زمزم [١٠]..

---

[١] د. شاكر مصطفى : السابق والصفحة

[٢] أعيان الشيعة 128/1

[٣] روضات الجنات 268/7 ــ 270

[٤] راجع إحسان الهى ظهير : الشيعة والتشيع 84ــ86

[٥] الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 8/3ــ9 ، 11ــ14 ابن حجر : تهذيب التهذيب 363/9ــ368

[٦] راجع كتابه المغازي 138/1 ، وانظر أحمد أمين : ضحى الإسلام 236/2 ، فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الإسلامي ص 50

[٧] الطبري : السابق 356/4

[٨] ابن سعد : الطبقات الكبرى 66/5 ، السيوطى تاريخ الخلفاء 209

[٩] راجع د. جاسم المشهداني : موارد البلاذري 405/1

[١٠] الطبري : السابق 440/6 ، ابن الأثير : الكامل 4/ 110ــ111

٦- أبو عبيدة معمر بن المثنى (114 — 211هـ) :

أحد الموالي المشهورين بالحفظ وسعة العلم [1] ، وقد سبقت الإشارة إلى شعوبيته ، ويتضح ذلك أكثر إذا راجعنا قائمة مؤلفاته وما فيها من كتب عن مثالب العرب وفضائل الفرس [2] ، حتى يروى ابن النديم انه كان وسخا مدخول الدين ، وأنه لما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يسلم منه شريف ولا غيره [3] ، ورغم ذلك يدافع عنه بعض المستشرقين بأنه لم يكن متحيزا للعرب مما جعل الآخرين يتهمونه بالتحيز للموالي [4] !

وكذلك نسب أبو عبيدة إلى رأى الخوارج ورويت عنه دلائل على ذلك[5] ، ولقد كان " يكتم مذهبه ولكنه يخالفه في الصميم ، فهو يتقي الجهرية ، ثم هو أكره للعرب ، وأميل إلى الشعوبية ، ومتصل بالخلفاء والأمراء ومتملقهم ، فهو ليس خارجيا — إن كان — إلا في بعض عقائدها كالطعن على الخلفاء وكثرة التكفير للمخالفين ، على أن يكون ذلك أمرا مكتوما " [6]..

ومن المنتظر من رجل كهذا أن يكون ممن يشنعون على بني أمية ، وينشرون مثالبها ، بل يخترعونها إن لم يجدوها ...

زعم أبو عبيدة أنه لما قتل الحسين أرسل عبيد الله بن زياد إلى المدينة يبشر أميرها عمرو بن سعيد بن العاص ؛ فقرأ عمرو كتابه على المنبر وأنشد:

يا حبذا بردك في اليدين ... حمرة تجرى على الخدين

وأومأ إلى قبر النبي ﷺ قائلا : يوم بيوم بدر ، فأنكر عليه قوله قوم من الأنصار [7]، وروى أبو عبيدة أن خالدا القسري أخذ بعض التابعين فحبسهم؛ فلما أنكر عليه ذلك بعض الناس قال : والله لو أمرني أمير المؤمنين أن أنقض هذه الكعبة حجرا حجرا لنقضتها ، والله لأمير المؤمنين أكرم على الله من

---

[1] راجع بن النديم : الفهرست 79 ، ياقوت : معجم الأدباء 165/6، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 252/13 اليافعي . مرآة الجنان 44/2—46 ، طه الحاجرى : أبو عبيدة مقال بمجلة الكاتب المصري ص 280 السنة الثانية العدد السادس سنة 1926م

[2] راجع ابن النديم : السابق 79 ، ياقوت : السابق 165/6 ، شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 199/1

[3] ابن النديم : السابق 79

[4] جب : دراسات في حضارة الإسلام 149

[5] ابن خلكان : وفيات الأعيان 61/5

[6] أحمد أمين . ضحى الإسلام 336/3

[7] ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 71/4—72

أنبيائه [١] !! ، وقال أبو عبيدة حدثني الهذيل العلاف قال: صعد خالد القسري على المنبر فقـال : إلى كم يغلب باطلنا حقكم ؟؟ أما آن لربكم أن يغضب لكم ؟ [٢] .. وعلى ذلك لا يبدو مقنعـا قـول الدكتور عبد العزيز الدوري عن أبي عبيدة :" وهو لا يتهم بالوضع في رواياته ، ومنزلته العلمية عالية إلا أن أخباره تكشف عن مثالب بشعة " [٣] ..

٧- المدائني علي بن محمد (135ـــ225هـ) :

وهو أحد الموالي من المؤرخين المعروفين بوفرة النتاج التاريخي [٤] ورغم أن بعـض العلمـاء بالرجال كان يثق به [٥] ؛ إلا أن تعلقه بالغرائب والمعارف الطريفة والتفاصيل الشيقة المثيرة للفضول [٦] ربما ورطه في رواية الموضوعات وما لا يوثق به ، ولقد كان ياقوت يحترس في تقييمه له حيث قـال: كان ثقة إذا روى عن الثقات [٧]، ولكن يبدو أن رغبته في الظهور بكثرة العلم ووفرة الرواية قد أدت به إلى رواية كثير من الأخبار الواضحة العداء لبني أمية ..

فهو الذي زعم أن معاوية كتب إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شـيئا في فضل علي بن أبي طالب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر ، يلعنون عليـا ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ، ثم كتب معاوية إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلـدان : أن انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديـوان ، وأسـقطوا عطـاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره [٨]، ولا ريب أن ذلك كله كذب صراح ، وقد حفظ لنا التاريخ سيلا من الراويات والأخبار في تفضيـل آل البيت وعلي ﷺ منها الصحيح وأكثرها الزائف الموضوع ، فما منعهم من ذلك أحد بقوة السلطان ،

---

[١] الأصفهاني : الأغاني 25/22

[٢] السابق 23/22

[٣] الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ 45

[٤] راجع ابن النديم : الفهرست 102 ، ياقوت : معجم الأدباء 126/14 ، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 99ـــ103 ، شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 186/1

[٥] ياقوت : السابق 125/14 ـــ 126

[٦] شاكر مصطفى : مرجع سابق 155/1

[٧] ياقوت : السابق 126/14

[٨] ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 44/11 ـــ 45

وأكثرها إنما أتى من العصر الأموي ... وقد كانت علاقة الأمويين بآل البيت تنطق بالاحترام والود ؛ ما لم يثر أحدهم ، فعندها يعاملونه كآي ثائر آخر[١] ..

وشاركت روايات المدائني في تشويه صورة يزيد بن معاوية ، حيث نسب إليه سخفا كثيرا [٢] ، وكذلك فعل مع الوليد بن زيد [٣] ؛ وإن وجدنا له روايات أخرى منصفة ليزيد بن معاوية [٤]، ولكن ما أكثر ذاك وما أقل هذا .. ولقد ساهم المدائني كذلك في الحملة على خالد القسري والي الأمويين على العراق في بعض رواياته [٥]..

---

[١] راجع ص من هذا الكتاب

[٢] البلاذري : أنساب الأشراف 1/4

[٣] راجع الأصفهاني : الأغاني 46/7 ــ 47

[٤] راجع البلاذري السابق 11/4 ، ابن طولون : قيد الشريد 33 وانظر روايات أخرى فيها إنصاف لبني أمية (أنساب الأشراف 296/5 ــ297)

[٥] الأصفهاني : الأغاني 21/22 ــ22

المبحث الثاني : الأمويون في كتابات المؤرخين القدماء

تمثل كتابات المؤرخين القدماء المصدر الرئيس للتاريخ الأموي فهي بكثرة رواياتها واتساع رؤيتها ووفرة تفصيلاتها تكاد تغطي معظم جوانب ذلك التاريخ السياسية وكثيرا من الجوانب العسكرية والاقتصادية ، مما يدفع بالمصادر الأخرى ككتب الأدب وكتب الفقه والحديث ـ غالبا ـ إلى مرتبة ثانوية مساعدة ؛ من أجل شمول الرؤية واستكمال النقص ، وإن ظلت من هذه الزاوية مصادر لا غنى عنها ...

وتحتل كتابات المبكرين من هؤلاء المؤرخين كالبلاذري واليعقوبي والطبري والمسعودى أهمية خاصة فقد اهتم هؤلاء المؤرخون باستيفاء جل الروايات السابقة عليهم ، وضمنوا في كتبهم جهود من سبقهم من الرواة والمؤرخين الأوائل كأبي مخنف وابن الكلبي والواقدي والمدائني الذين كتبوا أجزاء مختلفة متفرقة من التاريخ جمعها هؤلاء المؤرخون ليكونوا منها تاريخا شاملا متصل الحلقات وافر المادة ، فاستغنى الناس بكتاباتهم عن كتابات من سبقهم فقل شأنها وضاع معظمها ... كما أن من تلاهم من المؤرخين المتأخرين اعتمد عليهم وأخذ عنهم ، فجاءت كتابات هؤلاء المتأخرين في كثير من الأحيان تكرارا لكتابات من سبقهم أو اختصارا لها وإن لم تخل أحيانا من الجديد المفيد في المادة والفكر ..

واتسمت كتابات المؤرخين القدماء التي وصلت إلينا في مجملها فيما يخص التاريخ الأموي بسمتين أساسيتين :

١- الاعتماد على الرواية وقصور النقد التاريخي :

ويعتمد بعض هؤلاء المؤرخين على الرواية اعتمادا كاملا ، فتأتي كتاباته مجموعة من الروايات المتتابعة تغطي في مجملها الحدث التاريخي موضع التناول ، ويذكر إسناد كل رواية إلى راويها الأول ، ثم يترك لقارئه فرصة قبولها أو رفضها ؛ ملقيا التبعة كاملة على القارئ والرواة ... فلا يمنعه ذلك المنهج من رواية ما يستغرب ويعاب ، دون نقده أو تمحيصه ، فمهمته كما يراها تنحصر في النقل لا النقد [1]، وفى استيعاب الأخبار والمحافظة عليها [2] وجمعها بشكل شامل ومنظم [3] ، وإن

---

[1] د. عثمان موافي : منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي 229

[2] د ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 21/1

[3] د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 173/1

وصلت أحيانا إلى حد التناقض والاختلاف [١] ، حتى" وصلت إلينا هذه التركة ، لا على أنهـا هـي تاريخنا ، بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا " [٢] ...
ويعد الطبري (ت.31هـ) رائد هذا الاتجاه ، فيقول في مطلع كتابة "تاريخ الرسل والملوك " : " فمـا في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من اجل أنه لم يعرف له وجها في الصحـة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وأنه إنما أتيَ من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا " [٣]..

ونجد المنهج نفسه عند ياقوت الحموي (ولد سنة 626هـ) بعد حوالي ثلاثمائة سنة من وفـاة الطبري حيث يقول في مقدمة كتابة " معجم البلدان " وهو كتاب جغرافي في المقـام الأول، لكنـه يحوى كثيرا من المعلومات التاريخية المهمة:" لقد ذكرت (أي في هدا الكتاب) أشياء كثيرة تأباهـا العقول ، وتنفر منها طباع من له محصول ، لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها مع المشـاهدات المعروفة ...وأنا مرتاب بها ، نافر عنها ، متبرئ إلى قارئها من صحتها ، لأني كتبتها حرصا على إحراز الفوائد ... ولتعرف ما قيل في ذلك حقا كان أو باطلا " [٤] ..

وبجوار هؤلاء المؤرخين الذين يلتزمون بذكر مصادرهم ورواتهم دائما عنـد كـل روايـة جديدة ، وجد نوع آخر من المؤرخين القدماء يكتفي بذكر مصادر رواياته في مقدمة كتابه جملـة ، أو بذكر بعض هؤلاء الرواة بين الحين والآخر في صفحات الكتاب ، مثلما فعل اليعقوبي الـذي ذكـر مصادره الأساسية في مقدمة القسم الثاني من كتابه [٥] ، والمسعودي الذي ذكر مصـادره في مقدمـة كتابه" مروج الذهب " [٦] ، وأبو حنيفة الدينوري الذي كان يذكر مصادره بين الحين والآخر[٧] ..

إن قصور النقد التاريخي عند مؤرخينا القدماء لا يعني عدم وجوده بـالمرة، فقـد كـانوا يمارسونه بصورة غير ظاهرة في كتاباتهم ،" فمن فيض هائل من الروايات التاريخية كان المؤرخ يمدنـا بعدد منها فقط ، محدود على أية حال ، وكان يقوم بجهد كبير في الانتقاء للروايات ومقارنتها ، ونفي

---

[١] د. ماجد : السابق 25/1

[٢] محب الدين الخطيب : هامش العواصم من القواصم لابن العربي 179

[٣] تاريخ الرسل والملوك 8/1

[٤] معجم البلدان ١/ 5 ، ونجد ذلك أيضا عند ابن عساكر ، راجع مقدمة د. صلاح الدين المنجد لتاريخ دمشق ١/٤ ، ٣٥

[٥] تاريخ اليعقوبي 3/2ـ4

[٦] مروج الذهب 5/1

[٧] د. شاكر مصطفى . 248/1 ـ 249

ما لا يقبله منها ، أو دمج بعضها في بعض ، إن التدوين التاريخي الإسلامي في الحقيقة إنما يتضمن في شكله الوصفي المعطى تلك العمليات الفكرية من استقراء ومناقشة وتفضيل رواية على أخرى ، ولكن دون الإعلان أو التسجيل لكافة تلك المراحل التحضيرية السابقة للكتابة ، والتي قلما يكشف عنها المؤلف ، وندر جدا من المؤرخين من كانت كتابته مجرد سرد ساذج لا يحمل ضمن السطور تأويله الخاص وتفسيره الذاتي ..."[1] ..

إن هذا الاعتماد على الرواية من جانب مؤرخينا القدماء مع قصور النقد التاريخي وإلقاء التبعة على القارئ فيما يأخذ ويدعْ من هذه الروايات بعد أن علم أسماء رواتها ، يحتم على دارس التاريخ الإسلامي معرفة هؤلاء الرواة وأحوالهم حتى يعرف أهل الثقة فيهم فيأخذ منهم ، ويعرف أصحاب الهوى والغرض فيتجنب مروياتهم ، وعلم الترجمة والجرح والتعديل يمدنا بكثير من المعلومات المهمة التي تيسر لنا هذه السبيل ؛ إن ذلك " النقد الظاهري" للخبر يجب أن يصاحب النقد الداخلي للرواية حيث تدرس الراوية في أجزائها مع مقابلتها بغيرها من الروايات المناظرة لها ، كما يجب أن تفحص مصادر هؤلاء المؤرخين الذين يذكرونها مجملة ولا يذكرون الرواة عند كل خبر ، أما ما ينهجه بعض المؤرخين المعاصرين من اختيار جانب من الروايات التاريخية وإغفال جانب آخر دون دراسته أو محاولة معرفته لأن هذا الجانب أو ذاك يناسب فكرا معينا لدى المؤرخ أو الكاتب فذلك مزلق يخالف التجرد والعدالة ، فإذا كانت غاية المؤرخ هي الوصول إلى الحقيقة ، فالحقيقة هي كل الحقيقة ، لا بعضها ، وهى وحدة تامة لا تتجزأ "[2] ..

٢- شيوع التحامل على الأمويين :

يبدو في معظم كتابات المؤرخين القدماء التحامل على بنى أمية ، وتلك نتيجة طبيعية لاعتمادهم على الرواية وقصور النقد التاريخي عندهم ، ولقد مر بنا عند ذكر رواة التاريخ الأموي أن كثيرا منهم كانوا من المتحزبين ضد بني أمية ، سواء كانوا من الشيعة أو من المتأثرين بهم ، كأبي

---

[1] السابق 457/1 , روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين 92

[2] د. أسد رستم : مصطلح التاريخ ص 4 ، وقد انتبه علماؤنا قديما لخطأ منهج الانتقاء هذا ، فقال أحد علماء الحديث الشريف في معرض ذكره لآداب طالب الحديث : " ليكتب وليسمع ما يقع إليه من كتاب أو جزء على التمام ، ولا ينتخب ، فقد قال بن المبارك (ض) : ما انتخبت على عالم قط إلا ندمت ، وروينا عنه أنه قال : لا ينتخب على عالم إلا بذنب ، وروينا أو بلغنا عن يحيى بن معين أنه قال : " سيندم المنتخب في الحديث حين لا تنفعه الندامة " (ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث 212) وان السبب الذي دفعهم إلى التحذير من الانتقاء في الحديث هو ما يدفعنا إلى الحذر في التاريخ ، حيث إن نشدان الحقيقة هو غاية كلا العلمين

مخنف والهيثم بن عدي وابن الكلبي وغيرهم ، أو الناقلين عن هؤلاء ممن تلاهم من أوائل المؤرخين الجماعين كالواقدي والمدائني ، وقد أدى اعتماد كبار مؤرخينا القدماء على هؤلاء وأولئك إلى شيوع رواياتهم في كتبهم ، وهي روايات في مجملها معادية لبني أمية ودونت في ظل السيادة السياسية للعباسيين .. فإذا أضفنا إلى ذلك أن جماعة من أكابر هؤلاء المؤرخين كانوا من الشيعة أو المرتبطين بالبلاط العباسي أو القريبين منه كان من المتوقع أن تصطبغ معظم روايات التاريخ الإسلامي عند هؤلاء المؤرخين ، ومن نقل عنهم ممن تلاهم بالعداء للأمويين ...

فمن المؤرخين الشيعة :

١- اليعقوبي [١] :

وهو أحد المؤرخين الموالي المنتمين إلى أصل فارسي [٢] ، كما كان من بيت وثيق الصلة بالأسرة العباسية حيث عمل أبوه وجده ـ وربما هو في بعض المناصب الإدارية في الحكومة العباسية [٣]، كما أن هذه الأسرة عرفت بميولها العلوية القوية [٤]، وقد تركت هذه العوامل آثارها على تأريخه للأمويين .

فثمة روايات تحمل وجهة نظر عباسية في كتابه " تاريخ اليعقوبي" [٥] وروايات أخرى تحتفي بذكر آراء الأئمة العلويين وسيرهم [٦]، بينما تحمل رواياته عن بني أمية روحا معادية ، فهو يزعم ـ مثلا ـ أن عبد الملك بن مروان بنى قبة الصخرة ليحج الناس إليها بدلا من الكعبة أيام ثورة ابن

---

[١] هو أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح اليعقوبي توفى سنة 248 هـ على ما يقول ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٥٤/٥) بينما يرجح شاكر مصطفى أن وفاته كانت سنة 292 هـ كما تدل بعض الأخبار الواردة في كتابه البلدان (انظر التاريخ العربي والمؤرخون 249/1) ، E , L . (Al Yaqubi)

[٢] يرجح أن جده الأكبر " واضحا " كان من أصفهان بفارس فيسميه العاملي:الأصفهاني (أعيان الشيعة 330/10)

[٣] كان جده واضح أحد موالي الخليفة المنصور(ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 40/2) أو كان مولى صالح ابن الخليفة المنصور كما يرى الطبري : السابق 591/10 ، وقد تولى ذلك الجد بعض الوظائف الإدارية في أرمينيا وأذربيجان وفى مصر ، وكان أبو اليعقوبي من كبار عمال البريد ، وتولى اليعقوبي نفسه بعض الوظائف عند الطاهريين على ما يبدو ، كما كان يحمل لقب العباسي نسبة إلى البيت العباسي (الجعفرى اليعقوبي المؤرخ والجغرافي 21 ،24، 26ـ27)

[٤] الطبري : السابق 591/10

[٥] تاريخ اليعقوبي 318/2 ، 392 ، 408 حيث يسمى الدعوة العباسية الدعوة الهاشمية ، وانظر تاريخ اليعقوبي 54/3 حيث يزعم أن هشام بن عبد الملك تنبأ باستيلاء أبي العباس السفاح على الحكم ،وروايات أخرى موالية للعباسيين (تاريخ اليعقوبي 61/3ـ62)

[٦] تاريخ اليعقوبي 35/2 ، 52 ، 125 ، 126ـ127

الزبير [١] ويزعم أنه في عهد الوليد بن عبد الملك ـ الذي كان عهد رفاهية وتحضر وعمران ـ قد انكسر الخراج فلم يحمل كثير شيء [٢] ، وتبدو صورة سليمان بن عبد الملك قاتمة في تاريخه ، فهو يزعم أنه قد أمر بإحراق المجذومين لأنهم طافوا ببيته حتى منعوه النوم، ثم خفف الحكم عنهم إلى النفي [٣]، وأنه لما أراد بناء مدينة الرملة خرب من أجلها مدينة اللد ، فأمر أهلها بهدم منازلهم والبناء بالمدينة الجديدة وعاقب من امتنع عن ذلك حتى أذعن لأمره [٤] ، وعلى نفس النمط من التحامل كانت بعض رواياته عن عمر بن عبد العزيز ؛ فيزعم أنه دفن سليمان بن عبد الملك ـ وبه بقية من الروح ـ عجلا كي تتول إليه الخلافة [٥] ، وذلك ما لا يمكن أن يحدث من ذلك الخليفة الراشد ، كما تحمل رواياته عن هشام بن عبد الملك نفس العداء فتصفه بالغلظة والظلم والقسوة وأنه قد فشا الطاعون في عهده ، حتى هلك عامة الناس ، وذهبت الدواب والبقر [٦] ، إلى غير ذلك من روايات. وبهذا لا نستطيع أن نصدق تلك الدعوى التي يردها بعض الباحثين من أن اليعقوبي كان دقيقا في معلوماته صادقا في رواياته مما أعطى مؤلفاته القيمة العلمية ، ورواياته التقدير من قبل الباحثين والمؤلفين" [٧]...

٢- ابن أعثم الكوفي [٨] :

ورغم قلة المعلومات المتوافرة عنه فان كتابه "الفتوح " ينضح بالمغالاة في التشيع ، بل ربما كان الدافع الأول إلى تأليف ذلك الكتاب هو الدعاية لمذهبه ، ولعل ذلك هو ما دفع جل مؤلفينا

---

[١] السابق 7/3

[٢] السابق 29/3

[٣] السابق 30/3

[٤] السابق 31/3

[٥] السابق 37/3

[٦] السابق 58/3

[٧] روزنثال علم التاريخ عند المسلمين 13 ، ياسين الجعفري : اليعقوبي المؤرخ والجغرافي 78

[٨] تختلف المصادر اختلافا كبيرا حول اسم ذلك الرجل ، فقيل إنه أحمد بن أعثم ؛ وقيل إنه محمد بن علي أو أحمد ابن علي أو أحمد بن محمد بن علي ، أو أبو محمد علي ، كما لا تقدم هذه المصادر الكثير عنه ؛ غير النص على أنه كوفي ؛ وربما كان أزديا نظرا لإشادته بهم في كتابه الفتوح ؛ كما يظهر الكتاب عنه تشيعا واضحا (راجع : ياقوت : معجم الأدباء ١/ ٢٣٠ ، ابن حجر : لسان الميزان ١/ ١٣٨، الزركلي : الأعلام١/ ٩٦، حاجي خليفة : كشف الظنون ٢/ ١٢٣٩، د. محمد جبر أبو سعدة : ابن أعثم ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح ص ٣٩-٤١) ، وتوفي ابن أعثم سنة ٣١٤هـ

القدماء إلى التغاضي عن ذكر ذلك الكتاب أو الاستشهاد به ، مع ما فيه من أخطاء تاريخية فادحة " [١]؛ وتحامل على كثير ممن ينحاز عن التشيع أو يعاديه ..

وعلى ذلك فهو يعلي من شأن علي ﷺ وأولاده ؛ فيزعم معرفة علي بالغيب [٢] ، ويورد أغاليط عديدة وأحاديث مكذوبة عن ثورة الحسين ومقتله [٣].. وتأريخه للأمويين ينطق بالعداء لهم ؛ مثل مغالطاته بشأن أبي سفيان بن حرب [٤] ، وتحامله على عثمان بن عفان [٥] ، وإيراده الأحاديث الموضوعة عن دعاء النبي على معاوية وابنه يزيد [٦] ، وزعمه موت يزيد نتيجة شربه الخمر [٧]، وإجرائه حديثا مكذوبا على لسان شيخ مجهول إلى هشام بن عبد الملك يكيل فيه السباب لبني أمية وأعلامهم [٨].. إلى آخر هذه الأمثلة التي يزخر بها الكتاب الذي لا يصرح رغم ذلك بمصادره ولا شيوخه في معظم الأحوال ؛ وان صرح بهم كانوا رجالا مجهولين أو رجالا ماتوا قبله بعشرات السنين [٩] !

---

[١] راجع عن أخطائه · الفتوح ١/ ١٢٥، وعن الفتوح في عصر الراشدين راجع : الفتوح ١/ ١٠٩-١١٢، ١٦٠-١٦١ ، ٢/ ١٢٨-١٣١

[٢] الفتوح ٢/٧-١٨٠، ٤/١٢٠

[٣] السابق ٤/ ٢١٤-٢٢٠، ٥/٩٢-٩٤ ، عن مسلم بن عقيل

[٤] حيث يزعم إنه هو الذي أصر على محو اسم النبي ﷺ من وثيقة الصلح في الحديبية وليس سهيل بن عمرو (الفتوح ٤/٨-٩)

[٥] الفتوح ٢/١٥١-١٥٣، ١٥٥، ٢٢٤-٢٢٦

[٦] السابق ٥/١٨-٣٩

[٧] السابق ٥/ ٣٠٣

[٨] السابق ٢/٤٨١-٤٨٧

[٩] أبو سعدة ابن أعثم ومنهجه ٦١-٦٥

٣ـ المسعودى [١] :

يتهم المسعودى بالتشيع والاعتزال وأن كتبه طافحة بذلك [٢]، وقد كان معتزليا فعلا ، ولكننا لا نجد في كتبه ما يشير إلى هذا المذهب بشكل يوحي بتعصبه أو تحيزه [٣]، أما تشيعه فهو أمر يثبته استعراض قوائم كتبه ففيها كتب ألفت في الإمامة وآل البيت [٤] ، وقد ظهر آثار ذلك التشيع على روايات تاريخية في كتابه مروج الذهب حيث يتحدث بإعجاب كبير عن على بن أبي طالب [٥] ، كما ظهرت في تأريخه للأمويين ؛ حيث لا تحمل رواياته ودا نحو معاوية بل تزخر بالسباب واللعن[٦]، وإن لم يخف إعجابه بمهارته السياسية [٧] ، ويتهمه بالاتهامات الشائعة غير الثابتة مثل اتهامه بقتل الحسن ابن على [٨] ، وقد صور المسعودى حياة يزيد بن معاوية وضروب اللهو المزعوم الذي ينسب إليه بطريقة لا تخلو من الإسفاف [٩]، بل تخرجه من دائرة الإسلام [١٠] ، ويرى أن فرعون كان أعدل منه في رعيته [١١]، كما كان المسعودى واضح التحامل على الوليد بن عبد الملك الذي يصفه بالقسوة والظلم [١٢]، وأسرف في الحديث عن لهو يزيد بن عبد الملك وحكاياته مع جواريه التي لا تخلو من الوضع والافتعال [١٣] ، وكذلك يفعل حين يتحدث عن الوليد بن يزيد الذي يبالغ جدا في وصف

---

[١] المسعودى : هو على بن الحسين الهذلى ، ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود ، ولد سنة 287 هـ في بغداد ، وطاف ببلاد كثيرة ثم مات بمصر سنة 345 أو سنة 346 هـ (راجع ابن النديم : الفهرست 154 ، السبكي : طبقات الشافعية 456/3 ـ 457 ، ابن حجر : لسان الميزان 225/4)

[٢] ابن حجر : السابق 225/4 ، السبكي : السابق 456/3

[٣] الخربوطلى : المسعودى 31

[٤] منها كتاب الصفوة في الإمامة ، ورسالة البيان في أسماء الأئمة ، وكتاب الاستبصار في الإمامة (ابن النديم الفهرست 155 ، شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 49/2) وكتاب مناقب أهل البيت وأخبارهم (المسعودى : مروج الذهب 86/3)

[٥] حيث يفضل عليا على جميع الصحابة (مروج الذهب 3/ ٦١)

[٦] السابق ٣/١٣-١٤

[٧] السابق ٣/٤٥ ، التنبيه والإشراف ص ٢٦٦

[٨] مروج الذهب ٣/٥

[٩] السابق ٣/٧٧

[١٠] السابق ٣/٨١

[١١] السابق ٣/ ٧٨

[١٢] السابق ٣/١٦٦

[١٣] السابق ٣/٢٠٩

لهوه وعبثه [١] ، ويتهمه بالكفر وتمزيق المصحف بسهامه وإنكار الوحي[٢]. ويجب ألا ننسى هنا رواياته التي تتسم بالخرافة والأسطورة عن ميلاد الحجاج بن يوسف وكثرة ضحاياه [٣]، وتبدو مع ذلك في كتابته روايات عباسية [٤]، ولم يخل كتابه بالرغم من ذلك من روايات معتدلة عن بني أمية [٥]!

مؤرخون رواة:

ويمثل هذا الاتجاه جماعة على رأسهم البلاذري والطبري ؛ فهما يرويان أحداث التاريخ مسندة إلى رواتها، ولا يتدخلان في هذه الرواية نقدا أو تعليقا إلا فيما ندر ، ومن الطبعي أن يكون هذا الاتجاه أكثر حيادا من الاتجاه السابق الذي التزم مؤرخوه نهج التشيع والتحامل على الأمويين غير أنه ظهر في هذا الاتجاه أيضا قدر كبير من التحامل على بني أمية ، فتأثير العصر الذي عاش فيه هؤلاء المؤرخون ــ وهو العصر العباسي ــ وتحيز معظم الرواة الذين اعتمدوا عليهم ، قد طبع كثيرا من أخبارهم بهذا التحامل .

١ ــ البلاذري [٦] :

كان البلاذري وثيق الصلة بالبيت العباسي ، فقد امتدح بعض خلفائهم ، كما عمل مربيا لعبد الله بن المعتز الخليفة والشاعر المشهور[٧]، ورغم ذلك فان رواياته توصف بالاعتدال والموضوعية وأنها "لا تشرد وراء الاستطراد والهوى" [٨]، وفى "كتابه فتوح البلدان " قدم بعض المعلومات التاريخية والحضارية المهمة ، ولكن كتابه " أنساب الأشراف " اهتم اهتماما خاصا بالتاريخ الأموي ؛

---

[١] السابق ٣/٢٢٧-٢٢٨

[٢] السابق ٣/٢٢٨-٢٢٩

[٣] السابق ٣/١٣٢ ، ١٧٥-١٧٦

[٤] السابق ٣/١٨٨-١٨٩

[٥] السابق 58/3 ، 169ـ170 ، 184 ، 187 ،221ـ222 ، التنبيه والإشراف ص 276

[٦] هو أحمد بن يحيى بن جابر ؛ بغدادي توفى سنة 279 هــ (انظر ياقوت: معجم الأدباء 91/5ــ92، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 131ــ132 ، الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص 49 وما بعدها)

[٧] امتدح المأمون (ياقوت : السابق 99/5 ، ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق 109/2 ، ابن حجر لسان الميزان323/1) وكان من المقربين إلى المتوكل (ياقوت · السابق 128/1ــ129) وامتدح المستعين بالله وكان من جلسائه (الكتبي : فوات الوفيات 156/1) وعن تربيته ابن المعتز انظر · ياقوت · السابق 99/5 ، شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون 243/1

[٨] الدوري : مرجع سابق ص 50 ، شاكر مصطفى : السابق 245/1

حيث فاقت الروايات التي أوردها البلاذري عن الأسرة الأموية ما أورده عن غيرها ، فهي تكــون ثلث الكتاب تقريبا [١] .. وروايات البلاذري تبدو متزنة بالنسبة للعصر الأموي في أحيان كثيرة كمــا سبق القول ؛ مثل تأريخه لثورة المدينة على حكم يزيد بن معاوية [٢] ، وإن كان تحامل الرواة قد تــرك تأثيره الواضح على عديد من صفحات الكتاب ، فبدا البلاذري شديد التحامل علــى يزيــد بــن معاوية [٣]، شديد التعاطف مع بعض حركات المعارضة ضد الأمويين ؛ كما ظهر في تناوله أحداث ثورة الحسين بن علي ؛ حيث اعتمد بصورة أساسية على رواية أبي مخنف لوط بن يحيى وهو شيعي متعصب ضد الأمويين[٤]، وبينما يصف البلاذري الدولة العباسية بأنها " الدولة المباركة " [٥]، والخلافة العباســية [٦]، فإنه لا يسمي الحكام الأمويين خلفاء إلا اثنين منهما هما عثمان بن عفان الخليفة الراشد وعمر بن عبد العزيز [٧]...

٢-الطبري [٨] :

وقد اشتهر كفقيه ومفسر بتحرره من الضغوط السياسية التي تؤثر على عمل المؤرخــين في أحيان كثيرة [٩] ، كما تحرر من الضغوط المذهبية حيث كان يكفر الخــوارج والرافضــة ولا يقبــل شهاداتهم ولا يجيز التوارث بينهم وبين المسلمين [١٠]، وبالتالي يبدو اتهامه بالتشــيع غــير ذي قيمــة حقيقية [١١].

ويعد كتابه " تاريخ الرسل والملوك " أغزر مصادرنا التاريخية المتاحة مــادة عــن العصــر الأموي ، وقد أتاح إسناده هذه المادة إلى مصادرها الأصلية ورواتها المتتابعين الفرصة لدراسة اتجاهات

---

[١] د. جاسم المشهداني : موارد البلاذري 10/1

[٢] أنساب الأشراف 32/4 ــ 35

[٣] السابق 1/4ــ2

[٤] السابق 21/4ــ30

[٥] فتوح البلدان 156

[٦] المشهداني : موارد البلاذري 60/1

[٧] السابق والصفحة

[٨] ولد محمد بن جعفر بن جرير الطبري في آمل بطبرستان سنة 225 هـ وتوفى سنة 310 هـ (انظر المراجع التالية)

[٩] السبكي : طبقات الشافعية 137/2 ــ 138 ياقوت : معجم الأدباء 87/18 ، السيوطي:طبقات المفسرين 11 ، الحوفي : الطبري ص 50 ــ 54

[١٠] ياقوت : السابق معجم البلدان 13/13 ابن حجر : لسان الميزان 100/5 ، د .الحوفي : الطبري 252ــ256

[١١] ياقوت : معجم الأدباء 40/18 ، ابن حجر : السابق 100/5 ، ياقوت : معجم البلدان 63/1 مادة آمل .

هؤلاء الرواة ومواقفهم من الحكم الأموي وتناولهم لأحداث تاريخه ، غير أن السمة البارزة في تـاريخ الطبري هي عنايته الفائقة بتاريخ العراق والمشرق الإسلامي — وبدرجة اقل تاريخ الحجاز — في حين يقل اهتمامه إلى حد كبير بتاريخ مصر وشمال أفريقيا والمغرب والأندلس؛ بل بتاريخ الشام حيـث دار الخلافة الأموية وموطن القرار الأول في الدولة ، ولقد ترتبت على ذلك نتائج مهمة ، فبينما أفـــرد الطبري مساحات واسعة للحديث عن الفتوحات الإسلامية في بلاد خراسان وما وراء النهر نجده يمر مرورا سريعا بالفتوحات الإسلامية لشمال أفريقيا والمغرب والأندلس ؛ رغم ما واجهته من مشــاق واستغرقته من زمن ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للحروب في الجبهة الشمالية في اتجاه القســطنطينية وجزائر البحر المتوسط لقد خسر تاريخ الأمويين بذلك مترجما ماهرا لإحــدى أكــبر المنجـزات التاريخية لبنى أمية في هذه الجبهات ..

ولقد خسر التاريخ الأموي مرة أخرى عندما لم يهتم الطبري بإبراز المنجزات الحضاريـة في العهد الأموي . فتعريب الدواوين ، وتعريب العملة وتنظيمها ، والجهود المعمارية الضخمة في عـهد بني أمية والتي لا يزال بعضها — أو آثارها — باقية حتى الآن لا تظفر من مؤرختنا إلا بالنظرة العجلى أو اللمحة المتسرعة ...

على أن النتيجة الأخطر لاهتمام الطبري بتاريخ العراق والمشرق بصورة أساسية واهتمامـه بتاريخ الحجاز في المرتبة التالية ، على حساب بقية العالم الإسلامي المتسع ، هي تركيز الأنظار علـى حركات المعارضة ضد الأمويين ، باعتبارها أبرز الظواهر التاريخية في تاريخ العراق والحجاز ، ولقــد تناول الطبري هذه الثورات من خلال الرؤية العراقية لها؛ وهي رؤية لا شك في تحاملها على الأمويين، وأبرز رواة الطبري في هذه الأحداث هم من الشيعة أو الشعوبيين أو الخاضعين والنـاقلين لروايـات هذين الصنفين من الرواة [1] ، وهكذا جاء حديثه المسهب عن ثورة الحسين وابن الزبير وابن الأشعث وغيرهم ليحمل وجهة نظر هؤلاء الثائرين في الدولة الأموية وليزيد من الصورة القاتمة لها .

ورغم كل ذلك فالباحث المنصف يجد في تاريخ الطبري روايات معتدلة متعددة تحقـــق في مجملها شيئا من التوازن عن هذه الحقبة من تاريخنا ...

---

[1] من أبرز هؤلاء الرواة هشام الكلبي الذي يروى عن أبي مخنف وعوانة بن الحكم ، ومنهم الواقدي والهيثم بن عدي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وغيرهم .

المبحث الثالث: الأمويون في كتابات قدامى الأدباء

تمثل كتب الأدب العربي مصدرا مهما من مصادر التاريخ الإسلامي ، ويحتل تاريخ بني أمية مكانة مهمة في هذه الكتب التي لم تقصر اهتمامها على فنون الأدب المعروفة من شعر ونثر ، بل تطرفت إلى ذكر لمحات من التاريخ السياسي للدولة ، واهتمت بجوانب شتى من حياة الخلفاء والأمراء والقادة الذين ساهموا في تشكيل أحداث ذلك التاريخ، كما اهتمت بعلاقات هؤلاء الخلفاء والقادة الاجتماعية وصلاتهم ببعض الشعراء والأدباء الذين لعبوا دورا بارزا في أحداث ذلك العصر ، وصورت الحياة الخلقية في المجتمع الإسلامي في العصر الأموي تصويرا خاصا يحقق غايات كتب الأدب التي تهدف أول ما تهدف إلى تقديم المتعة الفنية واللذة الأدبية للقارئ ، وعلى ذلك فان مكانة الأدب في العصر الأموي ، وحركة المجتمع وتكويناته ؛ ورقي الأخلاق وتدنيها ، وتوزيع الفقر والثروة ، وتحضر الدولة وبداوتها .. كل ذلك تسعفنا فيه كتب الأدب أكثر من غيرها ..

وقد اهتم المؤرخون قديما وحديثا بذلك المصدر الثقافي المهم ، فأخذوا عنه ما بنوا عليه أحكاما تاريخية ، أو ما استشهدوا به على صحة مروياتهم التاريخية ، فالطبري والمسعودى وغيرهما من القدماء يروون كثيرا من هذه الشواهد الأدبية في مواطن شتى من تأريخهم ، كما نجد اعتمادا واضحا عند المؤرخين المحدثين على ما يرد في كتب الأدب مثل الأغاني والبيان والتبيين وعيون الأخبار وغيرها .

وكتب التاريخ عادة يتداولها فريق من الناس له شغف خاص بها أو قدرة على التعامل معها، أما كتب الأدب فتشيع عند جماهير الناس ، ويتداولها عوام الخلق ، ممن لا قدرة لهم على تمييز الصحيح من الزائف في أخبار هذه الكتب ؛ بينما تغريهم سلاسة أسلوبها وطرافة مادتها ، والتصاقها بالنفس ؛ فيصدقون ما فيها دون نقد أو درس أو تمحيص وبذا تكون في بعض جوانبها أشد خطورة وأعمق أثرا من كتب التاريخ العام ومصادر التاريخ الأخرى .

وفيما يختص بتناول كتب الأدب العربي للحياة في العصر الأموي نستطيع أن نرصد ظاهرتين أساسيتين .

١- القصد إلى تحقيق المتعة الفنية أو أغراض أدبية وضمور النقد التاريخي :

يحتاج الباحث في كتب التاريخ العام إلى قدر كبير من الحذر والحيطة والدراية بأسس النقد التاريخي للخبر ، سواء كان نقدا خارجيا ينقد الإسناد وسلسلة الرواة ، أو داخليا ينقد الخبر ذاته ، ويدرس منطوقه وجزئياته ؛ ويقارنها بغيره مما ورد في بابه .. بينما يحتاج القارئ لكتب الأدب إلى

حذر أشد ، وحيطة أشمل ، قبل اعتماد ما ورد فيها من أخبار وروايات تخص حقائق التاريخ وأحداثه، فإن القصد الأول من هذه الكتب كان تقديم جرعات متنوعة من الثقافة العامة ، بطريقة مشوقة ؛ تدفع الملل عن القارئ وتدخل على نفسه المتعة واللذة والمؤانسة ، وتستعين على ذلك بسوق الأمثال والحكم والطرائف والنوادر ، متخففة في ذلك من نقد مصادرها ، فيختلط فيها الجد بالهزل .. والحزم بالسخف ، وأحاديث الرسول صلوات الله عليه وأخبار الراشدين والصالحين بأخبار المجان والمغنين والساقطين وقصص الأدب المكشوف ..

فذلك ما صرح به أصحابها ، وأعلنه كتابها ، ولكنه غاب عن ذهن بعض القارئين والدارسين في عصرنا وغيره ، فيقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه عيون الأخبار :" وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب .. واعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال ؛ عمن هو فوقنا في السن والمعرفة ؛ وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، وعمن هو دوننا ، غير مستنكفين أن نأخذ من الحديث سنا لحداثته ، ولا عن الصغير قدرا لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها ؛ فضلا عن غيرها ، فإن العلم ضالة المؤمن ؛ من حيث أخذه نفعه ، ولن يزري بالحق أن تسمعه من المشركين ،.. فأما علم الدين والحلال والحرام ؛ فإنما هو استيعاب وتقليد ، ولا يجوز أن تأخذ إلا عمن تراه لك حجة ، ولا تقدح في صدرك منه الشكوك .." [١] ..

فابن قتيبة يفرق بين علم الدين الذي ينبغي أن يؤخذ عن الثقات ، والأخبار التي تساق لتحصل الفائدة والراحة من الكد والتعب ، فهذه تروى عن أي أحد ؛ إذ لا يترتب عليها حكم شرعي أو خطر ديني ..

وكذلك يفعل أبو الفرج الأصفهاني في كتاب "الأغاني" فهو يروي عن كثير من الوضاعين والكذابين غير الضابطين [٢] ؛ وينبه أحيانا إلى أن هذا الخبر أو ذاك موضوع مختلق ، وأنه إنما أتى به لاستكمال الفائدة ونفي الجهل .. يقول في بعض صفحات كتابه المذكور : " هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها ، والتوليد بين فيها وفي أشعارها .. وهذا من أكاذيب ابن الكلبي ، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قدر رواه الناس وتداولوه .." [٣] ..

---

[١] عيون الأخبار : المقدمة ص (س ، ع ، ل)

[٢] راجع في بيان ذلك : د محمد أحمد خلف الله · صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية ص 220

[٣] الأغاني 40/10 ، وانظر أمثلة أخرى عن روايته الأكاذيب مع علمه بها (نفس المصدر السابق 11/16 ، 20/22

وينص ابن عبد ربه في مقدمة كتابه "العقد الفريد" على هدفه من الكتاب ، وحذفه أسانيد رواته ؛ إذ لا يستلزم تحقيق هدفه ذكرهم ، فيقول : " وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والإيجاز ، وهربا من التثقيل والتطويل ؛ لأنها أخبار ممتعة ، وحكم ونوادر لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولا يضيرها ما حذف منها ، وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة، وشريعة مفروضة ، فكيف لا نحذفه من نادرة شريفة ومثل سائر وخبر مستطرف " [١] ..

وترتب على ذلك أنه كان " لا يمحص الأخبار ، ولا يقف منها موقف الفاحص المدقق ، إنما يعرضها كيفما تأتت له ، فيذكر في مكان من " العقد " أن معاوية توفى وولده يزيد عنده ، ثم يشير في مكان آخر إلى أن يزيد كان بعيدا عن دمشق حين وافت المنية معاوية ، ثم يعرض لأشياء هي إلى الخرافات والأساطير أقرب ، دون أن يعلق عليها ، أو يثيره شذوذها ، كحديثه عن رجل عاش مائة وتسعين عاما ، ثم اسود شعره ، ونبتت أضراسه وعاد شابا " [٢] ..

وقد قصد المبرد في كتابه " الكامل في اللغة والأدب" إلى تحقيق غايات أدبية ولغوية خالصة [٣]، وان احتوى الكتاب على معلومات تاريخية مهمة ، وبسبب المنهج ذاته يقع المبرد فيما وقع فيه ابن عبد ربه من رواية الأخبار المتناقضة دون تعليق أو نقد ، فهو يروى في موضع في كتابه أن الأشعث بن قيس كان شريكا لابن ملجم الخارجي في مؤامرة قتل علي بن أبي طالب [٤] ؛ بينما يروى في موضع آخر قريب أن الأشعث كان حريصا على حياة علي ؛ وأنه فضح أمر ابن ملجم عنده ولكن عليا قال له : ما قتلني بعد [٥].

أما كتاب ابن أبي الحديد " شرح نهج البلاغة " فهو شرح لمجموعة من الخطب والأقوال المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهي نسبة مشكوك فيها منذ زمن بعيد ، ومن المؤكد أن بعضها منحول عليه ، غير صحيح النسبة إليه ، كما سيأتي بيانه ..

د- تحيز كثير من الأدباء القدامى ضد بني أمية :

ثلاثة من أكبر أدبائنا القدماء يمكن تصنيفهم ضمن المتحاملين على بني أمية ، وهم الجاحظ وأبو الفرج الأصفهاني وابن أبي الحديد ، بينما يوجد عدد آخر من الأدباء تخف عندهم نبرة العداء

---

[١] العقد الفريد١/٤

[٢] د. الطاهر مكي : مصادر الأدب 229ـــ230

[٣] الكامل في اللغة والأدب 1/1ـــ2

[٤] السابق 179/1

[٥] السابق 147/2

لبني أمية ويفسحون في كتاباتهم بعض الشيء لروايات معتدلة عن الأمويين ، أو يقل نشاطهم في جمــع المادة عن الأمويين وتاريخهم ؛ ضمن المواد الثقافية المتعددة التي تزخر بها كتبهم .

ا) أدباء متحاملون على الأمويين :

١- الجاحظ [١] :

للجاحظ مكانة أدبية وعقلية كبيرة في التراث الإسلامي ، ولكنه لم يبحث بشكل كـــاف كمؤرخ أو كاتب في التاريخ ، وثمة عاملان مهمان ساهما في تشكيل موقف الجاحظ من بـــني أميـــة وتاريخهم وتحامله عليهم وهجومه الشديد على قادتهم ورموزهم ، أول هذين العاملين هـــو صلاتـــه الوثيقة بالعباسيين ، فقد نال عندهم مكانة عالية وأهدى لهم بعض كتبه وانثالت عليـــه جوائزهـــم ، وألف من الكتب ما ينتصر به لفكرهم ويؤكد به أحقيتهم في الملك والسلطان [٢] ..

ومن المؤكد أن ذلك الاتصال الموثق بالعباسيين والدعاية لهم قد ترك أثره على رؤية الجاحظ للتـــاريخ الأموي .

---

[١] ولد الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب في البصرة سنة 150 هـــ (على اختلاف في تاريخ مولده) وتوفى فيها سنة 255هــ ، وقد تنوزع في كونه عربيا أو مولى ، وأكد حسن السندوبي على عروبتـــه في كتابـــه أدب الجـــاحظ ص 11ـــ15 وانظر المراجع التالية

[٢] سأله الخليفة المأمون أن يكتب له رسالة في " العباسية " والاحتجاج لها ففعل ، وأسند إليه ديوان الرسائل ، وتوثقت صلات الجاحظ بالوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق وامتدحه وأهدى إليه كتاب الحيـــوان ، فأجازه بخمسة آلاف دينار ،وأهداه ضيعة كبيرة عرفت بالجاحظية ، كما أهدى كتابه البيان والتبيين ، للوزير القاضي أحمد بن أبي دؤاد وزير المتوكل فأجازه بخمسة آلاف دينار أخرى ، وكذلك كان حاله مع الوزير الفتح بـــن خاقـــان الذي كتب له رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، وطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز ، بل كان يحصل منه على مرتب منتظم (ياقوت : معجم الأدباء 77/16ـــ 80 حنـــا الفـــاخوري الجـــاحظ ص 17،19،شارل بلات :الجاحظ في بغداد 390،396) وتذكر للجاحظ رسالة أخرى في" إمامة ولد العبـــاس "وربمـــا كانت هي كتاب العباسية السابق ذكره (السندوبي: أدب الجاحظ ص 121ـــ122) وقد احتج في هذا الكتـــاب لمذهب العباسيين ـــ وإن لم يكن مذهبه هو ـــ ولكنه فعل ذلك تماجنا وتقربـــا كمـــا يقـــول المســـعودى (مـــروج الذهب57/6) كما ألف رسالة أخرى في " تفضيل بنى هاشم " (ياقوت :السابق ١٦/218) مما جعل بعض الباحثين يرى في الجاحظ كاتبا عباسيا مهمته نشر أفكار العباسيين والدفاع عنها (بـــلات · الســـابق 264ـــ265 ، 272 ، 394 .

أما العامل الثاني الذي شكل موقف الجاحظ من الأمويين فهو الاعتزال ، فقد كان الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة وصاحب إحدى فرقهم التي تعرف بالجاحظية [1] ، وموقف المعتزلة من الأمويين هو موقف العداء السافر ، حيث يرونهم فاسقين وساقطي العدالة الواجب توافرها في الخلفاء ، والجاحظ يجاوز القصد في ذلك ، فلا يكتفي بالحكم عليهم بالفسق ، بل يحكم عليهم بالكفر ، ويزيد فيحكم بكفر من لا يكفرونهم [2] ، ففي كتابه " البيان والتبيين " ينقل عددا من الروايات التي تهاجم معاوية بن أبي سفيان رأس الأسرة الأموية [3] ، وينفي عنه ما ينسب إليه من أحاديث تحض على التعبد والزهادة لأنه لم يجد معاوية " في حال من الحالات يسلك مسلك الزهاد ، ولا يذهب بذهب العباد"[4].

ويظهر تطرف الجاحظ في موقفه من الأمويين في رسالته المعروفة باسم "النابتة " أو "برسالة في بني أمية " حيث يصف معاوية وخلفاءه بالكفر[5] ؛ ويكفر من يتركون تكفيرهم [6] ، وإن كان ذلك اعتقاد الجاحظ فسوف يقوده إلى تكفير كثير من المسلمين الذين يرون في بني أمية مسلمين يصيبون ويخطئون ، ولا يحسن الجاحظ الظن بأحد منهم حتى لو كان الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي يصفه بأنه " أعور بين عميان " [7] ..

---

[1] راجع عن الجاحظية : البغدادي الفرق بين الفرق ص ١٧٥-١٧٨

[2] د. عبد الرحمن سالم : التاريخ السياسي للمعتزلة ص 116

[3] البيان والتبيين 2/68ـ69 ، 3/161 ـ 162

[4] السابق 3/46ـ47

[5] راجع عن تكفيره معاوية : رسالة النابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ2/12 ، وعن تكفيره يزيد بن معاوية 2/12ـ13 ، وعن تكفيره زياد وابنه عبيد الله 2/14

[6] السابق 2/12ـ14

[7] روى ذلك عن الجاحظ ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة 15/254 ومن العجيب أنهم ينسبون إلى الجاحظ كتابا بعنوان " إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان " وهو كتاب في الانتصار له من علي بن أبي طالب وشيعته الرافضة (المسعودي : مروج الذهب 3/253 ، شارل بلاد الجاحظ في بغداد والبصرة وسامراء ص276) وإن صحت نسبة هذا الكتاب إليه فإنه يعبر بالدرجة الأولى عن عبثه بالرافضة ، وحملته عليهم ، مما يعد تأييدا بطريق غير مباشرة للعباسيين ؛ وهذا يخالف ما ذهب إليه د. طه الحاجري في كتابه " الجاحظ حياته وآثاره " ص ١٨٧ من أن كتاب " إمامة معاوية " هو نفسه رسالة " النابتة " ..

٢- أبو الفرج الأصفهاني [١]

وهو أديب أموي النسب ولكنه كان شيعيا أصيلا في التشيع ، مما كان مثار دهشة وعجب عند القدماء والمحدثين الذين درسوا فكره ، وفسروا ذلك تفسيرات شتى [٢] ، كما كان أبو الفرج رقيق الدين متهما في خلقه [٣] ، وقد ترك تشيعه وتبذله الأخلاقي أثرهما في تناوله تاريخ الأمويين.

فقد ألف كتابه " مقاتل الطالبيين " ليؤرخ فيه لقتلى آل البيت ويذكر مآثرهم ، كما جعل من بعض صفحات كتابه " الأغاني " ترجمات لبعض خلفاء الأمويين وولاتهم ، فضلا عما تناوله من سيرهم في ثنايا الصفحات الأخرى ، وفي كل ذلك كان يتضح تعاطفه الشديد مع الخارجين على بني امية من آل البيت ، وتحامله على مسلك الأمويين تجاههم [٤] ، كما كان يولي اهتماما خاصا بتراجم بعض الخلفاء والولاة الذين ثارت حول أخلاقهم الشبهات ، مثل يزيد بن عبد الملك [٥] ، والوليد بن يزيد [٦] ، وخالد القسري [٧] وغيرهم ، فبالغ في تضخيم ما نسب إليهم ، ولم يحقق هذه المزاعم ، بل أتى بها - وأضاف إليها ، ليضفي على كتابه جو المرح والدعابة ، وليحقق غايته من سرد حكايات السمر والمؤانسة ولو كانت ضعيفة أو موضوعة ، ولو كان يعلم ضعفها وكذبها ، فقد كان كثير من شيوخه ورواته من الكذبة الوضاعين ، ومن غير الضابطين [٨]، فساهم ذلك في تكوين صورة غير صحيحة عن أخلاق بعض الخلفاء والولاة من بني أمية ..

ثم أضاف الأصفهاني مزيدا من الألوان على هذه الصور العابثة حين صرف عنايته إلى تتبع أخبار جماعة من الشعراء والمغنين والخلعاء الذين وجدوا في العصر الأموي ، وروى كثيرا من حكاياتهم ومغامراتهم وقصصهم المخترعة ، التي تقدم في مجملها صورة غير واقعية عن عفة المجتمع

---

[١] الأصفهاني هو علي بن حسين بن محمد الأموي ، ينتهي نسبة إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولد سنة 284 هـ بأصفهان ، وتوفي في بغداد سنة 356 هـ وفي تاريخ وفاته خلاف ، راجع ذلك في محمد أحمد خلف الله : صاحب الأغاني 18ـ20

[٢] ابن الأثير :الكامل 209/8 ، الخوانساري روضات الجنات 221/5 ، د. خلف الله : السابق ص 141

[٣] الثعالبي . يتيمة الدهر 281/2 ، ياقوت: معجم الأدباء 113/13 ـ 115 ، 117 ـ121 ، 132 ـ 133

[٤] انظر رواياته عن قتل الحسين في مقاتل الطالبيين 98 وما بعدها ، وثورة زيد بن علي صفحة 124 وما بعدها

[٥] الأغاني 99/15 وما بعدها

[٦] الأغاني 60/7

[٧] السابق 15/22 وما بعدها

[٨] انظر ص من هذا الكتاب

الإسلامي في العصر الأموي وأخلاقه ، وستكون بعض هذه الروايات موضع دراسة في هذا الكتاب[١].

إن مزاج أبي الفرج ومن حوله من الأدباء والندماء " قد وضح في اختيار بعض الجوانب من حيوات بعض الشعراء والمغنين والخلعاء ، وإن هذه الجوانب ما كانت إلا الخليعة الماجنة لتوافق هوى هؤلاء ، وتدخل السرور على أنفسهم ، وتكون مادة سمرهم وأحاديثهم ، ولعلها بذلك تصور واقعهم وترضي خيالهم أكثر مما ترضي عقولهم ، لعلها أن تكون للتنفيس ، لا للحقيقة والتاريخ " [٢] .

٣- ابن أبي الحديد [٣] :

وهو أحد الأدباء الشيعة المعتزلة الذين ظهروا آخر العصر العباسي ، وارتبط تاريخه السياسي بالوزير الشيعي ابن العلقمي الذي يتهم بالتمهيد لدخول هولاكو عاصمة الخلافة بغداد وارتكاب مذابحه المروعة فيها [٤]، فقد امتدحه [٥]، وألف له كتابه الشهير " شرح نهج البلاغة " فأثابه وأحسن جائزته [٦] ..

و" شرح نهج البلاغة " هو شرح لبعض الخطب والمقالات المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب [٧] ، وفيها تكفير جماعة من كبار الصحابة المبشرين بالجنة ، وطعن على الشيخين أبي بكر

---

[١] راجع المبحث الخاص بتدين المجتمع في العصر الأموي في هذا الكتاب .

[٢] د. خلف الله : صاحب الأغاني 151ـ152

[٣] هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله ، أبو حامد ابن أبي الحديد ؛ ولد بالمدائن سنة 586 هـ وتلقى مبادئ التشيع هناك في هذه البيئة الخصبة به ، وقد لقي الحظوة عند خلفاء بغداد ، فكان كاتبا في ديوان التشريفات ثم في ديوان الخليفة وناظرا للبيمارستان ، ثم أمينا لخزائن الكتب ببغداد وتوفى سنة 655 هـ أو 656هـ على اختلاف الروايات ، راجع ابن كثير : البداية والنهاية 199/13 ـ 200 ، محمد أبو الفضل إبراهيم : مقدمة تحقيقه كتاب شرح ناهج البلاغة لابن أبي الحديد ص 13 ـ 18

[٤] ابن كثير : السابق 201/12ـ202 ، 203/13 ، ابن طباطبا : الفخري ص 338ـ339

[٥] ابن كثير : السابق 200/13

[٦] ابن طباطبا : السابق 337

[٧] قام بجمع هذه الكتب في " نهج البلاغة " الذي شرحه ابن أبي الحديد الشريف الرضي أبو الحسين محمد بن الحسين (ت 404 هـ) أو أخوه الشريف المرتضى على بن الحسين (ت 436 هـ) وينتهي نسبهما إلى الإمام على ﷺ (راجع الخطيب البغدادي تاريخ بغداد 246/2 ـ 247 ، ابن كثير : السابق 3/12ـ4 ، ابن خلكان وفيات الأعيان

وعمر رضي الله عنهما ؛ مما جعلها موضع شك وارتياب منذ زمن بعيد ، حيث نفى صحة نسبتها لعلي ﷺ جماعة من الفضلاء قديما وحديثا [١] ، وإذا كان ذلك هو موقف هذه الخطب من هؤلاء الأعلام فإنها تنطق بالخصومة الحادة مع بني أمية ، يغذوها في ذلك تشيع الشارح واعتزاله .

فابن أبي الحديد الذي ينسب إلى علي بن أبي طالب المعرفة بالغيب [٢] يوثق رواة الشيعة من الكذابين والضعفاء كأبي مخنف لوط بن يحيى [٣]، ونصر بن مزاحم [٤]، ويتهم معاوية وعمرو بن العاص بالكفر والإلحاد [٥] ويصوغ ذلك في رؤية اعتزالية واضحة ، فيقول معبرا عن رأي معتزلة بغداد في الحروب الناشبة بين الصحابة " أما أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلهم إلا عائشة وطلحة والزبير ـ رحمهم الله ـ فإنهم تائبون ، ولولا التوبة لحكم لهم بالنار لإصرارهم على البغي ، وأما عسكر الشام بصفين فإنهم هالكون كلهم عند أصحابنا ، لا يحكم لأحد منهم إلا بالنار، لإصرارهم على البغي ، وموتهم عليه ؛ رؤساؤهم والأتباع جميعا [٦]ا ويروى ابن أبي الحديد عدة أحاديث موضوعة تنسب إلى معاوية الظلم والابتداع والكفر [٧] ، ثم ينزع عن الأمويين النبل والكرم وفضائل الأخلاق ، بعد أن نزع عنهم الدين والإيمان [٨] ، حتى لو كان عمر بن عبد العزيز الذي يروى عن الجاحظ قوله فيه : إنه أعور بين عميان [٩] ..

322/4 ـ324 ، الصفدي : الوافي بالوفيات 313/3 ، الزركلي : الأعلام 329/6 ـ 330 ، ابن حجر : لسان الميزان 223/4)

[١] من هؤلاء الحافظ الذهبي : ميزان الاعتدال 101/1 ، ابن حجر :لسان الميزان 223/4 ابن خلكان: السابق 333/4 ، الصفدي السابق 375/2 ، محمد محيى الدين عبد الحميد : مقدمته لشرح نهج البلاغة لمحمد عبده ، محمد كرد علي الإسلام والحضارة العربية 391/2 ، العقاد : عبقرية علي 127

[٢] عقد لذلك فصلا تحت عنوان " الأخبار الواردة عن معرفة الإمام علي بالأخبار الغيبية" (شرح نهج البلاغة /286 ـ 297) وانظر دفاع أحد كتاب الشيعة المعاصرين عن هذا الاعتقاد الفاسد وتأييده رأى ابن أبي الحديد في ذلك : عبد الزهراء الحسيني الخطيب : مصادر نهج البلاغة وأسانيده 197/1 ـ208 ، وهو يشاركه أيضا في التطاول على مقام الصحابة المشهود لهم بالخير والمبشرين بالجنة (راجع السابق 131/1 -38)

[٣] شرح نهج البلاغة 147/1

[٤] السابق 206/2

[٥] السابق 65/2 وانظر ص 61

[٦] السابق 9/1 ، 65/2

[٧] السابق 79/4

[٨] السابق 251/15 ـ 252

[٩] السابق 254/15 وانظر 71/4

ب) أدباء معتدلون :

وظهر فريق أخر من الأدباء لا يتهم باتخاذ العداء للأمويين مذهبا ومنهجا ، ولا يسلم اتهام من اتهم منهم بذلك من رد ومأخذ ، لكنهم كانوا بطبيعة الحال يأخذون مادقم من الرواة السابقين ــ وكثير منهم مجانب للأمويين ــ غير أن شخصية الاعتدال عندهم تظهر حين يسروون روايات محايدة ومنصفة للأمويين بجوار ما يروونه من أخبار معادية لهم ، أو حين يعبرون مواطن الخلاف بين السلف بغير تفصيل ، أو يتناولونها بتعفف واختصار ..

١ – ابن قتيبة [١] :

وهو واحد من علماء الحديث ، وثقه جمهور العلماء وانتقده آخرون [٢] ؛ اتصل كشأن كثير من علماء عصره بعدد من وزراء العباسيين وأهدى لهم بعض كتبه ونال جوائزهم [٣] ، وفى كتابه "المعارف " الذي يبدو كمخطط لدائرة معارف شديدة الإيجاز [٤] ترجم ابن قتيبة لعدد من خلفاء وأعلام العصر الأموي ترجمات مقتضبة [٥] ، تذكر الشائع من أمرهم ، والشائع من أمر بني أمية ليس في صالح كثير منهم في أحيان كثيرة ، ولذا فقد خضع الكاتب لكثير من الآراء السائدة المهاجمة للأمويين [٦] ، ولم يتسع منهج الكتاب لمناقشتها وتمحيصها ، وفى كتابه الآخر "عيون الأخبار" الذي

---

[١] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة سنة 213 هـ نشأ في الكوفة أو بغداد لأسرة فارسية من مرو الروذ ، وتولى قضاء الدينور للمتوكل العباسي وتوفى سنة 270 أو 271 أو 276 على خلاف بين الرواة (الخطيب : تاريخ بغداد 170/10 ، ابن خلكان : وفيات الأعيان 246/2 ، السمعاني : الأنساب 443)

[٢] البغدادي : تاريخ بغداد 670/10 ، الذهبي : تذكرة الحفاظ 187/2 ، السيوطي : بغية الوعاة 291 ، ابن حجر : سان الميزان 358/3 ، ابن الجوزى : المنتظم 102/6 ، ابن تيمية : تفسير سورة الإخلاص 95ــ133

[٣] اتصل ابن قتيبة بالوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان (ت 263 هـ) وزير المتوكل ، وأهدي إليه كتابه : أدب لكاتب فأحسن جائزته (السمعاني: الأنساب 238 ، ابن خلكان: السابق 246/2 ، وتولى قضاء الدينور للمتوكل ، استقدمه الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد على الله ووزيره إلى بغداد سنة 266 هـ فقرأ عليه كتاب المعارف فأجازه بعشرة آلاف دينار (د. ثروت عكاشة : مقدمة تحقيقه كتاب المعارف ص65)

[٤] د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 240/1

[٥] لا تستغرق ترجمات الخلفاء الأمويون عنده ــ في الطبعة التي اعتمدت عليها ــ أكثر من ستة وعشرين صفحة من ص 344 حتى 370) ويترجم ليزيد بن معاوية رغم كل ما حدث في عصرة من أحداث خطيرة في صفحة ونصف (ص 351 ــ 352)

[٦] راجع المعارف 318 ــ 319 عن الوليد بن عقبة ، 429 عن يزيد بن معاوية ، 355 عبد الملك بن مروان ، 64 عن يزيد بن عبد الملك ، 366 عن الوليد بن يزيد ، 397 ، 445 ، 548 عن الحجاج بن يوسف ...

أعلن في مقدمته أنه يروى أخباره للمتعة والفائدة ، جاءت نتف متفرقة من أخبار الأمويين لا تشكل تاريخا متصلا ، وهي تحمل رغم ذلك بعض الروايات المنصفة لبني أمية [١] .

وثمة كتاب آخر ينسب إليه هو " الإمامة والسياسة " وهو كتاب تاريخ في المقام الأول وليس كتاب مختارات أدبية كسابقه ، على أن شكوكا قوية توجه إلى نسبة هذا الكتاب لابن قتيبة ، وترجح استبعاد ذلك ، ففي الكتاب أخطاء تاريخية يصعب أن يقع فيها عالم كابن قتيبة ، إلى جوار أسباب أخرى تؤكد أن مؤلف الكتاب شخص آخر [٢] ، وفى ثنايا الكتاب توجد روايات شيعية تهاجم بني أمية [٣] ، كما توجد روايات أخرى تحمل قدرا من الإنصاف لهم [٤]..

٢-ابن عبد ربه [٥] :

كان ابن عبد ربه مولى لبنى أمية في الأندلس ، وكان شاعر البلاط الأموي ، وله في بعض خلفائهم مدائح سجلتها كتب التاريخ [٦] ..

وبينما يصفه بعض المؤرخين بمجاملة بني أمية ووضع الأقاصيص في مدحهم [٧] ، يتهمه آخرون بالتشيع والتحامل على الأمويين ، وهو اتهام قديم يصوغه ابن كثير بقوله : " ويدل كثير من كلامه على تشيع فيه ، وميل إلى الحط على بني أمية ، وهذا عجيب منه ؛ لأنه أحد مواليهم وكان الأولى به أن يكون ممن يواليهم لا ممن يعاديهم " [٨] ، وقال عنه أيضا في موضع آخر: " كان فيه تشيع

---

[١] عيون الأخبار 9/1 ، 167/2 ، 247/2

[٢] راجع في بيان هذه الأسباب : مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب 134ــ135 محب الدين الخطيب : مقدمة كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة ص 26 ، هامش العواصم من القواصم لابن العربي 261ــ262 ، د. ثروت عكاشة مقدمة كتاب المعارف 56 ، شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 242/1

[٣] الإمامة والسياسة 55/1 ــ 56 ، 97ــ98 ، 107 ، 193 ــ202 ، 215 ، 17/2 ــ18 ، 32ــ33 ، 1ــ53 ، 55ــ56

[٤] السابق 36/1 ، 38 ، 152 ، 202 ، 213 ــ215 ، 8/2 ، 15ــ16 ،33 ، 72 ، 128

[٥] عبد ربه هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، أديب أندلسي قرطبي ولد سنة 246 ، وتوفى سنة 328 هـ (راجع ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس 38 ، السيوطى :بغية الوعاة 161 ، دائرة المعارف الإسلامية 223/1 والمراجع التالية)

[٦] بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي 169 ، د. الطاهر مكي : مصادر الأدب 226 ، ابن خلكان 32/1 ، الصفدي الوافي بالوفيات 12/8

[٧] د. حسين مؤنس : هامش تاريخ التمدن الإسلامي لجرجى زيدان 92/4

[٨] البداية والنهاية 193/11

شنيع ، ومغالاة في أهل البيت ، وربما لا يفهم من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد اغتر بـــه شـيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره " [١] ..

والحقيقة أن لكلا الطرفين عذره فيما وصل إليه بشأن موقف ابن عبد ربه من بني أميـة ، فبينما نجده في بعض أشعاره ــ كما يروون ــ يعد معاوية بن أبي سفيان رابع الخلفاء الراشدين بـدل علي بن أبي طالب ﷺ [٢] ويضيف إلى ذلك عدة روايات تمدح الأمويين [٣] ، نجده في أماكن أخـرى من كتابه يروي خبر إعطاء معاوية مصر طعمة لعمرو بن العاص على أنها صفقة مريبة باع عمـرو فيها دينه لمعاوية ؛ ورضي بالدنيا بديلا عن الآخرة كما رضي بها معاوية [٤] ، ويروى قصة ثورة أهـل المدينة ضد يزيد بن معاوية في موقعه الحرة وهزيمتهم أمام الجيش الأموي بقيادة مسلم بن عقبة المـري ؛ ثم يعقب على ذلك بقوله :" ومات مسلم بن عقبة لا رحمه الله " ثم " مات يزيد لا رحمـه الله" [٥] ، ثم يروى روايات أخرى تدين جيش عبد الملك بن مروان الذي أرسله لحرب ابن الزبير ؛ وتزعم أن قائد الجيش جلس على منبر النبي ﷺ فدعا بخبز ولحم فأكل ، ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر [٦] ، وأن جيشـه كان يبيت في المعازف والخمور قبل أن يشن معاركة ضد الزبيريين [٧] ، ويعقد ابن عبد ربه بابا تحـت عنوان " باب من زعم أن الحجاج كان كافرا " [٨] ، كما يروى روايات عديدة ضد هشام بن عبـد الملك [٩] ، والوليد بن يزيد [١٠]وغيرهما ..

من الواضح إذن أن ابن عبد ربه لا يمكن أن يوصف بمجاملة الأمويين ؛ وأنه راوية للأخبـار بقصد المتعة والفائدة ، لا ينقد مصادره ، ولا يجهد نفسه في ذلك ، وكـانت الروايـات الشـائعة المتحاملة على الأمويين تجد طريقها في يسر إليه من خلال اعتماده على ما كتبه المؤرخون المشـلوقة في

---

[١] السابق 21/10

[٢] الزركلي : الأعلام ١/ ١٩٧

[٣] العقد الفريد 394/4 ، 424 ، 428 ـ 429 ، 446 ـ 448 ، 451 ، 7/5 ، 14/5ـ15

[٤] السابق 345/4

[٥] السابق 391/4

[٦] السابق 402/4ـ403

[٧] السابق والصفحتان

[٨] السابق 50/5ـ55 وانظر 48/5 ـ 49

[٩] السابق 448/4 على حين يروى في موضع آخر أنه لم يكن في ولد عبد الملك أكمل من هشام راجع السابق 446/٤

[١٠] السابق 460/4 حيث يروى أنه أخرج جارية له قد نكحها وهي جنب متلثمة لتصلي بالناس !!

عهده ، ممن كانوا يعيشون تحت تأثير السلطة العباسية في الشرق ، ولم يكن يمكنه أن يتقصى الروايات المؤيدة للأمويين في يسر وسهولة ، وهو يعيش في الأندلس بعيدا عن مسرح الأحداث وجماعات الرواة والمؤرخين القريبين منها ، ولم يكن ما في كتابه من تحامل على الأمويين بالذي يضر مكانته عند أمويي الأندلس ، فقد مضى عهد الدولة الأموية الأم ، وضعف شأن العباسيين وظهر خطر آخر قريب آنذاك يتمثل في الفاطميين بالمغرب ..

المبحث الرابع : الأمويون في كتابات الفقهاء التاريخية

من المعروف مدى الفائدة الكبيرة التي تقدمها الدراسات الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وغيره للتاريخ الإسلامي ، وبخاصة في هذه الفترة المبكرة منه في عصر الراشدين والأمويين ، وقد مر بنا نموذج لذلك عند بحث أحوال رواة التاريخ الأموي ، والاستئناس بأقوال علماء الحديث والجرح والتعديل عنهم ، كما أننا سوف نجد هذه المعونة الدائمة ــ لدى فقهائنا ــ في عديد من مواطن البحث التاريخي عن الأمويين ، غير أن علماءنا وفقهاءنا لم يقصروا جهودهم على هذا الجانب من الدراسات ، بل كان لبعضهم جهود تاريخية أصيلة ، وكتب خصصت كلها أو بعضها لبحث بعض فترات هذا التاريخ ...

إن ما سبق يعني أن التاريخ الإسلامي جزء لا ينفصل عن الدراسات الإسلامية [١]، وأن معايير الصواب والخطأ في الحكم على ممارسات الدولة الإسلامية في العهد الأموي ينبغي أن تؤخذ من هذه الدراسات وترتبط بها، مما يشكل خصوصية يتميز بها التاريخ الإسلامي عما عداه ..

بحوث الفقهاء التاريخية الأصيلة :

أدلى بعض الفقهاء المسلمين بدلوهم في مجال التاريخ الإسلامي ، ومن ذلك التاريخ الأموي ، وجاء إسهام بعضهم في شكل كتابة تاريخ متصل للدولة الإسلامية حتى عهده كما فعل ابن كثير في كتابه " البداية والنهاية " [٢] ؛ بينما جاء معظم إسهام الآخرين على شكل مسائل متفرقة في التاريخ ضمن مباحث كتبهم .. فقد كتب ابن حزم الأندلسي (383ــ 454 هــ) عن المفاضلة بين الصحابة

---

[١] أحمد شلبي · موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ١٦٠

[٢] يصلح كتاب البداية والنهاية ليكون ضمن كتب التاريخ العام كتاريخ الطبري وابن الأثير وغيرهما ، غير أنه حمل أيضا سمات خاصة من منهج الفقهاء والمحدثين في قبول الرواية ورفضها ، كما سيأتي بيانه ، مما جعله صالحا للاستشهاد به هنا

ضمن كتابه " الفصل في الملل والأهواء والنحل " وكتب ابن العربي (468 ـــ543 هـــ) " العواصم من القواصم " على صورة شبهات حول تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية والرد عليها، وكتب ابن تيمية (661ـــ728هـــ) عن بعض أحداث التاريخ الأموي ضمن ردوده على أحد المعتزلة الروافض في كتابه " منهاج السنة النبوية " ، وكتب ابن خلدون (732ـــ808 هـــ) في بعض مباحث التاريخ الأموي في مقدمته وفى كتابه " العبر" ، وكذلك فعل بعض الفقهاء الآخرين ..

لاشك أن الذي دفع هؤلاء الفقهاء إلى كتابه هذه المباحث التاريخية التي اتجه معظمها إلى نواح معينة في تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية هو مالها من أهمية دينية ؛ إذ تخص حياة الجيل الأول من رجالات الإسلام من الصحابة والتابعين ، وهم موضع القدوة ومناط الأسوة للمسلمين ، وعلى ذلك فقد اتجه اهتمام هؤلاء الفقهاء إلى بحث هذه الشبهات التي أثارتها بعض الفرق الإسلامية وعلى رأسها الرافضة والمعتزلة ، فبحثوا أسباب اختلاف الصحابة أثناء الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان ﷺ وما أدت إليه من أحداث كان أهمها قيام الدولة الأموية ، كما بحثوا مكانة عدد من رجال ذلك العهد مثل معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، غير أن روح الإنصاف عندهم تجلت على نحو خاص عند بحث بعض المسائل موضع الطعن على الأمويين مثل ولاية العهد ومقتل الحسين ومهاجمة المدينة المنورة أيام يزيد بن معاوية واقتحام مكة في أثناء فتنة ابن الزبير وغيرها كما سوف يأتي قريبا ...

وأهم ما يلاحظ على بحوث الفقهاء التاريخية السابقة هو شيوع روح الإنصاف للأمويين على نحو ملحوظ ، وقد كان ذلك لعدة أسباب ترجع في مجملها إلى سببين رئيسين هما : التحرر من الحزبية السياسية والأهواء المذهبية ، وتأثير منهج علم الحديث في نقد الروايات والأخبار .. وسوف أتناول هذين السببين وكيف أديا إلى تحقيق الإنصاف للأمويين فيما يلي ..

1ـ التحرر من الحزبية السياسية والأهواء المذهبية :

لقد مر بنا فيما مضى أن اكبر أسباب تحريف التاريخ الأموي كان تأثير السلطة العباسية على تدوين ذلك التاريخ ، وتأثير الفرق الإسلامية المعادية للأمويين وعلى رأسها الشيعة والمعتزلة ، إن هذين العاملين لم يؤثرا ذلك الأثر الضار بالتاريخ الأموي على هؤلاء الفقهاء الذين كتبوا فيه فإن أبرز هؤلاء الفقهاء تربوا بعيدا عن سيطرة العباسيين وعن التأثر بالرفض والاعتزال ، فقد عاش ابن حزم وابن العربي في الأندلس ، وعاش ابن تيمية وابن خلدون بعد القضاء على الخلافة العباسية في بغداد بفترة طويلة ، وكان كل هؤلاء من الملتزمين باعتدال أهل السنة والجماعة بعيدا عن غلو التشيع وشطط الاعتزال ..

ولعل عصور الانقسام السياسي التي عاشوا فيها ، وزيادة الخطر الخارجي على المسلمين المتمثل في مؤامرات الصليبيين بالأندلس ، وهجوم التتار بالشرق ، قد حفزهم على محاولة جعل التاريخ الإسلامي بمراحله المشرقة عامل بعث ديني ، وتوسيع مجال القدوة والتأسي والاعتزاز ليشمل صدرا من خلافة الأمويين مع عصر الرسالة والخلافة الراشدة .. وأخيرا فقد كان تدين هؤلاء الفقهاء وورعهم حائلا دون قبول الظلم الواقع من بعض المؤرخين على بني أمية ، أو ترديد الشبهات عن تاريخهم بغير دليل أو بحث ؛ وكان حبهم للعدل وحسن ظنهم بالسلف دافعا لهم إلى تحقيق مواقفهم ، كما سيأتي بيانه ..

2. تأثير منهج علم الحديث في نقد الروايات والأخبار :

من المعروف أن علم التاريخ وعلم الحديث ينتميان إلى أصول مشتركة ، منذ كان التاريخ يهدف إلى دراسة السيرة النبوية والمغازي والفتوح.ويعتمد ـ كما اعتمد الحديث ـ على الرواية الشفهية وسلاسل الإسناد [1].. وهكذا ظلت بعض أحداث التاريخ الإسلامي ـ والتاريخ الأموي جزء منه ـ ذات أهمية دينية خاصة كما سبق القول ، وأحس هؤلاء الفقهاء والمحدثون بضرورة تنقية هده الروايات ذات الأهمية الدينية مما علق بها من شبهات أثارها مؤرخو الفرق الإسلامية ورواتها ، وجاء بحثهم في هذه الروايات متأثرا إلى حد كبير بمنهج البحث في علم الحديث، مع تنبه هؤلاء الفقهاء للفروق التي تميز كلا العلمين عن الآخر ، ولذا فقد أجروا معظم روايات التاريخ الإسلامي مما لا خطر ديني فيه مجرى الأحاديث الضعيفة التي تروى في فضائل الأعمال وفيما لا تشريع فيه ، حيث يتساهلون في إسناد وصحة هذا الصنف من الأحاديث والروايات [2] ..

وقد اتضح تأثير منهج علم الحديث على الجهد التاريخي لهؤلاء الفقهاء في النواحي الآتية :

أ) رفض روايات أهل البدع الأهواء :

وكثير من رواة التاريخ الأموي من أصحاب الأهواء ، وبخاصة الرافضة ومن روى عنهم كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم .. وعلماء الحديث يتشددون في رفض روايات الشيعة الرافضة والخوارج ومن شابههم في بدعهم وأهوائهم ، فيقول الإمام مالك عن

---

[1] راجع د. سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي 25

[2] راجع ابن حجر : تهذيب التهذيب 273/7 ، ابن الصلاح : مقدمة في علوم الحديث 110ـ113 ، محمد بن صامل السلمي . منهج كتابة التاريخ لإسلامي ص 225ـ226 ، وقد عقد الخطيب البغدادي في كتابة :لكفاية في علم الرواية ص 211ـ213 بابا تحت عنوان التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال

الرافضة :" لا تكلمهم ولا ترو عنهم ، فإنهم يكذبون " [١]، ويقول الشافعي : " لم أر أشهد بالزور من الرافضة " [٢] ، ولما بحثوا في التاريخ الإسلامي حذر هؤلاء الفقهاء من قبول روايات الرافضة أيضـــا وذلك لوضوح دورهم في التحامل على الصحابة وبني أمية وتشويه تاريخهم .. فيقول ابن العـــربي في معرض تحذيره من روايات أهل الأهواء : " فلا تبالوا بما رووا ؛ ولا تنقلـــوا روايـــة إلا عـــن أئمـــة الحديث، ولا تسمعوا كلاما لمؤرخ إلا للطبري (وذلك لأنه يذكر سلاسل رواته ، فيظـــهر للقـــارئ العارف أحوالهم) ؛ وغير ذلك هو الموت الأحمر والداء الأكبر ... فإذا قـــاطعتم أهـــل البـــاطل ؛ واقتصرتم على رواية العدول سلمتم من هذه الحبائل " [٣]، كما رفض ابن العربي الاعتماد على بعض مصادر التاريخ والأدب التي تحوي الموضوعات والأباطيل مثل كتاب الإمامـــة والسياســـة والبيـــان والتبيين وكتابات المسعودي وغيرها [٤] ..

وتوقف ابن كثير أمام كثير من الروايات التي تشنع على بني أمية فأعلن شكه فيها بســـبب أهـــواء ناقليها وتحزبهم ضد بني أمية ؛ من ذلك ما فعله إزاء الأخبار التي تنسب إلى الحجاج بـــن يوســـف ويقتضي ظاهرها الكفر الصريح فيقول :"... ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من الزيادة عليه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه لوجوه ، وربما حرفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشـــاعات وشناعات.." [٥]، ويقول أيضا عن مقتل الحسين : "وللشيعة الرافضة في مصرع الحسين كذب كثـــير وأخبار باطلة ، وفيما ذكرنا كفاية ، وفي بعض ما أوردناه نظر " [٦]، وذلك ما يقـــرره أيضـــا ابـــن خلدون [٧] وغيره [٨] .

وقد اعتمد الفقهاء في معرفة أصحاب الهوى من الرواة والمؤرخين على ما كتبـــوه هـــم وغيرهم من كتب الجرح والتعديل وعلم الرجال [٩] ..

---

[١] ابن حجر لسان الميزان 10/1

[٢] السابق والصفحة

[٣] العواصم من القواصم 260

[٤] السابق 261—262،264— 265

[٥] البداية والنهاية 132/9—133

[٦] السابق 202/8 ، وانظر 189/8

[٧] العبر 188/2

[٨] انظر ابن الصلاح مقدمة في علوم الحديث 251 في أخذه على ابن عبد البر اعتماده على الأخباريين لا المحدثـــين في كتاب الاستيعاب ..

[٩] انظر المبحث الخاص بالرواة ص ٤٧ – ٥٥

ب) اعتماد كتب الحديث والفقه كمصدر تأريخي :

وإزاء شك هؤلاء الفقهاء في رواية الأخباريين وأصحاب الهوى كان لابد أمامهم لتحقيق رواياتهم وتوسيع مجالها من الاعتماد على مصادر أخرى أكثر دقة وأمانة وأولى بالثقة ، وأهم هذه المصادر التي أسعفتهم في هذا المجال كتب الفقه والحديث حيث الروايات الصحيحة والمنضبطة وإن كانت قليلة لا تقدم تاريخا متصلا ..

وقد ظهر أثر اعتماد كتب الفقه والحديث عند هؤلاء الفقهاء في توثيقهم جيل الصحابة ـ وإن تفاضلوا في الدرجات ـ بما فيهم من كان له أثر كبير في قيام الدولة الأموية ، أو كانوا من أبرز ولاتها مثل معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وغيرهم [١] ، وقد تعرض هؤلاء الصحابة لحملات عنيفة من التشويه من خصوم الأمويين .

ثم ظهر أثر اعتمادهم على كتب الحديث والفقه في بحثهم بعض مسائل التاريخ الأموي ..
فحين يتحدث ابن العربي عن فقه معاوية وتدينه يقول :" وقد شهد له في صحيح الحديث بالفقه " [٢]، ويعتمد ابن كثير على ما أورده الطبراني وابن عساكر من أحاديث في مناقب معاوية [٣] ، ولما تحدث ابن تيمية عن الخلاف بين علي ومعاوية شرح ذلك في ضوء قواعد الاجتهاد الإسلامي الذي يجوز فيه الصواب والخطأ ، لا الاتهام والطعن [٤] وكذلك فعل ابن خلدون وابن كثير حين بحثا هذه القضية [٥] ، وحين بحث ابن تيمية وابن خلدون بعض تصرفات يزيد بن معاوية بحثاها من زاوية إضافية حين تحدثا عن تحريم لعنه وتفسيقه ، وخلاف العلماء في ذلك [٦] .. ولما تناولا ثورة الحسين بحثاها بحثا فقهيا أصوليا ، من ناحية هل يجوز الخروج على الحاكم الجائر ؛ أم أن الصبر أولى ، وضوابط هذه المسألة [٧]، ولما تحدث ابن العربي عن عدالة مروان بن الحكم ومكانته اعتمد على كتب الفقه

---

[١] عن المراد بتسمية " الصحابي" راجع ابن تيمية مجموع الفتاوى 59/35 ـ62 ، ابن حجر : فتح الباري 6/7ـ7 ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ص 100ـ102 ، ابن الأثير : مقدمة أسد الغابة ، وعما شجر بينهم من خلاف ونظرة العلماء إليه ومكانتهم الرفيعة انظر فتح الباري 24/13 ، ابن تيمية مجموعة الفتاوى 734/4 ، النووي : شرح صحيح مسلم 149/15 ، ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية 400ـ401

[٢] العواصم من القواصم 211ـ213

[٣] البداية والنهاية 120/8

[٤] منهاج السنة النبوية 144/1 ـ 145 ، 202/2ـ 203

[٥] مقدمة ابن خلدون 617/2، البداية والنهاية 277/7

[٦] منهاج السنة النبوية 251/2 ـ 252 مقدمة ابن خلدون 614/2ـ615

[٧] منهاج السنة النبوية 243/2 ـ 256 ، مقدمة ابن خلدون 621/2 ـ623

ومرويات العلماء الثقات فقال :" وأما فقهاء الأمصار ، فكلهم على تعظيمه واعتبار خلافته ، والتلفت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايته ، وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم " [١]، وهو نفس ما يفعله ابن كثير حين ينقل مناقب مروان بن الحكم على لسان الشافعي وأحمد بن حنبل وابن المبارك والليث بن سعد [٢].

ج) النقد الداخلي للروايات التاريخية :

لم يكتف هؤلاء الفقهاء في بحوثهم التاريخية بنقد إسناد الروايات ورفض ما رواه أهل الأهواء منها ، بل تطرقت أبحاثهم إلى نقد بعض الروايات التاريخية ــ وإن بدت قليلة نسبيا ــ نقدا داخليا يظهرون به تهافتها ويعززون به ردهم لها ، وأكثر هذه الروايات التي ظفرت بهذا النوع من النقد جاءت عن الأمويين في عصر عثمان بن عفان ، وقليل منها جاء عن الأمويين بعد قيام الدولة ..

ومن النوع الأول تحقيق ابن تيمية مسألة طرد الرسول ﷺ الحكم بن أبي العاص وابنه مروان بن الحكم ورد عثمان لهما [٣] ، وكذلك ينهج ابن العربي في بحثه مسألة اتهام الوليد بن عقبة عامل عثمان الأموي على الكوفة ــ فيما بعد ــ بالفسوق ، وانه المقصود بقولة تعالى " إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " [٤] ..

وفيما يخص تاريخ الأمويين بعد قيام الدولة نجد أمثلة أخرى للنقد الداخلي للروايات .. مثال بحث ابن تيمية مسألة دس السم للحسن بن علي واتهام معاوية بذلك ، وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة ؛ وكانت ابنته تحت الحسن ، يقول ابن تيمية : " وإذا قيل إن معاوية أمر أباها كان هذا ظنا محضا ، والنبي ﷺ قال : إياكم والظن ؛ فإن الظن أكذب الحديث ... ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين ، وقيل سنة إحدى وأربعين ، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي في العام الذي كان يسمى عام الجماعة ، وهو عام واحد واربعين ؛ وكان الأشعث حما الحسن بن علي ، فلو كان شاهدا لكان يكون له ذكر في ذلك ، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته " [٥] ..

---

[١] العواصم من القواصم 101ــ102

[٢] البداية والنهاية 257/8ــ258

[٣] منهاج السنة النبوية 195/3ــ196 ، 197

[٤] العواصم من القواصم 102ــ104

[٥] المنتقى من منهاج الاعتدال 266

ولابن العربي محاولات شبيهة بما مر أثناء بحثه ما يثار حول إجبار معاوية أبناء الصحابة على البيعة لابنه يزيد بولاية العهد ، فهو يقابل هذه الرواية بما ورد في صحيح البخاري من أحاديث ؛ وينتهي بذلك إلى رفض شبهة المؤرخين [1] ، وينهج ابن تيمية منهج النقد الداخلي أيضا حين يتحدث عن مزاعم الرافضة بظهور علامات كونية تدل على غضب الكون لما قتل الحسين فيقول : " يتبين أن كثيرا مما روى في ذلك كذب مثل كون السماء أمطرت دما ، فإن هذا ما وقع قط في قتل أحد ، ومثل كون الحمرة ظهرت في السماء يوم قتل الحسين ، ولم تظهر قبل ذلك ، فإن هذا من الترهات ، فمازالت هذه الحمرة تظهر ولها سبب طبيعي من جهة الشمس ، فهي بمنزلة الشفق .. " [2]

إن هذه التأثيرات من منهج علم الحديث هي أهم ما يميز كتابات هؤلاء الفقهاء التاريخية عن كتابات فريق آخر من الفقهاء كتبوا في التاريخ العام كالطبري وابن الأثير وابن عساكر وغيرهم ، فهؤلاء رووا ما وصلهم من روايات دون تدخل فيها ، كما حدث من الطبري وابن عساكر ، أو باختيار بعضها كما حدث عند ابن الأثير ، لكنهم لم يخضعوا كتاباتهم لمنهج النقد الحديثي ، أو لم تتأثر كتاباتهم على نحو واضح بذلك المنهج كما رأينا عند هؤلاء الفقهاء موضع الحديث في ذلك البحث ..

نماذج من إنصاف الفقهاء بني أمية :

1ـ ابن العربي [3] وكتابته عن الأمويين :

ويعد كتابه " العواصم من القواصم " من أبرز الكتابات التاريخية التي تسعى لإنصاف الأمويين وتنقية تاريخهم مما علق به من شبهات المؤرخين والأدباء .. وهو لم يحاول إنصاف الأمويين وحدهم ، بل امتد بحثه إلى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ ورد الشبهات عن تاريخهم ..

ويتعجب ابن العربي من استكثار الناس ولاية بني أمية مع أن أول من عقد لهم عقد الولاية رسول الله ﷺ [4]، ويرد الزعم بوجود أحاديث نبوية تهاجم الأمويين وتغض من شأنهم [1] ، وعندما

---

[1] العواصم من القواصم 22/1ـ23

[2] منهاج السنة النبوية 249/2ـ250

[3] هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافرى الأشبيلي المالكي ، ولد في شعبان سنة 468 هـ بمدينة أشبيلية في أحضان أسرة كانت لها حظوة لدى المعتمد بن عباد في عصر ملوك الطوائف ، وكان لهم جهاده السياسي مع المرابطين ثم الموحدين ، كما كان له جهده العلمي المتميز ونتاجه الخصب في الفقه وأصول الدين وعلوم القرآن والحديث واللغة وغير ذلك ، وتوفى بمدينة فاس بالمغرب في ربيع الأول سنة 543 هـ (انظر مقدمة العواصم من القواصم 13ـ29 ،، ابن بشكوال : الصلة ترجمة رقم ١٢٩٧ ، ص ٥٥٨-٥٥٩ ، د حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس 87ـ88)

[4] العواصم من القواصم 248

يتحدث عن حروب علي ومعاوية يرى أن كلا الفريقين كان يجتهد رأيه لتقرير الحق ، وأنهم جميعا مؤمنون كما قال تعالى " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما " [٢]، ويتحدث ابن العربي عن مزايا معاوية ومكانته العالية في السياسة والفقه [٣] ، ويرفض الرواية المشهورة عن التحكيم وخداع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري ، ويرى أن كلا من الحكمين خلع صاحبه وتركا الأمر شورى بين المسلمين بغير سباب بينهما [٤] ، ويتعرض ابن العربي لبحث بعض الشبهات التي تثار حول خلافة معاوية مثل قتله حجر بن عدي ، فيرى أن حجرا " أراد أن يقيم الخلق للفتنة ، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فسادا " [٥] ، ويرى أن استلحاق معاوية زياد بن أبيه لم يكن خروجا عن شريعة الإسلام كما يزعم أعداء الأمويين ، فإن المسألة محل خلاف بين العلماء ، وقد فعل معاوية الحق في ذلك على ما يذهب الإمام مالك [٦] ، وحين يبحث ابن العربي تولية معاوية يزيد العهد يرفض القول بان يزيد لم يكن عدلا ، ولم يكن يستحق الخلافة [٧] ؛ كما ينفي الزعم بان يزيد كان شارب خمر " فإن قيل كان يزيد خمارا قلنا : لا يحل إلا بشاهدين ، فمن شهد بذلك عليه ؟ بل شهد العدول بعدالته " [٨] ..

ولما بحث ثورة الحسين وخروجه على يزيد بن معاوية أخذ على الحسين أنه " لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس وعدل عن رأى شيخ الصحابة ابن عمر [٩] ، ويلتمس العذر لقاتليه فإنه " ما خرج إليه أحد إلا بتأويل ، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل ؛ المخبر بفساد الحال ؛ المحذر عن الدخول في الفتن " [١٠] ، ثم يذكر الأحاديث التي تنهى عن الخروج على الجماعة وتفريق الأمة ، ويعتب على الحسين حسن ظنه بأهل الكوفة الذين أسلموه [١١] ..

---

[١] السابق والصفحة

[٢] السابق 172

[٣] السابق 209ـ218

[٤] السابق 179ـ181

[٥] السابق 219ـ220

[٦] السابق 250ـ255

[٧] السابق 229

[٨] السابق 232

[٩] السابق 237ـ238

[١٠] السابق 244

[١١] السابق 245

وأخيرا فإن بحث ابن العربي لم يقتصر على هذه الفترة الباكرة من العصر الأموي بل يمتد بعض الشيء حتى يروى الروايات عن فقه عبد الملك بن مروان وعلمه [١]

ابن تيمية [٢] وكتابته عن الأمويين :

ويحتوى كتابه "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية" على نظرات نافذة في التاريخ الأموي تنشد العدل والإنصاف ، وتليق بتلك العقلية النابهة لشيخ الإسلام ، التي ترفض التقليد والجمود وتؤثر التفكير والاجتهاد ..

يتعقب ابن تيمية شبهات الشيعة والمعتزلة عن الأمويين ويناقشها ويرد عليها ؛ ومن أبرزها الشك في جدية إسلام بعض كبار الأمويين بدعوى أنهم من الطلقاء الذين أسلموا بعد الفتح لما لم يكن أمامهم غير الإسلام ، فيرى إن كلمة الطلقاء ليست بصفة ذم ، فان الطلقاء غالبيتهم حسن إسلامهم .. وكانوا من خيار المسلمين ومعاوية ممن حسن إسلامه[٣]، وكذلك حسن إسلام أبيه أبي سفيان بن حرب وأمه هند بنت عتبة [٤] ، وقد أصبحت مكانة معاوية عظيمة في الإسلام منذ عهد عمر بن الخطاب [٥] ..

ويرد ابن تيمية الأحاديث الموضوعة التي يزعمها أعداء الأمويين في ذم بنى أمية على لسان الرسول ﷺ [٦] ، وقد استعمل النبي ﷺ بعضهم على بعض ولاياته [٧] ..

وينص ابن تيمية على العلاقات الوثيقة بين بني أمية وبني هاشم فهما ينتميان معا إلى جد واحد هو عبد مناف ؛ ومازالوا متفقين في أيام النبي ﷺ وفى إمرة الشيخين [٨] ، ولما وقع القتال بين على ومعاوية كانا " أطلب لكف الدماء من أكثر المقتتلين ، لكن غلبا فيما وقع " [٩] ، وكان لكل

---

[١] السابق 263—264

[٢] ولد سنة 661 وتوفى سنة 728 ، واشتهر بالجرأة والصلابة والتحرر في الاجتهاد ، كما رفع راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،وجاهد التتار بنفسه ، (راجع ابن حجر : الدرر الكامنة 144/1—160، الداودى :طبقات المفسرين 48/1، دائرة المعارف الإسلامية 109/1—116 ، أبو زهرة : ابن تيمية)

[٣] المنتقى من منهاج الاعتدال ص 248 —249

[٤] السابق 268

[٥] السابق 249

[٦] السابق 258

[٧] السابق 261 ، 382

[٨] السابق 372

[٩] السابق 263

فريق من المتحاربين وجهه نظره المتأسسة على دلائل شرعية [١] .. ولما يبحث ثورة الحسين بن علي يرى أنه قتل مظلوما شهيدا ، غير أن يزيد لم يأمر بقتاله ، ولكن كتب إلى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق، ويحمل أهل العراق وجيش ابن زياد مسئولية قتله " ، ولما بلغ ذلك يزيد أظهر التوجع على ذلك ، وأظهر البكاء في داره ، ولم يسب له حريما أصلا (كما يزعم الرافضة) ؛ بل أكرم أهل بيته وأجازهم حتى ردهم إلى بلدهم" [٢] ، ورغم ذلك فإن ابن تيمية يرى أنه لم يكن في خروج الحسين على يزيد مصلحة لا في دين ولا في دنيا ، "وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده " [٣] ؛ وينفى كثيرا من مبالغات الشيعة في قصة استشهاده [٤] ..

ويتحدث عن ثورة أهل المدينة على يزيد فيذكر الهم " لما خلعوه وأخرجوا نوابه وعشيرته أرسل إليهم مرة بعد مرة يطلب الطاعة فامتنعوا؛ " فأرسل إليهم جيشه فأوقع بهم ، ولكن لم تحدث الفظائع التي ينسبها المؤرخون إلى ذلك الجيش ، ويزعمون أنه ارتكبها بمدينة الرسول " [٥] ..

حول إنصاف الفقهاء للأمويين :

إن محاولة الفقهاء إنصاف الأمويين في بحوثهم التاريخية لا تعني أبدا محاباتهم الأمويين أو تزييف التاريخ لصالحهم ، فكما كشف هؤلاء الفقهاء زيف كثير من الروايات التي تهاجم الأمويين كشفوا أيضا وضع بعض الروايات التي تعلي من شأنهم وتمجدهم ، فقد كان هدفهم تقصي الحقيقة ، لا الانتصار لفريق على آخر ، فقد نبه ابن الجوزي في كتابه : " الموضوعات " على بعض الأحاديث التي وضعها أنصار الأمويين في فضائل معاوية [٦] ، كما انتقد الحافظ ابن حجر إيراد مثل هذه الأحاديث [٧] ، وقال ابن كثير بعد أن أورد بعض ما صح من الأحاديث في مناقب معاوية " وقد ذكر ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة ، والعجيب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف رجالها " [٨] ..

---

[١] منهاج السنة النبوية 2/202ـ203 ، وراجع مجموعة فتاوى شيخ الإسلام 35/72ـ73

[٢] منهاج السنة النبوية 225 ـ226

[٣] السابق 2/241ـ242

[٤] السابق 2/248ـ250

[٥] السابق 2/253 وانظر ص 251

[٦] الموضوعات 2/15 ـ 24

[٧] فتح الباري 7/131

[٨] البداية والنهاية 8/120

وقد لفتت ظاهرة إنصاف الأمويين عند بعض الفقهاء الذين كتبوا في التاريخ أنظار بعض الباحثين ، غير أن أحدهم فسرها تفسيرا بعيدا لما وجدها في أعمال بعض علماء الأندلس كابن حزم وابن العربي فذهب إلى أنها ظاهرة أندلسية جاءت نتيجة تأثير خلافة الأمويين التي كانت هناك فيقول : " نجد هذه الأخبار (أي المظهرة لفضائل الأمويين) متواردة في معظم كتب التاريخ التي كتبت في الأندلس ، واظهر مثال لذلك أبو محمد على بن حزم الذي يدافع عن الأمويين دفاعا عظيما ، وأبو بكر بن العربي الذي ذهب في كتابه العواصم من القواصم إلى درجة انه أيد يزيد في قتله الحسين بن علي ﷺ ، وتتضح هذه الظاهرة في كتاب في التاريخ لم ينشر بعد لعبد الملك بن حبيب الفقيه الأندلسي ، فقد ملئ كتابه هذا بفضائل الأمويين والتعصب لهم " [١] ..

إن من أهم ما يعكر صفو هذه الرؤية أن الأسماء التي ذكرها الباحث كلها من أسماء الفقهاء [٢] ، وأن هذه الظاهرة لم تمتد لتشمل غيرهم من المؤرخين والأدباء الأندلسيين ، وقد مرت بنا دراسة لكتاب ابن عبد ربه الأندلسي" العقد الفريد " سار فيها على نهج مؤرخي وأدباء المشرق ؛ فجاءت بعض رواياته مملوءة بالتشنيع على بني أمية ، وقد كان ابن عبد ربه أحد مواليهم .. وإذا كان التأثر بالأمويين في الأندلس هو الدافع لكتابات ابن حزم وابن العربي .. وكانا غاية في عفة النفس وعزتها وإبائها .. فما الداعي إلى ظهور نفس الظاهرة من إنصاف الأمويين عند فقهاء آخرين لم يدخلوا تحت سلطان الأندلس مثل ابن تيمية وابن كثير والذهبي وابن حجر وغيرهم ؟؟ ..

---

[١] د. حسين مؤنس هامش تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان 91/4 ، وليس دقيقا القول بأن ابن العربي أيد يزيد في قتل الحسين تأييدا مطلقا ، بل التمس لقاتليه العذر حيث كانوا ــ فيما يرى ــ يتأولون بعض النصوص الشرعية التي تبيح قتل الخارج على الجماعة (انظر العواصم من القواصم 244 ــ 245)

[٢] وممن لم يذكرهم د. حسين مؤنس من الفقهاء الذين أبرزوا فضائل الأمويين قاسم بن أصبغ .. وكان جده من موالي الوليد بن عبد الملك ، وكان هو عالم الحديث بالأندلس يجلس إليه الخلفاء يتعلمون ؛ مثل عبد الرحمن بن محمد وابنه الحكم ، وقد ألف القاسم كتابا في فضائل بني أمية وآخر في فضائل بنى هاشم والكتابات ضائعان ، وربما كانا في فضائل بني أمية بالأندلس (راجع الداودي :طبقات المفسرين 31/2 ، بالنثيا :تاريخ الفكر الأندلسي 216)

الفصل الثالث

الأمويون في كتابات المؤرخين المعاصرين

مقدمة

كان من الطبيعي أن يؤثر شيوع التحريف للتاريخ الأموي في مصادرنا القديمة على الكتابات التاريخية الحديثة ، فقد اعتمد المحدثون على هذه المصادر ، وأخذوا عنها ، وتأثروا بها .. على أن العصر الحديث قد شهد دخول عوامل جديدة على كتابة التاريخ الإسلامي كان من أهمها ظهور حركة الاستشراق التي خلفت آثاراً واسعة على حياتنا الثقافية عامة وأفرزت جهوداً كبيرة في بعث التراث الإسلامي بحثاً وتنقيباً ، ودراسة وتحقيقاً ، وطباعة ..

وواكبت حركة الاستشراق سيطرة الاستعمار الغربي على العالم الإسلامي ، فأثمر كلا العاملين لوناً من التبعية الثقافية والانبهار الحضاري عند بعض مثقفينا الذين تتلمذوا على نتاج المستشرقين أو تبعوا مناهجهم ، وكان من المتوقع أن تحوي دراسات بعض المستشرقين عن التاريخ الإسلامي بوجه عام — والتاريخ الأموي جزء منه — قدراً كبيراً من محاولات الدس والتحريف لأسباب شتى .. وسارت دراسات تلامذة المستشرقين من العرب والمسلمين في ذات الطريق ، فجاءت كتاباتهم عن الأمويين حاملة الكثير من مظاهر التشويه والتحامل عليهم ..

على أن تياراً آخر موازياً للتيار السابق اهتم بإنصاف الأمويين ، وأدرك مقدار الغبن الذي تعرض له تاريخهم وأسبابه ، وكانت السمة البارزة لرواد ذلك التيار هي ارتباطهم الوثيق بالفكر الإسلامي ، وغيرتهم على تاريخ الإسلام ، وإدراكهم خصوصية ذلك التاريخ التي تنبع من الطبيعة الخاصة للامة الإسلامية وعوامل تكوينها ، وأسباب تطورها ، ودور الإسلام كدين متميز في مسارها، حيث صاغ منها تشكيلاً منسجماً له صفاته الخاصة كما أن له طابعه الإنساني العام ..

على أنه ينبغي أن نتنبه دائماً إلى نسبية استعمال مصطلح الإنصاف أو التحريف ؛ ففي بعض الكتابات المتحاملة على الأمويين سنجد إشارات إلى منجزات عظيمة لهم ، وفي بعض الكتابات المنصفة للأمويين سنجد تأثراً بالآراء السائدة ضدهم ، وترديداً غير منقح لبعض مثالبهم.

وعلى ذلك فسوف ينقسم البحث في هذا الفصل إلى مبحثين : الأول منهما : يتحدث عن اتجاه تحريف التاريخ الأموي ؛ بينما يتحدث المبحث الثاني عن اتجاه إنصاف الأمويين ..

المبحث الأول: اتجاه تحريف التاريخ الأموي

أولاً: دور المستشرقين في دراسة التاريخ الأموي

يرجع بعض الباحثين ببدايات الاستشراق إلى أمد بعيد ، تطور فيها مدلوله وتعددت وسائله [١] ، ولكن من المؤكد أن القرنين الأخيرين قد شهدا طفرة هائلة في نشاط الاستشراق وآفاقه ، ولقد كان التاريخ الإسلامي واحداً من أخصب مجالات عمل المستشرقين وأخطرها ، سواء في ناحية بعث التراث التاريخي ونشره ، أو في ناحية تأويله وفلسفته ودرسه ...

ويحسن في البداية أن نشير إلى أن الشكوك الواسعة التي تحيط بحركة الاستشراق ودوافعها نحو الاهتمام بالإسلام وأمته لا تعني بحال أن نغمط حقوق جماعه من هؤلاء المستشرقين كان البحث عن الحق رائدهم ، وكان الدافع الذاتيّ عندهم يقف خلف ما بذلوا من جهد وعناء ، وقد انتهى ذلك ببعضهم إلى اعتناق الإسلام [٢] ، غير أن معظم جهود المستشرقين فيما يخص التاريخ الأموي ــ والتاريخ الإسلامي بوجه عام ــ قد خضعت لعدة مؤثرات منهجية ، نحت بها إلى ما نجده في كتاباتهم التاريخية من تحامل على الأمويين وتاريخهم ؛وأهم هذه المؤثرات المنهجية :

١ــ الاستشراق نشاط غربي :

ظهر في بيئة غريبة عن الإسلام لها رؤيتها الحضارية الخاصة بها ... فللغرب نظرته الخاصة إلى الدين فيراه بعضهم صناعة بشرية لا دخل للسماء فيها [٣] ، ويراه بعضهم قيمة روحية محدودة الأثر فيما بين الإنسان وربه ، لا دخل لها بالسياسة والحكم والاقتصاد والإدارة ، ولهذه الرؤية أسبابها التاريخية الخاصة بالغرب وصراعه ضد الكنيسة ، وللغرب نظرته إلى الإنسان ونشأته وتأثير

---

[١] المتعارف عليه الآن عن معنى الاستشراق هو " التبحر في لغات الشرق وآدابه وتسليط الأضواء على حضارته ودراستها " (انظر آربرى : المستشرقون البريطاليون ص 8 ، د. حسين نصار : الاستشراق بين المصطلح والمفهوم (مقال بمجلة المنهل السعودية ص 12ــ13 عدد 471 سنة 1979) وانظر عن تطور مدلول هذه الكلمة : آربرى المرجع السابق ص 8 ، أما وسائل الاستشراق فمتعددة منها إنشاء كراسي للغات الشرقية ، وإقامة المتاحف الشرقية، وجمع المخطوطات وتحقيقها ونشرها وإصدار المجلات العلمية المتخصصة ، وعقد المؤتمرات الدولية للمستشرقين .... (راجع نجيب العقيقي : المستشرقون 1122 ــ 1148)

[٢] العقيقي السابق 1162 ومن أشهر المستشرقين الذين أعلنوا إسلامهم كرنكوف وليوبولد فايس وجرمانوس وغيرهم

[٣] محمد قطب التفسير الإسلامي للتاريخ 28

الدين فيه ومكانة القيم الأخلاقية عنده [١] ، وقد أفرزت هذه الرؤى الغربية نظريات فلسفية خاصة كانت لها نظرتها إلى الدين والإنسان والتاريخ ، ومن أبرز هذه الفلسفات التي تركت أثرا على تناول المستشرقين وبعض تلامذتهم التاريخ الأموي فلسفة التفسير المادي للتاريخ ..

وقد ترك ذلك أثره على تأريخ المستشرقين العصر الأموي ، ومرحلة الصراع بين المسلمين التي سبقت قيامه ، وتاريخ بعض رجاله ، والفتوحات الإسلامية فيه ، ومكانة الدين عند الأمويين والمجتمع الإسلامي في عهدهم على نحو ما سنرى عند تقديم نماذج لكتابات المستشرقين عن العصر الأموي.

2ـ ارتباط الاستشراق بالاستعمار الغربي والتنصير [٢] :

كان تزايد نشاط الاستشراق في القرنين الأخيرين مواكبا انطلاق الاستعمار الغربي وحملات التنصير ضد العالم الإسلامي مما ترك أثره على رؤية المستشرقين للإسلام وتاريخه .. وقد ظهر ذلك عند تناول بعض المستشرقين الفتوحات الإسلامية ، حيث بالغوا في أهمية الدافع الاقتصادي لها ؛ كما فسروا انتشار الإسلام على أنه نتيجة السيطرة السياسية والقوة العسكرية للمسلمين ، وصوروا أحوال الشعوب المفتوحة وعلاقتها بالمسلمين والحكم الأموي على أنها علاقة بين المغلوب المقهور والمنتصر الظالم ، وانعكس ذلك على تناولهم قضية الموالي في العصر الأموي ، ومبالغتهم في تصوير الظلم الأموي ضدهم ، كما سوف يبدو ذلك عند تناول نماذج من تأريخهم للأمويين ..

3 ـ قصور المعرفة الكافية بأحكام الإسلام :

فالدراسة الصحيحة للتاريخ الأموي تقتضي اتصالا وثيقا بمصادر العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وفقه ، مع المعرفة الصحيحة باللغة العربية والمصادر التاريخية الأصيلة .. وقد كانت بضاعة كثير من المستشرقين قليلة في العلوم الشرعية ، مما أثر بصورة سلبية على تناولهم التاريخ الإسلامي [٣] ، وقد ظهر أثر ذلك على تناول بعض المستشرقين بعض الشبهات التي تثار حول الحكم

---

[١] راجع الفصل الخاص بعنوان " ما الإنسان " في المرجع السابق ص 24 وما بعدها ..

[٢] عن ارتباط الاستشراق بالاستعمار والتبشير راجع د. محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث ؛ فصل بعنوان " المستشرقون والاستعمار "ص48ـ63 ، د.علي جريشة ومحمد شريف الزيبق : أساليب الغزو الفكري 18ـ22، د. عمر فروخ : الاستشراق ماله وما عليه ص 15ـ16 مقال بمجلة المنهل السعودية ، وراجع تراجم جماعة من المستشرقين الذين اشتهروا بصلاتهم القوية بالاستعمار والتبشير مثل شميليون ولورانس ودنلوب وهانوتو وماسنيون وفليب حتي وزويمر وبراون ودونالدسون في (نجيب العقيقي : المستشرقون ود. البهي : السابق ، في ملحقات الكتاب ص 477ـ494)

[٣] راجع محمد بن عبود . منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ص 234 مقال بمجلة المنهل السابقة ، طيباوي المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث للبهي ص 525 ـ 528

الأموي وسيرة بعض الخلفاء والولاة مثل بحثهم عن حركات المعارضة للأمويين التي كان يجب على باحثها الاطلاع على المباحث الفقهية الخاصة بالخروج على الجماعة في الإسلام، وتصويرهم المجتمع الإسلامي في العصر الأموي حيث كان اعتمادهم بصورة أساسية على كتابات أدبية طغى اهتمامهم بها على ما عداها من مصادر الثقافة الإسلامية ، ووقع بعضهم في مزالق خطيرة عند بحث النظام المالي في العصر الأموي وتطبيقه في البلاد المفتوحة .. كما سوف يبدو عند تناول نماذج لتأريخهم للأمويين ..

نماذج من تناول المستشرقين التاريخ الأموي :

لعل أول ما يصدم القارئ المسلم في كتابات المستشرقين ذلك الأسلوب الفظ الذي يتناولون به حياة بعض كبار الصحابة ، فضلاً عن تطاولهم في الحديث عن الرسول الكريم نفسه صلوات الله عليه [1] ، ويحسن أن نذكر هنا أن المستشرقين اعتمدوا في بعض هجمهم على هذه الرموز الإسلامية العظمى على ما ذكره الروافض والخوارج والشعوبيون ، مما نجده في تراثنا ؛ ولكن كان يجب على هؤلاء المستشرقين " حملة المنهج العلمي التوثيقي " أن يرفضوا هذه الروايات لتحامل المصادر التاريخية المعتمدة عندهم ، ولاستبعاد المنطق التاريخي حدوث مثل هذه الأفعال المنسوبة إليهم في مثل زمانهم وسابقتهم وصحيح سيرهم .. غير أننا ندهش حين يوثق بعض كبار المستشرقين البارزين هؤلاء الضعفاء والكذابين من الرواة ، مثلما فعل فلهوزن حين وصف أبا مخنف الأخبارى الشيعي الكذاب بأنه " الحجة الكبرى " ملقيا بكل إدانات علماء الجرح والتعديل له وراء ظهره [2] ..

وفلهوزن هذا هو الذي يصف المغيرة بن شعبة ﷺ بأنه كان دائم الكذب ، وظل متمتعا بما ينهب حتى نهاية أمره [3] ، وذلك في حين يصفه بروكلمان بأنه " التهازي لا ذمة له ولا زمام " [4] ! ويشكك فلهوزن أيضا في تدين معاوية بن أبي سفيان أحد كتاب الوحي فيقول عنه " لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام " [5]، ويبدو فلهوزن اقل مغالاة من رينيه غروسيه الذي يقول عن معاوية أنه

---

[1] للأب لامنس اليسوعى دراسة بعنوان " محمد هل كان مخلصا في دعوته؟" وله كتاب عن المؤامرة الثلاثية التي يزعم أنها تمت بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح للاستيلاء على الخلافة وتوارثها بالتوالي (راجع عمر فروخ . الاستشراق ماله وما عليه ص 21 مقال سابق)

[2] الخوارج والشيعة 179

[3] تاريخ الدولة العربية 111 وانظر قبلها 110

[4] تاريخ الشعوب الإسلامية 73/1

[5] تاريخ الدولة العربية 129

كان " حَبراً محباً للفنون ، ملحداً تقريباً " [1] ويصف فلهوزن عمرو بن العاص بأنه ألّب على عثمـان أخبث تأليب " [2] ، إبان الثورة عليه ، ويصف تحالفه مع معاوية بأنه " تحالف بين الصبية الأشـقياء " [3]

ويتحدث سايكس عن الحسن بن علي ﷺ على هذا النحو فيصفه بأنه " غير جدير بـأن يكون ابنا لعلي ، ذلك الرجل العظيم ، فقد شغل الحسن بملذاته بين نسائه ، وظل يتزه في الحدائق في المدائن ، وخاف أن يجرب جيشه في ميدان القتال " [4]، ويقول فلهوزن عن أخيه الحسين بن علـي ﷺ أثناء حديثه عن ثورته ضد الأمويين إنه " مد يديه كالطفل ليأخذ القمر "[5]..

ويستمر ذلك النمط من الحديث الفج عن أعلام المسلمين ؛ فيصف دوزي عبد الملك بـن مروان بأنه ساذج الإيمان ، وأن ممارسته السلطان قضت على سلامة قلبه [6] ، بينما يصف فان فلوتـن عمر بن عبد العزيز بالرجعية والمحافظة الدينية ، ويرى أن هذه كانت غلطته الكبرى [7] ..

وتستمر هذه النغمة في التردد حتى تصل إلى دعوى عريضة عند بعضهم مفادها انه " ممـا لا ريب فيه (!) أن بني أمية لم يكونوا متدينين ولا متظاهرين بالتقوى " [8] ..

وتتضح تأثيرات المصطلحات السياسية الغربية والتقسيم الطبقي للمجتمع هناك في تصويـر الأمويين ودولتهم ، فيتحدث نيكلسون عن أن الموالي قد لقوا " من أسيادهم الأرستقراطيين معاملـة كلها ذل وهوان " [9] ، بينما يقول سايكس :" إن هذه المعاملة تفوق ما تحمله النورمان من السكسون الفاتحين " [10] ! وهو نفسه يصف الأمويين بأنهم " الأرستقراطية الوثنية " [11] ، وعلى نفـس الـدرب يسير بندلي جوزي الذي يتحدث عن نظرة العرب إلى الموالي بعين الاحتقار ، ونظرتهم إليهم نظرهـم

---

[1] نقله عنه حيدر بامات : مجالي الإسلام ص 80

[2] تاريخ الدولة العربية ص 130

[3] راجع د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص 83

[4] History of Persia p538 نقله عنه د الخربوطلى تاريخ العراق 74—75

[5] الخوارج والشيعة 187

[6] تاريخ مسلمي إسبانيا 109/1

[7] السيطرة العربية ص 50

[8] جولدسيهر : العقيدة والشريعة ص 70—71

[9] نقل ذلك عنهما د. الخربوطلى : تاريخ العراق ص158

[10] راجع السابق والصفحة

[11] راجع د حسن ابراهيم تاريخ الاسلام السياسي 283/1

إلى بقرة حلوب ومورد جديد للإثراء وسوء الاستعمال ، كما كانت الحال مع اليهود في أوربا في الأجيال الوسطى ، أو في بعض أنحاء روسيا قبل الحرب الأخيرة [١] ..

وإذا كانت الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها أوروبا قد تركت ظلالها على تفسير المستشرقين لأوضاع الموالي في الدولة الإسلامية في عهد بني أمية فقد تركت المعارك الاستعمارية الأوروبية للشرق الإسلامي ظلالها على تفسيرهم الفتوحات الإسلامية ومراميها ؛ فهم يعلون من شأن الدافع الاقتصادي لتلك الفتوح ، بل إن بعضهم ليغالي ويجعله المحرك الرئيس للفتوحات الإسلامية ، ويشترك في ذلك التحليل جماعه من أبرز أساطينهم مثل فلهوزن وكايتاني ولامنس ونولدكه وبارتولد وغيرهم [٢] ، فيرى كيتاني مثلا أن " الإسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب ، وأن الدافع إليها هو ما كان يدفع سابقا إلى مثلها في جزيرة العرب ، أي جفاف أرضهم المستمر ، وما يتبع ذلك من الضيق والفقر " [٣]، بل إن الدافع إلى دخول العرب أنفسهم من أهل المدينة ومكة وسائر القبائل في الإسلام لم يكن الإيمان به ، وإنما يرجع ذلك إلى أسباب غير دينية كما يرى المستشرق الهولندي الشهير دي جويه [٤] ، وينظر فان فلوتن إلى الفتوحات الإسلامية على أنها " احتلال مسلح " وليس " تلاحما بين جنس وآخر أو انتصارا روحيا لدعوة ما " [٥] ، ويصف بعض هذه الفتوحات بأنها ليست سوى " حملات من الإرهاب وقطع الطريق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام " [٦] ..

ويصف أحد تلامذة المستشرقين من العرب فان فلوتن هذا بأنه صاحب منهج علمي ، ورغم ذلك فإنه يؤخذ عليه " رغم منهجه العلمي (ا) ذلك الموقف المتشنج من الدولة الأموية ، والمتعاطف عموما مع حركات المعارضة ذات الاتجاه الشعوبي ، [٧] ، "ويفسر موقفه السابق من الفتوحات الإسلامية بالتأثر " بالمناخ الفكري الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر وترك بصماته على نتاج المستشرقين بصورة متفاوتة " ، مما جعله ينظر إلى الشعوب الخاضعة للعرب في ظل قاعدة الغالب والمغلوب " [٨] ...

---

[١] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام 58—59

[٢] السابق 16/17

[٣] السابق 17

[٤] السابق 17—18

[٥] السيطرة العربية 77

[٦] السابق 81

[٧] د. إبراهيم بيضون · الدولة الإسلامية والمعارضة ص 13 — ١٤

[٨] السابق ص 10

وبالنسبة للتفسير المادي للتاريخ الأموي تجيء محاولة بندلي جوزي متبنية له وشارحة : فهو يفترض أن الصراع بين العرب والموالي في ظل الحكم الأموي كان صراعا طبقيا ، حيث تجمعت الثروات الكبيرة في أيد قليلة ، واستغل هؤلاء الأغنياء " علوج البلاد أو زنوج إفريقيا الذين كانوا يجبرونهم على العمل في مستنقعات مصر والعراق وما وراء القوقاس حيث كانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكا ذريعا " [١] وهكذا اشتعل الصراع بين الطبقة العليا من الأغنياء ، والطبقة الدنيا من الفقراء ، في حين أن " حالة الطبقات الوسطى من الأهالي أخذت تسوء في أواخر أيام بني أمية " [٢] ..

وأخيرا يقف قصور المعرفة بأحكام الإسلام وراء الخلل في بعض تحليلات المستشرقين مثلما نجد عند فلهوزن الذي يبرر غضب بعض المسلمين الورعين من مقتل حجر بن عدي أيام معاوية بن أبي سفيان بأن سبب ذلك الغضب " أن قتل المسلم لا يحل إلا إذا قتل مسلما آخر ، أي أن النفس بالنفس " [٣] ، وفات الكاتب ـــ أو أغفل ـــ أن الحديث الشريف ينص على أنه " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " [٤] ، ويقول حديث آخر " من جاءكم وأمركم جميع على رجل منكم يريد أن يشق عصا الطاعة فاضربوه بالسيف كائنا من كان " [٥] ..

كما أن تصور فلهوزن وآخرين من المستشرقين عن النظام المالي في العصر الأموي يهمل كتب الفقه الإسلامي تماما ، حين يزعم أن أقوال الفقهاء عن الجزية والخراج إنما جاءت في العصر العباسي ، "ولذا يجب تجاوزها إلى البحث التاريخي في كتب التاريخ وحدها عن ذلك النظام " [٦].

ثانيا : اتجاه تحريف التاريخ الأموي عند المؤرخين المحدثين من العرب والمسلمين :

أثرت عوامل متعددة في استمرار ظهور ذلك الاتجاه في التأريخ للأمويين ، رغم زوال العوامل التي سببت ظهور التحريف للتاريخ الأموي عند مؤرخينا القدماء ..

---

[١] جوزي · من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص 65

[٢] السابق 62

[٣] الخوارج والشيعة 158ـــ159

[٤] حديث شريف رواه البخاري : كتاب الديات ، مسلم : كتاب القسامة والمحاربين ، الترمذي : كتاب الحدود

[٥] حديث شريف رواه مسلم ، صحيحه ، كتاب الإمارة

[٦] راجع فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 273 ، فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين 20/2 ــ21 ، وانظر د . الدوري نظام الضرائب في خراسان . مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١١ ، سنة ١٩٦٤م

ولعل أول هذه العوامل هو التأثر بالآراء القديمة السائدة عن الأمويين والتي زخرت بها مصادرنا القديمة ، وقبول هذه الآراء بنوع من التسليم بها ، وفقدان الرغبة في مناقشتها أو تمحيصها في أحيان كثيرة ؛ كما انضم إلى ذلك العامل التراثي عامل مستحدث نتيجة تأثير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها أمتنا الإسلامية في هذا العصر على نظرة المؤرخين المحدثين إلى العصر الأموي ؛ فإن حالات القهر السياسي والفساد الاقتصادي والخلل الاجتماعي التي مرت بها أمتنا ومازالت ، قد ولدت هذه الحساسية الشديدة عند بعض كتابنا المخلصين من بعض الممارسات الأموية التي وجدت في ظروف مغايرة لظروفنا المعاصرة ، ونتيجة عوامل متعددة تبحث في ضوء ملابساتها التاريخية .. مثل تحويل الخلافة عن منهج الشورى في اختيار الحاكم إلى الملك العضوض ، والتوسع في استعمال الأموال لتوطيد أركان الدولة ، وتجنب مزيد من إراقة الدماء واشتعال الثورات التي تقف خلفها عوامل عديدة منها ما لا يمت للإسلام بصلة ، كما سيأتي ... ومعاناة الشعوب المسلمة تحت الاحتلال الغربي زادت ذلك الشعور الفطري عند مؤرخينا بحب الحرية وكراهية الظلم، وانعكس ذلك بصورة غير صحيحة تماما على ممارسات الأمويين مع بعض الموالي في فترات تاريخية محدودة من العصر الأموي الممتد إلى ما يزيد على تسعين عاما .. وامتدت هذه الحساسية تجاه بعض هذه الممارسات لتشمل النظرة المتسعة إلى بني أمية وتاريخهم .. ناهيك عن الحب الجارف الذي يشمل غالبية المسلمين تجاه آل البيت ، ذلك الحب الذي استغلته أقلام خصوم الأمويين من الشيعة لتزيد الكراهية ضد بني أمية ، ولتزيد التعاطف مع هذه الفرقة التي لا تزال حتى اليوم بحاجة إلى ذلك التعاطف لأسباب سياسية ودينية..

ثم جدت عوامل أخرى معاصرة آدت إلى شيوع التحامل على الأمويين في عديد من الكتابات الحديثة عنهم ، ولعل من أخطر هذه العوامل تأثير الاستشراق على الكتاب المسلمين ، الذي واكب حالة الضعف الحضاري التي مرت بها أمتنا ، وقد تسلل تأثير المستشرقين إلى بعض كتابنا نتيجة دراسة نتاجهم الفكري والتاريخي ، أو التلمذة المباشرة لهم في البعثات العلمية إلى أوروبا ، أو تدريس بعض هؤلاء المستشرقين في بعض الجامعات العربية والإسلامية ، أو اشتراكهم في المجامع العلمية ، أو غير ذلك ..

ولعل من دواعي الإنصاف أن نشير إلى بعض الآثار الحميدة للاستشراق والتأثر به ، مثل تحقيق بعض كتب التراث ، أو محاولة تحري الدقة والبحث الموضوعي التي أدت إلى بعض النتائج في صالح التاريخ الإسلامي بوجه عام .. غير أن آثاره الضارة كانت كبيرة وخطيرة عند بعض هؤلاء الآخذين عنهم أو المقتدين بهم ، فقد " نشأ منا جيل كان فيه عدد من الأسماء اللامعة لم يكتف أصحابها بالاقتداء بالمستشرقين في نهج بحثهم ـــ وهذا أمر محمود في بعض وجوهه ـــ ولكنهم تبنوا

مفردات آراء المستشرقين في كثير من الأحوال ، وكان عدد من تلك الآراء ظاهر الخطأ كثير التحامل " [١] ..

ومن قبيل التأثر بالغرب والانبهار به تبني بعض كتابنا نظرياته الفكرية والسياسية ومحاولة تطبيقها في مجال التاريخ الإسلامي ، ومن أبرز الأمثلة لذلك محاولة تطبيق مذهب التفسير المادي للتاريخ ــ وهو مذهب خطير أثبتت الأيام والأحداث الأخيرة فشلة وإفلاسه ــ على التاريخ الإسلامي .. ومعلوم أن هذه المناهج والمذاهب إنما نبتت في بيئة غريبة ، ونتيجة عوامل مختلفة أثمرتها ، لاوجود لها ، أو لا خطر منها ، عندنا .. وسوف نعرض في هذا الفصل أمثلة لذلك التطبيق ونتائجه المسيئة على التأريخ للأمويين ..

ثم أدلى بعض كتابنا ــ من غير المختصين بالتاريخ ــ بدلوهم في ذلك المجال .. فكتبوا في التاريخ الإسلامي عدة كتابات مهمة.. ويلاحظ على هذه المحاولات أنها اتجهت لمعالجة بعض الأحداث التاريخية الحساسة والمثيرة للجدل والاختلاف مثل الفتنة الكبرى وثورة الحسين وغيرها .. وهي أحداث تحتاج إلى استكمال أدوات عديدة للبحث التاريخي لم تكن متوافرة عند أصحابها كما سوف نرى .. ومن ثم فقد أدت إلى نتائج غير صحيحة ، وساهمت ــ نتيجة ذيوعها وسلاستها وطلاوة أسلوبها وشهرة أصحابها ــ في ذيوع الآراء المعادية للأمويين ..

وسوف نعرض في هذا المبحث الأمثلة عديدة لذلك الاتجاه المناوئ للأمويين مع إبراز العوامل التي أثرت فيها ..

أ) التيار المتأثر بالاستشراق:

١ــ جرجي زيدان [٢] في كتابة : تاريخ التمدن الإسلامي :

ينظر جرجي زيدان إلى الأمويين منذ البداية نظرته إلى قوم اغتصبوا الخلافة من أصحابها ، وأصحابها هم أهل البيت في رأي الكاتب، وأن بني أمية كانوا يعلمون أن أهل البيت أحق بها منهم ، ويستندون في حقهم وفي طلبها إلى أساس صحيح [٣] ، ويحظون بتعاطف وتأييد أكثر الفقهاء والعلماء

---

[١] د. عمر فروخ : الاستشراق ماله وما عليه ص 21 مقال سابق .

[٢] ولد جرجي زيدان في بيروت سنة 1861 م من عائلة أرثوذكسية وهاجر إلى مصر سنة 1883 بعد فترة وجيزة من سيطرة الإنجليز عليها ، فتوثقت صلاته بهم ، وعمل ضمن جهاز المخابرات البريطانية مترجما ، ورافق الحملة البريطانية على السودان سنة 1884 ، وقد نال على جهوده آنذاك ثلاثة أوسمة بريطانية ، كما كان وثيق الصلة بالاستشراق ونتاج المستشرقين وقد مدحهم وأشاد بهم في مادة كتبه كثيرا (راجع شوقي خليل : جرجي زيدان في الميزان ، مقدمة الدكتور حسين مؤنس لكتاب زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، د. جمال عبد الهادي : منهج كتابة التاريخ الإسلامي 80ــ81)

[٣] تاريخ التمدن الإسلامي 90/4

وسائر رجال الدين [١] ، ولكنه لم يشرح لنا ذلك الأساس الصحيح الذي يستند إليه أهل البيت في أحقيتهم بالخلافة من دون المسلمين ، ولم يبرهن لنا على تعاطف رجال الدين معهم كما يقول ثم يحمل حملات منكرة على خلفاء الأمويين في بضع صفحات من كتابه ، فيرى أن معاوية نال الخلافة بالدهاء والتدبير ، وطلبها كما يطلبها أهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين [٢] ، كما يرى أن عبد الملك بن مروان كان " يرى الشدة ويجاهر بطلبه التغلب بالقوة والعنف ولو خالف أحكام الدين " [٣] . إذ إنه كان يتظاهر قبل توليه الخلافة بالتدين، فلما تولاها استهوته الدنيا " [٤] ، وكذلك يقبل جرجي زيدان تلك الروايات التي تتحدث عن بطش الحجاج وقتله عشرات الآلاف [٥] كما يقبل الكاتب الخرافات التي تنسب إلى الحجاج وخالد القسري مثل تلك التي تزعم أن خالدا كان يفضل الخليفة الأموي على رسول الله ؛ أو يهزأ بالقرآن الكريم [٦]... ثم يذكر مزاعم عريضة لا اساس لها حول استباحة جند الحجاج الكعبة بعد قتلهم ابن الزبير وقتلهم الناس فيها ثلاثا ، واحرافهم لها، ويزعم أن جنود الشام لما دخلوا المدينة المنورة أيام يزيد سفكوا دماء أهلها واستباحوا حرمتهم . " حتى إن الأقباط والأنباط كانوا يدخلون على نساء قريش فيزعون خمرهن من رءوسهن، وخلاخلهن من أرجلهن ، بسيوفهم على عواتقهم ، والقرآن تحت أرجلهم " [٧] ، وهذا كذب صراح ، وزعم محض بغير دليل ، فلم يحدث مطلقا في عهد بنى أمية ، ولا من تلاهم أن استهان المسلمون بقرآنهم ومقدساتهم إلى هذا الحد ، وشبيه بهذا زعمه أن " السياسة والدين لا يلتحمان إلا نادرا ، وما التحامهما أيام الراشدين إلا فلتة قلما يتفق مثلها " [٨] ..

ثم يتحدث الكاتب عن سفاهة الوليد بن يزيد " سكير بنى أمية " ــ كما يصفه ــ ويزعم انه كان يرمى المصحف بالنبل والقوس [٩] وقد حشد الكاتب كل هذه الاتهامات في عدد وجيز جدا من الصفحات ، واعتمد في ذلك على روايات العقد الفريد والأغاني والمسعودى المتشيع .

وعندما تحدث عن السياسة الاقتصادية للأمويين انتقى من الروايات التاريخية المتكاثرة ما شاء مغفلا غيرها ، غير مفرق بين الخطأ الجزئي والسياسة العامة للدولة ، فتحدث عن شدة الأمويين

---

[١] السابق والصفحة

[٢] السابق 63/3

[٣] السابق 90/4

[٤] السابق والصفحة

[٥] السابق 95/4

[٦] السابق 92/4

[٧] السابق 90/4ــ91

[٨] السابق 64/1 وهل ترصى هده الأقوال إلا روح التعصب الديني وهوى الاستعمار الغربي ؟

[٩] السابق 92/4

في جمع الأموال غير مبالين بأحكام الدين [١] ، وفساد ذممهم ولاءهم ، وقبولهم الرشوة يبيعون بها الولايات [٢]، وجعلهم العطاء وسيلة لاستعباد الرعية [٣]، ثم يصدر بعد ذلك حكماً خطيراً موحياً بأغراضه فيقول : " فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم أن يتقربوا منه، أو يتزلفوا إليه " [٤]..

وعندما تحدث عن الفتوح الإسلامية الكبرى في عهد الأمويين زعم أن همهم لم يكن نشر الدين ، بل كان الفتح والتغلب ، ويسوق في ذلك مجموعة من الأقوال المتهافتة عن توقف انتشار الإسلام في العهد الأموي في أطراف الدولة نتيجة جشع الولاة [٥] ، مما سوف يبدو لنا بعد ذلك خطؤه وتهافته ...

2ـــ سيد أمير علي[٦] في كتابه " مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي " :

يحدد الكاتب هدفه من تأليف ذلك الكتاب الذي كتبه باللغة الإنجليزية بأنه للفت " نظر الغربيين ، ولاكتساب عطفهم ، واستثارة اهتمامهم " ، وهو بذلك يأمل أن يكون قد وفق إلى " إزالة التعصب الأعمى الذي أوجدته الحروب في العصور السالفة " [٧] ، وذلك الهدف وحده داع إلى الحذر من تناول المؤلف للتاريخ الإسلامي الذي جاء من منطلق الضعف والإحساس بالحاجة إلى خطب ود السادة من الغربيين ، ولفت نظرهم واكتساب عطفهم ..

ولقد جاءت مصادر الكتاب في معظمها غربية مما يعد خللاً منهجياً في تناول التاريخ الإسلامي من مصادر معظمها غريب عنه [٨] ..

---

[١] السابق 87/4

[٢] السابق 89/4

[٣] السابق 84/4

[٤] السابق 82/4

[٥] السابق 91/4

[٦] هو كاتب هندي شيعي ولد سنة 1849 م وتوفي سنة 1928 م ،كان من كبار الحقوقيين وعمل قاضياً في محكمة البنغال العليا في عام 1904 م ، وتم اختياره كأول عضو هندي في اللجنة القانونية للمجلس الملكي البريطاني (راجع حيدر بامات : مجالي الإسلام 517ـــ519 ، أبو الحسن الندوي :المرتضى 78 ـــ79 حاشية 4)

[٧] راجع مقدمة كتابه مختصر تاريخ العرب

[٨] يصل عدد المراجع الأجنبية في كتابه إلى ثمانية وخمسين مرجعًا ، بينما لا تزيد المراجع والمصادر العربية عن خمسة وأربعين ، وربما يرجع ذلك إلى أن الكاتب كتب كتابه باللغة الإنجليزية ، وربما أراد تمكين القارئ الغربي من العودة إلى هذه المراجع بلغته ، غير أن ذلك لا يعد مبررًا كافيًا لقلة المراجع العربية عن الأجنبية في كتاب تاريخي إسلامي .

ويلاحظ على ذلك الكتاب ، فضلاً عن التأثر الشديد بمقولات المستشرقين ، والتأثيرات الشيعية الواضحة ، الغلظة التي تصدم مشاعر القارئ المسلم في حديثه الفج عن النساء المسلمات في عصر النبوة وعصر الراشدين [١]

ففي حديث الكاتب عن الأحداث التي مهدت لقيام دولة الأمويين يزعم أن عثمان بن عفان ﷺ وزع بيت المال بين أهلة ومحاسيبه ليمكنهم من الكفاح في سبيل الاستيلاء على السلطة لأنفسهم [٢] ، كما يتحدث عن الثائرين على عثمان على أنهم طلاب عدل وإنصاف ! [٣] ، وهو يدين تصرفات الأمويين إبان محنة عثمان إدانة شديدة [٤] ، هذا على حين يزعم الكاتب أن بيعة علي ﷺ كانت بالإجماع [٥] ، ويشن حملة قاسية على مخالفيه ومنهم طلحة والزبير [٦]، ويستمر على هذا النمط في حديث عن الصحابة في الجمل وصفين [٧]، وعند التحكيم حيث يصف أبا موسى الأشعري ﷺ بالسذاجة وخيانة العهد ، ويصف عمرو بن العاص بالمكيدة والدهاء [٨] ..

وعند حديثه عن الدولة الأموية يصف الكاتب الأمويين بالحقد والضغينة ضد بني هاشم ، وبأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا ببواعث المصلحة الشخصية ، وبأنهم كانوا يحقدون على الخلفاء الراشدين ويحسدونهم [٩] ...

وذلك الموقف المبدئي حيال بني أمية ترك بصمته على تناوله تاريخ خلفائهم وولاتهم وهو يرى أن معاوية كان يقوم بأداء الفرائض الدينية طالما لا تعوق تحقيق مآربه الخاصة [١٠] ، أما مروان بن الحكم

---

[١] راجع حديثه عن عائشة (ض) وموقفها من علي بن أبي طالب يوم الجمل (مختصر تاريخ العرب 45) ، وحديثه عن فاطمة الزهراء وكأنها إحدى فتيات أوربا (السابق 48) ، وحديثه عن نساء المدينة وجمال أصواتهن واستماع عمر بن الخطاب لغنائهن وموسيقاهن (السابق 58) !!

[٢] السابق 53

[٣] السابق 43

[٤] السابق 43—44

[٥] السابق 44

[٦] السابق 45

[٧] السابق والصفحة

[٨] السابق 48 وبقية تأريخه لعصر النبوة والراشدين يمتلئ بالأخطاء الدينية والتاريخية (راجع ص43 ، 60 —62)

[٩] السابق 41

[١٠] السابق 70

فيصفه بالدهاء والبراعة في حياكة المؤامرات السياسية ، والاستعانة بالرشوة في تحقيق أهدافـــه [1]، ثم يشبه ابنه عبد الملك بشارلمان مرة وببطرس الأكبر مرة أخرى ويصفه بالنشاط والتآمر[2]..
ثم يتحدث عن أحقاد سليمان بن عبد الملك وعصبيته القبلية وتخاذله عن فتح القسطنطينية ومعاونـــة قائده مسلمة بن عبد الملك [3] ، ثم ينتقل إلى الحديث عن صرامة هشام بن عبد الملك وبخله وتعصبـــه وضيق أفقه وتشككه في أصحابه واعتماده على الجواسيس والمؤامرات إلى غير ذلك من مزاعـــم لا حقيقة لها [4].

أما تصوير حركات المعارضة في العصر الأموي فمليء بالإثارة والتحامل على الأمويـــين، وبخاصة في وصفه لقتل الحسين ، حيث قدمه كمأساة بشعة نفذها بنو أمية في الحسين ونسائه وأهـــل بيته [5] ، وكذلك كان حديثه عن ثورة أهل المدينة التي يزعم أن فيها " هدمـــت معظـــم المـــدارس والمنشآت العامة ، ودخلت شبه الجزيرة العربية في عهد مظلم شديد الحلكة حتى قُيِّض لهـــا جعفـــر الصادق بعد بضع سنوات فبعث في المدينة روح الحركة العلمية التي كانت قد ازدهرت في عهد علي ابن أبي طالب " [6] .. وهكذا تسيطر النزعة الشيعية على الكاتب حتى يجعل عمراً طويلاً بيـــن علـــي وجعفر الصادق من حياة المسلمين ظلاماً دامساً ..

وهكذا يتضح لنا من النموذجين السابقين مدى تأثر بعض الكتاب من العرب والمســـلمين بروح الاستشراق ومناهجه ، ورغم أن هناك أمثله أخرى أكثر معاصرة لذلك التأثر [7] ، إلا أن المثالين السابقين واضحا الدلالة على ذلك بصورة كافية ..

ب) التفسير المادي للتاريخ :

وهو أحد أسس النظرية الماركسية [1] التي ظهرت في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشـــر نتيجة ظروف سياسية واقتصادية وفكرية خاصة، ووجدت لها أنصاراً هناك ، ثم وجدت حاملين لها في

---

[1] السابق 77 ــ 78

[2] السابق 79 ــ 87

[3] السابق 105، 108

[4] السابق 119

[5] السابق 73 ، 75

[6] السابق 70ــ71

[7] من ذلك كتاب د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي " ، وكتابه مع أخيه علي إبراهيم حسن:النظم الإسلامية ، وانظر نقداً لكتابات د. حسن إبراهيم عن سيرة الرسول وصدر الإسلام عند د. جمال عبدا لهـــادى ;منـــهج كتابـــة التاريخ الإسلامي 85ــ89 ، ومن الأمثلة على تأثر بعض كتابنا بالمستشرقين مع وضوح الروح الشـــيعية كتـــاب : د. إبراهيم بيضون :الحجاز والدولة الإسلامية ، والدولة الإسلامية والمعارضة ، وغير ذلك ..

بلاد الإسلام ، وقد راجت هذه النظرية رواجاً هائلاً في الفترة التي تلت نجاح الثورة السوفيتية في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة 1917م ولكنها الآن تعاني هزائم هائلة وتراجعاً كبيراً بعد الأحداث التي شهدهما أوروبا الشرقية في عامي 1989 — 1990م ..

والتفسير المادي للتاريخ هو " نوع من فلسفة التاريخ يحاول توضيح العادات التي تطورت فيها الجماعات من الماضي البدائي إلى الوقت الحاضر، مع التنبؤ بما سيحدث في وقتنا الحاضر ، وكذلك بما سوف يقع بالمستقبل " ، وهو يرى أن حركة التاريخ تتم من خلال علاقة جدلية (Dialectic) بين القوة الاقتصادية المادية وممثليها من خلال ما يعرف في هذه النظرية بصراع الطبقات " [٢] ..

ولا ريب أن المجتمع الإسلامي لم يعرف هذه الطبقات — بالمفهوم الغربي — الذي وجد في بعض المجتمعات الغربية أثناء تطورها التاريخي ، " فالطبقة في الاصطلاح الجدلي وضع اجتماعي اقتصادي سياسي يورث جيلاً بعد جيل ، وليس وضعاً فردياً قابلاً للتغيير ، وهذا الوضع الطبقي يتعلق في الجاهلية (أي في المجتمعات غير الإسلامية) بقضية التشريع ، فالمالكون لهم حق التشريع ، وغير المالكين عليهم التنفيذ، أما الغنى والفقر في المجتمع الإسلامي فليس طبقة ، لأنه لا تتعلق به حقوق تشريعية " [٣] تؤدى إلى تكريس هذا الواقع فيحدث الصراع الطبقي كما هو الشأن في الغرب . وهذا لا ينفي أنه قد حدث صراع كبير في التاريخ الإسلامي ، ولكنه لم يكن صراعاً طبقياً ، فالصراع يحدث بين المسلمين وبعضهم " كما وقع بالفعل في صدر الإسلام ، ولكنه لا يكون مسفاً ، ولا يكون على سفاسف الأمور ، ولا يهبط بمجموع الناس عن قيمهم العليا ، ولا يجعل الناس يخرجون على الإيمان ، وإلى ذلك تشير الآية من سورة الحجرات : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ...) [٤] ..

---

[١] تنتسب النظرية الماركسية إلى كارل ماركس Karl Marx وهو فيلسوف يهودي ألماني وعالم اجتماع ولد سنة 1818 ومات سنة 1883 (راجع د. البهي الفكر الإسلامي الحديث ص 307 حاشية 1 ، أحمد العوايشة : موقف الإسلام من نظرية ماركس)

[٢] راجع د. البهي السابق 307 — 312 ، 314—316 ، محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ 12—13 ، أحمد العوايشة : السابق ١١٨— ١٢١

[٣] محمد قطب السابق ص 128 حاشية 2

[٤] السابق 161

وقد وجدت عدة محاولات لتطبيق التفسير المادي للتاريخ على بعض فترات تاريخنا [١]، نكتفي منها بهذا المثال :

د. محمود إسماعيل في كتابه " الحركات السرية في الإسلام " :

يفسر الكاتب انتصار الإسلام زمن النبي ﷺ بأنه انتصار لطبقة المستضعفين من الموالي والعبيد على طبقة الأرستقراطية التجارية في مكة [٢] ؛ وما لبث ذلك الصراع الطبقي أن عاد زمن عثمان بن عفان فظهرت طبقة أرستقراطية جديدة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف (!) وقاد علي بن أبي طالب الطبقات المستضعفة في نضال ضدها انتهى بانتصار الأرستقراطية السفيانية ! وقصارى القول أن الصراع حول الخلافة رغم مظهره السياسي الديني كان صراعاً طبقياً بالدرجة الأولى ولم يكن خلافاً اجتهادياً حول قضية ظنية " [٣] ..

وهكذا يقفز الكاتب إلى هذه النتيجة الخطيرة ــ غير الصحيحة بالمرة ــ دون مقدمات مسلم بها .

وهو يحمل بعنف على عثمان بن عفان ﷺ [٤] ، وينسب إلى بني أمية الاستبداد السياسي والانصراف إلى حياة الترف والمجون ، وإهمال الواجبات الشرعية [٥]، كما يتهمهم بالتفرقة العنصرية ، وإحياء الصراعات القبلية القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب [٦] ، وهو اتهام غير صحيح يشارك فيه الكاتب غيره ، وله نصيب من الدراسة في هذا البحث [٧] ...

وفى الوقت نفسه يمجد الكاتب حركات المعارضة ضد الأمويين ويفسرها تفسيراً طبقياً اقتصادياً .. فيرى أن الموالي الذين كانوا منقسمين إلى طبقات برجوازية وأرستقراطية وبروليتاريا ساخطة ! [٨] كانت ثوراتهم عملاً اجتماعياً ثورياً لا اعتقادياً مذهبياً [٩] ؛ ويفسر بنفس الطريقة ثورة الحارث بن سريج ضد الأمويين في خراسان وما وراء النهر: فكانت ثورته غضبة الطبقات المستضعفة

---

[١] مثل المحاولة السابق الإشارة إليها عند بندلي جوزي في كتابه "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، وكتاب أحمد عباس صالح : " اليمين واليسار في الإسلام " وكتاب الدكتور محمد عبد الحي شعبان " : صدر الإسلام والدولة الأموية "، والكتاب موضع الدراسة التالية للدكتور محمود إسماعيل ..

[٢] الحركات السرية في الإسلام ص

[٣] السابق 196

[٤] السابق 14

[٥] السابق 45،62

[٦] السابق 62ـــ63

[٧] راجع رد هذه الشبهات في الباب الثاني من هذا الكتاب ..

[٨] السابق 65

[٩] السابق 70

عند الأرستقراطية الفارسية والعربية [١] ، ويبرهن بذلك على أن " الأوضاع الطبقية كانت فيصلاً في التمييز بين جند الثوار وأعدائهم ، بين جند الله وجند الحكومة " [٢] !
وهذه العلاقة الثنائية التي يصورها الكاتب " جند الله وجند الحكومة " لا تعبر بحال عن العلاقة بين الأمويين ومعارضيهم ، فقد كان الفريقان من المسلمين الذين يعبدون الله ويؤمنون به ، والتجاوزات والأخطاء كانت من نصيب كليهما بطبيعة الحال ..

ويقسم الكاتب المجتمع الإسلامي في هذه الفترة إلى يمين وهم الأمويون ويسار وهم الخوارج والشيعة ، ثم انضم إليهم المرجئة الذين تحولوا من موالاة اليمين إلى موالاة اليسار [٣] ، وعند حديثه عن الخوارج يصفهم بأنهم " يمثلون من الناحية الدينية الفئة القليلة المؤمنة ، والتي لا تقبل في الحق مساومة ولا إدهاناً " [٤] ، وأن ظهورهم في ذلك المجتمع هو " تعبير عن تناقضات اقتصادية واجتماعية اكتسبت طابعاً دينياً نتيجة لتفجير تلك التناقضات من خلال مشكلة الإمامة " ، وعلى ذلك فهو يرى أن جماعة الخوارج تشكل حزباً سياسياً يتبنى مبدأ العدالة الاجتماعية كما نادى بها الإسلام ، وقد كان فكرهم ــ على ما يرى الكاتب ــ : " معبراً عن قطاع عريض من الجماهير الساخطة على الخلافة " [٥] ..

أما بحور الدماء التي كان الخوارج سبباً في إسالتها عبر ممارساتهم العنيفة ، وأما تكتل المجتمع الإسلامي في حربهم دون هوادة في العصر الأموي ثم في العصر العباسي حتى تم القضاء على خطرهم ، فهذه أمور لا يتطرق إليها بحث المؤلف ولا قلمه

ويبقى سؤال ملح : ترى لو أعاد الكاتب النظر إلى كتابه الآن بعد انهيار الماركسية والتفسير المادي للتاريخ في البلاد التي احتضنته طويلاً ، وثبت فشلها فيها ، هل سيبقى على أفكاره السالفة ؟ أم أنه سوف يتطور بها ؟ ..

ج) كتابات غير المختصين :

تعرض التاريخ الإسلامي في بعض فتراته إلى التناول على يد غير المؤرخين المتخصصين في التاريخ .. وغير المؤرخ حين يكتب في موضوع تاريخي إنما يكتب لغير المتخصصين في التاريخ غالباً ، وذلك يفرض عليه منهجاً خاصاً في اختيار الموضوع والأسلوب المناسبين ، كما نتوقع أن تأتي كتابته

---

[١] السابق 45

[٢] السابق 45

[٣] السابق 35ــ36

[٤] السابق 14

[٥] السابق ١٩ــ16

متأثرة إلى حد كبير بناحية تخصصه ومجال بحثه وأسلوب أدائه ؛ وهذا ما حــدث في تــاريخ الدولــة الأموية على أيد ليس التاريخ ميدانها الأصيل .. لقد كتب طه حسين (الفتنه الكـــبرى) ، وكتــب العقاد (عبقرية علي) و (أبو الشهداء الحسين بن علي) و(عثمان بن عفان ذو النورين) و(معاوية بــن أبي سفيان في الميزان) فاختارا زمناً شائكاً للبحث ؛ وهو آخر عهد الراشدين وأول عهد الأمويــين ، كما كتب طه حسين (حديث الأربعاء) فعرض فيه ألوانا من الحياة الاجتماعية والسياســية للدولــة الأموية ، وكتب أحمد الحوفي (أدب السياسة في العصر الأموي) فرصـــد مظـــاهر الأدب وأنواعـــه ونشاطاته في العصر الأموي ، وفي خلال ذلك تعرض لما لابد منه من الحيـــاة السياســية في العصـــر الأموي ، وكتب علي سامي النشار (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) فبحث الفـــرق الإســلامية ونشأتها وتطورها من خلال منظور خاص يركز على دور المجتمع الإسلامي في نشــأة هــذه الفــرق وتطورها ، مع استبعاد التأثيرات الأجنبية ، وكأن الحياة في العصر الأموي كانت بمعزل عـــن العـــالم المحيط بها فلم تتأثر به ، ولم تتفاعل معه .. وكتب غير هؤلاء في مثل هذه الموضوعات مثل كتابـــات عبد الرحمن الشرقاوي عن علي إمام المتقين وعن عثمان بن عفان وعن الحسين شهيداً .. والعديد مــن الكتابات الصحفية عن مثل هذه الموضوعات .

ويمكننا أن نرصد عدة ظواهر تميزت بها هذه النوعية من الكتابات : أول هذه الظواهــر: أن نوعية المصادر والمراجع التي اعتمدتها هذه الكتابات لم تكن في معظمها تاريخية أصيلة ، بل إن مكتبــة الكاتب غير المؤرخ ، وهي مكتبة متخصصة في مجالات أخرى غير التاريخ كـــالأدب والفلســفة ، تركت بصماتها على مادة كتاباته ..

والأسلوب الذي صيغت به هذه الكتابات كان أسلوباً أدبياً مؤثراً ـــ يهدف إلى التأثير والإقنـــاع ـــ فضفاض العبارة ، واضح الحماس ، وهذه الخصائص الأسلوبية تقلل من الدقة العلميـــة الواجـــب اتباعها ..

وغاب منهج المؤرخ الذي يستقصي المادة العلمية وينقد مصادرها، ويقارن بينها ، ويحلـــل مدلولاتها ، وسوف نجد عند بعض هؤلاء الكتاب روايات ضعيفة أو مرجوحـــة يصفـــها بالثبـــات والشهرة والتواتر ، وسوف نجد مصادر شيعية مغالية يعتمد عليها في الحديث عن بني أمية ، ويرجـــح رواياتها على غيرها مما لا يتصف بالتحيز والحزبية ، بل إن بعضهم لا يهتم بذكر مراجعه أو مصـــادر معلوماته ، ثقة منه في اعتماد القارئ أحكامه بغير مراجعة .. بل إنه ليس مـــن المســـتغرب أن نجـــد الكاتب يؤكد بعض الآراء في أحد كتبه ، ثم يعود فيذكر ما يخالفها في الكتاب نفسه أو في كتــــاب آخر له ، وذلك لأن المنهج الذي يقود البحث عنده فيه الكثير من التأثر الذاتي ...

وأخيراً فإنه يجدر ألا ننسى تأثر بعض هؤلاء الكتاب بالمستشرقين ومناهجهم في البحـــث وكتاباتهم عن هذه الفترة ..

إن كتابات غير المتخصصين عن صدر الإسلام والدولة الأموية وبخاصة كتابـــات الأدبـــاء المشهورين منهم ، هي وسيلة مهمة لنشر المعلومات التاريخية للقارئ العادي ـــ وهنا مكمن خطورتهـــا ـــ فإن شهرة هؤلاء الأدباء وسلاسة أسلوبهم ، وقدرتهم على التأثير الواسع ، وانفتاح مجالات النشـــر الواسعة أمامهم مع ثقة القارئ فيهم المستمدة من براعتهم في مجال تخصصهم ، كل هـــذه العوامـــل تستدعي مزيداً من الحذر والنقد لكتبهم عن فترة من أخطر فترات تاريخنا ..

وقد اخترت نموذجين لاثنين من أكابر مفكرينا وأدبائنا ذوى الانتشار الواسع والتأثير الثقافي الكبير هما العقاد وطه حسين للتناول فيما يلي من صفحات :

ـــ كتابات عباس محمود العقاد :

لا يذكر العقاد مصادره ومراجعه في كتبه الأربعة سالفة الذكر ؛ والمصادر التي تحدثت عـــن عثمان وعلى ومعاوية والحسين كثيرة ولكن معظمها ينحاز عاطفياً ضد الأمويين تجـــاه آل البيـــت ، ويحوي كثيراً من روايات الشيعة وتزيّدات الرواة ، مما يستدعي ذكرها على الأقل في هامش الكتـــاب أو آخره ، ونقدها لبيان الصحيح منها من الزائف ... والنتائج التي وصل إليها الكـــاتب في كتبـــه المذكورة تجعلنا نفترض أنه اعتمد على مصادر شيعية غير تلك التي صرح بها في حـــالات نـــادرة في كتاباته [1] .

وعداء الكاتب للأمويين يبدأ منذ الحديث عن جاهليتهم ، حيث يشكك في صحة نســـب جدهم الأكبر أمية بن عبد شمس [2] ، كما يقبل ما يرويه صاحب كتاب " النزاع والتخـــاصم " مـــن روايات ، تحوطها الشكوك ولا يمكن التسليم بها ، عن مثالب خلقية تنسب إلى الأمويـــين في هـــذا الشأن قبل الإسلام[3] ..

ثم يعود بالعداء بين الأمويين والهاشميين إلى جذور جاهلية عتيدة، فيتحدث عن المنـــافرات بينهم قبل الإسلام [4]، حتى ينتهي إلى نتيجة يؤكدها في عدة مواضع من كتبه تقرر أنه " قـــد مضـــى تاريخ بني أمية في الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين ، وأجوادهـــم المشهورين وذوي النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم " [5] ، ومن المؤكد أن هذه النتائج غـــير صحيحة بالمرة ، فلم تستأثر قبيلة من قريش ـــ حتى لو كانت بني هاشم ـــ بالشرف والســـيادة دون

---

[1] ذكر العقاد انه اعتمد على شرح نهج البلاغة ، وأنه يشك في نسبة بعض أخباره إلى الإمام على ، انظر عبقرية علـــى ص 127

[2] ذو النورين عثمان بن عفان 47ـــ48 ، أبو الشهداء الحسين بن على 46ـــ47

[3] ذو النورين 49ـــ51 ، أبو الشهداء الحسين 47ـــ49

[4] ذو النورين عثمان 47 50 52ـــ54 معاوية في الميزان 18

[5] معاوية في [illegible] 79

غيرها على طول معايشتهم واحتكاكهم في مكة قبل الإسلام كما سوف نرى في الأجزاء الأخرى من هذه الدراسة ..

وحين يقارن بينهم وبين الهاشميين يرى أن بنى هاشم " في الأغلب الأعم مثاليون أريحيون ، ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب الأعم نفعيون ، ولا سيما الأصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات" [١] ..

ثم يفترض الكاتب أن دلك العداء القديم قد اتصل في الإسلام ، ويحتج لذلك بمواقف أبي سفيان من الرسول ﷺ [٢]، بل إنه يبالغ في ذلك فلا تكفيه الأدلة الكثيرة من تاريخ الأمويين في هذه الفترة فيلجأ إلى التماس الأدلة في عداء من عادى الإسلام من بنى هاشم مثل آبي لهب ، فيفترض أن ذلك العداء " إنما جاءه من بنائه بأم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ..." [٣] ؛ ولا ريب أن في ذلك محاولة لالتماس العذر لأحد كبار الهاشميين المشركين ، وتحويلاً لحجة من يحتج بقديم صلات النسب والمصاهرة بين الهاشميين والأمويين مما يسقط زعم تأصل العداء بينهما .

ويجمع الكاتب كل الشبهات المثارة حول حقيقة إسلام أبي سفيان بعد فتح مكة فيلقى بها دفعة واحدة على أنها حقيقة لا تقبل الشك [٤] ..

وفى حديثه عن عثمان بن عفان ﷺ يزعم أن اختياره للخلافة من مجلس الشورى الذي كوّنه عمر بن الخطاب كان لا يخلو من " بواعث شخصية " إذ يتهم عبد الرحمن بن عوف ــ صهر عثمان ومن العشرة المبشرين بالجنة ــ بمجاملته على حساب علي بن أبي طالب [٥] ، وآفة عثمان كما يزعم الكاتب " أنه لم يخلُ من الأموية " [٦] ، وهو يتهم مروان بن الحكم بالجناية على عثمان ﷺ [٧]، ثم يصفه بأنه أبغض أعوان عثمان إلى المسلمين ، وأنه كان "عنصر السوء في هذه المأساة كلها " [٨]، ورغم ذلك فهو يدافع في موضع آخر عن موقف عثمان في اختيار مروان وزيراً له [٩]، وينفي أن يكون لـه

---

[١] أبو الشهداء الحسين 46

[٢] السابق 22

[٣] السابق 23

[٤] السابق 24

[٥] عبقرية على 101

[٦] ذو النورين عثمان 211

[٧] عبقرية على 48

[٨] السابق 45

[٩] ذو النورين عثمان 80

الدور الخطير في الثورة على الخليفة [١] ، ويصف الثائرين على عمال عثمان في الولايات بـأنهم مـن طلاب الإصلاح والتبديل [٢] ، كما يصف السبئية أتباع عبد الله بن سبأ في علاقتهم بعلي ﷺ بـأنهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ؛ ولكنهم لفرط غيرهم ولددهم في عداوتهم لم يقتنعـوا بمـا دون القضاء على خصومه [٣] ، وإذا كان ينعتهم هنا بالصلاح والإخلاص كما سبق فهو يصفهم في موضـع آخر بأنهم غوغاء ودهماء يبغون إفساد الأمر على الدولة الإسلامية ؛ ويصف تمردهم بأنه " إنما هـو شغب غوغاء لا رأس له ولا قدم ، ووجود التدبير وراء هذا الشغب الأعمى هو الـذي يوحـي إلى المؤرخ أن يدًا كانت تعمل فيه لمحض الشغب ، إلى غير نتيجة إلا أن يفسد الأمر على الدولة الإسلاميه وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن سبأ " [٤] ..

ويصف العقاد معاوية بالإيمان والغيرة الدينية والاستقامة فيقول : " من سرف القـول أن يقال إن معاوية لم يكن يعمل بباعث من الغيرة الدينية ، أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبـع في الأخلاق ؛ فليس في وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد ، وليس في وسع رجل أسلم علـى يد النبي عليه السلام وصاحَبَه ، وعمل على أيدي الجلّة من صحابته أن ينفصل عـن غـيرة دينـه وأحكام فرائضه وواجبات المروءة في عرف زمانه " [٥]، ويصفه بأنه " بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمـة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشعائره" [٦] ، ورغم ذلك فإنه يتهمه باستغلال خلافة عثمان لزيادة ثرائه ونفوذه [٧] ، كما يتهمه باستعمال الرشوة لإثناء أبي ذر الغفارى عن معارضه ولايتـه وحكم عثمان [٨] ، وبالتباطؤ عن نجدة عثمان لما استغاث به في حصاره [٩]، ويتهمه باستغلال مقتـل عثمان لتضليل الجماهير وإثارتها لمصلحته الخاصة [١٠] ..

وعند حديثه عن التحكيم ودور أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص فيه قبل روايـات الشيعة التي تزعم أن أبا موسى قال لعمرو بن العاص بعد ما خدعه وخلع علياً وثبّت معاوية ــ علـى ما يزعمون ــ " إنما مثلك كمثل الكلب ...." فرد عمرو عليه بقوله : " إنما مثلك كمثل الحمـار

---

[١] السابق 214ـــ216

[٢] عبقرية على 35

[٣] السابق 61

[٤] ذو النورين عثمان 230 ،232

[٥] معاوية في الميزان 16

[٦] السابق 114

[٧] عبقرية على 80

[٨] السابق 35

[٩] معاوية في الميزان 99ـــ100

[١٠] السابق 101

" . يقبل هذه الروايه ــ ويعقب عليها بقوله واصفا اثنين من خيار الصحابه كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين وهما يقضيان على العالم بأسرة ليرضى مما قضياه وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة " كما يحاول تجريد معاوية مما اشتهر به من الحلم والأناة [٢] ، ويشن حملة شعواء على المغيرة بن شعبة . فيتهمه بالسمسرة السياسية [٣] ، وعلى يزيد بن معاوية الذي كان ــ فيما يصفه ــ " فتى عربيداً يقضي ليله ونهاره بين الخمور والطنابير لا يفرغ من مجالس النساء والندمان إلا ليهرع إلى الصيد " [٤] ويصف صراع الحسين ضد يزيد بأنه " صراع الأريحية والنخوة ضد النفعية والظلام والغنيمة " [٥] أو " هي حرب بين الكرم واللؤم . وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام " [٦]

وإذا تطرق إلى غير هؤلاء من الخلفاء الأمويين استمرت حملته مثلما فعل في وصف سليمان ابن عبد الملك بأنه " كان نهماً لا يشبع وقد مات بالتخمة مع إصابته بالحمى وهو في الأربعين وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز [٧] ، ولم يقل لنا من الذي أكره سليمان على ذلك !! .

ــ طه حسين في " الفتنة الكبرى" و "حديث الأربعاء"

يحدد الكاتب منهجه في بحث حوادث هذه الفترة على هذا النحو " وأنا أريد أن انظر إلى هذه القضية (صراع علي ومعاوية وما سبقه من الثورة على عثمان) نظرة خالصة مجردة . لا تصدر عن عاطفة ولا هوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين ، وإنما هي نظرة المؤرخ الذي يجرد نفسه تجريداً كاملاً من النزعات والعواطف والأهواء ، مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها " [٨]، ورغم الشكوك القوية حول إمكان حدوث هذا التجرد الكامل كما تحدث عنه الكاتب فإننا سنرى كيف طبقه عملياً في كتابته

---

[١] عبقرية علي 70

[٢] معاوية في الميزان 78 وانظر 30 و 31

[٣] أبو الشهداء الحسين 132

[٤] السابق 12ــ13

[٥] السابق 4

[٦] السابق 168

[٧] معاوية في الميزان 83

[٨] الفتنة الكبرى 5/1

فهو يعترف في وضوح بأن كثيراً من الروايات التاريخية منحول مختلق ، فيقول: " وأنا أول من يعترف بأن كثيراً من الأخبار مختلَق منتحَل " [١] ..

وهو يلمس أحد أسباب هذا الاختلاق للروايات عند بحثه عن أخلاق الوليد بن يزيد فيقول : " إن أكثر الرواة كانوا يتقربون إلى بني العباس وإلى عامة الناس بالطعن فيه والنعي عليه " [٢] ، ويؤكد أن قصص الحب التي يزخر بها التاريخ الأموي كان أكثرها مصنوعاً متكلفاً [٣] ؛ ومن هذا المصنوع المتكلف قصة وضاح اليمن الشاعر وعلاقته بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك وافتضاح هذه العلاقة حتى دفنه الوليد فيما تزعم القصة حياً [٤] ..

وهو يضع الأساس النقدي لهذه الروايات فيقول " وما ينبغي كذلك أن نصدق كل ما يروى ، أو نكذب كل ما يروى ، وإنما الرواة أنفسهم ناس من الناس ، يجوز عليهم الخطأ والصواب . ويجوز عليهم الصدق والكذب، والقدماء أنفسهم قد عرفوا ذلك وتميَّؤا له ، ووضعوا قواعد التعديل والتجريح والتصديق والتكذيب ... فليس علينا بأس أن نسلك الطريق التي سلكوها، وأن نضيف إلى القواعد التي عرفوها ما عرفه المحدثون من القواعد الجديدة التي يستعينون بها على تحقيق النصوص وتحليلها وفقهها " [٥] ..

ولكن هذا الجهد النظري الطيب من الكاتب حول ما يُقبل من الروايات وما لا يقبل ؛ وما يعتمد من المصادر وما يترك ، لا يأخذ حظه من التطبيق عند دراسته عن هذه الفترة ... فرغم أنه اعتمد على مصادر تاريخية أصيلة في الجزء الأول من كتابه " الفتنة الكبرى " الذي يتحدث عن عثمان بن عفان ، فإنه في الجزء الثاني منه الذي خصصه للحديث عن علي كرم الله وجهه قد اعتمد على مصادر معظمها شيعي [٦] .. وكان من الواجب عليه أن يعتمد على كتب التاريخ الأخرى التي

---

[١] حديث الأربعاء 84/2

[٢] السابق 173/2

[٣] السابق 240/1

[٤] السابق 295/1—296 ، 302

[٥] السابق 172/1

[٦] تصل مصادر الكتاب إلى تسعة مصادر منها ستة مصادر شيعية وهي : الفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ، وفرق الشيعة للنوبختي ،وأعيان الشيعة للعاملي ، وتثبيت الإمامة للإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل وبحار الأنوار للمجلسي ، ودعائم الإسلام لأبي حنيفة النعمان بن محمد ، والثلاثة الباقية منها هي مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، وهو كتاب في علم الكلام والفرق الإسلامية أصلاً ، وتاريخ الإسلام للحافظ الذهبي وهو من مؤرخي القرن الثامن الهجري (ت748 هـ) فهو متأخر جدا عن المصادر المبكرة الأولى لعصر الراشدين والأمويين ، [illegible] الوحيد المبكر هو الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ت 282 أو 290 هـ) والكتاب ينصب اهتمامه [illegible] تاريخ الفرس (انظر ثبت مراجعه في الجزء الثاني من كتابه الفتنة الكبرى)

تعطي وجهة نظر مخالفة لكتب الشيعة وخاصة في مثل هذا الموضوع الذي لعبت فيه الأهواء والتعصب المذهبي بأقلام كثير من الرواة والمؤرخين ، وفى كتاب "حديث الأربعاء " كانت مصادره أدبية في مجملها ؛ وهو أمر طبعي ومتوقع ، لأن الكتاب يتناول موضوعات أدبية في المقام الأول ، ولكن المصادر الأدبية في حاجة إلى نظرة نقدية فاحصة قبل اعتمادها في الحصول على حقائق تاريخية كما سبق بيانه ..

ولم يقدم الكاتب ما يدل على اعتماده على قواعد الجرح والتعديل في توثيق الرواة ؛ تلك القواعد التي سبق أن تحدث عنها في بيان منهجه في قبول الروايات أو ردها .....

والدكتور طه حسين شديد الولاء للفكر فلاستشراقي [١]، وإن جرأته في الحديث عن أعلام المسلمين ؛ بما فيهم صحابة النبي ﷺ ، لا تقل عن جرأة المستشرقين ، فهو يقول مثلاً : " وإذا دفع أصحاب النبي أنفسهم إلى هذا الخلاف وتراموا بالكبائر وقاتل بعضهم بعضاً في سبيل ذلك ؛ فما ينبغي أن يكون رأينا فيهم أحسن من رأيهم في أنفسهم ؛ وما ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذّبون أكثر الأخبار التي نقلت إلينا ما كان بينهم من فتنة واختلاف " [٢] ..

كما أنه يقبل جل تلك الروايات التي تسقط أقدار الخلفاء الأمويين والعباسيين فيقول : " وأنا أزعم أن كثيراً جداً من هذه الأخبار صادق ؛ وأزعم أن كثيراً جداً من خلفاء بني أمية وبني العباس كانوا ــ كما يقول الرواة ــ يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو، ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهها الدين " [٣] ..

وعند حديثه عن عثمان بن عفان ينتقد تصرفاته المالية والسياسية [٤] ؛ ويتهم عماله بالفسوق والاستغلال مثل الوليد بن عقبة الذي يقبل اتهامه بالفسوق وشرب الخمر ويقول عنه بأنه " كان رجلاً من قريش أسلم إسلاماً ظاهراً واحتفظ بجاهليته كلها " [٥]؛ مع أن رواية شرب الوليد الخمر رواية واهية تحوطها الشكوك من كل ناحية وإن اشتهرت وشاعت [٦] ، ويقول عن عبد الله بن سعد

---

[١] انظر نقداً لكتابيه:" الشعر الجاهلي " و " مستقبل الثقافة في مصر" في كتاب الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص 208 ، 218

[٢] الفتنة الكبرى 172/1 ، وانظر حديثه عن طلحة والزبير ورميه لهما بالكذب والطمع وحب الرياسة (السابق 150/1 ، 22/2)

[٣] حديث الأربعاء 85/2

[٤] الفتنة الكبرى 191/1

[٥] السابق 98/1

[٦] الطبري 271/4 ــ 277 حيث تؤكد ملابسات القصة الشك في صحة الحدث ..

عامل عثمان على مصر بأنه كان " شجاعاً جريئاً مقداماً موفقاً في الفتح ولكنه كان صاحب دنيا، ولم يكن صاحب دين " [١]

أما عن موقف معاوية من بيعة علي فإنه ـــ كما يرى الكاتب ـــ " لم يكن يريد أن يثأر لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علي " [٢] وهو يتصور أن رفع المصاحف في صفين كان مؤامرة بين الأشعث بن قيس وعمرو بن العاص [٣] ، ولما تحدث عن روايات التحكيم واختلاف الحكمين قبل رواية أبي مخنف الشيعي في غدر عمرو بأبي موسى ؛ ورفض الرواية الأخرى التي تحكي اتفاقهما على خلع الرجلين المتنافسين على ومعاوية وترك الأمر شورى وتخلو من سبابهما ، ويصف هذه الرواية بأنها " شاذة لا تستقيم " ويقول: " إذن فقد غدر عمرو غدرة منكرة ؛ إن صح ما كاد المؤرخون أن يجمعوا عليه " [٤] ..

وقد قامت الدولة الأموية ـــ فيما يرى الكاتب ـــ على الأحقاد الموروثة منذ قتل بعض كبرائهم من المشركين يوم بدر ، " وكذا كانت العلاقة بين الجماعات المسلمة المتقاتلة تقوم على الذحول والأوتار والدماء المتوارثة " [٥]، وانصرف الأمويون فيما يزعم الكاتب ـــ عن الدين إلى الصراعات السياسية [٦] ، وكان حكمهم استبداداً ـــ كما يرى طه حسين ـــ فالحكم الدستوري " مناف كل المنافاة لما كانوا يسعون إليه من الحكم المطلق [٧] .. وصارت حال المسلمين أيام معاوية وابنه يزيد كما يراها الكاتب " إلى شر ما كان يمكن أن تصير إليه " [٨] ..

وكما فسدت أمور السياسة وأمور الاقتصاد ـــ فيما يرى الكاتب ـــ فقد فسدت الأخلاق ، وفسد المجتمع ، فكان شعر عمر بن أبي ربيعة الإباحي يعبر عن المجتمع الإسلامي في عهد بني أمية ؛ " والمؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة ، فسيجد في شعر هذا الشاعر كل ما أراد "[٩]، حتى لقد تحول موسم

---

[١] الفتنة الكبرى 125/1

[٢] السابق 34/2

[٣] السابق 100/2

[٤] السابق 110/2 ، وليس في الأمر إجماع أو غيره مما يكاد أن يكون إجماعاً ، إنما الأمر أمر شهرة رواية عن غيرها لمناسبتها أغراض المؤرخين.

[٥] الفتنة الكبرى 226/2

[٦] حديث الأربعاء 96/2

[٧] السابق 305/1

[٨] الفتنة الكبرى 268/2

[٩] السابق 377/1

الحج في عهدهم إلى " موسم شعر وغناء في الحجاز " [١] ، فلم يكن "عمر بن أبي ربيعة يفسهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامي للجمال" [٢]..

وعند دراسة الكاتب للوليد بن يزيد الخليفة الأموي الشاعر يشك فيما ينسب إليه من شناعات وينصح بأنه يجب " أن تحتاط كل الاحتياط حين تقرأ ما تجد في الكتب من ذم الوليد والنعي عليه ورميه بالكفر حيناً وبالزندقة حيناً آخر ، وإضافة الشعر المملوء كفرا وفجوراً إليه " [٣] ... ولكن الكاتب نفسه يعود فينسب إلى الوليد كثيراً من هذه الشناعات بل يتهمه في دينه وعقيدته [٤] ويقبل روايات تبالغ في اتهامه بالكفر وإنكاره الجنة والنار والبعث ، وتلاعبه بأمور العبادة وفسوقه فيها [٥] ..

---

[١] السابق 393/1

[٢] السابق 392/1ـــ393

[٣] حديث الأربعاء 172/2 ـــ 173

[٤] السابق ٢/ ١٠٠- ١٠١

[٥] السابق ٢/ ١٠١

المبحث الثاني : اتجاه إنصاف التاريخ الأموي

رغم كثرة محاولات التحريف التي تعرض لها التاريخ الأموي في القديم والحديث ، فإن عناصر الخير فيه ـ وهي كثيرة وواضحة ـ ظلت تفرض نفسها على أقلام المؤرخين ، فتبدو ظاهرة حيناً ؛ ومتوارية في أغلب الأحيان ..

وكما شهد العصر الحديث محاولات كثيرة لتحريف التاريخ الأموي على يد جمهرة من المستشرقين وجماعة من العرب والمسلمين الذين تتلمذوا عليهم أو تأثروا بهم ، فقد ظهر جماعة من كبار مؤرخينا المعاصرين حملوا على عاتقهم مهمة التأريخ المنصف لصدر الإسلام والدولة الأموية ، وتعدد نتاجهم العلمي فبدأ متأثراً بعض الشيء بهذه الآراء السائدة عن بني أمية ؛ ثم بدأ يتخلص تدريجيًا من ربقة التقليد وتتحدد معالمه كاتجاه متميز له مكانته التي يصعب تجاهلها ، وله تأثيره الذي يصعب تحجيمه ...

لقد كان بعض أعلام هذا الاتجاه ممن اتصلوا بجهود المستشرقين في هذا المجال ، ولكنهم هضموها ولم يتوقفوا عندها ، وتجاوزوها دون انبهار بها ، بل وجهوا نحوها سهام النقد والتقويم .. ولعل مما ساعدهم على تجاوز مرحلة التقليد للمستشرقين ونقدهم إياهم ، متانة بنيانهم الثقافي الإسلامي ، فجميع هؤلاء المؤرخين الذين سنتناولهم في هذا الاتجاه ممن عرفوا بجودة تمثلهم للتراث العربي وبغيرتهم عليه ورغبتهم في الدفع عنه، والنظر إليه كعامل بعث للأمة وإنهاض لها...
على أن بعضهم لم يعرف عنه اتصال بالثقافة الغربية وإسهامات المستشرقين في حقل التاريخ الإسلامي إلا فيما ترجم إلى العربية من هذا النتاج .. فكانت ثقافتهم الإسلامية هي زادهم ودافعهم إلى إنصاف التاريخ الإسلامي والأموي منه بوجه خاص ...

ركائز الإنصاف للتاريخ الأموي :

1ـ كان الحذر من روايات المؤرخين القدماء وتزيدات الرواة وأحكام المستشرقين هو السمة الأولى الظاهرة من سمات هذا الاتجاه ...

فالأستاذ محمد كرد علي يحمل على افتراءات الشيعة على بني أمية وإلباسهم خلافاتهم معهم ثوباً دينياً ، وخروجهم في عدائهم لهم عن حد الاعتدال حتى أخرجوا الأمويين عن الملّة [1] ، كما

---

[1] خطط الشام 167/1 ، الإسلام والحضارة العربية 414/2ـ415

هاجم كتابات المستشرقين التي تشوه التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية [١] ، بل إنه قد ألف كتابه " الإسلام والحضارة العربية " أساسا للرد على شبهات المستشرقين في هذا المجال [٢] ..

وتحدث الدكتور أحمد أمين عن ظاهره وضع الأحاديث النبوية الموضوعة ضد الأمويين للحطّ من شأنهم وإعلاء شأن العباسيين ، وتفسير بعض آيات القرآن ـــ من أجل تحقيق ذلك الهدف ـــ على نحو خاص [٣] ، كما تعرض للروايات التاريخية الظاهرة الوضع والانتحال ضد بني أمية ؛ وأظهر أن كثيراً من ذلك كان نتيجة تأثير العباسيين الذين وضع الخلفاء الأولون منهم " البرنامج للمؤرخين في الطعن في بني أمية ، فسار المؤرخون على منهاجهم وتوسعوا في تكميل خططهم " [٤] ، وضرب بعض الأمثلة على ضغوط العباسيين على بعض العلماء وتدخلهم في شئون التشريع والفقه واللغة والنحو فضلاً عن التاريخ [٥] ، كما أشار إلى دور الشيعة في وضع الأحاديث لنصرة مذهبهم " بل وضعوا الكتب وحشوها بتعاليمهم ، ونسبوها لأئمة أهل السنة " [٦]

وتحدث الدكتور عبد العزيز الدوري عن تأثير الأحزاب السياسية والشعوبية على التدوين التاريخي [٧] ، كما تحدث الدكتور ضياء الدين الريس عن أهمية التاريخ الأموي ووجوب درسه اكثر من غيره " لأن تلك الدولة كثيراً ما صورت حقيقتها ، أو كتب تاريخها على غير ما يرضي الحقيقة والعدل ، وطالما حمل عليها ، وأسيء تقدير رجالها " [٨] ، وتحدث عن أسباب ذلك التحريف للتاريخ الأموي فأشار إلى النزعة الطائفية الشيعية ، غير أنه التفت باهتمام نحو كتابات غير المختصين في التاريخ ودورها في بناء الأحكام التاريخية على معلومات سطحية أو خاطئة أو دراسة ناقصة [٩] ..

أما الشيخ محب الدين الخطيب ـــ فلم يكتب كتاباً مستقلاً عن الدولة الأموية ولكنه اضاف تحقيقات ثرية لكتاب العواصم من القواصم لابن العربي ، وكذلك حقق كتاب : " المنتقى من منهاج الاعتدال " وهو مختصر كتاب منهاج السنة النبوية لابن تيمية ، وقد اختصره الحافظ الذهبي (ت 748هـــ) والكتابان يمثلان ركيزتين من ركائز اتجاه الفقهاء والمحدثين في صياغة التاريخ الإسلامي

---

[١] الإسلام والحضارة العربية ١/ ٤٠٧

[٢] انظر مقدمة الجزء الأول من كاب الإسلام والحضارة العربية تحت عنوان : " الداعي إلى هذا التأليف " حتى ص ١١٥

[٣] ضحى الإسلام ٢/٣٠-٣١

[٤] السابق ٢/ ٢٧ وانظر ص ٢٨

[٥] السابق ٢/ ٢٥-٢٦ ، ٣٢-٣٦ ، ٤٣-٤٤

[٦] فجر الإسلام ٢٧٥-٢٧٦

[٧] مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص ١١-١٦

[٨] عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ص ٨-٩

[٩] السابق ص ٩

، وتحريره من عبث الرواة ، فقد أكد أن " تاريخ خلفاء بني أمية وبني العباس كتبه وأذاع الروايات عن أخباره مؤلفون أكثرهم من الشيعة أو الشعوبية ، فأفسدوا على هذه الأمة تاريخها، وشوهوا محاسن ماضيها " [١] وهو يدعو إلى التفرغ لتصحيح هذا التاريخ وتقديمه بصورة تثير الغبطة والعزة في نفوس شباب الإسلام [٢] ؛ وقد ترجم في تحقيقه " للمنتقى من منهاج الاعتدال" لبعض الرواة الذين كان لهم دورهم في تحريف التاريخ الأموي كأبي مخنف [٣] وهشام بن الكلبي [٤] .. وقال في موضع آخر : " إن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا بعد زوال بني أمية وقيام دولة لا يسرُّ رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله ، فتولى تدوين تاريخ الإسلام ثلاث طوائف ؛ طائفة كانت تنشد العيش والجدة بالتقرب إلى مبغضي بنى أمية بما تكتبه وتؤلفه ، وطائفة ظنت أن التدوين لا يتم إلا بالتقرب إلى الله بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً (يعني الرافضة) ، وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين كالطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير رأت أن الإنصاف أن تجمع أخبار الأخباريين من كل المذاهب والمشارب .. ولعل بعضهم اضطر إلى ذلك إرضاء لجهات كان يشعر بقوتها ومكانتها .." [٥] ..

أما الدكتور أحمد شلبي فقد صدر كتابه عن الدولة الأموية بمقدمة تحت عنوان " تاريخ يحتاج إلى إنصاف " ناقش فيها أسباب تحريف التاريخ الأموي وكيفية إنصافه ، وقد أشار أيضاً إلى دور الدعاية الشيعية والسلطة العباسية في ذلك التحريف [٦] ، غير أنه أضاف عاملين جديدين كان لهما تأثير كبير في تشويه التاريخ الأموي ، أولهما تأثير الرأي العام وقوة الجماهير المتأثرة بالدعاية الشيعية ؛ التي مارست ضغوطها على جماعات الرواة والمؤرخين [٧] ، وثانيهما هو تأثر كثير من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا بمناهج المستشرقين فجاءت كتاباقم تجافي روح الإسلام في كثير من الأحيان [٨] ..

ويضع الدكتور شلبي أساساً جديراً بالاعتماد عليه في تقييم التاريخ الأموي فيقول " وجدير بتاريخ الأمويين أن يُكتب من جديد ، وأن تُتخذ أسسه من الواقع ، أي من حضارة

---

[١] هامش المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١٨٢

[٢] السابق ٢٨٣-٢٨٤

[٣] السابق ص ٢١

[٤] السابق والصفحة

[٥] هامش العواصم من القواصم ص ١٧٩

[٦] موسوعة التاريخ الإسلامي ٢/ ١٨

[٧] السابق ١/ ٦١

[٨] السابق ١/ ٤٩

الأمويين التي لا تزال تنطق بها دمشق وغيرها من العواصم الإسلامية ومدن الأندلس ، ومن صنوف التفكير التي أنتجها العقل الأموي كالبريد والسكة وتعريب الدواوين وتنظيم الجيوش وغيرها ، ومن انتصارات الأمويين التي سجلت زحفاً للإسلام لا يزال واضح الجانب " [١] ..

ويتحدث الدكتور يوسف العش عن كيفية تمييز الصحيح من الزائف في روايات التاريخ الإسلامي ، وبخاصة تلك الفترة التي مهدت لقيام الدولة الأموية فيرى أنه " ينبغي قبل كل شيء أن نصنف الأخبار تصنيفاً بحسب رواتها لنستطيع أن نقابل بين نزعات هؤلاء الرواة عسانا أن نميز صاحب الصدق منهم من الذي يحاول الزيغ ، وأن نكتشف فيهم من كان أقرب من غيره إلى ضبط الأخبار الصحيحة .... وهذا هو النقد الخارجي في التاريخ ، ويليه بعد ذلك النقد الداخلي للأخبار من حيث هي أخبار تتلاءم وتنسجم في صحتها وضبطها ؛ وتتسق في منطقها "[٢] ، وقد طبق هذا المنهج على الروايات التي تحكى وقائع الفتنة في عهد عثمان ﷺ حتى أخر موقعه الجمل [٣] وكذلك في موقعه صفين [٤] ..

أما الأستاذ محمود شاكر فيقف موقفاً صلباً من الروايات التي تشوه التاريخ الأموي ، فقد وظف صفحات مقدمة الجزء الرابع من كتابه " التاريخ الإسلامي " التي تبلغ نيفاً وخمسين صفحة لبيان تحريف التاريخ الأموي والرد على الشبهات المثارة ضده ، وإبراز محاسن العهد الأموي، وهو لا يشغل نفسه بإظهار فساد كل الروايات التي تبرز المطاعن ضد الأمويين بطرق النقد التاريخي المعروفة، أو باتباع المنهج الذي اتبعه الدكتور العش سابقاً ، بل إنه يردها لتعارضها مع ما صح عنده من روايات هي أولى بالاعتماد والتوثيق ؛ أو لمخالفتها التصور العام عن القرن الأول الهجري وهو خير القرون كما جاء في الحديث الشريف [٥] ، أو لمخالفتها ما تقتضيه عدالة الصحابة وتميز جيل التابعين [٦].. وهو يرى " أن التاريخ قد ظلم بني أمية ظلماً كثيراً إذ طمس كل ما لهم من فضائل وإيجابيات ، ولم يتعرض لها أبداً ولم يذكرها (!) وبالمقابل فإنه ، توسع في ذكر السلبيات ، أو افترى عليهم الكذب ، فنسب لهم ما لم يكن منهم ، وأوجد حوادث لم تكن في أيامهم " [٧] ..

---

[١] السابق ٢/ ١٩

[٢] الدولة الأموية ص ٣٣

[٣] السابق ٣٢ــ ٥٩

[٤] السابق ١٠٨-١١٢

[٥] رواه البخاري : الصحيح ، كاب الشهادات وكتاب المناقب ، ورواه أحمد : المسند حديث رقم ٣٥٩٤ ، ومسلم : الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ١٦/ ٨٤-٨٥

[٦] التاريخ الإسلامي ٤/٥٠

[٧] السابق والصفحة

وهذا القول فضلاً عن تعارضه مع ما سبق أن قاله من اعتماده علـــى بعــض الروايــات الصحيحة [1] ، فهو يتعارض مع حقيقة أن كثيراً من منجزات الأمويين قد وصل ألينا ، وإن توارى بين فيض ضخم من الهجوم عليهم ، وهذه المنجزات هي التي يبني عليها المنصفون لبني أمية اجتـــهاداقم وكتاباقم ..

2 ــ رد شبهات المتحاملين على الأمويين أو مناقشتها :

ومن أهم ما وجه له هؤلاء المؤرخون المنصفون جهودهم مناقشة الشبهات الـــتي أثارهـــا المؤرخون القدماء ورددها فريق من المتأخرين على مر العصور ، حتى أصبحت لشهرقما وذيوعـــــها مألوفة في أذهان الناس وفى صفحات الكتب ..

ومن أهم هذه الشبهات تلك التي تثار حول إسلام بني أمية ، وأنهم من الطلقـــاء الذيـــن حـــاربوا الرسول ما وسعتهم المحاربة ، ثم أسلموا قهراً بعد فتح مكة خوفاً من القتل ..

ويرد بعض المؤرخين المنصفين هذه الشبهة فيذكر أن بعض البارزين من الأمويين قد دخلوا في الإسلام منذ بدايته ، ومن حارب الإسلام منهم وأدركه الفتح فقد أسلم وحسن إسلامه ، واحتـــل الأمويون مكانة بارزة في إدارة الدولة على عهد الرسول الكريم نفسه بعد الفتح[2] ، وليس تـــأخر الإسلام طعناً في صاحبه إذا اسلم وحسن إسلامه ، فقد حدث مثل ذلك مع عمر بن الخطاب الـــذي كان يرجح بعض السابقين الأولين إلى الإسلام [3] ، وقد كانت مكانة الدين قوية في الأسرة الأمويـــة وفى سياسة كثير من أفرادها وخلفائها [4] ..

وقد تصدى بعضهم للحديث عن هذه الشبهة من زاوية أخرى هي طبيعة العلاقة بين بـــني أمية وبني هاشم التي يصورها بعض المؤرخين القدماء بأنها علاقة عداء قبل الإسلام وبعده ، والحقيقـــة أنهم ينتمون إلى عبد مناف الجد الأكبر لهم جميعاً ، وكانت علاقات المـــودة والتصـــاهر والتعـــاون واضحة بينهم حتى كأن ذلك هو الأصل وما حدث من خلاف بينهم هو الفرع [5] ..

ومن هذه الشبهات التي تعرض لتفنيدها المؤرخون المنصفون ما يثار حول استغلال بني أميـــة خلافة عثمان بن عفان لتحقيق مآربهم الخاصة ، وما يثار حول سلوك عثمان ــ أحد كبار بني أميـــة ــ مع أقاربه، والطعن الذي وجه إلى كفاية ولاته من بني عبد شمس وتدينهم ، حيث حاول المنصفون

---

[1] السابق والصفحة

[2] د . الريس : عبد الملك بن مروان 89 وما بعدها .

[3] د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 22/2 ــ 23

[4] د. الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 79

[5] محب الدين الخطيب هامش المنتقى من منهاج الاعتدال ص 186 حاشية 1

نفي هذه الشبهات عن عثمان وبني أمية ، فلم يكن عثمان بهذا الضعف الذي يزعمه المؤرخون ؛ ولم يكن ولاته من بنى أمية بهذا الاستغلال أو الفسوق الذي يدعيه الرواة [١]..

ومن هذه الشبهات التي ناقشها هؤلاء المؤرخون ما يقال عن استغلال معاوية مقتل عثمان لمحاربة علي بن أبي طالب ونيل الخلافة حتى ظفر بها في النهاية بأساليب شتى [٢] ..

ومما عرض لبحثه المنصفون مسألة توريث الخلافة ليزيد وتحويلها من الشورى إلى ملك عضوض ؛ وأثر تطور المجتمع وظروف الدولة على تغير سمت الشورى الذي ظهر في عهد الراشدين عنه في عهد بنى أمية [٣] ..

كما عرضوا لتقييم الثورات التي حدثت ضد الدولة الأموية ، وأبرزها ثورة الحسين بن علي التي كانت ــ كما يرون ــ ثورة لم تستكمل أسس النجاح ولا شروط الخروج على نظام الدولة ــ وإن كان جائراً ــ كما عرفها فقهاء المسلمين [٤]، وكذلك في تقييمهم ثورة أهل المدينة في موقعة الحرة [٥] ..

كما تعرضوا للرد على مبالغات المؤرخين فيما ينسب إلى بعض الخلفاء الأمويين مثل يزيد ابن معاوية والوليد بن يزيد من فسوق واستخفاف بالدين والقيم العامة [٦] ، وكذلك ما ينسب من مثالب إلى بعض ولاة بني أمية مثل زياد بن أبي سفيان [٧] والحجاج بن يوسف الثقفي [٨] ..

---

[١] الخطيب :هامش العواصم من القواصم 69 ، 90 ، 101 ــ 103 ، 375ــ378 د.شلبي : مرجع السابق 604/1

[٢] الخطيب : هامش العواصم من القواصم 171 ، هامش المنتقي 228ــ229 ، 251 ، د. العش : الدولة الأموية ص 101 وما بعدها

[٣] كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 396/2 ، خطط الشام 162/1 الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية 120/2

[٤] الخضري : السابق 129/2 ــ 130 ، الخطيب : هامش المنتقى 266ــ267 ، د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 208/2 ، شاكر : التاريخ الإسلامي 13/4

[٥] الخضري : مرجع سابق 132/2 ، د. شلبي : مرجع سابق 53/2 ، الخطيب : هامش المنتقى 29 ، 293

[٦] كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 167/2 ، د. شلبي: السابق 18/2ــ19، 101ــ103 ، الخطيب : هامش المنتقى 281ــ283 ، هامش العواصم 234

[٧] الخضري السابق 107/2 ، د. شلبي : السابق 43/2 ــ 44

[٨] الخضري السابق 145/2 ، شلبي : السابق 63/2 ــ64

وقد بحث هؤلاء المنصفون النظام المالي للأمويين وما يثار حوله من شبهات [١] ، كما تعرضوا لبحث مشكلة الموالي في العصر الأموي وأوضحوا أن سياسة الأمويين تجاههم لا تعبر عن عنصرية أو تعصب للعرب [٢] ، إلى غير ذلك من مباحث مهمة ..

3 ـــ إظهار مآثر الأمويين وحضارتهم :

ومن أبرز هذه المآثر التي تحدث عنها هؤلاء المؤرخون وجود نخبة ممتازة من الخلفاء والولاة في العصر الأموي بذلوا جهوداً ضخمة في سبيل الحفاظ على وحدة الدولة وعز الدين ، مثل معاوية ابن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وجماعة من أبرز القواد العسكريين مثل مسلمة بن عبد الملك وحسان ابن النعمان وموسى بن نصير ومحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم وغيرهم [٣] ..

ومن أبرز المآثر التي أفاض المؤرخون في وصفها تلك الفتوحات الأموية الواسعة [٤]، حتى وصل الإسلام إلى حدود الصين شرقاً وإلى بلاد الأندلس غرباً ، ودقت أبواب القسطنطينية ثلاث مرات كما فتحت عدة جزائر من البحر المتوسط حتى تحول إلى بحيرة إسلامية بما صاحب ذلك من نشر الإسلام واللغة العربية .كما اهتم المؤرخون المنصفون بتوضيح المنجزات الحضارية الكبرى في العصر الأموي مثل تعريب الدواوين وتنظيم شئون البريد والسكة وتنظيم الجيوش وغير ذلك [٥]

---

[١] د. الريس : الخراج والنظم المالية 236ـــ 237 ، 239 ـــ240 ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 154/2

[٢] كرد علي : السابق 407/2 ، د. الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 83/0 ، شاكر : السابق 36/4

[٣] لهم تراجم شتى عند هؤلاء الكتاب السابق ذكرهم

[٤] د. شلبي . السابق 111/2 وما بعدها

[٥] د شلبي مرجع سابق 19/2 ، 40 ، 62 ، كرد علي الإسلام والحضارة العربية 166/2

الباب الثاني

دراسة الشبهات التي أثارها المؤرخون حول التاريخ الأموي

مقدمة

أشاع كثير من المؤرخين الروايات عن وجود عداء دفين متأصل بين بني أمية وبني هاشم تمتد جذوره إلى ما قبل ظهور الإسلام ، وإلى هذا العداء يُرجع المؤرخون ما يزعمونه من موقف قبلي أموي معاند للإسلام ؛ حتى اضطر بنو أمية آخر المطاف — بزعمهم — إلى قبول الإسلام اضطراراً بعد فتح مكة ؛ فدخلوا فيه دخولاً ظاهرياً ليفيدوا منه ؛ فبدأ تسللهم إلى المناصب العليا في الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر حتى واتتهم الفرصة مع استخلاف عثمان بن عفان الأموي النسب فاستغلوا خلافته ؛ ووافقهم في تنفيذ مآربهم فحملهم على أكتاف المسلمين حتى كانت الثورة عليه ؛ ومقتله فسارع معاوية بن أبي سفيان لاستغلال ذلك الحدث الجلل فرفع لواء الثأر لابن عمه الشهيد ورفض الانقياد لخلافة علي بن أبي طالب الهاشمي ليصل بعد خطوب إلى خلافة المسلمين ، ثم يجعلها وراثية في عقبه لتقوم بذلك دولة بني أمية ؛ التي أقامها الهوى والعصبية وحفظتها القوة والقبلية .. إن هذه الشبهات البارزة والمشتهرة جديرة بالنقد والتمحيص ، وذلك ما نحاوله في الفصلين الأولين من هذا الباب الذين يدرسان حقيقة موقف بني أمية من بني هاشم وموقفهم من الإسلام منذ بدايته ؛ ثم طريقة وملابسات وصولهم إلى الخلافة ؛ وحقيقة التزامهم الإسلامي وتدينهم ؛ ودورهم في مسيرة نشر الإسلام وإعزازه في جنبات الأرض ..

ويشيع في كتب التاريخ — قديمها وحديثها — اتهام الأمويين بالاستبداد السياسي ، والتسلط على المسلمين ، ومصادرة الحرية والقسوة في معاملة معارضيهم ؛ بغية تكريس الحكم في السلالة الأموية بعد أن تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض .... وسوف ندرس في الفصل الثالث من هذا الجزء من الكتاب قضية الشورى ومكانتها عند خلفاء الأمويين وولاتهم ؛ وموضوع ولاية العهد وتوريث الخلافة وما أحاط بهما من ظروف وملابسات ، ثم نعرض في الفصل الرابع لبحث موقف الأمويين من المعارضة السلمية والمسلحة ؛ مع دراسة أبرز الثورات في العصر الأموي ؛ ثورة أهل المدينة ؛ ثم التركيز بشكل خاص على ثورة الحسين بن علي أكثر هذه الثورات إثارة للجدل، مع دراسة علاقة الأمويين بآل البيت وما شابها من لغط وتشويه .. ثم بحث ثورة عبد الله بن الزبير وما واكبها من أحداث ..

واتهم الأمويون في عديد من الكتابات التاريخية بالتعصب للعروبة على حساب الموالي الذين تدعي هذه الكتابات أنهم تعرضوا للاضطهاد والانتقاص في العصر الأموي . مما حملهم وقود

لكثير من الثورات التي قامت ضد الأمويين . وهو ما يخالف المعروف من قيم الإسلام الذي يسوي بين أتباعه على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ؛ فلا يفرق بينهم إلا بالتقوى ..

كما اتهم الأمويون ببعث العصبية القبلية بين العرب ، أو النفخ فيها مما أدى إلى شق الرابطة الاجتماعية بينهم ، وتفرقهم إلى قبائل متناحرة متباغضة ، وذلك كيلا يشكل اتحادهم خطراً على الأمويين ؛ وحتى يستطيع بنو أمية ضرب هذه القبائل بعضها ببعض فيخلو مسرح القوى السياسية لهم بغير منازع قوي ؛ وذلك ما سندرسه في الفصل الخامس من هذه الدراسة .. ويتهم بعض المؤرخين والباحثين الأمويين بالخروج على منهج الخلفاء الراشدين في الاقتصاد وسياسة المال ، سواء في الحصول على الأموال أو في التصرف فيها ، فخصصنا الفصل السادس لبحث تلك الاتهامات ودراستها ، في حين جاء الفصل السابع ليعطينا نظرة إجمالية عن المنجزات الحضارية للمسلمين زمن بني أمية ؛ في شتى المجالات الإدارية والمعمارية والثقافية والعلمية ..

الفصل الأول

موقف الأمويين من الإسلام والخلافة

منذ البعثة النبوية حتى قيام الخلافة الأموية

تمهيد : علاقات بني أمية وبني هاشم قبل الإسلام :

يرجع بنو أمية وبنو هاشم في النسب إلى جد واحد هو عبد مناف بن قصي بن كلاب ، فإليه ينتسب أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وهاشم بن عبد مناف بن قصي .. فهاشم على ذلك عم أمية ، وإنما قورن به أمية فيما بعد لمضارعته إياه في الشرف والمكانة [١] ..

ومما تؤكده أحداث ذلك العصر أن التمايز بين هذين الفريقين؛ هاشم وعبد شمس ، أو هاشم وأمية ، لم يكن موجودا آنذاك ، ولم يظهر إلا في وقت متأخر من عصر الراشدين ، وذلك أيضا ما ينص عليه أحد مؤرخي الشيعة المتحاملين على بني أمية – ابن أبي الحديد– فيقول: " كان الناس في ذلك الدهر لا يقولون هاشم وعبد شمس ولا هاشم وأمية ، بل كانوا لا يزيدون في الجمع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميزهم في أمر علي وعثمان في الشورى ، ثم ما كان في أيام تحزبهم مع علي ومعاوية " [٢] ..

---

[١] كان أمية بن عبد شمس سيدا من سادات قريش تاجرا كثير المال ، وكان له عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف، فاستكمل بهذه العصبية أسباب السيادة في الجاهلية (الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية ٢/ ٩٦) ، وقد اشتهر من أبنائه العاص بن أمية وله أبناء نجباء ، وحرب بن أمية وهو الذي ورث شرف أبيه ؛ فقد حدث الأخباريون أن قريشا تواقعوا ذات يوم وحرب هذا مسند ظهره إلى الكعبة ؛ فتبادر إليه غلمة منهم ينادون : أبا عم ؛ أدرك قومك؛ فقام يجر إزاره ، حتى أشرف عليهم من بعض الربا ، ولوح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا ، فبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حمي وطيسهم (ابن خلدون : العبر ٣/ ٢) ، وكان حرب هذا زعيم قريش في حرب الفجار ؛ وكانت بين قريش ومن معها من كنانة في ناحية ؛ وقيس عيلان من ناحية أخرى (راجع ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٨٩-١٩١ ، السهيلي : الروض الأنف ٢/ ٢٣٥) وقد شهدت هذه الحرب نبوغ قرشي آخر هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وكان إذ ذاك صغيرا يتيما في حجر حرب بن أمية ؛ فضن به عن مباشرة القتال ؛ ولكنه خرج في إحدى مراحل الحرب بغير إذنه ؛ وقام بمبادرة لوقف القتال بين الجانبين ؛ وتحمل حرب بن أمية الديات من ماله ورهن لسدادها ولده أبا سفيان بن حرب (السهيلي : السابق ٢/ ٢٣٥-٢٣٦ ، وراجع : الخضري : السابق ٢/ ٩٧) ، إن هذه النبذة الموجزة ضرورية للرد على مفتريات بعض المؤرخين الذين يحاولون الحط من شان ومكانة بني أمية في الجاهلية ظنا منهم أن ذلك يرفع من شأن ومكانة بني هاشم رهط النبي ﷺ ؛ كما فعل المقريزي في كتابه " النزاع والتخاصم " ص ٢٢ ، ٢٣ ، وغيرها ..

[٢] شرح نهج البلاغة ١٥/ ٢٨٠

وكان بنو عبد مناف بن قصي وحدة واحدة في محاولتهم اقتسام السلطة في مكة مع بـني عمهم عبد الدار بن قصي ، الذي فضله والده على سائر أبنائه ؛ رغم شرفهم عليـه ، وجعـل لـه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان زعيمهم في هذه المحاولة هو عبد شمس ، أبو أمية ، إذ كـان أسـن بني عبد مناف ، وتفرقت قريش على ذلك بين الفريقين ، عبد مناف وعبد الدار، ثم تداعـوا إلى الصـلح على أن يعطوا بني عبد مناف السـقاية والرفادة ، وأن تكـون الحجـابة واللـواء والندوة لبني عبد الدار، فولي الرفادة والسـقاية هاشم بن عبد مناف ، وذلك لأن عبد شـمس " كان رجلا سفارا، قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد ؛ وكان هاشم موسـرا "[1] .. وهكذا كـانت السلطة في مكة "عبارة عن مراكز نفوذ تقررها الأهمية الاقتصادية ؛ دون أن يكون لأسرة ما أو زعيـم ما السـيادة الكاملة على غرار ما كان لقصي زعيم قريـش الأول "[2] .. كذلك اشترك بنو عبـد مناف معا في جهودهم لتنظيم التجارة بين مكة وما حولها[3] .. وهكذا كانوا وحدة واحدة ، تتحـوك في تفاهم وتآلف ، فلما ماتوا رثاهم الشـعراء معا ، دون تفريق بينهم ، تماما كما كانوا يمتدحـونهم معا[4].. وهكذا كانت تقتضـي طـبيعة الحـياة العربية في الجـاهلية أن يتناصـر أبنـاء الأب الواحـد ، وأن تجتمع كلمتهم ما وجـدوا إلى ذلك سـبيلا..

من أجـل ذلك يحق لنا أن نشك في هذه الروايـات الـتي تفـترض وجـود عـداء مسـتحـكم بين بني هاشـم وبني عبد شـمس وأمية قبل الإسلام ... فهم يروون أن هاشما وعبـد شمس ولدا ملتصقين ففصل بينهما بالسيف ، فكان بين أبنائهما الدماء لأجل ذلك[5] ، وتلك روايـة لقيطة لا نعرف لها راويا ، تفوح منها رائحة الأسطورة والخيال ، ويكذبها ما رواه ابن إسحاق مـن أن عبد شمس كان أسن بني عبد مناف[6] ... وهم يروون أن منافرات حدثت بين هاشم وأمية بن عبـد شمس ، وبين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية[7]، وكلتا الروايتين ترويان عن هشام الكلبي وهـو راوية شيعي كذاب يرويهما كلتهما عن رجال مجهولين لا يعرف أسماءهم .

إذ إن هذه الروايات كما يبدو واضحا من سندها المعتل ومتنها المصـطـنع كانت صـدى لما حدث فيما بعد من صراع بين بني أمية وبني هاشم حاول الرواة أن يجعلوا له سندا تاريخيا ثابتـا ..

---

[1] ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٣٧-١٣٨ ، ١٤١

[2] د. إبراهيم بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية ص ٨٧ ، ومعنى ذلك أنه لم ينفرد بالزعامة على قريش بنو هاشم ؛ ولم يكونوا أبرز زعمائها ، ولم يكن ذلك لغيرهم أيضا ..

[3] الطبري : السابق ٢/٢٥٢

[4] راجع : ابن هشام : السيرة النبوية ١/١٤٤-١٤٨ ، الطبري السابق والصفحة

[5] الطبري السابق ٢/ ٢٥٢ ، المقريزي : النزاع والتخاصم ص ١٨١

[6] ابن هشام السيرة النبوية ١/ ١٣٧

[7] الطبري السابق ٢ ٢٥٢-٢٥٤ المقريزي السابق ص ٢٠ - ٢١

وتظل حقيقة العلاقة الطيبة بين الفريقين لا شك فيها ، ولذلك يقول ابن خلدون : " كان لبني عبد مناف في قريش جمل من العدة والشرف لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش ، وكان فخذاهم بنو أمية وبنو هاشم حيا جميعا ينتمون لعبد مناف ، وينتسبون إليه ، وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم ، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عددا من بني هاشم وأوفر رجالا ، والعزة إنما هي بالكثرة ، قال الشاعر: "وإنما العزة للكاثر" [1].. ولعل ما يشير إليه ابن خلدون من تفوق بني أمية قد اتضح قبيل مبعث الرسول ﷺ لما مات عبد المطلب بن هاشم الذي ورث شرف أبيه وبرز نجم أبي سفيان بن حرب ؛ فذلك ما يبدو من هذا الوصف الدقيق لطبيعة العلاقة بين بني أمية وبني هاشم على لسان معاوية بن أبي سفيان لما سئل : أيكم كان أشرف أنتم أو بنو هاشم ؟ فأجاب : كنا أكثر أشرافا وكانوا هم أشرف ، وكان فيهم واحد لم يكن في بني عبد مناف مثله ؛ هاشم ، فلما هلك كنا أكثر عددا وأكثر أشرافا، وكان فيهم عبد المطلب ولم يكن فينا مثله ، فلما مات صرنا أكثر عددا وأكثر أشرافا، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا : منا نبي، فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله ، محمد ﷺ ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف " ؟ [2] ..

إن كل ذلك لا ينفي احتمال وجود نوع من التنافس بين الجانبين قبل الإسلام ، في ضوء ما نعرف من طبيعة الحياة العربية في مكة قبل الإسلام ، ولكنه تنافس يحدث بين الإخوة أحيانا ، وبين أبناء الأب الواحد، غير أنه لم يتطور ليصبح تربصا وعداء كما يزعم المتزيدون .. وإن هذا النوع من علاقات الترابط وصلة الرحم الواحدة بين الفريقين سوف يترك آثاره الواضحة على موقفهما من الدعوة الإسلامية منذ بزوغ فجرها ؛ كما سنرى فيما يلي ..

---

[1] العبر ٢/٣

[2] ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٨/٨

المبحث الأول

موقف الأمويين من الإسلام في حياة الرسول ﷺ

جاء الإسلام من أول يوم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ليمثل ثورة شاملة على أنماط الحياة الراكدة في المجتمع المكي ؛ في نشاط الفرد وتقاليد القبيلة وسيادة الملأ وتوازنات القوى ؛ وكان ذلك يعني أول ما يعني إفراد الله تعالى بالحكم والتوجيه وطاعة محمد ﷺ فيما يبلغ عن ربه ..

وكان أخطر ما ترتب على الجهر بالدين الجديد – في حياة مكة السياسية والاجتماعية – هو خلخلة البناء السياسي والاجتماعي الذي كان يعتمد أساسا على وحدة القبيلة القرشية وتماسكها وأعرافها ، وقد ظهر أثر ذلك في ردود أفعال هذه القبائل إزاء الدعوة الإسلامية ، فمن المؤكد أن قبيلة ما من قبائل مكة لم تتخذ موقفا موحدا من الرسول ﷺ ودعوته ، تأييدا له وإيمانا، أو صدا عنه وكفرا به ، فكان في كل منها بعض المؤمنين وبعض الكافرين ؛ سواء كانوا من بني أمية أو بني هاشم أو غيرهم .

وبصورة عامة فقد آمن كثير من المستضعفين وغير ذوي الهوى، وكفر كثير من الزعماء والأشراف الذين خلطوا خلطا واضحا بين معنى النبوة ومعنى الملك ، فجعلوهما شيئا واحدا، وظنوا أن الإيمان بالإسلام يعني التسليم بزعامة محمد ﷺ وتنصيبه ملكا عليهم [١] ..

وكما كان المستضعفون وغير ذوي الهوى من المؤمنين من مختلف قبائل مكة ؛ كان هؤلاء الزعماء والسادة الكافرون من مختلف القبائل أيضا؛ فكان أبرز أعداء الدين الجديد ممثلين لمختلف الاتجاهات القبلية في المجتمع المكي ، فمنهم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب من بني هاشم ، وأبو جهل عمرو بن هشام من بني مخزوم ، وعتبة بن ربيعة من بني عبد شمس ، والنضر بن الحارث من بني عبد الدار، وزمعة بن الأسود من بني أسد ، والعاص بن وائل من بني سهم ، وأمية بن خلف من بني جمح ، وغيرهم من سادات مكة الذين لم يكونوا يمثلون قبيلة بعينها بقدر ما كانوا يمثلون اتجاها هددت مصالحه الضيقة وزعامته ، فانبعثت مخاوفه وأحقاده وحسده تحكم تصرفاته إزاء الدعوة الجديدة .. وكذلك فقد كانت كل عصبيات قريش ممثلة في ذلك الوفد الذي ذهب ليثني أبا طالب

---

[١] راجع ابن هشام : السيرة النبوية ٣٤٧/١ عن أحد أسباب كفر الوليد بن المغيرة ، وانظر ٣١٠/١-٣١١ عن سبب كفر أبي جهل ، وانظر العامل نفسه في قصة إسلام أبي سفيان وهو يقول للعباس · لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما (السابق ١٥/٤-١٦) وكذا في قصة إسلام صفوان بن أمية الجمحي (السابق ٢٧/٤ ، الطبري · السابق ٦٣/٣) ، وانظر تفسير قوله تعالى ، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) الزخرف آية ٣١ في الطبري جامع البيان ٣٩/٢٥ ، ٤٠ القرطبي جامع لأحكام القرآن ٨٢/١٦-٨٣

عن تأييده للنبي ﷺ [١]، كما كانت ممثلة في المؤتمر الذي عقدوه ليلة الهجرة ليتفكروا فيما يواجهون به هجرة الرسول ﷺ [٢]، والذي يتأمل الآيات القرآنية التي نزلت ترد على زعماء الكافرين وتهددهم ؛ ويبحث في أسباب نزولها ؛ سوف يجد بوضوح أنها كانت ترد على أفراد من قبائل مختلفة [٣] .. ومعنى ذلك أنه لم يكن بنو أمية كلهم ضد الإسلام، كما لم يكن معارضوه منهم وحدهم ، وإنما شارك في ذلك غيرهم من مختلف قبائل مكة ؛ بما فيهم بنو هاشم ..

١- مقارنة بين موقف بني هاشم وبني أمية من الدعوة الإسلامية :

إن منطق العصبية القبلية السائد في الجاهلية يقتضي أن يتلقف بنو هاشم الدعوة الجديدة التي تحقق لهم العزة والشرف بالإيمان والنصرة ، وأن يقفوا خلف النبي الهاشمي بالتأييد والبذل ، وقد وقفوا إلى جواره فعلا في بعض المواقف ولعل أشهرها حصار الكافرين لهم في شعب بني هاشم، ولكنهم في النظرة الشاملة انقسموا عليه بين مؤيد ومعارض ومؤمن وكافر؛ شأنهم في ذلك شأن بني أمية وغيرهم من قبائل مكة ..

والمثال المشهور لكفار بني هاشم هو أبو لهب عم النبي ﷺ الذي كان أول من جهر بعداوة الإسلام لما جهر الرسول بدعوته [٤] ، ولم يكتف بالمعارضة الصريحة بل عضدها بالعمل والكيد ، فقد مارس بصور شتى تعذيب الرسول ﷺ وصد الناس عنه [٥] ؛ وجند لذلك زوجته أم جميل بنت حرب الأموية [٦] ، وابنيه عتبة وعتيبة اللذين طلقا بنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم ليشغلا محمدا ببيته [٧]، وكان ابنه عتبة يشاركه في إيذاء النبي حتى دعا عليه فنهشه أسد في بعض أسفاره [٨] ، بل إن أبا لهب لم يدخل مع قومه شعب بني هاشم لما حاصرتهم قريش فيه [٩] ، ولما لم يستطع الخروج مع قريش لقتال الرسول يوم بدر استأجر بدلا منه العاص بن هشام بن المغيرة بأربعة آلاف درهم [١٠] ..

---

[١] ابن هشام : السابق ٢٦٦/١-٢٦٧

[٢] السابق ٧٠/٢

[٣] السابق ٣٤٢/١-٣٥٠

[٤] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣١٩/٢ ، سعيد حوى : الرسول ص ٢١

[٥] ابن هشام السيرة النبوية 24/2

[٦] السابق 342/1 -343 ، سورة المسد وتفسيرها عند ابن كثير : التفسير ٤/ ٣٣٤، البغوي : معالم التنزيل بهامش تفسير ابن كثير : السابق والصفحة ، الشوكاني : فتح القدير ٥/ ٤٩٨-٥٠٠

[٧] ابن هشام السيرة النبوية 219/2

[٨] البلاذري : أنساب الأشراف 130/1 -131

[٩] الطبري: السابق 336/2 ، ابن هشام : السابق 339/1

[١٠] الطبري : السابق 430/2 ، ابن هشام :السابق 183/2

وقد كان أبو لهب في كفره وعناده مثالاً مشهوراً . ولكنه لم يكن الهاشمي الوحيد الذي كفر بالنبي ﷺ وجهد في إيذائه وحربه ، فقد كان في أسرى المشركين يوم بدر من بني هاشم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفهم عتبة بن عمرو بن جحدم ، وقد قبل النبي ﷺ فداءهم فيمن افتدي من أسرى قريش [١] ..

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ممن شهد قتال يوم بدر مع المشركين ونجا من القتل والأسر [٢]، وهو ابن عم النبي ﷺ وأخوه في الرضاعة ــ أرضعتهما حليمة السعدية أياماً ــ وكان يألف رسول الله وكان له ترباً ، فلما بُعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعادها أحد قط ، ولم يدخل الشعب مع بني هاشم ــ مثلما فعل أبو لهب ــ وهجا رسول الله وأصحابه [٣] ؛ وكان من المجاهرين بالظلم له ﷺ ولكل من آمن به قبل الهجرة [٤] ..

وكما حدث ذلك من عمومة النبي ﷺ أو أبناء عمومته حدث من بعض قرابته الآخرين؛ فإن ابن عمته ــ عاتكة بنت عبد المطلب ــ عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي كان من المستهزئين بالنبي ﷺ وفيه نزل قوله تعالى : " وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ".. حتى قوله تعالى" قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً " [٥] .. وقد ذهب فيما بعد أبو سفيان ابن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ليسلما ــ والرسول ﷺ في طريقه إلى فتح مكة – فكلمته فيهما زوجه أم سلمة وقالت : ابن عمك وابن صهرك ، فقال :" لا حاجة لي فيهما ، أما ابن عمي فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال .. ثم رقّ ﷺ لهما ؛ وأسلما وحسن إسلامهما " [٦]..

إن أعظم النصرة والتأييد لقيهما النبي ﷺ بمكة من عمه أبي طالب الذي تحمل في سبيل ذلك ضغوطاً هائلة من قريش ، ولكنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته وفياً لدين آبائه ، فمات على ملة الأشياخ من قومه [٧] .. وظل العباس بن عبد المطلب عم النبي الآخر في مكة ؛ واشترك مكرهاً ضده في غزوة بدر وأسر فيها ، ولكنه لم يهاجر إلى مكة ويعلن إسلامه إلا والرسول ﷺ في طريقه لفتح مكة [٨] ..

---

[١] الطبري : السابق 465/2 –466

[٢] السابق 462/2

[٣] الواقدي. المغازي 806/2 وقد رد عليه الهجاء حسان بن ثابت الأنصاري ..

[٤] ابن عبد البر:الدرر . في اختصار المغازي والسير 44

[٥] ابن هشام: السابق 296/1، 305 والآيات من سورة الإسراء 90 –93

[٦] ابن هشام : السابق 12/4 ، وانظر 50/4 –51 والطبري : السابق 50/3 –51

[٧] ابن هشام: السابق 256/1، 20/2، ابن القيم : زاد المعاد 46/2 ، الطبري السابق 325/2

[٨] ابن هشام السابق 12/4

نعم قد أسلم في مكة نفر من بني هاشم وبذلوا في سبيل الدعوة الكثير مثل علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب ؛ ولكنهما كانا يشاركان غيرهما من غير بني هاشم في ذلك كأبي بكر وعمر وعثمان ، إذ لم يكن بذلهم لأنهم هاشميون بل لأنهم مسلمون ، ويظل إيمانهم دليلا على صدق القول باختلاف استجابة الأفراد للدعوة الإسلامية بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية ..

من كفار بني أمية وعبد شمس :

وبالنسبة لبني أمية وموقفهم من الإسلام فإن مؤرخينا لا يتحدثون عنهم كبطن مستقل من بطون قريش وإنما يتحدثون عنهم مع غيرهم من بني عبد شمس والد أمية ، فيعدونهم وحدة واحدة [١] . وقد كانوا أبناء أب واحد وتربطهم علاقات التصاهر والترابط الاجتماعي ، ولذلك فإنهم عند حديثهم عن عداء بني أمية للرسول ﷺ يذكرون اسمي عتبة وشيبة ابني ربيعة بن عبد شمس ، رغم أنهما ليسا من بني أمية.. ويذكرون معهما أيضا أبا سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط ..

فأما عقبة بن أبي معيط هذا فقد كان من مردة قريش ولكنه غير معدود في سادتها وأشرافها [٢] ، وقد رووا أنه تفل في وجه رسول الله صلوات الله عليه [٣] ، وأنه رمى عليه ﷺ سلى جزور وهو يصلي [٤] ؛ وأنه خنقه ﷺ بثوب في عنقه حتى دفعه عنه أبو بكر الصديق [٥] ، ولكنهم يذكرون أيضا أن ذلك كان بتحريض بعض جلسائه ؛ وحمية مع بعض المشركين – كما يبدو في الحالات السابقة – مما يدل على أنه لم يكن يصدر عن رأى أصيل ، بل عن خفة وسفاهة ، وقد نال جزاءه لما أمر النبي ﷺ بقتله بعد أسره يوم بدر، والغريب أنه كان عندها يذكره بما بينهما من رحم [٦] ؛ ومثل هذه النماذج الطائشة لم ينفرد بها بنو أمية أو عبد شمس في مكة آنذاك ..

---

[١] راجع مثلا ابن هشام السيرة النبوية 70/3 – 71 ، وكذلك قوائم الأسرى والقتلى في الغزوات والحروب، كما يبدو في موقعة بدر مثلا 263/2 وما بعدها ..

[٢] لم يكن عقبة بن أبي معيط من أشراف قريش الذين ذهبوا إلى أبي طالب ليكلموه في أمر محمد ﷺ (ابن هشام : السيرة النبوية 266/1 –267) ولم يكن ضمن النفر المعدودين الذين جلسوا في دار الندوة ليبحثوا ماذا يصنعون إزاء هجرة الرسول المزمعة (السابق 70/2 –71 ، الطبري : السابق 370/2 –371) ولكنه كان ممن يعادي الرسول فعلا كما سنرى ،ويذكره ابن عبد البر من المجاهرين بالظلم للرسول ﷺ ومن آمن به، ولكنه يذكر معه حنظلة ابن أبي سفيان والحكم بن أبي العاص ابن أمية ومعاوية بن العاص بن أمية (الدرر في اختصار المغازي والسير 44 –45) أما معاوية بن العاص وحنظلة بن أبي سفيان فلا نعلم لهما دورا في ذلك الإيذاء ؛ ولا يذكر ابن إسحاق عنهما شيئا من ذلك ..وأما الحكم فلا ذكر له في مكة وإنما نقم عليه النبي ﷺ أشياء بعد أن أسلم بعد الفتح فنفاه إلى الطائف فيما يقولون..

[٣] ابن هشام : السابق 347/1

[٤] البخاري حديث رقم 3854 ، ابن حجر فتح الباري 202/7 –203

[٥] البخاري حديث رقم 3856 ، ابن حجر السابق والصفحتان ، ابن عبد البر الدرر 43

[٦] ابن عبد البر السابق 113 ،ابن هشام السابق 212/2

أما معارضة عتبة بن ربيعة وأبي سفيان بن حرب فتستحق منا وقفة متأنية كي نعرف أسبابها وكوامنها.. فقد عرض عتبة بن ربيعة على زعماء قريش أن ينهض إلى لقاء محمد ﷺ ليحدثه ويعوض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فيكف عنهم ، فوافقوه ، فذهب يعرض على النبي ﷺ أن يجعلوه أكثرهم مالا أو يسودوه عليهم أو يجعلوه ملكا إن كان يريد شيئا من ذلك ، أو أن يعالجوه إن كان الذي يأتيه رئيا يراه حتى يشفى ، فلما فرغ من حديثه تلا عليه رسول الله ﷺ صدر سورة فصلت ، حتى انتهى إلى السجدة فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ، فأنت وذاك ، فرجع عتبة إلى قومه متأثرا بما سمع من القرآن حتى قال بعضهم لبعض : " نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به "، فلما جلس إليهم سألوه : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : ورائي أني قد سمعت قوله ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، أي معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فقال لهم : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم [١] ..

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف وصده عنها أهلها وتبعه الصبيان والغلمان يرمونه ويصيحون به لجأ إلى حائط ابني ربيعة عتبة وشيبة ، فلما رأياه على هذه الحال "تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما نصرانيا يقال له عداس ، فقالا له : خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه " [٢] ..

والذي يعلم جو العداوة المحموم للإسلام في مكة آنذاك حتى اضطر النبي ﷺ إلى الذهاب منها إلى الطائف يضع هذا التصرف من ابني ربيعة موضعه ، ويقدر نوع هذه المعارضة التي مارساها ضده ، حيث كانت رابطة الرحم التي تجمع بين بني عبد مناف تعطفهم عليه ، فتخف نبرة المعارضة أحيانا ويحل محلها التعصب للقرابة مع محمد ﷺ وبخاصة في مجال التنافس مع غير بني عبد مناف من بطون قريش؛ كما يبدو في هذه الرواية : دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة، فلما رآه أبو جهل قال:هذا نبيكم يا بني عبد مناف ، فانبرى عتبة بن ربيعة يقول : " وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك ؟ فأخبر بذلك رسول الله ﷺ أو سمعه ، فأتاهم فقال : أما أنت يا عتبة بن ربيعة فوالله ما حميت لله ولا لرسوله ، ولكن حميت لأنفك ، وأما أنت يا أبا جهل بن هشام، فوالله لا يأتي

---

[١] ابن هشام السابق 1/292- 293

[٢] ابن هشام السابق 1/292- 293

عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكي كثيرا ، وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش؛ فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون [١].

أما أبو سفيان بن حرب فلا يختلف تفكيره عن تفكير صهره وقريبه عتبة بن ربيعة ، فقد كانت نفسه تنازعه إلى التصديق برسالة محمد ﷺ والإيمان به ، غير أن الارتباط بالملأ من قريش حال بينه وبين ذلك، ثم ما لبث بعد وفاة كبار زعماء مكة في بدر أن وجد نفسه في موقف الزعامة القرشية التي يصعب التنازل عنها..

وقد روى ابن عساكر عن معاوية بن أبي سفيان قال : خرج أبو سفيان إلي بادية له مردفا هند ، و خرجت أسير أمامها ـــ وأنا غلام – علي حمارة لي، إذ سمعنا رسول الله ﷺ ؛ فقال أبو سفيان : انزل يا معاوية حتى يركب محمد ، فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ﷺ فسار أمامنا هنيهة ، ثم التفت إلينا فقال : يا أبا سفيان بن حرب ، ويا هند بنت عتبة ، والله لتموتن ، ثم لتبعثن ، ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار، وأنا أقول لكم بحق ، وإنكم لأول من أنذرتم [٢]، ثم قرأ رسول الله ﷺ : "حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الرحيم" حتى بلغ : " قالتا أتينا طائعين" فقال أبو سفيان : أفرغت يا محمد ؟ قال : نعم ، ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبتها ، وأقبلت هند على أبي سفيان فقالت : ألهذا الساحر أنزلت ابني ؟ قال : لا والله ؛ ما هو بساحر ولا كذاب " [٣]..

ولا يمكن أن نتصور أن أبا سفيان كان ممن يؤذون النبي ﷺ فعلا، فقد روى الحافظ ابن حجر عن ثابت البناني أن رسول الله ﷺ إنما قال:(عند فتح مكة) من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وشرفه بهذه المنقبة العظمى ؛ لأنه "كان إذا أوذي بمكة دخل دار أبي سفيان" [٤] ، مما يعني أنها كانت ملجأ له ﷺ من إيذاء قومه ، ولقد ذكر ذلك رسول الله ﷺ حتى رد الجميل بأحسن منه .. وقد "كان أبو سفيان أول من يمت إلى النبي ﷺ بالمودة في القربى ، وأحد المخاطبين في آية الشورى : " قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" [٥]. وقد كان لهذه المودة مظاهرها حتى بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وظل أبو سفيان مقيما على شركه بمكة قبل إسلامه، فقد روى ابن سعد بإسناد صحيح عن عكرمة أن النبي ﷺ أهدى إلى أبي سفيان بن حرب تمر عجوة، وكتب إليه

---

[١] الطبري : السابق 348/2

[٢] ربما يعني ذلك أنهم أول من أنذرهم ﷺ في ذلك اليوم، فإن الآيات التالية لهذه العبارة نزلت بعد فترة من بدء الرسالة ..

[٣] روي ذلك عن ابن عساكر الطبراني : سعيد حوى : الرسول ص20 –21

[٤] ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة القسم الثالث ص 413

[٥] محب الدين الخطيب . هامش المنتقى من منهاج الاعتدال لابن تيمية ص253 ، والآية رقم 23 من سورة الشورى .

يستهديه أدما مع عمرو بن أمية الضمري فأهداه إليه [1] ، وربما كان ذلك بعد أن أصهر النبي ﷺ إلى أبي سفيان وتزوج بابنته أم حبيبة سنة 7 هـ.

إن ما سبق من سيرة عتبة بن ربيعة زعيم بني عبد شمس ثم أبي سفيان بن حرب رأس بني أمية يدفعنا إلى تقرير حقيقة واضحة ، وهي أن عداءهما للرسول ﷺ لم يكن عداء الطيش والتجبر، وهو بالتأكيد يختلف عن مثل عداء أبي جهل وأبي لهب ، ففي معارضتهما للإسلام ملمح التعقل والهدوء ، و الرغبة في الحفاظ على رابطة القربى وصلات الرحم بين بني عبد مناف، ولذا فإننا لا نجد وقائع محددة معروفة تدل على إيذاء أي منهما النبي ﷺ أو أحدا من أصحابه قبل الهجرة ، ولكنهما كانا مضطرين بحكم زعامتهما القبلية إلى مجاراة بقية سادة مكة في موقفهم، وكان يعز عليهم التخلي بسهولة عن مكانتهم ومكتسباتهم التي سيعيد الإسلام صياغتها وفق مبادئه وقيمه..

أمويون مسلمون منذ بداية الدعوة الإسلامية :

وإذا جارينا نهج المؤرخين في الحديث عن بني أمية وبني عبد شمس معا ، فإننا نرى منهم جماعة كانوا من السابقين إلى الإسلام ، فمنذ المرحلة السرية للدعوة وقبل الجهر بها كان قد أسلم عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، وكان إسلامه على يد أبي بكر الصديق في أيام الإسلام الأولى [2] ، وكذلك كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية الذي يروى أنه كان خامس من أسلم بعد خديجة بنت خويلد وعلي وأبي بكر وزيد بن حارثة [3] ، وقد أسلم في هذه المرحلة السرية ــ التي دامت حوالي ثلاث سنين [4] ــ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس [5] ؛ كما أسلم في مرحلة مبكرة حليفان لبني أمية هما عبد الله بن جحش بن رئاب وأخوه أبو أحمد بن جحش وهما ابنا عمة النبي ﷺ فأمهما أميمة بنت عبد المطلب [6] ..

وفي الهجرة الأولى إلى الحبشة شارك نفر من مسلمي بني أمية مثل عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ الذي كان يتحسس أخبارهما ويقول: صحبهما الله ، إن كان عثمان

---

[1] ابن حجر : السابق 413

[2] ابن هشام : السابق 260/1 ، الطبري 317/2

[3] الطبري : السابق 317/2 ، ومن الواضح وجود اختلاف في ترتيب أول من أسلم عند المؤرخين، انظر المصدر السابق والصفحة .

[4] الطبري : السابق 318/2

[5] ابن هشام : السابق 263/1

[6] ابن هشام : السابق 262/1 ، وحليف القوم منهم، ولم يستكف أبو سفيان ان يزوج ابنته أم حبيبة من حليفه عبيد الله بن جحش، كما زوج النبي ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة (راجع ابن هشام · السابق 218/4)

ابن عفان لأول من هاجر إلى الله بعد لوط [١] ، كما هاجر أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو [٢] ..

ثم كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة [٣] ؛ وكان فيها من بني أمية عمرو بن سعيد بن العـاص وآمراتـه الكنانية، وأخوه خالد بن سعيد وزوجته ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وزوجها عبيد الله بـن جحش حليف بني أمية ، وأخوه عبد الله بن جحش ، وحليف آخر من بنى أسد اسمه قيس بن عبد الله وآمراته بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان بن حرب ، ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي حليفهم ، وأبـو موسى الأشعري حليف آل عتبة بن ربيعة [٤] ..

وهذه القائمة الطويلة من المهاجرين من بني أمية وعبد شمس وحلفائهم بعد خمس سـنوات من بدء الدعوة تنفي كل شبهة تحاول أن تجعل من بني أمية أعداء الإسلام ورسـوله منـذ بعثتـه .. وبخاصة أنه لا يفوقهم في هذه التضحية غيرهم من بطون قريش من المهاجرين [٥] ..

وقد ساهمت نساء من بني أمية وعبد شمس في صنع مسيرة الإسلام وفى إعطـاء الأسـوة وضرب المثل في نبل التضحية وعزيز العطاء .. فقد أسلمت رملة بنت شيبة بن ربيعة زوجة عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى المدينة ، وثبتت معه على دينه رغم مقتل أبيها وعمها وابنه في بدر مما أهـاج عليها غضب هند بنت عتبة فقالت تعيبها :

لحى الرحمن صابئة بـوج ... ومكة أو بأطراف الحجون
تدين لمعشر قتلوا أبـاهـا ... أقتل أبيك جاءك باليقـين ؟ [٦]

وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إلى المدينة في الهدنة التي كانت بين النبي والمشـركين في الحديبية ، وكانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن من جاءه من قريش رده إليهم، ومن جـاءهم مـن أصحابه لم يردوه، فقدم في طلبها أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة ، وطلبا ردها عليهم، فقالت: " يـا رسول الله أتردني على المشركين فيستحلوا مني ما حرم الله ؛ ويفتنوني عن ديني ؟ " فانزل الله تعالى : (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات

---

[١] ابن عساكر : ترجمة عثمان بن عفان من تاريخ دمشق ص 25

[٢] ابن هشام : السابق 315/1

[٣] كانت الهجرة الأولى في السنة الخامسة للدعوة ؛ أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعدها بأشهر قلائل (ابن هشام السابق 315/1، الطبري : السابق 329/1

[٤] راجع هذه القوائم عند ابن هشام : السابق 316/1—317

[٥] حيث وصل عدد المهاجرين من بنى عبد شمس خمسة عشر رجلا ؛ ولا تساويهم في هذا العدد قبيلة من قبائل قريـش (راجع السابق والصفحات)

[٦] مصعب الزبيري : نسب قريش ص 104 — 105

فلا ترجعوهن إلى الكفار، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) [١] ، فرفض النبي ﷺ إعادتهما إليهم وزوجها من مولاه زيد بن حارثة [٢] ..

على أن الصورة الأزهى والنموذج الأرقى في ذلك المجال هو *إسلام أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان* بن حرب ؛ فقد أسلمت مبكرا مع زوجها عبيد الله بن جحش وهاجرا إلى الحبشة ولكنه تنصر هناك وتركها ، بل أخذ يغرى المسلمين بالكفر، غير أن زوجته الأموية ظلت على وفائها للإسلام ، فاستعلت على واقع عصيب ، وتركت الزوج الكافر كما تركت أباها الكافر آنذاك بمكة من قبل ، وظلت على ذلك حتى أرسل النبي ﷺ يخطبها سنة 7 هـ [٣] ، وتنتقل إلى المدينة بجوار الرسول ﷺ حتى إذا جاءها أبو سفيان أبوها ليطلب تجديد الهدنة مع رسول الله ﷺ التي سبق إبرامها في الحديبية ؛ دخل على ابنته أم حبيبة ، وذهب ليجلس على فراشها فطوته عنه، فقال يا بنية؛ ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش ؛ أم رغبت به عني ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، فقال : والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر [٤] ..

٢-الأمويون في موقعة بدر :

لم يكن الأمويون سببا في وقوع القتال يوم بدر، ولم يكونوا دعاة إليه، بل حاولوا منعه ما استطاعوا، فلما لم يمكنهم ذلك، وفرض عليهم القتال، دفعتهم حميتهم إلى التضحية فيه بأبرز رجالهم عندهم وأعزهم عليهم، فلقد لقي مصرعه يومذاك عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من بني عبد شمس ، بينما قتل من بني أمية حنظلة بن أبي سفيان وعبيدة بن سعيد بن العاص وأخوه العاص ابن سعيد ، ثم أسر وقتل أيضا عقبة بن أبي معيط ..

وتبدأ وقائع غزوة بدر لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش فيها أموال وتجارة لهم، فندب أصحابه للقائها، ولما أحس بذلك أبو سفيان أرسل يستنجد بقريش غير أنه نجح في أن ينجو بالتجارة عندما اتخذ طريقا آخر على ساحل البحر، ولكن قريشا كانت قد خرجت فأرسل إليهم أبو سفيان : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها

---

[١] سورة الممتحنة آية (12) راجع تفسيرها عند الطبري : جامع البيان ٢٨/ ٤١-٤٢ ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦١-٦٢

[٢] الزبيري : السابق 145 ، ابن هشام : السابق 222/3 –223 ، ابن عبد البر : الدرر 195 –196

[٣] ابن سعد : الطبقات الكبرى 70/8 ، ابن هشام : السابق 230/1، 251/3، 219/4

[٤] ابن سعد : الطبقات الكبرى 70/8 ،ابن هشام 9/4 ، وكما صاهر النبي أبا سفيان ؛ فقد زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع العبشمي فكان وفيا لها محبا، وكانت له كذلك ولهما خبر طويل راجعه في ابن هشام : السابق 219/2 –225

الله ، فارجعوا، فأبى ذلك أبو جهل تكبرا واعتداء [١] ، فلما علم بذلك أبو سفيان قال : " واقوماه. هذا عمل عمرو بن هشام (أي أبي جهل) ، كره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس ، وبغى، والبغي منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا إلى أن يدخل مكة [٢] ..

وكان قد خرج مع قريش عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ولكنهما كانا "متثاقلين عن الخروج حتى أنبهما أبو جهل فخرجا " [٣] ، ولما نظر النبي ﷺ إلى القوم وفيهم عتبة على جمل له أحمر قال:"إن يكن عند أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا " [٤] ، وقد صدق حدس النبي ﷺ حيث وقف عتبة يحاول إثناء قومه عن القتال وإرجاعهم إلى مكة ؛ فقال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ؛ والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه؛ قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ؛ فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون" [٥] ، غير أن محاولات عتبة ذهبت أدراج الرياح أمام إصرار أبي جهل الذي قال يستفزه: "انتفخ والله سحره" [٦]. فلما سمع عتبة بذلك – وأهاجه أبو جهل – التمس بيضة يدخلها في رأسه ليقاتل ، فما وجد في الجيش بيضة تسعه من عظم هامته، فلما رأى ذلك اعتجر ببرد له ، ثم خرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة يدعو للمبارزة ، فقتلهم المسلمون [٧] ..

وهذا كان دوره في بدر ... فقد خرج متثاقلا بغير عدة ، وحاول إثناء قومه عن القتال ما استطاع ، فلم يفلح ، بل أهاجوه وجبنوه ، حتى خرج يدعو للمبارزة وليس على رأسه ما يحميه غير برد من نسيج.. لقد أذهل ذلك التصرف حكيما قرشيا آخر هو حكيم بن حزام الذي صرخ فيه : يا أبا الوليد ، مهلا مهلا تنهى عن شيء وتكون أوله ؟ [٨] !

وقد كان ابنه أبو حذيفة ضمن صفوف المسلمين ، فهو من السابقين إلى الإسلام ، ولما طلب أبوه من يبارزه قام إليه ابنه أبو حذيفة، فأجلسه النبي ﷺ فلما قام إليه من قتلوه من بني هاشم

---

[١] ابن هشام : السابق 191/2 ، الطبري :تاريخ لرسل والملوك 438/2

[٢] الواقدي:المغازي 43/1

[٣] البلاذري : أنساب الأشراف 152/1

[٤] ابن هشام : السابق 193/2 ، الواقدي السابق 59/1 ،60 ، الطبري : السابق 411/2 ، الأصفهاني الأغاني 189/4

[٥] ابن هشام : السابق 195/2 ، الطبري : السابق 442/2 ،444

[٦] سحره: رئته، ويقال ذلك للجبان (لسان العرب مادة س ح ر ، القاموس المحيط فصل السين باب الحاء)

[٧] كان قد قام إليه جماعة من الأنصار، فرفض طالبا أن يبرز إليهم بعض أكفائهم من قومهم فقتلهم حمزة وعلي وعبيدة ابن الحارث . راجع ابن هشام : السابق 196/2 –197 ، الطبري : السابق 445/2 ، الواقدي : المغازي 68/1 -69

[٨] الواقدي:المغازي 67/1

أعانهم على ضربه [1] ، وكان النبي ﷺ ــ كما مضى ــ يرجو منه الخير، ولما انتهت المعركـــة أمـــر الرسول ﷺ أن يلقى المشركون في القليب ، ولما جاء دور عتبة بن ربيعة نظر الرسول إلى وجه ابنـــه أبي حذيفة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال:يا أبا حذيفة ؛ لعلك قد دخلك من شأن أبيك شـــيء ، فقال:لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلمـــا وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه مـــن الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك ، فدعا له النبي بخير؛ وقال له خيرا [2]..

بنو سعيد بن العاص :

وقد قتل يوم بدر أيضا من مشركي بني أمية عبيدة بن سعيد بن العاص وأخوه العاص بـــن سعيد ، وقد روى أن سعيد بن العاص بن سعيد ــ الذي قتل أبوه كافرا ببدر ــ مـــر بعمـــر بـــن الخطاب ــ وعمر يومئذ أمير المؤمنين ــ فقال له عمر: " إني والله ما قتلت أباك يوم بدر، وما بي أن اعتذر إليك من قتل مشرك، ولقد رأيته يبحث التراب كأنه ثور، فصددت عنه فصمد له علي فقتله ، ولكنني قتلت العاص بن هشام ــ وكان خال عمر ــ فقال له سعيد ــ وهو يومئذ حديث السـن ــ لو قتلته لعلمت أنك على حق وهو على باطل ، فجعل عمر يتعجب له ويلوي يده ويقول: أحـــلام قريش .. أحلام قريش" [3].

ولما قتل هذان الأمويان كان أخواهما الآخران خالد بن سعيد وعمرو بـــن ســـعيد مـــن السابقين إلى الإسلام والمهاجرين إلى الحبشة ، ثم أسلم من هذه الأسرة الأموية أيضا عبد الله الـــذي استشهد يوم مؤتة ، وسعيد بن العاص ؛ وقتل يوم الطائف شهيدا ، وأبان بن سعيد واستشهد يـــوم أجنادين ، ولما عاد خالد وسعيد إلى المدينة بعد خيبر سنة 7 هـ استشهدا الواحد تلو الآخر، فقتـــل خالد يوم مرج الصفر ، وقتل سعيد في أجنادين مع أخيه أبان [4] ..

وينبغي أن نذكر في آخر المطاف بأن موقعة بدر لم تكن حربا أموية ضد الإسلام ، رغـــم مقتل بعض زعمائهم فيها، فقد شهدها من مسلمي بني أمية في صفوف النبي ﷺ أكثر ممن شهدها مـــن غيرهم من قبائل مكة [5] ، ولم يكن مشركو أمية وعبد شمس أكثر الناس حماسة في القتال ضد النبي ﷺ

---

[1] السابق 70/1

[2] ابن هشام : السابق 209/2 ، الطبري : السابق 457/2 ، الواقدي : المغازي 111/1 –112

[3] الزبيري : نسب قريش 176 الواقدي السابق 92/1

[4] الزبيري : السابق ص 174

[5] شهد معركة بدر من مسلمي بني أمية وعبد شمس وحلفائهم ستة عشر رجلا(ابن هشام : الســـابق 241/2 –242) ، بينما شهدها من بني هاشم وحلفائهم اثنا عشر رجلا(السابق 2/241) وأكبر عدد يلي بني أمية وعبد شمس هو عدد مـن حضر المعركة من بني عدي رهط عمر بن الخطاب فكانوا أربعة عشر رجلا (السابق ٢/245 –246)

ولا أكثر الناس تضحية فيه ، فقد قدم بنو مخزوم ـــ رهط أبي جهل ـــ أكثر مما قدم بنو أمية من القتلى والأسرى آنذاك [١] ..

٣– دور أبي سفيان وبني أمية بعد بدر :

لقد ترتب على غزوة بدر نتائج كبرى لعل أخطرها في المعسكر المكي كان اختفاء الزعامات التقليدية لمكة أمثال عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام وأمية بن خلف والنضر بن الحارث. وزمعة بن الأسود وغيرهم [٢] ، وكان ذهاب هذه الزعامات ضروريا لتهب رياح التغيير على ذلك المجتمع القبلي الجامد ، وظهر جيل جديد من القادة مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.. وهم أكثر شبابا وأقدر على التطور والتغيير [٣] .. على أن الشخصية البارزة والمؤهلة للقيادة من الحرس القديم التي نجت من القتل يوم بدر كانت شخصية أبي سفيان بن حرب الذي سيقود الصراع ضد الإسلام منذ الآن وحتى فتح مكة.

ولم يكن أبو سفيان زعيما من نمط أبي جهل بن هشام الذي كان يقطر حقدا على شخص الرسول الكريم ﷺ إلى درجة يستحيل معها أن يفكر في الدين الجديد ، كما كان يتمتع بقدرة هائلة على تصعيد المعركة ضد الإسلام وتحويل مواقف اللين والموادعة إلى بؤر تتفجر بالمرارة والمواجهة ، كان أبو سفيان نمطا مختلفا عن ذلك كل الاختلاف ، كان تاجرا منفتحا على الآخرين ، يتصف بالقدرة على الهدوء وضبط النفس ، وكان قبل كل ذلك محتفظا بشيء من العلاقات الطيبة مع الرسول ﷺ حتى بعد أن هاجر النبي إلى مكة كما سبق ..

ورغم أجواء المرارة والحقد والرغبة في الانتقام التي سادت مكة بعد موقعة بدر نلمس موقفا طيبا من أبي سفيان وزوجته هند مع زينب بنت رسول الله ﷺ لما أرادت الهجرة إلى أبيها، فقد عرضا عليها المساعدة وعملا على سفرها في هدوء رغم المشاعر المتأججة بالعداء [٤] ..

---

[١] قتل من بني أمية وعبد شمس وحلفائهم يوم بدر اثنا عشر رجلا فيما قال ابن إسحاق (السابق 263/2 –264)وزاد ابن هشام اثنين من حلفائهم، فهم عنده أربعة عشر رجلا(السابق 269/2) بينما قتل من بني مخزوم – رهط أبي جهل سبعة عشر رجلا(السابق 266/2 –267) فيما يروى ابن إسحاق، وزاد ابن هشام عليهم سبعة فصاروا أربعة وعشرين رجلا(السابق 269/2) وكان عدد الأسرى من بني عبد شمس وأمية سبعة نفر(السابق 270/2) بينما عدد الأسرى من بني مخزوم تسعة نفر (السابق 270/2 –71) وزاد ابن هشام لبني أمية من الأسرى رجلين ولبني مخزوم رجلا واحدا (السابق 272/2 –273) ..

[٢] ابن عبد البر الدرر 110 –111

[٣] قال أحد مشركي مكة في ذلك :

ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا

(ابن هشام: السابق 215/2 –216)

[٤] ابن هشام : السابق 220/2 –222 ، الطبري : السابق 468/2 –470

٤- الأمويون في أحد :

لقد تسببت غزوة أحد في إثارة قدر كبير من الكراهية ضد بني أمية في المصادر والكتابات التاريخية الإسلامية بوجه عام.. وذلك يرجع لما تسببت عنه هذه المعركة من نتائج أبرزها هزيمة المسلمين وإصابة النبي ﷺ وما حدث من تمثيل بأجساد بعض الشهداء وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وما يذكر من قيادة أبي سفيان لهذه المعركة ضد المسلمين ، وتحريض زوجته هند بنت عتبة لجيش المشركين وتمثيلها بجسد حمزة ﷺ ..

والحقيقة أن دور هند في هذه المعركة لم يكن أخطر أدوار النساء الموتورات ، بل إن دورها لا يوازي دور امرأة أخرى هي عمرة بنت علقمة الحارثية التي تلقفت لواء المشركين لما سقط على الأرض وما أحد من القوم يجرؤ على أن يدنو منه، فرفعته حتى لاث به الجند واستحقت مديح حسان ابن ثابت من باب السخرية برجال مكة الجبناء [١] .. وقد قاتلت نساء أخريات بالفعل كما يقاتل الرجال [٢] ، ولم تكن هند في هذه المنزلة ، ولكن دورها كان بارزا لأنها زوجة القائد الأموي ولأنها حرضت على قتل حمزة [٣] ؛ حتى إذا قتل مثلت به [٤] ، وكانت في ذلك تشارك غيرها من النساء الثكلات [٥] ..

وينسب بعض الرواة إلى أبي سفيان أنه قد ساهم بنصيب في التمثيل بحمزة ﷺ ؛ فقد مر عليه الحليس بن زبان سيد الأحابيش وهو يضرب في شدق حمزة بزج رمحه ويقول : ذق عقق [٦] ، فقال الحليس: يا بنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما ، فقال أبو سفيان: اكتمها عني فإنها كانت زلة [٧] ...

وهذه الرواية يذكرها ابن إسحاق مرسلة بغير راو، وإن صحت فقد اعتذر الرجل عن فعلته ، وهو كافر؛ والمنكر عليه كان كافرا ، مما يؤكد أن ذلك لم يكن طابع القوم ولا سمة العداء فيهم ، وأنه كان عارا يستنكرونه ؛ ويسألون بعضهم كتمانه إن حدث منهم ..

---

[١] ابن هشام : السابق 3/19 –20

[٢] السابق 3/12

[٣] السابق 3/5 ، الطبري : السابق 2/502

[٤] ابن هشام : السابق 3/31 ، الطبري : السابق 2/524 –525

[٥] الواقدي : المغازي 1/274

[٦] عقق: معدول عن عاق للمبالغة ، كغدر من غادر ..

[٧] ابن هشام : السابق 3/33 ، الطبري : السابق 2/227

على أن ابن إسحاق قد ذكر أيضا روايتين أخريين عن أبي سفيان يبرأ فيهما من التمثيل بالقتلى .. الأولى في حوار بين أبي سفيان وعمر بن الخطاب بعد نهاية المعركة ، قال فيه أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون في القوم مثلا، لم آمر بها ولم تسؤني[١]..
والثانية أنه قال في جوابه: إنه قد كان في قتلاكم مثل ، والله ما رضيت ولا سخطت، ولا نهيت ولا أمرت[٢].. وذلك يرجح أن ذلك العمل الشنيع الذي ينافي الطبيعة السوية كان من عمل نساء ذهبت بهن العاطفة بعيدا ..

٥- الأمويون بعد أحد وحتى الفتح :

وبعيدا عن أجواء المعارك الساخنة التي تخفي عادة مشاعر كثيرة لصالح شعور واحد متسلط في ذلك الوقت هو حب البقاء والرغبة في السلامة والظفر؛ فإن الحوادث في فترات السلم تعطينا مزيدا من الإشارات الموحية بحقيقة معارضة أبي سفيان للإسلام وكفره به ، وتلمح إلى إعجاب خفي يداخله بهذا النمط الجديد من البشر الذي يصوغه الإسلام.

فإنه لما أسرت بعض قبائل العرب نفرا من أصحاب النبي ﷺ وباعوهم لأهل مكة برجل لهم كان أسيرا بها، اجتمع نفر من قريش ليشهدوا قتل أحد هؤلاء الصحابة واسمه زيد بن الدثنة ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي ، فقال أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا[٣]، كما أنه شهد قتل خبيب بن عدي ـ رفيق زيد ين الدثنة ـ وكان أبو سفيان يصطحب معه ابنه معاوية ؛ فلما رفعوا خبيبا على خشبة الصلب قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ، ثم قتلوه .. فكان معاوية يقول : حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان ، ولقد رأيته يلفيني إلى الأرض فرقا من دعوة خبيب ، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه[٤] ..

وبمضي الأعوام كان بعض زعماء مكة ممن حول أبي سفيان يسلمون مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما.. فكان ذلك مما يهيج النفوس الباقية إلى التفكير في ذلك الدين الجديد ولما خرج أبو سفيان بعد صلح الحديبية في تجارة إلى بلاد الشام استدعاه هرقل ـ ومن معه من قريش

---

[١] الطبري : السابق 2/526 –527

[٢] الطبري : السابق 2/527

[٣] ابن هشام : السابق 3/10 ، الطبري · السابق 2/542 ، الواقدي:المغازي 1/362

[٤] ابن هشام : السابق 3/101 ، الواقدي 1/359

ـ ليسأله عن النبي الذي وصلته أخباره ، فأجابه أبو سفيان ، وراعه أن يقول هرقل: " فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه " ، فقام أبو سفيان من عنده وهو يخبط كفا بأخرى ويقول : " أي عباد الله؛ لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ؛ أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام [١] ..

وبعد أشهر قليلة سنة ٧ هـ تزوج النبي رملة ـ أم حبيبة ـ بنت أبي سفيان "وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة ؛ فقد كان الصهر عندهم بابا من أبواب التقريب بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعارا على أنفسهم .. وكذلك (فإنه) لم يواجه أبو سفيان رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة " [٢] ..

ولكنه لما ذهب إليها يطلب تجديد مدة الهدنة بعد عدوان قريش على حلفاء الرسول من خزاعة طوت أم حبيبة عنه فراشها لأنه امرؤ نجس وهذا فراش رسول الله ﷺ ـ كما مضى ـ فتزلزل كيان الرجل وأصبح أقرب ما يكون إلى الدخول في ذلك الدين..

فلما أعد الرسول جيوشه للفتح وتأهب للمسير نحو مكة لقيه عمه العباس مسلما ، وفي بعض الطريق كان أبو سفيان يتحسس الأخبار فراعه ذلك الجيش العظيم ولقيه العباس [٣]، فاصطحبه إلى الرسول ليعلن إسلامه.

٦-إسلام أبي سفيان:

أشفق العباس – الذي أسلم منذ قليل – من أن يدخل المسلمون مكة عنوة فيذل أهلها، فما إن وجد أبا سفيان يتحسس الأخبار خارج مكة حتى أردفه خلفه على بغلة رسول الله ﷺ ومضى به إليه يستأمنه، وقد حماه العباس من غضب عمر بن الخطاب الذي رآه فأراد قتله ، وراود عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال العباس يسكته : " مهلا يا عمر ؛ فوالله أن لو كان رجلا من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف " ، فكان تذكيره بهذه الرحم القريبة من رسول الله ﷺ كافيا لإسكاته.. وقد عرض الرسول ﷺ عليه الإسلام فقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي!! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد ، قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأجملك وأوصلك ، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا ، فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن

---

[١] الطبري : السابق 646/2 –648

[٢] المباركفوري : الرحيق المختوم ص 535 بتصرف

[٣] وكان العباس قد أسلم منذ قليل والرسول متجها في قواته لفتح مكة.

لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق ، فأسلم ، فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا، قال:نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.. ثم أمر الرسول العباس أن يقف بأبي سفيان في مكان يرى منه جنود الله سائرة ، ثم انطلق أبو سفيان ليحذر قومه ويدعوهم للموادعة والمسالمة [١]..

ورغم إسلام أبي سفيان فان المقاومة المكية للإسلام لم تنته تماما، وإن كانت قد ضعفت ضعفا بليغا، فقد وقعت بعض المناوشات لجيوش الفتح ، كما حاول بعض الزعماء البارزين الهرب مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، ولكنهما أومنا فعادا ثم أسلما بعد ذلك [٢] ..

شبهات حول حقيقة إيمان أبي سفيان :

كان دخول أبي سفيان الإسلام يعنى أن يتحول من زعيم عربي مرموق قاد الصراع ضد الإسلام سنوات إلى أحد أفراد هذه الأمة الإسلامية التي تدين بالزعامة والولاء لمحمد بن عبد الله ﷺ ، وقد رأينا فيما مضى أن ذلك الشعور بالوجاهة السياسية والاجتماعية وذلك الخوف من ذهابها والذوبان ضمن جموع المؤمنين كان من أهم الأسباب التي حالت بين أبي سفيان ــ وزعماء مكيين آخرين ــ وبين الإسلام رغم إيمانهم بصدق النبي ﷺ وسلامة دعوته [٣] ، وقد ظل تأثير ذلك الشعور مسيطرا على أبي سفيان حتى لحظة إسلامه حيث أعلن أنه رغم إيمانه بوحدانية الله فإنه لم يزل في نفسه شيء من التصديق بنبوة محمد ﷺ ، غير أنه ما لبث أن تخلى عن هذه المكابرة لما ذكره العباس بضعف موقفه وأن حياته ذاتها مهددة ، ناهيك عن رغبته الصادقة ــ تماما مثل العباس ــ في عدم تعريض مكة وقومهما لمذلة الهزيمة ودخولها عنوة.. ولا سبيل إلى الطعن في ذلك الإسلام إذ "إن المطلوب في الدنيا من المشرك أو الكافر ليس هو استقرار الإيمان كاملا في فؤاده في اللحظة التي يراد منه فيها الدخول في الإسلام، وإنما المطلوب منه أن يستسلم كيانه ولسانه لدين الله تعالى، فيخضع لتوحيد الله تعالى ويذعن لنبوة رسوله وكل ما جاء به من عند الله تبارك وتعالى ، أما الإيمان فيربو بعد ذلك في قلبه مع استمرار تمسكه بالإسلام وخضوعه له ، (قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن

---

[١] انظر ابن هشام : السابق 13/4 –16 ، الطبري : السابق 52/3 –54 ،ابن عبد البر:الدرر 215 –217 الواقدي : المغازي 816/2 –818 ، 822 –823

[٢] ابن هشام : السابق 20/4 –21 ، 27 ، الطبري : السابق 63/3

[٣] راجع قوله تعالى:(فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) سورة الأنعام آية ٣٣ ، وراجع الشوكاني : فتح القدير ١٠٦/٢

قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)[١] ، ولذلك أمر الرسول ﷺ العباس أن يستعرض الجيش أمام عيني أبي سفيان حتى تكون هذه العبرة أول مثبت لدينه ومؤكد لعقيدته "[٢] ..

إن هذا المدخل ضروري لفهم ما ورد لدى المؤرخين من روايات وشبهات ــ إن صحت ــ تشكك في صدق إسلام أبي سفيان.. مثل ما رواه ابن سعد من أن أبا سفيان لما رأى الناس يطئون عقب رسول الله ﷺ حسده ، وقال في نفسه : لو عاودت الجمع لهذا الرجل ، فضرب رسول الله ﷺ في صدره ثم قال : إذن يخزيك الله ، فقال أبو سفيان : استغفر الله وأتوب إليه ، والله ما تفوهت به ، ما هو إلا شيء حدثت به نفسي[٣] ، وروى عن طريق عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : قال أبو سفيان في نفسه : ما أدرى بما يغلبنا محمد ، فضرب (رسول الله) في ظهره وقال : بالله نغلبك ، فقال: أشهد أنك رسول الله[٤] ..

ولقد كان ذلك في الفترة التي أعقبت إسلامه – فيما يبدو – والمسلمون يطئون عقب نبيهم ﷺ في طريقهم إلى فتح مكة[٥] ، وقت أن كانت هذه العوامل النفسية تضطرم في داخله ولا تجد ما يطمئنها، فكان في حاجة إلى مثل هذه الآيات من معرفة الرسول لما يدور في خاطره قبل أن ينطق به لسانه ، أو يطلع عليه أحد ، لتسكن نفسه ، وتحس براحة اليقين[٦] ..

ولقد أثمرت هذه المعالجة النبوية سريعا فقد روى ابن هشام أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن ، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا؛ فيسمع منه ما يغيظ ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : قد علمت الذي قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك[٧] ..

---

[١] سورة الحجرات آية(14)

[٢] د.البوطي :فقه السيرة 286ــ 287،وراجع أيضا قصة إسلام ثقيف حيث طلبوا من الرسول ــ وقد جاءوا ليسلموا ــ أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين ،كما سألوه أن يعفيهم من الصلاة ،ولكن النبي ﷺ رفض هذا وذاك ،ورغم هذا فقد حسن إسلامهم فيما بعد ،وثبتوا عليه حين ارتدت العرب أيام أبي بكر (السابق 242/3)

[٣] ابن حجر :الإصابة في تمييز الصحابة القسم الثالث 413

[٤] السابق 414/3

[٥] راجع: محب الدين الخطيب : هامش المنتقى ص 255

[٦] السابق والصفحة

[٧] ابن هشام السابق 23/4 ، الواقدي المغازي 846/2 ولكنه يذكر بدل عتاب أخاه خالد بن أسيد

موقف أبي سفيان يوم حنين :

على أن بعض المؤرخين يستمر في التشكيك في إسلام أبي سفيان فيروون أنه لما انهزم الناس عن رسول الله يوم حنين ــ وكان معه رجال من جفاة أهل مكة ــ تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لاتنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته ، وصرخ جبلة ــ أو كلدة ــ بن الحنبل ، وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية فقال:" ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان: اسكت ، فض الله فاك ؛ فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلى من أن يربني رجلٌ من هوازن.. وكان صفوان يومئذ مشركا في المدة التي جعلها له رسول الله ﷺ [١] ..

وإن دلائل عديدة تدفعنا إلى الشك في هذه الرواية :

فلم يكن يستطيع رجل أعلن إسلامه مثل أبي سفيان أن يستقسم بالأزلام في جيش من المسلمين تفور نفوسهم بالعقيدة والإيمان ، حتى يروه يفعل ذلك ويرووا ذلك عنه ، ورجل في ذكاء أبي سفيان وشرفه في قومه لا يعرض نفسه لموضع من مواضع التهم مثل ذلك الموضع [٢] ..

ولم يكن أبو سفيان أقل إخلاصا لقبيلته وذوي رحمه من صفوان بن أمية الذي قال : " لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن "، ولقد كان أبو سفيان مهددا حين هزيمة المسلمين ــ إن نجا من القتل أو الأسر ــ بأن يعيش ذليلا بعد أن كان سيدا كريما ، يعيش في حماية صهره ﷺ ، أما احتمال أن تراعي ثقيف ــ في حال نصرها ــ مكانته فإن تخوف صفوان من الذل تحت سيادة ثقيف يمنع افتراض ذلك ، وكان العربي دائما يأنف من سيطرة قبيلة أخرى غير قبيلته عليه ، ثم إنه مما يدعو إلى رفض هذه الرواية ــ بعد كل ذلك ــ أن رسول الله ﷺ قد أرسل أبا سفيان مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات ــ صنم ثقيف ــ بعد غزوة حنين بفترة وجيزة [٣] ، وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك ، وكانوا يحلفون بها ، ومن يمكنه تحطيم الأصنام لا يعز عليه ترك الاستقسام بالأزلام ، ورسول الله ﷺ لا يمكن أن يأتمن رجلا مشركا يستقسم بالأزلام على تحطيم صنم عزيز على قومه..

وأخيرا لعل مما يؤكد كذب هذه الرواية وأمثالها أن أبا سفيان شارك بجد في حصار الطائف حتى فقد إحدى عينيه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : هذه عيني أصيبت في سبيل الله ، فقال النبي ﷺ إن

---

[١] ابن هشام : السابق 49/4 ، الطبري : السابق 74/3 –75 وهي رواية ابن إسحاق أيضا ، الواقدي : السابق 895/2 –910

[٢] أنف أبو سفيان وهو مشرك من أن يعهد عليه أحد من قومه الكذب في شهادته أمام هرقل عن رسول الله ﷺ (الطبري : السابق 647/2) .

[٣] كان إسلام ثقيف في رمضان سنة 9 هـ..راجع ابن هشام : السابق 127/4، 130– 131 ، الواقدي المغازي 968/3 –972

شئت دعوت فردت عليك ، وإن شئت فالجنة ـــ أي صبرت فنلت بذلك الجنة ـــ فقال : الجنـــة " [١]،
وهذه عدة وعدها لها النبي ﷺ في أكمل العبادات وهي الجهاد"[٢].

لقد أسلم أبو سفيان إذن بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلا بينه وبين الإســـلام ،
وقد راعى الرسول ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبي سفيان ونفوس علية القـــوم مـــن
قريش بعد الفتح ، فقد جعل من دخل دار أبي سفيان آمنا ، كما أعطاه من غنائم الفتح مع غيره ممـن
سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم ، حتى قال أبو سفيان:"والله إنك كريم، فداك أبي وأمي، والله لقد حـاربتك
، فنعم المحارب كنت ، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيرا " [٣] ..

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية ، فكانت نفسه تنازعه أن يفعل مـــا
يكسبه حمدا يذهب بمذمة ما سبق ، فيروى ابن كثير أنه لما أسلم قال: يا رسول الله مرني حتى أقـــاتل
الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال ﷺ :نعم ، قال : ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال : نعم ،
ثم سأله أن يتزوج بابنته عزة بنت أبي سفيان، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة ، فبين له النبي ﷺ
أن ذلك لا يحل له [٤] ، إذ لا يجوز في الإسلام الجمع بين الأختين ..

٧-إسلام هند بنت عتبة :

لما أقبل أبو سفيان منحدرا إلى أهل مكة يخبرهم بقدوم جيوش الفتح ، ويطلب منهم المسـالمة
وكف الأيدي ثارت في وجهه امرأته هند بنت عتبة ، وأخذت بشاربه وهي تصرخ فيمن حولـــه :"
اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قبح من طليعة قوم" [٥] ، وهي ثورة متوقعة من امرأة مثل هند ضحت
في الحروب ضد الإسلام بابنها حنظلة وأبيها عتبة بن ربيعة وأخيها الوليد بن عتبة وعمها شيبة الذيـن
قتلوا جميعا يوم بدر، ثم ارتكبت حماقتها الكبرى يوم أحد لما مثلت بجسد حمزة عم النبي ﷺ ، وهـــي
الآن تتوقع الانتقام والمحاسبة على ما قدمت يداها ..

---

[١] ابن حجر : الإصابة 414/3

[٢] محب الدين الخطيب : المنتقى هامش ص254

[٣] ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب 714/2 ، الواقدي : المغازي 945/3

[٤] البداية والنهاية 21/8

[٥] ابن هشام : السابق 15/4 –16 ، الطبري : السابق 54/3 ، ابن عبد البر الدرر 217 والحميت:الـــزق ؛نسـبة إلى الضخم والسمن، والأحمس الذي لا خير فيه (لسان العرب مادة ح م ت ، ح م س ، ١/ ٩٨٦ ، ٩٩٤)

وقد كانت هند محقة في مخاوفها ، فقد كانت ممن أهدر رسول الله ﷺ دمهم يوم الفتح لما آمن بقية أهل مكة [١]؛ حتى لقد جاءت ضمن نساء من قريش لتسلم متنكرة منتقبة كي لا يعرفها رسول الله ﷺ قبل أن تسلم، ورغم ذلك فقد عرفها النبي ﷺ فقال لها في بعض حديثه أثناء البيعة لهن: " إنك لهند بنت عتبة !، قالت أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ؛ عفا الله عنك " [٢] ..

وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير انه لما بايعت هند تكلمت فقالت : يا رسول الله ؛ الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه ، لتنفعني رحمك يا محمد ، إنني امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة برسوله ، ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ : مرحبا بك ، فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يعزوا من خبائك ، فقال ﷺ : وزيادة " [٣] ؛ أي : وأنا أيضا كذلك وزيادة ، كما يفسر البخاري في روايته حيث ورد على لسان النبي ﷺ قوله : " وأيضا والذي نفسي بيده" [٤]، ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى بيتها فجعلت تكسر صنما كان عندها حتى فلذته فلذة فلذة وهي تقول : " كنا منك في غرور" [٥] .

٨-حول اتهام بني أمية بأنهم من الطلقاء !!

لما فتح رسول الله ﷺ مكة وقف على باب الكعبة فخطب في المسلمين ثم قال: يا معشر قريش ويا أهل مكة ؛ ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا:خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال النبي ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء " فأعتقهم رسول الله ﷺ ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئا ، فبذلك يسمى أهل مكة (الذين أسلموا بعد الفتح) الطلقاء" [٦] ..

وسوف يصبح هذا الوصف " الطلقاء " سبة يطلقها بعض خصوم بني أمية عليهم [٧] ، ويهمنا هنا أن نشير إلى عدة نقاط :

---

[١] لم يذكر ابن هشام اسم هند ضمن من ذكرهم ممن أهدر النبي دمهم (السيرة النبوية 20/4 –21) ، وذكر الطبري اسم هند فيهم (السابق 58/3 –60) في روايته عن الواقدي ، وانظر الواقدي : المغازي 825/2 ، ابن حجر : فتح الباري 11/8 –12

[٢] الطبري : السابق 61 –62 حيث النص الكامل لبيعتها ، المباركفوري : الرحيق المختوم 460

[٣] ابن سعد : الطبقات الكبرى 172/8

[٤] البخاري : الصحيح حديث رقم 3825 ، ابن حجر فتح الباري 175/7

[٥] ابن سعد 172/8 ، الواقدي : المغازي 871/2 ، المباركفوري : السابق 460

[٦] الطبري : السابق 61/3

[٧] السابق 8/5 ، المسعودي · مروج الذهب ٥٠/٣ ، الإمامة والسياسة ٩٩،٩٣/١

1- إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة ، لما تفجرت الأحقاد ضد بني أمية أواخر عهد عثمان ﷺ وبعد بروز نجم معاوية بن أبي سفيان وصراعه ضد علي بن أبي طالب ﷺ ، حيث أصبح ذلك الوصف يعني عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان ، دخلوا الإسلام رغبة في غنائمه ، أو رهبة من القتل ، ليكيدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم .

2- أن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة ، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه بمر الظهران خارجها ، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح .. أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضا؛ غير أنه كان يخفي إسلامه ــ شأن بعض الناس آنذاك ــ لمكانته من أبيه الذي كان يقود القتال ضد المسلمين ، فقد روى أنه أسلم سرا يوم عمرة القضاء ، أو عام الحديبية [1]، وإنما وضعهم المؤرخون في زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبي سفيان من الفتح ، ولأنه كان زعيم مكة الذي ارتبط إسلامه بإسلامها ، كما أن معاوية كان إسلامه سرا لم يشع ، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة..

3- إن وصف الطلقاء لا يقتضي الذم ؛ " فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبي ﷺ ، وكانوا نحوا من ألفي رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ويزيد بن أبي سفيان وحكيم بن حزام وأبي سفيان بن الحارث ــ ابن عم النبي ﷺ الذي كان يهجوه ثم حسن إسلامه ــ وعتاب بن أسيد الذي ولاه النبي مكة لما فتحها ، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم [2]..

4- إن النظرة الإسلامية في هذا الشأن أن الإسلام يجب ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ، ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى ، وينزل الناس منازلهم ، وأن خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا ،" ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبي ﷺ فأرسل عمرا أميرا على غزوة ذات السلاسل ، وسمى خالدا سيف الله " [3] .. هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظمى للسابقين الصادقين في الإسلام (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ؛ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى) [4] ، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بني أمية وغيرهم ، كما كان من الطلقاء بعض بني أمية وغيرهم ..

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية 21/8 ،ابن الجوزى :تلقيح فهوم أهل الاثر156 ،مصعب الزبيري نسب قريش 124

[2] ابن تيمية : منهاج السنة النبوية 202/2 ، مجموعة فتاوى ابن تيمية 64/35

[3] د.الريس : عبد الملك بن مروان ص 92

[4] سورة الحديد من الآية 10

٩- بنو أمية بعد الفتح وولاة الرسول :

بعد فتح مكة التام شمل بني أمية وعبد شمس تحت راية الإسلام ، ودخلت القبائل العربية فيه ، فانتقل الدين إلى مرحلة جديدة من مصارعة القوى الكبرى المحيطة به ، فظهرت مكانة بني أمية وعبد شمس عند ذاك أكثر مما كانت من قبل ، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول:"ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبي ﷺ في عزة الإسلام على أفضل الأرض ــ مكة ــ عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ، واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية ، واستعمل أيضا خالد ابن سعيد بن العاص على صدقات بنى مذحج، وعلى صنعاء واليمن، فلم يزل حتى مات رسول الله ﷺ، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر وقرى عرينة ، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا ، ثم استعمله على البحرين، فلم يزل عليها بعد العلاء بن الحضرمي حتى توفى النبي ﷺ ، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط حتى أنزل الله فيه (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) [١] .. وقيل إنه ﷺ إنما استعمل أبا سفيان على صدقات خولان وبجيلة ، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على نجران [٢] ، كما أنه عليه السلام ولى بعض الأمويين كتابة الوحي بين يديه ، فكان يكتب له منهم معاوية بن أبي سفيان وخالد ابن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد [٣] ...

١٠- مكانة معاوية بن أبي سفيان في حياة الرسول :

عمل معاوية كاتبا للوحي بين يدي النبي ﷺ فأتاح ذلك له لونا من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاته عليه السلام .. مما يستتبع بالضرورة التأثر بشخص الرسول الكريم، والأخذ المباشر منه ، حتى لقد روى معاوية ﷺ عن رسول الله ﷺ مائة وثلاثة وستين حديثا ، وتلقف ــ فيما بعد ــ عنه عدد من الصحابة رواية الحديث عن رسول الله ﷺ منهم : ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو الدرداء وجرير بن عبد الله البجلي والنعمان بن

---

[١] منهاج السنة النبوية 175/3 –176 ،والآية الكريمة من سورة الحجرات رقم 6 ويذهب ابن العربي القاضي إلى أن الوليد بن عقبة ليس هو المقصود بالفسوق في هذه الآية (راجع العواصم من القواصم ص 102ــ 105) ، وبينما يقول ابن تيمية ذلك عن بني أمية فانه يقول على سبيل المقارنة مع بنى هاشم:"وأما بنو هاشم فلم يستعمل النبي ﷺ منهم إلا على بن أبي طالب على اليمن، وولاها أيضا معاذا وأبا موسى، وولى جعفر بن أبي طالب قتال مؤتة؛ وولى قبله زيد بن حارثة مولاه وقيل ابن أبي رواحة ، وقد روي أن العباس سأله ولاية فلم يوله إياها (منهاج السنة ص176)

[٢] البلاذري : أنساب الأشراف 530/1

[٣] ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ص 80

بشير وغيرهم، كما أخذ عنه من التابعين سعيد بن المسيب وحميد بن عبد الرحمن وغيرهم [١] ويروى أن رسول الله ﷺ بعثه مع وائل بن حجر اليمني القحطاني إلى قومه ليعلمهم القرآن والإسلام [٢] ؛ كما يروى أن النبي ﷺ قد أشاد به أو دعا له في بعض الأحاديث ، ومن الطبيعي أن تكون بعض هذه الأحاديث ضعيفة وبعضها موضوع في عصور الفتن ؛ لما كان كل فريق يمجد صاحبه بشق الطرق ، ولكن الحافظ ابن عساكر يذكر أن أصح ما روى في فضل معاوية حديث أبي جمرة عن ابن عباس أنه كان كاتب النبي ﷺ منذ أسلم ، أخرجه مسلم في صحيحه [٣] ، وبعده حديث العرباض بن سارية : اللهم علم معاوية الكتاب ، وبعده حديث ابن أبي عميرة : اللهم اجعله هاديا مهديا [٤] ، روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال له : يا معاوية إذا وليت أمرا فاتق الله واعدل ، قال معاوية : فما زلت أظن أني سأبتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت ، تفرد به أحمد " [٥] ، ويعدد الشيخ محب الدين الخطيب طرق رواية حديث " اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب "، ثم يقول : " ورواة هذا الدعاء النبوي لمعاوية من الصحابة أكثر من أن يحصوا ، وفى بعض رواياته : " وأدخله الجنة " [٦] ..

---

[١] السيوطى: تاريخ الخلفاء ص 194

[٢] ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص 2 وانظر ابن عبد البر:الاستيعاب ترجمة وائل ابن حجر رقم ٢٧٣٦ص ١٥٦٢-١٥٦٣

[٣] مسلم:صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي سفيان بن حرب حديث رقم ٢٥٠١

[٤] ابن عساكر:تاريخ دمشق ٦٩٧/١٦ (مخطوط)

[٥] ابن كثير . البداية والنهاية 122/8 -123 وانظر ابن حنبل المسند ١٠١/٤

[٦] العواصم من القواصم 213ـــ214

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المبحث الثاني

الأمويون في خلافة أبي بكر وعمر

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفا عصيبة ، فمن حولهم كان الفرس والروم يتربصون، ومن داخل بلادهم كانت حركة الردة الشاملة عن الإسلام ؛ حتى إنه لم يحتفظ بإسلامه إلا أهل المثلث الحجازي مكة والمدينة والطائف [١] ، وأصبح المسلمون " كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ؛ لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم " [٢]. ولكن كان من صنع الله للمسلمين أن سارعوا ببيعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ [٣] ؛ الذي كان عليه مواجهة ذلك الخطر العظيم ، فقام به خير قيام، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة ، وبدأ حركة الفتوح في بلاد الفرس والروم

١- دور الأمويين في مواجهة المرتدين :

كان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموي على مكة عتاب بن أسيد "حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام" ؛ فواجههم عتاب في

---

[١] الطبري : السابق 242/3

[٢] السابق 225/3

[٣] يتحدث بعض المؤرخين عن وجود معارضة أموية لاستخلاف أبي بكر ﷺ ، ويخصون بالذكر هنا أبا سفيان بن حرب وخالد بن سعيد بن العاص حيث ينسبون إليهما تحريضا ضد أبي بكر وتفضيلا لاستخلاف أحد بني عبد مناف سادة قريش ؛ وهما هنا يفضلان علي بن أبي طالب ﷺ مما يدل على عمق الصلات بين بني هاشم وبني أمية (الطبري السابق 209/3 —210 ،387 —388) وبغض النظر عما تحتويه بعض هذه الروايات من تلميحات تخدش إيمان الرجلين أو تطعن في نياتهما مما نتوقعه دائما من خصوم الأمويين، فإن معارضة هذين الرجلين – لو صحت هذه الروايات المرسلة والمعلولة بالتشيع ، لم تكن بدعا أو أمرا غير متوقع ، فقد عارض استخلاف أبي بكر أول الأمر بعض المهاجرين – فيما يزعمون – مثل علي والزبير (الطبري · السابق 202/3—203) و بعض الأنصار مثل الحباب بن المنذر و سعد بن عبادة (السابق 220/3—223) وقد كانت هذه المعارضة و تلك أخطر مما ينسبونه إلى بعض الأمويين ، إلا أن كثافة الخطر المحدق بالإسلام و المسلمين آنذاك سرعان ما جمع الأمة كلها خلف أبي بكر لحماية وجودها و تحقيق سيادتها وعزتها ، وقد كان الأمويون ضمن طلائع المسلمين في ذلك الوقت سواء في حرب الردة أو في الفتوح كما سوف نرى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تهامة حتى ظفر بهم [١] ، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمائة رجل وأمر عليهم أخاه خالد بن أسـيد فاشتركوا في قتال المرتدين باليمن [٢] ؛ وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام [٣] .

وفي حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد الذي جعـل على قيادة المهاجرين في جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطـاب [٤] ، فقاتل أبو حذيفة قتالا مجيدا، ولما انكشف المسلمون في أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم : " يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال ، وقاتل حتى قتل ﷺ [٥] ، وحمل راية المهاجرين يومذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قتل أيضا [٦] ..

كما استشهد من حلفاء بني أمية عكاشة بن محصن الأسدي في قتال طليحة الأسـدي [٧]، وساهم العلاء بن الحضرمي حليفهم أيضا في إخماد الردة في البحرين ، ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة [٨].

٢- دور الأمويين في حركة الفتوح الكبرى :

كان من الطبيعي بعد انتهاء حروب الردة وعودة العرب إلى حظيرة الديـن وانصياعـهم للحكومة الراشدة الواحدة أن تطمح الأبصار إلى خارج الجزيرة العربية من جديد لتبدأ ما عـرف في التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتي فارس والروم .. وقد كان لبني أمية دور بـارز في هـذه الحروب مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامي وحيوية دورهم التاريخي في هذه الفترة .. غير أننا نشير في البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح :

الأولى : هي تعاظم دور مسلمة الفتح وطلقاء مكة في الفتوح — ومنهم بعض بني أمية — وقد كـان ذلك متوقعا لسببين ؛ الأول هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسـلام ثم عاد إليه في الفتح [٩] ، وقد كان هذا يعود إلى حرص الخليفة على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقـة

---

[١] الطبري : السابق 319/3

[٢] السابق 322/3 ، 329 –330

[٣] راجع السابق 330/3 – 342

[٤] السابق 281/3

[٥] السابق 291/3

[٦] السابق 219/3 – 292 وفيه يقول عمر بن الخطاب لما طلبوا منه أن يستخلف رجلا:" ..و لو كان سـالم مـولى أبي حذيفة حيا استخلفته ، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: إن سالما لشديد الحب الله" (الطبري : السابق 227/4)

[٧] السابق 254/3 و انظر 261

[٨] السابق 301/3 – 313

[٩] السابق 319/3،347

الدين أو شهوات هذه النفوس التي لم تخلص بعد للإسلام ؛ أو لم تبرهن على إخلاصها له .. والسبب الثاني يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاقم من خدمة قضية الإسلام وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم ، كما كانوا حريصين على تصحيح نظرة الارتياب التي كان ينظر بها بعض الصحابة إليهم لأنهم أمضوا حياقم في الصد عن سبيل الله ، ثم دخلوا في الإسلام لما لم يعد أمامهم خيار آخر غير الدخول فيه [١] ..

والسمة الظاهرة الثانية هي تركز نشاط الأمويين في الفتوح على جبهة الشام يشاركهم في ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عموما ، ويبدو أن ذلك كان أمرا مقصودا من الخلافة الحصيفة التي أدركت وجود صلات عميقة الجذور بين بني أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطي ، تلك الصلات التي تعمقت من خلال النشاط التجاري المتواصل بين مكة والشام في الجاهلية ، والذي كان بنو أمية أبرز قواده ورواده [٢] ...

أما عن مشاركة الأمويين في حروب الفتح ، فقد جاءت مبكرة ، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع خالد بن الوليد في فتوح العراق الأولى ، وشهد معه قتل هرمز، وأرسله خالد إلى أبي بكر بالغنائم وبشارة الفتح وأخبار عن جمع جديد للفرس [٣] ، ثم وجهه الخليفة مددا إلى عياض ابن غنم الذي كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال ، وكان يحاصر دومة الجندل فيجد العنت والمشقة في فتحها ، فأشار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد ، فاستمده ، فأنجده، وفتحوا معا دومة الجندل [٤] ، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صدقات قضاعة مما يلي دومة الجندل [٥] ، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد في سبيل الله ؛ ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذي ولاه إياه ، فأجابه بإيثار الجهاد ؛ فوجه به إلى الشام [٦] ، وكان أول لواء عقده أبو بكر في

---

[١] لما أصيب عكرمة بن أبي جهل و ابنه عمرو بن عكرمة في معركة اليرموك أتى بهما خالد بن الوليد فوضع رأسيهما على فخده و ساقه ؛ و جعل يمسح عن وجهيهما و يقطر في حلقيهما الماء وهو يقول:كلا، زعم ابن الحنتمة (يعني : عمر بن الخطاب) أنا لا نستشهد!! (الطبري : السابق 401/3)

[٢] من أشهر هذه الرحلات التجارية لأهل مكة التي كان يقودها بنو أمية تلك القافلة التي كانت سببا في غزوة بدر، وتلك التي أوقعت بها سرية زيد بن حارثة على القردة – ماء من مياه نجد – فهرب رجالها ومنهم أبو سفيان (ابن هشام : السابق 308/2 –309) وتلك الرحلة التي واكبت هدنة الحديبية والتقى فيها أبو سفيان مع هرقل فسأله الأخير عن رسول الله (ص) (الطبري : السابق 646/2 –648) وانظر عن دور الأمويين في نشاط مكة التجاري(د.العدوي . الأمويون والبيزنطيون ص 27 –28)

[٣] الطبري : السابق 351/3

[٤] السابق 377/3 –378

[٥] السابق 390/3

[٦] السابق 389/3 –390

حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموي ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أيضا [١] ..

أما جيش يزيد بن أبي سفيان فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشيا [٢] ، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح [٣] ، ولما اجتمع بعد ذلك أناس آخرون يرغبون في الجهاد وجه بهم أبو بكر إلى الشام ليلحقوا بجيش يزيد وجعل عليهم أميرا معاوية بن أبي سفيان [٤] ... وخرج أبو سفيان بن حرب — وهو يومئذ شيخ كبير [٥] — متطوعا مع ولديه يزيد ومعاوية ، وقد اصطحب معه زوجته هند بنت عتبة [٦] وابنته جويرية بنت أبي سفيان [٧] ..

كما اشترك في الجهاد في الشام أيضا خالد بن سعيد — وقد مر ذكره — وأبان بن سعيد وعمرو بن سعيد ، وقاتلوا جميعا هناك وقتلوا ، حتى قيل : ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص شهيدا [٨] ..

وقبيل معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمرا للحرب في الجولان .. ومر بهم أبو سفيان ابن حرب فقال : "ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم ، ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم — في منزلي — ولا يحضرونني ، فاشترك معهم في مشورتهم" ؛ فأفسحوا له ، فأسهم معهم في رسم خطة القتال [٩] ..

ولما أزفت ساعة الحرب في اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود ، فبينما كان الروم "يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان ، وينعون لهم النصرانية ، حتى استبصروا

---

[١] الطبري : السابق 387/3 ويروون أن سبب عزل خالد هو رغبة عمر بن الخطاب في ذلك حيث نقم عليه تأخره في مبايعة أبي بكر (السابق 387/3 –388)

[٢] الواقدي:فتوح الشام 3/1 –4 ، الطبري : السابق 390/3 ،405

[٣] الطبري : السابق 394/3

[٤] السابق 391/3

[٥] كان أبو سفيان أسن من النبي(ص) بعشر سنين(ابن حجر:الإصابة القسم الثالث ص 412) وقد توفى سنة 31 هـ وله من العمر ثمان وثمانون سنة (الطبري : السابق 292/4، البلاذري فتوح البلدان ص 141) ، ومعنى ذلك أنه حضر اليرموك سنة 13 هـ أو سنة 15 هـ وله من العمر أكثر من سبعين سنة ..

[٦] البلاذري : فتوح البلدان ص 141

[٧] الطبري : السابق 401/3

[٨] النزاع والتخاصم ص 46 ، وفى العبارة مبالغة دون شك، ولكنها تدل على عظيم تضحية القوم

[٩] الواقدي: فتوح الشام 99/1

فخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله [1].. كان المسلمون يتبادرون إلى لقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة [2] ، بل إنهم قد عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم في مهمة "القاص" وكان ذلك الرجل هو أبا سفيان بن حرب نفسه [3] ، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه في دينه ودعوته ، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أمينا على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية ، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيهم ذلك الأثر العظيم .. وقد كان اختيارا موفقا فعلا يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذي يضم في معظمه أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم؛ والذين احتفظوا بثقتهم القديمة في أبي سفيان ؛ زعيمهم الذي خبروه ..

وروى سيف بن عمر أن أبا سفيان كان يسير " فيقف على الكراديس [4] فيقول : الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل النصر على عبادك [5] ، وروى سعيد بن المسيب عن أبيه قال : فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقترب ، قال : فنظرت فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد [6] ..

وأصيبت عين أبي سفيان الثانية يومذاك [7] ، وكانت عينه الأخرى قد أصيبت في حصار الطائف ، ووعده الرسول ﷺ لقاءها الجنة [8] ؛ فأضر الرجل تحت رايات الجهاد .. كما قاتلت يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين: منهم هند بنت عتبة التي كانت ترتجز محرضة على القتال [9] ، كما قاتلت جويرية بنت أبي سفيان ، وأصيبت بعد قتال شديد [10] ..

---

[1] الطبري : السابق 395/3

[2] السابق 395/3، 397، 398، 401

[3] السابق 397/3

[4] الكراديس:جمع كردوس:القطعة العظيمة من الخيل، أو الكتيبة من الجند (لسان العرب مادة كردس ٥/٣٨٥٠)

[5] الطبري : السابق 397/3 ،الواقدي : فتوح الشام 126/1

[6] ابن حجر: الإصابة القسم الثالث 414 ، الواقدي فتوح الشام 133/1

[7] الواقدي السابق 135/1 ،ابن حجر السابق والصفحة ، الطبري : السابق 401/3

[8] ابن حجر السابق والصفحة ، البلاذري فتوح البلدان 141

٤ كانت ترتجز رجزها يوم أحد في صفوف المشركين، وكأنها بذلك تريد أن تمحو السيئ بالحسن، فكانت تقول :

نحن بنات طارق   نمشي على النمارق ..الخ

(راجع الواقدي فتوح الشام128/1)

[10] الطبري : السابق 401/3

محاولات تشويه أيضا :

ورغم ذلك لم تمر هذه اللوحة الوضيئة من صور الجهاد الأموي دون أن تصيبها محاولات التحريف والتشويه ، فقد روى ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبد الله بن الزبير قوله : كنت مع أبي ـــ الزبير ـــ عام اليرموك ، فلما تعبى المسلمون للقتال لبس الزبير لأمته ، ثم جلس على فرسه ، ثم قال لموليين له : احبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرحل ؛ فإنه غلام صغير، ثم توجه فدخل في الناس ، فلما اقتتل الناس والروم نظرت إلى ناس وقوف على تل ، لا يقاتلون مع الناس ، فأخذت فرسا للزبير كان خلفه في الرحل ، فركبته ، ثم ذهبت إلى أولئك الناس فوقفت معهم ، فقلت : أنظر ما يصنع الناس ، فإذا أبو سفيان بن حرب في مشيخة من مهاجرة الفتح وقوفا لا يقاتلون ؛ فلما رأوني رأوا غلاما حدثا ؛ فلم يتقوني ، فجعلوا – والله – إذا مال المسلمون وركبتهم الحرب للروم يقولون : إيه إيه بلأصفر، فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا : يا ويح بلأصفر، فجعلت أعجب من قولهم ، فلما هزم الله الروم ، ورجع الزبير، جعلت أحدثه خبرهم ، فجعل يضحك ويقول: قاتلهم الله ، أبوا إلا ضغنا، وماذا لهم إن يظهر علينا الروم ؟ لنحن خير لهم منهم" [1].

وهذه الرواية تفوح منها رائحة الوضع والاختلاق ؛ ويبدو أن بعض الكذابين قد استغل الخلاف الذي نشب فيما بعد بين ابن الزبير وبني أمية في الزج باسمه في هذه الرواية وإدارة القصة عليه ! فان ابن إسحاق – راوي الخبر – يجعل وقعة اليرموك سنة 15 هـ في خلافة عمر.مثله في ذلك مثل الواقدي ، أما المدائني وسيف بن عمر فيجعلانها سنة 13 هـ في آخر خلافة أبي بكر [2] ، وقد ولد عبد الله بن الزبير عام الهجرة فله إذن من العمر يوم اليرموك خمس عشرة سنة حسب رواية الواقدي وابن إسحاق ، أو ثلاث عشرة حسب رواية الآخرين ، ومن كان في هذه السن في جزيرة العرب كان لا يعد غلاما حدثا ، بل كان يشترك أحيانا في القتال [3] ، وفي هذه المعركة التي قلت فيها أعداد المسلمين عن عدوهم حتى شاركت النساء في القتال كان الأولى بالزبير ـــ والمتوقع منه ـــ أن يشرك ابنه في القتال ، لا أن يعطل به رجلين من المسلمين من مواليه ليحرساه .. ومن كان في هذه السن كيف لا يتحرز منه شيوخ قريش ـــ ومنهم أبو سفيان ـــ أن يظهروا أمامه نفاقا ، وأقل ما هنالك أن يفهم منهم قولهم ، وأن ينقله إلى الآخرين فتسقط أقدارهم في قومهم ! ؛ ثم كيف يتمنى

---

[1] الطبري : السابق 571/3 –572 ، ابن حجر : الإصابة 414/3 وقد ضعف هذه الرواية ، الأصفهاني : الأغاني 333/6 –334 ، المقريزي : النزاع والتخاصم 29 –30

[2] الطبري : السابق 570/3 ـــ572 ،441

[3] أجاز رسول الله ﷺ سمرة بن جندب ورافع بن حديج وهما ابنا خمس عشرة سنة يوم أحد ،كما أجاز أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وعمرو بن حزم وأسد بن ظهير، وكان لهم من العمر خمس عشرة سنة ، يوم الخندق (ابن هشام السابق 8/3 ، الواقدي · المغازي 216/1)

أبو سفيان وشيوخ قريش نصر الروم على المسلمين وقادة الجيش المسلم في هذه المعركة من أولادهم ، بل فيهم ابنا أبي سفيان يزيد ومعاوية ، وكيف يصطحب من يتمنى نصر العدو معه زوجته وابنته ، ليكون العار عليه لو انتصر الأعداء فسبوه وسبوهن أو قتلوهم جميعا ..

وفى عهد عمر بن الخطاب :

استمر عطاء بني أمية في خدمة الإسلام ؛ وكان عمر يتعهد الصالحين منهم [١]، وقد استعمل منهم عددا ، منهم عتبة بن أبي سفيان على كنانة [٢] ، والوليد بن عقبة على الجزيرة [٣] ، غير أن عهده شهد علو نجم معاوية بن أبي سفيان ؛ وقد كان على عهد أبي بكر أحد قادة جيش أخيه يزيد الذي أصبح عاملا على دمشق بعد فتحها [٤] ، وفى بواكير خلافة عمر كان لمعاوية بلاء حسن وأثر جميل في فتح سواحل الأردن مع أخيه يزيد وعمرو بن العاص [٥] ، وكتب عمر أيضا إلى يزيد يأمره بغزو قيسارية على ساحل بحر الروم ، وقد استعصت من قبل على عمرو بن العاص فسار إليها يزيد ـ ومعه معاوية ـ وحاصرها ، ولكنه ما لبث أن مرض أواخر سنة 18 هـ فمضى إلى دمشق واستخلف عليها أخاه معاوية [٦] ، ولكن المدينة الحصينة استمرت على عنادها ، وظل معاوية يصر على فتحها ويشدد عليها الحصار نحوا من سبع سنين [٧] حتى فتحها بعد أن هزم أهلها هزيمة مروعة [٨]، وكان معاوية أحد الشهود على صلح عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس بعد فتحها سنة 15 هـ[٩].

وكان طاعون عمواس بلاء حصد كثيرا من المسلمين بالشام وبعض خيرة قوادهم هنلك ، فأصيب فيه أبو عبيدة بن الجراح أمير حمص والقائد العام لجيوش الشام ويزيد ين أبي سفيان أمير دمشق [١٠] ، فلما انتهى إلى عمر ذلك أمر معاوية على جند دمشق وخراجها، وشرحبيل بن حسنة

---

[١] راجع الطبري : السابق 278/4 ، ابن الأثير الكامل في التاريخ 53/3 عن موقفه مع سعيد بن العاص ، وانظر : الطبري : السابق 221/4 ، ابن الأثير: السابق 33/3 عن موقفه مع هند وأبي سفيان ومساعدته لهما في التجارة ..

[٢] الطبري : السابق 220/4

[٣] السابق 54/4 –56

[٤] السابق 394/3

[٥] البلاذري : فتوح البلدان 124

[٦] السابق 146

[٧] السابق 147

[٨] الطبري : السابق 604/3

[٩] السابق 609/3

[١٠] السابق 60/4

على جند الأردن وخراجها [١] ، وأرسل عمر إلى أبي سفيان فلما قدم عليه عزاه في ولده يزيد، فسأله عمن ولى بدله ، فقال : أخوه معاوية ، فقال أبو سفيان : وصلتك يا أمير المؤمنين رحم [٢] ، ثم إنه لما زار عمر الشام بعد طاعون عمواس عزل شرحبيل بن حسنة عن الأردن واستعمل معاوية ، فقال له شرحبيل : أعن سخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لا، وإنك لكما أحب ، ولكنني أريد رجلا هو أقوى من رجل ، قال: نعم، فأعذرني في الناس؛ لاتدركني هجنة ، فقام في الناس فقال: أيها الناس، إني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة ، ولكنني أريد رجلا هو أقوى من رجل [٣] ..

وكان عمير بن سعد الأنصاري عاملا لعمر على حمص ، فعزله، وولاها معاوية ، وكان عمير صالحا خيرا زاهدا ، فتكلم في ذلك الناس ، فقال عمير: لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم اهد به " [٤] ..

ولما ذكر معاوية مرة أخرى عند عمر، وكأنهم يستكثرون أن يلي كل ما أصبح يليه ، وينال ثقة الخليفة الذي عزله أمثال خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من كبار الرجال ، لما ذكر عنده معاوية قال: دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لمن يضحك في الغضب ، ولا ينال منه إلا على الرضا ، ولا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه " [٥] ، ومهما يكن في هذه الروايات وغيرها من مبالغة ، فإن ثقة عمر في معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك ..

٣-جهود بارزة لمعاوية على جبهة الشام :

لما تولى معاوية أمر الشام ، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر، أصبحت مهمة حماية الحدود الشمالية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطة بهذا الوالي الأموي النشط ؛ وقد كانت له في هذا المجال اليد البيضاء ، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية هنا في أمرين هما : سن نظام الصوائف والشواتي [٦] ، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام ..

---

[١] السابق 62/4

[٢] البلاذري فتوح البلدان 146

[٣] الطبري : السابق 64/4 –65

[٤] رواه الترمذي وقال حديث غريب(باب مناقب معاوية حديث رقم 3932)، وقال ابن كثير:له ما يشهد له ، أي ما يشهد بصحته (البداية والنهاية 122/8) وقيل إن عمير بن سعد طعن في عصر عثمان فاستعفى من الولاية فأذن له وضم حمص وقنسرين إلى معاوية وكانتا ولاية عمير، كما أنه ضم إلى معاوية فلسطين بعد وفاة عاملها عبد الرحمن بن علقمة الكناني فجمعت بذلك الشام لمعاوية (الطبري : السابق 289/4 –290)

[٥] ابن كثير السابق 124/8

[٦] الصوائف هي: القوات الكبيرة التي تنتظم في جيش واجبه غزو بلاد الروم في الصيف، وكانت الصائفة تقوم بالغزو إذا دخل الخريف، وطاب الهواء، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوالهم وأحوال خيولهم ، وقسوى

- سن نظام الصوائف والشواتي :

لقد أصيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريرة متتالية فقدوا على أثرها الشام ومصر، بكل ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية ، غير أنهم لم يسلموا بهذه الهزائم ، بل استمرت هجماتهم على الشام من خلال الدروب الجبلية التي تفصلهم عن باقي أجزاء إمبراطورية الروم ، مما جعل عمر بن الخطاب يقول في جولته بالشام سنة 17 هـ : " والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم ، لنا ما دونه ، وللروم ما وراءه "[1] ، وفى رحلته هذه إلى الشام سمى عمر الصوائف والشواتي ، وسد فروج الشام ومسالحها[2] .

ومن المحتمل أن يكون هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية ؛ هو اعتماد ذلك كتدبير وقائي لحماية بلاد الروم وردع المسلمين ، لكن استجابة معاوية كانت فوق التحدي ، فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين ، وكان لابد لمعاوية ــ من أجل تحقيق ذلك الهدف ــ من تطوير وسائط الدفاع ، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقى الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة[3] .

وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة 22 هـ حيث دخل بها بلاد الروم في عشرة آلاف[4] ، وصائفة سنة 23 هـ حيث أوغل حتى بلغ عمورية ؛ ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصاري وأبو ذر الغفاري وشداد بن أوس[5]

وسمن الظهر الحامل للناس، فيجتمع المجاهدون للدخول في الصائفة إلى أرض العدو، ثم يغزون لعشر تخلو من يوليو فيقيمون فيها إلى وقت قفولهم منها ستين يوما أو أكثر ، أما الشواتي ؛ ومفردها شاتية : فهي القوات الكبيرة التي تنتظم في جيش مهمته غزو بلاد الروم في الشتاء – ما بين أوائل شهر مارس حتى نهايته ، وتكون واجبات الشاتية أقل عمقا، وأكثر قربا من الحدود الإسلامية ؛ للإفادة من فترة ضعف العدو، وعدم استعداده، في توجيه ضربة قاسية ثم الانسحاب(ابن حرداذبة: نبذ الخراج ص،259 ، بسام العسلي :معاوية بن أبي سفيان هامش ص 63 –64)

[1] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي 133/2 ، والدروب هي المحاور التي تخترق سلسلة الجبال الفاصلة بين بلاد الشام ودولة الروم "جبال الأمانوس"،وأشهر هذه الدروب محور أنطاكية – المصيصة – إقليم آيدن – القسطنطينية ومحور الجزيرة مرعش – طوانة – عمورية – القسطنطينية ، بسام العسلي : معاوية بن أبي سفيان هامش ص٦٤

[2] الطبري : السابق 62/4

[3] بسام العسلي :السابق ص 65 ، والثغور هي المدن والعواصم المجاورة لحدود الإمبراطورية البيزنطية وكانت هذه المدن والعواصم هي مراكز الحشد لجيوش المسلمين قبل انطلاقهم لأعمال الصوائف والشواتي، ومن هذه الثغور. قنسرين وأنطاكية ، وهارون الرشيد هو أول من أطلق على الثغور اسم العواصم، وكانت فيها جماعات دائمة تقيم الدفاع عنها، راجع هامش المرجع السابق 65

[4] الطبري : السابق 160/4

[5] السابق 241/4

ـ تكوين أسطول إسلامي والجهاد في البحر :

ويعود الفضل إلى معاوية في هذه المرحلة المبكرة إلى فتح باب الجهاد في البحر الذي أصبح ضروريا لحماية الشام ومصر، ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي ، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين، وإمداداته للثائرين بهما ، "وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتي أن تضع حدا للتهديدات البرية ، لكن المدن الساحلية ؛ بداية من أنطاكية ونهاية بالإسكندرية ، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية ، وأدرك معاوية أيضا أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح في أفريقيا ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين" [١] ..

وروى سيف بن عمر أن معاوية ألح على عمر بن الخطاب ﷺ في غزو البحر ، وقال: يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم ، وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص ، فاتهمه عمر لأنه المشير، فكتب إلى عمرو بن العاص ـ عامله في مصر ـ أن صف لي البحر، ثم اكتب إلي بخبره ، فكتب إليه : يا أمير المؤمنين إني رأيت خلقا عظيما يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء ؛ وإنما هم كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق .. فكتب عمر إلى معاوية: كيف أحمل الجنود على هذا البحر الكافر المستصعب ، وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم ، فإياك أن تعرض لي ، وقد تقدمت إليك..." [٢] ، فانتهى معاوية عما كان صرح به ، ولكن الفكرة ظلت تملأ عقله ، ويراها أمرا لابد منه ، حتى إذا مات عمر وولى عثمان استأذنه في غزو البحر فأذن له بعد لأي [٣] ، فذهب معاوية بفخرها حتى لقبه بعضهم بأبي البحرية الإسلامية [٤] ..

٤- معاوية ومظاهر الملك في عهد عمر بن الخطاب :

كان معاوية الذي تربى في بيت السيادة والشرف في الجاهلية تدفع به عوامل البيئة والتربية إلى استشراف المكانة الأسمى ، فمنذ صباه نظر إليه أبوه وقال : إن ابني هذا لعظيم الرأس ، وإنه لخليق أن يسود قومه ، فقالت أمه على الفور مستنكرة : " قومه فقط ؟؟ ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة " [٥] ..

---

[١] بسام العسلي : معاوية بن أبي سفيان ص 40 وربما لا يصدق الحديث عن ضمانات فتح أفريقية هنا عن عهد عمر بل عن عهد عثمان بن عفان (ض) لما انطلق عبد الله بن سعد ، لتحقيق شيء من هذا..

[٢] الطبري : السابق 259/4

[٣] البلاذري : فتوح البلدان 134 -135 ، الطبري : السابق 260/4

[٤] بسام العسلي : معاوية بن أبي سفيان ص 405

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية 118/8 وتوجد مبالغات كثيرة وتنبؤات عن سيادة معاوية منذ صغره، بل قبل ولادته راجع السابق 116/8، 117

وكان أبواه اللذان خسرا المكانة البارزة بين المسلمين لتأخر إسلامهما يدفعان بابنهما إلى إحراز مـــا فاتهما ، مدركين جدارته ، ومؤهلاته للريادة والصدارة.. فلما أن ولاه عمر بعض أمره قالت له هنـد ناصحة : والله يا بني قل أن تلد حرة مثلك ، وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر، فـاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت .. وقال له أبوه: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنـا ، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ، وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وســادة، وصرنـا أتباعا، وقد ولوك جسيما من أمورهم ، فلا تخالفهم ، فإنك تجرى إلى أمد فنافس ، فإن بلغته أورثتـه عقبك " [1] ..

وكانت شخصيته المتميزة تظهر حتى في أيام عمر، وبين كبار الصحابة الفاتحين في الشـام ، ويبدو مسلكه المتفرد في المظهر والإدارة ، رغم إدراكه إمكان إنكار عمر وتغيره عليه ...

فلما خرج عمر إلى الشام تلقاه أمراؤه وفيهم معاوية قد خرج في موكب عظيـم ، ثم راح إليـه في موكب آخر، فقال له عمر: يا معاوية ، تروح في موكب وتغدو في مثله ، وبلغني أنـك تصبـح في منزلك وذوو الحاجات ببابك ! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن العدو بها قريـب منـا، ولهـم عيـون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزا، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيـب ، أو خدعة رجل أريب ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين؛ مرني بما شئت أصر إليه ، قال: ويحـك! مـا ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدرى آمرك أم أنهاك ، فقال رجل: يا أمير المؤمنين مـا أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه " [2] .

فبرهن الخليفة والوالي بذلك على فهم عميق لضرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع ، وأثر ذلـك كله على التطوير السياسي لأدوات الحكم ، ومهما يكن من أمر فقد عظمت مكانة معاويـة عنـد عمرﷺ ؛ فولاه أهم أقاليم دولته ، وزاد في ولايته ، ولم يعزله ، على كثرة من كان يعزل من عمالـه وأمرائه ، وكان معجبا بذكائه وإدارته ولا يكتم ذلك الإعجاب حتى قال يوما لجلسائه : " تذكـرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية " ؟! [3] ..

---

[1] ابن كثير : السابق 118/8 ، البلاذري :أنساب الأشراف 9/1 وربما كان الحديث عن توريث السيادة هنا لا يعـني توريث الحكم ؛ فقد كان ذلك يبدو أمرا مستبعدا في ذلك الوقت من خلافة عمر بن الخطاب، فيجب أن يحمل ذلـك على ما يرثه الابن من شرف أبيه وعزه ومكانته ..

[2] الطبري : السابق 331/5 ، ابن كثير : السابق 124/8 – 125

[3] الطبري : السابق 330/5

المبحث الثالث

الأمويون في خلافة عثمان ﷺ

لم يكن استخلاف عثمان دسيسة أموية جاءت نتيجة محاباة عبد الرحمن بن عوف ــ صهر عثمان ــ له دون بقية أعضاء مجلس الشورى الذي شكله عمر بن الخطاب ليتولى مهمة اختيار الخليفة الجديد .. أو دون علي بن أبي طالب بوجه خاص ، فقد كان القوم أتقى لله وأحرص على الأمة وأكرم على نفوسهم مما يتصور بعض المؤرخين والباحثين [١]، وقد كان بوسع ابن عوف ألا يخرج نفسه من أصحاب الشورى ليختار لهم بعد مشاورة الأمة التي ظل يعانيها ثلاثة أيام لم يكتحل فيها بنوم [٢] ، ولو فعل ذلك لأنجى نفسه من مغبة ذلك الاتهام ، وربما يقع عليه اختيار بقية أصحابه ليكون الخليفة المنتظر ، وما كان ذلك مستبعدا إزاء اختلاف ابني عبد مناف عثمان وعلي .. ولو أراد ابن عوف أن يحابي أحدا لحابى ابن عمه سعد بن أبي وقاص الزهري فهو أقرب إليه من عثمان ، ولكنه شاور الناس فما وجدهم يعدلون أحدا بعثمان ثم علي ، مع تفضيل أكثرهم عثمان للينه وسماحته بعد شدة عمرﷺ [٣] ، وبعد انقضاء المهلة التي حددها عمر ــ ثلاثة أيام ــ دعا عبد الرحمن عليا وعثمان في المسجد أمام الناس ، فعرض على كليهما أن يعطيه عهد الله وميثاقه إن ولي أمر المسلمين أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده أبي بكر وعمر، فقال علي: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، وقال عثمان : نعم ، ولم يتردد ، فبايع عثمان [٤]، فكان عرضها على علي أولا قبل عثمان ؛ وما كان في شرطه غبن أو شبهة ..

والحق أن بيعة عثمان كانت نموذجا للشورى الإسلامية في أروع صورها، ولم يتحقق ذلك على هذا النحو في استخلاف أبي بكر وعمر، ولن يتحقق كذلك في استخلاف علي فيما بعد ،

---

[١] راجع في الشبهات حول موقف بني أمية من استخلاف عثمان وخلافته : العقاد : عبقرية علي 101 –102 ، د.محمد جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية 57 ، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية 39 ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 63/4 ، د.بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية ص 61 ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية 132/1 –133 ، د.الخربوطلي : تاريخ العراق 14

[٢] الطبري : السابق 232/4

[٣] كانت المرأة ترقص ولدها فتقول :

أحبك والرحمن ... حب قريش لعثمان

(ابن عبد ربه العقد الفريد 285/4 ،الذهبي : تاريخ الإسلام 74/2 ، د.مصطفى حلمي : نظام الخلافة 62)

[٤] الطبري : السابق 233/4

ولذلك كان أحمد بن حنبل يقول:"ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان ، كـــانت بإجماعـــهم " ؛ وصدق أحمد، فلو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي وطلحة والزبير وأهل الشـــوكة لم يصـــر إماما "[١] ، وقد كان أصحاب النبي ﷺ وأعلم الناس بعثمان يشهدون له أنه كـــان أجـــدر النـــاس بالخلافة وأتقاهم لله تعالى [٢] ..

دعوى محاباة عثمان بني أمية واستغلالهم خلافته :

يكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه وسيطرقم على أزمة الحكم في عهده ، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس ، فثاروا ناقمين عليه ضعفه وإطلاقه يد ذوى قربـــاه في شـــئون الدولة ، ويذكرون من أقاربه هؤلاء مروان بن الحكم والحارث ين الحكم وعبد الله بن سعد بـــن أبي السرح ؛ وهؤلاء الولاة متهمون بالعداء للإسلام قبل الفتح [٣] ، كما أنه استعمل عبد الله بن عـــامر على البصرة ، والوليد بن عقبة على الكوفة ؛ ثم عزله لما اقم بشرب الخمر والاستهتار بـــالدين وولى مكانه سعيد بن العاص الأموي، بينما كان معاوية عاملا على الشام [٤] ..

ومن الواضح أن هذه الرؤية المتحاملة على الأمويين متأثرة بالدعاية النشيطة ضدهم ، وأن الدراسة الدقيقة جديرة بتصحيح الصورة وجلاء الحقيقة .. فبعض هذه الأسماء التي ذكرهـــا الـــرواة والمؤرخون قد وليت وظائف لا خطر لها ، وهي أسماء لم يعرف لها شأن أو دور بارز في توجيه شـــئون الدولة أو أحداث العصر، مثل الحارث بن الحكم الذي يذكرون أنه ولي الإشراف على أسواق المدينة ، وقد ذكر الديار بكرى أن عثمان جعل إليه سوق المدينة ليراعى أمر المثاقيل والموازيـــن ؛ فتســـلط يومين أو ثلاثة على باعة النوى ، فاشتراه لنفسه ، فلما رفع ذلك إلى عثمان أنكره عليه وعزله ، وقال لأهل المدينة : إني لم آمره بذلك ، "ولا عتب على السلطان في جور بعض العمال إذا استدرك ذلـــك بعد علمه " [٥] ..

وبعض هذه الأسماء ضخمت الروايات دورها وخطورتها مثل مروان بن الحكـــم ، الـــذي يرون أنه أصبح مستشار عثمان " الذي أطلقت يده في إدارة شئون الدولة ؛ حتى ليصح أن يقـــال إن

---

[١] ابن تيمية: المنتقى من منهاج الاعتدال 58 –59 ابن سعد : الطبقات الكبرى 43/3 ، ابن عساكر : تـــاريخ دمشـــق ترجمة عثمان ص 205 ،ابن الجوزي : صفة الصفوة 118/1

[٢] ابن سعد : الطبقات الكبرى 43/3 ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمة عثمان ص 205 ،ابن الجوزي : صفة الصفوة 118/1

[٣] د.محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 76 –77

[٤] محمد مهدى شمس الدين : ثورة الحسين 40

[٥] تاريخ الخميس 268/2

السلطات الفعلية أصبحت كليا في يده "[١] ، ولم يكن مروان بالتأكيد المستشار الأوحد للخليفة ، الذي كان يستشير كبار الصحابة وصغارهم ، ولم يكن بمعزل عن قادة الرأي في مجتمع الإسلام ، وكذلك لم يكن مروان الوزير الذي تجمعت تحت يده سلطات الدولة ، إنما كان كاتبا للخليفة ، وهي وظيفة تستمد أهميتها من قرب صاحبها من أذن الخليفة وخاتمه ، ونحسب أن مروان كان أتقى لله من أن يأتي في عمله بما يضر مصلحة المسلمين أو خليفته وابن عمه ، الذي يستمد قوته ومكانته منه ، أما ادعاء توريطه عثمان وإثارة الناس عليه لتنتقل الخلافة بعد ذلك إلى بني أمية فافتراض لا دليل عليه ، ولم تنتقل الخلافة إلى بني أمية إلا بعد أهوال جسام لم يكن لمروان فيها دور خطير.. ثم إن عثمان لم يكن ضعيف الشخصية حتى يتمكن منه كاتبه إلى الحد الذي يتصوره الرواة [٢] ، وسوف نرى بعد أن مروان لم يكن ذلك الرجل الشرير الذي يتحدثون عنه [٣]، ولا ذنب لمروان بن الحكم إن كان الرسول ﷺ قد نفى أباه الحكم بن أبي العاص لذنب أتاه ، " لأنه كان صغيرا لم يجر عليه القلم ، زمن النبي ﷺ ومروان لم يبلغ الحلم باتفاق أهل العلم ، بل غايته أن يكون له عشر سنين أو قريب منها ، وكان مسلما ظاهرا وباطنا ، يقرأ القرآن ويتفقه في الدين ، ولم يكن قبل الفتنة معروفا بشيء يعاب فيه ، فلا ذنب لعثمان في استكتابه ، وأما الفتنة فأصابت من هو أفضل من مروان " [٤] ، بل إن خبر طرد النبي ﷺ لأبيه ضعيف سندا ومتنا، وقد تعقبه شيخ الإسلام ابن تيمية فأوضح تهافته وضعفه [٥] .

وبعض هذه الأسماء لا تربطها بعثمان وشائج القرابة القريبة ؛ وهناك في بني أمية من كان أقرب إلى عثمان منهم ، مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي لم يكن أحد بني عمومة عثمان ، فهو عامري من بني عامر بن لؤي ، وصلة قرابته لعثمان أنهما أخوان من الرضاعة [٦] ، وإذا كان قد ارتد عن الإسلام في حياة النبي قبل فتح مكة فقد عاد وأسلم واستأمن له عثمان رسول الله فآمنه ، ثم حسن إسلامه ، وولاه عمر بن الخطاب صعيد مصر لما كان عمرو بن العاص واليا عليها ، ثم طلب بعض أهل مصر من عثمان استعمال ابن سعد الذي كان آنذاك عاملا على الخراج بدل ابن العاص ، فوافقهم عثمان ، وقد كان على حد تعبير الليث بن سعد فقيه مصر: "محمودا في ولايته ، وغزا ثلاث غزوات كلها لها شأن وذكر، فغزا أفريقية سنة سبعة وعشرين وقتل ملكهم جرجير.. وغزا غزوة

---

[١] د.حلمي : السابق 76

[٢] راجع العقاد :ذو النورين عثمان ص 74 –75

[٣] انظر ص من هذا البحث

[٤] ابن تيمية : منهاج السنة 197/3

[٥] السابق 195/3 –196

[٦] ابن هشام : السيرة النبوية 20/4 ،إحسان إلهي ظهير : الشيعة والتشيع 110

الأساود حتى بلغ دملقة (بالنوبة) وذلك سنة إحدى وثلاثين ، فهادهم ثم غزا غزوة ذات الصواري سنة 34 هـ" [١] ، وفيها قهر المسلمون الروم في البحر.

أما ولاته على العراق الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص على الكوفة وعبد الله بن عامر على البصرة ، فقد كانوا أكفاء حلماء كرماء فاتحين ، كما تشهد بذلك تراجمهم وأقوال المؤرخين عنهم ؛ حتى بعض المتحاملين على بني أمية [٢] ، وقد رمي بعضهم باتهامات باطلة روجتها جماعة السبئية في بيئة العراق القبلية المضطربة ، ولكنها عند النقد والتمحيص لا تثبت ؛ مثل ما زعموه من شرب الوليد بن عقبة الخمر، ومن اتهامه بالفسوق وأنه المعنى بقوله تعالى : " إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا "[٣]، وقد أوضحت روايات الطبري أسباب الاتهام الأول وزيفه [٤] ، كما أوضحت بحوث بعض العلماء فساد الاتهام الثاني أو ضعفه [٥] ..

ولم تكن ولاية العراق ـ في هذه الفترة ـ هدفا يسعى إليه ، أو مكافأة يرجى نوالها ، ولو كان عثمان يريد مكافأة هؤلاء الرجال لولاهم غير العراق من الولايات المستقرة ، أو لأغدق عليهم الإقطاعات والأموال وهم في مأمن من الشبهات ، وعافية من الابتلاءات ، ثم إنه لم يبتدئ خلافته بتولية هؤلاء ، فقد ولاهم بعد شكوى أهلها من عمالها الصلحاء السابقين كسعد بن أبي وقاص في الكوفة وأبي موسى الأشعري بالعراق وقد اتهم العراقيون هذين الصحابيين الجليلين كما اتهموا من تلاهما من بني أمية .. كما انه لم يول أيا منهم رغما عن رغبة أهل المصر، ولم يتوان في عزله لما ظهرت شكايتهم رغم وضوح افترائها..

ونحن نعلم أن العراق قد أضجر من قبل ذلك عمر بن الخطاب حتى ضج بالشكوى من أهله وأهمه أمرهم حتى كان يقول : " وأي نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ، ولا يرضى عنهم أمير [٦] ، كما لم يستقم حكمه لعلي بن أبي طالب بعد ذلك حتى قتل بيد أحد أهله، ودفع العراقيون باضطراب أمورهم الحسن بن علي إلى التنازل عن الخلافة لمعاوية ، كما أنه ظل في خلافة الأمويين موطن الثورات وملاذ الخارجين ...

---

[١] الكندي : ولاة مصر وقضاتها 17-18 وابن حجر : الإصابة 317/2

[٢] راجع طه حسين : الفتنة الكبرى 188/1 -189 ،العقاد :ذو النورين عثمان 201 -202 ، بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص 60 مع التحفظ على ما ذهبوا إليه

[٣] سورة الحجرات آية 6

[٤] الطبري : السابق 271/4 -278

[٥] ابن العربي : العواصم من القواصم ص 102، 106

[٦] الطبري السابق 165/4

ورغم كثرة ما قيل عن سيطرة الأمويين على مقاليد الأمور في خلافة عثمان فإن حقـــائق التـــاريخ تثبت أن كثيرا من المناصب كانت بعيدا عنهم مثل القضاء وبيت المال والشرطة والنيابة عـــن الحـــج وباقي الولايات الإسلامية [١] ..

ويحفظ لنا التاريخ مثالا واضح الدلالة على أن عثمان لم يكن يولي من بني أمية إلا الأكفـاء ، فقد رفض أن يولى محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة أية ولاية رغم أنه طلب ذلك منه ، وقال له : " يا بني لو كنت رضا ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك "، رغم أنه نشـــأ يتيمـــا في حجره ، وكان عثمان والي أيتام أهل بيته ، فقال ابن أبي حذيفة : فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني ، فقال عثمان: اذهب حيث شئت، وجهزه من عنده وحمله وأعطاه ، فذهب إلى مصر فكان زعيـــم الثائرين بها على عثمان وقائد المحرضين عليه [٢] ، وما كان أغنى عثمان عن ذلك لو كان كما يزعـــم الرواة .. ولكنه لم يكن ذلك الرجل الذي يحابي أقاربه على حساب المسلمين، فيوما وقف أبو ســـفيان ببابه وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين ؛ فحجبه ، فقال له رجل أراد أن يغريه : يا أبا ســـفيان مـــا كنت أرى أن تقف بباب مضري فيحجبك ، فقال شيخ بني أمية : لا عدمت من قومي من أقف ببابـه فيحجبني [٣] ..

علي أيضا ولى أقاربه :

ليس من سبيل إلى إنكار بر عثمان بأهله وأقاربه من بني أمية ، بل ليست هناك حاجـة إلى إنكار ذلك ، فقد كانت هذه فضيلة كبرى من فضائل عثمان ذكرها له علي بن أبي طـــالب ﷺ في قوله عنه : "كان أوصلنا للرحم وأتقانا لله " [٤]، وقد جمعت هذه الجملة القصيرة أطراف هذه القضية، فعثمان بار بأهله واصل لهم ، ولكنه تقي لله لم يمل به حبه لأهله إلى غشيان محرم..

وقد كان عمر بن الخطاب يعرف بنظرته الملهمة هذه السجية في عثمان، كما عرفها في علي ، وكان يخشى إن تولى أحدهما خلافة المسلمين أن يصل به بره بأهله إلى تفضلهم عمن سواهم وتقريبهم عمن عداهم، وحملهم على رقاب الناس ، وقد حذرهما ذلك في مرض وفاته وفي وصاته لهم [٥] .. غـــير أن عثمان بعد مضى فترة من خلافته ، وعلي منذ بداية استخلافه ، قد وليا من أقاربهما بعضهم ، ولعـل

---

[١] خليفة بن خياط: تاريخ خليفة 157/1 ، اليعقوبي : السابق 137/2، 176

[٢] الطبري : السابق 399/4 ،ابن الأثير: الكامل 135/3 والعقاد :ذو النورين عثمان 228 ؛ وانظر في تأليبه مصر علـى عثمان الكندي : ولاة مصر وقضاها 19 و الطبري : السابق 292/4

[٣] ابن عبد ربه : العقد الفريد 83/1

[٤] ابن الجوزى : صفة الصفوة 118/1

[٥] الإمامة والسياسة 25/1

ذلك كان مرتبطا بثقة كل منهم فيمن حوله في هذه الأجواء التي تنبض بالشك والخصومة والشكوى المستمرة ؛ فلم يجد كلاهما أخلص له ولقضيته في بعض الأوقات والمواطن من بعض أهله ..

وإذا كان ذلك مشهورا عن عثمان، للدعاية السبئية والشيعية ضده فإن عليا ﷺ قد ولـى في خلافته ابن عمه قثم بن العباس على مكة وعبيد الله بن العباس على اليمن [١] ، وعبد الله بن عباس أخوهم على البصرة ، وولى ربيبه وابن زوجته محمد بن أبي بكر على مصر [٢] ، وولى صهره وابن أختـه جعدة بن هبيرة على خراسان [٣] ، كما كان على عسكره ابنه محمد بن الحنفية ، وكان علـي نفسـه بالكوفة ، وقد ناب عنه في الحج سنة 36 هـ عبد الله بن عباس ، وسنة 37 هـ قثم بن عباس وسنة 38 عبيد الله بن عباس [٤] ، وهؤلاء أكثر ممن استعملهم عثمان وهو يلي بلاد الإسلام كلها ، وعلي ﷺ لما رفض معاوية وأهل الشام بيعته لم يكن يحكم سوى العراق والمشرق والحجاز ، ولم يدم له حكم مصـر ولا استقام له حكم الحجاز..

وقد أحس أحد الثائرين على عثمان وكبار معاوني علي بذلك ، وهو الأشتر النخعي فقـال متعجبا متضجرا : "علام قتلنا الشيخ ؟ ! – يعني عثمان – إذ اليمن لعبيـد الله والحجـاز لقثـم ، والبصرة لعبد الله ، والكوفة لعلي ؟ " [٥] ..

اتهامات أخرى للأمويين وعثمان :

ومن أخطر هذه الاتهامات القول بإعطاء عثمان بعض أقاربه الأمويين من مال الله بسـخاء ، وقد رد بعض العلماء على ذلك بأن عثمان كان يعطي أقاربه من ماله الخاص ، وكان مـن أغـنى أغنياء العرب ، وهو كبير قومه والمنظور إليه في ذلك ، مع ما عرف عنه من كرم وحياء ، وهو يختلف هنا عن أبي بكر وعمر، فلم يكن لهما مثل ماله ، ولم يكن بنو تيم وبنو عدي مثل بني أمية في كـثرة العدد ، وذهب بعض العلماء إلى القول بأنه أعطى بعضهم من مال المسلمين اعتقادا بأن لهم حـق في سهم ذوي القربى ، وأن ذوي القربى هم أقرباء الإمام باعتباره خليفة للرسول في حكم المسـلمين ، أو أنه أعطى بعضهم لحسن بلائه وعظيم غنائه ، مع أنه قد عاد في بعض هذه الأعطيات لما عاتبه الناقمون عليه [٦] ، أما عثمان نفسه فقد دافع عن نفسه في ذلك فقال : " وقالوا : إني أحب أهل بيتي وأعطيـهم ؛ فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيهم مـن

---

[١] اليعقوبي : السابق 179/2

[٢] وأمه: أسماء بنت عميس الخثعمية كانت زوجة لأبي بكر ثم تزوجها علي (ض) فيما بعد ..

[٣] وأمه أم هانئ بنت عبد المطلب

[٤] اليعقوبي : السابق 213/2

[٥] الطبري السابق 492/4

[٦] السابق 345/4

مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي زمان الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر ـ وأنا يومئذ شحيح حريص ـ أفحين أتت علي أسنان أهل بيتي ، وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ؛ قال الملحدون ما قالوا ؟ " [١] ..

وقد اتهم بعض بني أمية بالمشاركة في تأليب الثائرين على عثمان ، وصاحب النصيب الأعظم في ذلك هو مروان بن الحكم الذي يزعمون أنه كتب رسالة إلى عامل عثمان على مصر يأمره فيها باسم الخليفة بقتل بعض الثائرين عليه ، وقد كان عثمان سكنهم لما أتوا إليه وأعتبهم وقضى بذلك على نذر الخطر القريب .. فلما علم الثائرون بذلك في الطريق ، وألقوا القبض على حامل هذه الرسالة قدموا على عثمان فحصروه حتى قتلوه [٢]..

ولا مصلحة لمروان في قتل ابن عمه عثمان ، ولقد دافع عنه حتى ارتث من بين القتلى وظن الناس أنه قتل [٣]، والإسلام ، بل وطبيعة الحياة العربية ، تأبى على مروان أن يمكر بسيده لتحقيق أمل غير مضمون ؛ لو كان كما يزعمون يخطط لحكم بني أمية المطلق [٤] ، وظروف هذه الحادثة تشير الشكوك حول مصدر هذه الرسالة والغرض منها ، فقد كان حامل الرسالة نفسه مثيرا للشك ، فهو يظهر ثم يختفي ؛ يكاد يقول لمن حوله من الثائرين : خذوني فإن معي أمرا بقتلكم !، وكيف يرسل مروان رسالة إلى عامل عثمان بمصر ـ ابن أبي سرح ـ وهو يعلم أنه قد استأذن الخليفة للقدوم إليه للمشاورة في بعض أمره، وأنه آنذاك ليس موجودا بمصر [٥] ، وإن نص هذه الرسالة ليختلف اختلافا كبيرا بين الروايات المختلفة، فتارة يأمر بقتلهم وتارة بجلدهم وتارة بقطعهم وصلبهم ! [٦] ، وإنه لما عاد ثوار مصر الذين وجدوا الكتاب المزور هذا لم يعودوا وحدهم، بل عاد معهم أهل البصرة والكوفة من الثائرين ؛ فباغتوا المدينة بالتكبير وسيطروا عليها تماما بعد أن ضمنوا تفرق المدافعين عنها، فكيف عادوا جميعا في وقت واحد وقد تفرقوا واختلفت طرقهم نحو أمصارهم ؟ وقد اكتشف

---

[١] الطبري : السابق 347/4 –348 ، وانظر ابن تيمية :منهاج السنة النبوية 190/3–191،الدياربكرى : تاريخ الخميس 267/2– 268

[٢] الطبري : السابق 371/4 –378 ،ابن عبد ربه العقد الفريد 392/4 –393

[٣] راجع الطبري : السابق 380/4 –381

[٤] د.بيضون الحجاز والدولة الإسلامية 162 –163

[٥] الطبري : السابق 378/4

[٦] راجع د.شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص 259

علي ﷺ ذلك فقال لهم : "وكيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر.. وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة " [١] !! ..

ولم يكن هذا هو الكتاب المزور الوحيد في هذه الفتنة التي قاد أحداثها تنظيم غاية في الدقة والبراعة والسرية ، فقد سبق أن زورت عدة رسائل على لسان بعض الصحابة يدعون فيها أهل الأمصار للثورة على عثمان [٢] ، ونحن نعلم أيضا أن بعض زعماء الثوار قد تخلفوا بالمدينة فلم يذهبوا إلى أمصارهم لما تفرق الثوار، ولم يكن ذلك فيما يبدو إلا لتزوير ذلك الكتاب والاحتيال لإعادة المتآمرين واستئناف المهمة التي جاءوا لأجلها [٣] ..

الخلاصة :

نصل من ذلك كله إلى نتيجة واضحة مؤداها أن عثمان كان حقا شديد الحب لأقاربه وأنه ولى بعضهم عدة ولايات، ولكن ذلك لم يمل به إلى غشيان محرم ، أو إساءة السيرة والسياسة ، وقد كان علي ﷺ أيضا يحب أقاربه ويوليهم الولايات أكثر مما فعل عثمان ، بل كان ولاة عثمان عند التحقيق أكفأ في السياسة وأقدر في الإدارة من ولاة علي ، ولم يكن لسياستهم دور مؤكد في إثارة الناس على عثمان ، بل إن الدور الأكبر في ذلك يعود إلى براعة تنظيم السبئية الذين سمموا الجو بالإشاعات الكاذبة مستغلين لين الخليفة ورغبته في المسالمة والموادعة وشفقته من إراقة الدماء أو العنف مع بعض من يظهرون الإسلام ، وقد كان من مصلحة بني أمية استمرار هذا النظام ، لأن فيه على أية حال شرف لهم وتفضيل ، ولذا فقد دافعوا عن عثمان ضد الثائرين عليه في المدينة ما استطاعوا ، حتى إذا قتل الخليفة ظلما حمل معاوية لواء الثأر له كما سيأتي ..

---

[١] الطبري : السابق 351/4

[٢] ابن العربي : العواصم من القواصم 140، 142

[٣] محب الدين الخطيب : هامش المنتقى من منهاج الاعتدال لابن تيمية 377

المبحث الرابع

الأمويون في الطريق إلى الخلافة

مقدمة: الدولة الإسلامية بين عهدين ودور التطور الاجتماعي:

إن الأسباب الحقيقة التي أدت إلى الثورة على عثمان لم تنته بقتله، بل ظلت تأثيراتها وظلالها تنسحب على الحياة الإسلامية بشكل ظاهر في الفترة التي تلت ذلك وشهدت استخلاف علي بن أبي طالب ورفض معاوية البيعة له وصراعه ضده، حتى قتل علي ودانت بلاد الإسلام لمعاوية .. إذ إن أسباب الثورة لم تكن ــ كما ظهرت في شكلها البسيط ــ ترجع إلى غضب جماعة من الرعية من بعض تصرفات الخليفة أو عماله على الولايات .. بل تعود إلى تغيرات اجتماعية عميقة، ظلت تعمل في صمت وقوة لا يلحظهما كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر بدءا من النصف الثاني من خلافة عثمان، وبلغت قمة فورانها في الثورة التي أدت إلى استشهاده رضي الله عنه.

فالدولة الإسلامية التي كانت على عهد الرسول الكريم ﷺ وقبل فتح مكة مترابطة متجانسة، تلتقي فيها رغبات القيادة والأمة، ويلتف أفرادها حول عقيدة واحدة، يحاولون جاهدين التمثل الكامل لها، لم تعد كذلك، فهي لم تعد تشمل جماعة المهاجرين والأنصار فقط، بل دخل الناس في دين الله أفواجا بعد فتح مكة، ودفعت الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر وعثمان بالأعداد الغفيرة من البشر إلى الإسلام، وهم من أجناس شتى وأمم مختلفة، فالتقى هؤلاء وهؤلاء؛ وتأثروا بهم وبأنماط معيشتهم وألوان حضاراتهم .. لقد أصبحت دولة الإسلام دولة عالمية بما تحوي هذه الكلمة من تغيرات ومسئوليات .. والعامل العقدي الذي كان صاحب الكلمة الأولى والدور الأكبر في البناء النفسي للأمة لم يعد في مثل قوته وحيويته إذ تقلص عدد رواده بمضي الزمن، وأصبحوا في الناس كأنهم شامة، وأين أعداد الفئة الممتازة من المهاجرين والأنصار الذين تحملوا التضحيات الأولى الجسيمة من أجل الإسلام؛ في أعداد القبائل الضخمة التي دخلت في الإسلام بعد ذلك، والتي سرعان ما ارتدت بعد وفاة النبي ﷺ وسرعان ما عادت أيضا إلى الإسلام من جديد، ولم يطل بهم الوقت حتى كانوا هم أبطال الفتوحات الكبرى، وأهل الأمصار الجديدة، وأصحاب الفضل الأول في فيض الغنائم الهائل الذي سال على المسلمين والدولة، ومارس دوره في تغيير كثير من النفوس، التي تراوحت بين التشبث بقيم الزهد والتمتع بالرزق الحلال .. فظهرت ضروب من الترف والتنعم لم يكن للمسلمين والعرب فيما مضى علم بها .

ورغم خطورة الدور الذي بدأت تمارسه هذه القبائل في تلك الأمصار فان التطور الاجتماعي المطرد والمتلاحق لم يواكبه تطور سياسي على ذات المستوى، فلم تبذل جهود موازية وكافية لتربية أفراد هذه القبائل على قيم الإسلام الأصيلة وروح العقيدة المتوهجة، ومعاني النظام والجماعة وضرورة الطاعة وأساليب الحكم في الدولة لا القبيلة .. ولم تبذل جهود موازية لإشراك هذه القوى

الجديدة في إدارة الأمور، حيث ظل أهل الحل والعقد والأمر والنهي ـ كما كانوا من قبل ـ من تلك الجماعة الممتازة من أصحاب النبي ﷺ الأولين، وظلت قريش تتمتع إلى جانب الإدارة السياسية للدولة بالنصيب الأكبر من الغنائم وثمار الفتح، إذ إن نظام العطاء الذي وضعه عمر بن الخطاب ﷺ كان يقضي بتفضيل السابقين إلى الإسلام والأقربين إلى رسول الله ﷺ، وكلا الصنفين من قريش ! وهذا النظام ـ وإن بدا صالحا في وقته ـ كان يجب أن يتطور بعد ذلك حتى لا تثور نقمة تلك القبائل على قريش والحلفاء المنتمين إليها !

إن هذه العوامل كما هو واضح غير مرتبطة بشخص عثمان وحده ولكن حدثها صادفت وجوده خليفة، فقد كانت تلك الأسباب وراء تململ عمر بن الخطاب من رعيته أواخر حياته وتململهم منه [١]، وكانت وراء قتل عثمان، وكانت وراء بعض سلوك علي لما استخلف، وفشل سياسته في العراق، ووراء امتناع معاوية عن بيعته والصراع بينهما ..

١- ظروف بيعة علي وامتناع معاوية :

كانت بيعة علي ﷺ بالخلافة تختلف اختلافا كبيرا ـ في الظروف المحيطة بها ـ عن بيعة الخلفاء الثلاثة السابقين؛ أبي بكر وعمر وعثمان، الذين تمت بيعتهم في جو من الشورى والسكينة والرضا .. فقد تمت بيعة علي بعد ثورة عنيفة، مثلت سابقة خطيرة في حياة الأمة الإسلامية؛ حيث عدت جماعات من الأنصار ونزاع القبائل والأعراب الذين لا تعرف لهم سابقة في الإسلام، ولا فضيلة يمتازون بها على غيرهم، على مدينة رسول الله ﷺ ففرضت إرادتها على أهلها، وحاصرت خليفة المسلمين ـ وهو شيخ كبير ـ ثم ما لبثوا أن قتلوه، ولم تجد معهم نصائح المخلصين المشفقين، ولا رجاءات الخليفة المظلوم أن لا يفتحوا على المسلمين بابا من أبواب الشر لا ينغلق، وإعلانه أمامهم توبته وبراءته من كل ما أخذوه عليه، فلما لم يثمر كل ذلك، أغلق عليه بابه، ونهى الناس عن القتال وسل السيف بين المسلمين ورفض أن يدفع عن نفسه حتى مضى شهيدا في الشهر الحرام في البلد الحرام .. حتى ما استطاع إلا نفير يسير أن يدفنوه ليلا وفي تكتم شديد وعلى نحو لا يليق بصحابي جليل، خوفا من المعتدين وشفقة من إجرامهم [٢] .. فلما قتل عثمان بقيت المدينة خمسة أيام أميرها أحد المجرمين واسمه الغافقي بن حرب، وهم يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بأمر المسلمين فلا يجدون، فقد هرب منهم علي، وتبرأ منهم طلحة والزبير، وبكتهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر [٣]، غير أن ذلك لم يكن حلا، فإن الناس لما أفاقوا من هول المفاجأة أدركوا أنه لا بد للناس من إمام، وأمام إصرار السبئية وإرهابهم غشي الناس عليا ﷺ يرجونه أن يقبل الإمارة، فقبلها بعد امتناع وتردد [٤]،

---

[١] الطبري : السابق 213/4 –214 حيث كان عمر يقول:" اللهم ملوني ومللتهم، وأحسست من نفسي وأحسوا مني .. فاقبضني إليك "، وانظر السابق 397/4 حيث يقول الشعبي : " لم يمت عمر ﷺ حتى ملته قريش" ..

[٢] راجع الطبري : السابق 412/4 –415

[٣] السابق 432/4

[٤] السابق 434/4 –435

وبايعه الناس، وجاء الثوار بأبرز المرشحين الآخرين للخلافة غير علي ـــ طلحة والزبير ـــ يتلونها تــلا عنيفا، فبايعا [1] ..

امتناع جماعة من كبار الصحابة عن بيعة علي ﷺ :

ولقد أدى بروز قتلة عثمان في إتمام البيعة لعلي على عجل بغير استشارة كافية لأهل الشورى والقادرين على الحل والعقد إلى نفرة جماعة من كبار الصحابة من البيعة لعلي، كما تؤكد روايات عديدة، لا غضا من شأنه ولكن تخوفا من الدخول تحت سيطرة هذه العصابة دخولا يتعذر الخروج منه، ومن هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار: عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وصهيب بن سنان الرومي وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري والنعمان بن بشير ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة، ناهيك عمن فر من بني أمية إثر سيطرة الثوار على المدينة ومقتل عثمان؛ مثل مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وآخرون [2] ..

ولما عظمت الفتنة وكان القتال بين علي وأصحاب الجمل وبينه وبين أهل الشام تخلف عن علي ﷺ كثير من المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة حتى إنه يروى عن محمد بن سيرين قوله : "هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة؛ بل لم يبلغوا ثلاثين "[3] ويقول الشعبي : "ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة نفر بدريون ماهم سابع " [4].

٢- حجة معاوية في الامتناع عن البيعة :

ولا ريب أن معاوية في تخليه عن البيعة لعلي يسعه ما وسع هؤلاء الذين تخلفوا عنها من الحجة والعذر، وقد كانت حجته في ذلك ترتكز إلى أساسين : الأول : هو اتهامه عليا بالتستر على قتلة عثمان ـــ وهم قادة جيشه ـــ والثاني: أنه يرى أن بيعة علي لم تنعقد بشكل يلزمه، لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق والأمصار، فلم يحضرها إلا قليل منهم، وقد امتنع عليه بعض كبار الصحابة كما رأينا ..

وقد لخص معاوية وجهة نظره هذه في حواره مع رسل علي ﷺ لما دعوه إلى الطاعة والجماعة فقال : ".. فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد

---

[1] السابق 435/4، وذلك ما تحقق عند أهل البصرة فيما بعد لما أرسلوا رسولا منهم إلى المدينة لتقصي الحقيقة (السابق 467/4 – 468)

[2] راجع الطبري : السابق 429/4 –431، ابن الأثير: الكامل 98/3، ابن كثير : البداية والنهاية 226/7

[3] ابن تيمية : منهاج السنة186/3، ويعقب شيخ الإسلام على إسناد هذه الرواية بقوله: "وهذا الإسناد أصح إسناد على وجه الأرض، ومحمد بن سيرين أروع الناس في منطقه؛ ومراسيله من أصح المراسيل." ..

[4] الطبري : السابق 447/4، ابن الأثير : السابق 113/3، ابن كثير السابق 233/7

ذلك عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا ؟ ألستم تزعمون أنهم أصحاب صاحبكم؟؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة "[١] ..

وقال رسول معاوية حبيب بن مسلمة الفهري لعلي موضحاً موقف معاوية : ".. فادفع إلينا قتلة عثمان ــ إن زعمت أنك لم تقتله ــ نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس؛ فيكون أمرهم شورى بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم "[٢] ..

٣- دور قتلة عثمان في تجذير الفتنة :

ومن المؤكد أن عليا ﷺ كان بريئا من دم عثمان وأنه أعلن ذلك عدة مرات بعد استخلافه[٣] وعلى منبر الكوفة[٤] وفي بعض مراسلاته مع معاوية[٥]، وقد كان معاوية نفسه لا يقطع بالقول باتهام علي ــ كما نلحظ فيما مضى من حديثه مع رسل علي ﷺ وحديث رسوله معه ــ ولا يظن ذلك به رضي الله عنه، إلا أن الذي أساء إلى موقف علي هو ذلك الدور الذي لعبه قتلة عثمان في استخلافه، حيث كانوا أبرز المرشحين له، والقائمين على إتمام بيعته، ويبدو أنهم أرادوا أن يعرف الخاصة والعامة من المسلمين أن اختيار علي تم برأيهم، وتحت ضغط وتهديد منهم، فيعمل الجميع حسابا لنفوذهم وقوتهم، ولذا فقد خاطبوا أمير المؤمنين عليا متباهين بما تحقق لهم من ذا النفوذ، مزهوين بنجاح خطتهم كما رسموها وقدروها فقالوا :

خذها إليك واحذرن أبا الحسن   إنا نمر الأمر إمرار الرسن[٦]

واستمرت جهودهم بعد مقتل عثمان من أجل تجذير الفرقة في المجتمع الإسلامي، وإبقاء الصراع والحروب بين المسلمين، فأثاروا الغبار حول مواقف بعض الصحابة من قتل عثمان، كما أشاعوا أن عليا وبني هاشم حرضوا على قتل الخليفة الأموي وغنموا سيفه ونفائسه بعد قتله مما دفع الوليد بن عقبة إلى أن يقول[٧] :

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم   ولا تنهبوه ، لا تحل مناهبه
هم قتلوه كي يكونوا مكانه   كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

---

[١] الطبري : السابق 6/5

[٢] السابق 7/5

[٣] السابق 444/4، 5/3، محب الدين الخطيب :هامش العواصم من القواصم ص 140

[٤] ابن عبد ربه : العقد الفريد 302/4

[٥] الإمامة والسياسة 102/1

[٦] الطبري : السابق 436/4، 437،وراجع د.فهمي عبد الجليل: من تاريخ الحركات الهدامة في الإسلام؛ جماعة السبئية ونشاطها في خلافة عثمان وعلي، ص 117(مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي المجلد السابع سنة 1409 هـ 1989م)

[٧] البلاذري : أنساب الأشراف ٨١/٥، نشر مكتبة المثنى ببغداد

وإن قدم هذه الاتهامات لعلي منذ حصر عثمان [١] تمنعنا من افتراض شيوعها بعد تمنع معاوية عن بيعة علي ليتخذ من هذه الاتهامات ستارا لسعيه ..

وساعد على تثبيت هذا الظن أن عليا كان المرشح الطبيعي لخلافة عثمان، وكان بعض الثائرين يطرحون اسمه آنذاك بقوة كخليفة منتظر، ويزعمون أنه أرسل إليهم يستدعيهم إلى المدينة لجهاد عثمان [٢]؛ أو يشيعون أنهم يتحركون بأمره حتى روى عن محمد بن الحنفية أن مروان بن الحكم أرسل إلى أبيه علي في اليوم الذي قتل فيه عثمان يقول له : " ألا تأتى هذا الرجل فتمنعه، فإنهم لن يبرموا أمرا دونك؛ ولو كنت بمنقطع التراب " [٣] ..

كما أنه يبدو أن معاوية نفسه قد تأثر بهذه الشائعات التي تتهم بعض كبار الصحابة بالطعن على عثمان — وفيهم علي ﷺ — نفهم هذا من حديثه إليهم لما استدعاه عثمان للمشاورة سنة 35 هـ، حيث وصاهم بخليفتهم الشيخ الكبير، وألا يطمعوا الناس فيهم، ومما يؤسف له أنهم لم يبذلوا جهدا لتصحيح هذه الرؤية له أو لتأكيد رعايتهم لعثمان ﷺ [٤] ..

السبئية يحاصرون عليا :

وبعد أن لعب قتلة عثمان الدور الأكبر في استخلاف علي أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، فحجبوه عن خيرة أصحاب النبي ﷺ وأهل الحلم والتقوى منهم، ثم ما لبثوا أن حققوا نجاحا باهرا في ذلك المسعى حين نجحوا في إخراج علي من المدينة موطن المهاجرين والأنصار إلى الكوفة بلد السبئيين الأصيل وموئل الثوار والمتمردين ومجتمع الروح القبلية الجامدة، صحيح أن خروجه من المدينة جاء اعترافا منه بانتهاء الدور القيادي الذي لعبته في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الثلاثة الماضين، وإقرارا بانتقال مركز الثقل السياسي للأمصار الجديدة [٥]، وقد كان حصار عثمان وقتله والبيعة لعلي ترجمة عملية لهذه التغيرات الجديدة، ولكن ذلك كان يعني أيضا مزيدا من سيطرة أهل الكوفة من قتلة عثمان على مجريات الأمور في بلدهم، والخليفة عندهم في رحالهم، وخسارة للناصحين من مجربي الصحابة بالمدينة. لقد كان الخليفة نفسه يعرف مدى سيطرة هؤلاء الثوار، ويعترف بأنهم "يملكوننا ولا نملكهم"؛ ويطالب القائلين بالثأر لعثمان بالتريث حتى يتمكن منهم [٦]، ولكن ذلك لم يبد مقنعا لهم وهم يرون قتلة عثمان أبرز مساعدي علي وأعوانه ورجاله، ويرون حوله

---

[١] الطبري السابق 364/4 –365 حيث إنه لما حصب عثمان وهو على المنبر وحملوه فأدخلوه بيته عاده علي فقال: مالك يا أمير المؤمنين، فأقبلت بنو أمية بمنطق واحد فقالوا : يا علي أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين. ، أما والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا، فقام علي مغضبا . وانظر البلاذري السابق 99/5 ط.المثنى ببغداد .

[٢] ابن العربي : العواصم من القواصم ص 135

[٣] البلاذري . أنساب الأشراف 94/5

[٤] الطبري : السابق 344/4 –345

[٥] وقد ناشد بعض زعماء المدينة عليا ألا يخرج منها مثل عبد الله بن سلام وعقبة بن عامر؛ فكانت إجابة علي . "إن الأموال والرجال بالعراق " وقد لقي لذلك ابن سلام من السبئية شرا (الدينوري الأخبار الطوال 143)

[٦] الطبري السابق 437/4

وفى مجلسه وعلى قيادة جيشه وفى جملة ولاته أمثال الأشتر النخعي ومحمد بن أبي بكر ومحمد بـــن أبي حذيفة وعمار بن ياسر ويزيد بن قيس وغيرهم .. ويرصدون عن قرب محاولات هـــؤلاء الرجـــال تفريق المتعقلين من حول علي ، مثلما فعل الأشتر مع جرير بن عبد الله البجلي لما أرســله علــى إلى معاوية فعاد ينصحه بالتريث عن قتاله و يخبره بعذره واجتماع أهل الشام حوله، فما كان من الأشـــتر إلا أن سب الصحابي الجليل واتهمه في ولائه؛ وحرض عليا على حبسه وأشباهه مـــن النـــاصحين !! فخرج جرير من الكوفة ماضيا إلى قرقيسيا، فما زال الأشتر بعلي ﷺ حتى ركـــب إلى دار جريـــر فأحرق مجلسا له، و مضى إلى دار ابن عم له قد خرج معه فشعث فيها شيئا وانصرف؛ على ما يزعـــم رواة العراق [١] ..

عذر معاوية :

فهل كان بوسع معاوية أن يتجاهل ذلك كله وأهل بيته من بني أمية يتهمونـــه بالتخـــاذل والضعف [٢]؛ وأهل الشام قد التفوا حول قميص الخليفة يبكون ويقسمون على الثأر له [٣]، وهو نفســـه يعلم أنه ولي الخليفة المقتول وأحق الناس بالطلب بدمه لقدرته على ذلك، والقرآن الكـــريم يعـــده النصر في قوله تعالى : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا، فلا يسرف في القتل، إنـــه كـــان منصورا) [٤]، وهل بوسعه أن يجلس ساكنا في الوقت الذي نهض فيه طلحة والزبير وعائشة، وهم أبعد منه صلة بعثمان، يطالبون بدمه ويخرجون من مكة في جيش من ثلاثة آلاف رجـــل [٥] متجـــهين إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان، وقد قاموا بذلك بالفعل؛ ثم لاقوا عليا فكان بينهم قتال يـــوم الجمـــل حيث قتل طلحة والزبير، وهو يرى قريبا منه بمصر أن جماعة من شيعة عثمان قد أمروا عليهم معاويـــة بن خديج السكوني وكانوا أول من بايع على الطلب بدم عثمان وهزموا من بعثه إليـــهم والي علـــي على مصر محمد بن أبي حذيفة من جند عدة مرات [٦] ..

ومما زاد الأمور تعقيدا ودفع بها إلى القتال وإراقة الدماء أن بعض رسل علي إلى معاويـــة كانوا من المتهمين عنده بقتل عثمان أو التحريض عليه؛ مثل عدى بن حاتم ويزيد بن قيس [٧]، وكـــان بعضهم يفتقد الحكمة في الحديث وعرض القضية وتسكين الفتنة، بل عمد بعضـــهم إلى الإســـاءة إلى معاوية في مجلسه وشتمه ! مثلما حدث من شـــبث بن ربعي التميمي [٨] ..

---

[١] السابق 562/4، الدينوري السابق 156،161 وانظر 164

[٢] الطبري : السابق 564/4

[٣] السابق 444/4، ابن كثير البداية والنهاية 237/7

[٤] سورة الإسراء من الآية 33

[٥] الطبري : السابق 452/4

[٦] الكندي :ولاة مصر وقضاتها 22

[٧] الطبري السابق 5/5 –6

[٨] السابق 573/4 –574،6/5،وشبث بن ربعي رجل متقلب المواقف، فهو خادم لكل سلطان، كان مؤيدا لموقف عائشـــة في الكوفة ضد أصحاب علي (الطبري السابق 483/4)، ثم كان مع علي ضد معاوية كما نرى، ثم كان ممـــن دعـــوا

وكانت ممارسات بعض هؤلاء الثائرين تدفع بالأمور إلى حافة الهاوية، وتؤكد في حس معاوية وأهل الشام مسئولية هؤلاء عن قتل عثمان واستخفافهم به، فقد أرسل معاوية إلى محمد بن أبي حذيفة عامل علي على مصر ـــ وهو ابن عم عثمان ومعاوية أيضا وأحد المؤلبين على عثمان ـــ يطلب منه أن يدفع إليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر، وكلاهما ممن قتل عثمان، فأرسل إليه ابن أبي حذيفة يقول : لو طلبت منا جديا رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك [1] !! وكان أحدهم واسمه عبد الرحمن بن الحنبل يرتجز يوم صفين وهو يقول :

إن تقتلوني فأنا ابن حنبل　　　أنا الذي قد قلت فيكم نعثل [2]

وقد بلغ من سيطرة هؤلاء السفهاء على مجريات الأمور بالكوفة أن الناس " كانوا إذا سمعوا أحدا يذكر عثمان بخير ضربوه، وأن عليا ﷺ لما علم ذلك قال لهم : لا تفعلوا، ولكن ائتوني به " [3].

ولعل مما زاد في شكوك معاوية تجاه علي وأصحابه أن عليا ﷺ أول ما تولى الخلافة بادر إلى تحقيق أهداف الثوار فعزل عمال عثمان الذين نقموا عليهم، وفي مقدمتهم معاوية، وكان معاوية قد ولاه عمر وزاد في ولايته ثقة به، وازدادت مكانته في عهد عثمان، فظل عشرين سنة واليا على الشام ـــ كله أو بعضه ـــ قائما بأموره، مجاهدا عدوه برا وبحرا، ولم تصل إلى أحد منه شكاية معتبرة، وكان أهل ولايته راضين عنه لا يريدون به بديلا، وقتالهم الخليفة في صفه أصدق دليل على ذلك، وقد كانت نساء النبي ﷺ تشير على عثمان بالإبقاء عليه واليا على الشام؛ " فإنه مصلح لأرضه راض به جنده " [4]، وكذلك أشار المغيرة بن شعبة وابن عباس على علي ألا يعزله هو وعمال عثمان ليهدئوا له البلاد ويسكنوا الناس، وكيلا يعطيهم المبرر لإثارة الشبهات حول موقفه من قتل عثمان، ولكنه أبى، وسارع في عزلهم [5]، وكان فيمن ولاهم على من كان معاوية خيرا منه كالأشتر ومحمد بن أبي بكر..

ومما لا ريب فيه أن من حق الخليفة اختيار عماله الذين ينفذون سياسته، غير أن ظروف هذه المرحلة التاريخية كانت تقتضي توافر قدر كبير من الحذر في جو ملبد بالغيوم والشائعات والخطر، ومن المؤكد أن هذه الخطوة قد زادت مخاوف معاوية، الذي أيقن أن عزله عن الشام سوف يخسره قوته وإمكاناته في المطالبة بالثأر لعثمان، في الوقت الذي ينبغي أن تتضام جهود المسلمين

الحسين بن علي للقدوم إلى الكوفة أيام ابن زياد (السابق 353/5)، ولكنه حارب رسول الحسين مسلم بن عقيل مع ابن زياد؛ وكان صاحب أحد ألويته (السابق 370/5)، ثم قاتل الحسين لما اغتر بكلامه وأمثاله فقدم إلى العراق، وكان أميرا على الرجال في جيش عمر بن سعد الذي قتل الحسين (السابق 422/5) !!

[1] الكندي ولاة مصر وقضاتها 22

[2] الطبري : السابق 46/5 ولعل معنى البيت قد حضضتكم عليه أو أن به تحريفا وصحته (... أنا الذي قتلت فيكم نعثل) والمراد بنعثل:عثمان ﷺ ..

[3] ابن عساكر :تاريخ دمشق 294/4

[4] الطبري · السابق 410/4

[5] السابق 438/4 ـــ439،ابن الأثير الكامل 101/3، ابن كثير البداية والنهاية 228/7

وولاة الأمصار من أجل تطبيق حدود الله على هؤلاء المعتدين؛ ولذلك قال ابن تيمية : " فليت عليـا تألف معاوية وأمره الشام وحقن الدماء " [١] ,,

ومن المثير أننا نجد روايات تدل على أن حجة معاوية كانت تجد أصداء لها حتى في معسكر علي وبين أقرب الناس إليه، فولده الحسن كان يقول : " وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاويــة، لأن الله تعالى قال : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا، فلا يسرف في القتل، إنه كان منصـورا) [٢]، وكان ابن عمه عبد الله بن العباس يحتج بهذه الآية ويقول : " ما زلت موقنا أن معاوية يلي الملـك من هذه الآية " [٣]، وكان ابن عباس يخطب فيقول : " لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجــارة من السماء " [٤] !

٤-بحث الشبهات حول موقف معاوية من نصرة عثمان :

يتهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ بأنه لم يبذل جهدا حقيقيا في تهدئة الأوضاع المتفجرة حـول الخليفة، حتى إذا حوصر واستنجد به تربص وتمهل، فلما قتل ثار يطالب بدمه ويلزمه عليا وأصحابه، ليجد بذلك مسوغا لقتاله وطلب الخلافة على الأمة ..

وحين نتعرض لبحث هذه الشبهات نجد أنها لا تعدو أن تكون محاولة ضمن محاولات عديدة لتشـويه موقف عميد البيت الأموي، وطعن الأساس الذي قامت عليه خلافة الأمويين؛ وقام بهذا وذاك دعـاة السبئية من الثائرين على عثمان وممن تلاهم من الرواة والمؤرخين من الشيعة والرافضة.

فدور معاوية واضح التميز منذ بداية التمرد على الخلافة .. فقد حاول استصلاح بعــض زعماء التمرد في الكوفة لما سيره إليهم عثمان بعد شكوى عاملهم سعيد بن العاص؛ وقيل إنه نجـح في ذلك فصلح حال بعضهم، وقيل إنه لم يجد فيهم إلا جراءة وحمقا فكتب إلى الخليفة يستأذنه في تركـهم وإعادتهم إلى مصرهم كيلا يفسدوا طاعة أهل الشام، أو يستثيروا غضبهم عليهم، وأن عامله علـى حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد تلقفهم فعصف بهم، فاستكانوا له، ثم تركوه سرا ورجعـوا إلى الكوفة كي يواصلوا تآمرهم وكيدهم، ولم يكن فيما كتبه عثمان إلى معاوية بشـأنهم غـير محاولـة استصلاحهم، أو ردهم إلى الشام إن أعياه ذلك [٥] ..

وقد شارك معاوية في مجلس الشورى الذي دعا إليه عثمان وشارك فيه عماله على مصـر والشام والعراق، وكان يرى فيه أن قمع هذه الفتن مسئولية عمال الأمصار، كل في مصره، ثم إنـه التقى بزعماء الصحابة في المدينة ومنهم علي وطلحة والزبير فأوصاهم بعثمان، وحذرهم من التـهاون

---

[١] المنتقى من منهاج الاعتدال262

[٢] سورة الإسراء من الآية 33،راجع الإمامة والسياسة 49/1

[٣] ابن كثير: السابق 21/8، ابن عبد ربه : العقد الفريد 299/4، ابن عساكر : تاريخ دمشق 487/4

[٤] ابن عساكر : السابق 459/4

[٥] راجع الطبري : السابق 318/4 –329

في أمره. اذ سيؤدي ذلك إلى حلال وضع جديد تذهب فيه مكانتهم. وتلك رؤيـــة كـــاب حقــ ستشرف الغيب آنذاك [١]

وقد استغل بعض الوضاعين هذه الواقعة فزعم أن معاوية أتى مجلسا فيـــه علـــي وطلحـــة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر فقال لهم . يا معشر الصحابـــة، اوصيكم بشيخي هذا خيرا، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا، ثم أقبل علـــى عمار بن ياسر فقال: يا عمار، إن بالشام مائة ألف فارس، كل يأخذ العطاء مع أمثالهم مـــن أبنائـــهم وعبدالهم، لا يعرفون عليا ولا قرابته ولا عمارا ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحـــه ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعدا ولا دعوته، فإياك يا عمار أن تقعد غـــدا في فتنة تنجلي فيقال : "هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل علي" [٢]..

وقد يحمل بعض الدارسين تلك الرواية على استخفاف أهل الشام بأقدار الصحابة، وطاعتهم العميـــاء لواليهم الذي يملك مفاتيح الأموال، وقد يحملها آخرون على مجرد التهديد والتحذير، ولكن ينبغي لنا أن نردها تماما، فنحن نعلم أن عبد الرحمن بن عوف قد مات ســـنة 32 هـــــ [٣] ولم ينعقـــد مجلـــس الشورى الذي شارك فيه معاوية إلا سنة 34هـــ أو 35هـــ [٤]، فكيف يحضر ذلك المجلس وكيف يتـــهدده معاوية وقد مات ﷺ ؟

وقد أحس معاوية أثناء تواجده في المدينة ومما سمعه من أعضاء مجلس الشورى الذي عقـــده عثمان نذر الخطر تحيط بأمير المؤمنين، فقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يـــهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا، فقال عثمان : أنا لا أبيع جوار رســـول الله ﷺ بشيء ولو كان فيه قطع خيط عنقي، فقال معاوية : أبعث إليك جندا منهم يقيم بين ظـــهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك، فقال : أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجنـــد يساكنهم ؟ وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟ فقال معاوية بعد ذلك: والله يا أمـــير المؤمنـــين لتغتالن أو لتغزين، قال: حسبي الله ونعم الوكيل" فخرج معاوية يحذر هذا النفر من كبار الصحابـــة من الوهن في أمر خليفتهم، ثم مضى إلى الشام [٥] ..

عثمان يرفض الدفاع عن نفسه :

وإذا تخلينا قليلا عما يوحي به ظاهر هذه الرواية، لرأينا في رفض عثمان الذهاب إلى الشـــام أو استقدام جيش منه لحمايته، تخوفا من فرض مسحة أموية على خلافته، وهو ما كان يطنطـــن بـــه أعداؤه، غير أننا نلاحظ أن عثمان كان منذ بداية هذه المحنة ينفر من أي محاولة للخروج مـــن ذلـــك المأزق على نحو عنيف يتسبب في إراقة دماء المسلمين، أو انتهاك حرمة المدينة، فضلا عن ذلك فقـــد

---

[١] السابق 333/4 – 335، 342ـــ345، الإمامة والسياسة 30/1

[٢] الإمامة والسياسة 28/1، د. محمد حلمي : الخلافة و الدولة في العصر الأموي ص79

[٣] الطبري . السابق 307/4، ابن كثير البداية و النهاية 163/7 – 164

[٤] الطبري السابق 333/4، 341

[٥] الطبري السابق 345/4، ابن الأثير الكامل 79/3

رفض عرض بعض أنصاره عليه أن يلحق بمكة فإنهم لن يستحلوا دمه وهو بها، ولو فعلوا ذلك لجلبوا مزيدا من سخط المسلمين عليهم، ولكنه أبى أن يكون سببا في مس حرمة البلد الحرام [١] ..

لقد كان مع عثمان في داره ممن يحمل السلاح للدفاع عنه سبعمائة رجل " لو يدعهم لضربوا الثوار حتى أخرجوهم " [٢]، منهم جماعة من وجهاء الصحابة وأهل العصبية القوية ممن لن يرضى قومهم أن يسلموهم مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن بن على وزيد بن ثابت وعبد الله بن سلام والمغيرة بن الأخنس [٣]، هذا سوى بني أمية، وهم أقوى عصبيات قريش ومعهم موالي عثمان وعبيده، ولقد قال له زيد بن ثابت : هذه الأنصار بالباب يقولون إن شئت كنا أنصارا لله مرتين، فقال عثمان : أما القتال فلا [٤]، ولقد نادى عثمان على عبد الله بن عباس، وهو واقف ببابه لنصرته، والثوار محاصرون له، فقال: اذهب فأنت على الموسم، أي الحج، فقال ابن عباس : والله يا أمير المؤمنين لجهاد وهؤلاء أحب إلى من الحج، فأقسم عليه لينطلقن، ففعل [٥] .

لقد آثر رضى الله عنه أن يراق دمه بدل أن تراق بسببه دماء المسلمين !

ويفسر لنا أصحاب الحديث سر هذا الموقف من عثمان ﷺ بأن الرسول ﷺ قد بشره في حياته بالجنة على بلوى تصيبه فيصبر لها، كما بشره بالشهادة في سبيل الله [٦]، ومعنى ذلك أنه ﷺ كان يعلم أنه مقتول؛ فلم يرد أن تراق الدماء من أجل حمايته، ولم يرد أيضا أن يلقي بيده دون أن يحاول إقناع مخالفيه بخطورة ما يريدون ومغبة ما يفعلون على وحدة الأمة ومستقبلها، ولذلك فقد ناشدهم مرارا أن لا يقدموا على قتله؛ واستعان في ذلك السبيل بمن أطاعه من وجهاء الناس وذوى الرأي فيهم.. وقد عبر على ﷺ عن موقف عثمان وموقف أصحابه من الصحابة في ذلك الوقت أروع تعبير لما سأله معبد الخزاعى : أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره ؟ فقال على : إن عثمان كان إماما، وإنه نهى عن القتال؛ وقال : من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا [٧]، قال معبد : فأي منزلة وسعت عثمان إذا استسلم حتى قتل ؟ قال على : المنزلة التي وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه: لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين" [٨] ..

---

[١] وهو ذلك الدرس الذي لم يستوعبه عبد الله بن الزبير فيما بعد حيث خرج على بنى أمية في مكة فاضطروا إلى قتاله بها

[٢] ابن سعد : الطبقات الكبرى 49/3،ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمة عثمان 396

[٣] الديار بكرى : تاريخ الخميس 263/2

[٤] ابن سعد : السابق 48/3

[٥] الطبري : السابق 387/4

[٦] البخاري باب مناقب عثمان حديث رقم 3694، 3697،ابن حجر : فتح الباري 65/7 - 67

[٧] مثلما فعل مروان بن الحكم وآخرون ..

[٨] ابن عبد ربه : العقد الفريد 302/4

هل استنجد عثمان بمعاوية ؟؟

ورغم ما سبق من روايات وأحاديث تدل على إيثار عثمان التضحية بنفسه على إراقة دماء المسلمين فيما بينهم؛ فقد ذكر بعض المؤرخين والرواة أن عثمان أرسل إلى معاوية وأهل الشام يستنجد بهم لما حصر، وأن معاوية أرسل إليه أربعة آلاف فارس عليهم يزيد بن أسد لحمايته، فلما وصلوا قريبا من المدينة وأحس بهم الثوار عجلوا بالاقتحام على عثمان وقتله [1]، بينما روى آخرون أن عثمان لما استنجد بمعاوية تربص به الدوائر ولم ينجده، فلما رأى الخليفة ذلك : أرسل مباشرة إلى يزيد بن أسد وجند الشام يستنصرهم فخفوا إليه، ولكنهم لم يدركوه [2]، ويروى غيرهم أنه لم يقتصر على استنصار أهل الشام بل كتب بذلك إلى الأمصار وإلى مكة، وأنهم أرسلوا نجداتهم غير أنها لم تدرك الخليفة الذي عدوا عليه فقتلوه لما علموا بفصول الجند إليهم [3] ..

والروايات التي تزعم تربص معاوية بعثمان تأتي عن طريق رواة كذابين أو متحاملين على عثمان، مثل محمد بن السائب الكلبي، السبئي الرافضي الكذاب [4]، والواقدي الذي يحذر الطبري من تلقي رواياته عن عثمان دون تمحيص، ويذكر أنه كره ذكر بعضها لبشاعته [5] ..

ولقد نفى عثمان نفسه أن يكون قد أرسل إلى الأنصار يستنجد بأهلها، فقد قال له الثائرون عليه يوما : ".. وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك "، فكان في جوابه عليهم : ".. ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا علي، أو لحقت ببعض أطرافي" [6] ..

غير أن إجماع كثير من الروايات على وصول نجدات من الأنصار إلى الخليفة، وطول فترة الحصار الذي تعرض له [7]، ووجود مؤيدين له في المدينة والأمصار معا، منهم بعض الولاة الأمويين، وكون هؤلاء يستطيعون نصرته، كل ذلك يجعلنا نفترض بالفعل أن بعض هذه الأمصار قد أرسلت إلى الخليفة جنودا لحمايته والدفع عنه، ولكن الثوار لما أحسوا بذلك عاجلوه فقتلوه، غير أنه كي تتسق هذه الروايات مع ما عرف من تصميم عثمان على المسالمة وعدم إراقة الدماء نفترض أيضا أن هذه النجدات لم تأت إلى المدينة بناء على طلب الخليفة، بل بمبادرة منها أو من ولاتها، الذين كانوا على علم كامل بما يتعرض له أمير المؤمنين، أو بطلب من بعض أنصار الخليفة بالمدينة، وأن ذلك تم

---

[1] السابق 298/4، الإمامة والسياسة 38/1 ــ39،ابن عساكر : ترجمة عثمان 407 408

[2] الطبري : السابق 368/4 ــ369، ابن الأثير : الكامل 85/3 حيث يجعل تحرك يزيد بن أسد بمبادرة منه لما رأى تقاعس معاوية !!

[3] الطبري : السابق 368/4،369،ابن الأثير 80/3 ــ85

[4] راجع الطبري : السابق 368/4،369، ابن الأثير السابق 853حيث يبدو أنها نفس رواية الطبري ..

[5] الطبري السابق 356/4،وراجع رواياته الثلاث في ابن عساكر : السابق 379،380

[6] ابن الأثير السابق 85/3

[7] كان الحصر أربعين ليلة وفترة نزول الثوار كلها سبعين ليلة (الطبري السابق 385/4)

رغما عن رغبة عثمان، تماما كما قاتل بعض أنصاره مثل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس بن شريق وبعض موالى عثمان وعبيده رغم أوامره بعدم القتال [1] ..

وكان لمعاوية في ذلك جهده الواضح ورغبته الأكيدة في حماية خليفته والذود عنه، وقد يكون أوضح ما يعبر عن حقيقة موقف معاوية من نجدة الخليفة ما رواه ابن عساكر بسنده حيث قال : " ولما أتى معاوية الخبر أرسل إلى حبيب بن مسلمة الفهري فقال : إن عثمان قد حصر، فأشر علي برجل ينفذ لأمري ولا يقصر، فقال : ما أعرف ذلك غيري ، فقال: أنت لها، فأشر علي برجل أبعثه على مقدمتك، لا يتهم رأيه ولا نصيحته، وعجله في سرعان الناس، ... فقال : يزيد بن شجعة الحميري [2]، فإنه كما تحب، فإنهم لفي ذلك إذ قدم عليهم الكتاب بالحصر، فدعاهما ثم قال لهما : النجاء فأغيثا أمير المؤمنين، وتعجل أنت يا يزيد، فإن قدمت يا حبيب وعثمان حي فهو الخليفة، والأمر أمره، فانفذ لما أمرك به، وإن وجدته قد قتل فلا تدعن أحدا أشار إليه ولا أعان عليه إلا قتلته، وإن أتاك شيء قبل أن تصل إليه فأقم حتى أرى من رأيي، وبعث يزيد بن شجعة؛ فأمضاه على المقدمة في ألف فارس على البغال يقودون الخيل؛ معهم الإبل عليها الروايا، وأتبعهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس، وخرجوا جميعا، وأغذ يزيد السير.. حتى وصل إلى مكان قرب خيبر، فلقيه الخبر والنعمان بن بشير معه قميص عثمان مخضبا بدمه وأصابع زوجته نائلة، فأمضى حبيب النعمان إلى معاوية، وأقام حتى أتاه رأيه بأن يرجع إلى دمشق [3] ..

وهذه الرواية هي الأجدر بالقبول، حيث تفترض تواصل الأخبار بين الشام والمدينة، وذلك أمر متوقع في ظروف المحنة التي يمر بها الخليفة؛ وظروف القلق والترقب التي يقضيها معاوية بعد رفض عثمان السير معه إلى الشام، أو قبول حماية جند الشام له في المدينة، وهي تظهر أن الأخبار — أخبار نزول الثوار المدينة — قد جاءته، ولا تذكر أن عثمان قد أرسل إليه بها، فربما وصلته من عيونه أو رجاله أو أقاربه من بني أمية، فاستدعى قائده حبيب بن مسلمة فشاوره وأمره على الحملة، وفي مرحلة الإعداد هذه وصله الكتاب بالحصر، دون ذكر للاستغاثة به أو الاستنجاد، إن الكتاب إخبار موثق بالحصر لا غير، والمراد هنا الحصار الثاني للخليفة أو منعه من الخروج من بيته؛ ومنع وصول الماء والطعام إليه، وكانت مدته أربعين ليلة؛ وهي مدة لا تكفي بالطبع لوصول الأخبار إلى الشام ووصول نجدات الشام إلى الخليفة بالمدينة، وقد بادر معاوية بتسيير جنوده، وزود قائده بوصاياه، ورسم له خطة العمل .. والرواية مزودة بالتفاصيل المهمة عن كيفية تجهيز الجيش ، كما أنها تحل أمر الخلاف الظاهر في الروايات السابقة حول اسم القائد العسكري لهذه الحملة، هل هو يزيد بن أسد أم حبيب بن مسلمة، فقد كان حبيب هو القائد العام للجيش، أما يزيد فهو قائد المقدمة، واختلف الرواة حوله هل هو ابن أسد القسري أم ابن شجعة الحميري ..

---

[1] راجع الطبري : السابق 388/4 —389

[2] لم أطلع على ترجمة له، ولعله يزيد بن شجرة الرهاوي . راجع : ابن الأثير : أسد الغابة ٦٩٢/٤

[3] ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمة عثمان 380—381

٥- موقف معاوية من قتلة عثمان :

ويتهمون معاوية ﷺ بأنه اتخذ من قتل عثمان ستارا لتحقيق أغراضه، فلما تحققت ونال خلافة المسلمين صمت عن المطالبة بدم عثمان، وترك أمر قتلته؛ وهو في موقع الحاكم القوى الذي يملك تنفيذ القصاص [1] ..

ويستشهدون على ذلك بأن معاوية لما زار المدينة ومر قريبا من دار عثمان، سمع صياح ابنته عائشة بنت عثمان وندبها أباها؛ فدخل عليها وقال : يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا، فأظهرنا حلما تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه، وهو يرى مكان أنصاره، وإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين" [2] .. وإن جاز لنا أن نصدق هذه الرواية؛ وأن وجود معاوية وهو أمير المؤمنين بالمدينة قد أهاج الذكرى عند ابنه عثمان، رغم مضى سنوات عديدة على وفاته، فإنها لا تصلح للدلالة على أن معاوية لم يقتص لعثمان بقدر ما تصلح للاستشهاد على وفائه لعهوده، وحرصه على وحدة الأمة، وحقن دمائها.

ومن الطبعي أن تكون رغبات المرأة طليقة في الثأر لأبيها من كل من نظن أن له دورا في قتله، وربما كان على رأس هؤلاء – فيمن تظن – أهل المدينة الذين لم ينصروا أباها، كما صورهم الدعاية السبئية – ولقد كان الحسن بن على ﷺ يقول لأبيه عندما يذكر براءته من قتل عثمان؛ ويدلل على ذلك، فيقول الحسن : دع عنك هذا، والله إني لأظن، بل لا أشك أن ما بالمدينة عاتق ولا عذراء ولا صبي إلا وعليه ثقل من دمه " [3] ...

وقد كان الثائرون على عثمان يقدرون بالمئات، منهم الذي تزعم الثورة وباشر القتل، ومنهم الذي كان مدفوعا بأجواء الدعاية البغيضة ضد عثمان، وكان هناك من سكت؛ فلم يأمر ولم ينه، وهناك من تجنب الفتنة وترك المدينة؛ وكان يظن أن الأمور لن تصل إلى حد قتل أمير المؤمنين .. ولم يتم حصر دقيق بالثائرين عليه، ولم يعرفوا جميعا بأعيانهم، ولكن كان قادتهم معروفين مشهورين، وهؤلاء هم الذين يجب القصاص منهم ومحاسبتهم، وهم الذين كان يعنيهم معاوية في مطالبته عليا بالثأر منهم، وذلك كالأشتر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وكنانة بن بشر وعبد الرحمن بن عديس البلوى وغيرهم .. وكانت شوكتهم – أيام علي – ظاهرة، وسلطانهم قويا، ومن حق ولي القتيل أن يطالب بدمه – وقد وعده الله النصر – ومن حقه أيضا أن يعفو عن القاتلين إذا تمكن منهم، وهو العفو عند المقدرة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى؛ الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، وذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) [4]، وعلى ذلك

---

[1] طه حسين : الفتنه الكبرى 34/2، الحوفي : أدب السياسة في العصر الأموي 21، العقاد : معاوية في الميزان100

[2] الجاحظ : البيان والتبيين 182/3 –183، ابن كثير : البداية والنهاية 183/8

[3] الإمامة والسياسة 94/1

[4] سورة البقرة آية 178

فقد طلب معاوية بالقصاص من قتلة عثمان، وحارب من أجل ذلك، حتى فني في حروبه وحروب غيره من المطالبين بدم الخليفة المظلوم كثيرون من هؤلاء الثائرين وأولى البأس منهم والشوكة الظاهرة.

فقد قتلت جيوش طلحة والزبير وعائشة في البصرة سبعمائة رجل من قتلة عثمان [1]؛ وعلى رأس هؤلاء حكيم بن جبلة وذريح بن عباد العبدي، والذين لم يقتلوا من أهل البصرة في هذه المعركة التي دارت بين قتلة عثمان وجيش طلحة والزبير قبضت عليهم قبائلهم وجاءوا بهم إلى طلحة والزبير كما يجاء بالكلاب فقتلوا، فما أفلت من أهل البصرة جميعا إلا حرقوص بن زهير السعدي فإن بني سعد منعوه [2]، وفى موقعة الجمل قتل أيضا علباء بن الهيثم السدوسي، أحد الثوار على يد عمرو بن يثربي قاضى البصرة [3] ..

وفى موقعة صفين كان كثير من قتلة عثمان والثائرين عليه في جيش علي ﷺ، فلقي عدد من أبرز زعمائهم مصرعهم في حربهم الشام، مثل جندب بن زهير الغامدي، وأبو زينب ابن عوف بن الحارث الأزدي، وكان أحد المؤلبين على الوليد بن عقبة والمحرضين على عثمان [4]، وفى هذه الموقعة أيضا قتل عمار بن ياسر [5]، أحد الذين خدعتهم دعايات السبئية وشعاراتهم المكذوبة ..

ثم إنه بعد التحكيم خرج كثير ممن بقي من قتلة عثمان العراقيين على علي يكفرونه، فحاربهم في النهروان فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان ممن قتل منهم يومئذ حرقوص بن زهير [6] الذي نجا من القتل على يد طلحة والزبير، وشريح بن أوفى الذي قطعت رجله في هذه المعركة وظل يقاتل حتى مات وهو يرتجز في ضلاله القديم ويقول :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ضربته بالسيف حتى يطمئن ! [7]

وظل ثلاثة من أكابر الثائرين على عثمان وهم محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر ومحمد ابن أبي حذيفة، وقد قتل الأولان في حملة معاوية على مصر سنة 38هـ بقيادة عمرو بن العاص [8]، وأما محمد بن أبي حذيفة، وهو ابن خال معاوية في نفس الوقت؛ فقد قتل قبل ذلك في حملة عمرو بن العاص على مصر سنة 36هـ ، وقيل بل أسره جيش عمرو سنة 38هـ وأرسله إلى الشام، فهرب من محبسه هناك، فظفر به أحد جنود الشام فقتله [9]، وفى الشام أيضا قتل عبد الرحمن بن عديس البلوي

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية 237/7، الطبري : السابق 488/4 وفيه أن المقتولين ستمائة إلا رجلا

[2] الطبري : السابق 472/4

[3] السابق 530/4

[4] السابق 27/5

[5] السابق 38/5—41

[6] البداية والنهاية 237/7، الطبري : السابق 87/5

[7] الطبري : السابق 87/5—88

[8] السابق 103/5 —105

[9] السابق 105/5 —106

زعيم ثوار مصر، في جبل الخليل بالقرب من حمص، حيث لقيه أحد الأعراب فلما تعرف عليه وعلم أنه من قتلة عثمان قتله [١] ..

ثم قتل كذلك الأشتر النخعي، أبرز رجال هذه الثورة؛ لما أرسله علي واليا على مصر سنة 38هـ؛ وقد قيل إن معاوية أرسل إليه من دس له السم في شربة عسل عند القلزم [٢]، فإن كان قد فعل ذلك فله حجته في القصاص منه، غير أنه تروى روايات أخرى تذكر موت الأشتر عند القلزم ولا تنص على دور معاوية في ذلك [٣]، إما لأنه دور خفي، أو لأنه لم يحدث أصلا وتكفل بذلك أحد العثمانيين الذين طالما تمنوا الخلاص منه ! وربما مات الرجل حتف أنفه فارتاح الناقمون عليه .. وإن كان يحق لمعاوية وأهل الشام أن يسعدوا بقتل الأشتر [٤]، فقد فرح بذلك أيضا علي بن أبي طالب، حيث ثقل عليه أمر ذلك الرجل الفاتك الذي لا يستطيع من سطوته خلاصا، فلما سمع بموته قال مسرورا : " لليدين وللفم " ![٥]، وفي الحجاز هناك تلقت السيدة عائشة الخبر سعيدة؛ وكانت من قبل تدعو عليه وتقول : " اللهم ارمه بسهم من سهامك " [٦] ..

قتل من بقي من الثائرين في العصر الأموي :

وهكذا لم يتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية سنة 41هـ إلا وكان زعماء الثورة على عثمان قد اختفوا من على مسرح الأحداث واحدا إثر الآخر، وبقي منهم جماعة لم يكونوا قادة ولا زعماء في هذه الفتنة، بل كانوا أتباعا، ذهبت قوتهم بذهاب هؤلاء النفر المبرزين، فلما تولى معاوية الخلافة كان قد وافق على شرط الحسن على أن يضع ما كان بينهم من دماء [٧]، إذ إنه بذلك التنازل أصبح من بقي ممن شاركوا في هذه الفتنة تحت سيطرة معاوية وقدرته، وأصبح تحقيق وحدة المسلمين، وحقن الدماء التي طال نزفها حلما قريبا وأملا ممكنا، وأصبح العفو بعد المقدرة أقرب للتقوى، وأوجب لمصلحة الأمة؛ بعد أن انتهى خطر هذه السبئية، وزالت سطوتها، وهلك قادتها وزعماؤها .

غير أن ذلك الأمان الذي بذله لهم معاوية لم يكن يعني أنه وبني أمية قد نسوا دور هؤلاء في الثورة على عثمان، بل لم يكن ذلك الأمان أكثر من فرصة ارتضى الخليفة إعطاءها لهم ليحقن دماء الأمة، ويختبر صدق نواياهم بعد أن بايعوه، وقدرتهم على المشاركة الهادئة المنتجة في المجتمع الجديد، ولذلك فإنه ما كان يبدو من أحد هؤلاء المتمردين قديما تمرد جديد على السلطة الشرعية الجديدة حتى يلاقي الاتهام القديم يلاحقه بأنه ممن ثاروا على عثمان وأنه بات غير جدير بالثقة والأمان ..

---

[١] ياقوت معجم البلدان، مادة " الجليل " .

[٢] الطبري : السابق 95/5ـــ96

[٣] الكندي :ولاة مصر وقضاتها 25ـــ26، ابن قتيبة : عيون الأخبار 201/1

[٤] الطبري : السابق 95/5ـــ96

[٥] ابن قتيبة : لسابق 201/1، الكندي : السابق 25

[٦] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة 104/1ـــ105

[٧] الطبري : السابق 164/5

فقد اشترك عمرو بن الحمق الخزاعي في ثورة حجر بن عدي الكندي؛ ولما قبض عليه من قبل عامل معاوية على الموصل؛ كتب إليه معاوية: " إنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه، وإنا لا نريد أن نعتدي عليه، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان، فأخرج فطعن تسع طعنات مات في الأولى منهن أو الثانية، وذلك سنة 51 هـ [١] ..

ولما استخلف مرون بن الحكم بالشام، وأحكم سيطرته عليها بعد مرج راهط سنة ٦٤هـ وغزا مصر ففتحها من أيدي أتباع ابن الزبير قتل أحد قادتها واسمه الأكدر بن حمام اللخمي وهو يذكر دوره في الثورة على عثمان [٢] ..

ولما ولى الحجاج بن يوسف العراق سنة 75 هـ، هدد الفارين من جيش المهلب بن أبي صفرة الذي يقاتل الخوارج الأزارقة بالموت أن لم يلحقوا به قبل مضى ثلاثة أيام، فتخلف عمير بن ضابىء التميمي متعللا بأنه شيخ عليل، وأنه مستعد أن ينيب عنه ولده الشاب، فقال الحجاج: ألست القائل :

همت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله ؟

إني لأحسب في قتلك صلاح المصرين (البصرة والكوفة)؛ ثم قتله [٣] ..

ولما انتصر الحجاج على ابن الأشعث في دير الجماجم (82 أو 83 هـ) قتل كميل بن زياد النخعي أحد الخارجين عليه وأحد الثائرين على عثمان من قبل، بعد أن ذكره بعفو الخلفاء الأمويين المتتالين عنه وصنيعه هو معه، ولكنه كان كما وصفه "مقعد في الجماعة، صحيح في الفتنة " [٤] ..

٦- شبهات حول التحكيم ووسائل معاوية للوصول إلى الخلافة:

ـ حول تحالف معاوية وعمرو بن العاص :

تتفق الروايات التاريخية على نصاعة سيرة عمرو بن العاص وحسن بلائه وعطائه منذ أسلم وبايع النبي ﷺ فشهد له وقال ﷺ : " أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص" [٥]، وسأل النبي ﷺ أن يدعو الله ليغفر له ما تقدم من ذنبه فبشره بذلك وقال : إن الإسلام يجب ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها " [٦]، وكذلك كانت حسن سيرته وبطولته في حياة الشيخين أبي بكر وعمر، فقد شارك في فتح الشام وكان له فضل فتح مصر، وظل واليا عليها في خلافة عمر وصدرا من خلافة عثمان ..

ثم تضطرب صورة عمرو بن العاص بعد ذلك أشد الاضطراب، فتظهره معظم الروايات نفعيا يتكالب على الدنيا، ويعطي نصرته لمعاوية للطلب بدم عثمان، رغم أنه كان ـ فيما يزعمون ـ

---

[١] السابق 265/5، ابن الأثير : الكامل 236/3

[٢] ابن تغرى بردى : السابق 166/1

[٣] الطبري . السابق 207/6

[٤] ابن اعثم : الفتوح 142/7، وراجع الطبري : السابق 404/4 حث أورد خبر آخر في قتله

[٥] رواه الترمذى باب مناقب عمرو بن العاص، الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة 264/2 وقال:حديث حسن

[٦] ابن هشام السيرة النبوية 3 / ١٨٣

من أعظم المؤلبين عليه ويتفتق ذهنه عن خدعه التحكيم من أجل إنقاذ معاوية وقد تحققت هزيمته يوم صفين، كل ذلك من أجل أن يعطيه معاوية مصر طعمة !!.

فأما إعطاؤه مصر طعمة فأمر تثور من حوله الشكوك حتى ليكاد بعد الدرس والتمحيص يغدو مجرد رواية ذاعت بغير حقيقة [1]، وأما كونه من أعظم المؤلبين على عثمان فغير ثابت، فهو لم يكن من زعماء الثوار كالأشتر وابن أبي بكر وغيرهم .. وما ينسبونه إليه من قول لعثمان : " إنك ركبت بالأمة نهابير، فتب وليتوبوا معك "، فتختلف الروايات بشأنه كثيرا، فتزعم الروايات المصرية التي روجها السبئية أنه قالها في المسجد ليحرض الناس وأيده في قوله أهل المدينة، وأنه كان قد أرسله عثمان لرد أهل مصر عنه في سيرهم الأول ، فذهب إليهم وحرضهم عليه [2]! وهو قول غير مسلم به، فلم يكن أهل المدينة مؤيدين للثوار، وقد خرج زعماؤهم ليردوهم ونجحوا في ذلك .. وتزعم روايات أخرى أنه قال ذلك في مجلس الشورى الذي عقده عثمان لبحث أسباب الشكوى ــ وكان عمرو أحد أعضائه ــ وقد برر عمرو ذلك بأن بالباب من يتسمع لهم؛ وأن ذلك القول سيصل إلى آذان الثوار فيستطيع بذلك أن يكسب ثقتهم فدفع عن عثمان شرا، أو يجلب له خيرا [3] .. ويقولون : بل قال هذه المقالة في المسجد تعضيدا لأمر عثمان الذي خرج يسترضي الناس، وأنه لما قال له ذلك حول عثمان وجهه إلى القبلة ورفع يديه فقال : اللهم إني استغفرك وأتوب إليك، ورفع الناس أيديهم يتوبون ويبكون [4].. فأي ذلك كان ؟ وعلى أي وجه نحمله ؟ ولماذا لا نحمله إلا على شر الوجوه ؟! ..

وشبيه بذلك الخطل أن ينسب إلى عمرو أنه ذهب إلى فلسطين يتسقط الأخبار ويتعجل قتل عثمان [5]، ويقول لما بلغه مصرعه: " قد علمت العرب أني إذا حككت قرحة أدميتها " [6] ..

ومن المؤكد أن معاوية وأهل الشام لم يكونوا ليقبلوا وجود عمرو بن العاص بينهم، ويعطوه هذه المكانة عندهم، لو كان ممن يتهمونهم بقتل عثمان أو التحريض عليه، وقد رأينا مواقفهم مع هؤلاء حتى من كانوا قريبي الصلة بمعاوية مثل ابن خاله محمد بن أبي حذيفة .. وأكبر ما يمكن أن يوجه من نقد لعمرو في هذه المرحلة أنه لم يكن من المدافعين عن عثمان والذابين عنه؛ وأنه لما رأى الأمور تسير نحو الهاوية خرج من المدينة بعيدا عن أجواء الفتنة، ولكن كثيرا من أهل المدينة فعلوا ذلك كراهة أن يصيبهم الهام إن قتل عثمان وهم بالمدينة، أو ظنا منهم أن الأمر لن يصل إلى حد قتل الخليفة، أو لرفض الخليفة مبدأ الدفاع عنه، أو لإرهاب الثوار لهم؛ وذلك ما يقرره عمرو بن العاص نفسه حيث

---

[1] راجع ما سيأتي في الفصل الخاص بالشبهات حول سياسة الأمويين المالية ..

[2] ابن عساكر : تاريخ دمشق ترجمه عثمان 427/40

[3] الطبري : السابق 334/4، ورواية سيف تختلف عن ذلك فقد نصح الخليفة أن ينهج نهج عمر فيلين في موضع اللين ويشتد في موضع الشدة، بدل أن يلين على طول الطريق (السابق 342/4ــ343)

[4] ابن سعد الطبقات الكبرى 48/3

[5] الإمامة والسياسة 47/1

[6] ابن عساكر : السابق 431/40

قال لما أحيط بعثمان : "يا أهل المدينة؛ لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل، من لم يستطع نصره فليهرب "[١]، وذلك ما يؤكده الحافظ الذهبي في روايته عن جويرية بن أسماء، قـال : حدثني عبد الوهاب بن يحيى بن عبد الله بن الزبير؛ حدثنا أشياخنا: أن الفتنة وقعت وما رجـل مـن قريش له نباهة أعمى فيها من عمرو بن العاص، ومازال مقيما بمكة ليس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل"[٢]، وروى ابن الأثير واصفا حال عمرو لما بلغه قتل عثمان، فقال: ارتحل عمـرو راجلا، معه ابناه، يبكي كما تبكي المرأة، وهو يقول: واعثماناه ! أنعى الحياء والديـن، حتى قـدم دمشق"[٣]، ويقول في رواية أخرى : إنه قد سار عن المدينة قبل أن يقتل عثمان نحو فلسطين[٤] ..

وربما كان ذهابه إلى مكة أولى بالقبول من ذهابه إلى فلسطين؛ فمكة هي البلد الذي ارتحل إليه كثير من الصحابة ذوى الشأن لما بلغهم قتل عثمان، أو بعد ذلك، مثل طلحـة والزبـير وابـن عمـرو وغيرهم، وقد توافق حصر عثمان مع موسم الحج سنة 35 هـ ...

حول ظروف بدء القتال بين على ومعاوية :

تعتمد روايات الطبري ــ وعنه أخذ كثير من المؤرخين التالين ــ في هذه المرحلـة علـى رواية أبي مخنف الشيعي المحترق ــ وهى تصل إلى الطبري عن طريق هشام الكلبي وهـو رافضـي كذاب، وذلك يعنى مزيدا من الحذر في تناولها ودراستها.

لما انتصر علي على أصحاب الجمل[٥] بدأ يستعد لقتال معاوية وأهل الشام، ومنذ البداية استأذنه نحو أربعمائة رجل من القراء من أصحاب عبد الله بن مسعود فقالوا : يا أمير المؤمنـين، قـد شككنا في هذا القتال، مع معرفتنا فضلك، وطلبوا أن يأذن لهم بعد ذلك بقتال المشركين، فوجههـم نحو ثغر قزوين والرى[٦] ..

وسار علي بجيوشه نحو الشام فعبر الفرات حتى وصل إلى صفين[٧]؛ ثم أرسـل رسـله إلى معاوية يدعونه إلى الطاعة والجماعة، وكان بعضهم من المتهمين عنده بقتل عثمان، وبعضـهم ممـن

---

[١] ابن الأثير الكامل 140/3

[٢] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 113/1

[٣] ابن الأثير السابق 140/3

[٤] السابق والصفحة

[٥] رغم وجود بعض الأمويين ضمن جيش طلحة والزبير وعائشة مثل مروان بن الحكم وغيره فإن معاوية لم يسـاعدهم في القتال، وقد أثار ذلك بعض الشبهات عند بعض المؤرخين (د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأمـوي 81) ويبدو أن سبب ذلك هو أن معاوية كان محصورا آنذاك بين قوة الروم المتربصين في الشمال وقوة مصر الـتي يحكمـها عامل علي في الغرب، ولم يستطع معاوية حرب علي إلا بعد أن سالم البيزنطيين (د. فتحي عثمان : الحدود الإسـلامية البيزنطية ص 37) وجهز حملة سريعة على مصر سنه 36 هـ أضعف فيها شأن أنصار علي، وأعلى من شأن العثمانيـة حتى أصبحوا قوة تستطيع أن تشغل عامل علي عن محاصرة معاوية إن حارب عليا أو مهاجمته ..

[٦] الدينوري : الأخبار الطوال 164ـــ165

[٧] الطبري السابق 4 / ٥٦٣-٥٦٦

استثار غضبة بسوء حديثه وتعاليه، كما سبق القول، وأرسل إليه معاوية من يدعوه إلى تسليمه قتلة عثمان من جيشه، ولكن عليا كان لا يستطيع ذلك، فلما انتهت هذه المفاوضات بالفشل كان علي هو البادئ بالقتال، وأمر مناديه أن ينادي في معسكر معاوية أنه قد نبذ إليهم على سواء [١]، فكان كل فريق من الجيش يخرج ليلاقي فريقا من الجيش الآخر، قال علي : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا ؟ [٢]، فكانت الحرب المدمرة بين الجيش كليهما..

إن بدء علي القتال، وقدومه بجيشه إلى حدود الشام... وإن وافق رأي علي في وجوب قتال من امتنع عن بيعته واحترز دونه بقوته وهو خليفة المسلمين؛ إلا أنه قد أدى إلى تكتل أهل الشام خلف معاوية، رغم أنه آنذاك لم يكن قد ادعى الخلافة؛ ولم يكن قد تسمى بأمير المؤمنين، فقد قاتلوا معه " لظنهم أن عسكر علي فيهم ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنهم يقاتلونهم دفعا لصيالهم عليهم، وقتال الصائل جائز، لهذا لم يبدءوهم بالقتال حتى بدأهم أولئك، ولهذا قال الأشتر النخعي: إنهم ينصرون علينا لأنا نحن بدأناهم بالقتال " [٣] ..

نقد رواية أبي مخنف عن التحكيم ونتائجه :

تفترض هذه الرواية أن السبب في التحكيم والباعث إليه كان إشراف جند الشام على الهزيمة، مما دفع عمرو بن العاص إلى تدبير هذه " الخدعة " للخروج من مأزق الحرب والهزيمة [٤]..

والحقيقة أن الحرب كانت سجالا بين الفريقين [٥]، فقد وصلت ميمنة جيش العراق إلى قبة معاوية، ثم ما لبثت ميسرة أهل الشام أن أفاقت، وردت ميمنة العراق وكشفتها، فأمر علي سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة فاستقبلتهم جموع لأهل الشام عظيمة، فاحتملتهم حتى ألحقتهم بالميمنة المهزومة، فلما كشفوا انتهت الهزيمة إلى علي في القلب، فانصرف يمشي نحو الميسرة، فانكشفت عنه مضر من الميسرة، وثبتت ربيعة [٦]، ثم استطاع الأشتر أن يعيد الميمنة المهزومة إلى مواقعها وينتهي إلى معاوية ـــ مرة أخرى ـــ وحوله خمسة صفوف من أهل الشام قد بايعوه على الموت، وهم معقلون بالعمائم، واشتد الكرب بمعاوية حتى هم ـــ فيما يقولون ـــ بالفرار، لولا أنه ذكر قول ابن الأطنابة :

أبت لي عفتي، وحياء نفسي ... وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

---

[١] الطبري : السابق 10/5، الدينوري السابق 17

[٢] الطبري : السابق 13/5

[٣] ابن تيمية :منهاج السنة 202/2 ـــ 203، مجموع فتاوى شيخ الإسلام 72/35، وقد روى الطبري أن أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة بعد التحكيم (تاريخ الرسل والملوك 97/5)

[٤] الطبري : السابق 48/5ــ57، 67ــ71

[٥] ولم تكن كما زعم عوانة بن الحكم الذي يصفه بعض المؤرخين بالعثمانية حيث يرى أن وقعات صفين كانت أربعين وقعة كلها لأهل العراق على أهل الشام (ابن العديم بغية الطلب في تاريخ حلب ص 326) ..

٦ الطبرى · السابق 18/5

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي [١]

وإذا كان ذلك قد حدث ليلة الهرير، فقد صمدت جيوش الشام للقتال الذي استمر حتى اليوم التالي، وكان عظم الناس من أهل الشام قد بايعوا معاوية على الموت معه [٢] ..

وسقط من كلا الفريقين قادة أعلام، ففقد أهل العراق عمار بن ياسر وعبد الله بن بديل وهاشم بن عتبة المرقال، وفقد أهل الشام عبيد الله بن عمر بن الخطاب وابن ذي الكلاع الحميري وغيرهما [٣] ..

فلو كان أهل الشام سيرفعون المصاحف تقية من الهلاك أو خوفا من الهزيمة لرفعوها ليلة الهرير، لما أوشك معاوية آنذاك على الفرار — فيما يزعمون — لولا تلك الأبيات من الشعر..

مبادرات عديدة للصلح قبل التحكيم :

كما أن التحكيم لم يكن مبادرة السلام الوحيدة في هذه المعركة؛ فقبل القتال كانت الرسل تترى بين الفريقين هادفة إلى تحقيق المصالحة والسلام، فلما فشلت هذه المحاولات وقرر أمير المؤمنين بدء المواجهة الشاملة مع أهل الشام نظر كعب بن جعيل إلى هذه الحشود وهو يقول مشفقا:

أصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غدا لمن غلب

فقلت قولا صادقا غير كذب إن غدا تهلك أعلام العرب [٤]

وفي تنظيم الجيش ندب علي ﷺ كل قبيلة من العراق لأختها من أهل الشام [٥]، فجعل أزد العراق في مواجهة أزد الشام، فقال مخنف بن سليم الأزدي العراقي بعد حمد الله والثناء عليه " إن من الخطأ الجليل والبلاء العظيم أنا صرفنا إلى قومنا وصرفوا إلينا، والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا، وما هي إلا أجنحتنا نجذها بأسيافنا، فإن نحن لم نؤاس جماعتنا، ولم نناصح صاحبنا؛ كفرنا وإن نحن فعلنا فعزنا أبحنا، ونارنا أخمدنا، ... اللهم أن تعافي أحب إلينا من أن تبتلي" [٦] ..

وإذا كان مثل ذلك قد ظهر في معسكر العراقيين، والمرجح أن الرواية العراقية أخفت بعضه، فقد ظهر مثله في معسكر الشام ..فإن يزيد بن أسد القسري وقف يوم صفين يخطب في الناس وهو متكئ على قائم سيفه فقال : وقد كان قضاء الله جل وعز أن جمعنا وأهل ديننا في هذه البقعة من الأرض، والله يعلم أنني كنت لذلك كارها، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا ، ولم يدعونا نرتاد لديننا، وننظر لمعادنا، حتى نزلوا في حريمنا وبيضتنا، وقد علمنا أن في القوم حكماء وطغاما، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ونسائنا، وقد كنا لا نحب أن نقاتل أهل ديننا، فأحرجونا، حتى صارت الأمور

---

[١] السابق 23/5—24

[٢] السابق 15/5

[٣] السابق 36/5 — 37، 41 —44

[٤] السابق 14/5

[٥] السابق والصفحة

[٦] السابق 26/5 —27

إلى أن يصير قتالنا غدا حمية، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، والذي بعث في محمدا ﷺ بالحق نبيا لوددت أني مت قبل هذا " [١] ..

وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله يومذاك وهو يسترجع : " والله ما هذا بيوم ذات السلاسل، ولا بيوم اليرموك، ولا يوم أجنادين، وددت أن بيني وبين موقفي بعد المشرقين " [٢] .. ونادى حوشب الحميري عليا فقال: " انصرف عنا يا ابن أبي طالب، فإنا ننشدك الله في دمائنا ودمك، ونخلي بينك وبين عراقك، وتخلي بيننا وبين شامنا، وتحقن دماء المسلمين " [٣] ..

وكان هذا الإشفاق هو حال الفريقين قبل نشوب القتال، فقد استمر أثناء المعارك .. فبعد أن انكشفت ميمنة أهل العراق أقبل عدى بن حاتم يطلب عليا ﷺ في موضعه الذي خلفه فيه، فلم يجده فسأل عنه فدل عليه، فاقبل يقول: " أما إذا كنت حيا فالأمر أمم (أي يسير هين)، وأعلم أني ما مشيت إليك إلا على أشلاء القتلى، وما أبقى هذا اليوم لنا ولا لهم عميدا " [٤] ..

ولكن القتال استمر حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف وتكادموا ـ أي تعاضوا ـ بالأفواه، وتحاثوا التراب، فكانوا يتنادون من كل جانب يا معشر العرب، من للنساء والأولاد، الله الله في الحرمات " [٥] .. وأرسل معاوية إلى علي يقول : " أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نرم به ما مضى، ونصلح به ما بقي ، وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهب الرجال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز، ويسترق به حر والسلام " [٦] ..

بل إن الدعوة الواضحة للسلام التي تثبت أن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال؛ وأنه لم يكن هناك إلا المكابرة التي تمنع أحد الطرفين من قبول الهزيمة، هذه الدعوة جاءت من معسكر العراق !! فقد خطب الأشعث بن قيس زعيم كندة أصحابه ليلة الهرير فقال : " قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ؛ فما رأيت مثل هذا اليوم قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب، وضيعة الحرمات، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحرب، ولكني رجل مسن، أخاف على النساء والذراري غدا إذا نحن فنينا،..."، وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال : " أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذراري أهل الشام

---

[١] الأصفهاني : الأغاني 11/22

[٢] البيهقي : المحاسن والمساوى 54/1

[٣] أبو نعيم : حلية الأولياء 85/1

[٤] الدينوري : الأخبار الطوال 186

[٥] السابق 183

[٦] المسعودى :مروج الذهب 22/3، الدينوري : السابق 187

ونسائهم، ولتملين فارس على ذراري أهل العراق ونسائهم، إنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنـهى"، ثم قال لأصحابه : اربطوا المصاحب على أطراف القنا [١] .. وتلك رواية عراقية في أولها وآخرها تثبت أن الموادعة كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو بشيء أن تأتي أحدهما الشجاعة فيبادر بذلك؛ وينقذ ما بقي من قوى الأمة المتصارعة ...

حول موقف علي من التحكيم :

ورواية أبي مخنف تفترض أن عليا رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد ... وأنه وصف معاوية وعمرا وقادة أهل الشام بأنهم ليسوا بأصحاب دين وقرآن، وأنه صحبهم فكانوا شر أطفال وشر رجال !! [٢].

ونحن لا نصدق أن معاوية وأصحابه وهم من صحابة النبي ﷺ ليسوا رجال قرآن ودين، وكيف ذلك ومعاوية من كتاب الوحي، الذين استأمنهم عليه رسول الله ﷺ ؟؟ وقد زكى أبو بكر وعمر دينه وأمانته لما اختاراه واليا، وكذلك كان عمرو بن العاص ؟... وبعض من ترميهم هذه الرواية بتلك الأوهام لم يشهدوا صفين، بل كانوا آثروا اعتزال القتال كالوليد بن عقبة [٣] وعبد الله بن سعد بن أبي سرح [٤]، بل إن بعض الرواة يروي أن عليا كان حسن الرأي في معاوية وأنه قال لأصحابه لما سألوه: أترى معاوية يكون علينا أميرا ؟ فقال : "لا تكرهوا إمرة معاوية، فإن إمرته سلم وعافية" [٥]، وإن رددنا مثل هذه الرواية فتلك أولى بالرد ..

وبعيد أن يرفض علي رضي الله عنه في تقواه وورعه حكم القرآن لما يدعى إليه وهو يعلم أن الله يقول : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا

---

[١] نصر بن مزاحم :وقعه صفين 547ـــ549، ابن أبي الحديد :شرح نهج البلاغة 214/2 ـــ 215، الدينوري : السابق 188ـــ189، ولعل ذلك ما أوحى لبعض المؤرخين بافتراض وجود مؤامرة في جيش علي وجود أفراد مؤيدين لمعاوية به، ويربطون ذلك بتصميم الأشعث على تولية أبي موسى التحكيم نائبا عن علي بدل الأشتر وابن عباس (طه حسين الفتنه الكبرى 99/2ـــ100)، د. بيضون الحجاز والدولة الإسلامية 207)

[٢] الطبري : السابق 5 /٤٨-٤٩

[٣] راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى 24/6، ابن قتيبة : المعارف 320، د. حسين عطوان :المرجئة بخراسان في العصر الأموي ص 61 مقال بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني العدد المزدوج 28ـــ29 السنة التاسعة شوال 1405 هـ، ربيع ثان 1406

[٤] روى البغوي بإسناد صحيح قال : خرج ابن أبي سرح إلى الرملة فلما كان عند الصبح قال اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه ، ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه؛ رحمه الله، وذكر البخاري هذا الخبر من هذا الوجه (محب الدين الخطيب : هامش المنتقى 377)

[٥] الإمامة والسياسة 152/1، 164

وأولئك هم المفلحون)[١]، وقد احتج علي نفسه وابن عباس بذلك على الخوارج لما خرجوا عليه وأنكروا قبوله التحكيم[٢] ..

ورواية أبي مخنف المضعوفة هذه لا تصمد أمام روايات أخرى لا يتهم أصحابها بهوى، مثل ما يرويه الأمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل (أحد رجال علي ابن أبي طالب) فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية : أرسل إلى علي المصحف؛ فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)[٣]، فقال علي: نعم، أنا أولى بذلك، فقال القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج : يا أمير المؤمنين ما ننتظر بهؤلاء القوم ؟ ألا نغشى عليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا ؟ فقال سهل بن حنيف : يا أيها الناس اتهموا أنفسكم؛ فقد رأيتنا يوم الحديبية ... فذكر قصة الصلح مع المشركين لما وافق الرسول ﷺ عليه وعارضه عمر بن الخطاب حتى لقد رضي النبي ﷺ أن يزيل اسمه من وثيقة الهدنة لما صمم على ذلك المشركون[٤] ...

إن هذه الرواية الصادرة عن أحد أفراد جيش علي أولى بالقبول من رواية أبي مخنف؛ فحتى وإن كانت تقدم بعض الرؤى العراقية مثل جعلها التحكيم آت بسبب اشتداد الضر بالمعسكر الشامي إلا أنها تبدو أكثر إقناعا في تبرير موقف الخوارج من علي، ذلك الموقف الذي يبدو متسقا مع ما عرف عن هذه الطائفة التي لم تنبت فجأة، وإنما تمتد جذورها الفكرية، ورموزها القيادية، إلى جماعة الثائرين على عثمان والحاملين لفكر ابن سبأ[٥]، ومع موقفهم الرافض للمصالحة والتفاهم والذي يرى أن عزهم في إنشاب القتال كيلا يفرغ لهم المسلمون[٦]، ولسنا ننسى أنهم قتلوا من قبل كعب بن سور قاضي البصرة لما رفع المصاحف يوم الجمل طالبا التحكيم[٧]، والأمر يختلف الآن في صفين عنه يوم الجمل، فلم ترفع المصاحف إلا بعد أن عض القوم القتال، وأصبح كلا الفريقين يرجو حلا مشرفا لهذا المأزق الرهيب، وكان جيش علي يحوى كثيرا من أهل البصرة الذين أوذوا كثيرا يوم الجمل نتيجة القتال بين المسلمين، ويحوي كثيرا من العناصر القبلية التي لا ترضى عن قتال نظائرها في الجيش الآخر...

---

[١] سورة النور آيه 51

[٢] ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٩١-٩٢

[٣] سورة آل عمران آية ٢٣

[٤] ابن حجر :فتح الباري 86/13

[٥] راجع د. فهمي عبد الجليل : فرقه السبئية ونشاطها الهدام، مقال سابق ص 131 ــ135

[٦] الطبري : السابق 494/4

[٧] الطبري : السابق 513/4، ابن كثير : البداية والنهاية 241/7ــ242، ويسميه كعب بن سواد، وقد قيل إن عليا أيضا يوم الجمل أرسل أحد أصحابه بمصحف يدعو إلى تحكيمه فقتل (السابق 511/4)

ورغم كل ذلك فقد كان الأشتر النخعي أحد قادة السبئية يصر علـــى تفجـــير الموقـــف ومواصلة القتال رغم استدعاء علي له مرات بزعم أنه أوشك على النصر، حتى أرغم أخيرا علـــى وقف القتال [١] ..

نهاية التحكيم :

.وأخيرا تنتهي رواية أبي مخنف عن أبي جناب الكلبي عن التحكيم بزعم عريض مـــؤداه أن كلا الحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري سب صاحبه على نحو مقذع يخجل منـــه آحـــاد الناس الذين لم تؤدبهم صحبة للرسول ﷺ؛ ولم تؤثر فيهم أخلاق الدين، بعد أن خدع عمـــرو بـــن العاص أبا موسى، وكانا قد اتفقا على خلع الرجلين علي ومعاوية وترك الأمر شورى بين المســـلمين فقدم عمرو أبا موسى ليخبر الناس بذلك، فخلع صاحبه عليا، وقام عمرو فخلع عليا أيضـــا وثبـــت معاوية، فقال أبو موسى: مالك لا وفقك الله، غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمـــل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .. [٢]، وقد شـــاعت هذه الرواية وتناقلها المؤرخون من بعد [٣]؛ رغم أنها ليست الرواية الوحيدة في هذا الشأن، ولا أجـــدر تلك الروايات بالقبول؛ فقد أورد الطبري رواية مبتورة للشعبي تذكر أن أبا موسى اعترف لعمرو بـــن العاص بأن عثمان قتل مظلوما، وأن معاوية هو وليه، والطالب بدمه، وأن أبا موسى قد اقترح اســـم عبد الله بن عمر للخلافة، ثم تنتهي هذه الرواية إلى هذا الحد [٤] ومن الأرجح أن نهاية تلك الروايـــة تختلف عن نهاية رواية أبي مخنف [٥]، وذكر المسعودى روايات أخرى للتحكيم يتفق بعضـــها مـــع أبي مخنف ويختلف بعضها معه [٦]، والرؤية الجديدة التي يقدمها المسعودى تتمثل في أن الحكمين لم يكتفيـــا بالخطب المتبادلة، لينهيا بذلك التحكيم الذي أصبح يمثل أمل الأمة في اجتياز هذه الأزمة، فقد اتفـــق الحكمان ــــ فيما يروى المسعودي ــــ على كتابة ما يتفقان عليه في وثيقة بينهما، ختماها بخاتميـــهما، واتفقا فيها على خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى بين المسلمين، ولم يخطبا ولم يتسابا [٧]، وقد أيـــد

---

[١] الطبري : السابق 49/5 ـــ51

[٢] السابق 5 /٦٨-٧١

[٣] ابن الأثير : الكامل 161/3 ـــ169، 162، نصر بن مزاحم صفين 625ـــ626 ابن خلـــدون : العـــبر ١٧٧/٢ ـــ178، الدينوري : الأخبار الطوال 199ـــ201، الإمامة والسياسة 136/1ـــ137، المسعودى : : مروج الذهـــب 409/2ـــ410، ابن طباطبا : الفخري ص 93

[٤] الطبري : السابق 67/5ـــ68

[٥] فلهوزن تاريخ الدولة العربية 85

[٦] مروج الذهب 407/2 ـــ412

[٧] السابق 407/2ـــ410

بعض الدارسين المحدثين هذه الرواية الأخيرة [1]، ومما يعزز من قوة ذلك الرأي أننا نعلم أن أبا موسى لم يكن ذلك الشخص الساذج الغافل كما يزعم الرواة، وأن صنيعه في التحكيم عده بعض الناس وقتها عملا مجيدا، وكان مثار فخر لأولاده من بعده مما دفع ذا الرمة الشاعر إلى مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري بقوله :

أبوك تلافى الدين والناس بعدما … تساءوا وبيت الدين منقطع الكسر

فشد إصار الدين أيام أذرح … ورد حروبا قد لقحن إلى عقر [2]

وقد أكد رجال الحديث الثقات أن الحكمين قد خلعا عليا ومعاوية وتركا أمر الخلافة شورى بين المسلمين، وأن عمرا ـ بذلك العمل ـ قد تعرض لسخط معاوية إذ لم يتحقق هدفه، وبقي الأشتر ورفاقه من الثوار على عثمان أحرارا طلقاء في معسكر علي ..

فقد روى ابن العربي عن الدارقطني بسنده عن حصين بن المنذر ـ أحد كبار أصحاب علي والمحاربين معه في صفين ـ أنه لما عزل عمرو معاوية (مع علي) جاء حصين فضرب فسطاطا قريبا من فسطاط معاوية، فأرسل معاوية إليه فقال: إنه بلغني عن هذا ـ يعنى عمرا ـ كذا وكذا، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه، فأتاه حصين فقال : أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر؟ قال أرى أنه في النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ قال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما، قال: فكانت هي التي فتل معاوية بها نفسه، فأتى حصين معاوية فأخبره بالذي قال عمرو، فغضب معاوية غضبا شديدا وأرسل إلى أبي الأعور السلمي، فبعثه في خيله، فخرج يركض فرسه ويقول : أين عدو الله ؟ أين هذا الفاسق ؟ وهو إنما يريد حوباء نفسه، فخرج عمرو إلى فرس تحت فسطاطه فجال على ظهره عريانا، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول: إن الضجور قد تحتلب العلبة، يا معاوية إن الضجور قد تحتلب العلبة " [3]، فقال معاوية : أحسبه، (أي قد يحدث ذلك)، وتريد الحالب فتدق أنفه وتكفأ إناءه [4] ..

وإن كان معاوية قد غضب على عمرو لأنه لم يحقق غرضه كاملا في تسليمه قتلة عثمان، فقد عاد ورضي عنه، وغلبه حلمه المأثور عنه، ولم يكن مثله يستغني عن كفاية عمرو ورأيه، ولا ينبغي أن

---

[1] د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 383/1، فيليب حتى : تاريخ العرب 241/1، تاريخ سوريا ولبنان 33/2، صانعو التاريخ العربي ص ٦٦-٦٧، د. إبراهيم شعوط : أباطيل يجب أن تمحى ص 180، د. محمد جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية 82ـ83 ، فلهوزن تاريخ الدولة العربية 85ـ87

[2] ياقوت : معجم البلدان مادة أذرح 162/1

[3] الضجور : الناقة التي ترغو وتزبد عند الحلب، " وقد تحتلب الضجور العلبة " مثل يراد به أن الناقة الضجور قد تحتلب ما يملأ العلبة ويضربونه للسيئ الخلق قد يصاب منه الرفق واللين، وللبخيل قد يستخرج منه المال (الخطيب . هامش العواصم من القواصم ص 181)

[4] ابن العربي العواصم من القواصم180ـ181

يدفعنا إلى رد ذلك الخبر الأخير استبعاد أن لا يعلم معاوية نتيجة التحكيم إلا من الحصين هذا بعد أن شاع خبره و" قال الناس في ذلك ما قالوا "؛ فان الجملة الأخيرة قد لا تعدو الدلالة على هذه التخمينات التي أطلقها سرعان الناس المترقبين نتيجة التحكيم قبل أن تنتقل إلى علي ومعاوية بصورة موثقة، وينبغي ألا ننسى حساسية موقف عمرو في هذه الأثناء التي لا تجعله عجلا إلى إخبار معاوية بما تم بصورة كاملة ومفصلة ..

معاوية بين الطلب بدم عثمان وطلب الخلافة :

إن روايات التحكيم تثير سؤالا مهما إذ إنها حين تنص على خلع علي ومعاوية إنما تفترض وجود متنافسين على الخلافة؛ بينما كان معاوية مجرد وال على الشام يظهر الطلب بدم عثمان ولا يدعي الخلافة، فهل تحول معاوية إلى طلب الخلافة ؟ ومتى تم ذلك ؟؟

الحق أن معاوية في إظهاره الطلب بدم عثمان كان صادقا ومتسقا مع المعهود من شريعة الإسلام وقيم العرب، ولو استطاع علي تطبيق شريعة الله على قتلة عثمان لانتهى الأمر ـ غالبا ـ عند ذلك، غير أن مجريات الأحداث المتلاحقة قد أفرزت عوامل جديدة، لم يعد ممكنا معها أن تسلم الشام ومعاوية لعلي بالخلافة، بعدما سالت بين الفريقين الدماء، وبعد ما شعر أهل الشام بقوتهم التي مكنتهم من الصمود طويلا في حرب ضد الخلافة المتخذة من العراق مستقرا لها. وبعدما انضاف إلى الصراع بعد جديد هو هذه النزعة الإقليمية القوية التي صورت النزاع على أنه نزاع بين عصبية الشام وقوة العراق، وقد مر بنا أن معاوية قد اقترح حلا للصراع أن يستقل هو بالشام؛ ويستقل علي بالعراق؛ وقد انتهى الأمر الواقع إلى ذلك فيما بعد كما يبدو، ولكن ذلك كان يعني في حقيقة الأمر أن يكون للمسلمين خليفتان؛ وهو أمر لم يكن معهودا آنذاك ..

وهكذا فإن تطور الأحداث كان يدفع بمعاوية إلى الصفوف الأولى؛ تماما كما خدمته الأقدار بعد طاعون عمواس لما أهلته ليصبح أبرز ولاة الشام .

وقد يبدو من قبيل التصنع ادعاء أن معاوية لم يكن طموحا إلى الخلافة، وقد كان بالفعل جديرا بها؛ ولكن من التجني أن نسقط من التقييم النهائي هذه العوامل التي جعلت حصوله عليها أمرا غير مستنكر ولا مستكثر، ويأتي في موضعه الطبعي دون تعسف أو ادعاء الخداع والمؤامرة ..

وفى هذا السياق يأتي التحكيم وطرح اسم معاوية كمقابل لاسم علي؛ وكند للخليفة، اعترافا بالواقع الجديد الذي لم يعلنه معاوية حتى هذه اللحظة ..

فعشية التحكيم كان يبدو كما لو كانت هناك خلافتان تتنازعان السيطرة على العالم الإسلامي، هذا بالرغم من كون معاوية لم يطلب الخلافة جهرة حتى ذلك الوقت، وكان لابد لتحقيق السلام بين أبناء الأمة من إبعاد الزعيمين المتنازعين عن تنازعهما ورد الأمر بين المسلمين، ليولي أهل الحل والعقد من أرادوا ليكون خليفة للأمة كلها ...

والذي يظل غامضا في هذا الموقف هو تعيين أهل الحل والعقد الذين يمكن أن يناط بهم اختيار الخليفة الجديد، وهو عمل شديد الصعوبة آنذاك وبخاصة في هذه الظروف العصيبة التي لا تحتمل فيها الأمة مزيد خلاف حول طبيعة هؤلاء النفر وشخصياتهم، وهكذا كانت عملية التحكيم

تستلزم عملا تكميليا ضروريا لم يتم، فلم تحدد تلك القوة التي تستطيع فرض نتائجه على الرافضين له ..

وكان فشل التحكيم يعني أن يستمر الحال على ما هو عليه من انقسام المسلمين بين هذين المعسكرين المتنازعين حتى تطرأ عوامل جديدة، ولم يتأخر ذلك طويلا؛ فقد عجلت طبيعة البناء القبلي بالعراق بحسم الصراع لمصلحة المعسكر الشامي، فقد ظهر تمرد الخوارج بما عرف عنهم من عنف وصلابة، وتململ العراقيون من مواصلة النضال حتى أضجروا خليفتهم وأيأسوه؛ فكان في أواخر أيامه يتمنى الخلاص منهم ومفارقتهم ولو بالموت، وجاء استشهاده بيد أحد هؤلاء الخوارج ليقرر عمليا انتقال الخلافة إلى معاوية؛ إذ لم يكن استخلاف الحسن بن علي في العراق إلا تمهيدا لذلك الانتقال .. وهكذا بويع لمعاوية بالخلافة في بيت المقدس سنة ٤٠هـ عقب استشهاد علي [١]، وأعقب ذلك تسليم الحسن بن علي الخلافة إليه ومبايعته بالكوفة في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٤١هـ [٢] ..

---

[١] ابن الأثير : الكامل ٣/ ٢٠٢، وراجع الطبري : السابق ٥/ ١٦١ ..وإن قيل إنه كان قد بويع بالخلافة في الشام من قبل بعد التحكيم وخلع الحكمين كلا من علي ومعاوية وتركهما الأمر شورى بين المسلمين (راجع : ابن الأثير : السابق ١٦٨/٣، ابن كثير : السابق ٢٨٣/٧) ..

[٢] الطبري : السابق ١٦٢/٥-١٦٣

الفصل الثاني

موقف الأمويين من الالتزام بالإسلام

بعد قيام دولتهم

مقدمة :

قامت دولة الأمويين بعد انقضاء عصر الراشدين ، الذي يمثل نمطاً فريداً من تمثّل الإسلام وتطبيقه في الحكم والإدارة ، وكان المجتمع الإسلامي يزخر بتطور هائل جعل استمرار هذا النمط الفريد يعاني صعوبات جمّة ظهرت آثارها في النصف الثاني من خلافة عثمان ، وطوال خلافة علي ﷺ الذي عانى أيما معاناة ليس فقط من خصومه ، بل أيضاً من أنصاره في العراق ..

وكان لابد للحكم الأموي أن يواجه هذه التغيرات الاجتماعية ويتأثر بها ، وهو في هذا وذاك قد أظهر بعداً ما عن ذلك الأفق السامق من الالتزام الإسلامي في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، الذي استمد توهجه وبريقه من الانسجام المتناغم بين القيادة والرعية ، وحرص كليهما على التحقيق بكمالات الدين ، في معظم مراحل هذه الفترة الزمنية الثرية..

غير أن التزام الدولة والمجتمع في العصر الأموي بالإسلام لم يتراجع بشكل حاد عنه زمن الراشدين ، فقد كان كثير من مسلمي العهد الأموي ممن عاش زمن الراشدين ، سواء كانوا من شيوخ الصحابة أو جيل التابعين ... وإن صح أن نقول إن الاندفاع إلى تحقيق مثالية الإسلام قد أفسح الطريق لظهور نوع من الواقعية والترخص ، لا يخرج في مجمله عن حدود الإسلام ، الذي نعرفه ديناً شاملاً كاملاً ، يعترف باختلاف قدرات البشر واستعداداتهم ، ويشرع العزائم والرخص ، ولا يخرج أتباعه في هذه الحال أو تلك عن حدود الإسلام ومقتضى شريعته ..

ولكن خصوم الأمويين لم يرتضوا ذلك ، فاتهموا جل الخلفاء والولاة الأمويين في دينهم ، ورموهم بشرب الخمر والفسوق والاشتهار باللهو، مما ينبغي تمحيصه ودرسه لمعرفته مدى ثبوته ، مع الحذر من انسحاب حكم ما على أحد الخلفاء أو بعضهم ليشمل جميعهم ، ولا يخلو عهد دولة أو تاريخ جماعة من نقص بعض أفرادها أو قادتها ..

واستغل بعض المؤرخين ظهور بعض الشعراء في الدولة الأموية فتّقوا القول في فنون الغزل العفيف أو الصريح ؛ وظهور بعض من اشتهر بالغناء والطرب ، أو عرف باللهو والعبث ، ليصم بذلك المجتمع الإسلامي كله في ذلك العصر، وليجعل من هؤلاء المعبر الحقيقي عن أخلاق ذلك المجتمع وأعرافه ، دون رصد لطبيعة هذه الظاهرة ، وعوامل نشأتها ، ومدى انتشارها . وموقف

الحكام الأمويين منها ، ودون التفات إلى الفعاليات الأخرى في المجتمع من العلماء الذين خلد تاريخهم وذكرهم ، والزهاد والمجاهدين والفاتحين ...

وتبقى مأثرة الأمويين الخالدة ، وهي الفتوحات الإسلامية الواسعة ، ونشر الإسلام واللغة العربية ودور الأمويين في ذلك — رغم ما أثير حولها من شبهات — عملا مجيدا يستحق الفخر ويعلن بجلاء عن طبيعة ذلك العصر، ومكانة الإسلام في نفوس أبنائه ..

المبحث الأول : تدين الخلفاء والولاة

— حول التزام معاوية بالإسلام :

تقدم الحديث عن مكانة معاوية بن أبي سفيان عند رسول الله ﷺ وعند خليفته أبي بكر وعمر ؛ ورضاء رعيته في الشام عنه زمن الفتنة الكبرى ، وثقتهم فيه طوال مدة حكمه هم التي استمرت قرابة أربعين سنة ، لم نسمع فيها عن تمرد بعضهم عليه أو غضبهم منه... حتى صدق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم " [١] ..

ولم يقتصر عدله وحدبه على رعيته المقربين في الشام ، بل امتد ليشمل سائر أجزاء دولته ، ليقيم الحق فيها ويحرس الأخلاق ، رووا أن ابن عمه عبد الرحمن بن الحكم — أخا مروان بن الحكم — قد تهاجى مع حسان بن ثابت بالمدينة المنورة فأفحشا في الهجاء ؛ فلما بلغ ذلك معاوية أصر على أن يجلد كل منهما مائة جلدة ولم يقبل تراخي مروان بن الحكم ، عامله على المدينة ، في إقامة الحد على أخيه [٢] ..

ورغم أن روايات التاريخ قد حجبت كثيرا من الجوانب المضيئة عند خليفة الأمويين الأول فإن شهادات بعض كبار معاصريه من الصحابة والتابعين تسد خلل هذا النقص ، مثل أقوال سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عباس وابن عمر ، الذين لا يتهمون بمحاباة معاوية ، أو مجاملته ... فقد نقل الحافظ ابن كثير عن سعد بن أبي وقاص قوله : " ما رأيت أحدا بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب " — يعني معاوية [٣] — وقال عنه ابن عباس : "ما رأيت رجلا أخلق بالملك من

---

[١] رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة .

[٢] الأصفهاني : الأغاني ١٥/٨٩-٩٠ .

[٣] البداية والنهاية ٨/١٣٣ .

معاوية " [1]، وقيل لابن عباس هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة ؟ فقال : " إنه فقيه " [2] ، وقال عبد الله بن عمر: " ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية " (أي أكثر تخلقا بأخلاق السيادة منه) ، فقيل له : ولا أبو بكر وعمر؟ فقال : كان أبو بكر وعمر خيرا منه ، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية [3] ..

وقد روى أن بعض الصالحين قد بهره عدل عمر بن عبد العزيز، فأخذ يتحدث عنه ، حتى فاجأه الأعمش ــ التابعي الجليل ــ بقوله: تذكرون عدل عمر بن عبد العزيز، فكيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا : في حلمه ؟ قال : بل في عدله [4].. وروى الأعمش عن مجاهد قوله : لو أدركتم معاوية لقلتم هذا المهدي ، وقال أبو إسحاق السبيعي مثل ذلك [5] ..

حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه :

ورغم ذلك فان خصوم معاوية يرمونه بعدة اتهامات خطيرة ، منها دعواهم أنه كان يسب عليا على المنابر ، وهي دعوى تحوطها شكوك كثيرة تجعلنا نرجح عدم حدوثها ، وسوف نعرض لبحثها في موضع آخر[6]، ومنها إساءة استخدام أموال المسلمين ، وهو ما سوف يكون موضع حديث وبحث في غير هذا المكان [7] ، ولكننا نبحث هنا اتهامه بمخالفة أحكام الإسلام في استلحاقه زياد بن أبيه ، حيث يقضي الحديث الشريف : " الولد للفراش وللعاهر الحجر" بأن ينسب ولد الزنى إلى زوج أمه إذا كان قد ولد على فراشه [8] .. وحقيقة الأمر أنه قد وجدت دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية ــ جارية الحارث بن كلدة الثقفي ــ وكانت من البغايا ذوات الرايات ــ في الجاهلية، فعلقت منه بزياد ، وقد اعترف أبو سفيان نفسه بذلك أمام علي بن أبي طالب وآخرين بعدما شب زياد ونبغ في عهد عمر بن الخطاب ، وأنه أنشد في ذلك شعرا ولم يمنعه من الجهر بذلك إلا خوفه من سطوة عمر رضي الله عنه [9] ، فلما كانت خلافة معاوية شهد لزياد بذلك النسب أبو مريم السلولي ، وهو

---

[1] السابق ١٣٥/٨ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٣٧/٥ .

[2] البخاري : صحيح البخاري كتاب مناقب الصحابة ٢١٩/٤

[3] ابن تيمية : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٨٥ .

[4] ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٢/٨ .

[5] السابق ٨/ ١٣٤-١٣٥ ، محب الدين الخطيب : هامش المنتقى من منهاج الاعتدال ص٢٣٤

[6] راجع الفصل الخاص بالمعارضة في العصر الأموي

[7] راجع الفصل الخاص بالشبهات حول السياسة المالية للأمويين .

[8] ابن حجر : فتح الباري ١٧٢/١٣ ، البخاري · السابق ، حديث رقم ٧١٨٢ ، مسلم صحيح مسلم كتاب النكاح ، باب الولد للفراش

[9] المسعودي · مروج الذهب ١٤/٣-١٥

صحابي كان يعمل في الجاهلية خمارا بالطائف ، وهو الذي جمع بين أبي سفيان وسمية ، وكان ذلك أمرا مألوفا آنذاك [١] ، ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهد بذلك أحد رجال البصرة لزياد، قبل استلحاق معاوية إياه [٢] ..

فهي دعوى قديمة إذن ، ولم تكن — كما يزعم الرواة — نتيجة مشورة المغيرة بن شعبة على معاوية كجزء من صفقة متبادلة بين معاوية — الذي كان قد استخلف حديثا — وزياد الذي اعتصم بقلعة حصينة عرفت باسمه في بلاد فارس ، حيث كان معاوية — فيما يزعمون — يتخوف من انفراد زياد هناك وتحصنه ، وأنه ربما دعا بعض مخالفي معاوية إلى البيعة فأعاد الحروب بين المسلمين [٣].. أو أن معاوية كان يريد كسب زياد ليكفيه شرق الدولة الإسلامية [٤] ، ونحن نعلم أن المغيرة أيضا كان من ثقيف ، ومن المؤكد أنه كان يعرف حقيقة نسب زياد ، وربما اقترح على معاوية استلحاقه في هذه الظروف الشائكة ، فاخترع الرواة هذه التفاصيل الزائدة ..

ولم يكن بنو أمية — وهم أقوى قبائل قريش — يقبلون هذا الاستلحاق ، لو لم يكن له أصل يعتد به ؛ فإنه لما بدا شيء من التمنع والمعارضة عند عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خال الأمويين — غضب معاوية منه غضبا شديدا ، ولم يأذن له بالدخول عليه إلا بعد شفاعة ولده يزيد بن معاوية ، فلما دخل عليه قال معاوية : يا ابن عامر، أنت القائل في زياد ما قلت ؟ أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزها في الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدني إلا عزا ، وإني لم أتكثر بزياد من قلة ، ولم أتعزز به من ذلة ، ولكن عرفت له حقا ، فوضعته موضعه ، فرجع ابن عامر إلى ما يحب زياد وترضاه [٥] ، وقد اعترفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لزياد بهذا النسب في إحدى رسائلها إليه حيث بدأت رسالتها بقولها : " إلى زياد بن أبي سفيان " [٦] ، ولم تكن عائشة رضي الله عنها في تقواها ودينها لتعترف له بذلك وهي توقن خلافه ، وبعد عدد من السنين نجد الإمام مالك بن أنس — إمام أهل المدينة — يذكر زيادا في كتابه الموطأ بأنه زياد بن أبي سفيان ، ولم يقل زياد بن أبيه ، وذلك في عصر بني العباس ، "والدولة لهم والحكم بأيديهم ، فما غيروا عليه ، ولا أنكروا ذلك منه ، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلفت الناس فيها ، فمنهم من جوزها ، ومنهم من منعها، فلم يكن

---

[١] السابق٣/١٥ .

[٢] الطبري . السابق ٥/٢١٥ .

[٣] السابق٥/١٧٧ ، المسعودي : السابق ٣/١٥-١٦ ، ابن الأثير : الكامل ٣/ ٢١١ .

[٤] طه حسين · الفتنة الكبرى ٢/ ٢٣٠-٢٣١ .

[٥] الطبري السابق ٥/ ٢١٤-٢١٥ .

[٦] البلاذري فتوح البلدان ٣٥٥

لاعتراضهم عليها سبيل "[١].. وأما تعارض هذا الاستلحاق مع نص الحديث الشريف ، فقد أوله بعض العلماء [٢] ؛ وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخا له ويقول : هو ابن أبي ، مادام ليس له منازع في ذلك النسب ، " فالحارث بن كلدة (الذي كانت سمية جارية له) لم ينازع زيادا ولا كان إليه منسوبا ، وإنما كان ابن أمة بغي ولد على فراشه ــ أي في داره ــ فكل من ادعاه فهو له ، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه ، فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز ، بل فعل الحق على مذهب مالك ، فإن قيل : فلم أنكر عليه الصحابة ؟ قلنا : لأنها مسألة اجتهاد ، فمن رأى أن النسب لا يلحق بالوارث الواحد ، أنكر ذلك وعظمه "[٣] ..

وكذلك اتهم معاوية بقتل عدد من خصومه ، فيما يزعم المؤرخون ــ مثل سعد بن أبي وقاص والحسن بن علي والأشتر النخعي ، بل بقتل بعض أنصاره الذين تخوف نفوذهم مثل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد [٤]، والغريب أن كل هذه الاتهامات تزعم أن قتل هؤلاء الرجال كان بالسم ، وبتحريض من معاوية .. وهو اتهام لا دليل عليه ، ولا يمكن أن يثبت إلا بدليل ، ولا سبيل إلى صحته ، فقد كان سعد بن أبي وقاص ممن يمتدح معاوية ، كما مر بنا قريبا ، ولا مصلحة له في قتله ، ولا كان ثمة خطر يخشى من سعد ، ولا كان له مأرب في الخلافة ، وكذلك الشأن مع الحسن بن علي ؛ الذي كان على صلة وثيقة بمعاوية منذ أمد بعيد [٥] ، أما الأشتر النخعي فقد كان من المتهمين بقتل عثمان ، فإن كان معاوية قتله فقد اقتص منه ؛ على أن ذلك نفسه لم يثبت ، إذ توجد بعض الروايات المحايدة التي تذكر موت الأشتر ولا تشير إلى دور لمعاوية في ذلك [٦]..

وجدير بنا أن ننقل المشهد الأخير من حياة معاوية ، وهو يلقى الموت وينتظر لقاء الله ، فعندها كان يقول : ليتني كنت رجلا من قريش بذي طوى ، ولم أل من هذا الأمر شيئا [٧] ، وكان عنده قميص رسول الله ﷺ وإزاره ورداؤه وشيء من شعره ، فقال : كفنوني في قميصه ، وأدرجوني في ردائه ، وأزروني بإزاره ، واحشوا منخري وشدقي بشعره ، وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين [٨] ..

---

[١] ابن العربي : العواصم من القواصم ٢٥٤ ، ٢٦٣

[٢] ابن الأثير : السابق ٣/ ٢٢١ ، ابن طباطبا : الفخري ١٠٩-١١٠ .

[٣] ابن العربي : السابق ٢٥٣

[٤] راجع مقدمة الكتاب : صورة قاتمة عن الأمويين في التاريخ ..

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٧/٨.

[٦] الكندي : ولاة مصر وقضاتها ٢٥-٢٦ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ١/ ٢٠٧ .

[٧] ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٥٦

[٨] السابق ص ١٥٧

ـــ شبهات حول التزام يزيد بن معاوية بالإسلام :

واستخلف معاوية ابنه يزيد ، في ظروف كثر فيها المتطلعون إلى شغل منصب الخلافة ، وقوي فيها أمر أتباعهم ، وظن أعداء الأمويين أن الفرصة قد حانت لهم بغياب معاوية ـــ القوي الذكي ـــ عن ساحة الأحداث ، فصبوا جام غضبهم وافترائهم على ابنه ، ولم يكن ثمة اتهام يثير حفائظ الناس على خليفتهم مثل رميه بالفسوق والاستخفاف بأمر الدين، وشرب الخمر والولع باللهو .. وهي دعاوى تجد من يصدقها بغير تريث وبخاصة في أجواء الخصومة السياسية حيث تكثر الدعايات والشائعات .

ورغم ذلك فإننا نجد أن بعض زعماء المسلمين ـــ آنذاك ـــ المشهود لهم بالتدين والورع والغيرة على الإسلام ينكرون هذه الاتهامات ويحتفظون ببيعتهم ليزيد ، وينهون عن خلعه ، رغم علو موجة العداء ضده وصعوبة الوقوف لها .. مثل ما نجد عند عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان ينهى أصحابه عن خلع يزيد ، لما ثار الحجاز ضده [١] ، ومحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية الذي ناقش وفد الثائرين بالمدينة الخالعين يزيد في اتهامهم إياه بالفسوق وشرب الخمر ، نافيا عنه ذلك ، شاهدا له بالعدالة وحسن السيرة [٢] ، مما سوف نعرضه له بالتفصيل عند الحديث عن الثورات ضد يزيد ، كما أننا نثق في أن معاوية ـــ وهو كما رأينا في تقواه وعلمه ـــ ما كان يمكن أن يستخلف يزيد لو كان حيث يصفه الرواة طيشا وفسوقا ...

وقد نقل بعض المؤرخين ـــ غير المائلين إلى بن أمية ـــ أقوالا ليزيد لا تصدر عن متهم برقة الدين وضعف اليقين ، من ذلك ما يروونه من خطبة له قال فيها : " أوصيكم بتقوى الله العظيم ، الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، وانقطاع مدتها ، وتصرم دارها ، ثم إني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالفاني، وتحببت بالعاجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا يؤمن مخيفها ، أكالة غوالة غرارة لا يبقى لها حال ، لا تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء .." إلى قوله تعالى : (مقتدرا) [٣]، نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا من فزع يومئذ آمنين" [٤] ..

---

[١] ابن حجر : فتح الباري ١٣/ ٦٨-٦٩ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٤٤/٥ .

[٢] ابن كثير : السابق ٢٣٣/٨

[٣] الآية من سورة الكهف رقم ٤٥ .

[٤] ابن عبد ربه : العقد الفريد ٩٠/٤

ومن العجيب أنه كما غالى فريق من الناس في عداء يزيد غالى آخرون في محبته ، حتى الهوه ، مثل طائفة " اليزيدية " التي ظهرت حوالي القرن السادس الهجري ، ومن المرجح أن ذلك كان رد فعل لما لحق سيرة هذا الرجل من تشويه [١] ...

ـ حول تدين مروان بن الحكم :

وعرف عن مروان بن الحكم العلم والفقه والعدل ... فقد كان سيدا من سادات شباب قريش لما علا نجمه أيام عثمان بن عفان ، فلما اشترك ضد علي بن أبي طالب في موقعة الجمل كان علي ﷺ ـ فيما يحكيه عنه الشافعي ـ حين انهزم الناس : يكثر السؤال عن مروان ؛ فقيل له في ذلك، فقال : إنه يعطفني عليه رحم ماسة ، وهو سيد من شباب قريش[٢]، وفيما بعد ، لما سئل معاوية ابن أبي سفيان: من تركت لهذا الأمر ـ أي خلافة المسلمين ـ من بعدك ؟ ذكر جماعة من كبار بني أمية وكان مما قال : أما القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله ، فمروان بن الحكم [٣] ..

وقد شهد له الإمام مالك بالفقه ، واحتج بقضائه وفتاواه في مواطن عديدة من كتاب الموطأ، كما وردت في غيره من كتب السنة المتداولة في أيدي أئمة المسلمين يعملون بها [٤] ، وكان الإمام أحمد يقول : يقال كان عند مروان قضاء ، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب [٥]، وكان مروان من أقرأ الناس للقرآن [٦] ، كما كانت له رواية للحديث الشريف ، حيث روى عن بعض مشاهير الصحابة ، وروى عنه بعضهم ، كما روى عنه بعض التابعين[٧]؛ وكان حريصا على تحري السنة والعمل بها ، روى الليث بن سعد، فقيه مصر، بسنده قال : شهد مروان جنازة فلما صلى

---

[١] كان إمام هذه الفرقة الشيخ عدي بن مسافر (٤٦٧-٥٥٧هـ) رجلا صالحا أعلن أن يزيد بن معاوية إمام من أئمة المسلمين ؛ وأنه لا صحة لما ينسب إليه من الأمور القادحة في الدين والشرف ، ولكن أتباع الشيخ عدي غالوا في يزيد نتيجة تعرضهم لاضطهاد الرافضة الذين قتلوا بعض قادتهم ، فاعتقد بعضهم نبوة يزيد ، واعتقد بعضهم ألوهيته (راجع : محب الدين الخطيب : هامش المنتقى ص ٢٧٩-٢٨٠، وانظر عن عقائد هذه الفرقة الضالة وبعض تاريخها : إسماعيل بك جول : اليزيدية قديما وحديثا)

[٢] ابن كثير : السابق ٢٥٧/٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ٣/ ٧١ .

[٣] ابن كثير : السابق والصفحة ، الذهبي : السابق والصفحة .

[٤] الخطيب : هامش العواصم من القواصم ص ٢٦٣ .

[٥] ابن كثير : السابق ٨/ ٢٥٨ ، الذهبي : السابق ٣/ ٧١ ، وانظر الطبري : السابق ٢/ ٢٣٩-٢٤٠ .

[٦] ابن كثير : السابق ٨/ ٢٥٨ ، الديار بكري : تاريخ الخميس ٣٩٧/٢ ، د. إبراهيم شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص ٢٦٠ .

[٧] ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠/ ٩١-٩٢ .

عليها انصرف ، فقال أبو هريرة : أصاب قيراطا، وحرم قيراطا، (أي من الأجر والثواب ، كما ورد في حديث شريف) [١] ، فأخبر بذلك مروان ، فأقبل يجري حتى بدت ركبتاه ، فقعد حتى أذن لـــه [٢] ، ونظر عبد الرحمن بن الضحاك ــ عامل الأمويين على المدينة زمن يزيد بن عبد الملك ــ إلى بعض بني مروان يجر ثيابه ، فقال: أما والله لو رأيت أباك رأيته مشمرا ، فما يمنعك من التشمير [٣] ..

وقد ولي مروان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان ، فكان شديدا على أهل الفسوق بها ، حربـــا على مظاهر الترف والتخنث [٤]، عادلا مع رعيته ، حذرا من مجاملة ذوي قرباه ، أو من يحاول منـــهم استغلال نفوذه ، فقد لطم أخوه عبد الرحمن بن الحكم مولى لأهل المدينة يعمل حناطا ــ أثناء فـــترة ولاية مروان على المدينة ــ فشكا الحناط إلى مروان ، فأتى بأخيه عبد الرحمن ، وأجلسه بين يـــدي الحناط ، وقال له: الطمه ؛ فقال الحناط : والله ما أردت هذا وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه ســـلطانا ينصرني عليه ، وقد وهبتها لك ، فقال : لست أقبلها منك ، فخذ حقك ، فقـــال: والله لا ألطمـــه ، ولكن أهبها لك ، ولست والله لاطمه ، فقال: مروان: لست والله قابلها ، فإن وهبتها فهبـــها لمـــن لطمك أو لله عز وعلا، قال : قد وهبتها لله تعالى ؛ فقال عبد الرحمن شعرا يـــهجو أخـــاه مـــروان لذلك [٥]، ثم تهيأت الظروف على غير توقع ليصبح مروان خليفة للمسلمين في الشام ، فجـــاء أهلـــها يبايعونه وهو في خيمته يقرأ القرآن الكريم في ضوء مصباح [٦] ..

إن هذه الصورة المشرقة عن علم مروان وعدله وفقهه وتدينه ، تكاد تختلف تماما عن تلـــك الصورة الكريهة التي يقدمها عنه معظم المؤرخين والرواة ، الذين اجتهدوا لتشويه حياة الرجل ، فلما حانت وفاته اجتهدوا أيضا لتشويهها... فزعموا أن امرأته ــ أم خالد بن يزيد بن معاوية ــ خنقتـــه بوسادتها [٧] ، أو دست له السم [٨] ، لما سب ابنها ــ بزعمهم ــ أمام جماعة من النـــاس ، " وهـــذه القصة ومع ما تحتويه من عناصر متناقضة تبدو لأول وهلة وكأنها أسطورة اخترعتها مخيلات عجـــائز القوم ، ثم رددتها الألسن ، إما حبا في الثرثرة ، أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة ، حســـدا لما وصلت إليه من مجد " [٩] ، فهل كان موته طبيعيا ، أم مات بإصابة الطاعون ، أم خنقته زوجته ؟ إن

---

[١] مسلم : الصحيح ،كتاب الجنائز ٧/١٣-١٤ ، أحمد : المسند حديث رقم ٤٤٥٣ ، ٤٦٥٠

[٢] ابن كثير : السابق ٨/ ٢٥٨ .

[٣] ابن عساكر : تاريخ دمشق ٤٠/ ٤٠٤ .

[٤] راجع : الأصفهاني : الأغاني ٣/ ٢٩-٣٠ .

[٥] السابق ١٣/٢٦٨

[٦] الإمامة والسياسة ٢/ ١٥-١٦ ، ابن عبد ربه : السابق ٤/ ٣٩٤ .

[٧] الطبري : السابق ٥/٦١١ .

[٨] الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٨٥.

[٩] د . الريس عبد الملك بن مروان ص ١٢ .

تناقض الروايات دليل ظاهر على أن الحقيقة غير معروفة، ثم إذا عرضنا هذه الروايات على حكم العقل ، فإننا نجد أن الروايات التي تزعم أن زوجته هي التي اغتالته مباشرة أو بالواسطة (عن طريق بعض جواريها) غير مقبولة أو معقولة ، فهذه الزوجة سيدة شريفة عربية من بيت عبد شمس ، وزوجها قريبها ، وهو خليفة وهي كانت زوجة خليفة وأم خليفة (هو معاوية بن يزيد بن معاوية) ، وهو عمل لا تقدم عليه نساء العرب الشريفات، ثم إننا لم نر أي أثر لهذا الاغتيال ، فلم يحدث في الأسرة أي خلاف ، ولا مطالبة بالثأر، وظل خالد على مكانته عند عبد الملك، كما أن الدافع لا يكفي بحال لارتكاب جريمة القتل [1] ، ويصف بروكلمان قصة قتل زوجة مروان له بأنها " قطعة من الخيال " [2] .

ـ حول تدين عبد الملك بن مروان :

واشتهر عبد الملك بن مروان بالعلم والفقه والعبادة ، فقد كان أحد فقهاء المدينة الأربعة : سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان ، حتى قال نافع مولى عبد الله بن عمر: لقد رأيت المدينة وما فيها أشد تشميرا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان" [3] ، فكان يسمى حمامة المسجد لحرصه على المكث فيه ومداومته قراءة القرآن [4] ، وقد قال الإمام الشعبي : ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه ، إلا عبد الملك بن مروان فإني ما ذاكرته حديثا إلا زادني فيه [5]، وقد استشهد الإمام مالك في الموطأ بفقهه وأحكامه وقضاياه [6] وكان عبد الملك يحض الناس في خلافته على طلب العلم فيقول : " إن العلم سيقبض قبضا سريعا فمن كان عنده علم فليظهره غير غال فيه ولا جاف عنه [7] ، وكان يجد في الأذكار الصالحة ، ويوصي بذلك أصحابه ، فقد روى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة

---

[1] السابق ٥٠-٥١

[2] تاريخ الشعوب الإسلامية ١٥٨/١

[3] ابن كثير : السابق ٩/ ٦٢ ،ابن الأثير : الكامل ٤/ ١٠٣-١٠٤ .

[4] ابن طباطبا : الفخري ١٢٢ ، الدميري : حياة الحيوان ١/ ٥٧ .

[5] ابن كثير : السابق ٩/ ٦٢ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٦/ ٤٢٢ .

[6] الموطأ ، كتاب الأقضية باب المستكرهة من النساء ص ٧٣٤، كتاب المكاتب ص ٧٨٨ ، كتاب العقول ص ٨٧٢ ، كتاب النكاح ص ٥٤٠ ، وانظر : الخطيب : هامش العواصم من القواصم ص ٢٦٣ .

[7] ابن كثير : السابق ٩/ ٦٣ .

: سبحوا بنا حتى تأتي تلك الشجرة ، كبروا بنا حتى تأتي تلك الشجرة ، ونحو ذلك [١].. وكان في حياته الخاصة قد ترك سبل اللهو من الشراب والخمر والموسيقى والغناء [٢] ...

ولم تغيره مظاهر الملك بالركون إلى الدنيا ــ كما يشيع المؤرخون ــ الذين يقولون إنه لما جاءته الخلافة كان يقرأ القرآن فأطبق المصحف وقال : "هذا فراق بيني وبينك " [٣].. فما أصعب أن يترك الإنسان تاريخه وطبعه بعد هذه الفترة من الزمان .. ففي لحظة انتصاره بعد أن دانت له العراق وقتل مصعب بن الزبير أعد له أهل العراق موائد عظيمة ، فأصاب منها وهو يقول : ما ألذ عيشنا لو كان يدوم ، ولكنا كما قال الأول :

وكل جديد يا أميم إلى بلى ... وكل امرئ يوما يصير إلى كانا

فلما فرغوا من الطعام طاف عبد الملك بأرجاء قصر الخورنق بالكوفة ومعه عمرو بن حريث ــ أحد أشرافها ــ وهو يسأله : لمن هذا البيت ؟ ومن بنى هذا البيت ؟ وعمرو يخبره ، وهو يقول :

اعمل على مهل فإنك ميت ... واكدح لنفسك أيها الإنسان

فكأن ما قد كان لم يك قد مضى ... وكأن ما هو كائن قد كان [٤]

وخطب عبد الملك يوما خطبة بليغة ، ثم قطعها وبكى بكاء شديدا ، ثم قال: يا رب إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوك أعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي ، فبلغ ذلك القول زاهد العراق الحسن البصري فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام [٥] ، وكان الشعبي يقول: حسدت عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعو به على المنبر يقول: "اللهم إن ذنوبي كثيرة ، جلت أن توصف ، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني [٦].. وكان إذا جلس للقضاء بين الناس يخشى أن يجور في حكمة فيوقف وصيفا ينشد على رأسه :

إنا إذا مالت دواعي الهوى ... وأنصت السامع للقائل

واصطرع القوم بألبابهم ... نقضي بحكم عادل فاصل

نخاف أن تسفه أحلامنا ... فنخمل الدهر مع الخامل

ثم يجتهد عبد الملك أن يقضي بالحق بين الخصماء [٧] ..

---

[١] السابق والصفحة .

[٢] راجع : عبد الأمير دكسن : الخلافة الأموية ص ٤٢-٤٥ .

[٣] ابن طباطبا : الفخري ص ١٢٢ ، النويري : نهاية الأرب ٩٨/٢١ ، دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا ١٠٩/١.

[٤] الطبري : السابق ١٦٧/٦ ، ابن الأثير : السابق ٤١/٤ .

[٥] ابن كثير : السابق ٦٧/٩ .

[٦] ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ٦/ ١٨٩ .

[٧] الأصفهاني : الأغاني ١١٦/٢٢-١١٧ .

ولقد اجتهد كذلك أن يربي أبناءه على ذلك النمط من الأدب الرفيع والخلق الكريم [١] ، فلما دنا منه الموت وثقل به مرضه ، جعل يلوم نفسه ، ويضرب بيده على رأسه ويقول : " وددت أني كنت أكتسب يوما بيوم ما يقوتني ، واشتغل بطاعة الله .. والله لوددت أني عبد رجل من تهامة أرعى غنما في جبالها ، وأني لم أك شيئا ... [٢]، ثم يقول ذاما الدنيا : إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور، ثم أقبل على جميع ولده فقال : " أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهى أحصن كهف ..." [٣] .

ـ شبهات حول التزام عبد الملك بالإسلام :

لقد حمل عبد الملك على عاتقه مهمة إعادة توحيد الأمة الإسلامية تحت راية خليفة واحد ، بعد فترة طويلة من الحروب والمنازعات الداخلية، وفي سبيل ذلك كان لابد له من أن يطيح بمعارضيه والثائرين عليه ، وفي أجواء الخصومة أكثر أعداء عبد الملك من الطعن في دينه والتشنيع عليه ، وسوف نعرض فيما يلي أبرز هذه الاتهامات محاولين تجلية وجه الحق فيها ..

أولا : دعوى غدره بعمرو بن سعيد الأشدق :

ويتهمون عبد الملك بالغدر به بعد أن آمنه ، فكانت أول غدرة في الإسلام .. وقد كان عمرو بن سعيد ـ الذي سبق أن تولى حكم المدينة ليزيد بن معاوية ـ شخصية بارزة واسعة المطامح ؛ شديد الاعتداد بنفسه وعشيرته من بني العاص بن أمية ومصاهرته قبيلة كلب أقوى قبائل الشام آنذاك [٤]...

ولما خرج عبد الملك لحرب مصعب بن الزبير انسحب عمرو بن سعيد من جيشه وكر راجعا إلى دمشق مصطحبا معه عديدا من أنصاره ؛ ثم سارع بإحكام سيطرته على المدينة ؛ مما عد طعنة نجلاء للخليفة الذي وجد نفسه بين عدوين متربصين فأسرع بالعودة إلى دمشق واستطاع بعد جهود كبيرة أن يعقد الصلح مع عمرو ويدخل العاصمة [٥] ، ولكنه كان صلحا على دخن ؛ إذ لم ينس عبد الملك غدر عمرو به وهو في طريقه للقاء عدوه كما لم ينته عمرو عن ادعاءاته وفخره ؛ وهو القائل للخليفة عقب انعقاد الصلح بينهما ـ لما أمره أن يعطي الناس أرزاقهم ـ : إن هذا لك ليس

---

[١] راجع وصيته لمؤدب ولده : ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢/ ١٦٧ .

[٢] ابن الأثير : السابق ٤/ ١٠٤ .

[٣] راجع : المسعودي : مروج الذهب ٣/ ١٦٩-١٧٠ ، ١٧٤-١٧٥ .

[٤] الطبري : السابق ٦/١٤٢ .

[٥] السابق ٦/ ١٤١

ببلد فاشخص عنه [١] .. ولم يكف عن استفزازه ومفاخرته [٢]، فأيقن عبد الملك أن الأمور لن تستقر في حاضرة الخلافة ولا في بقية دولته بينما هو يعاني أجواء التربص والحذر من داخل بيته وخطر الأعداء المتحفزين من الزبيريين في الحجاز والعراق ، فعزم — وهو كاره — على قتل منافسه الأموي ، كما يعبر عن ذلك قوله له وهو يهم بقتله : " إني والله لو علمت أن الأمر يستقيم ونحن جميعا باقيان لافتديتك بدم النواظر ، ولكني أعلم أنه ما اجتمع فحلان في إبل إلا غلب أحدهما " [٣] ..

وقد أدى الحذر والخوف من انتقام الخليفة ببعض آل عمرو وأنصاره إلى لجوئهم إلى عدوه مصعب بن الزبير ؛ فلما ظفر الخليفة بمصعب صفح عنهم وقربهم إليه وأحسن جائزتهم [٤]، مما يدلل على أن دوافع عبد الملك إلى قتل ابن عمه لم تعد رغبته في تأمين دولته وملكه في هذا الظرف العصيب ..

ثانيا : بناء قبة الصخرة :

زعم بعض المؤرخين أنه بنى قبة الصخرة ببيت المقدس لتكون بديلا عن الكعبة ، وأنه أمر أهل الشام بالحج إليها واحتج لهم في جواز ذلك بفتوى من ابن شهاب الزهري الفقيه [٥]..

وهذه الرواية التي رواها اليعقوبي — وهو مؤرخ شيعي مغال مشهور بتحامله على بني أمية — رواية لقيطة لا ندرى لها سندا صالحا ، وتستدعي بالضرورة وصف المسلمين كلهم في بلاد الشام بالضلال والمروق من الدين والغفلة عن أحكامه والاستخفاف بمقدساته ، وهو ما لا سبيل إليه ، وبهذا لفيف من العلماء والفقهاء والزهاد والعارفين ، وابن شهاب الزهري الذي تزعم الرواية أنه أفتى بجواز ذلك كان وقتها صغير السن وغير معروف لدى عبد الملك نفسه أو أهل الشام [٦] ، فقد ولد سنة 50هـ أو سنة 58 هـ على اختلاف الروايات [٧] ، ولم يقدم دمشق على عبد الملك إلا بعد انتهاء ثورة ابن الأشعث سنة 83 هـ ، بينما يزعم اليعقوبي أن عبد الملك استشاره لبناء قبة الصخرة أثناء فتنة ابن الزبير الذي توفي سنة 73 هـ ، وهذا طعن صريح في رواية اليعقوبي لأن الزهري لم يفد إلى الشام إلا بعد ذلك بكثير [٨] ..

---

[١] السابق ٦/ ١٤٢ .

[٢] السابق٦/ ١٤١-١٤٢ .

[٣] اليعقوبي تاريخ اليعقوبي ١٣/٣ .

[٤] الطبري : السابق ٦/ ١٤٧-١٤٨

[٥] اليعقوبي : السابق ٧/٣ ، سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع ٧/ ٣٩ ، كرد علي : خطط الشام ١٤٩/١ ، وراجع ابن كثير : السابق ٢٨٠/٨

[٦] د عبد الأمير دكسن : السابق ٤٠-٤١

[٧] راجع · دائرة المعارف الإسلامية ١٠/ ٤٥٥ وما بعدها ..

[٨] راجع . السابق وتحقيقات المحقق الشيخ احمد محمد شاكر على الموضوع

وقد استمرت قبة الصخرة مكانا مقدسا بعد هزيمة بن الزبير، مما يبين أن عبد الملك إنما شيدها لدوافع دينية حيث أراد أن يرضي شعور المسلمين بالشام الذين يشاهدون عن قرب الأبنية البيزنطية والمسيحية الضخمة والكثيرة ، مثل كنيسة القيامة وغيرها ، فبنى لهم بناء يظهر عظمة الإسلام وقدرة أهله على منافسة هذه البنايات العظيمة [١] ...

ثالثا : ضرب الكعبة بالمجانيق أثناء حصار ابن الزبير:

وسوف يأتي مزيد بيان لهذا الأمر، والدوافع التي أدت إليه عند الحديث عن المعارضة في العصر الأموي ، ولكن ما نؤكده هنا هو أن الأمويين إنما ضربوا بالمجانيق ذلك الجزء الإضافي الذي أضافه ابن الزبير إلى الكعبة لما أعاد بناءها من جديد سنة 65هـ [٢] ، ولم يكن الأمويون يعتقدون صحة عمل ابن الزبير في هذه الزيادة ، وقد كان يطلق على ذلك الجزء الإضافي الذي راده ابن الزبير وقصفه الحجاج قائد عبد الملك "اسم الحطيم" كما يروى المقدسي [٣] وياقوت الحموي [٤] ، ومعروف أن عبد الملك أمر فيما بعد بهدم ما بناه ابن الزبير وزاده على الكعبة لما أعاد هو الآخر بناءها سنة 74هـ فقال الشاعر جرير يمدحه :

رجعت لبيت الله عهد نبيه وأصلحت ما كان الخبيبان أفسدا [٥]

ـ تدين الوليد بن عبد الملك :

وكان الوليد بن عبد الملك قارئا للقرآن مشيدا للمساجد عابدا غيورا على دين الله عز وجل ، قال إبراهيم بن عبلة قال لي الوليد بن عبد الملك: في كم تختم القرآن ؟ فقلت في كذا وكذا ، فقال: إن أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث ، وقيل في كل سبع ... وكان الوليد يقرأ القرآن في شهر رمضان سبع عشرة مرة [٦]، ودخل عليه فتى من أشراف بني مخزوم يطلب منه أن يزوجه ابنته ، فقال له: هل قرأت القرآن ؟ قال: لا قال: أدنوه مني ، فأدنوه ، فضرب عمامته بقضيب كان في يده ، وقرع رأسه به قرعات ، ثم قال لرجل : ضمه إليك فإذا قرأ زوجناه [٧] ، وكان يعطي أحد

---

[١] راجع : دكسن : السابق ٤١ .

[٢] الطبري : السابق ٦٢٢/٥ .

[٣] أحسن التقاسيم ص ٧٤-٧٥ .

[٤] معجم البلدان ٤/ ٢٨٤ .

[٥] دكسن : السابق ٣٨=٣٩ ، وانظر الطبري : السابق ١٩٥/٦ .

[٦] ابن كثير : السابق ١٦٢/٩ ، أبو نعيم : حلية الأولياء ٥/ ٢٤٣-٢٤٤ .

[٧] الجاحظ البيان والتبيين ١٦٤/٢ .

أصحابه قطع الفضة يقسمها على قراء بيت المقدس [١]، وكان الوليد أول من أجـــرى طعـــام شـــهر رمضان في المساجد ، وقد صام الاثنين والخميس فأدمنه [٢] ..

وكان غيورا حريصا على أخلاق رعيته .. يروى أنه مر يوما بمعلم صبيان ؛ فرأى جاريـــة ، فقال : ويلك ما لهذه الجارية ، قال: أعلمها القرآن ، قال : فليكن الذي يعلمها أصغر منها [٣] ..

وبنى جامع دمشق ، فصار أعجوبة الدنيا في عصره ، وأنفق عليه نفقات هائلة ، كما أعـــاد بناء المسجد النبوي بالمدينة وتوسعته ؛ وسيأتي مزيد بيان عن ذلك

وكان ذا إحساس مرهف ، فلم يطق رؤية المجذومين والعميان والمقعدين يجولون بعاهاتهم في الطرقات ، فوجه همه إلى بناء البيمارستانات ـــ أي المستشفيات ـــ للمجذومين ، ليعـــالجوا فيـــها ، وأعطى كل ضرير قائدا ، وكل مقعد خادما ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فكان أول من فعل ذلـك [٤] ، وغلب عليه حب عمارة المساجد وتيسير وسائل الحياة للرعية [٥] ، فلا يعادل ذلك عنده إلا ما بذلـــه من جهد هائل في الفتح ونشر كلمة الإسلام ولغة العرب ، مما سيكون محل تفصيل في موضع تـالٍ [٦] ، فكان رحمه الله عند أهل الشام أفضل خلائفهم [٧] ..

ـــ تدين سليمان بن عبد الملك :

وسمى سليمان بن عبد الملك "مفتاح الخير" وذلك لأنه افتتح عهده بخير وختمه بخير ، إذ رد المظـــالم إلى أهلها ورد المسيرين وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة واستخلف عمر بن عبد العزيـــز، وأغزى مسلمة أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات سليمان [٨].

وجمع سليمان حوله الفقهاء والعلماء ـــ وعلى رأسهم حواريه رجاء بن حيـــوة ـــ فكـــان يجالسهم ويستمع إلى مواعظهم ، وقد ذكروا له مواقف عديدة معهم ، مثل أخباره مع ابـــن محـــيريز

---

[١] ابن كثير : السابق ١٦٣/٩ ، أبو نعيم : السابق ٢٤٥/٥ .

[٢] اليعقوبي : السابق ٢٩/٣ ، وقد روى بعد ذلك أباطيل كثيرة عنه مثل وصف ايامه بالخراب وكثرة الزلازل وقلـــة الخراج ؛ رغم ما اشتهر به من عمارة وإنفاق ؛كما سيأتي بيانه ، ويقول عنه ابن قتيبة :" كـــان خبيـــث الولايـــة " (المعارف ٣٥٩)

[٣] الجاحظ : البيان والتبيين ٢/ ١٦٤

[٤] السابق ٦/ ٤٣٧ ، ٤٩٦ ، اليعقوبي : السابق ٢٩/٣ .

[٥] راجع الفصل الخاص بالجوانب الحضارية .

[٦] د. ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ٢/ ١٩٢-١٩٣

[٧] الطبري : السابق ٤٩٦/٦ .

[٨] ابن قتيبة : المعارف ص ٣٦٠ .

زاهد أهل الشام[١] وطاووس اليمنى[٢] وأبو حازم الأعرج الذي سأله سليمان فقال : يا أبا حازم ؛ مـا لنا نكره الموت ؟ قال : " لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمـران إلى الخراب " ؛ ويستمر الحوار بينهما حتى يقول سليمان: عظني وأوجز، قال : يا أمير المؤمنين ؛ نـزه ربك وعظمه ، بحيث أن يراك تجتنب ما نهى عنه ، ولا يفقدك من حيث أمرك به ، فبكـى سـليمان بكاء شديدا[٣]..

وخطب سليمان مرة رعيته فقال : إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، تضحك باكيـا ، وتبكي ضاحكا ، وتخيف آمنا ، وتؤمن خائفا ، وتفقر مثريا ، وتثرى مقترا ، ميالة غرارة لعابة بأهلها ، عباد الله اتخذوا كتاب الله إماما ، ارتضوا به حكما ، واجعلوه لكم قائدا ، فإنه ناسخ لما كان قبلـه ، ولم ينسخه كتاب بعده ، اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبـح إذا تنفس ظلام الليل إذا عسعس "[٤] ..

وعزل سليمان عمال الحجاج ، وألغى سنته في الحكم ، وأصغى إلى مشيره ووزيره عمر بن عبد العزيز الأموي العادل ، واشتهرت غيرته على دين الله ، وحربه فساد الأخلاق في دولته ، حـتى لقد هدد الفرزدق الشاعر بإقامة حد الزنى عليه لما قال شعرا يفهم منه ذلك ، فاعتذر إليه بأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون[٥] ، وتتبع الطبقة الجديدة في الحجاز من المغنين والمخنثين فأمر بإخصائهم[٦] ..

شبهات حول تدين سليمان :

وطبعي بعد هذا أن نتمهل في قبول تلك الأخبار التي تثلب سليمان، وأن ننفي عنه جمعـه المتناقضات في حياته مثل التقوى والعبث ، أو التدين والحقد على ما يزعم بعض المؤرخين ..

وأخطر هذه الشبهات يتعلق بما يزعمونه من تمكن خصلة الحقد من نفسه إلى درجة قادتـه إلى العصف ببعض الولاة البارزين والقواد الفاتحين في دولته ممن لا نظير لهم مثل موسى بـن نصـير وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي[٧] ..

---

[١] أبو نعيم : حلية الأولياء ٥/ ١٤٠ .

[٢] الإمامة والسياسة ٢/ ١٠٥ .

[٣] المسعودي : مروج الذهب ١٨٧/٣ .

[٤] ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٤٧/٢ ، ابن عبد ربه : السابق ٩١/٤ .

[٥] ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ١٧/٥ .

[٦] الأصفهاني الأغاني ٤/ ٢٧٥-٢٧٦ .

[٧] سيد أمير علي مختصر تاريخ العرب ص ١٠٩ ، د . ماجد . السابق ٢٥٦/٢

أولا : موقفه من موسى بن نصير :

حيث رووا أنه حبسه وعذبه لأنه أسرع في القدوم إلى الشام بهداياه النفيسة وغنائمه العظيمة ليلقى الوليد قبل موته ؛ ولم يستمع إلى طلب سليمان له بالتريث حتى يموت الخليفة ويقوم هو مكانه [١] ..

والحق أن موسى كان قائدا فذا ولكنه كان شديد الطموح والثقة بالنفس ؛ وكان في أواخر خلافة الوليد يحكم ولاية تمتد لتشمل جميع شمالي إفريقية وبلاد الأندلس ، فضلا عن تأهبه لمواصلة الغزو في جنوبي أوربا، وكانت هذه الإمكانات تثير مخاوف الخلافة من احتمالات تفكير ذلك القائد الكبير في الاستقلال والخلع ، حتى في عصر الوليد نفسه [٢] . ولما استدعاه الوليد إلى دمشق وزع موسى إمارته على أبنائه الثلاثة [٣] ؛ مما كان يعزز مخاوف الخليفة الشاب الجديد سليمان ؛ فقد رووا أنه لما عزله وسجنه شفع فيه يزيد بن المهلب ؛ فقال له سليمان : " إنه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور وانقياد الجمهور والتحكم في الأموال والأبشار على ما لا يمحوه إلا السيف " [٤] ..

كما أنه ربما بلغته وشايات من بعض أصحاب موسى حول ذمته المالية وبخاصة من قائديه طارق بن زياد ومغيث الرومي ، وقد كان ذلك هو السبب فيما فرضه عليه من غرم مالي[٥]، وثمة حالات مشابهة لذلك فيما فعله عمر بن عبد العزيز مع يزيد بن المهلب ، وما صنعه هشام بن عبد الملك مع خالد القسري ، وغير ذلك من أمثلة [٦] ، مع ما نعلمه من عذر بعض الولاة في إنفاق الأموال أثناء غزوهم ؛ وفي الأمصار المفتوحة حديثا ؛ لتأليف القلوب وتثبيت الفتح ..

ورغم ذلك يبدو من المبالغ فيه ما يزعمه بعض الرواة من أن المبلغ المطلوب من موسى كان من الضخامة بحيث اضطر أن يتسوله من أقرباء له بوادي القرى [٧] ، فقد كان أبناؤه ولاة على المغرب والأندلس يستطيعون بطريقة ما سداد بعض ذلك المبلغ ، وكان له من الأصدقاء مثل يزيد بن المهلب من لا يبخلون عليه بالعون .. كما يبدو من المرجح أن محاولات للصلح قد تمت بين الخليفة وقائده المعزول حتى افتدى موسى نفسه بأداء ما طلب منه من المال أو بعضه [٨] ، ثم حسن ما بين

---

[١] الإمامة والسياسة ٨٣/٢ ، ابن القوطية :تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦

[٢] الإمامة والسياسة ٧٥/٢

[٣] المقري : نفح الطيب ٨/ ٢٨٦ ، الإمامة والسياسة ٢، ٩٥

[٤] المقري : السابق ٢٨٥/١

[٥] أخبار مجموعة ص ٢٩-٣٠ ، اليعقوبي : السابق ٢٣/٣-٣٣

[٦] راجع ص من هذا البحث

[٧] المقري · السابق ٢٨٤/١-٢٨٩

[٨] الإمامة والسياسة ٨٥/٢

الرجلين حتى كان سليمان يبدي ندما على عزل قائده وقسمه ألا يوليه عملا ؛ ويقول : مـــا مثـــل موسى استغني عنه [١] ..

ثانيا : موقفه من قتيبة بن مسلم :

وليس صحيحا أن سليمان أساء إلى قتيبة ، فإنه لما أراد الوليد ـــ فيما مضـــى ـــ عـــزل سليمان من ولاية العهد وتولية ولده عبد العزيز كان قتيبة ممن وافقه وأيده ، فلما ولي سليمان أشـفق قتيبة من أن يناله منه سوء فسارع إلى خلعه ، وأعلن ذلك في جنده ، رغم أن سليمان لما أحس بمـــا ينوي قتيبة عمله سارع بإرسال عهده له على عمله في خراسان وما وراء النهر ، ولكن خلع قتيبـــة إياه كان أسبق ، ووصل الخبر إلى رسول سليمان إليه في الطريق فرجع ، غير أن كثيرا من جند قتيبـة لم يطاوعه ، وتزعم بنو تميم الثورة عليه بقيادة وكيع بن أبي سود التميمي فقتلوه[٢].

ورغم ذلك فإنه لما أرسل سليمان بعد ذلك يزيد بن الوليد عاملا على خراسان كتب إليه :" إن قيسا تزعم أن قتيبة لم يخلع الطاعة ؛ فإن كان وكيع قد تعرض له وثار عليه ؛ ولم يكن خلع ؛ فقيده وابعثـه إلي " [٣] .

ثالثا : موقفه من محمد بن القاسم الثقفي :

وقيل إنه عزله عن بلاد السند لأنه من صنائع الحجاج ؛ وكان سليمان لا يرضى منهجه في الحكم ؛ "وعندما حطت به الأيام ادعت ابنة الملك داهر (ملك السند الذي قتله ابن القاســم) أنـــه راودها عن نفسها ، أو نالها قسرا ، ولذا فقد سجن في واسط وعذب ، ثم تضاربت الروايات بشـأنه ؛ فقيل إنه مات تحت العذاب ، وقيل إنه أطلق سراحه ثم قتل من قبل معاوية بن المهلب ، وقيل بـــل قتل بدسائس من أتباع داهر فاتهم به الخليفة ، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كـــانت كاذبـــة في ادعائها [٤] ..

ـــ تدين عمر بن عبد العزيز :

والروايات عن زهد عمر بن العزيز وورعه وخوفه من الله أكثر من أن تحصى ، وترجمتـــاه اللتان كتبهما عنه ابن الجوزى وابن عبد الحكم زاخرتان بهذه الروايات التي تقدم صورة مضيئة عـــن عمر بن عبد العزيز نجيبة بنى أمية وخامس الخلفاء الراشدين ...

---

[١] السابق ٢/ ٩٨

[٢] الطبري : السابق ٦/٥٠٦=٥٠٨

[٣] ابن كثير : السابق ٩/ ١٧٠

[٤] محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ٣٦/٤ ، ٢٣٥

وقد نشأ عمر في بيت الإمارة والملك ، حيث كان أبوه عبد العزيز بن مروان أميرا على مصر (من سنة 64 هـ حتى سنة 85 هـ) فنشأ عمر مترفا منعما ، مبالغا في الترفه والتنعم ، غير أنه بعد أن ولي الخلافة شعر بعظيم المسئولية الملقاة عليه فانقلب زاهدا متعبدا على نحو مثير [١] ، وأحال ما حوله من مظاهر الملك وصوره إلى لون من البساطة يذكرنا بمظاهر الخلافة في عصر الراشدين ، وضم هذه الأموال والزينة كلها إلى بيت مال المسلمين [٢] ولم يبق لنفسه من أموال الخلافة ومواردها إلا ما لا يمكن الاستغناء عنه ، وبدأ بنفسه فباع كل ممتلكاته من مزارع وماشية ومتاع وخيول وملابس وعطور وآلات وغيرها مما بلغ ثمنه ثلاثة وعشرين ألف دينار، ثم جعلها في بيت المال ، واكتفى بدرهمين نفقة له ، يأخذهما يوميا من بيت المال غلت الأسعار أو رخصت [٣]، وتأكيدا لتجرده من أمواله الخاصة قام بتمزيق سجلات مزارعه جميعا [٤] ...

ثم ألزم بني أمية منهجه ، فرد كثيرا من أموالهم إلى بيت المال ، رأى أنها كانت مما لا يجوز لهم أن يمتلكوها ، ولم يعبأ بمعارضتهم وغضبهم [٥] وفرض مثل ذلك التقشف والزهد على عماله وولاته [٦] ، وكم وجد في رد الأمة إلى مظهر البساطة وسمت التقى من عنت ومشقة ، فمضى يضرب القدوة بنفسه وبيته ؛ حتى لقد جاءت يوما امرأة من نساء المسلمين إلى بيته تعرض شكواها وحاجتها، وتطلب ما تستغني به ، ودخلت على امرأته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وهي تغزل قطنا، ولم تر في بيت الخليفة شيئا ذا بال فقالت في عجب : إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب ؟ فأجابتها فاطمة : إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك [٧] .

وكان خوفه من الله عظيما ، تحكي عن ذلك امرأته فاطمة بنت عبد الملك فتقول : "ما رأيت أحدا أشد فرقا من ربه منه ، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ، ولقد كان يكون معي في الفراش ؛ فيذكر الشيء من أمر الآخرة ؛ فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ، ويجلس يبكي ، فأطرح عليه اللحاف رحمة له وأنا أقول يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها " [٨] ..

---

[١] راجع . عماد الدين خليل . ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥-٨١

[٢] السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٣ ، ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٣-٣٤

[٣] ابن عبد الحكم : السابق ص ١٢٤

[٤] السابق ص ٥٠

[٥] السابق ص ٤٩-٥١ ، ٥٤

[٦] السابق ص ٥٥

[٧] السابق ١٤٤ -١٤٥

[٨] السابق ص ٤٢ ، ابن الجوزي سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٤٨

وكان زهده بعد خلافته مضرب المثل ومثار العجب ، فقد قال بعض أصحابه : ولي عمر خلافة المسلمين بعد صلاة الجمعة ، فأنكرت حاله في العصر [1]، ولذلك كان مالك بن دينار ﷺ يقول : " يقولون : مالك زاهد ؛ أي زهد عندي ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة " [2] ..

ـــ شبهات حول تدين يزيد بن عبد الملك :

وجاء يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز ، أو لنقل جاء خليفة عادي متواضع المستوى بعد خليفة فذ استطاع في فترة خلافته القصيرة أن يترك بصمة كبيرة على تاريخ الإسلام وبني أمية .. وشأن الشمس القوية أن تجذب الأنظار نحوها بعيدا عن الأضواء الخافتة ، وتورث تطلعا إلى الأفق الأعلى لا يقنع بالأرض الواطئة ، وقد كان ذلك أول ما جنى على سيرة يزيد بن عبد الملك ؛ إذ جاء بعد مستوى رفيع من العطاء والإنجاز كان من الصعب عليه وعلى كثيرين غيره أن يجاروه ، أو يحافظوا عليه .. ويبدو أن أعداء الأمويين عز عليهم أن يظفر تاريخهم بمثل عمر بن عبد العزيز، ويبدو أنه كان في خليفته بعض الهنات ، فسلطوا عليها أضواءهم ، وسلطوا عليه غضبهم وتشهيرهم ، حتى جاء تاريخه كريها، وجاء عصره ــ على قصره (101 ــ 105هــ) ــ ممجوجا[3].

ومن ذلك ما رواه السيوطي أنه لما ولي يزيد قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتي بأربعين شيخا ، فشهدوا ما على الخلفاء حساب ولا عذاب [4] .. ولو كانوا شيخا أو شيخين يشهدان بمثل هذا الهراء لكانا كفيلين برفض الرواية من أساسها ، فما الظن بأربعين شيخا ينكرون أسس الإسلام في الحساب واليوم الآخر في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإسلام وفي دار الخلافة حيث كثرة من العلماء والمجاهدين والفقهاء والعارفين ..

وأبرز ما يتهمون به يزيد هو إقباله ــ فيما يزعمون ــ على الشراب وتعلقه الشديد بجاريتيه حبابة وسلامة ، حتى لم تجد معه توسلات أخيه مسلمة بن عبد الملك أن يعود إلى سيرة عمر ابن عبد العزيز، ويكف عن قصفه ولهوه ، وأنه لما كاد يطيعه في ذلك مكرت به جاريته حبابة ، فعاد إلى ما كان فيه أو أشد ! [5] ، ولما اختطف الموت حبابة هذه فجأة اشتد عليها حزنه، فأقام لا يدفنها

---

[1] ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٥١/٥ .

[2] ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٢/٩ .

[3] راجع د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٢/ ٩٤ .

[4] تاريخ الخلفاء ٢٤٦ .

[5] المسعودي : مروج الذهب ٢٠٧/٣-٢٠٨ ، الأصفهاني : الأغاني ٩٩/١٥-١٠٠ .

ثلاثا حتى تغيرت ، واضطر أخيرا أن يواريها التراب تحت ضغط أقاربه ! ولم يلبث أن مات بعدها بقليل ، ودفن إلى جوارها [١] ..

وربما كان يزيد يحب جاريته فعلا، وليس في ذلك ما يعاب . ولكن أن تلعب أهواء الرواة على هذا النحو في هذه العاطفة فتجعل منها قصة مثيرة على ذلك النحو ؛ وكأنه لم يكن في تاريخ يزيد إلا هذا الجانب المكذوب من حياته ، فهذا هو ما نستغربه وننكره [٢] .

إن الرجل الذي تصوره الروايات السابقة جاهلا بأركان دينه ، خائر القسوة والعزيمة ، تتحكم فيه إحدى جواريه على نحو مخز، تاركا مصالح رعيته وشئونهم يتظالمون فيما بينهم ، هو نفسه الذي تصوره وقائع التاريخ حازما يقظا حريصا على رعيته .. فما كاد يتولى الخلافة حتى كان عليه أن يواجه خطرين بارزين ؛ أولهما : هروب يزيد بين المهلب من سجن عمر بن عبد العزيز أثناء مرضه الذي توفي فيه ، ثم ما لبث ابن المهلب أن أعلن الثورة على الخلافة واستولى على البصرة ، فلم يمهله يزيد أن واجهه مواجهة دامية ، انتصر فيها قائده وأخوه مسلمة بن عبد الملك وقتل فيها ابن المهلب وانتهت حركته قبل أن يستفحل خطرها [٣]، وثاني هذين الخطرين تحرك خوارج العراق ضده ؛ فبادر عامله عليها عبد الحميد بن عبد الرحمن بقتالهم فهزموه ، فأرسل إليهم يزيد الجيش تلو الجيش حتى أوقع بهم وقتلهم وقتل قائدهم شوذب اليشكري [٤] .. كما واصل سيرة سابقيه في الغزو والجهاد ، فكان في عهده غزو السند والترك [٥]وغزو الروم بأرمينية [٦].

ولم ينقض سيرة عمر بن عبد العزيز ويفعل خلافها كما أثار بعض المؤرخين ، ولكنه لم يلزم نفسه مسلك عمر في الزهد والتقشف ، وليس كثيرون يطيقون ذلك ، ورغم هذا فإننا نرى هنا وهناك دلائل عديدة على تحريه العدل وسنن الدين وحرص عماله على بيت مال المسلمين [٧] ، وحرصه على إرضاء رعيته ــ وإن جاوزوا القدر المعهود في التعبير عن رغباتهم ــ كما حدث لما ثار أهل إفريقية على عامله يزيد بن أبي مسلم بعدما نقموا عليه بعض تصرفاته فقتلوه ، فلم يغضب ذلك

---

[١] الأصفهاني : السابق ١٥/١١١-١١٢ ، المسعودي : السابق ٣/٢٠٩ ، سيد أمير علي : السابق ١١٥ .

[٢] د . شلبي : السابق ٢/٩٤-٩٥.

[٣] راجع الطبري : السابق ٦/٥٧٨-٥٨٩ ، ٥٩٠-٦٠٤

[٤] السابق ٩/ ٥٧٥-٥٧٧

[٥] السابق ٦/٦٠٧-٦١٥ ، ٧/ ١٤-١٥ .

[٦] السابق ٦/٦١٦ .

[٧] السابق ٦/ ٥٨٠-٥٨١

الخليفة ، بل أرسل إليهم يؤيدهم في ثورتهم ويقول " إني لم أرض بما صنع يزيد بن أبي مسلم "، وأقر عليهم عاملهم الذي اختاروه بدله محمد بن يزيد [١] ..

ولما بلغه أن عامله على المدينة عبد الرحمن بن الضحاك آذى فاطمة بنت الحسين بعدما رفضت الزواج منه ، عزله وكلف الوالي الجديد أن يبسط العذاب على ابن الضحاك ، وأن يغرمه أربعين ألف دينار، ولم يقبل شفاعة أخيه مسلمة بن عبد الملك فيه [٢] ..

ولعل آخر ما يذكر ليزيد هنا أنه استخلف من بعده هشام بن عبد الملك، ولم يستخلف ولده الوليد بن يزيد ، إذ كان آنذاك صغير السن ، فجعله من بعد هشام ، ثم لم يغير ذلك الاستخلاف الذي ابتغى به مصلحة الأمة بعد أن شب ابنه هذا في حياته [٣] ..

ـ حول تدين هشام بن عبد الملك :

ويتهم بعض المؤرخين هشام بن عبد الملك بأنه كان خشنا فظا غليظا، منعوتا بالبخل والجبن ، حتى لم ير زمان أصعب من زمانه [٤] ..

غير أن وقائع التاريخ ومعظم الروايات تتجه اتجاها آخر ينفي هذه الاتهامات عنه ، فقد كان زمانه حافلا بالجهاد والغزو على شتى الجبهات ، وإن لم يحدث تقدم ذو بال على مساحة الدولة[٥]، ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا وعليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلا [٦] ، ولم يكن بخيلا ولا كان زمانه أصعب زمان كما يزعمون ، فقد كانت له جهوده المعمارية [٧] ، وقد كان يجمع الأموال ويعمر الأرض ويستجيد الخيل .. وقد اصطنع الرجال وقوى الثغور واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغير ذلك من الآثار [٨].. وهكذا نجد حديث بخل هشام حديثا منقوضا [٩] ،

---

[١] السابق ٦/ ٦١٧ .

[٢] السابق٧/١٢-١٣

[٣] السابق ٧/ ٢٠٩ ، وكان الوليد بن يزيد لما استخلف أبوه هشاما ابن إحدى عشرة سنة ، ولم يمت يزيد حتى بلغ ابنه الوليد الخامسة عشرة من عمره .

[٤] المسعودي : السابق ٢١٧/٣ ، الطبري ٢٠٥/٧ ، ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ٣٢٦/١ .

[٥] راجع حالة الفتوحات في عهد هشام عند : محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ٤/ ٢٧٣-٢٧٧ .

[٦] الطبري : السابق ٧/ ٢٠٢.

[٧] بنى قصرين في الرصافة حيث كان ينزل (الطبري : السابق ٧/ ٢٠٧) .

[٨] المسعودي : السابق٢١٧/٣ .

[٩] راجع عن بخله المزعوم الطبري : السابق ٧/ ٢٠١ ، وعن تنعمه وسرفه ابن الأثير : الكامل ٢٥٥/٤ .

ويبدو لي أنه كان دقيقا في أموره المالية غير مفرط ، فاعتبرت هذه الصفات بخلا في وقت كان بعض العرب فيه يتباهون بالسرف أحيانا [١] ...

وكان هشام يجل العلماء والفقهاء في زمانه ، فلما حج سنة 106هـ وبلغه موت طاووس اليمنى الفقيه وسالم بن عبد الله ، حرص على أن يصلي بنفسه عليهما ، ورأى القاسم بن محمد بن أبي بكر عند قبر سالم بن عبد الله ، فأقبل عليه هشام ، ما عليه إلا دراعة ، يسأله عن حاله ، فقال : بخير، فقال الخليفة : إني أحب والله أن يجعلكم بخير [٢] .

وتفقد هشام بعض ولده ــ ولم يحضر الجمعة ــ فقال له: ما منعك من الصلاة ؟ قال: نفقت دابتي ، فقال هشام: أعجزت عن المشي فتركت الجمعة ؟ ومنعه الدابة سنة [٣]

وبلغه أن يحيى بن ميمون الحضرمي ــ قاضيه على مصر ــ لم ينصف يتيما احتكم إليه في بعض أمره فكتب إلى عامله على مصر يقول: اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحورا ، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب ، لا تأخذه في الله لومة لائم [٤]...

ونسوق هنا هذا المثال الرائع لتواضع الخليفة مع وزيره ورعيته ، فقد قال هشام يوما لوزيره الأبرش الكلبي: أوضعت أعنزك ؟ قال: إي والله ، قال هشام لكن أعنزي تأخر ولادها؛ فاخرج بنا إلى أعنزك نصب من ألبانها ، قال: نعم ، أتقدم قوما ؟ قال: لا. قال: أفأقول : خباء؛ حتى يضرب لنا ؟ قال : نعم، وغدا الناس ، فقعد هشام والأبرش كل واحد منهما على كرسي، وقدم إلى كل واحد منهما شاة ، فحلب هشام الشاة بيده ، وقال تعلم يأبرش أني لم أبس الحليب [٥] ، ثم أمر بملة فعجنت، وأوقد النار بيده ، وألقى الملة ، وجعل يقلبها حتى نضجت . ثم أخرجها، وجعل يقلبها بالمخراث ويقول : جبينك جبينك ، والأبرش يقول: لبيك لبيك ــ وهو شيء تقوله الصبيان إذا خبزت لهم الملة ــ ثم تغدى وتغدى الناس ، ورجع [٦]

ــ شبهات حول سيرة الوليد بن يزيد :

وتعرض الوليد بن يزيد لحملة عاتية من التشويه ، فلم يكف المؤرخون أن نسبوا إليه اللهو والفسوق ، بل وسموه بالكفر وموجباته ، ونسبوا إليه شعرا ينكر فيه الوحي والكتاب [٧] ، وزعموا أنه

---

[١] د . شلبي . السابق ٢/ ٩٧ .

[٢] الطبري السابق ٢٩/٧ .

[٣] السابق ٧/ ٢٠٤

[٤] الكندي : السابق ٤٢٣=٤٢٤ ،نقلا عن د. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي ١/٥٠٠

[٥] الإبساس : التلطف في حلب الشاة بأن يقال لها بس بس (لسان العرب القاموس المحيط، مادة بسس).

[٦] الطبري . السابق ٧/٢٠٥-٢٠٦ .

[٧] المسعودي : السابق ٣/ ٢٢٨-٢٢٩ ، ابن أعثم الكوفي السابق ٨ ١٤٠

جعل القرآن غرضا لسهامه ذات يوم في نوبة طيش ونزق [١]، ثم نسبوا إليه بعد ذلك كلـه سـقوطا خلقيا ذريعا وتهتكا قبيحا واستخفافا بمعاني الشرف والعفة والكرامة [٢]..

وخلافة الوليد لم تزد عن سنة وثلاثة أشهر [٣]، ورغم ذلك فقد شاع ذكره في التاريخ حتى أصبح من أشهر خلفاء بنى أمية، وحاول بعض المؤرخين أن يجعل من نقائصه ومثاليه ـ الصحيـح منها والمخترع ـ سمة غالبة على العصر الأموي وخلفائه، رغم قصر مدة خلافته؛ وثـورة أهلـه الأمويين عليه فيما بعد، وقتلهم إياه ..

ولقد كان في الوليد نقص في الدين على ما يبدو وإن كان لا يصل أبدا إلى تلك الدرجـة التي يصفها المؤرخون؛ ولقد كان بعض العلماء البارزين في عصره يعيبه وينقده [٤]، غير أن نقـص قدراته السياسية كان أوضح بكثير، وهو الذي جنى عليه، وطمس تاريخه بالفسق والفجور، وهمـا أبشع ما يتهم به خليفة، في ذلك الحين، بعدما قادته ظروف حياته ونتائج سياسته إلى أن يثـير مـن حوله كثيرا من الأعداء والناقمين، من مختلف الاتجاهات، ومن خصوم الدولة التقليديين وأنصارهـا على السواء ..

فقد جعل أبوه يزيد بن عبد الملك ـ كما رأينا ـ ولاية عهده إلى هشام بن عبد الملـك، وجعل ابنه الصغير آنذاك الوليد بن يزيد وليا لعهد هشام بعد استخـلافه، ولكن الابن الصغير قـد شب في حياة أبيه، الذي لم يغير عهده، ولكن ظلت في نفسه حسرة وشفقة على ولده، ينظـر إليـه ويقول: "الله بيني وبين من جعل هشاما بيني وبينك" [٥]، ويبدو أن يزيد حاول تعويض ولـده عـن ذلك، فأغدق عليه من ألوان الترف ما جعل الوليد فيما بعد شاعرا مترفا رقيق المشاعر بعيـدا عـن حياة الخشونة والجد وتحمل الأعباء ..

ولما ولي هشام الخلافة ووجد الوليد على ذلك وقد اتخذ من حوله جماعة مـن الندمـاء لم يرضهم له، حاول الخليفة استصلاحه قدر طاقته، وأرسله لذلك على موسم الحج سنة 119هـ، وتتبع أصحابه ينهاه عنهم ويقصر بهم، حتى ضاق منه الوليد فتركه ـ مع بعض خاصته ومواليه ـ ونـزل الأزرق بين أرض بلقين وفزارة، على ماء يقال له الأغدف [٦]، فلمـا رأى هشـام أن الوليـد لا

---

[١] المسعودي: السابق ٣/ ٢٢٨-٢٢٩، ابن أعثم: السابق ١٣٧/٨-١٣٨

[٢] راجع: الأصفهاني: السابق ١٧١/١٩-١٧٢ ط. دار الكتب، المسعودي: السابق ٢٢٦/٣-٢٢٨، ابن أبي الدم: السابق ١/ ٣٣٢ -٣٣٣، القرماني أخبار الدول ص ١٤٣.

[٣] الطبري: السابق ٢٥٢/٧.

[٤] راجع رأي الزهري في الوليد بن يزيد: الطبري: السابق ٢٥٣/٧.

[٥] السابق ٧/ ٢٠٩

[٦] السابق٢٠٩/٧-٢١١.

يستجيب لمحاولات إصلاحه أطمعه ذلك في خلعه والبيعة لابنه مسلمه بن هشام ، غير أن الوليد رفض ذلك [١] ، وساءت علاقته بالخليفة أكثر مما كانت ، ويبدو أن بعض المحيطين بهشام قد استغلوا ذلك؛ فبالغوا في وصف لهو الوليد وفسقه واستهانته بدينه . كما أن جماعة المحيطين بالوليد والمنتفعين منه كان يرضيهم أن يصبح خليفة، ولم يكونوا يتسمون بالمسئولية . فراح بعضهم يسيء إلى مسلمة ابن هشام ويتهمه هو الآخر بالفسوق وشرب الخمر[٢]، ويتعجل موت الخليفة وتولي الوليد [٣] ، مما زاد في هوة الفجوة بين الخليفة وولي عهده ، حتى قطع هشام عن الوليد عطاءه وتتبع أصحابه بالإساءة [٤] .. فلما مات هشام واستخلف الوليد نفس عن حقده المكبوت على ولد هشام ومن ساعده من بني أمية وأعوانهم ، فتعقب بني عميه هشام والوليد بالإساءة والنكال . فلجا هؤلاء إلى التشنيع عليه ورموه بالكفر وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وقالوا : اتخذ مائة جامعة وكتب على كل جامعة اسم رجل من بني أمية ليقتله بها ، ورموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان الناس إلى قوله أميل ، لأنه كان يظهر النسك ويتواضع ويقول " ما يسعنا الرضا بالوليد ، حتى حمل الناس على الفتك به"[٥].

وتدخل في الدعاية ضد الوليد عامل آخر، هو إصرار الوليد على استمرار اضطهاده القدرية ، ذلك المسلك الذي بدأه هشام بن عبد الملك لما قتل غيلان الدمشقي بعد أن اتضح له زيغه [٦] ، وتتبع أصحابه فنفى بعضهم إلى دهلك [٧]، فلما تولى الوليد كلم بشأن رد هؤلاء المنفيين ، فأبى ؛ وقال : والله ما عمل هشام عملا أرجى له عندي أن تناله المغفرة به من قتله القدرية وتسييره إياهم [٨].. وقد كان يزيد بن الوليد الذي قاد الثورة ضد الوليد يرى رأي هؤلاء القدرية ، ومن المرجح أن موقف الوليد منهم قد زاد حنقهم عليه وقد اتخذت دعايتهم كما هو متوقع شكل الغيرة على الإسلام ، ورمي الخليفة بالفسوق والزندقة ..

---

[١] السابق/٧/٢٠٩

[٢] السابق ٧/ ٢١٠ حيث ينسب ذلك القول إلى الوليد نفسه ، وينقل الأصفهاني أن عبد الصمد بن عبد الأعلى أحد أصحاب الوليد غير المرضيين قد قاله ونحله إلى الوليد ؛ انظر الأغاني ٣/٧

[٣] الطبري : السابق ٢١١/٧ .

[٤] السابق ٢١١/٧-٢١٢ .

[٥] السابق/٧/٢٣١-٢٣٢

[٦] السابق ٧/ ٢٠٣ .

[٧] دهلك : إحدى سواحل البحر الأحمر مما يجاور سواحل اليمن ، الهمداني صفة جزيرة العرب (٥٢/١) .

[٨] الطبري : السابق ٢٣٢/٧

وانضم إلى هؤلاء الناقمين على الوليد تلك الطائفة من الشيعة الزيدية الذين وترهم الوليد لما قتل يحيى بن زيد بن على بن الحسين في عهده بالعراق ، وقيل أن الوليد أمر عامله على العراق بحرق جسده وذره في الفرات [١] ، فهيج خواطر الشيعة وأنصارهم عليه ..

ثم جاء خطأ الوليد الأكبر الذي دمر تاريخه وحياته ، ألا وهو قتل خالد القسري زعيم اليمانية بعد تعذيبه ، ليستأدي منه أموالا ظن أنه أخذها في إمرته على العراق بغير حق [٢] .. ومعروف أن اليمانية بالشام هم أقوى قبائلها وأقوى أنصار بنى أمية منذ بدء خلافتهم ، ولم يكونوا ليسكتوا عن قتل زعيمهم على هذا النحو، وقد استغل أعداء الأمويين حادثة مقتل القسري أروع استغلال ، فوضعوا الأشعار على لسان الوليد يفتخر فيها بقتل خالد وإذلال اليمن وإعزاز قيس وسيروا ذلك ، فأهاجت عليه قبائل اليمن الذين انبرى شعراؤهم يردون على الوليد ويتهددونه ، فقال قائلهم :

سنبكي خالدا بمهندات ولا تذهب صنائعه ضلالا [٣]

فتحالفوا مع يزيد بن الوليد " الناقص " كما يلقب ، الذي تزعم الثورة على الوليد وقضى عليه .. ولا ريب أن إثارة الشائعات ضد الوليد وتشويه صورته كانت أقوى أسلحتهم ، كما كانت سلاحا بارزا لغيرهم من أعدائه المتكالبين عليه ، والذين نجح هو بسوء سياسته في إثارتهم وتجميعهم ضده.

أدلة تاريخية تنصف الوليد :

لا يخلو التاريخ من أدلة مختلفة على براءة الوليد من تهمة الإلحاد والجهر بالفسوق كما يصف الرواة.. فرسائله إلى هشام بن عبد الملك [٤] ، ونصر بن سيار [٥] ، تدل على إيمانه بالله ، وثقته بقدرته ، كما أن موقفه من القدرية يعزز هذا المعنى ويؤيده ..

ولما حوصر الوليد دنا من باب قصره يحدث المحاصرين له يقول: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ؟! فبادر إليه يزيد بن عنبسة السكسكي ، فقال له الوليد: يا أخا السكاسك ؛ ألم أزد في إعطياتكم ؟ ألم أرفع المؤن عنكم ؟ ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم زمناكم ؟ فقال يزيد بن عنبسة : إنا ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله ، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله ، فقال الوليد مذهولا من قائمة الاتهام : حسبك يا

---

[١] السابق ٧/ ٢٣٠ ، ٢٥٤-٢٦١ .

[٢] السابق ٧/ ٢٣٣-٢٣٤ .

[٣] السابق ٧/٢٣٤-٢٣٦ ، الدينوري : الأخبار الطوال ٣٤٨-٣٤٩ .

[٤] الطبري السابق ٧/ ٢١٢-٢١٣ .

[٥] السابق ٧/٢١٨-٢٢٤

أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل لي لسعة عما ذكـرت ، ورجـع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفا ، وقال : يوم كيوم عثمان ، ونشر المصحف يقرأ ، ورفض الدفاع عن نفسه آنئذ حتى قتل [١] ..

ومن المثير أن خالدا القسري الذي قتل تحت العذاب بأمر الوليد لم تطاوعه نفسـه علـى المشاركة في حملة التشويه للوليد ؛ فلما حدثه بعض أصحابه عن مجون الوليد وفسقه قال : أمر الوليد أمر غائب عني ، ولا أعلمه يقينا ، إنما هي أخبار الناس[٢] ، وقد كذبت مولاة للوليد ما أذاعه عنـه أخوه سليمان من فسق ومجون بعد قتله [٣] ، كما وقد شهد له ابن علاثة الفقيه في مجلـس الخليفـة العباسي المهدي ، بعد انقضاء سلطان بنى أمية بزمان ، بأنه كان صاحب مروءة في طهارته وصلاتـه ، وإن لها وعبث [٤] ودخل ابن للغمر بن يزيد ـــ ابن أخي الوليد ـــ على هارون الرشيد العباسـي ، فلما عرف الرشيد نسبه قال : " رحم الله عمك الوليد ، ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفـة مجمعـا عليه " [٥] ..

وكان مقتل الوليد بن يزيد بداية النهاية للدولة الأموية ، فقد اختلف أفراد البيت الأمـوي على أنفسهم ، وثار بعضهم باسم الخليفة المقتول ، وأيد آخرون الخليفة الجديد ، وانشـعب أمـر العصبة اليمنية بالشام التي طالما بذلت طاعتها للبيت الأموي المتماسك ،وتمسكت به، ولم تطل خلافة يزيد بن الوليد عن بضعة أشهر[٦] ، ورغم ذلك فقد وجدت بعض الدلائل على تدينه وعدله [٧] ، ومـا لبث أن أقبل مروان بن محمد ـــ آخر خلفاء البيت الأموي ـــ من الجزيرة ليستولي على مقاليد الحكم بالشام وليقضي ما بقي من سني حكم بني أمية في صراع ونضال في كافة أنحاء الدولة المضطربة ..

حـــول تدين ولاة بنى أميـــة :

تعرض بعض ولاة الأمويين البارزين لاتهامات عديدة فيما يختص بالتزامهم بروح الإســلام ونصوصه ، وقد انصبت معظم هذه الاتهامات على بعض ولاة العراق ، موطن المعارضة المتفجـر في

---

[١] السابق ٧/ ٢٤٦

[٢] السابق ٧/٢٥١

[٣] السابق ٧/٢٣٢ .

[٤] النويري : نهاية الأرب ٢١/ ٤٨٥-٤٨٦ .

[٥] ابن الأثير : الكامل ٤/٢٦٩

[٦] قيل إن خلافته كانت ستة أشهر ؛ وقيل بل أقل من ذلك بأيام أو أكثر من ذلك بليلتين (الطبري : السابق ٧/٢٩٨)

[٧] راجع الطبري : السابق ٧/٢٦٨-٢٦٩ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٦٧ ، د سامي النشـار : نشـأة الفكـر الفلسفي في الإسلام ٢/ ٣٢٧ .

العصر الأموي ، ومن أبرز هؤلاء الولاة الذين تعرضوا لحملات التشويه الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد القسري وغيرهم ، وسوف نلقي مزيدا من الضوء على تدين هذين العلمين وما أثير حولها من شبهات ..

الحجاج بن يوسف :

أفرد ابن عبد ربه بابا في كتابه "العقد الفريد" تحت عنوان: " باب من زعم أن الحجاج كافر " [١] ، وتعرض ابن حجر لذلك الاتهام في ترجمته للحجاج [٢] ، وقد احتج المتهمون له بذلك بما نسب إليه من تهجم على بعض الصحابة واستخفاف بهم [٣] ، وتجرؤ على مكانة رسول الله ﷺ وسبه المدينة المنورة وأهلها ، فيما يزعمون [٤] ، ووصفه بعض الأنبياء بما لا يجوز لمسلم ، مثل ما نسب إليه من سباب سليمان عليه السلام وقوله عنه : " كان والله فيما علمت عبدا حقودا " [٥] .

وكثير من هذه الأقوال لا يجوز تصور صدورها عنه ، فإن تصورنا جواز شدته على بعض الصحابة المعارضين له ، أو عنفه بأهل المدينة بعد تكرار ثوراتهم ضد الأمويين ، فكيف نتصور استخفافه بمقام رسول الله ﷺ وقبره الشريف ، وهو إنما خرج معتمرا قاصدا ثواب الله تعالى ، معظما رسوله الكريم ﷺ ، وكيف نقبل ما نسب إليه من سبه سليمان عليه السلام ، وقد ذكر نفس المصدر التاريخي الذي روى ذلك في موضع آخر منه أن الحجاج قد وصف سليمان عليه السلام بأنه " العبد الصالح " [٦] ..

وقد رووا عنه أنه رأى كثرة التصحيف واللحن في قراءة القرآن بالعراق في عهده لما كثر دخول الأعاجم في الإسلام ففزع إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات تميزها ، فقام نصر بن عاصم بذلك العمل الجليل ، فوضع النقط أفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكنها [٧] ، وقد اهتم الحجاج كذلك بنسخ عدة مصاحف وتفريقها في الأمصار الإسلامية المختلفة [٨] وكان عمر

---

[١] العقد الفريد ٥/ ٥٠-٥١

[٢] تهذيب التهذيب ٢/٢١٠

[٣] الطبري : السابق ٦/ ١٩٥ .

[٤] ابن الأثير : الكامل ٤/٢٧ ، النويري : السابق ٢١/١٤٦ .

[٥] المسعودي : مروج الذهب ٣/١٥١ .

[٦] السابق ٣/١٥٠

[٧] ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢/٣٢ ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ٢/١٦٦ .

[٨] ومن ذلك أن الحجاج كتب عدة مصاحف وفرقها في الأمصار ؛ فبعث منها مصحفا إلى مصر والوالي عليها آنذاك عبد العزيز بن مروان الذي غضب وقال : أيبعث إلى جند أنا فيه بمصحف ؟ وأمر فكتبوا له مصحفا آخر بالغ في ضبطه

ابن عبد العزيز ﷺ على عداوته للحجاج ـــ يقول : " ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه ، وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لي ، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل " [١] ..

ولما كانت معظم هذه الاتهامات تبدو متهافتة ، مع ما عرف عن كثرة أعداء الحجاج واجترائهم على الكذب ؛ فقد أعلن الحافظ ابن كثير حذره تجاهها وقال: ".. ولكن يخشى أنها قد رويت عنه بنوع من الزيادة عليه ، وإن الشيعة كانوا يبغضونه جدا لوجوه ، وربما حرفوا عليه بعض الكلم ، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات " [٢] ...

وقد عرف عن الحجاج تركه شرب الخمر[٣] ، "ولم يشهد عنه شيء من التلطخ بالفروج" [٤] ، بل كان حريصا على العفة والخلق القويم ، وذلك ـــ على ما تحكي بعض الروايات ـــ ما دفعه إلى بناء مدينة واسط ، فإنه يروى في سبب بنائها أن رجلا من أهل الشام ـــ أيام فتنة ابن الأشعث ـــ أراد شرا بامرأة من أهل الكوفة ، فقتله زوجها، وأمرها أن تقص الخبر على الحجاج ، فلما علم بذلك لم يجعل للقتيل قودا ولا عقلا، بل قال للشاميين : ادفنوا صاحبكم ، فإنه قتيل الله إلى النار ، وقال : " لا ينزلن أحد على أحد " ، وبنى مدينة واسط فجعلها معسكرا لجند الشام [٥] ..

وكان الحجاج حريصا على الجهاد وفتح البلاد ، حتى دخلت جنود المسلمين في عهده بلاد ما وراء النهر وفتحت بلاد الهند وقتلت ملكها ، ونشرت الإسلام في هذه البلاد المفتوحة ، ومن أشهر قواده المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد ين المهلب وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي .. ومن سرف القول الزعم بأن هذه الحروب كانت للتوسع وكسب الغنائم ، فقد مات الحجاج ولم يخلف وراءه إلا ثلاثمائة درهم ومصحفا وسيفا وسرجا ورحلا ومائة درع موقوفة [٦]، وكانت وصاياه إلى قادته تنطق بالرغبة في إعزاز الدين وإخلاص النية في ذلك [٧].

إن هذا الواقع هو ما أثار بعض المنصفين القدماء مثل عبد الرحمن الثقفي الذي سمع من يذكر الحجاج في مجلسه بالسوء فقال : إنما تذكرون المساوئ ، أفلا تذكرون أنه أول من ضرب درهما

وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد فيه خطأ فله جائزة كبرى ، فوجد فيه أحد قراء الكوفة لفظة " نجعة " بدل "نعجة " فنال الجائزة (المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٥٤ ، زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٦٠)

[١] ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٨/٩ .

[٢] السابق ٩/ ١٣٢ .

[٣] وما اختلف فيه منها مثل النبيذ المعروف آنذاك (السابق ٩/ ١٢٥) .

[٤] السابق ٩/ ١٣٣ .

[٥] ابن الأثير : الكامل ٩٣/٤ ، الطبري : السابق ٣٨٣/٦ ـ٣٨٤ .

[٦] ابن كثير : السابق ٩/ ١٣٢=١٣٨

[٧] راجع : ابن أعثم : الفتوح ٢٤٧/٧

عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأنه أول من بنى مدينة الصحابة في الإسلام (يعني واسـطا) ، وأنه أول من اتخذ المحامل ، وأن امرأة مسلمة سبيت في الهند فنادت: واحجاجاه ، واتصل به ذلـك فجعل يقول : لبيك ، وانفق سبعة آلاف ألف من الدراهم حتى أنقذ المرأة ، وأنه اتخذ المناظر بينـه وبين أهل قزوين ، فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر، إن كان نهارا، وان كان ليلا أشـعـلوا النيران فتجرد الخيل إليه [١] ..

وكان أمر الحجاج مع العلم والعلماء عجيبا ، ينتقدونه ويعنفون معه ، وهو يحلم عليهم ، أو ينكل بهم ، ولكنهم يقرون له بعميق تأثيره وخطير قدره .. فسعيد بن جبير ــ الذي ثار علـى الحجاج ثم قتل بأمره ــ كان يقول عن الحجاج: " لقد رأيته يزاحمني عند ابن عباس " [٢]، أي يتلقـى العلم عنه ، ولم تشغله أعباء الولاية ــ على كثرة أعباء والي بلد كالعراق ــ عن الإلمام بمجالس العلم أحيانا ، ورواية الحديث الشريف ، فقد روى أنه أم يوما المسجد الجامع بالبصرة ، فلما دخلـه رأى فيه حلقات متعددة ، فأم حلقة الحسن البصري ، فلم يقم له، بل وسع له في المجلس ، فجلس إلى جنبه ، فقال الجلوس : اليوم ننظر إلى الحسن هل يتغير عن عادته في كلامه وهيئته ، فلم يغير شـيئا مـن ذلك ، بل أخذ على نسقه وعادته من غير زيادة ولا نقص ، فلما كان في أخر المجلس قال الحجـاج : صدق الشيخ ، عليكم بهذه المجالس ، فقد قال رسول الله ﷺ : " إذا مررتم برياض الجنة فـارتعوا "، ولولا ما ابتلينا به من هذا الأمر لم تغلبونا عليها ، أو قال : لم تسبقونا إليها [٣] ..

ودخل عليه مالك بن دينار يوما فقال له الحجاج: يا أبا يحيى ؛ ألا أحدثك بحديث حسـن عن رسول الله ﷺ : "من كانت له إلى الله حاجة فليدع بها في دبر كل صلاة مفروضة " [٤] .. وكـان الإمام الشعبي يقول : سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه إليه أحد يقول : " فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا على غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل " [٥].. وكـان الحسـن البصري يقول: " لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد: " إن امـرءا ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحري أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة " [٦] .. وقـد

---

[١] ياقوت : معجم البلدان ٣٨٢/٨=٣٨٣ ، ابن خلكان :السابق٢٣١/١ ، ٢٤٢ ، ابن كثير :السابق ٩/ ١١٨

[٢] ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٦٧/٦ .

[٣] اليافعي : مرآة الجنان ٢٣١/١

[٤] ابن كثير : السابق ١١٩/٩

[٥] السابق ١٢٣/٩

[٦] الجاحظ : البيان والتبيين ١٥٥/٢-١٥٦ ، ابن كثير : السابق ١٢٣/٩ .

روى ابن عساكر عن طريق المغيرة بن مسلم قال . سمعت أبي يقول : خطب الحجاج بن يوسف فذكر القبر أنه بيت الوحدة وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكى من حوله "[١] ..

وخطب الحجاج الناس يوما فقال: أيها الناس؛ احفظوا فروجكم، وخذوا الأنفس بضميرها، فإنها أسوك (أي أضعف) شيء إذا أعطيت، وأعصى شيء إذا سئلت ، وإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله "[٢]، والأمثلة على ذلك عديدة [٣] ..

غير أننا ننقل اللحظة الأخيرة من حياة الحجاج ، في مرض موته حيث كان يتمثل بهذين البيتين

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا　　أيمانهم أنني من ساكني النار

أيحلفون على عمياء ؟ ويحهم ..　　ما ظنهم بقديم العفو غفار[٤]

لقد أثارت عنف مواجهة الحجاج معارضيه من الزبيريين والشيعة والخوارج نفوس الناس ضده — ومنهم زعماء من الأمويين أنفسهم — حتى لقد كتب إليه خليفته عبد الملك يلومه على سرفه في الدماء والأموال [٥]، وكان عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك من الناقمين عليه ، ولكن الحقيقة الأخيرة تظل واضحة ، وهى استقرار حال العراق — دائم الاضطراب — في أواخر عهده بعدما عصف بمعارضيه فيها ، وأنه تفرغ بعد ذلك لجهوده الحضارية ولتوطيد دعائم الفتح والغزو والجهاد ..

خالد القسري ·

ونسبوا إلى خالد القسري ما يفضي به إلى الكفر أو الزندقة ، مثل تفضيل الخليفة على النبي ﷺ وهدم المساجد ليبني بدلها البيع والكنائس وتزويجه رجال أهل الذمة من المسلمات ، وتفضيله بئر حفرها بمكة على زمزم إلى غير ذلك من الشناعات والمثالب الخلقية [٦] ..

وقد تعرض خالد في أثناء ولايته لعداء جبهات عديدة فقد شاعت العصبية القبلية في عهده بالعراق وخراسان ونشط العباسيون نشاطهم المستتر في هذين الإقليمين مما كان يجب عليه

---

[١] ابن كثير السابق ٩/ ١١٩

[٢] ابن قتيبة عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .

[٣] راجع المسعودي : السابق ٣/١٥٠-١٥١

[٤] ابن خلكان السابق ٢/ ٥٣

[٥] الطبري السابق ٦/٤٨١، ابن عبد ربه . السابق ٥/٤٩

[٦] راجع ابن الأثير ٤/١١٠-١١١ ، ٢٢١ ، ٢٦٣ ، الطبري السابق ٦/٤٤٠ ، النويري : السابق ٢١/٢٣١ ، ٤١٢ الأصفهاني السابق ٢٢/٢٥، اليعقوبي السابق ٣/٣٢ ، الإمامة والسياسة ٢/٥٢-٥٣

مواجهته[١]، ووجد نفسه مضطرا إلى محاربة الخوارج وقتل بعض زعمائهم مثل بهلـــول بـــن بشـــر[٢] والصحاري بن شبيب [٣] ؛ وأخيرا تعرض لسخط الخليفتين هشام والوليد بن يزيد مما أعطى الفرصـــة لأنصارهما للحملة عليه ، فلما نكل به أتاح ذلك السبيل أمام من يريدون إثارة اليمانية ضد الخلافـــة مستغلين محنة زعيمهم خالد القسري .. ولقد آدت هذه العوامل إلى تشويه تاريخ الرجل الـــذي دون أيضا في العصر العباسي !.

كان خالد زعيما من زعماء القبائل اليمانية ، وقد كانت زعامة القوم آنذاك تقتضي نمطـــا عاليا من مظاهر السيادة والعزة ، تنتفي معها هذه المثالب الخلقية التي نسجها خيال الرواة فيما بعده ، وكان خالد عاملا لهشام بن عبد الملك، وقد علمنا فيما مضى أن هشاما كان أتقى لله مـــن أن يـــولى عاملا فاسقا أو سيئ الخلق ، ولما عصف الوليد بن يزيد ـــ فيما بعد ـــ بخالد القسري وقتله ثـــارت من أجله قبائل اليمن حتى قتلت الوليد ، والناس لا تثور في ذلك الزمان وتقتل الخليفة من أجل زعيم ضال أو ملحد أو فاسق ..

ثم إن روايات كثيرة تدل على تدين خالد وغيرته على الدين والأخلاق فقد حرم الغنـــاء في العراق أيام إمارته ، فدخل عليه حنين المغني العراقي وشكا له ما حاق به وبولده من ضر نتيجة تحريمه للغناء ، وأنشده أبياتا في الوعـــظ تقول :

أيها الشامت المغتر بالدهـــــر ... أأنت المبرأ الموفـــور؟!

أم لديك العهد الوثيق من الأيـــــــــــــــــام بل أنت جاهل مغرور

من رأيت المنايا خلدن ، أم من ... ذا عليه أن يضام خفير..

فبكى خالد وقال : قد أذنت لك وحدك خاصة ، فلا تجالس سفيها ولا معربدا، فكان إذا دعي قـــال : أفيكم سفيه أو معربد ؟ فإذا قيل: لا، دخـــل[٤].. وقدر روي أنه منع شاعرا عرف بمجونـــه وشـــربه العطاء ، لأنه ينفق ماله في الخمر والفجور، ولم يعد عليه عطاءه إلا بعد توبته ورجوعه عما كان فيه [٥] ، كما أمر ـــ وهو وال على الحجاز ـــ بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف حول الكعبة لما بلغـــه أن رجلا يقول الشعر الفاسد عن ذلك [٦] ..

---

[١] الطبري : السابق ٤٩/٧-٥١ ، ١٤١-١٤٢ .

[٢] الطبري : السابق ١٣٠/٧

[٣] السابق ٧/ ١٣٧

[٤] الأصفهاني : السابق ٣٠٨/٢

[٥] السابق ٣٧٤/٢٣-٣٧٥ ، ٣٧٨ .

[٦] المسعودي : السابق ١٨٤/٣ .

وقد شن خالد الحرب على المذاهب الضالة والمنحرفة عن العقيدة الصحيحة في العــراق ، فقتل المغيرة بن سعيد لما ظهر سحره وضلاله [١] ، كما قتل الجعد بن درهم لرأيه الشاذ في القدر[٢]، ولما بلغه عن واصل بن عطاء كلام في القدر دعاه وسأله ، فقال : أقول يقضي الله بالحق ويحب العــدل ، فقال خالد: فما بال الناس يذمونك ؟ قال: يحبون أن يحمدوا أنفسهم، ويلوموا خالقهم ، فقال خالد : لا، ولا كرامة ، الزم شأنك [٣] ..

وقد اتهموا خالدا بالعداء الشديد لآل البيت ولعن علــي بــن أبي طــالب والإســاءة إلى ذكراه [٤]، على أن آخرين اتهموه بمحاباة آل البيت حتى تاقت أنفسهم إلى طلب الخلافة وزعموا أنــه كان المحرض لزيد بن علي بن الحسين على ثورته ضد هشام [٥].. وأولى بنا ألا نصدق هذا الزعــم أو ذاك ، فقد كان النهج التقليدي لبني أمية هو الإحسان إلى آل البيت ما وسعهم ذلك ، إلا إذا خــرج منهم خارج على الخلافة ، فهناك يستحلون دمه ، كأي خارج آخر..

وقد زعموا أنه فضل الخليفة على رسول الله ﷺ بينما يروون أنه انتقد هشام بــن عبــد الملك لأن رجلا في مجلسه قد فضل الخليفة على رسول الله [٦] !! والقصة تبدو مخترعة من أساســها ، وهشام وعامله أتقى لله من أن يقبلوا مثل هذا الهراء . ولما تخلت الدنيا عن القسري ، ووقع أســيرا في يد خصمه يوسف بن عمر الذي خلفه على حكم العراق ، ولم يعد بإمكانه أن ينفــع أو يضــر، امتدحه أبو الشغب العبسي بقوله :

ألا إن خير الناس حيا وهــالــكا	أسير ثقيف عندهم في السلاسل
فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه	ولا تسجنوا معروفه في القبائل [٧]

---

[١] الطبري : السابق ١٢٨/٧-١٢٩ .

[٢] سيأتي بيان ذلك ص من هذا البحث

[٣] راجع : النشار : السابق ٣٩٤/٢ .

[٤] الطبري : السابق ٢٥٥/٧ .

[٥] السابق والصفحة

[٦] الطبري السابق ٧/ ٢٥٧ -٢٥٨ ، الدينوري السابق ٣٤٦

[٧] أبو تمام ديوان الحماسة ٣٨٤/١ ، الطبري السابق ٢٥٧/٧

المبحث الثاني

التوجه الإسلامي للمجتمع والدولة

أولاً : شبهات حول تدين المجتمع الأموي :

يصف بعض كتابنا القدامى والمحدثين المجتمع الإسلامي في العصر الأموي بأنه مجتمع اللـــهو والغناء والشعر[١]، ولا يخلون بني أمية من المسئولية عن ذلك ، لأنهم ــ كما يـــرون ــ أغرقوهـــم بالعطايا و الرواتب ليشغلوهم بذلك عن طلب الملك [٢] ..

و يتهمون خلفاء الأمويين بالاشتراك في ضروب اللهو المختلفة حتى يجرحوا بذلك عن سمت الوقار، فيرقصون و يتجردون من ثيابهم في مجالس الطرب و الأنس ، ويتخذ بعضـــهم ســـتارة دون ندمائه كيلا يروه على تلك الحال ، ولا يعبأ الآخرون بالاستتار[٣] ..

فضلاً عن ذلك فقد وصم هؤلاء المؤرخون المجتمع في ذلك العصر بالجهل الكبـــير ، ومـــا الظن بمجتمع عربي لا يفرق ــ في زعمهم ــ بين الناقة والبعير[٤] ، و يصلي بهم خليفتهم الأمـــوي "معاوية " الجمعة يوم الأربعاء فيصلون وراءه [٥] ، ويغيرون لهم أيام الحج فيقبلون منهم [٦] !!

ولا مجال لإنكار انتشار الغناء و الغزل العذري والصريح في الحجاز وأقـــاليم أخـــرى في الدولة الأموية كالعراق والشام ، فذلك ما تؤكده كثير من الروايات ، وتؤيده دواويـــن الشـــعراء وموروثات الأدباء ، ولكن السؤال هنا عن مدى ذلك الانتشار ، وتعبيره عن حقيقة الحياة في المجتمع الأموي في خطها العام ، وموقف أولي الأمر منه ومن آثاره ونتائجه ..

---

[١] بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ١٩٤/١ ، أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٧٦ .

[٢] جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية 267/1 ، النشار نشأه الفكر الفلسفي 231/2 .

[٣] الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص ٢٢وما بعدها ، وانظر أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٢٢.

[٤] المسعودي : مروج الذهب ٤١/٣ .

[٥] السابق والصفحة ، ويعقب العقاد على هذه الروايات بقوله : " فإن كان في هذه القصص بعض المبالغة فهي مبالغـــة الفكاهة الموكلة بتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ؛ وليست مبالغة الاختلاق والافتراء " (عبقرية علي ٣٤)

[٦] الطبري السابق ١٦٠/٥

لقد ازداد الغناء في المجتمع الإسلامي كأحد نتائج الاتصال بين العرب والفرس [١] ، و بـدأ بسيطا ساذجا يشبه الحداء الذي ألفه العرب في رحلاتهم وسيرهم [٢] ، ثم اختلط كثير من أفراد طبقة المغنين هؤلاء بالمخنثين والسفهاء ، فأصبح الغناء مرتبطا بهذه الجماعة [٣] ، فتعرض لحرب الفقهاء والعلماء والأمراء على السواء .. كما سيأتي بيانه قريبا ..

إن نشاط الشعراء الغزلين في الحجاز وغيرها لم يكن في الحقيقة معبرا صادقا عن حقيقة المجتمع الإسلامي آنذاك ، فللشعر طبيعته الخاصة التي تنشد الخيال وتجسده ، ودأب الشعراء أن يقولوا ما لا يفعلون، ولو صدقنا جميع ما ورد إلينا من قصص الحب في الشعر الأموي كقصص جميل وبثينة و قيس وليلى وغيرهم ؛ ومغامرات الشعراء المدعين كعمر بن أبي ربيعة و غيره ؛ ولو حملنا كل ذلك على الحقيقة لا الخيال لكان معناه أن المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري قد تفرغ للحب والمغامرة وطلب المتعة بأي سبيل ؛ وبدرجة لم تترك مجالا لممارسة أوجه النشاط الأخرى التي تتطلبها الحياة في دوله تجاهد أعداءها في الخارج و تتمايز قواها ، وتتصارع أحيانا في الداخل ، وفي مجتمع يفيض حيوية ويزخر بقيم التدين وسلطان العلماء ..

و لقد شك بعض الباحثين في الأدب ــ من المتحاملين على بني أمية ــ في وقوع هذه القصص العديدة من الحب العذري والصريح في العصر الأموي ، ورجح أنها مصنوعة متكلفة ، صنعها فريق من الناس لتدور حول أشعار الغزل الموجودة آنذاك ، و تنشرها على نحو فني [٤] .. فلم تكن أخلاق معظم هؤلاء الشعراء الغزلين تسمح بغير الالتزام بالعفة والصلاح ، و لم تكن أخلاق المرأة العربية المسلمة آنذاك ترضى أن يمس شرفها وعفافها..كما تصور قصص الشعراء في قصائدهم.

فقد كان ذو الرمة الشاعر صاحب خشوع وصلاة ، بالرغم مما شاع عنه من قصص الحب وعلاقات الهوى ، ومن ذلك علاقته مع فتاة تدعى " الخرقاء " تروي قصة تلك العلاقة فتقول : " اجتاز بنا (ذو الرمة) في ركب ؛ ونحن عدة جوار على بعض المياه ، فقال: أسفرن ؛ فسفرن غيري ، فقال : لئن لم تسفري لأفضحنك ؛ فسفرت ، فلم يزل يقول حتى أزبد ؛ ثم لم أره بعد ذلك " [٥].

و كان العرجي عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان من الفرسان المعدودين في جيش مسلمة بن عبد الملك ببلاد الروم ، وكان له معه بلاء حسن ونفقة عظيمة [٦] ، وقد شبب رغم ذلك بإحدى موالي ثقيف وكانت عند أحد بني أمية ، استسقاها فأبت أن تسقيه خوفا من أن يلصق بها منه

---

[١] الأصفهاني الأغاني 273/3 ، 276 ، 232/1ـــ233

[٢] السابق 358/1

[٣] السابق 182/2 ـــ183

[٤] طه حسين : حديث الأربعاء 240/1

[٥] الأصفهاني السابق 38/18 ط دار الكتب

[٦] السابق 364/1 ـــ 365

شر، فانصرف فقال قصيدة شبب بها فيها ، فبلغت سيدها ، فأحلفها بين الركن والمقام بمكة سبعين يمينا ؛ أن العرجي كذاب فيما قاله ، فحلفت ! [١] ..

وقصص جميل وبثينة ـــ حتى كما أوردها صاحب الأغاني ـــ تنطق بالشرف والطهر [٢] ، وكذلك ما كان بين نصيب الشاعر ومحبوبته زينب ، حتى كان يقول لأصحابه : " لا ورب الكعبة هذه البنية المستورة ، ما جلست منها مجلسا قط هو أقرب من هذا ، وكان يجلس آنذاك مجلسا بعيدا عن محدثه " [٣].

ويستحق عمر بن أبي ربيعة وقفة خاصة في هذا الشأن لأكثر من سبب؛ فقد امتاز شعره بجمال أخاذ وسهولة ورقة جعلته لاصقا بالقلوب ، سريع التأثير في النفوس ، موهما إياها بالصدق الكامل ، ولأنه اتخذ مجالا جديدا أفرغ فيه طاقته الفنية ؛ وهو الغزل الصريح والتشبيب بنساء الأشراف من المسلمين [٤] ، واتخذ موسم الحج أداة فنية يعبر من خلالها عن مغامراته وقصصه ، حتى خدع بذلك بعض الكتاب والمفكرين ؛ فأعطاهم صورة زائفة عن المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، فقال أحدهم : "والمؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة ، فسيجد منه في شعر هذا الشاعر كل ما أراد " [٥]، ويقول : " فلم يكن عمر بن أبي ربيعة يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامي للجمال .. فكان موسم الحج موسم شعر وغناء في الحجاز" [٦] !! رغم أن الكاتب نفسه يصف علاقة عمر بن أبي ربيعة بنساء أشراف المسلمين بأنها " كانت طاهرة كل الطهر، بريئة كل البراءة من الإثم ،كانت لفظية لا غير" [٧] ؛ فكيف تكون علاقة لفظية لا غير وتعبر في الوقت نفسه عن العلاقة بين الرجال والنساء آنذاك ؟!

ورغم ذلك فان أخبار عمر ومغامراته تعطينا الدلالة الواضحة على أن هذا القصص الذي يدعى حدوثه في شعره كان قصصا فنيا لم يحدث إلا في خيال الشاعر الخصيب ، وكان هو نفسه والنسوة اللائى تغزل بهن والناس من حولهم يعلمون ذلك عنه ، فقد كانت سعدى بنت عبد الرحمن ابن عوف جالسة في المسجد الحرام فرأت عمر يطوف بالبيت ، فأرسلت إليه : إذا فرغت فأتنا ،

---

[١] السابق 365ـــ368

[٢] السابق 105/8

[٣] السابق 118/6

[٤] لقد شبب بأم محمد بنت مروان بن الحكم (الأغاني 166/1) وفاطمة بنت عبد الملك زوج عمر بن عبد العزيز !! (السابق 186/1) وسكينة بنت الحسين بن على (السابق 162/1) وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله (السابق 190/1 – 194) وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف (السابق 99/17 – 100)

[٥] طه حسين: حديث الأربعاء 377/1

[٦] السابق 392/1 –393

[٧] السابق 383/1

فأتاها فقالت : ألا أراك يا ابن أبي ربيعة سادرا في حرم الله ؟ أما تخاف الله ؟ ويحك إلى متى هذا السفه ؟ فقال : أي هذه ؛ دعي عنك هذا القول ، أما سمعت ما قلت فيك ؟ قالت : لا، فما قلت ؟ فأنشدها قوله :

قالت سعيدة والدموع ذوارف   منها على الخدين والجلباب ...

إلى آخر هذه القصيدة التي تصور حديثا بينهما ومغامرة ، فلما سمعت سعدى ذلك قالت : أخزاك الله يا فاسق ، ما علم الله أني قلت مما قلت حرفا ، ولكنك إنسان بهوت !! [1] ..

وقد أوقف مرة ليلى بنت الحارث بن عمر البكرية في طريقها ثم أنشدها قصيدة جريئة قال آخرها :

وقد حضر الرحيل وحان منا   فراقك فانظري ما تأمرينا !

فقالت : آمرك بتقوى الله ، وإيثار طاعته، وترك ما أنت عليه، ثم صاحت ببغلتها ومضت [2] ..

بل إنه شبب بشريفة أخرى قرشية هي زينب بنت موسى الجمحية وهو لم يلقها ولم يرها ، وإنما سمع مدحا لها من صديقه ابن أبي عتيق ، فملأ الدنيا حديثا عنها حتى لامه في ذلك صاحبه نفسه ! [3] ..

وربما كان في شبابه يوهم الناس بصدق حكاياته ومغامراته الشعرية ، غير أنه لما كبرت به السن لم ير أولى من الإقرار بالحقيقة في هذا الأمر، فقد أقسم لبني أخيه ـــ وهم محرمون ـــ فقال : ورب هذه البنية ـــ يعني الكعبة المشرفة ـــ ما قلت لامرأة قط شيئا لم تقله لي ، وما كشفت ثوبا عن حرام قط [4] ، وقد حلف حين أسن ألا يقول شعرا إلا أعتق رقبة [5]، ولما مرض مرضه الذي مات فيه جزع عليه أخوه الحارث بن أبي ربيعة جزعا شديدا ، فقال عمر: أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي ، والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط ، فقال أخوه : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك ، وقد سليت عني[6] .

وكان الفقهاء المسلمين وعلماؤهم يعلمون حقيقة الأمر في قصص ابن أبي ربيعة وأنها لا تعبر عن الحقيقة بحال ، كما تبدو في ظاهرها ، حتى أن عبد الله بن عباس ـــ وقد تغزل عمر ذات مرة بابنته لبابة ـــ كان يعجبه شعر عمر، ويحفظه عن ظهر قلب إن سمعه للمرة الأولى ، ويطلب من عمر أن يعيده عليه ، وفي مجلسه أمثال نافع بن الأزرق الخارجي في تشدده وعنفه ..[7] بينما كان علماء آخرون يشفقون من شدة تأثير شعر عمر لما فيه من روعة وعذوبة تجعله سريع الحفظ خطير الأثر،

---

[1] الأصفهاني: الأغاني 99/17 –100

[2] السابق 157/1

[3] السابق 101/11 – 102

[4] الأصفهاني الأغاني 85/1

[5] القالي : الأمالي ٩/٢ ، الأصفهاني : الأغاني 148/1

[6] الأصفهاني السابق 85/1

[7] السابق 81/1

فكانوا يحذرون منه أشد التحذير، فكان جريج يقول : ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة [١] ، وكان هشام بن عروة يقول : لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لئلا يتورطن في الزنى تورطا [٢] ..

وإذا علمنا ذلك قسنا عليه ما نجد من قصص بعض الشعراء مع النساء من بني أمية ، فلم يكن الأمر يعدو تلذذا باختلاق الحكاية ، وتفاخرا بالجرأة على نساء الخلفاء والولاة ، واستغلالا لحلم هؤلاء الخلفاء والولاة وخشيتهم من البطش بهؤلاء الشعراء فيتحقق عند عوام الناس صدق افترائهم ، ولا يخلو الأمر أيضا ــ عند خصوم الأمويين ــ من استغلال ذلك اللون الفني الشائع للتشنيع على بنى أمية والطعن في كرامتهم وعفافهم وغيرتهم .. ومن ذلك ما حكوه عن مغامرات أبي دهبل الشاعر مع عاتكة بنت معاوية [٣] ؛ وما اختلقوه من سيرة الشاعر الموهوم الذي يدعى وضاح اليمن مع أم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك [٤] ، وغير ذلك ..

ثانيا: دور الخلفاء والولاة في حراسة المجتمع :

١- محاربة عوامل التحلل الأخلاقي :

كان معاوية بن أبي سفيان ينهى عن الاستماع إلى الغناء ، وينكر ذلك على من يعرف به [٥] ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم شديدا على أهل الدعارة والفسوق ، وكان معاوية يوالي بينه في ولاية المدينة وبين سعيد بن العاص ، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولاية مروان ، ويعودون أثناء ولاية سعيد للينه وسماحته [٦] ، وقد أتي مروان بأحد هؤلاء المخنثين فقيل له : إنه لا يقرأ من كتاب الله شيئا ، فبعث إليه يستقرئه أم الكتاب ، فقال والله ما معي بناها ، أو ما أقرأ البنات فكيف أقرأ أمهن ؟ فقال مروان: أتهزأ ؛ لا أم لك ؟ وأمر به فقتل ، وقال : من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير، فتسابقوا في الهرب منه [٧] ...

ورووا عن عبد الملك بن مروان أنه لما بلغه أن عامله على مكة الحارث بن خالد المخزومي قد أخر الصلاة في موسم الحج عزله [٨] ، ولما جاء الوليد بن عبد الملك إلى المدينة وهو خليفة ورأى

---

[١] السابق 83/1

[٢] السابق والصفحة

[٣] الحوفي : أدب السياسة 225ــ226 ، الأصفهاني : السابق 407/1ــ408

[٤] الحوفي 226

[٥] الأصفهاني : السابق 215/4 ، أبو الفدا : المختصر 189/1

[٦] الأصفهاني : السابق 276/17 طبعة دار الكتب .

[٧] السابق 29/3ــ30

[٨] السابق 314/3 ، 533

هناك جريرا وعمر بن لجأ الشاعرين قال لهما : أتقذفان المحصنات وتغضباهن ؟ ثم أمر أبا بكر بن محمد بن حزم الأنصاري واليه على المدينة بضربهما ، فضربهما وأقامهما على البلس [١] ..

ولما بلغ سليمان بن عبد الملك أن الأحوص الشاعر يشبب بنساء أهل المدينة وأن المغنين ينشدون ذلك كتب إلى عامله على المدينة أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البلس للناس ، ثم يسيره إلى جزيرة "دهلك" [٢] ، وكان سليمان شديد الحرب على مجالس الطرب ، وقد سأل عن الغناء أين أصله ؟ فقيل : بالمدينة بالمخنثين ، وهم أئمته والحذاق فيه ، فكتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم أن اخص من قبلك من المخنثين والمغنين ، فتتبعهم ابن حزم فخصى منهم جماعة [٣] ...

وقد بلغ عمر بن عبد العزيز أن قاضيا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فأمر بعزله [٤] ، ولما سمع عن شعر عمر بن أبي ربيعة استدعاه إليه ــ فيما يروون ــ وعنفه على قوله ؛ وهم بنفيه لولا أن بادر الشاعر بإعلان توبته والإقلاع عما كان فيه [٥] ..

ولما بلغ هشام بن عبد الملك أن شاعرا يدعى ابن رهيمة يشبب بزينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأن يونس المغني يتغنى بذلك الشعر، أمر بضرب ذلك الشاعر خمسمائة سوط وأن يباح دمه إن وجد قد عاد لذكرها ، وأن يفعل ذلك بكل من غنى بشيء من شعره ، فهرب هو ويونس المغني فلم يقدر عليهما ؛ فيما يزعمون [٦] ؛ وشن هشام حربا على مظاهر الترف والتخنث في عهده ، وكان يأمر بكسر آلات المغنين أو بيعها وجعل أموالها في بيت المال [٧] ..

واستمر هذا دأب الخلفاء الأمويين حتى في أيام ضعف الدولة وانهيارها ، فقد كان يزيد ابن الوليد يقول : " إياكم والغناء فإنه مفتاح الزنى [٨] ، ويقول : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعله المسكر، فإن كنتم فاعليه فجنبوه النساء " [٩] ..

---

[١] السابق 71/8 ، البلس غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ، ويشهر عليها من ينكل به ، لسان العرب مادة : ب ل س .

[٢] جزيرة بالبحر الأحمر غرب اليمن كان ينفى إليها المخنثون والدعار ..

[٣] الأصفهاني السابق 275/4 ــ 276 وقد روى أن الذي أمر بذلك هو الوليد بن عبد الملك وليس سليمان (السابق 275/4)

[٤] المسعودي مروج الذهب 122/2 ، جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي 42/5ــ43

[٥] الأصفهاني الأغاني 63/9 ــ64

[٦] السابق 406/4

[٧] الطبري : السابق 206/7

[٨] الجاحظ : البيان والتبيين 83/2

[٩] السيوطي تاريخ الخلفاء 253

وظهر في عصر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين اللهو بالشطرنج ، فكتب وزيره عبد الحميد الكاتب على لسانه الخليفة إلى أحد ولاته يقول : " وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناسا ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألهجهم الشيطان بها (أي الشطرنج) ؛ وجمعهم عليها، فألف بينهم فيها، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم إلى ممساهم ، ملهية لهم عن الصلوات شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، والفترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها، وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس ، غير منكر ولا معيب ولا مستفظع عند أهل الفقه وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه واستكبره .." [١] ..

ومهما قد يكون في الأخبار السالفة من مبالغة وتضخيم ، فإنها في جملتها وتكاثرها تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن بني أمية كانوا حريصين على سلامة البناء الأخلاقي للأمة ، يتعقبون ما يشينه ويضعفه من مظاهر اللين والترف ، وأنهم كانوا في ذلك مدفوعين بحسهم الإسلامي الواعي عارفين بما يحيط بهم من تحديات وأعداء يحتاجون في مواجهتهم إلى أمة قوية ، ترتكز على دعامة صلبة من الدين والأخلاق ..

٢- رعاية العلم والعلماء :

زخر العصر الأموي بكثير من العلماء على امتداده الزمني والمكاني ؛ يأتي في طليعتهم جيل الصحابة الكثيرين الذين عاصروا هذه الدولة وتركوا آثارا واضحة على الحياة السياسية والاجتماعية فيها ، وجيل التابعين الذين أخذوا عنهم ، وورثوا منهم ، ونشروا علومهم وتراثهم ..

ونلاحظ أن أبرز الخلفاء الأمويين كانوا من العلماء ، بل من كبارهم وسادتهم مثل معاوية ابن أبي سفيان الصحابي كاتب الوحي، ومن لا ينكر علمه وحلمه ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وقد مضى من سيرة هؤلاء الخلفاء ودينهم ما يثبت ذلك، وكان كثير ممن يحوط هؤلاء الخلفاء من العلماء والفقهاء الذين لم يقتصر دورهم على تعليم العلم وتدريسه ، بل مارسوا السياسة ، وعرفوا طرقها ، فقلل ذلك من شهرتهم في مجال الفقه والدرس ، وإن ظل بعضهم يحتفظ بمكانته في ذلك الميدان ، ومن هؤلاء العلماء بعض الصحابة الذين كانوا قريبين من معاوية أثناء حكمه مثل حبيب بن مسلمة الفهري ، والنعمان بن بشير الأنصاري ، والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد الأنصاري وفضالة بن عبيد الأنصاري وغيرهم ، كما كان من القريبين من معاوية بعض أبناء الصحابة الأعلام مثل الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وابن الزبير، ومن جيل التابعين اشتهر من العلماء في العصر الأموي جماعة

---

[١] صفوت . جمهرة رسائل العرب 2/ ٤٦٠-٤٦٤ ، الحوفي : أدب السياسة ص 528

من التابعين لا يحصون كثرة مثل : خارجة بن زيد بن ثابت والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ونافع مولى عبد الله بن عمر وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن كعب القرظي وسعيد بن يسار وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن البصري وابن سيرين والزهري والشعبي ورجاء بن حيوة وعطاء بن رباح وعكرمة مولى ابن عباس وميمون بن مهران وطاووس اليمني وكثير غيرهم ..

وبعض هؤلاء العلماء من التابعين كانوا من القريبين من الحكام ومن المشيرين عليهم والواعظين لهم والناصحين والمنكرين عليهم .. كما تولى بعض هؤلاء العلماء وظائف الحكم والإدارة والقضاء [١]، وكان بعضهم بمثابة الوزراء والمشيرين عند بعض الخلفاء ، رغم تعدد محاولات بعض هؤلاء العلماء الفرار من قربهم من الخلفاء [٢] ، وكانت مكانة الآخرين عظيمة عند بني أمية .. حتى كان عبد الملك بن مروان يقول : إني لأهم بالشيء أفعله بأهل المدينة لسوء أثرهم عندنا فأذكر أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فأستحيي منه ، فأدع ذلك الأمر[٣] ، وكان عمر ابن عبد العزيز يريد أن ينقل الخلافة إلى أحد هؤلاء العلماء البارزين ؛ القاسم بن محمد بن أبي بكر أو ميمون بن مهران [٤]، وحرص هشام بن عبد الملك على أن يصلي على اثنين من هؤلاء العلماء تصادفت وفاتهما أثناء رحلة حجه ؛ طاووس اليمني وسالم بن عبد الله بن عمر [٥]..

إن هذه المكانة الرفيعة التي نالها العلماء في العصر الأموي لا تنفي أن بعضهم كان ينتقد الحكم الأموي أو يثور عليه ، وأن عددا منهم قد لقي في عصرهم إساءة أو تعذيبا ، ولكن ظلت هذه الإساءات محصورة في نطاق ضيق دائما ، ومعظمها كان من نصيب هؤلاء العلماء الخارجين على سلطان الدولة والمشايعين لأعدائها مثلما حدث مع سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى اللذين شاركا في ثورة ابن الأشعث فقتلهما الحجاج ، وقد تكرر الأمر نفسه ــ فيما بعد في العصر العباسي ــ على نحو أشد ، فلقي بعض البارزين من عظماء علماء الإسلام عنتا وتعذيبا كأبي حنيفة النعمان ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل وغيرهم ..

---

[١] الطبري : السابق ٢٥٦/٦ ، ٣٢٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢٢/١-٢٣ ، محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ٥٢/٤-٥٥ .

[٢] ابن عبد ربه : السابق والصفحتان ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ١٧/١ ، أبو نعيم : حلية الأولياء ١٦٩/٥-١٧٠ ، ٢٣٤-٢٣٥ ، ٢٤٤ .

[٣] ابن سعد الطبقات الكبرى 208/5 ــ209

[٤] السابق 254/5 ، اليعقوبي : السابق ٣٠٢/٢

[٥] الطبري : السابق 29/7

ولم تقتصر رعاية الأمويين العلم على رعاية العلماء وإجلالهم ، وإنما امتدت لتترك آثارا خالدة على تطور بعض العلوم الإسلامية ذاتها ، حيث كان لبني أمية دور بارز في ازدهارها ونموها كما سوف نرى فيما بعد ..

عمق التأثير الاجتماعي للعلماء في العصر الأموي :

وكما كانت تأثيرات العلماء ومعارضتهم الأمويين أحيانا ، أو قربهم منهم أحيانا أخرى ؛ دليلا على حيوية هذه الجماعة وتأثيرها الكبير في المجتمع الإسلامي ؛ فقد كان التصاقها بالجماهير وتعلق الناس بها وتجاوبهم معها دليلا آخر على أن المجتمع الإسلامي في العهد الأموي لم يكن على ما يصوره بعض المؤرخين لهوا وعبثا، أو شكا ومجونا ، فإنه لما توفي طاووس اليمني بمكة ؛ وصلى عليه هشام بن عبد الملك ، لم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس ، حتى وجه أمير مكة بالحرس ؛ ولقد كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي يضع سرير طاووس على كاهله وقد سقطت قلنسوة كانت على رأسه ، ومزق رداؤه من خلفه [١] .

ولما مات الحسن البصري تبع الناس جنازته ، حتى لم تقم صلاة العصر بالمسجد الجامع بالبصرة في وقتها لانشغال الخلق بدفنه ؛ وما علم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ [٢] ..

وامتد نشاط الحركة العلمية وتأثير العلماء آنذاك إلى شتى أنحاء الدولة ؛ ففي خراسان "كان الضحاك بن مزاحم الهلالي صاحب التفسير فقيه مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبي ، وكان يركب حمارا يدور عليهم إذا أعيى " [٣]..

٣ – محاربة الأمويين المذاهب الضالة :

بذل الأمويون جهودا كبيرة من أجل الحفاظ على نصاعة العقيدة الإسلامية وبساطتها وصحتها دون تحريف أو مغالاة ، غير أن اختلاط العرب بغيرهم من شعوب البلاد المفتوحة صاحبة العقائد المختلفة والأديان المتعددة والتصورات الدينية المتباينة كان لابد أن يترك أثرا سلبيا على التصور الصحيح للإسلام عند بعض أبنائه ، كما أننا نتوقع منذ البداية أن هذه الحضارات المهزومة والأمم المدحورة ؛ وإن فاتها النصر في ساحات القتال ، لن تعدم وسيلة ما للدس والكيد والتآمر ومحاولة تخريب عقائد المسلمين والتشويش عليها .. وبالتجاوز عن مواجهة الأمويين حركات الخوارج التي تعتمد على سابقة تاريخية منذ حاربهم علي بن أبي طالب ﷺ ، وبافتراض أن تفكير

---

[١] اليافعي : مرآة الجنان 227/1—228 ، وانظر : خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ٣٤٧/٢ .

[٢] اليافعي : السابق ٢٣١/١

[٣] السابق 213/1

الخوارج كان انحرافا في " فهم الإسلام " وغلوا فيه ، وليس حربا له ، أو مكرا بـــه ، فقـــد واجـــه الأمويون بعد ذلك عديدا من المذاهب العقدية الضالة والخطيرة على الإسلام وأمته ..

وقد تركز ظهور معظم هذه الحركات الهدامة في الجزء الشرقي من الدولـــة الإســـلامية في العراق وفارس وخراسان ، حيث كان التأثر واضحا بالديانات الفارسية القديمة ، كما ظهرت بعـــض هذه المذاهب الضالة في الشام حيث نجد بعض المؤثرات النصرانية ، ولكننا نلاحظ كذلك أن هـــذه المذاهب المنحرفة لم تكن خطيرة التأثير، إذ لم تتح لها الفرصة للانتشار والذيوع ، كما أنها كانت تفتقر بشكل واضح إلى التعاطف الجماهيري الذي ظل ملتصقا بقيم الإسلام وتصوراته الصحيحة ..

ولعل أسبق هذه الضلالات إلى الظهور ما نسب إلى المختار بن أبي عبيد ؛ المنـــتزي علـــى العراق في فترة ضعف الحكم الأموي التي تلت موت يزيد بن معاوية وتنـــازل ابنـــه معاويـــة عـــن الخلافة [١] .. وفي سنة 79هـــ اكتشف عبد الملك بن مروان أمر رجل يدعي النبوة بالشام يدعى الحارث بن سعيد فألقى القبض عليه ، وأمر رجالا من أهل العلم والفقه بمحاورته وإقامة الحجة عليـــه لعلـــه يتوب ، فلما لم يقبل منهم أمر بقتله [٢] ...

وظهر في العراق في فترة مبكرة معبد الجهني ؛ الذي كان من أوائل القدرية في الإســـلام ، وهم منكرو القدر، وقد جاء بهذه الأفكار فيما يبدو من مصادر نصرانية ، ثم ما لبث أن ثـــار علـــى الأمويين مع ابن الأشعث ، فلما فشلت هذه الثورة ألقى الحجاج القبض عليه وقتله بعد عام 80 هـــ[٣] ..

وقد أخذ الأفكار القدرية لمعبد أحد رجال الشام واسمه غيلان الدمشقي وكان مـــولى لآل عثمان بن عفان ﷺ ، وقد أدخل على هذه الأفكار مزيدا من التأصيل الجدلي ، وكان فيمـــا يبـــدو مطعونا في دينه قبل ذلك ، فقد قال له مكحول الفقيه : ويلك يا غيلان ألم أجدك ترامـــي النســـاء بالتفاح في رمضان ؟ ثم صرت حارثيا تخدم امرأة الحارث الكذاب ـــ مدعي النبوة الذي قتلـــه عبـــد الملك كما سبق بيانه ـــ وتزعم أنها أم المؤمنين ، ثم تحولت بعد ذلك قدريا زنديقا ؟ [٤] ، وقد نـــاظره عمر بن عبد العزيز لما علم ببدعته ، وأبان له ضلاله فأظهر التراجع عن فكره أكثر من مرة ، وأمـــر عمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقول هؤلاء القدرية ، وقد أمسك غيلان عن الكلام حـــتى مات عمر، " فسال منه بعد ذلك السيل " [٥] ، فاستدعاه هشام بن عبد الملك بعد توليـــه الخلافـــة ،

---

[١] الطبري : السابق 83/6 ، ابن الأثير : الكامل 378/3 ، ابن كثير : البداية والنهاية 291/8ـــ292 ، البغدادي : الفرق بين الفرق 47 ، الشهرستاني : الملل والنحل 197ـــ200

[٢] ابن كثير : السابق 27/6ـــ29

[٣] القاضي عبد الجبار : طبقات المعتزلة 344 ، الاسفراييني : التبصير 13

[٤] ابن نباتة : سرح العيون 166

[٥] السابق 166 ـــ167

وقال له : ويحك ، قل ما عندك ، إن كان حقاً اتبعناه ، وإن كان باطلاً رجعت عنه ، فناظره ميمون ابن مهران [١] والأوزاعي[٢]، فلما استبان خطؤه ومكره وإصراره على ضلالته ، أمر هشام بقتله [٣] ، وأمر أيضاً بنفي أتباعه ، كما مر بنا ، ويبدو أن بعض الناس أرجف بالخليفة بعد صنيعه ذاك حتى أشفق أن يكون أخطأ بقتله غيلان ، فكتب إليه رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يقول : بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من قتل غيلان وصالح (أحد أصحاب غيلان) وأقسم لك يا أمير المؤمنين إن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك [٤] ..

ثم ظهر في الشام الجعد بن درهم مولى بني الحكم ، وكان معلماً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وهو أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد ﷺ ، وقد قيل إنه أخذ ذلك من أصول يهودية ، فلما أظهر ذلك القول طُلب بالشام ، فهرب إلى الكوفة ؛ حيث حبسه عاملها خالد القسري ، وأمره هشام بن عبد الملك بقتله ، فأخرجه في وثاقه يوم عيد الأضحى، وخطب الناس فقال في آخر خطبته : انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم ، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فإنه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل وذبحه [٥] ..

ومن العقائد الباطلة التي ظهرت في ذلك الوقت ما كان من المغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان النهدى ، وكانا من غلاة الشيعة ، فكان المغيرة يقول بألوهية علي بن أبي طالب ، وتكفير الشيخين أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع علي ﷺ ! وزعم أن الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع، وكان ساحراً يقول : لو أردت أن أحيي عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً لفعلت، ويرى مذهب التجسيم لله عز وجل .. [٦] ، ولقد كان بنان بن سمعان يشاركه في هذه المعتقدات ويرى أن علياً حلّ فيه جزء إلهي ، وأنه كان يعلم الغيب ويخبر به ، وأنه سوف يأتي بعد ذلك من جديد ، ثم ادعى أن ذلك الجزء إلهي قد انتقل إليه هو بالتناسخ ، ولذلك فقد استحق أن يكون إماما وخليفة [٧] ، وزعم أنه المراد بقوله تعالى " هذا بيان للناس" [٨] ، إلى غير ذلك من أضاليل

---

[١] ابن كثير : السابق 352/9 ـــ353

[٢] ابن نباتة : السابق 167

[٣] السابق والصفحة

[٤] أبو نعيم :حلية الأولياء 172/5

[٥] ابن الأثير : الكامل 255/4 ، ابن كثير : البداية والنهاية 19/10 ، ابن نباتة : السابق ص 168

[٦] ابن الأثير : السابق 230/4 ، النويري : نهاية الأرب 445/21 ، 446 ، البغدادي : الفرق بين الفرق 239ـــ240

[٧] الشهرستاني : الملل والنحل 204/1ـــ205

[٨] النويري : نهاية الأرب 446/21 والآية من سورة آل عمران رقم 138

عجيبة ، ثم إنهما خرجا في سبعة نفر على خالد القسري فقتلهما حرقا على نحو بشع سنة 111 هـ[1] ، ثم قتل أيضا أحد المتنبئين الكذابين بالكوفة [2] .

وفي ولاية خالد القسري أيضا ظهرت أول دعوة باطنية في الإسلام على يد عمار بن بديل الذي أرسله الداعية العباسي بكير بن ماهان إلى خراسان واليا على شيعتهم هناك سنة 108 هـ ، فنزل مرو وتسمى بخداش ، وتسارع إليه الناس ، فأظهر لهم أباطيل عديدة ورخص لبعضهم في نساء بعض وقال لهم : إنه لا صلاة ولا صوم ولا حج ، وأحل كل ذلك وصرفه عن وجهه المعروف إلى معنى باطني غريب .. فظفر به أسد القسري أخو خالد القسري وعامله على خراسان ، فأمر به فقطعت يده وقلع لسانه وسملت عينه حتى مات سنة 118هـ [3] ..

وفي ولاية يوسف بن عمر (120 –126هـ) على العراق قتل أبو منصور العجلي أحد الشيعة الغلاة الذي زعم أن عليا والحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمدا الباقر كلهم أنبياء ومرسلون ، وأنه هو أيضا نبي مرسل عرج به إلى السماء ، وأن الله تعالى مسح على رأسه بيده وقال يا بني بلغ عني ، ثم أنزله إلى الأرض ، وكفر أصحابه بالجنة والنار، وتأولوا الجنة على أنها نعيم الدنيا ، والنار على محق الناس في الدنيا ، واستحلوا خنق مخالفيهم .. فلما اكتشف يوسف بن عمر خبر ذلك الدجال أخذه وصلبه [4] ..

ولم تنته ضلالات هؤلاء الغلاة في العراق وفارس وخراسان ، فقد بعثها هذه المرة أحد الطالبيين ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، الذي ادعى الإمامة وبايعته جماعة سنة 127 هـ ، وجمع إلى طموحه ضلالات مدمرة وتأويلات باطنية ، وقد حاربه الأمويون بفارس فانهزم منهم ، ومضى نحو سجستان ثم خراسان ، وشغل عنه الأمويون في تلك الفترة التي سبقت انهيار دولتهم لما عانوه من اضطرابات وقلاقل ، حتى قتله أبو مسلم الخراساني ـ فيما بعد ـ لما خشي مغامراته وخطورته [5] !.

---

[1] الطبري : السابق 129/7 ، ابن كثير : السابق 19/10 ـ20

[2] ابن كثير : البداية والنهاية 20/10

[3] الطبري : السابق 109/7 ، ابن الأثير : الكامل 224/4 ـ225

[4] البغدادي : الفرق بين الفرق 244ـ245 ، الخطيب : هامش المنتقى من منهاج الاعتدال ص 96

[5] البغدادي : السابق 246، الشهرستاني : الملل والنحل 202/1ـ203 ، الأصفهاني مقاتل الطالبيين 153ـ157 ، الطبري السابق 203/7 وما بعدها ، 373 ـ374

المبحث الثالث

الفتوحات عند الأمويين

امتدت الفتوحات الإسلامية على يد الأمويين إلى آفاق لم يعرفها عصر الراشدين ، حيث شملت دولة الإسلام ما بين الصين شرقا وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا غربا ... وطرقت أبواب القسطنطينية وضيقت عليها الخناق وحاصرتها ثلاث مرات ، وتحول بحر الروم إلى بحيرة إسلامية ، ونشرت أعلام الإسلام في القارات الثلاث المعروفات آنذاك آسيا وإفريقيا وأوربا ، ودخلت أعداد غفيرة من البشر بذلك في دين الله ، وأصبحت لغة العرب في أوج قوتها وثرائها ، وأضحت لسانا لكثير من سكان هذه البلاد ، وتحققت ألوان فذة من البطولة والتضحية وطلب الشهادة في سبيل الله، خلفت ذكريات مجيدة ، ظلت غذاء ومددا على امتداد التاريخ وتوالي الأجيال حتى اليوم ، ولا تزال مسامع الدنيا تعي أسماء مثل المهلب بن أبي صفرة ويزيد بن المهلب ، وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد ومسلمة بن عبد الملك .... وغيرهم .

ولا ريب أن هذه الصفحات من صفحات الفخار للأمويين قد أثارت إعجاب الكثيرين من المؤرخين المنصفين والمتحاملين على الأمويين على السواء ، فقال الحافظ ابن كثير: " .. فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ، ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبا ، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه ، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين ؛ في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه " [١] .. ويعترف أحد المتحاملين على بني أمية بذلك فيقول :"ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا إليه في أيام هذه الدولة ، وقد تكاثروا في عهدها ، وانتشروا في ممالك الأرض " [٢] ..

ولم يكن تحقيق هذه الانتصارات الرائعة أمرا سهلا ، أو عملا يسيرا، فقد استمر الأمويون يحاربون الروم والبربر في شمالي إفريقيا مثلا نيفا وأربعين سنة حتى تمكنوا أخيرا من إخضاعهم وإتمام الفتح [٣] ، وعلى الجبهة الشمالية كان القتال في اتجاه القسطنطينية مكلفا وباهظا ومتواصلا تقريبا عبر

---

[١] البداية والنهاية 87/9

[٢] جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية 236/1

[٣] استمر القتال في شمال إفريقيا منذ خلافة معاوية حيث فتح معاوية بن حديج بزرت سنة 41هـ حتى تمكن حسان ابن نعمان من هزيمة الكاهنة وفتح المغرب نهائيا سنة 82 هـ (راجع محمود شاكر · التاريخ الإسلامي 157/4، 205)

الصوائف والشواتي [1] ، في ظروف جغرافية ومناخية عسيرة ، أما في الجبهة الشرقية في بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر وبلاد السند فإن " الحروب في تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم ؛ فقد كانوا أول الأمر قلة في العدد ، ولم يكن سلاحهم كافيا ، وكان بعد المسافات وصعوبة الأرض وظروف المناخ كلها مصدرا لعقبات كثيرة قامت في سبيلهم ، وكان لابد لهم أن يحملوا معهم المؤن والملابس التي تقيهم البرد ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغزو إلا في الفصل المناسب لذلك من العام ، ولم يكن أعداؤهم بالذين يستهان بهم ، وكان العرب إذا حاصروا مدينة جاءت لنجدتها في معظم الأحيان جيوش جرارة " [2] ..

أمويون مجاهدون بأنفسهم :

وكان الأمويون أنفسهم يصطلون بنيران هذا الجهاد ، ويقدمون بأنفسهم القدوة والمثل في التضحية وقيادة الجيوش ومصادمة الأعداء ، " فقد أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لحصار القسطنطينية ، وأرسل عبد الملك ابنه الوليد مرات للغزو في بلاد الروم ، وكان ابنه الثاني مسلمة قائد جبهة الروم ، وغزواته أكثر من أن تعد ، وحصاره مدينة الروم ــ القسطنطينية ــ معروف ومشهور، وكان أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة يتولى الغزو في أغلب الأحيان ، وأولاد الوليد بن عبد الملك وهم العباس وعبد العزيز وعمر ومروان يقودون الغزو في بلاد الروم، ويساعدون عمهم مسلمة بن عبد الملك في ذلك ، كما أن سليمان بن عبد الملك كان ابنه داود على رأس قواته المجاهدة في بلاد الروم ، أما هشام بن عبد الملك فقد كان يفرض الغزو على بني مروان جميعا ، ومن يتأخر عن الغزو يمنع عنه العطاء ، وكان أولاده في مقدمة الغزاة ، ومنهم معاوية وسليمان ومسلمة وسعيد وغيرهم ، أما مروان بن محمد فكان نفسه يقود الجيوش ويصبر في القتال صبرا شديدا حتى لقب بالحمار" [3] ..

١- شبهات حول دوافع الفتوحات الإسلامية :

إن بعض المؤرخين يعلل النشاط الذي دب في ساحات الجهاد مع بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان بأن معاوية قد " أدرك أن استئناف حركة الجهاد سيزيل بعض المرارة التي أحست بها الأمة عندما استسلمت لقضاء الله بخلافته ، ومن ثم سيمكن له ولبني أبيه في الأرض " [4] ..

---

[1] إذا استثنينا فترات الهدنة القليلة التي عقدت بين الطرفين ، كالتي كانت أيام معاوية وعبد الملك حيث اتجهت الدولة الأموية لإخضاع المعارضين بالداخل في ذلك الوقت ..

[2] فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 416ــ417

[3] محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 56/4

[4] د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص210

ولا ريب أن استخلاف معاوية كان على غير هوى فريق من الأمة ينشد مثاليات يصعب تحقيقها ولا يدرك تطور الزمان وتغير الناس ، أو تدفعه أحقاد وأهواء ومنافع شخصية وإقليمية أو قبلية لم يستطع فرضها بالقوة من خلال حمامات الدم التي سالت في صفين وغيرها ، ولكن معظم أهل الحل والعقد وأصحاب الشوكة والقوة قد بايعوا معاوية من غير إكراه ، وربما كان استئناف الجهاد الذي توقف أيام الفتنة الكبرى لأسباب داخلية ولفترة موقوتة يرضي بعض هؤلاء المثاليين ، ولكن لم يمنع المعارضين الآخرين من مواصلة معارضتهم للدولة وجيوش المسلمين منشغلة بالفتوح ؛ كما حدث من الشيعة في ثورة حجر بن عدي الكندي ؛ ومن الخوارج في ثوراتهم المتواصلة ..

كما أن استئناف حركة الجهاد لم يكن بدعة على سياسة معاوية الذي استمد كثيرا من الشهرة العريضة والمكانة الرفيعة من كفايته كوال على بلاد الشام وهي جبهة واسعة من جبهات القتال ، ومن شهرته كمقاتل عنيد في البر والبحر منذ أيام أبي بكر وعمر وعثمان ، وكانت له إنجازاته الكبرى في إخضاع الساحل الشمالي للشام لقوى المسلمين ، كما كان له الفضل في تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم في البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة في تاريخ المسلمين ، وإذا كان من المستبعد أن نقول جريأ على شبهات المؤرخين إن معاوية كان يضمن توريث الحكم في بني أمية منذ بداية استخلافه وأنه واصل الجهاد للتمكين له ولبني أمية في الأرض ، فإننا نقرر رغم ذلك أنه من الجميل حقا أن يجعل الحاكم المسلم غزو الأعداء وإذلالهم مسوغا لحكمه عند الأمة ؛ بدل أن يلجأ إلى أساليب القهر السياسي أو الادعاء الكاذب ، أو إثارة الفتنة الداخلية ليعلو من فوقها عرشه ..

وشبيه بذلك ما يردده بعض المؤرخين من أن الجهاد في العصر الأموي كان لإخماد التحرك الثوري في شرق الدولة ، وصرف الطاقة الحربية الكامنة لدى الثائرين والمعارضين من شيعة وخوارج وعصبيات قبلية متناحرة في نشاط عسكري يفيد الدولة ، ويحتجون بقول الحجاج لأهل العراق في إحدى خطبه : " إني لم أجد دواء أدوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث ، لولا طيب الإياب وفرحة القفل ، فإنها تعقب راحة ، وإني لا أريد أن أرى الراحة عندكم ، ولا الفرح فيكم" [١] .. فإن هذه الخطة مما يحمد للأمويين ولا يعاب ، ومما يتفق مع التوجه الإسلامي في هذا الصدد الذي يجعل أتباعه (أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين)[٢]، وهو تحويل بارع لأهم عوامل الضعف في جسد الأمة إلى عامل قوة وإعزاز لها ، ورغم ذلك فينبغي التنبيه إلى أن ذلك العامل كان أكثر ظهورا في القسم الشرقي من الدولة ، وبذلك فهو لا ينطبق على الفتوحات في الجبهة الغربية أو الشمالية ...

وفضلا عن شبهات المستشرقين وتلامذتهم عن الفتوحات الإسلامية بأنها كانت غزوا من أجل الغنائم والأموال ، وهو اتهام قديم متهاو ، فإن بعض الباحثين يتحدث عن احتراف الحرب زمن

---

[١] السابق 210—212

[٢] سورة المائدة من الآية 54

الأمويين واتخاذها وسيلة للكسب أو الذكر، فيقول : " وقد بدأ هذا الاتجاه يظهر منذ تبين المحاربون في العهد الأموي وفرة ما تغله الحرب من غنائم ، وقد بدأ هذا الكسب على عهد معاوية الأول حين اتجهت جيوش عامله زياد بالعراق إلى إقليم خراسان ، وعادت بالغنم العظيم ، فكتب معاوية إلى زياد يطلب منه أن يأمر قائد الحملة الحكم بن عمرو الغفاري أن يصطفي له الصفراء والبيضاء والروائع ، وفي حملة واحدة من الحملات التي وجهها الحجاج نحو الهند عادت جيوشه بغنائم بلغت قيمتها مائة وعشرون مليونا من الدراهم ، وكان الحجاج قد أنفق في تجهيز هذه الحملة ستين مليونا ، فبقى له بعد ذلك ستون مليونا نفعا خالصا ، وقد أدى هذا الاتجاه المادي إلى ظهور جماعة من المتكسبين بالحرب ، يكفي أن نذكر منهم المهلب بن أبي صفرة الذي خدم بسيفه مصعب بن الزبير في ثورته باسم أخيه عبد الله ضد الأمويين ، ثم لم يلبث أن باع نفسه لهؤلاء الأمويين الذين رحبوا بهذه الصفقة فسمحوا للبائع ولأسرته ولقومه أن يكونوا من أبرز جماعة المتنفعين بالحرب والمتكسبين بها "[١]...

وللرد على هذه الشبهات نتذكر عدة نقاط :

أولا : إن وفرة الغنائم التي تحققت عن الحروب أمر معروف منذ عصر الراشدين ، ولم يكن ذلك أمرا جديدا يظهر مع بداية العهد الأموي في عصر معاوية ، كما أن الإسلام لا يحرم هذه الغنائم مادامت ناتجة عن الغزو وليست هدفا له[٢] ..

ثانيا : إن الأدلة الواردة على تحول الحرب في عصر الأمويين إلى وسيلة للتكسب لا تنهض للدلالة على ذلك ، فالزعم بأن معاوية كتب إلى زياد أن يأمر قائد جيشه على خراسان أن يصطفي له البيضاء والصفراء والروائع أمر غير ثابت وتحوطه الشكوك ، وإن صح فقد وجب أن نحمل ذلك على جمع هذه الأموال وتحويلها إلى بيت مال المسلمين لمواجهة زيادة نفقات القتال ، على أن يكون ذلك بموافقة الجند كما توحي بعض الروايات ، وسوف يكون ذلك محل بسط وتفصيل في موضع آخر[٣] .. والاحتجاج بما حققه جيش الحجاج الذي وجهه لفتح الهند من غنائم بلغت ستين مليونا من الدراهم خالصة بعد طرح ما أنفق عليها من أموال طائلة ، هو خلط بين السبب للغزو والنتيجة المترتبة عليه ؛ فإنهم يروون أن الحجاج إنما أرسل جيشه إلى الهند بعد حادثة الاعتداء على بعض المسلمين هناك وأسر نسائهم ، حتى صاحت امرأة مسلمة مستنجدة : " واحجاجاه "، فسير الجيوش لنجدتها وتأديب حكامها الطغاة ، وهو يردد " يا لبيك يا لبيك "[٤]؛ ولا يعنى ذلك أن الحجاج لم يكن سيغزو الهند لو لم تحدث هذه الواقعة ، فقد كان الانسياح الطبيعي للجيوش الإسلامية في هذه

---

[١] د. حلمي : السابق 210—212

[٢] راجع ملاحق رقم (٣) ضمن ملاحق هذا البحث . .

[٣] انظر الفصل الخاص بالشبهات حول السياسة المالية للأمويين .

[٤] البلاذري : فتوح البلدان 426—427 ، محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 206/4

المرحلة يتجه نحو فتح الهند لتأمين الحدود وتبليغ الدعوة .. ولما انفق الحجاج هذه المبالغ الطائلة في تجهيز ذلك الجيش الظافر لم يكن يدخل في حساباته ما سوف يغنمه من ذلك القتال في هذه المنطقة ، حيث سبقت هزيمة جيشين له من قبل وجههما لأداء نفس المهمة [١]، ثم إن تلك الغنائم لم تصبح ملكا خاصا للحجاج [٢] ، بل دخلت في خزينة الدولة حسبما يقتضي حكم تقسيم الغنائم في الإسلام ، والقول بأن المهلب بن آبي صفرة كان ممثلا لجماعة ظهرت من المتكسبين بالحرب حتى باع سيفه للأمويين والزبيريين من أجل ذلك ، يحتاج إلى إيضاح ومراجعة ، فإن المهلب لم يكن أيام الزبيريين فاتحا أو غازيا ، ولكنه كان محاربا للخوارج الأزارقة الذين أصبحوا يطرقون أبواب البصرة مهددين إياها ، ويهزمون جيوشها المرة تلو المرة ، حتى استنجد أهلها بالمهلب لينقذهم ممن يقتلون الرجال والنساء والأطفال دون رحمة ، وقد كان المهلب آنذاك متوجها إلى خراسان عاملا لابن الزبير عليها ، فاحتال البصريون عليه حتى وضعوا على لسان ابن الزبير كتابا إليه يأمره فيه أن يتولى قتال الأزارقة بدل خراسان .. فقبل ، ولم يزل يقاتلهم حتى نفاهم عن البصرة والأهواز إلى أصفهان وكرمان ، حيث تفرقوا هناك ، وإذا كان المهلب قد اشترط كي يقبل حرب الخوارج أن يتنازل له أهل البصرة عن خراج ما غلب عليه من الأرض ثلاث سنين ، فقد كان واضحا لهم آنذاك أنه ليس هناك من يقبل أكثر من ذلك ويقيهم شر الأزارقة ؛ وكان لابد للمهلب من مورد ثابت يتقوى به على حرب هؤلاء بعيدا عن حسد عمال البصرة ، وأهواء زعماء القبائل فيها [٣] ، وقد اشترط شروطا أخرى تؤكد ذلك المعنى [٤].. ولما انتهى سلطان الزبيريين على العراق بقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١هـ كان لابد للمهلب من مبايعة الأمويين وخليفتهم عبد الملك بن مروان ؛ فقد انتهى بسقوط العراق سلطان ابن الزبير الفعلي ، ولم يكن في مصلحة المهلب أن يقف ممتنعا عن بيعة عبد الملك فيسقط بين عدوين ، الخوارج من ناحية والأمويين من ناحية أخرى، وقد كان من مصلحة الإسلام كذلك أن يدخل ذلك القائد النجيب في خدمة الجماعة وطاعة الخليفة الذي بات نصره مؤكدا ؛ وقد أبقى الأمويون على ما اشترط سابقا حتى زال خطر الخوارج عن البصرة تماما [٥] ...

إن ما سبق لا يعني بحال أننا ننفي وجود العنصر المادي ، في إطار الفهم الإسلامي لذلك، ضمن العوامل التي دفعت نحو الفتوحات الإسلامية ، ولكن يعني أن يوضع ذلك العامل في ترتيبه الطبيعي ضمن منظومة العوامل الأخرى ، فلم تكن الغنائم هي الدافع الأهم للقيادة الإسلامية نحو

---

[١] راجع محمود شاكر : السابق والصفحة

[٢] كما قد يوحي القول بأنه قد بقي له بعد ذلك ستون مليونا مغنما خالصا ..

[٣] راجع الطبري : السابق 613/5 ــ622

[٤] راجع الدينوري : الأخبار الطوال ص 272 قوله " أنتخب منكم أوساطكم ...ولا أخالف فيما أدبر من رأيي في حربهم وأترك ورأيي الذي أراه والذي أدبره ..) .

[٥] الطبري : السابق 199/6

الفتح والجهاد ، وإن وجد لدى بعض الأفراد أو لدى كثير منهم ؛ " وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد الرسول عليه السلام في حنين وتبوك وغيرها ، ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين في فتوحاتهم ، ولا يمثل القيادة الفكرية التي كان يتبناها الخليفة والقادة وينفذها الجند ، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام " [1] ، وحوادث القتال وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك ، " فجبهة الروم مثلا وهي التي كانت مثار الشجاعة و مرتع البطولة ، ما كانت تدر الربح الكثير ، بل كان بيت المال يئن منها ، لأن حملاتها ما كانت تنتهي إلى تقدم " [2]، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاث الكبرى التي توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة [3] ، والحملات العقيمة في شمال إفريقيا طوال سنوات عديدة قبل إخضاعها نهائيا سنة 82 هـ ..

٢- قوة الروح الإسلامية في فتوحات الأمويين :

أعطى المجاهدون المسلمون في العهد الأموي صورا رائعة للتضحية والبطولة والتجرد و إخلاص النية لله في جهادهم ، سواء كانوا من القادة أو الأمراء ، أو من عامة الجند ، أو من جماعات العلماء والزاهدين والربانيين ، الذين فهموا الإسلام عبادة وجهادا ، ومارسوا ذلك على نحو مثير للإعجاب ودافع إلى التأسي ؛ وقد توزعت صور الإخلاص والتضحية هذه على جميع جبهات القتال، وفي جميع مراحل الجهاد ، مما يدل دلالة واضحة على عمق التوجُّه الإسلامي للفتوحات في العصر الأموي ، وينفي الغبش الذي يثيره المنحرفون عن بني أمية علىٰ أنصع منجزاتهم وأحراها بالفخر والإعزاز، ومهما يكن في هذه الروايات التي تحكي عن تلك البطولة والتجرد من مبالغة ـ والبطولة دائما تغري بالمبالغة ـ فإنها تترك في مجملها دلالة قوية على إسلامية الفتوح في العصر الأموي ..

في حروب الروم :

يبدو أن حصار القسطنطينية الأول سنة 50هـ قد أطلق حماسة الجيش وهو يرى نفسه على أبواب عاصمة عدوه اللدود ، التي بانهيارها سوف تسقط إمبراطورية الروم ، كما سقطت قبلها إمبراطورية فارس . وكان معاوية يتابع بشغف أخبار هذه الحملة ، وكان فيها ابنه يزيد وعبد العزيز ابن زرارة الكلابي ، ولم يزل عبد العزيز هذا أثناء القتال يتعرض للشهادة وينشد متحمسا وينغرس في

[1] د. جميل عبد الله المصري : الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ص 78 ـ مقال بمجلة المنهل السعودية ، مجلد ٥٠ ، سنة ١٩٨٩ م

[2] د. العش : الدولة الأموية ص 346

[3] السابق والصفحة

صفوف الروم حتى قتل ، فلما بلغ الخبر معاوية قال معزيا والده :" والله هلك فتى العرب " ، فقـــال زرارة : " ابني أو ابنك ؟؟ " قال : ابنك ، فآجرك الله ، فقال الرجل :

فإن يكن الموت أودى به | وأصبح مخ الكلابي زيرا

فكـــل فتى شارب كأسه | فإما صغيرا وإما كبيرا [١]

وفي سنة 88 هـــ هاجم المسلمون حصن طوانة قرب المصيصة[٢]، وكان على الجيش مســـلمة ابن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وقد ركب المسلمون عدوهم حتى دخلوا كنيســـة الحصـــن ، ثم رجعوا فانهزموا حتى ظنوا ألا يجبروها أبدا ، وبقي العباس في نفر منهم ابن محيريز الجمحي الزاهـــد ، فقال له العباس : أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟! فقال له : نادهم يأتوك ، فنادى ، فـــأقبلوا جميعا حتى هزم الله العدو، وفتحوا الحصن [٣] ..

وأثارت بطولات البطال أبي الحسين عبد الله الأنطاكي ، أحد قادة المسلمين وفرســـانهم ، خيالات الرواة وعجبهم حتى وضعوا له سيرة ذاتية، وقد استشهد في إحدى معاركه مع الروم ســـنة 122 أو 123هـــ[٤] . وكان عبد الوهاب بن بخت ممن غزا مع البطال أرض الروم سنة 113هـــ، فـــانهزم الناس عن البطال ، فحمل ابن بخت وهو يقول لفرسه : ما رأيت فرسا أجبن منك ، وسفك الله دمي إن لم أسفك دمك ، ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح : أنا عبد الوهاب ، من الجنة تفرون ؟؟ ثم تقـــدم في نحر العدو ، فجاء رجل وهو يقول :واعطشاه !! فقال له : تقدم الري أمامك .. وخالط القـــوم حتى قتل ، وقتل فرسه [٥] ..

وفي سنة 123 هـــ خرج عشرون ألفا من الروم فنزلوا على المسلمين في ملطية [٦] ، فـــأغلق أهلها أبوابها ، وظهر النساء على السور عليهن العمائم يقاتلن ، وخرج رسولهم إلى هشام بن عبـــد الملك بالرصافة مستغيثا ، فندب هشام الناس إليها ، ثم بلغه الخبر بجلاء الروم عنها ، لكنه غزا بنفسه حتى نزلها وعسكر عليها حتى بنيت وحصنت [٧] ..

وكان عدد من العلماء والزهاد يشارك في غزو الروم على الجبهة الشمالية فخلفـــوا لنـــا عددا من الروايات التي تدل على نفوس شفافة ، جعلت الله قصدها وغايتها ، فقد مرض حكيم بـــن

---

[١] ابن الأثير الكامل 227/3 ـــ228

[٢] طوانة : بلدة بثغور المصيصة (ياقوت : معجم البلدان ٦/ ٦٥) ، والمصيصة : مدينة من ثغور الشام بين أنطاكيـــة وبلاد الروم ، قرب طرسوس (السابق ٨/٨٠) .

[٣] فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص 81

[٤] ابن الأثير الكامل 248/4 ـــ249

[٥] النويري النهاية الأرب 437/21

[٦] ملطية : بلد من بلاد الروم تتاخم الشام (ياقوت : السابق ٨/ ١٥٠) .

[٧] البلاذري : فتوح البلدان 190

حزام بن حكيم ، فعاده مكحول فقيه أهل الشام وسأله : أتراك مرابطا هذا العام ؟؟ فقال حكيم : كيف تسألني عن هذا وأنا على تلك الحال ؟؟ فقال مكحول : وما عليك أن تنوي فإذا شفاك الله مضيت لوجهك ، وإن حال بينك وبينه كتب لك نيتك ؟ [١]..

وروى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : كنا نغزو مع عطاء الخراساني فكان يحيي الليل من أوله إلى آخره إلا نومة السحر [٢].

وكان مسلمة بن عبد الملك يحاصر أحد الحصون ، فندب الناس إلى نقب منه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ، ففتح الله عليهم ، فنادى مسلمة : أين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد ، فنادى : إني قد أمرت الآن بإدخاله ساعة يأتي ، فعزمت عليه إلا جاء ، فجاء رجل فقال : استأذن لي على الأمير، فقال له : أنت صاحب النقب ؟؟ قال : أنا أخبركم عنه ، فأتى مسلمة فأخبره عنه فأذن له ، فقال له : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا : ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأذنوا له بشيء ، ولا تسألوه من هو ، فقال مسلمة : فذاك له ، فقال : أنا هو ، فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب [٣] ..

وفي الجبهة الغربية في شمالي إفريقية والأندلس كانت الروح ذاتها تسري ..

فقد رووا أن عقبة بن نافع كان مستجاب الدعوة ، فلما هم أن يبني مدينة القيروان تخير مكانها فوجده غيضة لا ترام من السباع والحيات وغير ذلك من الدواب ؛ فدعا الله ثم قال : يا أهل الوادي اظعنوا ، فإنا نازلون ، وكرر نداءه ثلاثا ، فجعلت الحياة تنساب والعقارب وغيرها حاملة أولادها ، فرآه قبيل من البربر فأسلموا ؛ وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة [٤] .. وواصل عقبة اندفاعه في شمالي إفريقية حتى بلغ المحيط الأطلسي ، فأقحم فرسه فيه وهو يقول : يا رب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد مدافعا عن دينك ، مقاتلا من كفر بك ، اللهم إنك تعلم أني لم اطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ؛ ألا يعبد في الأرض غيرك [٥] ... ولكن عقبة ما لبث أن استشهد في طريق عودته في تهودة سنة 63هـ ، لما أحاط به أعداؤه ، ومعه نفر قليل من أصحابه فيهم أبو المهاجر دينار القائد السابق الذي أسره عقبة لخلاف معه ، فلما أحس عقبة بالأعداء يحاصرونه أطلق سراح أسيره

---

[١] أبو نعيم : حلية الأولياء 278/5

[٢] السابق 193/5

[٣] ابن قتيبة : عيون الأخبار 172/1

[٤] الطبري : السابق 240/5 ، ابن الأثير : الكامل 230/3 ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 265 ، خليفة : تاريخ خليفة بن خياط 210 ، ابن كثير : البداية والنهاية 45/8 ، ابن حجر : الإصابة 64/5

[٥] ابن عذارى البيان المغرب 37/1

، وأمره بالمضي نحو القيروان لحاجة المسلمين إليه ، ولكن أبا المهاجر أبي وآثر أن يستشهد مع قـائده وغريمه ومن معهما من المسلمين ، فقتلا في نفس الموضع شهيدين [1] ..

ورغم مشاغل عبد الملك بن مروان أثناء صراعه ضد ابن الزبير فقد أرسل زهير بن قيس البلوي ليثأر لعقبة ومن قتل معه ، وقد تمكن زهير من ذلك سنة 69هـ ، ولكن نجدته أودت به هو الآخر؛ إذ إنه لما رأى بعض المسلمين ، وقد هاجمهم الروم في برقة وأسروهم يستنجدون به ، نـزل في نفر قليل من أصحابه ونزلوا معه ، وكانوا أشراف العابدين ورؤساء العرب المجاهدين ، أكثرهم من التابعين ؛ فقاتلوا الروم حتى قتلوا ، ومضوا شهداء سنة 71هـ [2] ..

وبعد جهد جهيد استطاع موسى بن نصير أن يسيطر تماما على إفريقية والمغرب ، وقد أكثر الرواة من ذكر كراماته ، فلما عزله سليمان سأله : ما الذي كنت تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوك ؟؟ قال : كنت أفزع إلى التضرع والدعاء ، والصبر عند اللقاء [3] ..

وفي الجبهة الشرقية كان قتيبة بن مسلم يخطب في جنده بعدما ولاه الحجاج أمر خراسان فيقول لهم : إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وقما ، ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق ... ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده ... ثم أخبر عمن قتل في سبيله إنه حي مرزوق ، فتنجزوا موعود ربكم ، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإياي والهوينى." [4] ..

ومازال الخليفة الوليد وعامله الحجاج يشدان أزره [5] ، ويحضانه على التقوى وإخلاص النية لله ، وانتظار ثوابه ، حتى فتح الله على يديه الفتوحات العظيمة [6] ..

ولما سار قتيبة لفتح بيكند [7] سنة 87هـ استنصر أهلها السغد ، واستمدوا من حولهم ، فأتوهم في جمع كبير ، وأخذوا بالطريق على قتيبة فلم ينفذ له رسول ، ولم يصل إليه رسول من

---

[1] السابق ١/ ٣٩

[2] ابن عذارى : السابق 33/1

[3] ابن عذارى : السابق 31/2 ، وراجع : الإمامة والسياسة ٢/٧٩-٨١ .

[4] الطبري : السابق : السابق 424/6

[5] راجع ابن أعثم (الشيعي) الكوفي : الفتوح 247/7 ــ250

[6] يقول أحد المؤرخين العسكريين واصفا فتوح قتيبة : يكفي أن نذكر أن مساحة فتوحه تبلغ أربعين بالمائة من مساحة الاتحاد السوفيتي الحالية ، وثلاثة وثلاثين بالمائة من مساحة الصين الشعبية في الوقت الحاضر ، وإن سكان المناطق التي فتحها في بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية ضمن الاتحاد السوفيتي والصين لا يزالون مسلمين حتى اليوم يتبركون بتلاوة القرآن الكريم ، ويعتزون بالعربية لغة والإسلام دينا ، بالرغم مما يلاقونه من عنت شديد ومحن وعناء (محمود شيت خطاب : فتح كاشغر ، مقال بمجلة الأمة القطرية ص 11 عدد 50 السنة الخامسة نوفمبر 1984)

[7] بيكند : قال عنها ياقوت : من قرى طبرستان على طرف باول ؛ وهو نهر كبير (معجم البلدان ٢/٣٤٠) .

الحجاج القائد الأعلى للجبهة الشرقية ، ولم يجر له خبر شهرين ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وهم يقتتلون في كل يوم حتى كتب لهم النصر [١]، فأي إحساس مفعم بالله وقوته وقدرته .

ولما فتح قتيبة بيكند هذه ظفر بذلك الخائن الذي استجاش الترك على المسلمين ، فرفض أن يقبل منه فداء نفسه بألف الف ، وقتله وهو يقول : والله لا تروع بك مسلمة أبدا [٢] ..

وفي إحدى غزواته صاف قتيبة الترك فهاله أمرهم ـ كثرة وعتادا ـ فسأل عن محمد بن واسع الأزدي ، وهو أحد الزهاد المعروفين ، ماذا يصنع ؟ فقالوا : هو في أقصى الميمنة جانح على سية قوسه [٣] ، ينضنض بأصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : تلك الأصبع الفاردة احب إلي من مائة ألف سيف شهير وسنان طرير، فلما فتح الله عليهم ، قال لمحمد : ما كنت تصنع ؟ قال : كنت آخذ لك بمجامع الطرق [٤] ..

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أحاط الترك في منطقة طخارستان [٥] بالمسلمين ، وقائدهم آنذاك أسد بن عبد الله القسري سنة 119هـ ، فمضى أسد يحرض جنده ويقول : إنه بلغني أن العبد أقرب ما يكون إلى الله إذا وضع جبهته لله ، وإني نازل وواضع جبهتي ، فادعوا الله واسجدوا لربكم ، وأخلصوا له الدعاء ، ففعلوا ثم رفعوا رءوسهم وهم لا يشكون في الفتح ، واستشار أسد الناس في خروجه لقتال ملكهم ؛ فخوفه بعضهم المخاطرة بذلك فقال:" والله لأخرجن ؛ فإما ظفر وإما شهادة"؛ وقد كتب للمسلمين آنذاك الظفر الهنيء [٦] ..

رغبة القادة والجند في الشهادة :

وفي عهد هشام استشهد جماعة من أبرز قواد المسلمين مثل الجراح بن عبد الله الحكمي عامله على أرمينيا سنة 112هـ ، واستشهد سورة بن الحر التميمي في خراسان في نفس السنة ، وعقبة بن سحيم الكلبي في جنوب فرنسا سنة 107هـ ، ثم عبد الرحمن الغافقي في الجبهة نفسها في تور بواتييه سنة 114هـ ، مما يدل على امتداد ساحات القتال والفداء التي يغشاها القادة بأنفسهم مع أجنادهم ، وكلما قتل واحد منهم قام آخر ليواصل الطريق .. وكان هشام في كل ذلك يشفق على جنده ويتلقى أنباء استشهاد قادته فينخلع قلبه خشية أن يكون أحدهم قد انحاز عن العدو فخسر

---

[١] الطبري : السابق : السابق 430/6 ، ابن الأثير الكامل 107/4

[٢] الطبري : السابق : السابق 431/6 ، ابن الأثير : السابق 107/4

[٣] سية القوس : ما انعطف من طرفيها (انظر لسان العرب مادة : س ى ا)

[٤] ابن قتيبة : عيون الأخبار 124/1

[٥] مملكة طخارستان إحدى ممالك بلاد ما وراء النهر ، وتقع على جانبي نهر جيحون ، وعاصمتها مدينة بلخ

[٦] الطبري : السابق 119/7 ، ابن الأثير : السابق 228/4

الجنة ؛ فلما استشهد الجراح بن عبد الله دعا هشام سعيد بن عمرو الحرشي أحد كبار قادته فقال له : بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين ، فقال سعيد واثقا : كلا يا أمير المؤمنين ، الجراح أعرف بالله من أن ينحاز عن العدو ولكنه قتل [1] ..

وكما أعطى القادة هذه الأمثلة كان الجند لا يقلون عنهم حماسة وحمية ورغبة في الشهادة ، فقد دخل أحدهم ويدعى أبو ضمرة النضر بن راشد العبدي على امرأته ، والناس يقتتلون في إحدى هذه المعارك ، فقال لها : كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة مضرجا بالدماء ؟؟ فشقت جيبها ودعت بالويل ، فقال : حسبك ، لو أعولت علي كل أنثى لعصيتها شوقا إلى الحور العين ، ورجع فقاتل حتى استشهد ؛ يرحمه الله [2] ..

٣-عناية الأمويين بالجيش الإسلامي :

يحض الإسلام أتباعه على إعداد القوة اللازمة للجهاد ، والتي ترهب أعداء الله ، وتحقق هيبة الدولة الإسلامية ، قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) [3] ، ومن المؤكد أن الأمويين قد أولوا عناية فائقة بجيوشهم ، حتى تمكنت تلك الجيوش من تحقيق تلك الإنجازات الرائعة والفتوحات الضخمة في التاريخ الإسلامي ، ورغم المعلومات القليلة نسبيا عن الجيش الأموي ، مقارنة بما نعرفه عن جيوش إسلامية أخرى لم تحقق مثل إنجازاته [4] ، فإنه يمكننا أن نتلمس بعض جهود الأمويين في إعداده وتجهيزه ؛ ولا ريب أن الأمويين كانوا يستعيضون بالقوة الروحية العالية عند الجنود والقادة عن الوفرة العددية وكفاية التسليح في جيوش الأعداء ، فقد كانت جيوش الأمويين كثيرا ما تواجه عدوا كثير العدد عظيم الجلد ، متمرسا على القتال ، خبيرا ببلاده وطرقها وشعابها، ونظرة واحدة إلى مساحات البلاد المفتوحة والشعوب المختلفة التي كانت تقطنها كفيلة ببيان ذلك ، فأين أعداد العرب آنذاك وهم قوام الجيش الإسلامي من أعداد أهل فارس وخراسان وما وراء النهر وأرمينيا وإفريقيا والمغرب والأندلس ؟؟ وأين أعداد جيش قتيبة مثلا بجيوش خراسان وما وراء النهر ، وأين قوة محمد بن القاسم الثقفي بقوة أهل الهند ، وكيف نقارن أعداد جيش طارق بن زياد بأعداد جيوش الإسبان وهم يحاربونهم في بلدهم ؟؟ ولا ريب إذن أن سعيدا الحرشي القائد الأموي في خراسان لم يكن هو القائد الوحيد الذي يخطب في جنوده فيقول

---

[1] الطبري : السابق 70/7

[2] السابق 74/7

[3] سورة الأنفال آية ٦٠ .

[4] شيت خطاب : جيش المسلمين في عهد بني أمية مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي ص ٦٣٨ ، مجلد ٤٠ سنة ١٩٥٦م

: " إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدة ، ولكن بنصر الله وعز الإسلام ، فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله " [1] ..

ونظرا لقلة ذلك العدد الذي يكون الجيوش الإسلامية آنذاك ، ونظرا لتعاليم الإسلام نفسه ، وتدين الخلفاء والقادة ، فقد كان واضحا أثناء الحروب مدى حرص الأمويين على سلامة جند الإسلام ، ففي عهد الوليد بن عبد الملك مثلا — وهو العهد الذي شمل أعظم الفتوحات الإسلامية — كان الخليفة الأموي يبدو مترددا وهو يجيب على رسالة قائده موسى بن نصير — أمير إفريقية والمغرب — التي يذكر فيها عرض يوليان صاحب سبتة مساعدة المسلمين على فتح الأندلس، فكتب الوليد إلى ابن نصير يقول : خضها بالسرايا حتى تختبره ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فكتب إليه موسى : إنه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب إليه الوليد : " وإن يكن ، فاختبره بالسرايا " [2] ..

وكان المهلب بن أبي صفرة يغزو فينتصر ثم يمسك عن المضي في التوغل إذا أحس بالخطر على جنده ، ولا يستجيب للإغراء الداعي إلى مزيد من النصر ، ويقول : ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذه الجند حتى يرجعوا سالمين [3] ..

وقد امتد هذا الحرص على جند المسلمين ليشملهم في حال أسرهم عند العدو ، فقد اشترط مسلمة بن عبد الملك على ملك الروم عند غزو بلاده أن يبنى للمسلمين دارا بإزاء قصره ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده ، فأجاب إلى ذلك وبنى دار البلاط ، وقد كان يسمح لأسارى المسلمين هناك أن يتجروا ولا يكرهون على أكل لحم الخنزير ، ولا يتعرضون للون من ألوان النكال التي كان يتعرض لها الأسارى آنذاك ، وكانت لهم أوقات يتجمعون للعب والترويح فيها [4] ..

وفي تلك المرات التي تهيأت للجيش الأموي أسباب الإعداد المادي الكامل كانت قيادته تضرب في ذلك المثل الرفيع ، حيث تمتد نظرتها لتشمل نواحي الحياة الخاصة بآحاد الجند ، فقد حشد الحجاج أربعين ألف رجل من أهل الكوفة والبصرة وأعطاهم أعطياتهم كاملة ، وأمدهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل ، فكان ذلك الجيش يسمى جيش الطواويس ، وجعل وجهته سجستان لقتال رتبيل ملك الترك [5] ، غير أن تجهيزه جيش محمد بن القاسم الثقفي الذي توجه لفتح السند كان أكثر إثارة ، حيث جهزه بكل ما يحتاج إليه ، حتى الخيوط والمسال ، وعمد الحجاج إلى

---

[1] النويري نهاية الأرب 394/21

[2] أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص 5—7

[3] الطبري : السابق 326/6

[4] المقدسي : أحدث التقاسيم 147—148 ، د. العدوى الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص 215

[5] الطبري . السابق 327/6

القطن المحلوج فنقع في الخل ، ثم جفف في الظل ، وقال: إذا صرتم إلى السند ـ فإن الخل بها ضيق ـ فانقعوا هذا القطن في الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا [١] ، وكانت المراسلات بين الحجاج ومحمد بن القاسم مستمرة بحيث يصف له محمد كل ما يلاقيه ، ويستطلع رأيه فيه كل ثلاثة أيام [٢]..

الأمويون يطورون البحرية الإسلامية :

سبق أن أشرنا إلى دور معاوية في نشأة البحرية الإسلامية ؛ التي استطاعت أن تنتزع في عهد عثمان السيادة الإسلامية على بحر الروم في موقعة ذات الصواري سنة 34هـ ، وكان لابد من مزيد من تطوير السفن الإسلامية كي يستطيع معاوية تحقيق حلمه في الاستيلاء على القسطنطينية وإنهاء وجود إمبراطورية الروم ، ولذا فقد عمل على الإفادة من خبرة قبط مصر في صناعة السفن ، فأنشأ دارا لصناعتها في جزيرة الروضة حتى سميت آنذاك جزيرة الصناعة [٣] ، وقد ساهم ذلك الأسطول الحربي في حصار القسطنطينية مرتين في عهد معاوية سنة 50هـ ، 53هـ ــ 60هـ .

وقد أدى هذا الغزو البحري المتتابع إلى تكوين حس حربي بحري كبير عند المسلمين ، حتى نجد إصرارا عند أبي المهاجر دينار على فتح قرطاجنة على الساحل الإفريقي لما يعلم من خطرها ، ولكنه لم يفلح في ذلك[٤]، فلما استكمل حسان بن النعمان فتح إفريقية كان يضع نصب عينيه الاستيلاء على هذه القاعدة البحرية ، وقد نجح في ذلك فهدم حصونها وأسوارها كيلا يفكر الروم في العودة إليها مرة أخرى [٥] ، وأثمرت هذه الخبرات المتتالية تفكيرا جديا في إنشاء قواعد بحرية إسلامية لأسطول في الشمال الإفريقي يقوم بمثل العبء الذي كان يقوم به الأسطول الإسلامي في قواعده بالشام ومصر ، وانتهى هذا التفكير بجهود حسان بن النعمان أيضا في إنشاء ميناء تونس ، جنوبي قرطاجنة ، بعيدا عن متناول السفن البيزنطية [٦] ..

ثم أمر عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان باتخاذ دار لصناعة السفن في تونس لإنشاء الآلات البحرية [٧] ، وكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز والي مصر أن يوجه إلى تونس ألف قبطي بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها ، أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا إلى دار

---

[١] البلاذري : فتوح البلدان ص324

[٢] السابق 424ـ425

[٣] البلاذري : السابق 177

[٤] د. محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 322

[٥] السابق الصفحة

[٦] السابق 223

[٧] ابن خلدون : المقدمة 690/2

الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب [1] ، وفي الحملة الثالثة على القسطنطينية أيام سليمان بن عبد الملك سنة 98هـ كانت عدد قطع الأسطول الإسلامي هناك 1800 سفينة [2] ، وقد أمر عمر ابن عبد العزيز بعد ذلك بسحب ذلك الجيش سنة 99هـ ، ولكن ظلت تلك الجهود الأموية في بناء البحرية الإسلامية نقطة تحول في التاريخ الإسلامي حيث أصبح المسلمون في عهدهم أمة بحرية ، بل سادة البحار لعدة عقود من الزمان .

٤- جهود الأمويين في نشر الإسلام واللغة العربية :

لم يكن الفتح الإسلامي في عهد بني أمية مجرد توسع في الرقعة الجغرافية للدولة ، أو بسطا للسيادة على هذه الأجناس من البشر على اختلاف ألوانها وألسنتها وأديانها وحضاراتها ، ولكنه كان فتحا عقائديا يستهدف نشر العقيدة الإسلامية وإعلاء كلمة الله ، بالدعوة والترغيب لا بالقهر والترهيب .

ومن المؤكد أن الفتح الإسلامي لهذه البلاد كان قدرا سعيدا رفعها من هوة سحيقة من القهر السياسي والحرمان الاقتصادي والطبقية الاجتماعية المتخلفة ، والاختلافات الدينية والمذهبية الذابحة والجامحة [3] ..

ولم يكن الطريق رغم ذلك معبدا أمام المسلمين ، فقد دافعت تقاليد هذه البلاد وقومياتها وأديانها بشراسة عن نفسها ، وبعضها لفظ أنفاسه في هذا الصراع ضد الإسلام الفتي ، وبعضها الآخر كتب له البقاء بصورة من الصور ، وليس القصد هنا أن نرصد هذه الصراع ، ولا أن نسجل جميع الجهود المبذولة للتمكين للإسلام في البقاع المفتوحة ، فلذلك أبحاثه ومواطنه ومظانه، ولكن يكفينا هنا أن نرقب شيئا من هذه الجهود في بعض هذه البلاد الشاسعة !!

1- نشر الإسلام في شرق الدولة الإسلامية (فارس وخراسان وما وراء النهر) :

ساعدت عدة عوامل على انتشار الإسلام المبكر في هذه المناطق منها اختلاط المسلمين الفاتحين بأهل البلاد الأصليين إذ سكن المسلمون مدنهم ولم يبنوا مدنا جديدة كما كان الحال في العراق ومصر حيث بنوا الكوفة والبصرة والفسطاط ، ومنها كثرة السبي والموالي الوافدين على

---

[1] د. سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص 91

[2] فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص91

[3] د. الريس : الخراج والنظم المالية ص ٣٨ وما بعدها ، سعيد حوى : الرسول 400—402 ، د. ماجد : التاريخ السياسي 230/2 —231 ، د. العدوى : تاريخ العالم الإسلامي 183/1 ، د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب 16—18 د. سيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس 57

Gibbon , The Decline and A Fall of the Roman Empire , vol. iv ,pp176

العراق والحجاز من فارس واختلاطهم بالمسلمين ؛ وإسلام بعض قادهم منذ وقت مبكر مثل الهرمزان زمن عمر بن الخطاب ﷺ ، كما كان لمصاهرة الفرس لآل البيت دور كبير في تقريب الفـــرس إلى الإسلام حيث ساعد على اختلاط الدين بالقومية الفارسية القوية ، فكان زواج الحسين بن علي مــن ابنة يزدجر آخر ملوك فارس طريقا مفتوحا لهم نحو الإسلام ثم التشيع فيما بعد [١] ، لكن " مقاومــة الإيرانيين العنيفة للفتوح الإسلامية وسلسلة الانتفاضات التي تعثرت فيها كانت كفيلــة أن تلفــت أنظار الولاة أو القادة إلى أن الأمر لا يستقر للمسلمين في هذا الجانب من الأرض إن لم يرافق هــذا الغلب الحربي أنواع من الاتصال بالأرض ، والاختلاط بالسكان ، ومن ثم توثيق العلائق بهم ، وطـي هذه الفجوات التي تفصل بينهم " [٢] ، ولذا فقد عمد الأمويون إلى نوع من التهجير الجماعي لبعــض العرب إلى هذه المناطق الشرقية ، فاستقروا هناك واختلطوا بالنــاس ، وزادت معرفتــهم بالإســلام ومعايشتهم له ؛ فلما ولي زياد بن أبي سفيان البصرة سنة 45هـ أرسل أمير بن أحمر اليشكري أمــيرا على مرو الروذ والطالقان والفارياب ، وكان هذا الوالي أول من أسكن العرب في مرو حيث صــار معه عديد منهم [٣] ، ولما ترك بعض الفرس منازلهم في كرمان نزلها العرب وعمروا الأرض واحتفــروا القنى في مواضع منها [٤] ، لكن سنة 50هـ شهدت أكبر هذه الهجرات الجماعية حيث ولى زياد الربيـع بن زياد الحارثي خراسان ، وحول معه من أهل المصرين من الكوفة والبصرة زهــاء خمســين ألفــا بعيالاتهم ، وأسكنهم دون النهر [٥] ، وقد أسهمت هذه الآلاف في تعريف السكان بالإسلام عن قرب ونشر بذور التعريب هناك ، وبمرور الوقت واستمرار العمليات الحربية في مـــا وراء النــهر كــانت خراسان تستقبل مزيدا من الجند المسلمين الذين يقيمون هناك ، وبذلك فقد ازداد توطن العـــرب خراسان ، حتى كان هناك يوم استخلف سليمان بن عبد الملك (96–99هـ) أربعون ألفا من مقاتلــة أهل البصرة ، وسبعة آلاف من مقاتلة أهل الكوفة ، ومن الموالي المسلمين سبعة آلاف أخرى ، ممـــا يصل بعدد الجند إلى نحو خمسين ألفا من المسلمين [٦]، وكان انتشار الإسلام هناك يتم بطريقة ســلمية وهادئة ولكنها متواصلة وناجحة ، حتى لقد كتب أحد بطارقة الكنيسة النسطورية في خراسان يشكو لرئيس أساقفة فارس دخول جماعات عظيمة من النصارى في الإسلام حيث قــال :" واحســرتاه !! واحسرتاه على هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل المسيحية ، والتي لم يتقدم حتى واحد فيها ليهب نفســه ضحية للعرب ، ... أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء ؟؟ إن الذي أنزل بهـــم الخســران

---

[١] أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص 185

[٢] د. شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص 205

[٣] البلاذري : فتوح البلدان 409

[٤] السابق 392

[٥] السابق 410 ، الطبري : السابق 286/5 حيث يجعل ذلك سنه 51 هـ

[٦] الطبري : السابق 512/6

والدمار لم يكن وساوس إبليس ولا إرادة ملوك الأرض ، ولا أوامر حكام البلاد ، إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه .... ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس من ذلك ، يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسيسنا وقديس الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، إن شعبك من أهل مرو قد قبلوا عن رغبة أن يغيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم بل من أجل ما هو أقل من ذلك " [١] ..

وتعود محاولات نشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر إلى فترة مبكرة من العصر الأموي ، حيث غزا عبيد الله بن زياد هذه البلاد ، وفتح بعض أجزاء بخارى سنة 54هـ ، وعاد من هناك إلى البصرة وفي صحبته ألفان من البخارية قد أسلموا وفرض لهم العطاء [٢] .. لكن قتيبة بن مسلم صاحب الفضل في فتح هذه البلاد فتحا منظما ، قد أضاف إلى مكانته العالية كمحارب بارع مكانة أخرى كداعية إسلامي ناجح ، وقد انتهج في سبيل ذلك وسائل متعددة ، منها عنايته ببناء المساجد فيما يفتحه من بلاد ؛ فقد بنى مسجدا عظيما في بخارى بعد فتحها سمي جامع قتيبة [٣]، كما أتم مسجدا آخر في سمرقند بعد أن فتحها [٤] ، وكان يغري أهل البلاد بالدخول في الإسلام وارتياد هذه المساجد ، فكان يمنح كل مصل جديد في جامع بخارى يوم الجمعة مبلغا من المال [٥] ، ويرسل الدعاة إلى الأسر التي دخلت حديثا في الإسلام ليعلموهم أمر دينهم [٦] ، بل إنه أجاز ترجمة القران الكريم إلى اللغة الفارسية ليسهل تعريف الناس بالدين الجديد [٧] ، وكان يصطحب معه العديد منهم في حروبه وغزواته ، يحاربون معه ، ومنهم بعض قادتهم [٨] ، مما كان يفتح الطريق أمامهم للأنس بالعرب ودينهم ، لم يكن قتيبة يعمل في ظروف مواتية ، إذ " اتسمت مقاومة الأهلين للإسلام بكثير من ضروب العنف والعناد ، حتى إنه لم يسمح بحمل السلاح إلا للذين دانوا بهذا الدين ، ولم يجرؤ المسلمون أعواما طوالا على أن يظهروا في المساجد أو غيرها من الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدي السلاح [٩] ..

---

[١] النص الكامل لهذه الوثيقة المهمة في : أرنولد : الدعوة إلى الإسلام 75—76

[٢] الطبري : السابق 297/5—298

[٣] بدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين ص 26 ، عبد الباري محمد الطاهر : الأتراك والخلافة ص 87 رسالة ماجستير بدار العلوم سنة 1990

[٤] الطبري : السابق ٤٧٥/٦ .

[٥] حي الصيني : السابق والصفحة

[٦] حي الصيني : السابق 25—26

[٧] السابق ص 26 ، عبدا لباري الطاهر : السابق ص 87 .

[٨] الطبري : السابق 430/6 ، 455 ، 459 ،473—474

[٩] أرنولد : الدعوة إلى الإسلام 185

ورغم ذلك لم يكن قتيبة يدع فرصة تمر دون أن يحاول زعزعة الوثنية في قلوب أصحاب البلاد فإنه لما فتح سمرقند "جعل فيما صالحهم عليه بيوت النيران وحلية الأصنام ، وأتي بالأصنام فسلبت ثم وضعت بين يديه فكانت كالقصر العظيم حين جمعت ، فأمر بحرقها ، فقالت الأعاجم : إن فيها أصناما من حرقها هلك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، فجاء غوزك ــ قائد المدينة التركي ــ فجثا بين يدي قتيبة وقال : أيها الأمير إن شكرك علي واجب ، لا تعرض لهذه الأصنام ، فدعا قتيبة بالنار ، وأخذ شعلة بيده ، وخرج فكبر ، ثم أشعلها ، وأشعل الناس ، فاضطرمت ، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال [١] ، ولا يخفي ما لهذا العمل من أثر على نفوس عباد هذه الأصنام ..

ولم تقتصر هذه الدعوة إلى الإسلام على عوام الناس وأشرافهم ، بل امتدت إلى ملوكهم أيضا ، فقد أرسل عبد الملك بن مروان إلى بعض ملوك الترك يدعوهم إلى الإسلام [٢] ، كما أرسل قتيبة وفدا إلى ملك الصين يعرضون عليه الدين الجديد [٣] ، وإذا كان قتيبة ينهج هذا النهج في ما وراء النهر ، فإن محمد بن القاسم الثقفي كان يسلك سبيلا مشابها في بلاد السند حيث كان يبني المساجد بالمدن التي يفتحنها [٤] ..

ومن المؤكد أن انتشار الإسلام في هذه البقاع الشرقية قد بلغ شأوا عظيما ، حتى اضطر الحجاج بن يوسف الثقفي إلى التفكير في وقف سيل الدخول في الإسلام الذي أصبح يهدد بشكل خطير خزانة الدولة وبيت المال ، إذ إن الداخلين الإسلام لن يدفعوا الجزية والخراج ، فأثار هذا الدخول الجماعي في الإسلام شكه وهو يرى هؤلاء الموالي يشكلون الرصيد الأعظم لكل الثورات التي نشبت ضده ، فقرر استمرار فرض الجزية على من يسلم منهم حتى يضمن أن يكون إسلامهم قناعة بالدين وإيمانا به وليس فرارا من دفع الجزية ورغبة في نيل العطاء [٥] ..

ورغم ذلك فقد استمرت حركة نشر الإسلام ، واكتسبت زخما جديدا مع خلافة عمر بن عبد العزيز ، الذي أرسل إلى ولاته كتابا عاما فيه " إن الله بعث محمدا ﷺ إلى الناس كافة فقال : "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا " ، وقال :" يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " ، فادع إلى الإسلام وأمر به ، فإن الله تعالى قال : " ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين " [٦] ، وألغى قرار الحجاج باستمرار فرض الجزية على من أسلم ، فأقبل الناس

---

[١] الطبري : السابق 475/6 ــ476 ، ياقوت : معجم البلدان 173/5

[٢] ياقوت السابق 23/2 ــ24 ، عبدا لباري الطاهر : الأتراك والخلافة 77

[٣] الطبري : السابق 501/6ــ503

[٤] البلاذري : فتوح البلدان 425ــ426

[٥] راجع ص من هذا الكتاب .

[٦] ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز 94 ، د . عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الإسلامي ص 86

على الإسلام إقبالا هائلا حتى دخل على يدي الجراح بن عبد الله عامل عمر على خراسان نحو أربعة آلاف[١] ..

وأرسل عمر إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فاستجاب له بعضهم ، كما استجاب له كثير من أهالي تلك البقاع [٢] ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن تبقى أملاكهم وإماراتهم بأيديهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرة عمر ومنهجه في الحكم والحياة قد بلغت هؤلاء ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب [٣] ، وقدمت عليه وفود منطقة التبت يسألونه أن يبعث عليهم من يعرض عليهم الإسلام ، فأرسل لهم السليط بن عبد الله الحنفي [٤]...

واستمرت الدعوة إلى الإسلام بعد عمر بن عبد العزيز، فقد كتب هشام بن عبد الملك يدعو بعض ملوك الترك إلى الدخول في الإسلام [٥] ، كما نشط عماله في الدعوة هناك ، مثل أسد القسري [٦] والجنيد بن عبد الرحمن الذي كان يناظر خاقان الترك في الإسلام أثناء حروبهما ، ويجيب على أسئلته عنه [٧] ، كما كان لأشرس بن عبد الله جهود كبيرة في نشر الإسلام هناك حتى سارع الناس إليه ؛ فبرزت من جديد مشكلة نقص الجزية نتيجة كثرة الداخلين في الإسلام ، حيث " صار الناس كلهم عربا "، أي مسلمين كما يصف عامل سمرقند ، فاستسهل أشرس فرض الجزية على من أسلم من جديد ، فاعتزل هؤلاء و وجدوا من حارب معهم من المسلمين [٨]، ولكن كان الإسلام قد غزا مناطق واسعة من هذه البلاد ، فلم تكن هذه الاضطرابات بالتي تمثل خطرا عليه ، وأصبحت مناطق خراسان وما وراء النهر جزءا مؤثرا في دولة الإسلام ، حتى كان الخراسانيون عماد الثورة العباسية على الأمويين ، ثم صار الترك في العصر العباسي الثاني سادة الدولة والممسكين بأزمة الخلافة المتهاوية ، كما أصبحت بخارى وسمرقند وغيرها مراكز إشعاع إسلامي حضاري ضخم تمثل عظمة هذا الدين وقدرته على التفاعل الحضاري الخلاق ..

---

[١] ابن سعد : الطبقات الكبرى 386/5

[٢] البلاذري : فتوح البلدان 524 ، د. خليل السابق 85

[٣] البلاذري : السابق 540

[٤] اليعقوبي : السابق 302/2

[٥] ياقوت : معجم البلدان 378/2ـــ397

[٦] أرنولد : الدعوة إلى الإسلام 182

[٧] الجاحظ : مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص 47

[٨] الطبري : السابق 54/7ـــ55

نشر الإسلام في مصر :

إن السهولة التي تم بها الفتح الإسلامي لمصر قوية الدلالة على مـــدى ضجـــر المصريـــين بحكامهم من الرومان ، الذين قاسوا تحت حكمهم من الاضطهاد المذهـــبي والعســـف الاقتصـــادي والتسلط السياسي ما أفردت له كتب التاريخ صفحات .....

ومن الطبيعي أن نفترض أن انتشار الإسلام في مصر تم على مراحل طويلة مـــن الزمـــان تتناسب مع ما عرف عن المصريين من التصاقهم بمذهبهم الديني ، وارتقائهم الحضاري الذي أتاح لهـــم قدرا من العزة القومية ، وتماسكهم الاجتماعي الذي شكل مع قدرتهم العددية عائقا أمـــام العـــرب الفاتحين الذين ظلت أعدادهم قليلة نسبيا ، حيث يذكرون إن عددهم في الديوان زمن معاوية كـــان أربعين ألفا [١] ..

ورغم ذلك فإن التناقص الكبير المتوالي في خراج مصر زمن الأمويين مقارنا بخراجها بعـــد الفتح لمما يدل على كثرة الداخلين في الإسلام من أهلها [٢] ، على أن ذلك التحول إلى الإسلام يبـــدو أنه ظل متركزا في المدن التي نزلها المسلمون وخالطوا سكانها ، في حين ظلت القرى المترعة بالسكان بعيدة عن ذلك التحول الكبير ، حتى قال المقريزي : "ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائـــة الثانية من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحجاب مولى سلول عامل الأمويين على مصر قيسا بالحوف الشرقي [٣] ، وكان ذلك العامل الأموي قد رغب في استقدام جماعات من قيـــس إلى مصـــر لإحداث نوع من التوازن السكاني بين قبائل العرب بها ، وأرسل إلى الخليفة هشام بذلك فوافقـــه ، وأتاه أولا مائة أهل بيت من بني نصر ثم مائة أهل بيت من بني سليم ، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بـــالزرع والتجارة فأصابوا رخاء عظيما ، فلما سمع بذلك عامة قومهم تحملوا إليهم ، فما مات مروان الجعدي آخر خلفاء الأمويين حتى كان بمصر ثلاثة آلاف بيت من قيس [٤] ، يختلطون بالناس ويتعاملون معهم ، فيتيحون لهم فرصة التعرف على الإسلام ولغته ... ثم ساهم التعريب الذي تم في مصر في عهد عبـــد الملك بن مروان وعامله عليها ابنه عبد الله في نشر اللغة العربية حيث اضطر إلى تعلمها جيل مـــن الناس يشمل موظفي هذه الدواوين ومن يرتبطون بها ارتباطا يضطرهم إلى ذلك ، مما أضعف تدريجيـــا من سيطرة لغة القبط على أهل مصر وأتاح أمامهم السبيل إلى مزيد من الاحتكاك الحضاري بالعرب ، لغة ودينا [٥] ..

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 102

[٢] راجع ارنولد : السابق 93

[٣] المقريزي : الخطط 261/2

[٤] السابق 128/1ــ129

[٥] راجع د. شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية ص 160

وإذا كنا نسمع بين الحين والآخر عن انتفاض للقبط في مصر فإن ذلك لا يعني أنهم كانوا يتعرضون لضغط أو قهر من أجل ترك دينهم والدخول في الإسلام [١] ، حيث يمكن إرجاع هذه الثورات إلى عوامل أخرى منها تجاوزات بعض الولاة ، أو خطأ بعض القيادات مما لا يدخل تحت باب الإكراه في الدين .. وليس أدل على ذلك مما كتبه المؤرخون المستشرقون أنفسهم حيث يقول أحدهم : " وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم (أي نصارى مصر) عن دينهم القديم ، ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين " [٢] ؛ ويقول آخر : " وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لاشك فيه أن كثيرا منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين حتى يكون له مالهم ، وينجو من دفع الجزية ، ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية " [٣] ..

نشر الإسلام في إفريقية والمغرب :

استغرقت مسيرة الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب حوالي أربعين سنة ، شهدت فيها هذه البلاد عديدا من الجيوش والقادة ، وانتصر الإسلام فيها انتصارات هائلة ، كما لاقى هزائم مروعة ، وظل بين مد وجزر حتى سلس له قيادها ، وتبدأ مسيرة الإسلام هناك مع عقبة بن نافع الفهري ، الذي تميز جهاده بالحس الحضاري والحماس الديني ، فقد أراد أن يضع حدا لحركات المد والجزر المتتابعة في حركة الفتح هناك ، ففكر في بناء القيروان وشرح دوافعه لذلك فقال : " إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه بالإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر " [٤] ، وفي أثناء بناء هذه المدينة الذي استغرق نحو أربع سنوات (50–54هـ) كان عقبة يغزو ويرسل السرايا ، فدخل كثير من البربر في الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين [٥] ، ومن الجدير بالملاحظة هنا أن عقبة بن نافع كان حريصا على دعوة من يحاربهم إلى الإسلام أولا [٦] ..

---

[١] راجع المقريزي : الخطط 261/1 ، سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام 198

[٢] ارنولد : الدعوة إلى الإسلام 92

[٣] بتلر : فتح العرب لمصر 325 وانظر ص 327

[٤] ابن عذارى : البيان المغرب 13/1

[٥] ابن الأثير : الكامل 230/3

[٦] ابن عذارى : السابق 38/1

ثم ولي إفريقية بعده أبو المهاجر دينار الذي استطاع بسياسته أن يكسب ولاء زعيم البربر كسيلة بن لمزم الذي دخل في الإسلام ، ولابد أنه تبعه في ذلك كثير من قومه [١] ، ويقال إن عقبة لما تولى بعد أبي المهاجر أساء معاملة كسيلة هذا حتى كفر وخرج عليه ، ولكنه واصل سياسته في الفتح السريع وبذر المساجد في طريقه حتى ساحل الأطلسي ، حيث ذكروا أنه بنى مسجدا بدرعة ، وآخر بالسوس الأقصى ، وثالثا بوادي نفيس [٢] ، وفي أثناء حركته السريعة كان عقبة يترك في البربر بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ، وقد قيل إن أكثر قبيلة المصامدة أسلموا طوعا على يديه [٣] ، وأسلمت مغراوة ، وكانت زناتة خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة [٤]، مما يكون لدينا صورة واضحة بعض الوضوح عن نشوء جماعات بربرية إسلامية أو تميل إلى المسلمين على الأقل في ذلك الحين ، وإن هذه الجماعات لم تكن قليلة ، وإنما كانت كثيرة نوعا ، فيها بعض زناتة وبعض نفوسة وبعض مصمودة [٥] ..

ولما جاء زهير بن قيس البلوى ليثأر لعقبة الشهيد كان جيشه يضم ألفين من البربر بجانب أربعة آلاف من المسلمين [٦] ، ولما جاء بعده حسان بن النعمان ليواصل الفتح كان على مقدمة جيشه محمد بن بكر وهلال بن ثروان اللواتي [٧] ، مما يدل على أن كثيرا من البربر قد دخل الإسلام ، وتمكن في نفوسهم ، حتى صار منهم بعض قواد الفتح الذين يفتحون بلادهم للإسلام .. وقد قام حسان بن النعمان بخطوتين جريئتين مكنتا للإسلام في هذه البلاد ، رغم ما لاقاه في حروبه هناك من عنت ومشقة ، أولاها بناء مدينة تونس التي قامت في المغرب بمثل الدور الذي قامت به القيروان في إفريقية فقد أصبحت ركيزة للمسلمين هناك ، ودار قرار لهم ، ومنطلق معايشة واختلاط بسكان البلاد ، والخطوة الثانية هي احتياله في إشراك البربر بأعداد كبيرة في الجيش الإسلامي ، فبعد هزيمة البربر بقيادة الكاهنة زعيمتهم سنة ٨٢ هـ اشترط عليهم في عقد الصلح أن يقدموا له اثني عشر ألف محارب من قبائلهم يجاهدون مع العرب ، فكون منهم جيشين قوام كل منهما ستة آلاف فارس ، وعقد لولدي الكاهنة على هذين الجيشين ، وإذا كان هؤلاء البربر أجابوه وأسلموا على يديه كما يقول ابن عذارى [٨] ، أو دخل بعضهم وتريث آخرون ، فان مآلهم الطبيعي كان إلى الإسلام ،

---

[١] المالكي : رياض النفوس 25 ، د. شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية 77

[٢] ابن عذارى : البيان المغرب 37/1 .

[٣] السابق والصفحة

[٤] السلاوي : الاستقصا 3/1

[٥] د. مؤنس : فتح العرب للمغرب 200

[٦] المالكي : رياض النفوس ص 9

[٧] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 200

[٨] البيان المغرب 38/1

ومضى موسى بن نصير على ذات الطريق ، وقد تميزت فتوحاته بكثرة السبي إلى درجة هائلة حتى قيل : " لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير" [1]، ولا ريب أن هذه الآلاف الكثيرة من الأسرى ومن السبايا كانت تعيش وسط مجتمع إسلامي تتأثر به وتتجاوب معه ، وأن كثيرا منهم كانوا يندمجون في الجيش الإسلامي ويدخلون في الإسلام ، حتى إذا جهز ابن نصير جيشه لفتح طنجة كان معه أحد رجال البربر وهو طارق بن زياد ، الذي ولاه موسى هذه المدينة وترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، كانوا قد اسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى بن نصير عنده خلقا يسيرا من العرب ليعلموا البربر القران وفرائض الإسلام [2]. وسوف يشترك هؤلاء البربر فيما بعد في فتح الأندلس ، وسيكون قائدهم واحد منهم هو طارق بن زياد أيضا ليقود جيشا قوامه اثنا عشر ألف رجل جلهم من البربر ، يشتركون في صنع مجد جديد للإسلام في بلاد لم يطأها من قبل ...

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة استعمل على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ، " فكان خير أمير وخير وال ؛ ومازال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم البربر بإفريقية على يديه في دولة عمر ، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام ، وبعث معه عمر ﷺ عشرة من التابعين ، أهل علم وفضل ليعلموا الناس [3]"..

وإذا كان انتشار العربية قد تأخر في قطر كمصر ، لأن أهله كانت لهم لغتهم الواحدة التي يتكلمون بها جميعا ، ويكتبها بعضهم ، فإن أهل المغرب كانوا في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته ، ولما كانت العربية هي لغة الإسلام والقران ، فقد بدءوا يقبلون عليها ويتعلمونها ، ويبدو أن إقبالهم كان عظيما واسع المدى ، لأن كثيرين منهم لم يلبثوا أن اتجهوا إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة، فلم تلبث العربية أن انتشرت فيهم ، ولم يلبث أن ظهر فيهم ـــ خلال القرن الثاني ـــ فئات تكتب العربية وتؤلف بها ، وقد أعان على ذلك دعاة العرب الذين مر ذكرهم ، والكتاتيب التي أنشأها المسلمون ، بل لم تلبث القيروان أن أصبحت مركزا من مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي [4] ...

---

[1] المقري : نفح الطيب 239/1

[2] السابق 239/1

[3] ابن عذارى : البيان المغرب 48/1 ، المقري : السابق 287/1

[4] راجع د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب 298/1

الفصل الثالث

نظام الحكم الأموي بين الشورى وولاية العهد

مقدمة :

إن معظم الشبهات التي يثيرها المؤرخون حول النظام السياسي الأموي ومكانة الشورى فيه وعنف الأمويين بالمعارضة إنما يأتي من ظهور فارقين كبيرين بين عصر الراشدين وعصر الأمويين في الممارسة السياسة هما : ظهور مبدأ توريث الحكم في الخلافة الأموية ، مما يعني مصادرة حق الأمة في اختيار خليفة المسلمين ، وثانيهما : عنف الأمويين في مواجهة حركات المعارضة الثورية التي استهدفت القضاء على الخلافة الأموية ، وبخاصة لما واكب ذلك العنف تلك الصدمة لمشاعر المسلمين وعواطفهم حين قتل الحسين وابن الزبير، وهوجمت مدينة النبي ﷺ،وضربت الكعبة بالمجانيق.

غير أن النظرة الشاملة لأسلوب الحكم الأموي يجب ألا تتوقف عند ملاحظة هذه الفوارق بين نظام الحكم الراشدي والأموي ، مبتورة عن ظروف التطور الاجتماعي الذي أصاب الأمة الإسلامية آنذاك ، وعن الدراسة الشاملة لهذه الثورات المعارضة للأمويين ؛ مع ملاحظة الحقيقة الماثلة في حدوث تحريف كبير للتاريخ الأموي ..

إن رصد فكرة الشورى والحرص على حقوق الأمة في فكر وممارسة خلفاء الأمويين وولاتهم ، ودراسة دور جماهير الأمة في رسم خريطة الأحداث ، وتفاعل الحكم مع هذه الجماهير قرباً منها أو انفصالاً عنها ، مع توسيع نطاق الرؤية المحدودة لتشمل كل فعاليات المجتمع السياسية بدل قصرها على حركات التمرد والثورة ، وإهمال شرائح المعارضة السلمية وموقف الحكام منها ؛ مع وجوب الحذر من انسحاب حكم تاريخي لفترة محدودة من عمر الدولة على تاريخها كله .. إن كل ذلك ينبغي أن يدخل في تقييم النظام السياسي في الدولة الأموية .. وذلك هو ما سنحاوله في هذا الفصل ..

المبحث الأول : مكانة الشورى عند الأمويين

أولا : الشورى عند خلفاء الأمويين :

تحتل الشورى مكانة مهمة في فكر الخلفاء والولاة الأمويين على خلاف ما يشيع في كثير من الكتابات التاريخية ، ويأتي ذلك امتدادا للرؤية الإسلامية التي تجعل الشورى ركيزة أساسية في نظام الحكم .. ويمتد هذا الإحساس بضرورة اعتماد الشورى كأساس من أسس النظام الأموي من لدن معاوية بن أبي سفيان حتى يشمل جل خلفاء هذه الدولة وولاتها ..

١- مكانة الشورى عند معاوية :

ففي نصائح معاوية لابنه وولي عهده يزيد ، ولعماله على الولايات عند تعيينهم وحين عزلهم ، نجد الاهتمام برعاية رغبه الأمة واحترام إرادة أهل الحل والعقد فيها .. فهو ينصح ولده يزيد عند موته فيقول : " .. فإذا أردت أمرا فادع السنيين (أي ذوي الأسنان) وأهل التجربة من أهل الخير والمشايخ وأهل التقوى ، فشاورهم ولا تخالفهم ، وإياك والاستبداد برأيك ، فإن الرأي ليس في صدر واحد "[١] ..

ولا تقتصر المشاورة على هذه الصفوة من أهل التجربة والتقوى ؛ بل إنها تستلهم رأى جماهير الناس وتعتمد على الاختلاط بهم ، كي لا يقع الحاكم تحت سيطرة طبقة مهما ارتفع شأنها في التقوى ، ورصيدها في التجربة ، ولذلك فإن معاوية ينصح عبيد الله بن زياد لما ولاه خراسان فيقول : " وافتح بابك للناس ، تكن في العلم بهم أنت وهم على سواء "[٢].

حتى إذا استكمل جوانب الشورى وأحاط بمختلف الآراء في المسألة واستقر رأيه على أمر بعينه أمضاه ، ولا يحفل بعد ذلك بمعارضة ــ ستظل موجودة على أية حال ــ فيقول معاوية بعد نصيحته السابقة لابن زياد : " وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى الناس ، ولا يكن لأحد فيه مطمع ، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع "[٣] ...

فإن في ذلك حفظا لهيبة الحاكم واستقرارا لوسيلة الحكم ووقاية عن مغبة التردد وفق الأهواء المتضاربة ..

ورغبة سكان الأمصار المختلفة يجب أن تراعى في اختيار عاملهم فإن كرهوه وجب عزله ؛ وإن تمادوا في استغلال ذلك الحق ، فإن عزل عامل أهون ضررا من تحويل هذه المعارضة السلمية إلى

---

[١] ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد ص 35

[٢] الطبري : السابق 296/5

[٣] السابق والصفحة

عمل مسلح يؤدى إلى عنف مضاد تراق فيه دماء المسلمين ، وذلك ما يقرره معاوية في وصيته لابنه يزيد حيث يقول : " وانظر إلى أهل العراق ؛ فان سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم " [١] ، وليس ذلك خاصا بالعراق فحسب كمركز معارضة تقليدي للأمويين ؛ فإن النظر في مصالح بقية الأمصار وترتيب ما يناسبها من وسائل الحكم بغيرعسف كان أمرا مقررا [٢]..

والضمان الحقيقي لرعاية مصالح الأمة ، وحفظ حقوق الدولة هو تقوى الله تعالى مع التمسك بحسن السياسة ونجاح الإدارة وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإعطاء القدوة الصالحة في كل موطن للعطاء ؛ كما يبدو لنا من وصية معاوية لابن زياد لما ولاه العراق [٣] ..

وإذا كان الاحتجاج بمثل وصايا معاوية لولي عهده وعماله قد يجد إنكارا ممن يخشى إمكان وضع الرواة لهذه الوصايا أو بعضها ، فإن ممارسة معاوية هذه الجوانب من الشورى ممارسة حقيقية يظل أساس تقييمنا لمكانة الشورى عنده ، فقد اشتهر معاوية بحلمة وأناته إزاء جرأة معارضيه عليه ، مما مكن له أن يجمع شمل الأمة كلها بعد طول فرقة وقتال ؛ كما اشتهر عنه تقريب ذوي الرأي والمشورة من المسلمين ومشاورتهم في أكثر من موضع ؛ ولم يعرف عنه تعجل في إنفاذ قراراته قبل التفكير والمشاورة ، وكان هو نفسه يعتز بذلك ويرى أنه أمرؤ "بورك له في التؤدة " [٤]، ولقد اعتاد استقدام الوفود من أهل الأمصار لمشاورتهم ؛ واستقصاء أخبار بلادهم ، ومعرفة رأيهم في عمالهم ، فإذا وجد شكاية لهم من أحد عمالهم أو كراهية له عزله عنهم ؛ من ذلك عزله عبد الله بن عامر عن البصرة سنه 44 هـ [٥] ، وعزله عبد الله بن عمرو بن غيلان عنها أيضا سنه 55 هـ نزولا على رغبة بعض أهلها ، ثم سألهم معاوية أن يختاروا من يحبون أن يولي عليهم فقالوا : " يتخير لنا أمير المؤمنين " ، وكان يعلم رأي أهل البصرة في ابن عامر إذ كانوا يحبونه للينه ورقته ، فقال : هل لكم في ابن عامر ؟ فهو من قد عرفتم في شرفه وعفافه وطهارته ، قالوا : أمير المؤمنين أعلم ، فجعل يردد ذلك عليهم ليختبرهم ، فلما وجدهم لا يزيدون على ذلك القول قال لهم : قد وليت عليكم ابن أخي عبيد الله بن زياد [٦] ..

---

[١] الجاحظ : البيان والتبيين 108/2

[٢] السابق ، انظر نص الوصية كاملة 108/2 ــ109

[٣] راجع : الطبري :السابق 296/5 ــ297 ، ابن الأثر الكامل 252/3

[٤] الطبري : السابق 99/5

[٥] رغم أن من شكاه كان من أهل الكوفة لا البصرة وهو ابن الكواء اليشكري في حضرة وفد أهل البصرة ، ولكن لما تأكد لمعاوية ضعف ابن عامر عن مواجهة مشاكل المصر الكبيرة عزله ، راجع الطبري : السابق 213/5

[٦] الطبري : السابق 299/5 ــ 300

وفي سنة 59 هـ قدم والي البصرة ابن زياد في وفد منهم إلى معاوية ؛ فقال له معاوية : ائذن لوفدك على منازلهم وشرفهم ، فأذن لهم ، ودخل الأحنف بن قيس ــ سيد بني تميم ــ في آخرهم ، وكان سيئ المنزلة عند عبيد الله ، فلما نظر إليه معاوية رحب به ، وأجلسه معه على سريره ثم تكلم القوم فأحسنوا الثناء على عبيد الله ، والأحنف ساكت ، فقال : مالك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ قال إن تكلمت خالفت القوم ، فقال معاوية : انهضوا فقد عزلته عنكم ، واطلبوا واليا ترضونه ، فلم يبق في القوم أحد إلا أتى رجلا من بني أمية أو من أشراف أهل الشام كلهم يطلب ، وقعد الأحنف في منزله فلم يأت أحدا ؛ فلبثوا أياما ثم بعث إليهم معاوية فجمعهم، فلما دخلوا عليه قال : من اخترتم ؟ فاختلفت كلمتهم ؛ وسمى كل فريق منهم رجلا ، والأحنف ساكت فقال له معاوية مالك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ قال : إن وليت علينا أحدا من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحدا ، وإن وليت من غيرهم فانظر في ذلك ، قال معاوية : فإني قد أعدته عليكم ، ثم أوصاه بالأحنف ؛ وقبح رأيه في مباعدته [1] ..

وإذا كانت هذه الأمثلة كلها من البصرة فإن هناك أمثلة أخرى من الكوفة ومصر ، منها هذا المثال الرائع في ممارسة المجتمع الإسلامي أقصى درجات الحرية السياسية والذي رواه الطبري : ففي سنة 58 هـ ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن أم الحكم [2] خلفا للضحاك بن قيس الفهري . إلا أن عبد الرحمن هذا قد أساء السيرة في أهل الكوفة ــ فيما يروي الرواة ــ وإن كانوا لا يذكرون شيئا عن كيفية هذه الإساءة ، فطرده أهل الكوفة ، فلحق بمعاوية ــ وهو خاله ــ الذي يبدو أنه لم يقتنع بأسباب طرد الكوفيين له ، وعلم أن في أهل العراق تمردا لا يقاس عليه ، فقال له : أوليك خيرا منها ؛ مصر ، فولاه ، فلما توجه إليها بلغ معاوية بن حديج السكوني ــ أحد زعماء أهل مصر ــ خبره ، فخرج لاستقباله على مرحلتين من مصر ، فقال له : ارجع إلى خالك ، فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة ، فرجع إلى معاوية ، وأقبل ــ فيما بعد ــ معاوية بن حديج وافدا على معاوية ؛ وكان ذا مكانة عالية عند معاوية وأهل الشام لدوره المرموق في نصرة عثمان بن عفان والطلب بدمه في مصر ، فكان إذا جاء الشام قلست له الطريق ــ أي ضربت له قباب الريحان ــ فدخل على معاوية وعنده أم الحكم أخته ، وهي أم عبد الرحمن العامل المطرود ــ وهي يومئذ امرأة كبيرة السن ، فقالت : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : بخ ، هذا معاوية بن حديج ، قالت : لا مرحبا به ، تسمع بالمعيدي خير من أن تراه [3] ، فقال ابن حديج ، على رسلك يا أم الحكم ، أما والله لقد تزوجت فما أكرمت ، وولدت فما أنجبت ؛ أردت أن يلي ابنك الفاسق علينا فيسير فينا

---

[1] السابق 5/316ـــ317

[2] وهو ابن أخت معاوية ــ أم الحكم ــ أما أبوه فهو عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي (الطبري 309/5)

[3] مثل معناه : أنك قد تسمع بإنسان فتعجب به ؛ فإذا رأيته صادمتك حقيقته (الميداني : الأمثال ١/١٣٦-١٣٨)

كما سار في إخواننا من أهل الكوفة ، وما كان الله ليريه ذلك ، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يطلطئ منه ، وإن كره ذلك الجالس ، يعني معاوية ، الذي التفت إلى أخته ، فقال : كفي [١] ..

والأمثلة على ذلك عديدة [٢] ....

وقد تركت هذه الممارسة الحرة للشورى ظلالها على فترة حكم معاوية التي نعمت بـأمن وسلام وعافية شملت العالم الإسلامي في إجماله ؛ وفي ضوء هذه الممارسة الشورية لمعاوية ينبغي أن نفهم دوافعه إلى توريث الخلافة لابنه يزيد ، الذي لم تتركه فعاليات المجتمع الإسلامي الحية يهنأ بفترة حكمه القصير ، بل اجتمعت ضده في ممارسات تتسم بالعنف والانفعالات ؛ استجلبت مثلها من الخليفة الشاب ، وتركت آثارها على الصورة العامة للحكم الأموي ، وهذا ما سوف نعرض له في الفصل القادم ...

وعلى أية حال فإن الرجل الذي خلف يزيد بن معاوية ـ وهو ابنه معاوية الثاني ـ قد بادر إلى خلع نفسه ، وإعادة حق اختيار الخليفة إلى الأمة كلها ، فكانت فتنة لم ترقأ فيها الدماء حتى أعاد عبد الملك بن مروان توحيد الأمة بعد قتل ابن الزبير سنه 73هـ ..

٢- الشورى عند مروان بن الحكم :

ولا يصح أن نمضي في الحديث دون وقفة مناسبة لذكر مروان بن الحكم الذي نادى فريق من أهل الشام بالبيعة له ، وتمكن من توحيد الشام تحت سلطته سنة 64 هـ ؛ واستعادة مصر إلى حكم الأمويين سنه 65 هـ ضمن جهوده لإعادة توحيد الأمة تحت راية الخلافة الأموية ..

فقد عرفت عن مروان ممارسته للشورى إبان ولايته لمعاوية على المدينة ، إذ كان يجمع أصحاب رسول الله r يستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه [٣] ، وفي وصيته لابنه عبد العزيز لما ولاه مصر سنة 65 هـ ؛ يأمره بعد تقوى الله في سره وعلانيته بقوله: " وأوصيك ألا تعد الناس موعداً إلا أنفذته ؛ وإن حُملت على الأسنّة ، وأوصيك ألا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير ، فإن الله عزل وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً r عن ذلك بالوحي الذي يأتيه ؛ فقال الله عز وجل : (وشاورهم في الأمر) [٤] ، ولم يكتف مروان بهذه الوصية التي تدل على فهم أصيل لضرورة الشورى في الإسلام ؛ بل إنه اتخذ لذلك خطوة عملية ، فجعل موسى بن نصير ـ أحد أمراء الجند الشامي الذي تركه في مصر وزيراً ـ مشيراً على ولده عبد العزيز [٥] .

---

[١] الطبري : السابق 312/5

[٢] راجع مثلا :الكندي : ولاة مصر وقضاتها ص 35

[٣] ابن سعد : الطبقات الكبرى 43/5

[٤] الكندي : السابق 43 والآية من سورة آل عمران (59)

[٥] الكندي : السابق والصفحة

٣- مكانة الشورى عند عبد الملك بن مروان :

وينسب الرواة إلى عبد الملك بن مروان أقوالا وخطبا ظاهرها يعنى التجبر على الرعية ومصادرة حقها في النقد والتعبير ، ورغم أنه من الواضح أن هذه الخطب ــ إن صحت نسبتها إليه ــ إنما تدرك مراميها في ضوء ظروف إلقائها ، وأحوال قائلها ومتلقيها ، وقد لا تعبر بالضرورة عن قناعة فكرية أصيلة عند صاحبها ، رغم ذلك فإن بعض الكتاب قد اعتبرها المنهج السياسي لحكم عبد الملك بن مروان فقال عنه أحدهم إنه " أول خليفة من بني أمية منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه " [1] ، دون أن يوضح أي كلام هذا الذي منع عبد الملك الناس منه ؛ وكتب التاريخ تحوي الكثير من الحوار بينه وبين رعيته ، ولكن ربما قلت جرأة الرعية على الخليفة ، وخفت حدة مواجهتهم الكلامية له ، كما كنا نرى عند معاوية ، وقد كانت الظروف السياسية آلتي جاء فيها عبد الملك إلى الخلافة بعد فتنة طويلة ودماء غزيرة واختلاف وشقاق تتطلب أن يشتد الخليفة بعض الشيء في حديثه أول خلافته ، وأن يبدو منه أثر الحزم الذي جبل عليه ، وبخاصة مع هؤلاء الذين اعتادوا الثورة والتمرد طوال سنوات الفتنة (64 ــ 73 هـ) .

غير أن هذه الروايات المنسوبة إلى عبد الملك لا تخلو من مطاعن بارزة ، في سندها ومتنها . ففي إحدى هذه الروايات يزعمون أن عبد الملك قال في خطبته لأهل المدينة سنه 75 هـ في أول زيارة لها بعد قتل ابن الزبير : " أما بعد فلست بالخليفة المستضعف ــ يعنى عثمان بن عفان t ــ ولا بالخليفة المداهن ــ يعنى معاوية ــ ولا الخليفة المأفون ــ يعنى يزيد بن معاوية ــ ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال ، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم ، تكلفوننا بأعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم ، فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم .... والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه " [2] ..

وفي إسناد هذه الرواية أحد الكذابين ويدعى الكديمي [3] ، مما يؤكد وضعها ، فليس يعقل أن يقف عبد الملك أمام الناس ليسب خلفاءه الأولين من بني عمومته ، عثمان ومعاوية ويزيد ، والذين بنى مجده على مجدهم ، وفي هذا من الخروج على تقاليد العروبة والإسلام ما فيه .. وإن وصايا عبد الملك لولاته لتؤكد إيمانه بأهمية الشورى وضرورتها ؛ كما تؤكد إيثاره اللين والرفق بالرعية ؛ لا القسوة والضرب بالسيف لمن ذكره بالله كما تزعم الرواية السابقة .. فهو يوصي أخاه

---

[1] الجاحظ : البيان والتبيين 192/2

[2] السيوطي : تاريخ الخلفاء 218ــ219 ، الجاحظ : البيان والتبيين 192/2 ، ابن الأثير : الكامل 41/4 ، النويري :نهاية الأرب 233/21 ، العسكري : الأوائل ص 250

[3] السيوطي : السابق 218

عبد العزيز بن مروان عامله على مصر فيقول : " ابسط بشرك ، وألن كفك ، وآثر الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك ، وانظر حاجبك فليكن خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ؛ ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه ؛ لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده ، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق الأمور ، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته ، فإنك على العقوبة بعد التوقف أقدر منك على ردها بعد إمضائها [١] ..

وصاحب هذه الرواية — ابن طباطبا — لا يتهم بمحاباة عبد الملك أو بني أمية ، فهو أحد مؤرخي الشيعة المتحاملين ..

ووصية عبد الملك إلى ابنه محمد بن عبد الملك لما ولاه مصر تؤكد حسه الواعي بحقوق الرعية وواجبات الراعي ، فبعد أن يأمره بالعجلة في أداء الحقوق إلى أصحابها والتزام الصدق في القول يقول له :" واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله "، ويقول : ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة ، فيكونون أصحابك وجلساءك ، ثم ارفع منازلهم منك عن غيرهم ، على غير استرسال أو انقباض ، أقول قولي هذا واستخلف الله عليك [٢] ..

ومواقف عبد الملك في مشاورة أصحابه عديدة ، لعل أبرزها مشاورته لهم في حربه مصعب ابن الزبيرحيث فضل الرأي القائل بالخروج بنفسه إليه [٣] ..

إن الذي صبغ خلافة عبد الملك — بعض الشيء — بمسحة القسوة والعنف كانت ولاية الحجاج على العراق وما واجهه هناك من ثورات متعددة كان يواجهها بمنتهى الصرامة ، حتى لانت له قناة ذلك البلد المتقلب الأهواء الدائم الثورة .. ولكن حتى مع الحجاج كان عبد الملك يغضب من سرفه في الدماء والأموال [٤] ، وإساءته لبعض الرعية اللذين لا يبادرون إلى الشر [٥] ، وقد ذكر الرواة أن عبد الملك قد عزل الحجاج عن ولاية الحجاز بسبب شكوى أحد أشراف الرعية وهو عيسى بن طلحة بن عبيد الله منه ؛ فعزله عن الحجاز وولاه العراق حيث كان يواجه مصاعب ما بعد سنوات الفتنة ؛ وخطر الخوارج الذين أوشكوا على الاستيلاء على البصرة من أهلها المتخاذلين [٦] ، وقد استطاع الحجاج بالفعل مواجهه هذه المخاطر وإضعاف شأن الأزارقة تماما واستئناف الفتوح

---

[١] ابن طباطبا العلوي : الفخري 126

[٢] محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 166/2

[٣] الأصفهاني : الأغاني 53/19 —54 ، الطبري : السابق 156/6—157

[٤] المسعودي : مروج الذهب 141/3 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 45/5—46 وانظر رد الحجاج على ذلك النقد من عبد الملك (المسعودي السابق 142/3)

[٥] الجاحظ : البيان والتبين 295/1 —196 ، ابن الأثير : الكامل 39/4، النويري : السابق 219/2 —220

[٦] الطبري : السابق 615/5 ، 204/6 —211،219 وما بعدها

الإسلامية في الشرق بعد توقف وفشل ، ولكن لما تجمعت جميع قوى أعداء الأمويين خلف ابن الأشعث في ثورته على الحجاج عرض عبد الملك على قائد الثورة عزل الحجاج عنهم وإرضاءهم في مطالبهم ولكنهم أبوا إلا خلع الحجاج والخليفة وبني أمية جميعا ، فلم يكن بد أمام عبد الملك من الإبقاء على الحجاج حتى انتصر عليهم، وتمتعت البلاد فيما بعد باستقرار لم تشهده منذ زمن طويل[1].

٤- مكانة الشورى عند الوليد بن عبد الملك :

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة يزعم الواقدي أنه خطب الناس فقال : " أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفرد ، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه ، ثم نزل فنظر إلى ما كان من دواب الخلافة فحازه ، وكان جبارا عنيدا " [2].

ولو كان الوليد يخطب بذلك في الكوفة أو غيرها من مواطن المعارضة الساخنة لجاز أن نصدق زعم الواقدي ، ولكن ما باله في الشام يهدد ويتوعد ؟! ومن يهدد والناس في الشام هم اهل طاعته الخلصاء ؟ .. والذي ثبت في التاريخ من سياسة الوليد واجتهاداته يدفع بشكل واضح اتهامه بأنه كان جبارا عنيدا ، فقد ورث الرجل دولة مستقرة هادئة بعد جهود عبد الملك والحجاج ، فوجه طاقاته إلى الفتح والعمران والتحضر ، وكان ذا حس إنساني راق ؛ كما مر بنا.

على أن الجاحظ يحفظ لنا خطبة أخرى جاءته من رواة شاميين ، حيث روى عن بكر بن عبد العزيز الدمشقي قال : سمعت الوليد بن عبد الملك على المنبر حين ولي الخلافة وهو يقول : " إذا حدثتكم فكذبتكم فلا طاعة لي عليكم ، وإذا وعدتكم فأخلفتكم فلا طاعة لي عليكم ، وإذا أغزيتكم فجمرتكم فلا طاعة لي عليكم " [3].. والجاحظ لا يتهم بموالاة بني أمية ، وقد تقدم بيان موقفه المتحامل عليهم ، والذي يصل أحيانا إلى حد تكفيرهم ..

وولى الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة سنه 87 هـ وأمره أن يوقف هشام بن إسماعيل والي المدينة السابق للناس ليقتصوا منه ، وكان قد تحامل على بعض آل البيت ، فمنهم من اقتص ومنهم من عفا [4].

ولم يكن القصاص من بعض العمال لظلم أصابوه قاصرا على خلافة الوليد ، ففي خلافة سليمان بن عبد الملك عزل بعض عماله ، وأوقفهم للقصاص ، وضربوا بالسياط ، لتعديهم على بعض رعيتهم كما حدث مع خالد بن عبد الله القسري [1]وعثمان بن حيان المري [2] ...

---

[1] د.عبد الأمير دكسن : الخلافة الأموية ص 260

[2] الطبري : السابق 423/6 ، ابن الأثير : الكامل 105/4

[3] البيان والتبيين 165/2

[4] الطبري : السابق 428/6 ، اليعقوبي : السابق 24/3، ابن الأثير : السابق 106/4

٥ – الشورى عند عمر بن عبد العزيز :

ولما تولى عمر بن عبد العزيز ، نجيبة بني أمية ، الخلافة صعد المنبر فقال : " أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ، فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك "[٣].. ثم خطبهم خطبته الأولى فأعلن منهجه في الحكم فقال : " ألا وإني لست بقاض وإنما أنا منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، إلا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ؛ ألا وإني أثقلكم حملا " ، ثم قال : " ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا ؛ ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم "[٤] ..

وقد وصل عمر بذلك إلى أفق رحيب من التوازن الدقيق بين الراعي والرعية ، وإعطاء الأمة حقوقها كاملة ، حتى كفل لها حق النقد والرفض والمواجهة للظلم ، أو الهرب منه إن لم يستطع المرء مواجهته ، مع تعزيز معاني الرقابة على السلطة الحاكمة ، حيث قال لقائد حرسه عمرو ابن مهاجر الأنصاري : يا عمرو إن رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي ثم هزني، ثم قل لي ماذا تصنع[٥]..

ولما خلفه يزيد بن عبد الملك لم يكن كما تصوره الروايات لاهيا عابثا ، بل كان يقظا عارفا حقوق رعيته ، وقد عزل عامله عن المدينة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس لما أساء معاملة فاطمة بنت الحسين بن علي وحاول إكراهها على الزواج منه ، فلما شكته إلى الخليفة عزله بعبد الواحد بن عبد الله النضري وكلف الوالي الجديد بتغريم الوالي المخلوع أربعين ألف دينار ، وتعذيبه تعزيرا له[٦] ، رغم ما كان عبد الرحمن بن الضحاك يتمتع به من كفاية ومحبة من رعيته[٧].

٦– الشورى عند هشام بن عبد الملك :

واشتهر هشام بن عبد الملك بحسن السيرة والمقدرة السياسية[٨] ، ولكن اتهمه بعض المؤرخين بالاحتجاب عن الرعية وأن ذلك كان سببا في ثورة البربر الكبرى في إفريقية لما اشتكوا إليه

---

[١] المسعودي : مروج الذهب 189/3 ، اليعقوبي : السابق32/3 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 4284 — 429

[٢] اليعقوبي : السابق 32/3

[٣] ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز 84 —85

[٤] ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز 36 —37

[٥] ابن الجوزي : عمر بن عبد العزيز ص ٢٢٥ ، وانظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 240

[٦] ، الطبري : السابق 12/7—14

[٧] ابن عساكر : تاريخ دمشق 403/40

[٨] المسعودي : مروج الذهب 223/3

عاملهم فلم يعزله ؛ إذ لم تصله شكايتهم بسبب حجابه [١] ، ذلك على حين تسجل لنا كتب التاريخ أمثلة عديدة على احترام هشام بن عبد الملك رغبات رعيته في أمصار أخرى ، والاهتمام بمعرفة رأيهم في ولاتهم ، فقد عزل عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي عن مصر لما شكا منه أهلها ، " وكانت شكواهم من لينه لا لسوء سيرته " [٢]. وكان واليه على إفريقية بشر بن صفوان يولي ولاة الأندلس " بغير أمر الخليفة ؛ وإذا كره أهل الأندلس واليا كتبوا إليه فعزله عنهم ، وولاهم من يرضون " [٣] ؛ ولما توفي بشر بن صفوان سنه 109 هـ ولى هشام على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي فأساء معاملة عمال بشر بن صفوان الذين شكوه إلى الخليفة فعزله [٤] ، بل إنه لبى رغبة بعض أهالي حمص وعزل عامله عليها ـ وهو ابنه ـ سعيد بن هشام ، وعزره بالضرب [٥] ..

ولما تولى بعد هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأثيرت حول حياته الشبهات ، وثب عليه بعض بني أمية ومن معهم من أهل الشام فقتلوه ممارسين بذلك أقصى درجات الحرية السياسية في التولية والعزل ، وتولى مكانه يزيد بن الوليد الذي وقف يخطب في رعيته ويحدثهم عن منهج العدل الذي ينوي السير به ، ثم قال : " فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أف فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني ، فإن تبت قبلتم مني، فإن علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ؛ فأردتم أن تبايعوه ؛ فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته ، أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا وفاء له بنقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله ، فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإن عصى الله ، ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ويقتل [٦].

ثانيا: الشورى عند ولاة الأمويين :

حفظت لنا كتب التاريخ أمثلة مضيئة لتمسك كثير من ولاة الأمويين بالشورى واحترام إرادة الأمة ، وإدراك حقوقها السياسية ....

---

[١] الطبري : السابق 254/4ـ255

[٢] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة 280/1 ـ281

[٣] أخبار مجموعة في فتح الأندلس 25

[٤] ابن عذاري : البيان المغرب 50/1ـ51

[٥] ابن عبد ربه : العقد الفريد 448/4 ، وقد زاد راوي الخبر الشعوبي الكذاب الهيثم بن عدي فيه ، فزعم أن سعيد ابن هشام كان يرمى بالنساء والشراب ، وأن أباه لما عزله ضربه وقال له . أعجزت أن تفجر فجور قريش... قتل هذا وأخذ مال هذا ."

[٦] الطبري :السابق 269/7 ، الجاحظ : البيان والتبيين 115/2، 116 ، ابن الأثير الكامل 269/4

من ذلك أنه لما مات يزيد بن معاوية وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد والي العراق قام في أهل البصرة فخطبهم وقال : " .. وإن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليوم أكثر الناس عددا، وأعرضه فناء ، وأغناه عن الناس ، وأوسعه بلادا ، فاختاروا لأنفسكم رجلا ترتضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض من رضيتموه وتابع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على جديلتكم حتى تعطوا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ، وما يستغني الناس عنكم "، فقام خطباء أهل البصرة يقولون : قد سمعنا مقالتك أيها الأمير ، وإنا والله ما نعلم أحدا أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا بسط يده فبايعوه ، ثم انصرفوا بعد البيعة وهم يقولون : " لا يظن ابن مرجانه أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة ، كذب والله " ، ثم وثبوا عليه فخرج إلى الشام بعد خطوب [١] ..

ولما ولي عمر بن عبد العزيز إمارة المدينة للوليد بن عبد الملك سنة 87 هـ دعا عشرة من فقهاء أهل المدينة وأعلامها البارزين مثل عروة بن الزبير وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر ، ... فقال لهم " إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم ، أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة ، فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني" [٢] ..

ولما تولى موسى بن نصير إمارة إفريقيا خطب الناس فقال : " .. وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله ، وليحض على مثلها ، ومن رأى مني سيئة فلينكرها ، فإني أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ... ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان ، مع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " [٣].

وأدرك بعض ولاة الأمويين خطر سيطرة أصحاب النفوذ من حاشية السلطان وأقارب الوالي وتدخلهم في سياسة الأمور ، فإنه لما همّ الحجاج أن يستعمل عبد الرحمن بن عبيد السعدي على شرطته قال عبد الرحمن : أصلح الله الأمير قد قبلت ما وليتني ، فاكفني حاشيتك وأهلك وولدك في الشفاعات ، فقال الحجاج : قد كفيناك ذلك ، يا غلام مر المنادى فليناد : ألا من طلب شفاعة من حاشية الأمير وأهله وولده فقد برئت منه الذمة " [٤] ..

---

[١] الطبري : السابق 5/504—505

[٢] السابق 6/427—428

[٣] الإمامة والسياسة 2/61—62

[٤] ابن أعثم : الفتوح 7/110—111

وقال عمر بن هبيرة عامل هشام بن عبد الملك على العراق يوصي مسلم بن سعيد لمـدولاه خراسان : " ليكن حاجبك من صالح مواليك ، فإنه لسانك والمعبر عنك ، وحث صاحب شـــرطتك على الأمانة ، وعليك بعمال العذر، قال : وما عمال العذر ؟ قال : مر أهل كـــل بلـــد أن يختـــاروا لأنفسهم، فإن اختاروا رجلا فوله ، فإن كان خيرا كان خيرا لك ، وإن كان شرا كان لهم دونـــك، وكنت معذورا " [١] ، وكان عمر بن هبيرة نفسه يستشير الحسن البصري والإمام الشعبي ويعرف لهما قدرهما [٢] .

والأمثلة على ذلك كثيرة وفيما مضى بيان ..

ثالثا : الأمويون بين مظاهر الملك وحقيقة الشورى والاتصال بالرعية :

امتاز عصر الخلفاء الراشدين بالبساطة والزهد ، كان ذلك شأن الرعية والخلفاء معا ، فلمـا جاء عصر الأمويين كانت مظاهر الترف والملك تأخذ طريقها شيئا فشيئا إلى حياة الخلفـــاء ، كمـــا كانت مظاهر الترف والتنعم قد أصبحت سمة لبعض أفراد المجتمع الإسلامي آنذاك ، كواحدة من معالم التطور الاجتماعي في ذلك العصر ...

ولكننا عند البحث سوف نرى أن روح الشورى والخلطة بالرعية كانت قوية عند الأمويين وعمـالهم رغم علامات الأبهة والملك التي التزموا بها .. كما سوف نرى أن اتخاذ هذه المظاهر الملكية كان له ما يبرره في هذه الحقبة من تاريخنا ..

وأول مظهر من هذه المظاهر هو احتجاب الخلفاء عن الناس ؛ وذلك ما يعبر عنـــه ابـــن خلدون على النحو التالي : " كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لمـا كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بـــن العاص وغيرهم ، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات ، فاتخذوا مـــن يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب " [٣].

ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود " العامل الأمني " وراء اتخاذ معاوية حاجبا مـــا رواه الطبري من أنه بعد نجاة معاوية من محاولة اغتياله التي دبرها الخوارج " أمر عند ذلك بـــالمقصورات وحرس الليل ، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد" [٤] ، ولقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون في الشـام قريبا من أعدائهم الموتورين من الروم ، فضلا عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقـين

---

[١] الطبري : السابق 34/7ـــ35

[٢] أبو نعيم : حلية الأولياء 149/2ـــ150

[٣] المقدمة 667/2ـــ668

[٤] الطبري : السابق 149/5

في البلاد ، وكان لابد لهم ولاستقرار الدولة الإسلامية التي قتل ثلاثة من حلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز ، وذلك لا يختلف مع منهج الإسلام الحقيقي الذي يبيح للحاكم اتخاذ من يحرسه من عدوه ؛ وقد كان رسول الله ﷺ يتخذ حرسا حتى نزل قوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) فصرفه [1] . ولم يستطع خلفاء بني أمية – حتى الزاهدين منهم المشهورين بذلك – المغامرة بالتخلص من الحراسة ، والالتحام المطلق بالجماهير ، فهذا عمر بن عبد العزيز يحتفظ بحرسه ، ولكنه يغير قيادته بما يناسب توجهه التقي الزاهد ، فجعل على قيادته رجلا مشهورا بذلك هو عمرو بن مهاجر الأنصاري فقد قال له : " يا عمرو والله لتعلمن أنه ما بيني وبينك من قرابة إلا قرابة الإسلام ، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القران ، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك فيه أحد ، فرأيتك تحسن الصلاة ، وأنت رجل من الأنصار ، خذ هذا السيف فقد وليتك حرسي" [2] ..

وإذا كان ذلك حال الشام فقد كان كذلك العراق بما فيه من فتن مستمرة لا تهدأ حتى تنبعث ، فلما وليها زياد بن أبي سفيان وأراد توطيد سلطة الخلافة بها اتخذ حرسا له ، وتشدد في مظاهر القوة ، فكان أول من سير بين يديه بالحراب ، ومشي بين يديه بالعمد ، واتخذ الحرس رابطة خمسمائة .. فكانوا لا يبرحون المسجد [3] ، وكان الخليفة في عصر الراشدين يجالس أصحابه على الأرض وكذلك كان معاوية يفعل صدرا من خلافته ، حتى بدن جسمه ، وثقل عليه النهوض أمام جلسائه كما كان يفعل ؛ فاستأذن الناس في اتخاذ كرسي له ؛ وقال لهم : " إني قد بدنت ، فأذنوا له ، فاتخذه ، واتبعه الملوك الإسلاميون فيه ، وصار من منازع الأبهة " [4] ، وورث الخلفاء عنه هذه المظاهر وقد ترسخت ، فاستمسكوا بها وزادوا فيها ...

إن ما سبق لا يعني أن معاوية وبعض بني أمية لم يكن عندهم ذلك الاستعداد النفسي للأخذ من متاع الدنيا بما حل ولم يحرم ، فقد كان عمر بن الخطاب يتفرس في معاوية ذلك ، ويقول إذا رآه : " هذا كسرى العرب " [5] ، ولما رآه عمر يسير في موكب ويلبس ما لم يعتده البسطاء والزهاد من المسلمين كان ينكر ذلك عليه ، ولكنه كان يرضى ويصمت إذا احتج أمامه معاوية بضرورات السياسة ومقتضى الإمارة في بلاد الشام حيث العدو قريب وجواسيسه منتشرون [6] ..

ومظاهر الزهد والبساطة أيضا :

---

[1] ابن كثير : تفسير ابن كثير ١٩٦/٣ ، والآية من سورة المائدة رقم ٦٧ .

[2] السيوطي : تاريخ الخلفاء 240 ، وانظر ص 237

[3] الطبري : السابق 224/5

[4] ابن خلدون : المقدمة 700/2

[5] ابن كثير : البداية والنهاية 125/8، القرماني : أخبار الدول ص 129

[6] ابن كثير : السابق 124–125 ، الطبري : السابق 331/5

وكان بعض الخلفاء وعمالهم يدرك أن ما يحوطه من مظاهر الملك التي تستجيب لها النفس قد يقلل من درجات إيمانه ويسيء إلى نظرة الزاهدين من المسلمين إليه ، ولذلك فقد رويت عن بعضهم أخبار في الزهد ، كما عرف عنهم لون من البساطة يظهرون به أحيانا ؛ تربية للنفس وترضية للمسلمين ؛ فقد روى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي حملة عن أبيه قال : " رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه ثوب مرقوع " [١] ، وروى ابن كثير بسنده عن يونس بن ميسرالحميري الزاهد من شيوخ الإمام الأوزاعي قال: " رأيت معاوية في سق دمشق ، وهو مردف وراءه وصيفا وعليه قميص مرقوع الجيب يسير في أسواق دمشق" [٢] ، وذلك كان شأن زياد بن أبي سفيان ، فقد روى الطبري عن جرير بن يزيد قال : رأيت زيادا وعليه قميص مرقوع وهو على بغلة عليها لجامها قد أرسلها [٣] .

مظاهر الملك لا تعني الانفصال عن الرعية :

إن اتخاذ الأمويين بعض مظاهر الملك لا يعني بحال انفصالهم عن الاتصال الحي بالجماهير ، والإحساس برغبات الأمة ، والاختلاط بالناس ، مما يحقق بلا شك مطاليب الإسلام من نظامه السياسي الذي لا تنفصل فيه القيادة عن الأمة ولا الراعي عن الرعية .

فقد كان عمرو بن العاص يفضل الجلوس مع إخوانه كما يجلسون ويرفض اتخاذ كرسي يجلس عليه [٤] ، كما أننا لجد بعض ولاة الأمويين يرفض اتخاذ حاجب لبابه ؛ مثلما فعل بشر بن مروان في ولايته على العراق[٥] ، وكان خالد بن عبد الله القسري يقول لحاجبه : " لا تحجبن عنى أحدا إذا أخذت مجلسي ، فإن الوالي لا يحجب إلا عن ثلاث : عن ما يكره أن يطلع عليه منه ، أو ريبة ، أو بخل فيكره أن يدخل عليه من يسأله " [٦] .

وكان معاوية يستقبل وفود الأنصار ويجالسهم ويستشيرهم ، بل يشاركهم طعامهم ويأكل معهم من رديء الطعام [٧] ، ويجالس وافدات النساء عليه ، ويحلم عليهن في جرأتهن وقسوتهن ، وهن يهاجمنه وينتقدنه [٨] ، وكان يرفض أن يمتثل الناس له قياما إذا خرج ويقول : سمعت رسول الله ﷺ

---

[١] أحمد بن حنبل : الزهد 172 ، الخطب : هامش العواصم من القواصم لابن العربي ص 217

[٢] البداية والنهاية 134/8 ، ابن عساكر : تاريخ دمشق 6/7

[٣] الطبري : السابق 290/5

[٤] ابن خلدون : المقدمة 700/2

[٥] محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 162/2—163

[٦] ابن قتيبة : عيون الأخبار 84/1 ، والأصفهاني الأغاني 276/2—277

[٧] ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق 217/4—218

[٨] ابن عبد ربه : العقد الفريد نقل تحت عنوان : " الوافدات على معاوية " 1022—121 ، حتى قال أبو هلال العسكري عنه ان معاوية هو أول ملك عبثت به رعيته ، واجترئ عليه أشد الاجتراء (الأوائل ص 241)

يقول : من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار "[1], ورغم ذلك فهو يشفق أن يكون احتجابه أحيانا عن المسلمين ذنبا يحاسب عليه ، فلما سمع حديث النبي ﷺ : " من ولاه الله شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره " ، جعل معاوية على حوائج الناس رجلا يبلغه بها ، كي لا يغيب عنه شيء منها [2]، وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدا إلى معاوية أمر مناديه فنادى : من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين [3] ، وكذلك كان يفعل زياد بن أبي سفيان الذي كان يباشر شئون الرعية بنفسه ، ولا يكتفي في ذلك بمعاونيه ؛ وكان يجلس أحيانا في مجلس القضاء ليفتي بين الناس ، وبجواره القاضي يسدده إذا أخطأ ، وقلما كان يحدث وتختلف وجهات نظرهما [4] ، بل كان يجلس أحيانا ليفصل في الخصومات بين الأزواج [5]، حتى أنه كان يعرف أخبار رعيته معرفة عجيبة ، فيروى أن رجلا كلمه في حاجة له ، فتعرف إليه وهو يظن أنه لا يعرفه ، فقال : أصلح الله الأمير أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال : أتتعرف إلي وأنا أعرف منك بنفسك ؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك ، وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو لفلان ، فبهت الرجل وأرعد ، حتى كاد يغشى عليه ، وعلى هذا المستوى من الخبرة بالرعية كان عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف [6] ، وكان زياد يقول لأصحابه : ليس كل يصل إلي ؛ ولا كل من وصل إلي أمكنه الكلام ، فاستشفعوا لمن وراءكم [7] ..

وكان الوليد بن عبد الملك يجوب الأسواق يطمئن بنفسه على أحوال البائعين [8] ، بينما كان هشام يضع الرقباء والعيون من خيار الناس على ولاته وعماله ليتأكد من سيرهم بالعدل ، وقضائهم حوائج الخلق [9] ، ولا يكتفي بذلك بل يتعرض للناس بنفسه يسأل عن أحوالهم ويحرضهم على المطالبة بحقوقهم [10] ، وكان له موضع بالرصافة أفيح من الأرض يبرز فيه ، فتضرب له به السرادقات ،" فيكون فيه ستين ليلة بارزا للناس، مباحا للخلق ، لا يفني أيامه تلك إلا برد المظالم والأخذ على يد الظالم ، من جميع الناس وأطراف البلاد ، ويصل إلى مخاطبته في ذلك الموضع راعي

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية 126/8 ، والحديث رواه الترمذي : كتاب الأدب ، رقم ٧٥٥ .

[2] ابن كثير : السابق 125/8—126

[3] الطبري : السابق 335/5

[4] ابن عبد ربه : العقد الفريد 10/5

[5] الجاحظ : المحاسن والأضداد 147، 153

[6] البيهقي : المحاسن من المساوىء 1/ 144 ، اليعقوبي : السابق 170/2—171

[7] اليعقوبي : السابق 171/2

[8] الطبري : الساق 496/6 ، ابن الأثير الكامل 137/4

[9] الإمامة والسياسة 129/2—130

[10] السابق 129/2

السوام والأمة السوداء فمن دونهما ، وقد وكل رجالا أدباء عقلاء بإدناء الضعفاء والنساء واليتامى منه [١]، ويستقبل وفود الأمصار ، فيلبي حاجاتهم [٢] ويخرج مع مستشاريه يصنع معهم الطعام بنفسه ، فيأكل منه ، ويأكل معه الناس [٣] ، وإن نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته خصومة لم يجد سبيلا لقضائها إلا أن يمثل بنفسه أمام القضاء مع خصمه ، ويلزم أهل بيته ذلك ، حتى لو كان خصم أحدهم نصرانيا [٤] ، ولما استطال مرة على أحد رعيته لم يجد مفرا من إرضائه بكل سبيل ، فقد شتم هشام مرة رجلا من الأشراف ، فوبخه ذلك الرجل وقال : أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض ؟ فاستحيى منه ، وقال : اقتص مني ، فقال : إذن أنا سفيه مثلك ، قال: فخذ مني عوضا من المال ، قال : ما كنت لأفعل ، قال : فهبها لله ، قال : هي لله ، ثم لك ؛ فنكس هشام رأسه واستحيى وقال : والله لا أعود إلى مثلها أبدا [٥] ..

إن ما مضى مجرد أمثلة ـــ لا يخلو بعضها من المبالغة ، ولكن على كل حال يبقى كثير منها صالحا للدلالة على قرب الأمويين من رعيتهم ، وإحساسهم بهم ، وخلطتهم معهم ، رغم مظاهر الملك المستحدثة ...

وسن ولاة بني أمية سنة جميلة ، يتقربون بها من عامة الناس ، ويعرفون أحوالهم عن قرب ، حيث جرت عادتهم على مد الموائد العامة ، يجمعون عليها الناس ، ويشرفون عليها بأنفسهم أحيانا ، وكان أول من فعل ذلك زياد في العراق بأمر من معاوية [٦] ، ثم تبعه في ذلك الحجاج بن يوسف الذي قيل انه كان ينصب ألف خوان يوميا في رمضان ، وخمسمائة في سائر الشهور[٧] ، وعبد العزيز ابن مروان الذي كانت تنصب حول داره ألف جفنة ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل في أنحاء مصر [٨] ، وكذلك مد تلك الموائد جماعة منهم يزيد بن المهلب [٩] وعمر بن هبيرة [١٠] ، ولم يفت بعض خلفاء الأمويين أن يفعل ذات الصنيع مع أهل الشام [١١] .

---

[١] السابق 129/2

[٢] أبو علي القالي : الأمالي 147/1

[٣] الطبري : السابق 205/7ـــ206

[٤] ابن عبد ربه : العقد الفريد 447/4 ـــ 448 ،الطبري : السابق 202/7 ، ابن الأثير : السابق 255/4

[٥] ابن الأثير : الكامل 256/4

[٦] الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك 15

[٧] ابن عبد ربه : العقد الفريد 14/5 ـــ 15 ، المبرد : الكامل 179/1

[٨] الكندي : ولاة مصر وقضاتها 46ـــ47

[٩] الخربوطلي : تاريخ العراق 308ـــ309

[١٠] المعارف ص 409

[١١] ابن خلكان : وفيات الأعيان 424/2

رابعا : معنى الملك لا يقتضي انعدام الشورى :

وهكذا فإن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي لم يكن يعني تحولا كاملا عن شورى الراشدين أو ارتدادا عن أوامر الإسلام ومنهجه في الحكم ، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعي وسياسي سيتضح لنا بعد قليل ، ولقد بقيت في العصر الأموي ـ كما يقرر ابن خلدون ـ " معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه ، والجري على مذاهب الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا ، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها " [١] ..

ولم يذم الشرع العصبية أو الملك لما كان القصد منهما إقامة الدين وإظهار الحق ، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال : (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى)[٢]، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك [٣] ، وعلى ذلك فإن " الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هو الجبروتية " [٤] ، التي يقصد بها قهر الناس بغير حق ، ولم يكن ذلك هو شأن الأمويين في خلافتهم ؛ وقد استرعى انتباه بعض فقهائنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقاصد خلافة الأمويين وبخاصة معاوية ، ومقاصد خلافة الراشدين ، لذلك فقد رأى بعضهم فترة حكم معاوية في حقيقتها خلافة راشدة " أو أقرب ما تكون إلى الخلافة " [٥] ، ويرى أن دولة معاوية كان ينبغي أن تلحق بدولة الراشدين ، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والتضحية [٦] ..

وكذلك كان الأمر عند نظرهم إلى خلافة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك " فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي ، إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم ، إلا في ضرورة تحملهم على بعضها ، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد " [٧] ..

---

[١] ابن خلدون : المقدمة 608/2 ، وذلك ما يؤكده حديثا الإمام محمد عبده رغم أنه يتهم الأمويين بهدم قاعدة الشورى ولكنه يجنح إلى الإنصاف فيقول: " على هذا الاستبداد منهم قد كان في معظمه مصروفا إلى المحافظة على سلطتهم ، وبقاء الملك في أسرتهم ، قلما يتسرب منه شيء إلى الإدارة والقضاء ، وكانت حرية انتقاد الحكام ، والإنكار عليهم على كمالها " راجع تفسير القران الحكيم 204/4

[٢] سورة ص آيه (35)

[٣] ابن خلدون : المقدمة 600/2

[٤] ابن خلدون · العبر 188/2

[٥] ابن تيمية : مجموعة فتاوى شيخ الإسلام 25/35ـ27

[٦] ابن خلدون : العبر 188/2 ، وأشار إلى أن حديث " الخلافة بعدى ثلاثون سنة " لا يصح

[٧] ابن خلدون :المقدمة 605/2

خامساً : بعض الأمويين يتمنى لو سار سيرة الراشدين :

لم تبعد خلافة الأمويين إذن كثيراً عن معاني خلافة الراشدين ، وما أصاب النظام الأموي من تغير كان راجعاً إلى تغيرات عديدة هبت رياحها على الدولة الإسلامية الفتية كما سوف نرى فيما يلي ... ولن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن بعض خلفاء بني أمية كان يود لو سار سيرة الراشدين كاملة ، ولكنهم كانوا غير قادرين على ذلك ، في تفاعلهم مع أحوال رعيتهم وظروف عصرهم ، وإن ذلك الأفق العالي والمثل الرفيع الذي قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء ؛ ولكنه كان أيضاً يستعلي على قدراتهم ، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه ، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة ...

لقد سأل معاوية يوماً ولده وولي عهده يزيد كيف سيعمل بعد استخلافه ؟ فقال : أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب ، فتبسم معاوية وقال : والله لقد جهدت أن أعمل فيهم عمل عثمان فلم أقدر ، أتعمل أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب ؟ [1] .. وجلس الفقيه ثعلبة بن أبي مالك القرظي يوماً مع عبد الملك بن مروان ومضى يحدثه عن سيرة عمر بن الخطاب وسننه ، فقال عبد الملك : وأين الناس الذين كان يسير فيهم عمر بن الخطاب والناس اليوم ؟ يا ثعلبة إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ، إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أُغير على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبُل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه " [2] ، وكان عبد الملك يقول في بعض خطبه : " أنصفونا يا معشر الرعية ، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر؟! [3].

حتى عمر بن العزيز الذي كان ألصق الخلفاء بسيرة الراشدين ونهجهم لم يستطيع أن يحقق كل ما تمناه في العودة بالرعية إلى سالف عهدها ، فكان يقول : إني لأجمع أن أُخرج للناس أمراً من العدل ، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا [4] ، وقال له يوماً ابنه عبد الملك : يا أمير المؤمنين انفذ لأمر الله وإن جاشت بي وبك القدور ، فقال : يا بني ، إن بادهت الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف ولا خير في خير لا يحيا إلا

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٩/٠ .

[2] ابن سعد : الطبقات الكبرى 5/232—233

[3] ابن قتيبة : عيون الأخبار 1/9

[4] السابق والصفحة ، وانظر السيوطي : تاريخ الخلفاء 235

بالسيف [١] ، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء حال الحكم في مجتمع مـا كان ذلك لنقص في الراعي والرعية معاً [٢] ..

ولا يعني ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل ، ولكـن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته ، وعظمت عزيمته ، بل لابد من تحقيق ذلك القـدر مـن التوافق والانسجام بين الراعي والرعية حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريـق ذلك طويل وشاق ، ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية علـى كمال الإيمان ، ويعطون القدوة في ذلك والمثل ، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم ، وهـو ما كان يصعب تحقيقه زمن الأمويين وفي خضم التحديات التي واجهوها ..

---

[١] ابن الأثير : الكامل 165/4

[٢] ابن تيمية : مجموع الفتاوى 20/35

المبحث الثاني : ولاية العهد و توريث الخلافة

توطئة : كلمة عن تطور نظام الخلافة حتى العصر الأموي :

للإسلام نظامه السياسي الخاص به ، وهذا النظام قد حددته آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ بشكل إجمالي عام ، يتحاشى التفصيلات التي تتغير بتغير الزمان والمكان ، ليظل ذلك النظام صالحا لكل زمان ومكان ، ومن أهم الخطوط العريضة التي تحدد الإطار العام للنظام السياسي الإسلامي وجوب الشورى في اختيار الخليفة ، وفي ممارسته الحكم ، وتنظيم طرق هذه الممارسة لتحقيق أهداف الإسلام الأساسية في العدل والمساواة بين الرعية ، وتحريم الامتيازات الخاصة لحاكم ، أو طبقة بعينها من طبقات البشر، إذ إن التفاضل بين الناس في الإسلام يكون بالتقوى والعمل الصالح ، مع إقرار حق المعارضة للحاكم إن أخطأ من خلال فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر ، بل إقرار حق الرعية في خلع الحاكم إن جار أو ظلم ، مع قدرتها على تغييره بغير ضرر فادح ، وبعد تعذر إصلاحه ، وتأكيد واجبها في خلعه إن كفر أو خرج عن تعاليم الإسلام وأصر على ذلك [١] ..

وقد جاءت سياسة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين تطبيقا أمينا لهذه المبادئ ، وقدمت لنا اجتهادات وافية في فهم هذه المبادئ العامة وتطبيقها ..

ويلاحظ أنه لم تكن هناك طريقة واحدة لاختيار الخليفة في عصر الراشدين ، بحيث يعد تجاوزها خروجا عن الإسلام أو ضربا لنظامه السياسي غير أن تعدد طرق اختيار الخليفة جاء دائما محكوما برضا أهل الحل والعقد من قادة المسلمين ، وذوى الرأي والتأثير فيهم ، وهذا الرضا كان يعني بطبيعة الحال استيفاء المرشح للخلافة شروطها ، وتميزه عمن سواه في هذا الصدد ، كما يعني ضمان رضاء الأمة تبعا لرضا قادتها من أهل الحل والعقد ، وتعبيرا عن ذلك فقد كان الخليفة يجلس لتلقي البيعة العامة في المسجد الجامع كدليل على احترام إرادة الأمة وشعور الخليفة بمسئوليته أمامها، لذا فقد كان الخليفة يشرح أمام الناس برنامجه السياسي وخطته في العمل والإدارة ..

---

[١] راجع مقدمة الفصل الخاص بالمعارضة في العصر الأموي ..

ورغم المكانة العالية التي تمتع بها الخلفاء الراشدون الأربعة ، فقد ظهرت بين بعض قيادات الأمة معارضة لاستخلافهم أو بيعتهم[١] ، ولكنها لم تكن معارضة خطيرة [٢] ، أو طعنا في كفاية هؤلاء المرشحين للخلافة ، ولم تستمر طويلا ..

تغيرات اجتماعية ضخمة أواخر عصر الراشدين :

وكان المجتمع الإسلامي في عصر الراشدين يتطور تطورا سريعا وخطيرا بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم والتي كانت تظهر في شكل ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية ، وقد تمثل ذلك التطور في تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين في المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم في الأمصار ، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز موئل الخلافة ؛ نتيجة نمو دور القبائل العربية التي أسلمت متأخرا ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى ؛ التي أدت إلى ثراء المجتمع الإسلامي بصورة لم يعرفها من قبل ، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق ، وقد ظهر أثر ذلك التغير في تململ عمر بن الخطاب من رعيته أواخر خلافته ؛ وضيق بعضهم به وبمنهجه في الحكم، ثم في ثورة بعض هذه القبائل على عثمان بن عفان ، ثم في البيعة لعلي وانتقاله معهم إلى العراق مما أنهى عمليا صدارة الحجاز السياسية ، ثم في بروز دور الشام كمقابل للعراق ومنافسته على الخلافة بقيادة معاوية الذي ثار طلبا بدم عثمان ابن عفان t ، وقد عانى علي t في العراق مما عانى منه عمر وعثمان في الحجاز ، حتى كان يتعجل الموت في أخريات حياته ، وقد بلور علي t إحساسه بهذا التطور في مثل قوله لأهل العراق المتمردين عليه غالبا :" حملت إليكم درة عمر لأضربكم بها لتنتهوا فأبيتم ، حتى اتخذت الخيزرانة فلم تنتهوا ، وقد أرى الذين يريدون السيف ، ولا آتي بصلحكم بفسادي " [٣] ، كما عبر ببراعة عن إحساسه القوي بمدى التغير الاجتماعي حين سأله رجل يوما : " ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال علي : لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا وال على مثلك " [٤] ..

---

[١] عارض استخلاف أبي بكر بعض الخزرج من الأنصار على رأسهم سعد بن عبادة ، وبعض بني أمية ، كما أبدى بعض الصحابة تبرمه من استخلاف أبي بكر عمر وهو على فراش الموت (الطبري : السابق ٤٢٩/٣-٤٣٠) وفي خلافة عثمان كان علي وبعض أصحابه يرون أحقيته هو بها بدل عثمان ، وتخلف عدد من الصحابة عن بيعة علي في المدينة والشام وغيرها ...

[٢] باستثناء خلافة علي فلها ظروف خاصة سبق بيانها ..

[٣] الجاحظ : البيان والتبيين 183/3

[٤] ابن خلدون : المقدمة 614/2

وعلى الجانب الآخر كان معاوية يوضح أثر تغير مفهوم أهل الحل والعقد ، ووجوب اعتبار ذلك ، ويستغل ذلك التطور لتعزيز موقفه ونصر قضيته إذ كان يقول لرسل علي الذين يدعونه إلى الطاعة والجماعة : " فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي .. "[1] ..

لقد تغير إذن مفهوم أهل الحل والعقد ، فلم يعودوا هم أهل بدر ، أو جماعة السابقين إلى الإسلام في المدينة ، التي تقلصت أعدادها بمضي الزمن وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار ، بل زعماء الشام من بينهم ، فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجدها تؤكد قدرة أهل الأمصار على الحسم السياسي ، وعجز أهل المدينة عن ذلك ، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعي والتعود على الخضوع لنظم الدولة وأساليب الإدارة وأنماط الحضارة[2] ، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت لمعاوية ، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عاما هي عمر الدولة الأموية .. مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسي أهل الحل والعقد في المجتمع الإسلامي والقادرين على اختيار الخليفة ، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار ــ إن سلما أو عنفا ــ في ذلك المجتمع الذي أصبحت تحكمه عصبيات مختلفة الرغبات والأهواء والمطامح ..

أولا : رأي الفقهاء في معنى أهل الحل والعقد :

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا في معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال[3] ، يرجح منها أنهم أصحاب الشوكة والعصبية والقوة القادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم ، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم ، وهذا ما تحقق في ذلك الظرف التاريخي في أهل الشام .

وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافا وأن ننظر إلى الأمور بمقياس عصرنا الحاضر ، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية في العراق والحجاز ومصر وغيرهم ، وأن تضم بجوار أصحاب العصبيات القوية أصحاب الرأي من علماء الأمة وأهل الديانة فيهم ، وأن يوكل إلى هذه الطائفة مهمة اختيار الخليفة أو عزله ؛ علاوة على الفصل في المسائل المهمة في حياة الأمة .. ولو حدث ذلك في كل مرة لتجنبت الأمة كثيرا من الاختلاف وإراقة الدماء .. ولكن الذي حدث فعلا هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء في العصر

---

[1] الطبري : السابق 6/5

[2] فلهوزن تاريخ الدولة العربية 126 ،127 ، د. شعبان صدر الإسلام والدولة الأموية ص 51ـــ54 ، د.عبد العزيز صالح الهلابي : عبد الله بن سبأ ص 22 مقال بمجلة حوليات كلية الآداب جامعة الكويت الحولية الثانية الرسالة 45 سنة 1408 هـــ / 1987 م .

[3] راجع ملحق رقم (٣) من ملاحق هذا الكتاب

الأموي من الأسرة الأموية ذاتها ، وكانت بداية ذلك هي البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد لأبيه ، وبعد خطوب شتى أصبح تسلسل الخلفاء في البيت الأموي أمرا واقعا ، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت ، وذلك هو موضع الدراسة في الصفحات القادمة :

ثانيا : ظروف بيعة يزيد بولاية العهد :

بعد استقرار الأمر لمعاوية وإحساسه بدنو أجله بدأ يفكر في أمر الخلافة من بعده ، ومن المؤكد أن عدم وجود طريقة معينة لاختيار خليفة المسلمين ، وتغير وسائل ذلك الاختيار مع كل خليفة جديد ، بدءا من استخلاف أبي بكر الصديق وانتهاء باستخلاف معاوية نفسه كان دافعا إلى إمعان التفكير في هذا الأمر ، مع الأخذ في الاعتبار ذلك الاضطراب الذي كان يحدث مع تولي كل خليفة جديد وقيام من يشغب عليه ، أو يعترض على بيعته ، أو يمتنع عن هذه البيعة ، وقد كان ذلك الاعتراض يبدو هادئا في اختيار أبي بكر وعمر وعثمان ، ولكن منذ النصف الثاني من خلافة عثمان أصبح تولي منصب الخلافة سببا في جريان الدماء بين المسلمين ، وإعطاء فرصة كبيرة لذوى الأهواء والأغراض للتنفيس عن رغباتهم أو تحقيقها ، وكانت ذكريات الثورة على عثمان ، ثم حروب المسلمين بعضهم بعضا في موقعة الجمل وصفين وما نتج عنهما من ضحايا ودماء ــ مع تعرض مكانة الدولة نفسها للانتقاص ومطامع الأعداء والمتربصين بها ــ ماثلة في الأذهان تثير القلق والتربص والخوف لقد كان واضحا في ذهن معاوية ومعاصريه أنه يمكن للخليفة أن يعهد بالخلافة إلى من يراه أهلا لها من بعده ، بشرط موافقة أهل الحل والعقد على ذلك الاختيار ، فقد عهد أبو بكر إلى عمر ابن الخطاب بعد استشارة كبار الصحابة الذين أيدوا ذلك العمل ، وكذلك عهد عمر بن الخطاب إلى ستة نفر ليختاروا واحدا ، فاختاروا عثمان بن عفان ، غير أن ذلك الجيل الفذ من الصحابة الذين كانوا موضع إكبار الأمة وإجلالها كان قد مضى جل رموزه ، في ذلك الوقت من خلافة معاوية ، فلم يبق أحد من أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر والذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض [1] ، وإن كان قد بقي بعض أعيان الصحابة الذين لا يطمحون إلى منصب الخلافة في ظل التغيرات الكبيرة التي طرأت على المجتمع الإسلامي [2] ، كما كان مفهوم أهل الحل والعقد قد تغير عمليا نتيجة تلك المتغيرات ..

---

[1] وذلك بعد مقتل عثمان بن عفان ثم مقتل طلحة والزبير في موقعة الجمل وبعدها بيسير،ثم اغتيال على بن أبي طالب ومات سعد بن أبي وقاص في خلافة معاوية ، وكان عبد الرحمن بن عوف قد مات من قبل زمن عثمان ، أما عبد الله ابن عمر فقد كان رأيه استشاريا في ذلك المجلس أو ترجيحيا، وليس له من الخلافة شيء فيما قضى عمر آنذاك ..

[2] مثل ابن عمر الذي كان زاهدا في الخلافة ، ولم يحدث أن تولى من قبل عملا إداريا يتيح له الخبرة المناسبة للتطلع إلى خلافة المسلمين ، وإن كان من أهل الورع والزهد ، وابن عباس الذي تفرغ عمليا للعلم والفقه ، وكانت شخصية

ولا ريب في أن غياب هذا العدد من قيادات الأمة من الصحابة قد ترك فراغا كبيرا في دائرة الاختيار لمنصب الخليفة ؛ إذ إنه جعل ذلك الاختيار محصورا بين مجموعة من النظراء ، لا يسلم أحدهم للآخر بالامتياز المطلق ، أو التفوق الكامل ، ولا يسلمون في مجموعهم لأحدهم بذلك ، بل لا تجتمع في أغلب الظن ــ كلمة معظمهم على واحد منهم ، وإن اجتمعت كان من الصعب أن يظفر ذلك الاختيار بموافقة الفعاليات السياسية المؤثرة الأخرى ، التي أصبحت تمثل بصورة عملية العصبية والشوكة الظاهرة ؛ تلك الصورة الجديدة الواقعية لأهل الحل والعقد آنذاك.

إن غياب الأفضل مطلقا بين مجموعة النظراء هذه جعل كلا منهم مفضولا في جانب بالنسبة للآخرين ، وإمامة المفضول حتى مع وجود الأفضل منه جائزة عند جماهير الفقهاء في الإسلام إذا كان أطوع في الناس وأقرب إلى القلوب [١] ..

لقد كان أبرز المرشحين من غير البيت الأموي لولاية عهد معاوية أو للخلافة من بعده عبد الله بن عمر والحسين وابن الزبير . وقد أثبتت حوادث التاريخ زهد ابن عمر في الخلافة إلا أن تأتيه طوعا ، ولم يكن له من الخبرة الإدارية أو العصبية القرشية ــ حيث كان واحدا من بني عدي ــ أو من الطموح الشخصي إلى هذه المكانة ما يجعله يصمد لنافسة المرشحين الآخرين ، كما أثبتت حوادث التاريخ فيما بعد أن الحسين بن علي لما خرج ثائرا على يزيد بن معاوية لم يتابعه من أهل الحجاز إلا قليل من أهل بيته ، وقد اعترض عليه آنذاك أخوه محمد بن الحنفية وابن عمه عبد الله بن عباس [٢] ، ولم يجد في أهل العراق الذين وثق بهم ما يعينه في مواجهة عصبية أهل الشام ، وكان ابن الزبير فيما يرى كثير من المؤرخين منافسا له ، وقد آثر في ذلك الحين البقاء في الحجاز عن الخروج مع الحسين إلى العراق .. ولما ثار ابن الزبير فيما بعد على الأمويين كانت علاقته ببني هاشم علاقة تربص وعداء ، حيث كان كل من الفريقين يرى نفسه أجدر بالخلافة ويسعى إليها ، ولم تستطع عصبية أهل الحجاز التي اعتمد عليها ابن الزبير أن تقف في وجه أهل الشام أيضا، وكان ابن الزبير في حاجة ملحة لنصرة عصبية العراق ، ولما نصرته ظهرت خطورة ثورته ، فلما انفضت عنه حوصر بمكة حتى قتل ..

إذا كانت طبيعة الأحداث ترشح هؤلاء الرجال الثلاثة للمنافسة على الخلافة فقد كان هناك كثيرون آخرون غيرهم يرون في أنفسهم صلاحية لطلب الملك وتمني خلافة المسلمين ، مثل

الحسين بن علي أكثر تطلعا للخلافة منه لمكانة علي t ، ويلاحظ أن عمرو بن العاص مات زمن معاوية ، وأن الاختيار كان محصورا آنذاك في دائرة قريش وليس غيرهم ..

[١] راجع الماوردي : الأحكام السلطانية ص8ــ9 ، الريس : النظريات السياسية 206 ، الجويني : غياث الأمم 122ــ123 ، والأفضل عنده هو الأصلح للقيام على الخلق بما يصلحهم لا الأنقى ، " فرب ولي من أولياء الله هو قطب الأرضي وعماد العالم لو اقسم على الله لأبره ، وفي العصر من هو أصلح للقيام بأمر المسلمين منه " (السابق 122)

[٢] راجع المبحث الخاص بثورة الحسين بن علي في الفصل التالي ..

مغامر أهل العراق المختار بن أبي عبيد ، بل إن سعيد بن عثمان بن عفان كان ـــ فيما يزعم الـــرواة ـــ يرى نفسه أحق بخلافة المسلمين من يزيد عن معاوية ، مستندا في ذلك إلى شرف نســبه وكــريم محتده [١] ..

لقد كان من الواضح إذن أن تولية أي من هؤلاء المرشحين للخلافة لن يحسم الخلاف بـين قوى الأمة المتوثبة ، ولن يظفر في غالب الظن بمباركة المرشحين الآخرين له ، مما يفتح الباب لمزيد مـن الصراع تضيع معه مصالح الأمة التي خرجت منذ أمد ليس بالطويل من معـــارك الفتنـــة الكـــبرى ، وتضيع معه أيضا الحكمة من ولاية العهد أو الاستخلاف .

كما كان مرجحا أن أهل الشام لن يسمحوا بخروج الخلافة منهم بعد أن أحسوا بالمكانـــة العالية التي اكتسبوها بها طيلة نحو عشرين عاما من خلافة معاوية ، وبالثقة الكبيرة في بني أمية الذيــن عايشوهم منذ ولاية يزيد بن أبي سفيان في عهد عمر بن الخطاب ، وأن بني أمية لن يرضوا بخــروج الخلافة منهم ، ومنهم من يرى نفسه أهلا لها ، تساندهم في ذلك قوة أهل الشام التي لا تماثلها قـــوة أخرى في الأمصار الإسلامية [٢] ..

لقد كان معاوية يدرك هذه الحقائق كلها كما يبدو من قوله لمحمد بن عمرو حزم وهو يحدثه عن بيعة يزيد : " لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، وابني أحب إلي من أبنائهم " [٣] .

وإدراك معاوية حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم يبدو واضحا في أثناء المشـــاورات العديدة التي أجراها مع وفود الأمصار لكسب تأييدهم استخلاف يزيد ، حيث كان يبدو أن أهـــل الشام قد حسموا هذا الاختيار بالنسبة لهم ، ووجدوا في يزيد ضالتهم لاستمرار صدارتهم في الدولة الإسلامية ، فعند تمنع بعض قادة المدينة عن مبايعة يزيد بولاية العهد ثم موافقتهم عليه ، خرج معاويـــة إلى بعض من معه من الشاميين فأخبرهم بمبايعتهم ؛ فقال أهل الشام : والله لا نرضى حتى يبايعوا لــــه على رءوس الأشهاد ، وإلا ضربنا أعناقهم ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريــش بالشر ، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم [٤] ، وقبل ذلك ـــ وفي أثناء هذه المشاورات ـــ لما أغلظ عبد الرحمن بن أبي بكر القول لمعاوية وخرج مغضبا رافضا البيعة ليزيد ، أمســـك معاويـــة بطرف ردائه ثم قال : لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليك منهم [٥] ..

---

[١] الطبري : السابق 305/5 ، ابن الأثير : السابق 253/2 ، ابن كثير : البداية والنهاية 79/8

[٢] راجع ابن خلدون : المقدمة 604/2 ، 613

[٣] انظر ابن أعثم : الفتوح 229/4

[٤] السيوطي تاريخ : الخلفاء 197 ، ابن العربي : العواصم من القواصم ص224

[٥] الإمامة والسياسة 188/1 ، ابن العربي : السابق والصفحة

ويبدو أن أهل الشام لم يكونوا يستغربون فكرة توريث الخلافة كما كان يستغربها أهل الحجاز ، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم [١] ، بل إن أهل العراق أيضا كانوا فيما يبدو مهيئين لتقبل ففكرة توريث الخلافة ، ولكن من منظور خاص ، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم ، وقد تأثروا في ذلك أيضا بنظام الحكم الساساني للفرس قبل الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، بل لقد مارس العراقيون عمليا هذه الفكرة حين بايعوا للحسن بن علي بعد اغتيال أبيه ، دون وصية حقيقية منه بذلك ، حيث تركهم لا يأمرهم ولا ينهاهم [٢] ، ومات ولم يستخلف عليهم أحدا [٣] ، فبايعوا الحسن ، ثم سلسلوا الإمامة في اثني عشر إماما من أهل البيت ، مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن الشيعة هم أول من أدخلوا فكرة توريث الخلافة في الفكر الإسلامي [٤] ، وحجة هؤلاء المؤرخين في ذلك واضحة .. وسوف تمتد هذه الفكرة لتشمل طوائف أخرى من المسلمين ، لتزداد رسوخا بتأثير هذه العصبية حتى يصبح الفكاك منها عملا عسيرا محفوفا بالمخاطر ؛ كما سيأتي بيانه .

هل كان يمكن استخلاف غير يزيد من بني أمية ؟

فإذا تقرر أنه لم يكن أمام معاوية بد من أن يعهد إلى أحد أفراد البيت الأموي بخلافته إن أراد أن يحقق أكبر قدر من الاستقرار للدولة بعد وفاته ، فهل كان اختياره ليزيد خلفا له هو الاختيار الأصوب في ضوء المعطيات التاريخية لذلك العصر؟؟

لقد ثارت شبهات كثيرة حول أخلاق يزيد بن معاوية وقدراته السياسية ، مما قد يرجح — في حال صدقها — كفة غيره من الأمويين البارزين المشهود بكفايتهم ونبل أخلاقهم مثل مروان بن الحكم وابنه عبد الملك وسعيد بن العاص [٥]..

أما الشبهات التي ثارت حول يزيد بن معاوية فلا يصمد معظمها أمام النقد العلمي البريء — كما سنرى — ولقد ثار عديد من الشبهات أيضا حول المرشحين الآخرين من بني أمية، ضمن ما تعرضوا له خلال فترة الصراع الممتد مع معارضيهم وخصومهم ؛ فأمر التفاضل بينهم في هذا المجال

---

[١] أشار إلى تلك الفكرة د.حسن إبراهيم : التاريخ السياسي 447—448 ، النظم الإسلامية 51—52 ، أرنولد : الخلافة 24—25

[٢] الطبري : السابق 146/5—147 ، ولقد اخترعوا لعملهم هذا سندا من أقوال علي حيث حصر اختياره في أهل بيته (الإمامة والسياسة 153/1)، العيني : عقد الجمان 112/10

[٣] أحمد بن حنبل : المسند 130/1 حيث رقم 1078 ، 156/1 حديث رقم 1339 ، ابن كثير : البداية والنهاية 250/5 —251 ، 323/7 ،البيهقي :السنن الكبرى 149/8 ، شعوط : أباطيل يجب أن تمحى 234—235

[٤] د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 49/2

[٥] وتزعم بعض الروايات معارضة مروان وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر بيعة يزيد بولاية العهد (الأصفهاني : الأغاني 212—213 ، ابن أعثم : الفتوح 4/ 224— 225)

نسبي إلى حد كبير ، على أنه ــ فيما يبدو ــ لم يكن من الممكن أن ترضى عصبية أهل الشام بديلا عن يزيد بن معاوية من البيت الأموي ، أو من غيره ، في ذلك الوقت ، فقد كان اسم يزيد يرتبط في أذهان أهل الشام باسم أبيه معاوية ، صاحب الرصيد الكبير من الحب والإعجاب لديهم ؛ كما كان يزيد يحظى بصورة خاصة بتأييد قبيلة كلب اليمانية القوية بالشام حيث كانت أمة ميسون بنت بحدل تنتمي إلى أحد أبرز بيوت هذه القبيلة ، وقد أمضى يزيد في بادية كلب سنوات حياته الأولى ، وأمضى بين أهل الشام بقية عمره ، وهذا ما لم يحدث بالنسبة للمرشحين الآخرين من بني أمية مثل مروان وابنه الذين ارتبطا دائما بالحجاز والمدينة المنورة ، حيث مقامهما ، ولم تعرفهما الشام إلا زائرين[1] ، وبعد وفاة يزيد بن معاوية تكتلت قبيلة كلب وأحلافها حول ابنه الصغير خالد بن يزيد يريدون بيعته بالخلافة ، ويمتنعون عن بيعة مروان بن الحكم الذين رشحه بعض الأمويين أنفسهم ، وبعض الفعاليات السياسية الأخرى بالشام ، ولم ينتقل ولاء الكلبيين عن الفرع السفياني إلى مروان وبنيه إلا بعد جهد جهيد ، ولم يستقر أمر البيعة لمروان بالشام إلا بعد أن أيده الكلبيون [2] ..

هذه هي العوامل التي دفعت معاوية ــ فيما يبدو ــ إلى التفكير في ولاية العهد لابنه يزيد ، وإذا كان يحلو لبعض المؤرخين أن يتحدث عن أثر محبة الوالد لولده على ذلك التفكير[3] ، فإنه ليس من الإنصاف بحال إهمال تلك العوامل المتشعبة التي حكمت الممارسة السياسية والفكر السياسي الإسلامي في هذه الفترة ، وظلت تحكمه حتى بعد رحيل معاوية ويزيد ووجود فراغ سياسي هائل في منصب الخلافة ، وفرص متكررة للعودة إلى مبدأ الشورى الكاملة في اختيار الخليفة ، ولكن ذلك واقعيا لم يكن ممكنا ، ولذلك فقد انتهى جماعة من مفكرينا ومؤرخينا إلى تلك الفكرة القائلة بوجود دوافع حقيقية كان لابد أن تقود في النهاية إلى ذلك التطور الكبير في التفكير السياسي آنذاك [4] ..

ثالثا : حول أهلية يزيد للخلافة :

---

[1] د. شعبان : صدر الإسلام والدولة الأموية 102

[2] الطبري : السابق 535/5 ــ537

[3] بينما تقول بعض الروايات عن معاوية أنه قال في إحدى خطبة :"اللهم إن كنت تعلم أني وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتمم له ما وليته ، وإن كنت وليته لأني أحبه فلا تتم له ما وليته " (ابن كثير : البداية والنهاية 80/8) بينما تقول روايات أخرى إن معاوية في آخر حياته كان يقول " لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي " (السابق 118/8)

[4] ابن خلدون : المقدمة 613/2 ــ614 ، د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 48/2 ــ149 ، محب الدين الخطيب : هامش العواصم من القواصم ص222ــ223 ،هامش المنتقى من منهاج الاعتدال 282،283 ، د.شعبان :صدر الإسلام 102 ، د. ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 61/2 ــ62 ، د. شعوط : أباطيل يجب أن تمحى 224، 225 ،232، 233 ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 396/2

ما كاد يزيد بن معاوية يتولى الخلافة بعد وفاة أبيه حتى ثارت ضده معارضة عنيفة قادها الحسين بن علي الذي وثق بإغراءات أهل العراق ، فاتجه إليهم ثائرا على الخليفة الجديد ، حيث أسلموه هناك لحتفه ، ثم ثار بعده أهل المدينة حتى نكبهم يزيد وأهل الشام في موقعة الحرة ، ثم كانت أخطر هذه الثورات وأطولها ، ثورة ابن الزبير بمكة حيث مات يزيد وجيوشه تحاصر ابن الزبير هناك وتضيق عليه الخناق ...

وكانت هذه الثورات وما تمخض عنها من نتائج وخيمة فرصة هائلة لتشويه صورة يزيد والطعن فيه ، وقد وجدت هذه المطاعن والشبهات من يروجها من أعداء بني أمية طوال تاريخهم وبعده حتى حملتها لنا صفحات التاريخ ..

أما قبل هذه الثورات فلا تعلم اتهاما خطيرا يعتد به ليزيد طوال خلافة أبيه ــ حتى بعد أن دخل دائرة الضوء ورشحه معاوية لولاية عهده؛ ولبث وليا للعهد بضع سنين ، بل نجد أن معاوية كان يتعهد ولده ويدربه على مسائل الحكم ، فكان " إذا أتته الأمور المشكلة المعضلة يبعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها ، واستسهال معضلاتها " [١] ، وقد أحسن أبوه تربيته وأسكنه معه في سقيفته [٢] ، وأعده منذ زمن طويل ليكون " من فتيان قريش الذين ينتفع بهم " [٣]، ولما أرسله أبوه لغزو القسطنطينية كان تحت لوائه أبو أيوب الأنصاري وابن عباس وابن عمر وابن الزبير [٤] ، وهؤلاء لا يرضون أن يسيروا تحت لواء من يشرب الخمر ويعشق اللهو ، كما اتهم فيما بعد ، فكان قائد أول جيش يغزو القسطنطينية فصدقت فيهم نبوءة الرسول ﷺ حيث قال : " أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم" [٥] ، وكانت له هناك ضروب من الشجاعة والبأس [٦]

ولما وفد عبد الله بن عباس على أمير المؤمنين معاوية بعد وفاة الحسن بن علي دخل عليه يزيد وجلس يعزيه في وفاة الحسن ، فلما نهض من عنده قال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس [٧] ..

إن الاتهام الظاهر ليزيد الذي نعرفه قبل استخلافه هو أنه صاحب رسلة وتهاون وولع بالصيد على حد تعبير زياد بن أبي سفيان لمعاوية لما أرسل إليه يسأله رأيه في العهد ليزيد [١] ، أما رميه

---

[١] الإمامة والسياسة 194/1

[٢] الأصفهاني : الأغاني 104/7

[٣] السابق والصفحة

[٤] الطبري : السابق 232/5 وانظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ص 27ــ28

[٥] ابن حجر : فتح الباري 120/6 ابن طولون : قيد الشريد 53 ، البخاري : صحيح البخاري ، كتاب الجهاد حديث رقم ٢٧٦٦

[٦] راجع الأصفهاني : الأغاني 141/17

[٧] ابن كثير : البداية والنهاية 228/8

بشرب الخمر وإتيان الفواحش فلم يعرف إلا أثناء الثورة عليه وما تلاها من أحداث [٢]، ومن المؤكـــد أن معاوية لم يكن ليسمح لابنه بانتهاك حرمة الإسلام ، ناهيك عن تركه حتى يذيع ذلك عنه وينتشر، أو أن يستخلفه على المسلمين وهو يعلم فسوقه وجرمه كما أنه من المستبعد أن يرضى بنـــو أميـــة باستخلافه وهو على ذلك ، فقد ثاروا بعد زمن يزيد بأكثر من ستين سنة على الوليد بن يزيد لما بدا منه مالا يليق بمكان الخليفة أو شاع ذلك عنه سنه 126هـــ [٣] كما أنه لن يرضى أهل الشـــام وفيـــهم جماعة من بقية الصحابة وأفاضل التابعين على قبول الدنية في دينهم حتى يستخلفوا رجلا سكيرا خميرا على ما يصف الرواة ، وسوف نرى فيما بعد أن ابن عمر وابن الحنفية لم يرضيا أن يثورا على يزيد أو يخلعا بيعته ، وكذب ابن الحنفية أن يكون يزيد كما يصف أعداؤه من اللهو والفسوق ، وجسلدهم في ذلك [٤] .

إن معظم ما أساء إلى يزيد هو عنفه في التصدي لخصومه الخارجين عليه مع ما كان لهم مـــن مكانة عالية اجتذبت عواطف كثير من المسلمين ، ولكن يزيد لم يكن أكثر من خليفة بايعـــه معظـــم المسلمين بما فيهم ذوو العصبية القوية التأثير ؛ يدافع عن حقه في الخلافة والطاعة ، ولو كان غيره من الثائرين عليه مكانه لما تورع عن محاربة الخارجين عليه حتى يظفر أحد الفريقين ، كما حدث بـــالفعل في مواجهة مصعب بن الزبير ـــ الذي أرسله أخوه عبد الله ليضم إليه العـــراق ســـنة ٦٧ هـــــ ـــ للمختار بن أبي عبيد الذي سيطر من قبل عليها ، إذ قتل منهم عدة آلاف في يوم واحد [٥] ، وسوف يأتي مزيد بيان عن هذه الثورات ضد يزيد وكيف واجهها ؛ والتقييم الموضوعي لها ..

رابعا : كيف تمت البيعة ليزيد بولاية العهد ؟

تحاول بعض الروايات التاريخية أن تجعل فكرة ولاية العهد ليزيد طارئة على ذهن معاويـــة من خارجه ، حيث تنسب هذه الفكرة إلى المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة (المتوفى ســـنه 49 أو 50 أو51 هـــ) [٦] ، وأنه أوحى بها إلى معاوية ليضمن رضاءه عنه واستمرار ولايته على الكوفـــة ،

---

[١] الطبري : السابق 302/5 ، وانظر تحريف اليعقوبي هذه الرواية بشكل واضح تاريخ اليعقوبي 160/2

[٢] حيث زعموا أنه شرب مرة الخمر أمام الحسين بن علي (ابن الأثير : الكامل 317/3ـــ318) ، كما اتهم بأنـــه كـــان ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويدع الصلاة (السيوطي تاريخ الخلفاء 209 ، ابن سعد : الطبقات الكـــبرى 66/5) وبضروب اللهو الغريبة مع القرود (المسعودي :مروج الذهب 77/3) بل اتهم بـــالكفر (الجـــاحظ : النابتـــة 12/2ـــ13 ، دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا 54/1 ـــ55)

[٣] كرد علي : خطط الشام 167/1

[٤] سيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن ثورة أهل المدينة ضد يزيد ..

[٥] أوصلتهم الروايات إلى سبعة آلاف (الطبري : السابق 113/6)

[٦] راجع الطبري : السابق234/5 ، 255 لتحديد تاريخ وفاته ..

وهناك بعض المؤرخين الذين يؤكدون تولد فكرة البيعة ليزيد بولاية العهد في ذهن معاوية كنتيجة طبيعية للتطور السياسي والاجتماعي للدولة ولمنصب الخلافة ، ولذلك يرفضون تعليق أهميه كبيرة على تلك الروايات التي تنسب إلى المغيرة دورا بارزا في هذا الصدد [١]، وبخاصة أن هذه الروايات يشوبها كثير من الخلط والاضطراب والتناقض ، ولا يبقى بعدها إلا ذلك الانطباع الذي يبدو أنه القصد من ورائها ؛ ألا وهو الغض من شأن المغيرة ومعاوية وإظهارهما على أنهما متآمران على حرية الأمة ، أو ساعيان إلى تحقيق مآربهما الخاصة ، مستندة في ذلك إلى الخلفية الخاصة التي تصور دهاء الرجلين وسعة حيلتهما ، وذلك ما يؤكد ضرورة الحذر من قبول مثل هذه الروايات التي تحمل وجهات نظر طائفية واضحة [٢] ، بل إنها لجديرة بالرفض والاستبعاد لما تحوي من اتهام صريح لدين هذين الرجلين عن الصحابة ، ولمناقضتها لرواية أخرى تعود ببدء تفكير معاوية في استخلاف ابنه إلى زمن ولاية زياد ابن أبيه على العراق التي جمعت له بعد وفاة المغيرة بن شعبة ، حيث تقول الرواية " إنه لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد كتب إلى زياد يستشيره ..." ، مما يوحي باستبعاد وجود جهود سابقة من أجل البيعة ليزيد قام بها المغيرة من قبل ، غير أن زيادا نصح معاوية بالتريث في ذلك الأمر ، ونصح يزيد الذي كان يراه " صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد " بالكف عن ذلك ، فأطاع يزيد وترك كثيرا مما كان يصنع [٣] .. ويصرح الطبري بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة 56

---

[١] د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 62/2 ، وانظر د. محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية 98ـ99

[٢] تنص رواية الطبري على أن المغيرة قد قدم على معاوية وشكا إليه ضعفه وطلب إعفاءه من ولايته فأعفاه وأراد ان يولي سعيد بن العاص بدله ، فذهب كاتب المغيرة لما علم بذلك إلى سعيد ليهنئه ويخبره ، فأثار ذلك حفيظة المغيرة الذي غير رأيه في طلب الاستعفاء من عمله ، وذهب إلى يزيد يوحي إليه بفكرة ولاية العهد ، ولما علم معاوية بذلك راقته الفكرة وسر بالمغيرة وأعاده إلى الكوفة من جديد (الطبري 301/5 ـ302) وعلامات الاختلاق والوضع واضحة في الرواية بلا ريب ، ولكن اليعقوبي وابن الأثير وصاحب الإمامة والسياسة يزعمون أن معاوية هو الذي قرر الاستعفاء عن المغيرة بعامل آخر ، وهنا تختلف الروايات الثلاث في اسم العامل الجديد حيث يجعله بعضهم سعيد بن العاص ويجعله الآخر عبد الله بن عامر ، فلجأ المغيرة إلى اختراع فكرة ولاية العهد كما سبق (تاريخ اليعقوبي159/2 ، 160 الإمامة والسياسة 165/1 ، الكامل في التاريخ249/3) ويصور اليعقوبي وابن الأثير مكر المغيرة بمعاوية حيث يزعمان أنه خرج من عنده فرحا بعد أن دس إليه فكرته في استخلاف يزيد وهو يقول :" لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد المدى على أمة محمد وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبدا " (انظر :العسكري :الأوائل233) ، ولكن أين ذهب دهاء الرجل حتى يعلن نيته فيهوي بمكانته على ذلك النحو ؟؟ وبينما تنص رواية الطبري على أن المغيرة بعد عودته إلى الكوفة بدأ يسعى للتمكين لفكرته باستخلاف يزيد " وأوفد في ذلك وفدا إلى معاوية (الطبري 302/5) يقدم ابن الأثير في روايتين تفاصيل ذلك الوفد بشكل مضطرب أيضا ؛ حيث يختلف عدده في كلتا الروايتين ويختلف مقدار جائزتهم واسم أميرهم ثم يجعل هذه الجائزة ثمنا لشراء المغيرة دين أعضاء الوفد منهم" (الكامل 249/3) ..

[٣] الطبري : السابق 302/5ـ303

هـ [1] فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع في التمهيد لهذه الفكرة قبل موته ؛ مع كون معاوية نفسه قد كبرت سنه حيث مات سنه 60 هـ عن عمر يزيد عن خمس وسبعين سنة [2] ، ومن الطبعي أن يتلهف لضمان مستقبل الخلافة والأمة وولده ؟؟ ..

التمهيد لاستخلاف يزيد :

لقد مات زياد سنة 53 هـ [3] ، وأعلن معاوية الدعوة إلى البيعة ليزيد بولاية عهده سنة 56 هـ ، ولا ريب أن معاوية أنفق ذلك الوقت في التجهيز لهذه الخطوة الخطيرة ، ليضمن موافقة الأمة عليها عن رضا وقناعة بدل أن يسلك سبيل القهر والبطش مرتكنا إلى قوة أهل الشام ، فقد رأينا يزيد على رأس الحملة المتجهة لحصار القسطنطينية سنة 50 هـ ليقدمه إلى المسلمين على الصورة التي يفضلونها ، مجاهدا في سبيل الله وغازيا ، كما مهد الرأي العام في الأمصار الإسلامية لذلك الاستخلاف حين استقبل منها بعض الوفود فأخبرهم بما نوى ، فلم يجد منهم معارضة جدية ، وإن بدا شيء من التحفظ لدى وفدي العراق والحجاز [4] ، وكان معاوية ولا ريب يدرك مكانة الحجاز وأن العراق يرنو ببصره إلى البيت العلوي ، وأنهم إن بايعوا يزيد لم يبق من يتطلع إلى ذلك المكان في بقية الأمصار ؛ ولذلك فقد رحل إلى الحجاز معتمرا سنة 56 هـ حيث التقى هناك بأبناء الصحابة البارزين وحاول إقناعهم بالبيعة ليزيد ..

بحث دعوى إجبار أبناء الصحابة على البيعة ليزيد :

ويبدو أن معاوية قد أصاب في محاولة إقناعهم بعض التوفيق ، وإن لم يقتنع بعضهم بما أراد ، وقد تعرض ذلك الموقف إلى تحريف كبير لدى بعض المؤرخين الذين اخترعوا قصة محبوكة مؤداها أن معاوية أجبر أبناء الصحابة المعارضين ، وهم الحسين وابن الزبير وابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر ، على البيعة لولده تحت التهديد بالسلاح ! ، فهم يزعمون أنه سار إلى الحجاز في ألف فارس فقدم المدينة حيث قابلوه خارجها ، فعنف بهم وهاجمهم هجوما مرا ، وسبهم ، فأقبلوا خلفه فلم يلتفت إليهم ، فلما أيسوا منه ساروا إلى مكة ، وأنه لقي أم المؤمنين عائشة في المدينة فأوصته بالرفق بهم ، فلما سار إلى مكة وقابلوه رحب بهم وتلطف إليهم ، فتركهم يعجبون من موقفيه ، وتحدث باسمهم

---

[1] السابق 301/5

[2] السابق 325/5

[3] السابق 288/5 — 290

[4] المسعودي : مروج الذهب 36/3—37 ، ابن أعثم : الفتوح 288/4 —232، ابن كثير : البداية والنهاية 80/8 ، الإمامة والسياسة 171/1 ، المبرد : الكامل 30/1 ، الجاحظ : البيان والتبيين 241/1—242 ، اليافعي : مرآة الجنان 147/1

ابن الزبير فعرض على معاوية أن يختار بين عدة خصال ، إما أن يترك الأمة بغير اختيار كما فعل النبي ﷺ ، أو أنه يعهد إلى رجل غير ذي قرابة كما فعل أبو بكر ، أو يجعلها شورى في بضع رجال كما فعل عمر ، فأبى معاوية ذلك ، ثم قال لهم " إنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس؛ فأحمل ذلك وأصفح عنه ، ألا وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد علي أحد كلمة في مقامي هذا ألا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ، ثم دعا قائد حرسه ، وأمره أن يقيم على كل رجل منهم حارسين في المسجد الحرام ، ليبادروا إلى من يعارضه بقطع رأسه ، كما بث بقية حراسه في أرجاء المسجد ، ثم دخل ودخلوا فقال :" أيها الناس إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، ولا يقضى أمر إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله "، وهم جلوس لا يجرؤ أحدهم على الحديث خوفا من القتل ، وظن الناس الصدق في حديث معاوية فبايعوا يزيد [١]..

وهذه ليست الرواية الوحيدة في هذا الباب ... فقد روى ابن العربي والسيوطي أن معاوية قد استدعى هؤلاء النفر ، كلا منهم على حدة ، وحدثهم بشأن البيعة ليزيد فاختلفت ردودهم ، حيث وافق ابن عمر، وامتنع ابن أبي بكر ، وتحفظ ابن الزبير الذي قال :" إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها ؛ وهلم ابنك فلنبايعه ، أرأيت إذا بايعت ابنك معك لأيكما تسمع ولأيكما نطيع ، ولا تجتمع البيعة لكما أبدا ، فخرج معاوية فصعد المنبر وأعلن مبايعة هؤلاء النفر ليزيد ، فصمم أهل الشام أن يبايعوا علنا ، فعنفهم معاوية على ذلك [٢] ، وتبدو حجة ابن الزبير هنا متهافتة ، فهو يعلم تماما أن بيعة يزيد إنما هي بولاية العهد ؛ وأنه لن يكون خليفة يطاع إلا بعد موت أبيه .

وعلى حين يروي صاحب الإمامة والسياسة عدة روايات متنافرة في هذا الصدد [٣]، يروي الطبري بسند فيه أحد المجهولين أن معاوية تحدث إلى كل منهم على حدة ؛ وأن كلا منهم منفردا وافق على البيعة ليزيد إن بايع الآخرون عدا ما كان من عنفه بابن أبي بكر الذي لا تبرره تلك الرواية المزعومة [٤] ..

ونلاحظ على جميع هذه الروايات ما يلي :

– أنها متضاربة بشكل يعكس غموض موقف هؤلاء النفر وسرية المفاوضات التي حدثت بينهم وبين معاوية ، فإنها لا تتفق على نتيجة واحدة وصل إليها معاوية ..

---

[١] ابن الأثير: الكامل 251/3ـــ253

[٢] العواصم من القواصم 223ـــ224 ، تاريخ الخلفاء 196ـــ197

[٣] الإمامة والسياسة 183/1 ـــ 190

[٤] الطبري : السابق 303/5ـــ304

– أنه من الأولى بنا أن نستبعد تلك الرواية التي تزعم أن معاوية حصل على بيعة هـؤلاء النفر بخدعة محكمة وتحت تهديد الحراس بسيوفهم المشرعة ، وهم واقفون في المسجد الحرام يحيطـون بهم أمام جمهور المسلمين الذين ترميهم هذه الرواية بالغفلة والعمى ؛ حتى لم يروا ولم يشعروا بما يدور حولهم ، أو ترميهم بالخور والجبن مثلما ترمي به هؤلاء الرجال الكرام ؛ حـتى تُنتزع موافقتـهم ويُكذب عليهم فلا ينطقون خوفاً من الموت .. وهي بعد ذلك تبدو ولا هدف لها إلا إظـهار بيعـة الحجاز ليزيد وكأنها عمل غير شرعي ؛ جاء نتيجة تسلط الإرهاب والخوف ، ولذا فقـد وصفـها فلهوزن بأنها رواية " مصنوعة صنعاً ماهراً وأنها شيء مجهول تماماً في الروايات القديمة فلا توجد عنـد الطبري أو المسعودي [١] ، كما " لا يبدو أنه مما يتفق مع شيمة معاوية وهو السيد الحليم ذو السن ، أن يذهب إلى الحجاز في فترة يسود فيها السلام على رأس ألف فارس لكي يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة الفظة ، ثم يدللهم ويتودد إليهم ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر ، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شيء في الحقيقة "ـ إذ ظل المعارضون على معارضتهم يترقبون موت معاويـة واسـتخلاف يزيـد ليظهروا حقيقة موقفهم ـ " والكلمات والمناظر المسرحية التي قد زُينت بها القصة لا تجعلها أقـرب إلى التصديق " [٢] ، ويعضد من كل ذلك أن اليعقوبي نفسه وهو شيعي متحامل على بني أمية قـد روى رواية جديدة تختلف عما سبق يزعم فيها أن ابن عمر لما دُعي إلى البيعة ليزيد قال : نبايع لمن يلعـب بالقرود والكلاب ، ويشرب الخمر ويظهر الفسوق فما حجتنا عند الله ؟ ثم قال اليعقـوبي" وحـج معاوية تلك السنة فتألف القوم ولم يكرههم على البيعة " [٣] ، ولو وجد اليعقوبي ـ وهو مؤرخ مبكـر ـ وجهاً لاتهام معاوية بإكراه أبناء الصحابة لسارع بإثباته في تاريخه ..

ـ أما بشأن موقف عبد الله بن عمر الذي تضاربت الروايات بشأنه حتى زعم اليعقوبي عنه ما زعم في روايته الآنفة وزعم الآخرون أنه كان من المقهورين على البيعة ، فقد روى البخـاري ـ وهو عمدة المحدثين الصادقين ـ أن ابن عمر بايع يزيد ، وانه استمسك بهذه البيعة حتى بعد وفـاة معاوية واستخلاف يزيد وثورة أهل المدينة عليه في موقعة الحرة ، وأنه رفض المشاركة في هذه الثـورة ، ونهى أهله وأتباعه عن خلع يزيد [٤].

وقد زعم الرواة والمؤرخون بعد ذلك ـ ليعضدوا ما ذهبوا إليه من استكراه زعماء الحجاز على البيعة ليزيد ـ أن معاوية قال في فراش الموت لابنه يزيد يوصيه : " وإني لا أتخوف أن ينـازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش ، الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبـد الله

---

[١] فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 93

[٢] السابق 140

[٣] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي 159/2

[٤] البخاري : صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ابن حجر :فتح الباري ٦٨/١٣-٦٩

ابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر[١] ، وهي رواية يتضح كذبها حين نسترجع ما فات من أن بيعة ابن عمر بيعة صحيحة أصرّ عليها رغم كل الظروف ، وحين نعلم أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل موت معاوية[٢] ، وما جعل هذه الرواية تشيع إلا رغبة بعض المؤرخين في التدليل على بعد نظر معاوية ودهائه ، فأحيوا من أجل ذلك الموتى ، وشككوا في بيعة رجل كابن عمر !

خامساً : استقرار فكرة توريث الخلافة فيما بعد :

رغم ما تقدم من سرد لظروف الدولة والمجتمع التي دفعت بمعاوية إلى التفكير في توريث الخلافة والبيعة لابنه يزيد بولاية العهد ؛ فإننا سوف نظل نجد شبهات هنا وهناك تثار حول استيلاء معاوية على الخلافة وتوريثها لابنه رغم معارضة الأمة التي نجح في ترويضها بالحيلة والدهاء أو باستعمال الأموال إلى آخر ذلك الغبار الكثيف من الشبهات ..

ولكن لأحداث التاريخ رأي آخر .

١- معاوية بن يزيد يرد الأمر شورى بين المسلمين :

فقد مات معاوية سنة 60 هـ ، ومات بعده ابنه يزيد سنه 64هـ ، فتولى الخلافة بعده ابنه معاوية بن يزيد ، وكان فيما يقال ابن ثنتين وعشرين سنة[٣] ، فبايع له الناس ، وأتته بيعة الآفاق إلا ما كان من ابن الزبير وأهل مكة ، فتولى ثلاثة أشهر ؛ وقيل أربعين ليلة[٤] ، وكان مريضاً لا يستطيع الصلاة بالناس ؛ فكان يأمر الضحاك بن قيس الفهري أن يصلي بهم[٥] ، وما لبث أن مات ولم يستخلف أحداً فترك الأمر مرة أخرى شورى بين المسلمين ..

وكان موته السريع فرصة مواتية لأعداء الأمويين من رواة ومؤرخين فادعوا أنه مات مسموماً[٦] ، وكأنه حتم على الخلفاء أن يعمّروا ، وقد مات أبوه من قبل ولم يكمل أربعين سنة[٧] ، وادعوا أنه ألقى خطبة في الناس يذم فيها آباءه وأجداده وينتصر للشيعة وآل البيت ، فزعموا أنه قال : " أيها الناس إنّا بلينا بكم وبُليتم بنا ؛ فما نجهل كراهيتكم لنا وطعنكم علينا ! ، ألا وإن جدي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله وأحق في الإسلام ، سابق المسلمين وأول المؤمنين ، وابن عم رسول رب العالمين ، وأبا بقية خاتم المرسلين، فركب منه ما

---

[١] الطبري : السابق 322/5ـــ323 ، ابن الأثير: الكامل 259/3ـــ260

[٢] ابن الأثير : الكامل 260/3 ، الإمامة والسياسة 191/1

[٣] المسعودي : مروج الذهب 82/2

[٤] ابن سعد : الطبقات الكبرى 39/5 ، الطبري : السابق 503/5

[٥] ابن سعد · السابق 39/5

[٦] الطبري : السابق 531/5 ، المسعودي : مروج الذهب 82/3

[٧] راجع الطبري السابق 499/5

تعلمون ، وركبتم منه ما لا تنكرون ، حتى أتته منيته وصار رهناً بعمله ، ثم قلّد أبي وكان غير خليق للخير ، فركب هواه واستحسن خطأه ، وعظم رجاؤه فأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل ، فقلّت منعته ؛ وانقطعت مدته ، وصار في حفرته رهيناً بذنبه ، وأسيراً بجرمه ، ثم بكى وقال : إن أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه ، وقد قتل عترة الرسول ﷺ وأباح الحرمة وحرق الكعبة ، وما أنا بالتقلد أموركم ولا المستحل تبعاتكم فشأنكم وأمركم" [١]

وإن هذه الخطبة لتفوح منها رائحة التشيع والوضع ، ولا يعقل أن يقف شاب في مقتبل العمر ، تربى عمره كله في الشام وتولى الخلافة فعلاً وقبل ولاية العهد ليطعن في دين جده وأبيه ومكانتهما ، ويحمل على أهل الشام في بلدهم ، وينعى عليهم تأييدهم للسالفين من أهل بيته ، مقابل أن يعلي من شأن أهل البيت ؛ ويدعي لهم وحدهم حق الخلافة على المسلمين، ويقرر رأى الشيعة وفكرهم ؛ على هذا الشكل الواضح الذي يدل على هوية واضعي هذه الروايات وأمثالها واتجاههم ، وكان الأولى ألا تجد هذه الخطبة الموضوعة مكاناً في كتب بعض مؤرخينا البارزين كما حدث [٢]، وليس غريباً أن نجد الطبري والمسعودي وغيرهما من المؤرخين المبكرين قد أهملوا ذكر هذه الخطبة ، ويقتصرون على القول بأنه لما ثقل وحضرته الوفاة قيل له : لو عهدت إلى رجل عهداً واستخلفت خليفة ، فقال : "والله ما نفعتني حياً ، فأتقلدها ميتاً ؛ وإن كان خيراً فقد استكثر معه آل أبي سفيان ، لا تذهب بنو أمية بحلاوتها وأتقلد مرارتها ، والله لا يسألني الله عن ذلك أبداً " [٣] ، أو القول بأنه بعد ولايته خطب فقال : " أما بعد ؛ فإني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ؛ فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ، حين فزع إليه أبو بكر، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم " ، ثم دخل منزله ، ولم يخرج للناس ؛ وتغيب حتى مات [٤].

وإذا كان معاوية أول الخلفاء الأمويين قد حول الخلافة من الشورى إلى الملك ، فإن حفيده معاوية الثاني ، ثالث خلفاء الأمويين أيضاً ، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة .. وإنه لمما يستوجبه الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط ..

٢- كيف تلقت الأمة الفرصة الجديدة ؟

---

[١] اليعقوبي : السابق 183/2 ــ184، الكندي : ولاة مصر وقضاتها 45ــ49 ، ابن العبري :مختصر تاريخ الدول190ــ191 ،الدميرى :حياة الحيوان54/1

[٢] د.حسن إبراهيم :تاريخ الإسلام السياسي 293/1 ، د.حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 103 ــ104

[٣] ابن سعد الطبقات الكبرى 39/5 ، وانظر المسعودي · مروج الذهب82/3

[٤] الطبري السابق 530/5ــ531

فهل استطاعت الأمة التي أعطيت حقها في اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق في عصر الراشدين ؟؟ لقد دخلت كل الفعاليات المؤثرة في المجتمع الإسلامي في اختبار للقوة بهدف فرض سيطرتها كاملة وحقها في اختيار الخليفة بما يحفظ مصالحها ومكانتها وامتيازاتها ..

فقد برز دور عبد الله بن الزبير الذي كان محصورا بمكة ، تحوطه جيوش الأمويين ، فلما بلغهم موت يزيد وتنازل معاوية ابنه انسحبوا إلى الشام ، وانفرد ابن الزبير بسلطان الحجاز ، وكان عبيد الله بن زياد بالعراق عاملا عليها ليزيد بن معاوية فلما بلغته التطورات الأخيرة بالشام عرض على أهل البصرة أن يولوا عليهم من أحبوا حتى تستقيم أمور الشام في منهج شوري رائع فأصروا على البيعة له دون غيره ، فقبلها بعد تمنع ، وأرسل إلى أهل الكوفة بمثل ذلك فأبوا بيعته ، وانتقض عليه أهل البصرة الذين بايعوه منذ قليل ، وكانت فتنة بالعراق انسحب معها ابن زياد إلى الشام ، وانضمت العراق إلى سلطان ابن الزبير [1] ..

أما الشام موطن الخلفاء الأمويين فقد انقسمت على نفسها فبايعت ثلاثة أجناد من أجنادها الأربعة لابن الزبير وهي قنسرين وحمص وفلسطين ، وظلت دمشق حاضرة الخلافة مترددة في ولائها تبعا لتردد زعيمها الضحاك بن قيس الفهري ، حتى استقر أمرها على مبايعة ابن الزبير أيضا . بينما شذت ولاية الأردن موطن الكلبيين عن ذلك الإجماع ، وظلت على ولائها للأسرة الأموية ؛ تبحث عن بديل صالح للخلافة [2] ، وانضمت مصر أيضا بعد معركة محدودة إلى طاعة ابن الزبير [3] ، واصطبغت الدولة كلها بالصبغة الزبيرية ، ولم يبق للأمويين معقل إلا في الأردن ، ولا أنصار إلا قبيلة كلب [4] ..

وهنا نلحظ بوضوح بروز دور العصبية الإقليمية والقبلية التي استطاعت أن تحسم في النهاية الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموي .. فقد كان الحصين بن نمير قائد جيش الأمويين المحاصر لابن الزبير بمكة ، فلما علم بموت يزيد والفراغ الذي أصاب القيادة في الشام دعا إليه ابن الزبير ، فلما التقيا كان هدف الحصين ينصب على الاحتفاظ بالخلافة في الشام دون غيرها ، فقال لابن الزبير: " إنك أحق الناس بهذا الأمر اليوم ؟ فهلم فلنبايعك ثم اخرج معنا إلى الشام ، فإني من أهله بمكان قد عرفته ، والجند الذي معي أشراف أهل الشام ووجوههم وفرسانهم ؛

---

[1] راجع الطبري : السابق5/504—530

[2] الطبري : السابق 5/531 —532 ، وقد قيل أيضا إن الضحاك كان يدعو إلى نفسه لا إلى ابن الزبير (السابق 5/535) ..

[3] د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص 105

[4] السابق ص 107

فليس يختلف عليك منهم اثنان ، والشام معدن الخلافة اليوم ، إذ نقلها الله إليه " ، غير أن ابن الزبير رفض هذا العرض، وأصر على البقاء في مكة ، والقصاص لقتلى أهل المدينة بموقعة الحرة ، فتركه الحصين وخرج إلى المدينة ، فأرسل إليه ابن الزبير يقول : " أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً ، وأكره الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لي هناك ، فإني مؤمّنكم وعادل فيكم " ،فقال له الحصين : أرأيت إن لم تقدم بنفسك ، ووجدت هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت (يعني بني أمية) يطلبونها ويجيبهم الناس ، فما أنا صانع ؟ [1] .

وروى المدائني أن الحصين دعا عبد الله بن عمر إلى مثل ما دعا إليه ابن الزبير فأبى وقال . لست من هذا الأمر في شيء " [2]

إن هذا التمسك باستمرار الشام مركزاً للخلافة لم يكن أمراً عاطفياً غير مبرر ، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة ، أثبتت الأيام صدقها ، بمقدرة الشام على تحقيق الحسم التاريخي ، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلي اليماني والوجود الأموي بها ، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأبناء الشام من هزات عنيفة ، وتشقق مريع ، حيث أفرزت الأحداث السياسية السريعة آنذاك صراعاً عنيفاً بين القبائل القيسية واليمانية ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية العربية بعد ذلك .

فقد بايع القيسيون في شمال الشام ابن الزبير المرشح الوحيد الظاهر القوة والقبول في هذه المرحلة ، وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاك بن قيس الفهري إليهم ، وهو الرجل الذي أمضى تاريخه كله في الشام وفي خدمة معاوية وابنه يزيد ، والذي كان يُشرف آنذاك على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني .. بينما تشبث الكلبيون ـــ رغم الضعف الظاهري لموقفهم في ظل هذه البيعة الجماعية لابن الزبير حتى من إخوانهم الشماليين بالشام ـــ بولائهم لبنى أمية تحدوهم في ذلك روابط القربى والمصاهرة بينهم وبين الأمويين منذ تزوج معاوية منهم [3] ، وتربى فيهم يزيد .. ولكن الكلبيين فيما عدا ذلك يختلفون ، فبينما يهوى بعضهم البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية ، وهو غلام صغير السن ، يستنكف بعضهم من البيعة لغلام ـــ في الوقت الذي يدعو فيه الآخرون إلى شيخ قريش عبد الله بن الزبير ـــ ويفضل هذا الفريق البيعة لمروان بن الحكم ، وبعد محاولات لرأب الصدع بين القيسية واليمنية اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية [4] ، للتشاور والاتفاق ، فسار الكلبيون

---

[1] راجع البلاذري : أنساب الأشراف 52/4 ، 25 ، الطبري : السابق 502/5

[2] البلاذري : السابق 52/4

[3] الطبري : السابق329/5 ، حيث تزوج معاوية ميسون بنت بحدل الكلبية أم ولده يزيد ، كما تزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ولكن طلقها قبل أن يدخل بها

[4] الجابية بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفر شمالي حوران (ياقوت معجم البلدان ٣٣/٣

والأمويون إلى هناك ، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك بن قيس على رأيه فأطاعهم ومال نحو مرج راهط [1].

٣- الممارسة الشورية في مؤتمر الجابية :

وفي الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة ، "وكان مؤتمر الجابية مؤتمراً تاريخياً يمكن أن يوصف بلغة السياسة الحديثة بأنه كان مؤتمراً دستورياً ، وقد حضره ممثلو الرأي العام في الأمة ليتشاوروا ؛ لعلهم يصلون إلى قرار ينهون به الأزمة القائمة ، ويحسمون الخلاف ، ويحفظون كيان الأمة ويصونون مستقبلها ، وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر الأمة لا من قبل الحكومة ، ولا بإكراه من سلطه رسمية ، فهو مؤتمر ديمقراطي شعبي " [2] ..

ونستطيع أن نلمح صورة لهذه التجربة الشورية الفريدة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين للخلافة غير بني أمية قد عرضت للبحث ، ولكن رجحت كفة مروان لعوامل عديدة ، كما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامي أحد زعماء الشام حيث قال :" أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله ﷺ ، وقدمه في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ، وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، ويدعون إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ؛ إنه لابن الزبير ؛ حواري رسول الله ﷺ ، وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق ، ذات النطاقين ، وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق (!!) قد خلع خليفتين ، يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس بصاحب أمر أمة محمد ﷺ المنافق ، وأما مروان بن الحكم ، فو الله ما كان في الإسلام صدع قط إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ؛ وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ، ويستشبوا الصغير" ، يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية ، فاجتمع رأى الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد [3].. فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات ..

ولكننا نلمح أيضاً العامل القبلي يبرز في أثناء هذا التشاور بالشام كما رأيناه في مفاوضات الحصين وابن الزبير بالحجاز حيث قال مالك بن هبيرة السكوني للحصين بنى نمير: هلم فلنبايع لهذا

---

[1] الطبري : السابق 5/531—534

[2] د. الريس : عبد الملك بن مروان ص 39 —40 ، والمراد بالأمة هنا قيادات الشام من أهل الشوكة والعصبية أو أهل الحل والعقد ، لا كل الأمة ولا جميع قياداتها ..

[3] الطبري 5/536 — 537

الغلام الذي نحن ولدنا أباه ، وهو ابن اختنا (يعنى خالد بن يزيد بن معاوية) ، فقد عرفت منزلتنــــــ كانت ـــ من أبيه ، فإنه يحملنا على رقاب الناس غدا ، فقال الحصين : لا لعمر الله لا يأتينا العـــرب بشيخ ونأتيهم بصبي : فقال له مالك : والله لئن استخلفت مروان وآل مروان ليحســــدنك علــى سوطك وشراك نعلك ؛ وظل شجرة تستظل بها ، وإن مروان أبو عشيرة ، وأخو عشـــيرة ، وعـــم عشيرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيدا لهم ، ولكن عليكم بابن أختكم خالد بن يزيد "[1] ..

إن هذه الرواية ـــ إن صدقت ـــ لتوضح لنا مدى تغلغل العصبية القبلية والنفعية السياسية عند بعض قيادات الشام القادرة على الفعل والتأثير[2] ، ومن حسن الحظ ، ومن دلائل تمكن قيم الإيمان في الأمـــة ، أن انتصرت إرادة الخير ومصلحة الجماعة في نهاية الأمر .

وبعد أن استقر رأى المتشاورين على البيعة لمروان بالخلافة اتجهوا لقتال الضحاك بن قيـــس وأنصاره من القيسية المؤيدين لابن الزبير في مرج راهط ، ورغم القلة العددية الظـــاهرة لمعســـكر الكلبيين والأمويين[3] ، فقد انتصروا انتصارا حاسما ، وبضربة واحدة عادت الشام من جديد تحـــت الحكم الأموي ، وبدأ مروان حركة نشيطة استعاد بعدها مصر[4] ، وأوفد جيوشه يقودها ابن زيـــاد نحو العراق[5] ..

وهكذا كان من أبرز نتائج مرج راهط أن " نجح مبدأ التوارث في فرض أهميته ، وأصبـــح من مصلحة الأمة في واقع الأمر أن يتولى أمرها شخصيات قوية تستطيع بقوتها وحزمـــها أن تجمـــع شتات هذه الأمة في إطار واحد طابعه العمل لتحقيق أكبر قدر ممكن من الخير المشترك "[6]..

ومن هذه الشخصيات القوية التي أخرجها لنا ذلك النظام بعد مروان ابنه عبد الملك، وأبنـــاء عبـــد الملك الوليد وسليمان وهشام ، وعمر بن عبد العزيز ، الذين طالت مدة ولايتهم حتى شملت أكـــثر عمر الدولة الباقي لها بحيث لم يحكم الخليفتان الموسومان عند المؤرخين بالضعف ـــ يزيد بـــن عبـــد الملك والوليد بن يزيد ـــ إلا حوالي خمس سنوات وقد عرفنا من قبل سر اتهام المؤرخين لهما ومـــدى نصيب ذلك الاتهام من الصحة ..

---

[1] السابق 536/5 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 41/5 حيث ينسب هذا القول لحسان بن مالك الكلبي بدل مالك بـــن هبيرة ..

[2] وانظر ما اشترط الحصين بن نمير من مزايا خاصة على مروان كي يعطيه تأييده ولكنها مزايا لم تكن مضمونة على أية حال (الطبري 544/5)

[3] قيل إن عدد جيش مروان كان ثلاثة عشر ألفا أكثرهم رجالة؛ بينما كان القيسيون في ثلاثين ألفا مجهزين (ابن ســـعد : السابق 41/5ـــ42)

[4] الطبري : السابق 540/5

[5] الطبري : السابق562/5

[6] د. حلمي : الخلافة من الدولة في العصر الأموي 113

٤- اتجاهات لتغليب مصلحة الأمة ضمن نظام توريث الخلافة :

وكان من نتائج مرج راهط أن أثبتت تفوق العصبية الشامية على ماعداها ، وإصرارهـا على الاحتفاظ بالخلافة الإسلامية في الشام ، حتى أن عمر بن عبد العزيز الذي كان يود لو استخلف القاسم بن محمد أو ميمون بن مهران [١] ، لم يستطع تنفيذ ذلك ، لما كان يعلمه مـن رفـض ذلـك الاقتراح من بني أمية وأنصارهم من أهل الشام وقياداته ، فأشفق أن يمضي رغبته فترتد الأمة إلى فتنة عمياء تسيل فيها الدماء .

وفي داخل ذلك الإطار الذي يشترط كون الخليفة أمويا وكون مقره الشام كان يمكـن أن نرى تلك اللمسات التغييرية التي تفضل مصلحة الأمة وتختار أنسب الرجـال للخلافـة ، فقـد أبى سليمان بن عبد الملك أن يستخلف ولده وفضل عليه عمر بن عبد العزيز ، وكان في ذلـك مصغيـا لمشورة عالم أهل الشام ومستشاره رجاء بن حيوه [٢] ، كما استخلف يزيد بن عبد الملك أخاه هشاما ، ورفض أن يعهد إلى ولده الصغير الوليد بن يزيد ، ولما شب الوليد في حياة أبيـه لم يرجـع عـن استخلافه الأول ، ثم إنه لما شاع عند بني أمية وأهل الشام ما نسب إلى الوليد بن يزيـد مـن لهـو واستهتار خرجوا عليه وقتلوه ، مستخلفين ليهم قائد الثورة وابن عم الخليفة : يزيد بن الوليد بـن عبد الملك ، وقد ظل سلطان بني أمية راسخا ما ظلت عصبية الشام قوية ، فلمـا تفسـخت هـذه العصبية في أواخر عهد الدولة وحارب بعض الشاميين بعضا ــ منذ ثار بعضهم على الوليد بن يزيـد ــ اهتز سلطان بني أمية ؛ وظهر الخلل في دولتهم ، وتمكن أعداؤهم من بعض أجزائها ، حـتى إذا جاء مروان بن محمد فنقل هذه الخلافة الأموية عن الشام إلى حران في الجزيرة ــ التي كانت إمارتـه من قبل وموطن عصبيته القيسية [٣] ــ صار بقاء الخلافة الأموية ذاتها في خطر ، وأصبحـت نهايتـها وسقوطها مسألة وقت ؛ أو اختلاجات ميت يجود بحشاشة روحه .

٥- مبدأ توريث الخلافة عند أعداء الأمويين :

وإذا كانت معركة مرج راهط ، قد أثبتت ترسخ فكرة ولاية العهد وانتصارها في النهايـة ، فمن الضروري أن نشير هنا إلى أن هذه الفكرة لم تترسخ فقط في بلاد الشام وعند بني أمية ، فقـد كانت ظاهرة كذلك عند الفرق الإسلامية الأخرى .. فقد كانت إحدى ركائز المذهـب الشـيعي الذي يرى توارث الخلافة في آل البيت ، كما نجد الاعتماد على سلاله الخليفة وأهل بيته عند ابـن الزبير الذي يراه بعض المؤرخين راغبا في إعادة سمت الراشدين في الخلافة وإحياء فكـره الشـورى

---

[١] ابن سعد : الطبقات الكبرى 344/5 ، اليعقوبي : السابق 302/2

[٢] الطبري : السابق550/6

[٣] راجع السابق 312/7 ، د. العش : الخلافة الأموية ص 308ــ309

الكاملة في اختيار الخليفة [1] ، فقد ولى ابن الزبير أخاه عبيدة على المدينة ثم عزله لما استبان ضعفه وعدم اقتناع أهل المدينة به حتى سموه ـ استهزاءً ـ "مقوّم الناقة "، وولى بدله أخاه مصعب بن الزبير سنه 65 هـ [2] ، ثم عزل مصعباً عن المدينة وولاه البصرة سنة 67 هـ ، ثم عزله في نفس السنة ، رغم كفايته ـ وولى ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير ، وكان ضعيفاً مخلّطاً ، فاشتكاه أهل البصرة وطلبوا عزله ، وإعادة مصعب ففعل ، وكان حمزة هذا قد تصرف في المال تصرفاً غير حميد ، فلما علم أبوه بذلك قال :" أبعده الله أردت أن أباهي به بني مروان فنكص " [3] ، ثم جمع لمصعب العراق كله، ولم تطل خلافة ابن الزبير أو تتسع رقعتها ـ كما كانت في حالة بني أمية ـ حتى يمكن التأكد من تأثيرات فكرة توريث الخلافة عليه ..

ويشير بعض المؤرخين إلى " ديمقراطية الخوارج " وأنهم يرون كل مسلم أهلا للخلافة ؛ قرشيا أو غير قرشي ما دام مستكملا لشروطها [4]، غير أن هذه " الديمقراطية " في التقييم العملي " لم تكن سوى نظرية جوفاء تناقضت في الصميم مع التطرف الذي التصق بهم ، وانعكس على سلوكهم بشكل عام ، ففي الوقت الذي انتقدوا فيه احتكار قريش للخلافة كانت زعامتهم لفترة ما شبه متوارثة في بني تميم ، رواد التمرد على التحكيم ، ومن ناحية ثانية فإن مما يتعارض وهذا الشكل السطحي للديمقراطية الخوارجية أن تكون جميع الأحزاب مرفوضة لديهم أو موضع طعن في الإيمان بعد أن بالغوا في التعصب لآرائهم وأقفلوا باب الحوار في وجه الآخرين .. وقد عاش الخوارج طوال العصر الأموي وهم يعانون ذلك التناقض بين النظرية الديمقراطية المتطورة وبين الممارسة المتخلفة المصطبغة بالعنف والإرهاب " [5] ، وانعكس اعتزازهم بالرأي وقصرهم الشورى على الفهم النظري على تكوينهم الداخلي وعلاقاتهم ببعضهم ، فأدى ذلك إلى انقسامهم فرقا عديدة يكفر بعضها بعضا، ويقاتل بعضهم بعضا [6] ..

ولما انقضى عهد بني أمية وجاء العباسيون لم يحيدوا عن فكرة ولاية العهد ، ولما انشق عليهم غيرهم في العصر العباسي الثاني أقاموا دويلات مستقلة تقوم على المبدأ نفسه ، واستمر الحال على ذلك حتى في عصرنا الحديث ، فما زلنا نجد من يؤثرون النظام الملكي مع تعديلات فيه تحتفظ بروح الشورى ..

---

[1] د. حلمي : السابق ص 158 ، 166

[2] الطبري : السابق 622/5 ، ابن الأثير : السابق354/2

[3] الطبري : السابق 118/6 ، ابن الأثير : السابق388/3

[4] الشهرستاني : الملل والنحل 107ـ108

[5] د. بيضون : الدولة الأموية والمعارضة ص 41ـ42

[6] د. شلبي :موسوعة التاريخ الإسلامي 270/2 ـ271 ، وانظر ابن الأثير الكامل 352/3ـ354

٦- تأصيل فكرة ولاية العهد عند الفقهاء :

ومن ناحية أخرى نجد جماعة من أكابر فقهائنا المسلمين يؤصلون كرة ولاية العهد فيعتبرونها كانت أمراً ضرورياً ، ثم يفضلونها لاستقرار حال الدولة الفائرة بقواها المتعددة ، يقول ابن خلدون : " والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بني أمية ؛ إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون بسواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع ؛ وأهل الغَلَب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع [1].

ويقارن ابن خلدون أيضاً بين نظام الراشدين والنظام الأموي فيرى أنه في عصر الراشدين " كان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه ، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط ، وآثروه على غيره ، ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه ، وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غاياتها من الملك ، والوازع الديني قد ضعف ؛ واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني ، فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد ؛ وانتقض أمره سريعاً ؛ وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف " [2] ..

ويقول ابن حزم :" فوجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه ؛ أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الإمام إلى إنسان يختاره إماماً بعد موته ، كما فعل رسول الله ﷺ بأبي بكر ، وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز ؛ وهذا هو الذي نختاره ونكره غيره ، لما في هذا الوجه من اتصال الإمامة ، وانتظام أمر الإسلام وأهله ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب ، وما يتوقع غيره من بقاء الأمة فوضى ، ومن انتشار الأمر وارتفاع النفوس ، وحدوث الأطماع " [3] ...

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ٢/ ٦١٣

[2] السابق ٢/ ٦١٣-٦١٤

[3] الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٦٩

الفصل الرابع

موقف الأمويين من المعارضة

مقدمة : بين المعارضة السلمية والثورة المسلحة :

يبحث هذا الفصل في موقف الأمويين من الثورات التي قامت ضدهم وما أثاره المؤرخون من شبهات في هذا الشأن ، مع التركيز بصورة خاصة على مواجهتهم ثورة الحسين بن علي ؛ وموقفهم من آل البيت ...

ويحسن في بداية هذا الفصل أن نذكر الفرق بين نوعين من المعارضة ، أولهما : هو المعارضة السلمية التي تعبر عن مخالفتها نظام الحكم في الرأي أو المبدأ ، مع عدم استعمال القوة المسلحة في التعبير عن ذلك الموقف المعارض ؛ أما النوع الآخر فهو المعارضة المسلحة أو العمل الثوري الذي يتخذ من القوة المسلحة وسيلة للتعبير عن نفسه والإعلان عن مواقفه ..

ومن الخير أن تفرق بين هذين النوعين من المعارضة لأن الإسلام يفرق بينهما ، ولأن السلطة الأموية كانت تفرق أيضاً بينهما كما سوف نرى ...

فالإسلام يجيز المعارضة بمعناها السلمي ، بل ويشجع على ممارستها ، ويحض على إعلانها من خلال تشريعه الخالد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقول الحق ولو كان مراً ، وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة عديدة عارض فيها المسلمون نبيهم ﷺ ؛ في غير أمور التشريع بالطبع [١]، كما عارضوا خلفاءه الراشدين [٢] ، وكانت القيادة المسلمة آنذاك تتلقى هذه المعارضة على أنها أمر طبعي يدخل في نطاق الحرية التي أقرها الإسلام ..

أما حين تتحول هذه المعارضة السلمية إلى ثورة مسلحة تبغي تحقيق أهدافها بالقوة فإن الإسلام لا يقر هذه الثورات التي سينتج عنها تقاتل المسلمين بعضهم بعضاً ، وإراقة دمائهم فيما بينهم ، إلا في حدود ضوابط صارمة تكون فيها هذه الثورة هي طريقة التعبير المتاحة وحدها ، ويكون التغيير أمراً لا مفر منه ؛ حرصاً على قيم الإسلام نفسه وتشريعاته ؛ ولذا فقد عارض المسلمون جميعهم الثورة على الإمام العادل ، كما عارض جمهورهم من علماء أهل السنة والجماعة

---

[١] كما حدث في المشورة التي سبقت خروج المسلمين للقاء عدوهم يوم أحد ، وفي صلح الحديبية (راجع د. أحمد شلبي . السياسة في الفكر الإسلامي ص ٩٠-٩٤ ، وراجع عن المعارضة في الفكر الإسلامي وموقف الفرق المختلفة منها د. نيفين عبد الخالق : المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي) .

[٢] راجع د. شلبي : السابق 94—98 ، وكان أبو بكر وعمر يحضّان في خطبهما المسلمين على تقويم أخطائهما إذا اعوجّا . وقدم عثمان نموذجاً فذاً في تحمل معارضيه حتى قتلوه في ثورة كانت سلمية ثم أصبحت مسلحة .

الثورة على الحاكم الجائر إلا في حدود خاصة وإن أقرها الخوارج وبعض المعتزلة وبعض الشيعة من الزيدية ، وهذه المعارضة الفقهية لا تعني الإقرار بجور الحاكم بل الشفقة من ثورات لا طائل من ورائها إلا إراقة الدماء وتفريق الأمة ، لذلك فهم يضعون لمشروعية هذه الثورة ضوابط عديدة أهمها : أن تكون الثورة تحت قيادة عادلة ، وأن تكون قد استكملت سبل الإعداد ، واستوثقت من أسباب القوة ، بحيث تكون قادرة على إحداث التغيير المطلوب بأقل خسائر ممكنة ، وأن لا تتسبب في نشوء منكر أكبر مما حاولت إزالته ؛ يتمثل في قتل مزيد من المسلمين وتعريض آخرين لظلم أفدح مما كان واقعاً عليهم من قبل ..

ولذلك فإننا نجد كثيراً من الآيات والأحاديث التي تحض على طاعة أولي الأمر في الدولة الإسلامية ؛ وتمنع من التعجل في الثورة والخروج على الجماعة ؛ من ذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [١] ، وقول الرسول ﷺ : "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني" [٢] وقوله ﷺ فيما روي عن ابن عباس : " من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، ومن فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية " وفي رواية أخرى : " فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه " [٣] .

وفي ذلك يقول ابن تيمية " ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه ، بحيث يخرج عليهم (أي على الحكام) بالسلاح وتقام الفتن ، كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة ، وكما دلت عليه النصوص النبوية ، لما في ذلك من الفساد الذي يربي على فساد ما يكون من ظلمهم ، بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم ، ويفعل ما أمر به ، ويترك ما نُهي عنه " [٤] ، ويقول الحافظ ابن حجر: " الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على أمر خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب ؛ وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم : لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء ، فإن أحدث جورا بعد أن كان عدلا فاختلفوا في جواز الخروج عليه ؛ والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه " [٥] ..

---

[١] سورة النساء ، آية 59

[٢] البخاري : الصحيح ، كتاب الجهاد والسير، أحمد : المسند ، باقي مسند المكثرين ..

[٣] البخاري :الصحيح ، كتاب الفتن ،، مسلم : الصحيح ، كتاب الإمارة ، البيهقي : السنن الكبرى 157/8 ، ابن حجر : فتح الباري 121/13، ابن أبي العز الحنفي: شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ص 314ـــ316 ،

[٤] ابن تيمية : مجموع الفتاوى 21/35 .

[٥] ابن حجر : فتح الباري 8/13 وانظر أيضا 7/13 ، وراجع الجويني: غياث الأمم 56ـــ57 ، الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد 105-107 ، وانظر في رأي الفرق الإسلامية في هذه المسألة : د.مصطفى حلمي : نظام الخلافة في الفكر الإسلامي 144 ، د . الريس : النظريات السياسية الإسلامية 305 وما بعدها .

المبحث الأول

موقف الأمويين من المعارضة السلمية

وكذلك كان الأمويون يفرقون بين المعارضة السلمية والمسلحة ؛ فهم يطلقون حرية الكلام والتعبير عن الرأي مادام ذلك في حدود تعاليم الإسلام ومصلحة الأمة [1] ، أما إذا انقلب الأمـــر إلى حمل السلاح وسلّ السيوف في وجه السلطة فإن الأمويين لا يجدون مفراً من مواجهة هذه الثـــورات والقضاء عليها ، وقد تمكنوا بذلك من المحافظة على وحدة الدولة الإسلامية تحت نظام حكم واحـــد ، وهو مطلب إسلامي أساسي لم يمكن الحفاظ عليه بعدهم على نحو كامل .

إن بني أمية يحددون موقفهم من المعارضة والثورة على نحو واضح لا لبس فيه ، فقد كـــان معاوية يقول : " إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا " [2] ، وقال عامله على العراق زياد بن أبي سفيان في خطبته لأهل البصرة " إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل لم أناظره " [3]، ويقول عـــن أحد معارضيه : " لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج عليّ " [4] ..

وإن الأخبار عن حلم خلفاء بني أمية وولاتهم على معارضيهم لتتعدد وتترى ، حتى تعطـــي الدليل القاطع على أن الأمويين لم يكونوا يرون العنف بمعارضيهم ، ما دامت معارضتهم لم تتحول إلى ثورة تهدد سلامة المجتمع وقيادته ، وقد مرت بنا أدلة كثيرة على إيمان الأمويين بالشـــورى وأهميتـــها وممارستهم العملية لها .. ولقد كان الواحد من الرعية يجهر أمام الخليفة الأموي في غلظة بما يســـوءه ؛ ويعنف معه في النصيحة أو النقد ، فما ينقله ذلك عن سمت الحلم ، وتفضيل الرفق على ما ســـواه .. وذلك الحلم لا يقابلنا فقط إن كان المعارض زعيم قبيلة أو شيخ طائفة ، يُخشى بأسه ويرجى رضاه ، لكنه يقابلنا أيضاً فيما لو كان النقد صادراً من امرأة من نساء العرب [5] ؛ أو واحد من عرض الرعية ؛ أو أحد خصوم الأمويين التقليديين ومنافسيهم ؛ أو شاعر من الشعراء العديدين ؛ حـــادّ اللســـان ، خصب الخيال ، قوي الشكيمة ...

---

[1] ولا تعارض بين الأمرين ؛ فحيثما كانت المصلحة فثمّ شرع الله ؛ وليس من هذا ولا ذاك تلك الآراء الشاذة التي عبر عنها أمثال غيلان القدري ومعبد الجهني وبنان بن سعيد وغيرهم من المخالفين لتعاليم الإسلام ومذهب السلف في فـــهم الذات والصفات .

[2] الطبري : السابق 336/5

[3] السابق 220/5

[4] السابق 236/5

[5] راجع ابن عبد ربه . العقد الفريد فصل تحت عنوان " الوافدات على معاوية " 102/2 — 121

لقد وقف الأحنف بن قيس ــ فيما يروي الرواة ــ يوما ليقول لمعاوية مجــاهرا : والله يــا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادهــا ، وإن تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا ، وإن تمشي إليها نهرول إليها ... ثم قام فخرج ، وكانت أخــت معاوية من وراء حجاب تسمع كلام الأحنف فقالت في دهشة :" يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتــهدد ويتوعد ؟ فقال : " هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميــم ؛ لا يــدرون فيــم غضب " [1]

ودخل أبو بردة بن أبي موسى الأشعري يوما على معاوية فقال يا أمير المؤمنين إن عتبة الأسدي قال فيك

معاوي إننا بشــر فأسجح	فلسنا بالجبــال ولا الحديد
أكلتم أرضنا وجردتمونــا	فهل من قائم أو من حصيد
فهبنــا أمة هلكت ضياعا	يزيد أميرها وأبو يزيـــد

إلى آخر هذه الأبيات التي تحوى نقدا مرا وهجوما عنيفا على معاوية والأمويين ، فقال أبو بردة . مــا يمنعك يا امير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه ؟ فقال معاوية : أفلا خير من ذلك ؟ قال ومــا هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : نجتمع أنا وأنت ؛ ونرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه [2]

وهجا الفرزدق معاوية ، بل افتخر عليه بنسبه وآبائه وذلك لغرض شخصي . حيث أعطى معاويه عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعي ــ وكان ضمن وفد أتى معاوية ــ جائزة أقــل مــن الآخرين . ولما مات الحتات في الطريق أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال ، فقال الفــرزدق يخاطب معاوية

فلو كان هذا الأمر في جاهليـــه	علمت من المرء القليــل جلائبه
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم	لأبديته أو غص بالماء شــاربه
وكم من أب لي يا معاوي لم يكن	أبوك الذي من عبد شمس يقاربه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته [3]

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له .. ولما مات نعوه وأشادوا به [4] ، وكان كثيرا ما يقول " إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظــم مــن

---

[1] ابن خلكان : وفيات الأعيان 186/2 ـــ 187

[2] د.الحوفي . أدب السياسة في العصر الأموي 249ــ250

[3] ديوان الفرزدق ٤٥ ، الطبري . السابق 5/ ٢٤١-٢٤٤ الحوفي السابق 250

[4] وقد مر بنا أمثلة لذلك ، وراجع الأصفهاني الأغاني ١٧/٢١٢-٢١٣ ط دار الكتب

عفوي ، وجهل أكثر من حلمي أو عورة لا أواريها بستري ، أو إساءة أكثر من إحساني " [1] ، وكان ينشد أحيانا قول النعمان بن المنذر :

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها

ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها

إلا ليعرف فضلها ، ويخاف شدة نكلها [2]

ولقد هجا يزيد بن مفرغ الحميري بني زياد بن أبي سفيان هجاء مقذعا وسب أمهم ، وثلب معاوية ، ورمى أباه بالزنا ، فطلبه بنو زياد ليسطوا عليه ؛ ففر إلى معاوية فعاتبه ، ثم عفا عنه ، ولم يزد على ذلك [3]..

وقد تأسى خلفاء معاوية بسيرته في الرفق بالمعارضين والعفو عنهم طالما كانت معارضتهم سلمية بلا ثورة أو عنف .

وقد تركزت المعارضة للأمويين في العراق على نحو خاص ، فكان لابد أن تحتل مكانة خاصة في تفكير الخلفاء الأمويين وتحديد موقفهم منها ، ولا تعدو خطب زياد والحجاج العنيفة بالعراق إلا تحذيرا وإرهابا للمرجفين والمنحرفين عن الطاعة والجماعة ، ولا نصادف مثل هذا العنف في بقية الأمصار ، ولذلك فقد قال عبد الملك بن مروان للحجاج لما أرسله واليا على العراق ، وكان قبلها عاملا على الحجاز : " فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل منها أهل البصرة ، وإياك وهوينى الحجاز ، فإن القائل هناك يقول ألفا ، ولا يقطع بهن حرفا " [4] ..

---

[1] الطبري : السابق 335/5

[2] المسعودي : مروج الذهب 57/3 ــ 58

[3] راجع القصة كلها في الطبري : السابق 317/5 ــ 321 ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء 322 ، ابن الأثير: الكامل 257/3

[4] اليعقوبي : السابق 16/3

المبحث الثاني

موقف الأمويين من الثورات ضدهم

تعددت الثورات التي قام بها المعارضون لبني أمية ، منها ما قام به الشيعة مثل ثورة حجر بن عدي الكندي سنة ٥١هـ وثورة الحسين بن علي ﷺ سنة ٦١هـ وحفيده زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١هـ ، وابنه يحيى بن يزيد سنة ١٢٥هـ ، ومنها ما قام به الخوارج طوال تاريخ الدولة الأموية ، حيث لم تعرف ثوراتهم الهدوء أو الموادعة [١] ، ومنها ثورة أهل المدينة في موقعة الحرة في عهد يزيد بن معاوية ، وثورة عبد الله بن الزبير التي استمرت طوال عهد يزيد ومروان حتى قضى عليها عبد الملك بن مروان وقائدة الحجاج ، ومنها ثورة العباسيين الذين اتخذوا من شرق الدولة في خراسان مركزا لدعايتهم وتنظيم صفوفهم حتى تمكنوا من النصر في النهاية على الأمويين وإزالة دولتهم ؛ وغير ذلك .

ولقد واجه الأمويون هذه الثورات المختلفة بقوة وحزم ونجحوا طوال تاريخهم في الحفاظ على الوحدة السياسية للدولة الإسلامية الشاسعة المساحة والمختلفة الأجناس والألسنة والألوان ...

ولما كان من الصعب تناول كل هذه الثورات في صفحات هذا البحث ؛ وبيان موقف الأمويين منها وبحث شبهات المؤرخين حول استخدام الأمويين العنف في مواجهة خصومهم المظلومين والمقهورين — على حد وصفهم — ورميهم بني أمية بالظلم والاستبداد السياسي ، لما كان من الصعب تناول كل ذلك فإنه من الأجدر بنا أن تناول أخطر تلك الثورات التي تركت ظلالها السيئة على تاريخ الأمويين ، والتي كانت معالجة الأمويين لها موضع تشنيع ضدهم ، واقام لهم ، مثل ثورة أهل المدينة ، وثورة عبد الله بن الزبير ، أما ثورة الحسين — أسبق هذه الثورات — فهي جديرة بتحليل خاص يتناول ظروفها ومسارها وموقف الأمويين منها ونتائجها ، وذلك نظرا لما لها من أهمية خاصة في تكوين النظرة المعادية لبني أمية ؛ ويتصل بها حديث عن حقيقة موقف الأمويين من آل البيت ..

---

[١] اللهم إلا في فترة يسيرة خلال حكم عمر بن عبد العزيز

أولا : ثورة الحسين بن علي رضي الله عنه :

ولد الحسين بن علي في السنة الثانية للهجرة [١] ، فهو من صغار الصحابة ، وقد رويت أثار عديدة تدل على فضله وتعلق الرسول الكريم ﷺ به ، وبأخيه الحسن بن علي [٢] ، ولا نسمع شيئا عن مؤهلاته الإدارية أو السياسية طوال عصر الراشدين ، إلا أنه كان أحد المحاربين في صف أبيه في حروب الفتنة الكبرى ، ولما آثر أخوه الحسن رضي الله عنه تسليم الخلافة إلى معاوية كان الحسين من المعارضين لذلك ، فإنه لما اخبره الحسن أنه كتب إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان " قال له الحسين : نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة علي" ؛ فقال له الحسن : اسكت ؛ فأنا أعلم بالأمر منك " [٣] ..

ولقد كان معاوية دائم الصلة له والبر به [٤] ، فلما أراد الخليفة أن يعهد لابنه يزيد بالخلافة من بعده كان الحسين علي رأس المعارضين لذلك ، وربما كانت له آنذاك صلات ببعض شيعة أبيه بالعراق ، مما دفع معاوية إلى الوصية به لابنه يزيد عند موته حين قال : وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ؛ فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحما ماسة وحقا عظيما [٥] ..

ويبدو أن عدة عوامل قد تجمعت لتشكل موقف الحسين الصلب من رفضه بيعة يزيد بعد وفاة معاوية ؛ منها هذه الدعاية المعادية للأمويين والتي نشطت لتشويه صورة يزيد بن معاوية ولتلصق به صفات الفسق والاستهتار وعدم الكفاية ، وربما أيقن أعداء الأمويين أن الدعاية ضد معاوية عمل عسير لا يأتي بالثمار المرجوة فركزوا على شخصية ولده وولي عهده ، ومن هذه العوامل اعتزاز الحسين بمكانته الأدبية ونسبه الرفيع ، مع تدينه وفضله إضافة إلى ما كان يحسه من تأييد طائفة من أبناء المهاجرين والأنصار بالحجاز له إذا ما امتنع عن مبايعة يزيد ، كما أنه كان واثقا من قوة أشياعه بالعراق ــ الذين حافظوا على صلاتهم به ــ ومناصرتهم له ...

---

[١] ابن حجر : الإصابة 2/٧٦

[٢] الذهبي : سير أعلام النبلاء 3 / ٢٨١-٢٨٤

[٣] الطبري : السابق 160/5

[٤] راجع مثلا ابن كثير : البداية والنهاية 137/8

[٥] لطبري : السابق322/5 ، ورغم ما سبق من شك في تفاصيل هذه الرواية فإن الوصية بالحسين يبدو غير مبالغ فيها من معاوية وهى تنسجم مع شيمه المعروفة ..

١- بداية وقائع الثورة :

بعيد وفاة معاوية كتب يزيد إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يخبره بموت الخليفة ويطلب منه أن يأخذ له بيعة النفر الذين أبوا على معاوية استخلاف ولده ، وعلى رأسهم الحسين بن علي [١] ؛ ويزعم الرواة أن الوليد بن عتبة استشار مروان بن الحكم فيما يفعل ، وأنه أشار عليه أن يرسل إليهم ويطلب منهم مبايعة يزيد ؛ ومن أبي ذلك ضرب عنقه قبل أن يعلموا موت معاوية ويظهروا الخلاف والمنابذة ، وأنه لما أرسل إلى الحسين أعلمه بموت الخليفة وطلب منه بيعة يزيد فماطله الحسين ، واستنظره حتى يجمع الناس للبيعة فإنه سيبايع وقتها علانية، وكان الوليد يحسب العافية فوافقه على ذلك ، ولكن مروان كان يرى أن يحبسه حتى يبايع أو يضرب عنقه ، أما الوليد فقد أصر على رأيه وقال : والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأني قتلت حسينا ، سبحان الله أقتل حسينا أن قال لا أبايع ؟ والله إني لأظن امرأ يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة ، فقال له مروان : فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت [٢] ..

ولا تفسر لنا هذه الرواية التي يرويها هشام بن محمد الكلبي عن أبي مخنف ؛ وكلاهما شيعي كذاب ؛ على نحو مقنع ـ سبب تغيير مروان رأيه ، كما لا تعطى مبررا كافيا لنصحه الوليد بقتل الحسين ، ولا ريب أن عداء الرواة من الشيعة لبني أمية ـ ومروان جد المروانيين منهم ـ قد قادهم إلى تشويه موقفه من هذه الأحداث ، وسوف يتهمونه بعد ذلك بالشماتة في مقتل الحسين هذا على حين تثبت روايات أخرى أن مروان كان من المحذرين ابن زياد من إساءة التصرف حيال الحسين بعد خروجه نحو العراق [٣]، كما أنه كان من الآسفين على قتلة [٤] والباكين عليه [٥] ..

وخرج الحسين تحت جنح الظلام متجها إلى مكة ؛ واستصحب معه بنيه وإخوته وجل أهل بيته ، ولم يشأ أن يتنكب الطريق الأعظم المعتادة ، حتى وصل مكة من غير تتبع ولا منع من بني أمية

---

[١] الطبري : السابق 338/5 وقد تزيدت بعض الروايات فادعت أن يزيد أضاف في رسالة إلى الوليد بن عتبة " .. فمن أبى عليها منهم فاضرب عنقه وابعث إلى برأسه " (ابن أعثم الفتوح 10/5ـ11) ولا ندرى لماذا لم ينفذ الوالي أمر الخليفة ، ولا تسوق الرواية مبررات ذلك ، ولا ريب أنها إحدى أكاذيب ابن أعثم الكوفي ، ففي الرواية ذكر لامتناع عبد الرحمن بن أبي بكر عن البيعة ، وقد مات عبد الرحمن في خلافة معاوية ولم يدرك يزيد ..

[٢] الطبري : السابق 339/5ـ340

[٣] ابن كثير : البداية والنهاية 165/8

[٤] الطبري : السابق 465/5

[٥] الأصفهاني مقاتل الطالبيين ص 90

أو واليهم على المدينة [١]، وروى الواقدي أن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وابن الزبير في طريقهما إلى مكة ، وكانا هما قادمين منها إلى المدينة فسألاهما عما وراءهما ، فقالا : قد مات معاوية ؛ والبيعة ليزيد ، فقال لهما ابن عمر: " اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين " ، ولما قدما المدينة وجاءت البيعة ليزيد من البلدان ، بايع ابن عمر وابن عباس وهو شيخ بني هاشم آنذاك [٢] ، ولم تكد أخبار وفاة معاوية ولجوء الحسين وابن الزبير إلى مكة ممتنعين عن البيعة ليزيد ؛ تصل إلى أسماع أهل الكوفة حتى حنوا إلى انتقاضهم وتمردهم القديم ، واستعادوا ذكريات مكانتهم التالدة أيام خلافة علي ﷺ فجاءت رسلهم تترى إلى الحسين يحملون رسائل أهلها يدعونه إليهم ، ويعدونه النصرة [٣] ..

٢- مهمة مسلم بن عقيل :

ولكن الحسين تحرز ، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليختبر حقيقة الأوضاع هناك ، وكانت مهمة مسلم تبدو يسيرة للعيان ، فقد تتابعت عليه وفود الشيعة تبايعه سرا ، مستغلين في ذلك ورع عامل يزيد على الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري ، الذي لم تجد نصائحه لهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، حتى كتب بعض أهل الكوفة ـــ من الموالين لبني أمية ـــ إلى يزيد بما يحدث ، فأرسل إلى ابن زياد عامله على البصرة يضم إليه الكوفة أيضا [٤] ، وكان ابن زياد قد استطاع بحزم القضاء على بوادر تمرد الشيعة بالبصرة ؛ وكانت قد وصلت إليهم أخبار الحسين ورسالة منه يطلب منهم فيها النصرة والبيعة [٥] ..

وسارع ابن زياد إلى الكوفة في بضعة عشر رجلا متلثما ، يحسبه الناس الحسين ، فيتلقونه بالحفاوة ؛ كلما مر على جمع منهم ؛قائلين : مرحبا بك يا بن رسول الله ﷺ ، قدمت خير مقدم [٦]؛ بل إن والي الكوفة نفسه النعمان بن بشير لما طرق عليه ابن زياد بابه كان يظنه الحسين ؛ وناشده في رجاء الانصراف عنه [٧] !! ..

وما كاد يستقر بابن زياد المقام حتى أخذ أهل الكوفة بالحزم ، ولكن ذلك لم يمنعه من تأليف قلوب أشرافها ، ولو كانوا من غلاة الشيعة ، فقد عاد هانئ بن عروة المرادي لما علم بمرضه ـــ

---

[١] الطبري : السابق 341/5 ، 351 . على حين تذكر الروايات أن الأمويين تتبعوا ابن الزبير لما خرج إلى مكة معارضا يطلبونه فلم يعثروا عليه إذ كان قد تنكب الطريق الأعظم (السابق 341/5) ..

[٢] الطبري : السابق 343/5

[٣] الطبري : السابق 352/5 ـــ 353

[٤] السابق 355/5 ـــ 356

[٥] السابق 357/5

[٦] السابق 358/5

[٧] السابق 359/5 ـــ 360

وكان مسلم بن عقيل ينزل عنده ــ ورغم ذلك فقد راود بعض الشيعة هانئا على قتلة وهو يعوده ، فرفض ذلك قائلا: " ما أحب أن يقتل في داري " ، فخرج فما مكث إلا جمعة حتى مرض شريك بن الأعور " وكان كريما على ابن زياد وغيره من الأمراء ، وكان شديد التشيع " فأرسل ابن زياد إليه أنه سيعوده الليلة ، فخطط شريك لقتله ، وحرض على ذلك مسلم بن عقيل ، ولم ينقذ ابن زياد من ذلك المصير إلا رفض مسلم بن عقيل ذلك الغدر، وكراهية هانئ بن عروة له [١] ، ولبث شريك بعدها ثلاثة أيام ثم مات ، فخرج ابن زياد لدفنه والصلاة عليه، وبلغه فيما بعد أن شريكا كان يخطط لقتله ، فقال : والله لا أصلي على جنازة رجل من أهل العراق أبدا [٢] ..

ولقد استطاع ابن زياد أن يكتشف أمر مسلم بن عقيل ومقره وأعوانه عن طريق دسيسة له [٣] ، ثم تمكن من الظفر بهانئ بن عروة وحبسه ، فاستثار ذلك مسلم بن عقيل الذي كان قد بايعه للحسين ثمانية عشر ألفا من أهل الكوفة [٤] ، فخرج ثائرا ومعه أربعة آلاف رجل منهم ، ثم ثاب إليه خلق كثير ممن كانوا بايعوه ، وحصروا ابن زياد في القصر وليس معه إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه [٥] ، وقد استطاع هؤلاء الأشراف تخذيل الناس من حول مسلم حتى تفرقوا عنه على نحو مزر ، فاختبأ في دار امرأة كوفية ، ثم افتضح خبره فقبض عليه؛ ثم قتل ومعه هانئ بن عروة [٦] ..

٣- الحسين يرفض جميع النصائح والتحذيرات :

كان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين بعد أن بايعه أهل الكوفة : " أما بعد ، فإن الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا ، فعجل الإقدام حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى ، والسلام " [٧] ..

وأحس أهل الحجاز بما ينوي الحسين عمله ، فخفوا إليه يحذرونه العجلة من أمره ، ويخوفونه ما عرف عن أهل العراق من الغدر والخور ، ويناشدونه ألا يخرج إليهم فيريق دمه ومن معه ، وممن حذره ذلك عبد الله بن مطيع العدوي [٨] وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن عباس

---

[١] السابق 363/5 ــ 364

[٢] الطبري : السابق 364/5

[٣] الطبري : السابق 362/5

[٤] الطبري : السابق 368/5 حسب رواية أبي مخنف ، وفي رواية عمار الدهني كان عددهم اثني عشر ألفا (الطبري السابق 348/5)

[٥] الطبري : السابق 368/5 ــ 369

[٦] السابق 369/5 ــ 379

[٧] الطبري : السابق375/5

[٨] السابق351/5 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 376/4

شيخ بني هاشم ، ومحمد بن الحنفية أخو الحسين لأبيه [١] وابن عمه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب [٢] ، فكان مما قاله عبد الرحمن بن الحارث : " إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق ، وإني مشفق عليك من مسيرك ، إنك تأتي بلدا فيه عماله وأمراؤه ، ومعهم بيوت الأموال ، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه ، فقال الحسين : جزاك الله خيرا يا ابن عم : فقد والله علمت أنك مشيت بنصح وتكلمت بعقل ، ومهما يقض من أمر يكن ، أخذت برأيك أو تركته .. " [٣] ..

وقال له ابن عباس ".. أخبرني رحمك الله ؛ أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك .." [٤]، فلما كان من العشي أو من الغد أتاه مرة أخرى فقال :" يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر ؛ إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقربنهم ، وأقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز؛ فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ؛ فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونا وشعابا، وهي أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبث دعاتك ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية ، فقال له الحسين ، يا ابن عم إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق ؛ ولكني قد أزمعت وأجمعت على السير ، فقال له ابن عباس : فإن كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه .. ثم قال : والله الذي لا اله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك " [٥] ..

بل إن أخاه محمد بن الحنفية نصحه نصيحة شبيهة بمقولة ابن عباس ، فلما لم يستجب له منع أبناءه أن يسيروا مع الحسين إلى العراق ، فلم يبعث أحدا منهم ، حتى وجد الحسين في نفسه على محمد ، وقال : ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه ؟ فقال محمد : وما حاجتي إلى أن تصاب ويصابوا معك ؟ وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم [٦] ، وفي طريقه إلى الكوفة لقي الحسين

---

[١] الطبري : السابق 341/5 ـــ 342 ، ابن الأثير: الكامل 65/3

[٢] الطبري : السابق 387/5 ـــ 388 ، ابن الأثير : السابق 276/3 ـــ 277

[٣] الطبري : السابق382/5

[٤] الطبري : السابق383/5

[٥] الطبري : السابق383/5 ـــ 384

[٦] ابن كثير : البداية والنهاية 165/8

الشاعر الفرزدق قادما منها ، فسأله عن أنباء الناس هناك فقال : " قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية " ؛ فلم يحل ذلك كله بين الحسين والمسير إلى القدر المحتوم [١] ..

٤- هل كانت للأمويين يد في إخراج الحسين إلى العراق :

تشيع في بعض كتب التاريخ روايات أو تلميحات حول مسئولية الأمويين عن دفع الحسين إلى ثورة ميئوس منها للتخلص منه ، فقد زعم أبو مخنف في روايته عن بعض المجهولين أن ابن الزبير قد نصح الحسين بالبقاء في مكة فقال له الحسين : والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب إلي من أن أقتل داخلا منها بشبر ، وايم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم ، والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت [٢] ..

وزعم عوانة بن الحكم أن الحسين لما لقي الفرزدق في طريقه إلى الكوفة سأله الفرزدق : ما أعجلك عن الحج ؟ قال :لو لم أعجل لأخذت [٣] ، كما أورد اليعقوبي ــ المؤرخ الشيعي ــ رسالة مزعومة من ابن عباس إلى يزيد بن معاوية بعد قتل الحسين يقول له فيها " وما أنس من الأشياء فلست بناس اطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله ﷺ إلى حرم الله، ودسك إليه الرجال تغتاله ــ فأشخصته من حرم الله إلى الكوفة ، فخرج منها خائفا يترقب وقد كان أعز أهل البطحاء بالبطحاء ... ولكن كره أن يكون هو الذي يستحل حرمة البيت وحرمة رسول الله ﷺ ، فأكبر من ذلك ما لم تكبر ، حيث دسست له الرجال ليقاتل في الحرم " [٤] .. وهذه الرسالة طويلة بما يدفع إلى الشك فيها ، حيث لم يعرف ذلك العهد التطويل في الرسائل [٥] ، وهي تحوي سبابا واتهاما لمعاوية وابنه بما يخالف حقيقة بيعة ابن عباس لكليهما ، وثنائه في أكثر من مرة على معاوية واحترامه له ، ولا يسوق اليعقوبي دليلا على هذه الدعاوى الطويلة إلا محض القول بأنه حدث ، وقد كرر ابن أعثم هذه الأكاذيب فادعى أن بني أمية أخرجوا الحسين وطردوه وأخذوا ماله وشتموه وطلبوا دمه ، فلم يجد سبيلا إلا الخروج إلى الكوفة [٦] ، وابن أعثم هذا مغال في تشيعه ومشهور برواية الأكاذيب ..

---

[١] الطبري : السابق386/5

[٢] السابق 385/5

[٣] السابق 386/5 ، وهذه الرواية على لسان لبطة بن الفرزدق وهي تحوى سبابا لأحد الصحابة الورعين وهو عبد الله بن عمرو بن العاص ولعنا له ولمعاوية ، فهي ظاهرة الوضع .

[٤] اليعقوبي : السابق 179/2 ــ 180

[٥] راجع الطبري : السابق380/5

[٦] ابن أعثم : الفتوح 124/5

وقد وجدت هذه الادعاءات صدى عند بعض المؤرخين المحدثين حيث يقـــول أحدهـــم .

ويبدو أن عامل يزيد على الحجاز لم يبذل محاولة جدية لمنع الحسين من الخروج إلى الكوفة ؛ بســـبب وجود كثير من الشيعة في عمله ، بل لعله قدر سهولة القضاء عليه في الصحراء بعيدا عن أنصاره [١] ..

ومن المؤكد أن هذه المزاعم قد وضعها رواة الشيعة بعد مقتل الحسين ليردوا بذلك انتقـاد بعض الناس له ، وليضيفوا مجدا جديدا للحسين إذ ضحى بنفسه ولم يستحل القتال في الحجاز كمـــا فعل ابن الزبير فيما بعد ، وقد جاءت هذه المزاعم من رواة العراق ليدفعوا عن أهلها وصمة تخاذلهم ، وليوحوا بأن الحسين لم يجد غيرهم ناصرا له ، بعد أن خذله أهل الحجاز ؛ وضيق عليه بنو أمية الخناق ، وأنهم ـــ أي أهل العراق ـــ لم يكونوا يستطيعون تحقيق النصر له ، إزاء قهر بني أمية لهم .. فـــهم بذلك يدفعون عن أنفسهم ، وعن إمامهم الشهيد ..

غير أن هذه الروايات لا تصمد أمام النقد البريء ، ولا تقف أمام سيل الروايات الأخـــرى التي يخالف بها رواة الشيعة الآخرون وغيرهم هذه المزاعم ، والتي تؤكد أيضا على محاولات الأمويـين منع الحسين من ثورته وإسداء النصح إليه بعدم الخروج إلى العراق ...

فإنه لما وصلت أخبار خروج الحسين من المدينة إلى مكة ، واتصالاته بأهل الكوفة إلى يزيد بن معاوية أرسل من فوره إلى عبد الله بن عباس يخبره بذلك ويسأله المساعدة في تجنب الكارثة ؛ فقد قـــال "..

وأحسبه قد جاءه رجال من أهل المشرق ؛ فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبر وتجربة ، فإن كان قـــد فعل فقد قطع راسخ القرابة ، وأنت كبير أهلك والمنظور إليه ، فاكففه عن الســـعي في الفرقـــة .."

وكتب إليه في ذلك أبياتا من الشعر إلى من بمكة والمدينة من قريش ، فرد عليه ابن عباس يقـــول "... إني لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه ، ولست أدع النصيحة له في كل ما تجتمع بـــه الألفة ؛ وتطفأ به الثائرة [٢] ..

ولما أجمع الحسين على الخروج إلى العراق ـــ رغم جميع هذه التحذيرات له ـــ اعترضتـــه رسل عمرو بن سعيد بن العاص عامل الأمويين على مكة ؛ والذي ضمت إليه المدينـــة حديثـا ـــ يقودهم أخوه يحيى بن سعيد ، فقالوا له : انصرف ، أين تذهب ؟ فأبى عليـــهم ومضـــى ، وتدافـــع الفريقان حتى اضطربوا بالسياط ، ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا امتناعا قويا ومضى الحسين علـــى وجهه ، فنادوه : يا حسين ألا تتقي الله ؟ تخرج من الجماعة ، وتفرق هذه الأمة ، فتأول الحسين قوله تعالى : (لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) [٣].

---

[١] د. ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 72/2ـــ73

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية 164/8 ، وانظر ابن أعثم : الفتوح 188/5ـــ119 ، وقد أورد تحذير يزيد للحسين رغم أنه من الشيعة الغلاة المشهورين بالكذب ، ورغم أنه هو نفسه الذي روى أن يزيد قد أمر عامله على المدينة بقتل الحســـين إن لم يبايع (السابق 10/5ـــ11، 26) ..

[٣] الطبري : السابق 385/5 والآية من سورة يونس (41)

وصاحب هذه الرواية هو أبو مخنف الراوية الشيعي المشهور ، رواها عن عقبة بن سمعان أحد موالي الحسين الذين صحبوه فلم يفارقوه ..

وروى أبو مخنف أيضا عن علي بن الحسين قال : لما خرجنا من مكة كتب عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب إلى الحسين بن علي مع ابنيه عون ومحمد : "أما بعد ، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجه له . فلا تعجل بالسير ، فإني في أثر الكتاب والسلام " ؛ ثم قام ابن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، فكلمه وقال : اكتب إلى الحسين كتابا تجعل له فيه الأمان وتمنيه فيه البر والصلة ، وتوثق له في كتابك وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع فقال عمرو بن سعيد : اكتب ما شئت ، وائتني به حتى أختمه ، فكتب ابن جعفر الكتاب ثم أتى عمرو بن سعيد فقال له اختمه وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه ، ويعلم أنه الجد منك ، ففعل ، ولحقه يحيى بن سعيد وابن جعفر ، فأقرأه يحيى الكتاب ، وقالا بعد ذلك : أقرأناه الكتاب وجهدنا به ، وكان مما اعتذر به إلينا أن قال: إني رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ وأمرت فيها بأمر أنا ماض له ؛ علي كان أو لي ، ورفض أن يحدثهما بمضمون تلك الرؤيا ، وكان نص ذلك الكتاب الذي وجهه عمرو إلى الحسين " أما بعد فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ، وبلغني أنك قد توجهت إلى العراق ، وإني أعيذك بالله من الشقاق ، فإني أخاف عليك فيه الهلاك ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبل إلي معهما ، فإن لك عندي الأمان والصلة والبر وحسن الجوار لك ، الله علي بذلك شهيد وكفيل ومراع ووكيل ، والسلام عليك "، ولكن الحسين لم يستجب له أيضا [١] ..

ولعل في هذه الرؤيا التي يزعمون أن الحسين رآها تبريرا ساقه بعض المؤرخين ليبرروا خروج الحسين وذلك بإسناده إلى سبب غيبي إيماني ، لا يملك إلا طاعته ، وقد ترددت قصة هذه الرؤيا في كتابات بعض المؤرخين المحدثين حيث يؤكدون دورها في تحريك الحسين وثورته [٢] ، وقد عد بعض الناقدين ذلك احتيالا للتخلص من همة وخزي تخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين ، وتبرير خروجه بأنه كتاب من الله مختوم بذهب [٣] ..

ولما صمم الحسين على الخروج إلى الكوفة لم تتوقف مساعي بني أمية لتجنب الموقف العصيب ؛ فقد كتب مروان بن الحكم إلى ابن زياد يحذره من قتل الحسين ، فقال : أما بعد فإن الحسين بن علي قد توجه إليك ، وهو الحسين بن فاطمة ، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وتالله ما

---

[١] الطبري : السابق5/387—388

[٢] د.شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص 244— 245

[٣] موسى جار الله: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة :ص (ك ، ل)، د. مصطفى حلمي نظام الخلافة ص203

أحد يسلمه الله أحب إلينا من الحسين ، فإياك أن تهيج على نفسك مالا يسده شيء ، ولا تنساه العامة ، ولا تدع ذكره آخر الدهر .. والسلام [1]

وكتب عمرو بن سعيد رسالة تحذير مماثلة إلى ابن زياد جاء فيها : " أما بعد، فقد توجه إليك الحسين ، وفي مثلها تعتق أو تكون عبدا ؛ تسترق كما يسترق العبيد [2] ، ورغم غموض محتوى هذه الرسالة فإننا نرجح أنها تحذير لعبيد الله ، وذلك بناء على علمنا بموقف عمرو بن سعيد السابق ذكره ، ومحاولته منع الحسين من الثورة .

رسالة يزيد إلى ابن زياد قبل قتال الحسين :

إن رسالة عمرو بن سعيد السابقة والغامضة هذه ينسبها بعض الرواة إلى يزيد بن معاوية، مع بعض التحوير ؛ حيث يزعمون أنه كتب إلى ابن زياد : إنه بلغني أن حسينا سار إلى الكوفة ، وقد ابتلي به زمانك بين الأزمان وبلدك بين البلدان ، وابتليت به من بين العمال وعنده تعتق أو تعود عبدا [3] ..

ثم تعرضت ذات الرواية إلى تحريف أشد على يد مؤرخي الشيعة، فيجعلها اليعقوبي على النحو التالي : "... وقد بلي بلدك من بين البلدان ، وأيامك من بين الأيام فإن قتلته ؛ وإلا رجعت إلى نسبك والى أبيك عبيد ، فاحذر أن يفوتك " [4] .. وواضح أن الأمر بقتل الحسين مدسوس إلى هذه الرواية ، والتهديد بإعادة ابن زياد إلى نسبه والى أبيه عبيد طعن شديد في بني أمية ، وفي معاوية بن أبي سفيان بالذات ، فهو الذي استلحق زيادا ، ولسنا نصدق أن يقول يزيد ذلك أو يهدد به فيشنع على أبيه وأهله ، وقد وجد الرواة أن نص الرسالة في أصله غامض ، ولا يحوى أمرا محددا ، فأضافوا الأمر بقتل الحسين لينتفي الغموض .. وليحققوا مرادهم في التشهير بموقف يزيد والأمويين ، وإذا كنا نرجح تزيد الرواة في هذه الرواية ، فإننا كذلك نستبعد صدورها ؛ بهذا الغموض ؛ عن الخليفة في هذا الموقف الحرج ، حيث كان يتوقع منه في هذه الحال أن يحدد لعامله على العراق ما يجب أن يفعله بدقة ، وهذا ما حدث فعلا ، كما يروي أبو مخنف الذي لا يتهم لتشيعه بمحاباة بني أمية ؛ حيث روى أن يزيد في رده على ابن زياد ، لما اخبره بمصرع مسلم بن عقيل ؛ صوب صنعه في شأن مسلم ، وأضاف يحذره آثار هذه الثورة ، ويرسم له طريقة المواجهة إن حدث وخرج الحسين إلى الكوفة ،

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية 165/8 ، وينسب ابن أعثم هذه الرسالة إلى الوليد بن عتبة باعتباره أمير المدينة آنذاك (الفتوح 121/5—122) ،ولم يكن الوليد أميرا لما خرج الحسين إلى الكوفة ، فقد كان يزيد استبدله بعمرو بن سعيد وابن أعثم معروف بعدم دقته ...

[2] ابن كثير : السابق 165/8

[3] ابن عبد ربه العقد الفريد 381/4—382

[4] اليعقوبي : السابق 175/2 وانظر الزبيري : نسب قريش ص 127—128

فقد كتب يزيد إليه يقول : ".. وإنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق ، فضع المناظر والمسالح ، واحترس على الظن ، وخذ على التهمة ، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك ، واكتب إلي في كل ما يحدث من الخبر.." [١] ..

ولم تكن نية ابن زياد مبيتة لقتل الحسين ، فليس هناك ما يدل على عداوة مسبقة له عنده ؛ بل إن الأدلة تتجه إلى تأكيد حسن معاملة ابن زياد للشيعة ؛ ماداموا لا يحاربون نظام الدولة ، ولا يثورون عليها ، وقد مر بنا صنيعه مع هانئ بن عروة وشريك بن الأعور .. ولقد قال ابن زياد لمسلم بن عقيل قبل مقتله فيما قال له :" وأما الحسين فإن لم يردنا لم نرده ، وإذا أرادنا لم نكف عنه " [٢]

الحسين يلاقي طلائع جيش ابن زياد :

وفي الطريق إلى الكوفة علم الحسين بنبأ مصرع مسلم بن عقيل وصاحبه هانئ بن عروة ، فأراد أن يرجع من حيث أتى ، غير أن بني عقيل الذين كانوا معه وثبوا عند ذلك قائلين :" لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا " ، فقال الحسين " لا خير في العيش بعد هؤلاء " [٣] ، ويبدو رغم ذلك أن الأمل كان لا يزال يراود الحسين وبعض من معه في أن ينصره أهل الكوفة ، وأن أنصاره الذين معه كانوا يراهنون على مكانة الحسين الدينية ، فقد قالوا : " إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع " [٤] .. ولكن الحسين لم يكن يستطيع أن يصل إلى الكوفة ، فقد تحرز واليها اليقظ ابن زياد ، والذي يبدو أنه كان ينفذ أوامر الخليفة السابق ذكرها ، فوضع حراسة على الطريق المؤدي إلى الكوفة فكانوا لا يدعون أحدا يلج ولا أحدا يخرج [٥] ، بل إن مقدمة جيش ابن زياد قد أدركت الحسين عند ذي حسم ، وهم حوالي ألف فارس عليهم الحر بن يزيد التميمي الذي كلف في الطريق أن يجعجع بالحسين وينزله على غير حصن ولا ماء [٦] ، وكان رغم ذلك مؤثرا للعافية ـــ هو وجنوده ـــ يجلون الحسين ، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة اصطفوا خلفه ، جاعلين إياه إماما لهم [٧] .. ثم لم يمض كبير وقت حتى جاء جيش العراق يقوده

---

[١] الطبري : السابق 381/5 ، ابن كثير : البداية والنهاية 165/8

[٢] الطبري : السابق 377/5 ، ابن أعثم : الفتوح 101/5

[٣] الطبري : السابق 397/5 ـــ398 ، الدينوري : الأخبار الطوال 248

[٤] الطبري : السابق 398/5

[٥] الطبري : السابق 392/5 ، 394 ،401

[٦] السابق 408/5

[٧] السابق 401/5 ـــ402

عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي كان هو الآخر كارها للتوجه إلى الحسين [١] ، وكان موقف الحسين واضحا مع الحر بن يزيد وعمر بن سعد ، حيث كان يقول : " كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم ، فأما إذا كرهتموني فإني أنصرف عنكم " [٢]، فأرسل ابن سعد إلى ابن زياد يستشيره في الأمر ...

٥- هل عرض الحسين الذهاب إلى يزيد :

تختلف رؤية الرواة والمؤرخين لموقف ابن زياد والحسين في هذه المرحلة من مراحل الثورة ؛ فيرى فريق منهم أن الحسين قد عرض على ابن سعد ـــ وبالتالي على ابن زياد حيث كان الأول يراسله بما يتم ـــ أن يختار واحدة من ثلاث : " إما أن تدعوني فانصرف من حيث جئت ، وإما تدعوني فأذهب إلى يزيد ، وإما تدعوني فالحق بالثغور" [٣] ، ويروى ذلك الفريق من المؤرخين أن ابن زياد لما علم بذلك العرض سر به وقبله ؛ لولا شمر بن ذي الجوشن ، أحد رجال القبائل الكوفية ، الذي لم يزل به ، ينفخ في غروره ، حتى رفض ذلك ، وبعث بشمر هذا إلى ابن عمر ليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكم ابن زياد ، فإن قبلوا أرسل بهم إليه ، وإن أبوا قاتلهم ؛ وأوصى ابن زياد أنه إن رفض ابن سعد تنفيذ ذلك عزله شمر وقتله وأصبح هو أمير الجند [٤] ، وهكذا يصور هؤلاء المؤرخون والرواة الحسين مسالما باذلا ما في وسعه لتجنب القتال ، ويصورون ابن زياد متعنتا متصلبا متربصا بالحسين ، يسعى إلى إذلاله وقتله ، ولا تخلو هذه الروايات من التلميح إلى ضعف شخصية عامل العراق ؛ حتى يحوله أحد رجال القبائل المغامرين عن رأيه بتلك السهولة .

في حين ينفي بعض كتاب الشيعة المحدثين هذه الروايات ويزعم أنها من وضع الأمويين وأعوانهم ، وأن واضعيها إنما أرادوا بذلك تشويه موقف الحسين ، وإيهام الناس بأنه قد خشع وخضع وأحنى رأسه للسلطان [٥] ، فإننا أيضا نستبعدها لأسباب ليس منها أنها موضوعة بفعل الأمويين أو أعوانهم ، إذ إنها روايات شيعية الأصل ، رواتها من الشيعة ، وكتبت بيد أعداء الأمويين ، وإنها أساءت إلى عاملهم على العراق ومجدت موقف الحسين المسالم ، وجعلته شهيدا مظلوما ... كما أنه قد لا يكون في هذه الروايات معنى الخضوع من الحسين لبني أمية ، لو فهمنا عرض الحسين أن يذهب إلى يزيد أو أن يضع يده في يد يزيد " ليرى فيه رأيه " ـــ حسب تفصيل أبي مخنف لرواية عمار الدهني السابقة ـــ على أنه لا يعني بالضرورة استعداده لمبايعة يزيد ، وإنما استعداده للتفلوض

---

[١] الطبري : السابق 409/5 ـــ410

[٢] الطبري : السابق 411/5 ـــ 412 ، الدينوري : السابق 224

[٣] الطبري : السابق 389/5

[٤] الطبري : السابق 414/5 ، ابن الأثير : الكامل 284/3

[٥] محمد مهدى شمس الدين : ثورة الحسين 215

مع يزيد " وليرى فيه رأيه " ؛ إذ لو كان الحسين يعني بقوله البيعة للخليفة الأموي لأعلنها صراحة ، ولم يكن عند ذاك مضطرا إلى عرض خيارات أخرى ، إذ أن البيعة ليزيد هي كل ما يريده الأمويون .

ومما يزيد ضعف هذه الرواية ؛ ويدفعنا إلى الشك فيها ؛ أن بعض المؤرخين والرواة ينفي حدوث خضوع من الحسين نفيا تاما ، وينفي صدور ذلك القول منه ؛ إذ يروي أبو مخنف عن عقبة ابن سمعان ــ مولى الرباب زوج الحسين [1] ــ قوله : صحبت حسينا فخرجت معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل ، وليس من مخاطبته الناس كلمة ــ بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله ــ إلا وقد سمعتها ، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ، ولا أن يسير إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير أمر الناس [2] ..

وهذه الرواية أولى بالقبول من غيرها ، فهي صادرة عن شاهد عيان ؛ حضر معظم هذه الأحداث ، وكان قريبا منها ، كما أنها تتفق مع رواية شامية لما حدث ؛ تروي عن أحد أبناء روح بن زنباع الجذامي بسنده عن زحر بن قيس الذي جاء بشيرا من العراق إلى يزيد فقال : ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته ، فسرنا إليهم ، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال ؛ فاختاروا القتال على الاستسلام .." [3] ..

وهذه الرواية أيضا تتفق مع طبيعة الحسين وإبائه وشممه الذي يأبى عليه في هذا المقام أن يذهب إلى يزيد" ليرى فيه رأيه" ؛ وهو الذي عارض بيعته من أول وهلة ، بل عارض توليته عهد معاوية في أثناء حياة أبيه ، ويبدو أنه كان ينتقص قدره بشكل واضح ، وقد اشتهر ذلك عنه في الحجاز والعراق بحيث يعد إعلانه الآن عن استعداده الذهاب إليه هزيمة سياسية كاملة تقضي معها على المستقبل السياسي للحسين ؛ وهو ما لم يكن الحسين ليرضى به ، وهذه الرواية كذلك تتفق في العرض الذي عرضه الحسين قبل ذلك على الحر بن يزيد ، إذ عرض عليه بعد نزوله به أن يرجع إلى الحجاز من حيث جاء ، ولكن ابن زياد رفض ذلك العرض [4] ، وهي أكثر منطقية كذلك في تفسير موقف ابن زياد ؛ الذي يصعب تبريره في الروايات الأخرى إلا بالرغبة في التشفي والانتقام ، وهي رغبة لم نلحظها في معاملته للشيعة في العراق حيث كان يحرص على صداقتهم ومجاملتهم كما سبق ... وهي تتفق مع المعروف من ذكاء ابن زياد السياسي ، الذي استطاع به تحويل موقف الكوفة تماما ، وجمعها خلفه في حرب من استدعاه أهلها ليبايعوه ، ولم يكن مما يتفق مع ذلك الذكاء أن يرفض ابن

---

[1] انظر الطبري : السابق 351/5

[2] الطبري : السابق 413/5ــ414 ، ابن كثير : البداية والنهاية 175/8

[3] الطبري : السابق 459/5

[4] الطبري : السابق 401ــ402

زياد الخيارات السياسية التي تطرحها الروايات الأخرى على لسان الحسين ، مع أن فيها على الأقل تخليصا له من ذلك المأزق ، وتحميلا إياه على عاتق يزيد ؛ حيث ينبغي عليه آنذاك أن يرى رأيه فيما عرضه الحسين ، كما أنه مما لا يتفق مع قدرات ابن زياد أن تصوره هذه الروايات وقد تلعب به شمر ابن ذي الجوشن فأحاله عن رأيه في موادعة الحسين إلى تصميم كامل على قتاله بغير حجة ناصعة أو سبب قوى يعلل ذلك التحول .

مبررات موقف ابن زياد :

إن رواية عقبة بن سمعان توحي إلينا بمبررات موقف ابن زياد في رفض عرض الحسين بن علي ، فذلك العرض يحقق أقصى ما يمكن من مكاسب للحسين ، على حين لا يقدم شيئا للسلطة الحاكمة التي ثار عليها وجاء ليقضى على وجودها ، وقد تمكنت منه وحاصرته ...
فإن وافق ابن زياد على ذلك العرض فهو لن يصنع أكثر من أن يعطي عدوه فرصة جديدة لاستجماع قواه وإصلاح خطته في الاعتماد على أهل الكوفة والثقة فيهم ، وربما بث الدعوة ضد الأمويين وأرسل الرسل للدعوة إليه في هذه "الأرض العريضة " التي يريد أن يذهب إليها ، ويظل حتى يدبر أموره وعندها ينظر إلى " ما يصير إليه أمر الناس "، وهل سيصير أمرهم عندها إلا إلى معركة جديدة قد لا يكسب فيها بنو أمية شيئا ؟!

وينبغي أن نشير هنا إلى تلك العلاقة التي كانت سيئة بين يزيد وابن زياد قبل تولي الأخير الكوفة وأن يزيد لم يوله إياها إلا مضطرا إزاء مخاطر ثورة مسلم بن عقيل [١] ، ومن الطبيعي بعد نجاح ابن زياد في قمع هذه الثورة وقتل قائدها ، وبعد أن أطرى الخليفة صنيعه ، أن يقدم دليلا آخر أشد وضوحا على ولائه ليزيد وإخلاصه للنظام ، ولن يتحقق ذلك ، فيما يرى ، إن ترك الحسين يمضي من حيث أتى ليثير معركة محتملة من جديد ..

الحسين يقاتل قتالا مجيدا :

كانت المعركة بين الفريقين غير متكافئة ، ولم يكن يرجى للحسين نصر ، بل لم يكن هو في الأرجح يتوقع لنفسه النصر ، ولكنه حين خير بين الاستسلام المهين أو القتال والقتل اختار الميتة الشريفة على ماعداها ، ولا نستطيع أن نساير بعض المؤرخين الذين يهونون من شأن ما بذله الحسين في أرض المعركة ، ولا أن نقبل قول أحدهم بأنه اكتفي بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله ، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة " [٢] ..

---

[١] الطبري : السابق 356/5

[٢] فلهوزن الخوارج والشيعة 187

لقد قاتل الحسين قتالا مجيدا كما يتوقع من عربي شريف مسلم يرجو الجنة ويحتقر المـوت ، ولقد مكث طويلا من النهار يحاربهم ، "ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء" [١] ؛ وكان كلما انتهى إليه رجل من الناس انصـرف عنـه وكره أن يتولى قتله ، ويبوء بعظيم إثمه عليه [٢] ...

٦- أباطيل منسوبة إلى جيش ابن زياد :

كثيرة هي الروايات التاريخية التي تنسب إلى جيش ابن زياد شناعات مؤسفة ارتكبها في حق الحسين وآله بعد قتله ، ولكنها رغم ذلك تعز على التصديق ، وتعجز عن الإقناع .

فلسنا نصدق أن الحسين سلب بعد قتله على هذا النحو الذي يدعونه ، ولسنا نصدق أن الناس مالوا على نساء الحسين وثقله ومتاعه حتى " إن المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها ، حتى تغلـب عليه ، فيذهب به منها " [٣] ، ولسنا كذلك نصدق أن يأمر عمر بن سعد أن يوطأ الحسين بـالخيل ، وقد استبعد ذلك قديما بعض المؤرخين المحققين [٤]..

لسنا نصدق ذلك كله ؛ لأن هؤلاء الرجال المتقاتلين كانوا مسلمين اجتهدوا فاختلفوا فتقـاتلوا ، ولم يكونوا ليخرجوا عن دائرة الإسلام وقيمه إلى هذا الحد الذي يهون عليهم المثلة بجسد ابن بنت نبيهم أو سلبه بعد موته ، أو ارتكاب هذه الخسة مع نساء عربيات ، ناهيك عن نساء بيت النبوة .، ولقـد كان بعض هؤلاء الرجال منذ قليل يصلون خلف الحسين اعترافا بقدره ، وكان عمر بن سعد قـائد الجيش كارها ذلك القتال ، مؤثرا العافية ، لولا أن اضطر إليه اضطرارا ، وهو الذي حمى علي زيـن العابدين بن الحسين من عدوان بعض الجند الهائجين ، كما أمر بحماية بيت الحسين ، وألا يدخل أحـد بيت نسائه وأن من أخذ من متاعهم شيئا فليرد عليهم [٥] ، كما أمر بحمل نساء الحسـين وأخواتـه وبناته وجواريه وحشمه في المحامل المستورة على الإبل [٦] ،. بل كان من النادمين أشد الندم على مـا ارتكب بقتل الحسين على ما يروى الرواة [٧] ، وفي عودته من ساحة القتال قال لمن سأله عن حالـه : "

---

[١] الطبري : السابق 452/5 وانظر ص 453

[٢] السابق 448/5

[٣] السابق 453/5 ، ابن الأثير : الكامل 295/3

[٤] ابن كثير . البداية والنهاية 189/8

[٥] الطبري . السابق 453/5 — 454

[٦] الدينوري . الأخبار الطوال 259

[٧] الطبري السابق 467/5

لا تسأل عن حالي ، فإنه ما رجع غائب إلى منزله بشر مما رجعت به ، قطعت القرابة القريبة ، وارتكبت الإثم العظيم " [١] ..

وأخيرا لا ننسى الإشارة إلى أن شمر بن ذي الجوشن الذي تصوره الروايات جلفا أعرابيا غليظ القلب قد نفذ رغبة الحسين ﷺ في أن يمنع رحله وأهله من جهال الناس وطغامهم [٢]..

حول العبث برأس الحسين بعد قتله :

تعرض كذلك موقف ابن زياد من أهل الحسين بعد استشهاده إلى تشويه شديد ، فقد زعموا أن رأس الحسين لما حمل إلى ابن زياد ، ووضع بين يديه : أخذ ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة ، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب قال له : اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذي لا إله غيره ، لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما ، ثم انفضح الشيخ يبكي ، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .." [٣] ..

وثمة رواية شبيهة بتلك تزعم أن يزيد بن معاوية هو الذي نكت بالقضيب على فم الحسين ، ولكن الرواة هنا يجعلون الصحابي الذي أنكر عليه فعله أبا برزة الأسلمي وليس زيد بن أرقم [٤] .. وأصل هذه الرواية الذي زيد عليه ، والصحيح منها ، ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أنس ابن مالك قال : أتي عبيد الله بن زياد برأس الحسين ، فجعل في طست ، فجعل ينكت . وقال في حسنه شيئا ، فقال أنس : "كان أشبههم رسول الله ﷺ ، وكان مخضوبا بالوسمة " [٥] ؛ فالتقط الرواة هذا القدر لينسجوا منه هذه القصة ؛ وليمزجوها بالخيال الخصب والعاطفة الحزنى..

وليس معقولا أن يتكرر هذا الحدث في العراق والشام معا أو أن يحدث في مجلس ابن زياد ثم يتكرر مثله تماما في مجلس يزيد ، ولكن الرواة استغلوا ذلك ليشوهوا صورة الرجلين معا وليزيدوا السخط على بني أمية ، وقد نفي ابن تيمية حدوث ذلك في مجلس يزيد ، فقال . " و قد روي بإسناد مجهول أن هذا كان قدام يزيد وأن الرأس حمل إليه ، وأنه هو الذي نكت على ثناياه . وهذا مع أنه لم يثبت ففي الحديث ما يدل على أنه كذب ، فإن الذين حضروا نكته بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام (وقتها) ، وإنما كانوا بالعراق" [٦].

---

[١] الدينوري : السابق 260

[٢] الطبري : السابق 450/5 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة 185

[٣] الطبري : السابق 456/5

[٤] السابق 390/5 ، 465

[٥] البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، الترمذي :حديث رقم ٧٧٨، ابن تيمية : منهاج السنة النبوية 248/2

[٦] منهاج السنة النبوية 249/2

٧- موقف ابن زياد من آل الحسين بعد قتله :

وزعموا أن عبيد الله بن زياد لما رأى زين العابدين علي بن الحسين وكان فيما رووا غلاماً صغيرا نجا من المعركة لأنه كان مريضا لم يشترك فيها ، خاطبه فرأى منه عقلا وحجة ؛ فهم بقتله وقال : انظروا هل أدرك ما يدرك الرجال ؟ فكشط إزاره عنه ، فقالوا : نعم قد أدرك ، فقال: انطلقوا به فاضربوا عنقه ، لولا أن استعطفته عليه عمته زينب بنت علي بن أبي طالب ﷺ وأثارت فيه رابطة الرحم وآثار النخوة ، فتركه [١] ، وروى بعضهم أن الذي فعل ذلك بزين العابدين هو يزيد ابن معاوية [٢] ..

وهذه القصة تبدو مختلفة من أساسها ، وقد أكد الواقدي ذلك الاختلاق حين نص على أن زين العابدين توفي سنة أربع وتسعين للهجرة ؛ على الرأي الراجح ؛ عن ستة وخمسين عاما ، ثم قال : " وهذا يدلك على أن علي بن الحسين كان مع أبيه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وليس قول من قال إنه كان صغيرا ؛ ولم يكن أنبت بشيء ، ولكنه كان يومئذ مريضا فلم يقاتل ، وكيف يكون يومئذ لم ينبت وقد ولد له أبو جعفر محمد بن علي ؟ ولقي أبو جعفر جابر بن عبد الله ورووا عنه ، وإنما مات جابر سنة ثمانية وسبعين " ! [٣] ..

وليس صحيحا كذلك أن ابن زياد قد أساء معاملة نساء الحسين بعد قتله ، أو في ترحيله لهن إلى الشام ، فالروايات التاريخية تخبرنا أن أحسن شيء صنعه ابن زياد أنه أمر لهن بمنزل في مكان معتزل ، وأجرى عليهن رزقا ، وأمر لهن بنفقة وكسوة [٤] ، ويقول ابن تيمية في رده على بعض كذابي الرافضة : " وأما ما ذكر من سبي نسائه ، والدوران بهن على البلدان وحملهن على الجمال بغير أقتاب ، فهذا كذب ، وباطل ، ما سبى المسلمون ــ ولله الحمد ــ هاشمية قط ، ولا استحلت أمة محمد ﷺ سبي هاشمية قط ، ولكن أهل الهوى والجهل يكذبون كثيرا " [٥] ..

بل إن المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهبت عنه نشوة النصر ، أحس فداحة خطئه ، وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرته القريبين منه ؛ فقد كانت أمه تقول له : " ويلك ماذا صنعت ، أو ماذا ركبت " [٦] وكان أخوه عثمان بن زياد يقول : " لوددت والله أنه ليس من بني

---

[١] الطبري : السابق 457/5 ـــ 458 ، 390 ابن الأثير: الكامل297/3 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 212/5

[٢] الأصفهاني : مقاتل الطالبيين 119ـــ120

[٣] ابن سعد السابق 221/5

[٤] الطبري : السابق 393/5

[٥] منهاج السنة النبوية 249/2

[٦] الطبري : السابق 484/5

زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة ، وأن حسينا لم يقتل "؛ فلا ينكر عليه عبيد الله قوله [١] ؛ كما يبدو أنه كان يحاول أن يكبح جماح بعض الجند الهائج ، بعد انتهاء المعركة ، فقد حدث أن لجأ غلامان لعبد الله بن جعفر — أو لابنه — ممن نجوا من القتل ، إلى رجل من طيء ، فضرب الطائي عنقيهما ، وجاء برأسيهما حتى وضعها بين يدي ابن زياد، فهم عبيد الله أن يضرب عنق الرجل ، وأمر بداره فهدمت [٢]...

٨- مدى مسئولية يزيد بن معاوية عن قتل الحسين :

وفي حين يلقي بعض المؤرخين بالقسط الأكبر من المسئولية عن قتل الحسين على ابن زياد ، فإن آخرين منهم يلقون بها على عاتق الخليفة يزيد بن معاوية ، وحجتهم في ذلك أنه ولي الأمر ، ولا يمكن أن يقوم عامله بمثل ذلك العمل الخطير دون إذنه ، أو بغير علمه وإرادته [٣]..

لقد مر بنا أن يزيد كان قد كتب إلى ابن زياد بعد مصرع مسلم بن عقيل ، يطري عمله ، ويحذره من قدوم الحسين ، ويأمره ببث الحراسة على الحدود ، وألا يقاتل إلا من قاتله ، مما يعني أن خروج الحسين نحو العراق قد بلغه ، وربما كان ذلك من أحد عيونه ، أو من أحد عماله ، أو أنصاره في الحجاز ، ولقد كان خروج مسلم بن عقيل — أي إعلانه ثورته — في الثامن من ذي الحجة سنة ستين للهجرة ، على ما يذكر الطبري في تاريخه [٤] ، ولا ريب أن إرسال ابن زياد إلى الخليفة يحكي له ما حدث مع ابن عقيل ؛ ثم رد الخليفة عليه في رسالته السابق ذكرها ، قد استغرق وقتا طويلا طول المسافة بين الكوفة ودمشق في ذلك الزمان ، وعندما وصلت تعليمات الخليفة كان الحسين على ما يبدو على مشارف العراق ، إذ إنه خرج من مكة يوم خروج مسلم على ابن زياد في الثامن من ذي الحجة [٥]، ثم نشبت المعركة بين الفريقين بسرعة وانتهت بسرعة في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ ؛ وعلى ذلك لم تتح لابن زياد الفرصة لاستشارة الخليفة فيما جد من أحداث ، ولا لأخذ رأيه في المفاوضات التي دارت مع الحسين . ولو كان عند ابن زياد رأي قاطع من الخليفة بشأن ترك الحسين أو قتله لما كان هناك داع إلى التفاوض والمراجعة التي حدثت وتحدث عنها الرواة كما سبق ... فيزيد لم يعلم إذن بعرض الحسين على عامله أن يعود إلى الحجاز أو أن يذهب إلى غيرها من الأرض الواسعة حتى ينظروا إلى ما يصير أمر الناس ، والمعروف عن النظام الأموي اعتماده اللامركزية في

---

[١] السابق 461/5 ، ابن الأثير : الكامل 303/3

[٢] الطبري : السابق 393/5

[٣] فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 186 ، وانظر د.الريس : عبد الملك بن مروان ص 107

[٤] الطبري : السابق 381/5

[٥] السابق والصفحة

الإدارة [1] ، وهو ما يعطي للعامل على الولاية فرصة كبيرة في اتخاذ القرار وتحمل مسئوليته ، فليس غريبا إذن أن يستعمل ابن زياد هذه الحرية المسموح بها ، والمتعارف عليها ، ليكتسب فيما يبدو مكانة أسمى عند الخليفة ؛ ولينهي أسباب الجفاء بينهما عندما يخلصه من أخطر منافسيه ...

ولما سير ابن زياد آل الحسين ونساءه إلى دمشق أظهر الخليفة حزنه وأسفه لما حدث ، ودمعت عيناه وهو يتحدث إلى رسول ابن زياد فيقول : " لعن الله ابن سمية ، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين" ، ولم يصل ذلك الرسول بشيء كما كان يتوقع [2] ، ولما وضعت رأس الحسين أمامه قال يزيد :

يفلقن هاما من رجال أعزة علينا ، وهم كانوا أعق وأظلما

أما والله لو أنا صاحبك لعفوت عنك " [3] ، ورق يزيد لآل الحسين فقال للنعمان بن بشير : " جهزهم بما يصلحهم ، وابعث معهم رجلا من أهل الشام أمينا صالحا ، وابعث معه خيلا وأعوانا ، فيسير بهم إلى المدينة " ، ثم أمر بالنسوة أن ينزلن في دار على حدة ، معهن ما يصلحهن ، ومعهن أخوهن علي ابن الحسين ، " فخرجن حتى دخلن دار يزيد ، فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين ، فأقاموا عليه المناحة ثلاثا ، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين .. ولما أرادوا أن يخرجوا دعا يزيد عليا زين العابدين ليودعه فقال له :" لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبدا إلا أعطيتها إياه ؛ ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ؛ ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن الله قضى ما رأيت ، كاتبني وأنه كل حاجة تكون لك "، وكساهم ، وأوصى بهم رسوله فخرج بهم وأحسن الصنع معهم ، ولم يزل يلاطفهم ويسأل عن حوائجهم حتى دخلوا المدينة [4] ..

فأين ذلك مما يزعمون أنه أخذ ينكت بقضيب في ثنايا الحسين ، أو أنه أخذ ينشد شامتا شعر ابن الزبعرى يوم أحد يشمت بقتلى المسلمين :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل [5]

---

[1] د. حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي 123

[2] الطبري : السابق 460/5

[3] السابق والصفحة

[4] راجع الطبري : السابق 462/5 ، ابن أعثم : الفتوح 237/5—238 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 382/4 — 383 ، الإمامة والسياسة 8/2 ، ابن تيمية : منهاج السنة 249/2

[5] راجع ابن أعثم . السابق 240/5 —241 وإذا قارنا ذلك بالحاشية أعلاه وجدنا تناقضه المكشوف في صفحتين أو ثلاث !! وراجع الأصفهاني (مقاتل الطالبيين 119)

ولقد ظل موقف يزيد من بني هاشم غير متسم بالعداء ، فقد بايعه محمد بن الحنفية ، وكان يتردد عليه ويزوره : وينال صلاته [١] ، ولما خلع أهل المدينة فيما بعد يزيد لم يشاركهم في ثورتهم ابن الحنفية ولا علي بن الحسين ﷺ ..

٩- لماذا لم يعزل يزيد ابن زياد ؟

ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم لم يعزل يزيد عامله على العراق ــ ابن زياد ــ أو يحاسبه على ما جره عليه من غضب كثير من الناس ومقتهم وسوء ظنهم ؟؟ ..

يبدو أن سبب الإبقاء على ابن زياد أميرا على العراق بعد ذلك يعود إلى معرفة يزيد بطباع أهل ذلك المصر ، التي اشتهرت عنهم في التاريخ ، فهم إذا حكمهم وال قوي انكسروا واستكانوا ، وإذا خلع وجاءهم وال لين يؤثر العافية تمردوا عليه ، ومكروا به ، ودبت فيهم الفتن ، وسرت روح الثورة والمؤامرة ، وقد عرف عنهم ذلك منذ أواخر عهد عمر بن الخطاب وفي أثناء الثورة على عثمان ، وفي أثناء حكم علي بن أبي طالب ومعاوية بعده ، فربما عن ليزيد أنه لو عزل عنهم ابن زياد في هذه الظروف التي تضطرم فيها النفوس تعاطفا مع آل البيت ؛ فسوف يفيق أهل الكوفة من هذه الصدمة ؛ ويتحول التعاطف إلى عمل جدي ، وينقلب الهمس إلى ثورة عارمة ..

وإن وقائع التاريخ لتدل على صدق ذلك الحدس ، ففي أعقاب مقتل الحسين ﷺ ظهرت بوادر حركة التوابين الذين تحركوا للطلب بدم الحسين ولكن حركتهم هذه ظلت سرية خافتة حتى زال عنهم ابن زياد بعد موت يزيد بن معاوية واضطراب الأمر بالشام ، ويقول أبو مخنف عنهم ": كان أول ما ابتدعوا به من أمرهم سنة إحدى وستين وهي السنة التي قتل فيها الحسين ﷺ فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب ؛ والاستعداد للقتال ، ودعاء الناس في السر ــ من الشيعة وغيرها ــ إلى الطلب بدم الحسين ، فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر ، فلم يزالوا كذلك ، وفي ذلك، حتى مات يزيد بن معاوية ... فقالوا قد مات هذا الطاغية ، والأمر الآن ضعيف .." [٢] !! ولم يمت يزيد وينخلع عنهم ابن زياد إلا سنة 64 هـ أي بعد ثلاث سنوات من قتل الحسين ..

فإذا كان الأمر على ذلك ، فماذا كان يمكن أن يحدث لو عزل عنهم ابن زياد وجاءهم حاكم ضعيف ــ أو قوي لم يجربوا بطشه ــ والنفوس ثائرة ، ومدعو التشيع متربصون لرفع راية الطلب بدم الحسين ، وهم أول من قتله وخذله ؟؟

كما أنه لم يكد يمضي وقت طويل حتى ظهرت بوادر التمرد في الحجاز حيث كان ابن الزبير يدعو إلى نفسه سرا ويؤلب الرأي العام على بني أمية مستغلا قتل الحسين أروع استغلال ؛ رغم

---

[١] ابن أعثم : السابق 258/5 ــ 260

[٢] الطبري . السابق 558/5

أنه لم يشاركه ثورته حين ثار ولم يبايعه ؛ كما ثار أهل المدينة وخلعوا خلافة يزيد من أعناقهم، فاضطر يزيد بن معاوية إلى مواجهة هذا وذاك ، وآثر أن يواجه الأوضاع في الحجاز وهو مطمئن إلى استقرارها في العراق تحت قبضة واليها القوي ، من غير أن يدخل في تجربة وال جديد ...

من مبالغات الشيعة بعد مقتل الحسين :

كان مقتل الحسين فرصة سانحة لأعداء الأمويين للتشنيع عليهم ، وقد استغله الشيعة على نحو مثير ليكثفوا من العداء لبني أمية إبان دولتهم، وبعد زوالها .. ولقد جاء تصويرهم مقتل الحسين محققا ذلك الهدف كما سبق بيانه ، غير أن حديثهم عن مظاهر الحزن الكوني التي صاحبت مقتل الحسين ، والانتقام الإلهي من الذين شاركوا في قتله ؛ تجاوز حدود المبالغة المعقولة إلى درجات من الغلو الممجوج ، ولم يقتصر الكذب في ذلك على اختلاق الروايات التاريخية أو المبالغة فيها ، بل تعداه إلى الدس في الحديث الشريف ووضعه ، ولن نحاول أن نستقصي ما اختلقوه من ذلك ؛ وهو كثير [1] ؛ ولكن يكفينا هنا ذكر هذه النقول من رد بعض العلماء المحققين على هذه الأكاذيب ..

يقول ابن كثير: " ولقد بالغ الشيعة في يوم عاشوراء [2] ، فوضعوا أحاديث كثيرة وكذبا فاحشا ، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم ؛ وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم ، وأن أرجاء السماء احمرت ؛ وأن الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم ، وصارت السماء كأنها علقة ، وأن الكواكب ضرب بعضها بعضا ، وأمطرت السماء دما أحمر ، وأن الحمرة لم تكن في السماء قبل يومئذ ..". ويسترسل ابن كثير في نقل بعض هذه الخرافات ثم يقول : " إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصح منها شيء " .." وللشيعة الرافضة في مصرع الحسين كذب كثير، وأخبار باطلة ." [3]..

ويقول ابن تيمية في رده على أكاذيب أحد الرافضة في هذا الشأن : " وأما ما ذكره من الأحاديث والعقوبات الحاصلة بقتل الحسين ؛ فلا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وأن فاعل ذلك والراضي به والمعين عليه مستحق لعقاب الله الذي يستحقه أمثاله ، لكن قتله ليس بأعظم من قتل من هو أفضل منه من النبيين والسابقين الأولين ، ومن قتل في حرب مسيلمة (الكذاب) وكشهداء أحد ، والذين قتلوا في بئر معونة ، وكقتل عثمان وقتل علي ... ، وبهذا وغيره يتبين أن كثيرا مما روي في ذلك كذب مثل ..." ، ثم ذكر شيئا مما نقله المؤرخون [4] ..

---

[1] راجع اليعقوبي : السابق 176/2،ابن أعثم الفتوح 212/4 — 214 ، 216 ،220 ، 221 ، 223 ، 224 ، السيوطي تاريخ الخلفاء 207—208، ابن الأثير : السابق 303/3

[2] هو يوم العاشر من محرم وفيه قتل الحسين (ض) ..

[3] البداية والنهاية 201/8 — 202

[4] منهاج السنة النبوية 249/2 — 250

وقال ابن كثير: " وإنما يريدون بهذا وأشباهه أن يشنعوا على بني أمية ، لأنه قتل في دولتهم "[١]

١٠- نظرة عامة على ثورة الحسين وتقييمها :

لا نستطيع أن نجزم بأن الحسين ﷺ قد ثار لأجل طلب الخلافة في البيت العلوي ، باعتبارها حقا طبيعيا له ، كما يذهب الشيعة من منظورهم الخاص بترتيب الأئمة وتوريث الخلافة فيهم ؛ وإن لم ينالوها .. وإنما ثار الحسين لأنه ظن الفسوق بالخليفة الجديد ـ يزيد بن معاوية ـ رغم أنه كان قد تولى الخلافة لفوره ، ولم يظهر منه ما يؤكد ذلك[٢] ، ويبدو أن الدعاية المعادية لمعاوية وبني أمية قد أصابت بعض النجاح في تشويه صورة يزيد منذ هم أبوه باستخلافه ...

وقد كان الحسين يرى في نفسه الأهلية لخلافة المسلمين في فضله وعلمه ـ وهما مما لا شك فيه ـ وكفايته وهي ما لم يتأكد بصورة قاطعة لبعده عن الأعمال الإدارية والسياسية منذ عهد بعيد.

كما قدر الحسين أن في قوة أنصاره وشيعته ما يكفي لتحقيق ذلك الغرض .. فأهل الكوفة أرسلوا كتبهم بدعوته إليهم ، وهو لم يقنع بذلك فقط وإنما أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إليهم ليتأكد من صدقهم ، فأرسل ابن عقيل إليه يستدعيه ويبشره بعد مبايعة ثمانية عشر ألف رجل له ، كما كان الحسين يظن ـ فيما يبدو ـ ولاء الحجاز له عند طلبه الخلافة ، وهو ما كان يبدو أمرا محتملا على أية حال[٣]...

وعلى ذلك فلا يصح القول بأن الحسين لم يبذل جهدا يذكر لتحقيق هدفه ، أو أنه " مد يده كالطفل ليأخذ القمر وادعى أعرض الدعاوى ولكنه لم يبذل شيئا في سبيل تحقيق أدناها " ؛ على حد تعبير بعض المستشرقين[٤] ، ومن ثم فإن خروج الحسين لا يعد خروجا على تعاليم الإسلام التي تشترط الإعداد الجيد للثورة على الحاكم الجائر حتى يغلب على الظن القدرة على ذلك[٥] ، فهو قد أعد القوة كما تصورها ، حتى ظنها كافية لتحقيق غرضه ، ولكن حساباته ـ بلا شك ـ كانت خاطئة ...

ولم يستطع مسلم بن عقيل أن يحتفظ بولاء أهل الكوفة الذين بايعوه للحسين في ظل ولاية النعمان بن بشير عليها ، فقد عزل النعمان العامل اللين الورع ، وتولى بدله ابن زياد الحازم اليقظ ، ولم يبادر مسلم بالسيطرة على الكوفة قبله ـ وربما لم تكن عنده حرية التصرف من الحسين إلى هذا

---

[١] البداية والنهاية 202/8

[٢] الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية 130/2

[٣] يزعم بعض المؤرخين أن عامة المسلمين عرضوا على الحسين الخلافة وبايعوه (راجع عمر أبو النصر : الحسين بن علي ص 14) !! وذلك ما لم يحدث طبعاً ..

[٤] فلهوزن : الخوارج والشيعة 187

[٥] راجع ابن تيمية : منهاج السنة 243/5

الحد ــ ولم يستطع مواجهته لما هدد نجاح مهمته ، فاستسلمت الكوفة لابن زياد، ونال مسلم مصرعه بعد أن أرسل رسالة تحذير للحسين الذي لم يعرف ذلك إلا بعد أن تحرك وأصبح على مشارف العراق ، وهنا ثار أقارب مسلم بن عقيل وزحزحوا الحسين عن موقفه الجديد الذي آثر فيه الانسحاب بعد علمه بالتطورات الطارئة ، فواصل المسير نحو الكوفة ، معتمدا على اختلاف نظرة العراقيين له عن نظرتهم لابن عقيل ..

إن كثيرا من المؤرخين يلومون الحسين على ثقته في أهل الكوفة رغم خذلانهم أباه عليا ، واعتدائهم على أخيه الحسن ، وهما أفضل منه ، وكانا خليفتين شرعيين يعترف بهما معظم المسلمين .. ومن ثم فإن أهل العراق يتحملون القسط الأكبر من المسئولية عن مقتل الحسين [١] ، فهم قتلته الحقيقيون ؛ حيث لم يشترك في الجيش الذي قاتل الحسين إلا العراقيون ... ورغم ذلك فقد حاول بعض المؤرخين التماس المعاذير لأهل العراق ؛ " إذ لم يكونوا يستطيعون شيئا أمام الحكم الأموي القوي " [٢] ، ونتساءل : إذا كانوا كذلك فلماذا أرسلوا إلى الحسين يستدعونه ويعدونه النصرة ليخوضوا حربا شرسة ضد نظام حكم قوي تسانده عصبيات شتى ؟؟ ..

ولم يكن يتوقع أن يعطى بنو أمية السلطة طائعين للحسين ، فقد كان من الطبيعي أن يدافعوا عن سلطانهم ؛ لقد كان ذلك أيضا يعني الدفاع ــ عند كثير من الناس ــ عن النظام والأمن والخلافة الشرعية المعترف بها [٣] ، ولم يكن يعجزهم أن يجدوا حجة شرعية لقتال الحسين ، " فقد تأول عليه من قتله أنه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها ، وليخلع من بايعه الناس واجتمعوا عليه ، وقد ورد في صحيح مسلم الحديث بالزجر عن ذلك والتحذير منه ، والتوعد عليه ، مثل قوله ﷺ : " إنه ستكون هنات وهنات ؛ فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان " [٤] ..

غير أن ذلك الحديث لا ينطبق تماما على ثورة الحسين ، فإنه لما بلغه ما حدث لابن عمه مسلم بن عقيل وتخلى أهل الكوفة عنه عرض الرجوع من حيث جاء [٥] ، ولكن ابن زياد لم يوافق

---

[١] الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية 129/2 ــ130 ، ابن العربي : العواصم من القواصم 245 ، ابن كثير : البداية والنهاية202/8 ، محمود شاكر : التاريخ الإسلامي 13/4 ، د.مصطفي حلمي : نظام الخلافة ص203 ــ204 ، د.الخربوطلي : تاريخ العراق 117ــ118

[٢] د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 79/2

[٣] راجع دوزي : تاريخ سلمى إسبانيا 58/1

[٤] مسلم : صحيح مسلم ؛ كتاب الإمارة ، ابن كثير: البداية والنهاية 202/8 ، ابن العربي : العواصم ص 245

[٥] ابن تيمية منهاج السنة 247/2 ــ248 ، ويذهب ابن خلدون إلى أن الحديث لا ينطبق على الحسين ، وان قتاله ليس قتال بغاة لأن يزيد فيما يرى ليس إماما عادلا ، بل هو فاسق ظهر فسقه عند الكافة " (راجع المقدمة 621/2 ــ 623) ، وليس هناك ما يؤكد رأى ابن خلدون في ظهور فسق يزيد عند الكافة على نحو ما يذهب إليه ..

على ذلك ، لأن ما عرضه الحسين من الذهاب إلى الأرض العريضة والانتظار حتى يرى ما يصير إليه أمر الناس ، لا يحقق سلاما دائما ؛ وإنما يبقي احتمالات الشقاق والثورة قائمة تهدد سلطان بني أمية، ووحدة الدولة الإسلامية ، غير أن جنوح الحسين للسلام والانسحاب من المعركة كان ينبغي أن يجد ردا إيجابيا من ابن زياد يراعي فيه مشاعر المسلمين ومكانة الحسين وقرابته من رسول الله ﷺ ، كما أنه لا يجوز ارتكاب جرم محقق خوفا من شقاق محتمل ؛ وذلك ما كان يفضله فيما يبدو يزيد بن معاوية الذي راعه ما حدث ، وأكد لآل الحسين لما ذهبوا إلى دمشق أنه لو كان صاحب الحسين ما قتله ولقبل منه أية خصلة يعرضها .. وعلى ذلك فقد قضى الحسين شهيدا مظلوما مثابا [١] ..

ولكن خروج الحسين وثورته استغلت ببراعة من أعداء الأمويين وظل هتاف " يا لثارات الحسين " شعارا لعدة ثورات انتهت بالفشل ؛ ولكن بعد إراقة الدماء الغزيرة بين المسلمين ، ولذلك " فإنه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا ، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله حتى قتلوه مظلوما شهيدا وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده ، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحدث منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ، ونقص الخير بذلك ، وصار سببا لشر عظيم ، وكان فعل الحسين مما أوجب الفتن ، كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن" [٢]...

إن خيال بعض المؤرخين يصل بهم إلى تصور أن دافع الحسين إلى ثورته رغم معرفته بخيانة أهل الكوفة له هو تثوير المجتمع الإسلامي آنذاك ـــ أي دفعه للثورة ـــ والتضحية بنفسه وآله في سبيل تحريك الأمة الهامدة للمطالبة بحقها في اختيار قيادتها ، وهم يصفون ذلك المجتمع الإسلامي آنذاك بالسلبية واللامبالاة ، أو بالتلون والضعف ، أو بأنه مجتمع " مريض يشترى ويباع بقليل من المال ، وكثير من العذاب والإرهاب " [٣] .. ويصفون إقدام الحسين على ثورته بأنه إقدام الفدائي " الذي لا يطمع في الحياة ، أو أنه عمل انتحاري فاجع يلهب الروح النضالية في هذا المجتمع " [٤] ..

إن ذلك الرأي يخلط بين أهداف الثورة في حينها وبعض نتائجها التي آلت إليها [٥] ، كما أنه يهمل الحقيقة التاريخية القائلة بأن الحسين أراد الانسحاب من المعركة لما علم بتخلي جنده عنه ، لأنه كان مسلما يلتزم قواعد الإسلام في ثورته ، ويعلم أنه لابد لتحقيق مشروعية هذه الثورة من الإعداد

---

[١] ابن تيمية : منهاج السنة 243/2 256 ، عمر أبو النصر : الحسين بن علي ص 15 .

[٢] ابن تيمية : منهاج السنة النبوية 241/2 ــ242

[٣] محمد مهدى شمس الدين : ثورة الحسين 204

[٤] السابق 201 ، د. حلمي الخلافة والدولة في العصر الأموي 161،163 ، د.بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية 257 د.الخربوطلي : تاريخ العراق ص 124 .

[٥] يلاحظ أن كثيرا من الثائرين باسم الثأر للحسين بعد ذلك كانوا ممن يؤمن بتوارث السلطة في البيت العلوي بدلا من توارثها في البيت الأموي

الجيد لها وتحقيق فرص كاملة لنجاحها ...كما أننا لا نستطيع أن نتصور كيف يكون المجتمع الإسلامي في الستين عاما الأولى للهجرة مجتمعا سلبيا مريضا ، وهو المجتمع المتحرك الفوار، الذي حقق كثيرا من معاني الإسلام ، ورفع راياته على كثير من بقاع الأرض آنذاك ...

تعقيب

موقف الأمويين من آل البيت

لقد تعرض موقف الأمويين من آل البيت لتزييف شديد ، حيث استغل أعداء الأمويين محاربة معاوية عليا ﷺ بعد تحرك أمير المؤمنين إليه بجيشه في صفين وقتل الأمويين الحسين بعد ثورته عليهم أسوأ استغلال ، إذ صوروا الأمويين وكأنهم في حرب وعداء لبني هاشم ، وتمادى بعضهم في ذلك حيث ادعى تأصل ذلك العداء منذ الجاهلية ، كما مر بنا .. وسوف نعرض في هذا المبحث لأهم الشبهات التي يثيرها المؤرخون في هذا الشأن ..

قضية لعن علي بن أبي طالب على منابر الأمويين :

عند بحث هذه القضية نجد من تضارب الروايات وتناقض المواقف التي ترويها ما يجعلنا مضطرين إلى التفرقة بين أمرين :

أولهما : قناعة بني أمية الشخصية وآرائهم الحقيقية في علي كرم الله وجهه . وثانيهما : ضرورات السياسة الأموية وطبيعة الخصومات ومواقف العوام ..

وينبغي في كلتا الحالتين أن نحذر من تزيد المؤرخين وأكاذيب الرواة ؛ فبعضهم يختلق روايات على لسان بني أمية في فضائل علي وآله ، ويبالغ في ذلك ، وهو يقصد أن يعلي من مكانة بني هاشم ، لأن الفضل ما شهدت به الأعداء ، ويغض من مكانة بني أمية لأنهم إذذاك منافقون يفعلون غير ما يؤمنون ، ويقولون غير ما يفعلون [1] ..

أولا : حقيقة موقف بني أمية من علي ﷺ :

إننا إذا اقتصرنا على ما ترجح صحته من روايات لتحقق لدينا أن معاوية وبني أمية كانوا حسني الرأي في علي وبني هاشم ، تعطفهم عليهم أرحامهم القريبة ودينهم القويم ، فيعرفون لهم فضلهم ، ويقرون به ويصرحون .. فقد رووا أن معاوية طلب يوما من ضرار الصدائي ــ أحد أصحاب علي ــ أن يصفه له ، فوصفه وصفا بليغا مؤثرا فقال :" كان والله بعيد المدى ، شديد القوى، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر بالعلم من جوانبه ؛ وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش

---

[1] راجع مثلا:الإمامة والسياسة114/1 ــ 115 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد 87/5

من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ...." إلخ ، حتى بكى معاوية رحمه الله ، وقال : رحم الله أبا الحسن فلقد كان كذلك [١] ..

وذكر المدائني أنه قيل يوماً لمعاوية :" أيكم كان أشرف ؛ أنتم أو بنو هاشم ؟ قال : " كنا أكثر أشرافاً ، وكانوا هم أشرف ، وكان فيهم واحد لم يكن في بني عبد مناف مثله ، هاشم ، فلما هلك كنا أكثر عدداً ، وأكثر أشرافاً ، وكان فيهم عبد المطلب ، ولم يكن فينا مثله ، فلما مات صرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً ، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا : منا نبي ، فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله ، بمحمد ﷺ ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف ؟ " [٢] ..

وروى ابن كثير عن يحيى بن معين بسنده قال : " تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون : فلان ، وقال قائلون : فلان ، فقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب " [٣] ..

ولما لام أحد أصحاب عبيد الله بن زياد إياه على قتله الخوارج على الظنة قال : وأما قتل من قتلت من الخوارج فقد قتلهم من هو خير مني ، علي بن أبي طالب ﷺ [٤] ..

وروى ابن أعثم ـــ وهو شيعي قح ـــ أن الحجاج سأل ثلاثة نفر من الخوارج أصحاب شبيب الخارجي بعد هزيمتهم عن دينهم ، ثم سألهم : " ما تقولون في الختنين علي وعثمان ، والحواريين طلحة والزبير ، والحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري ؟ فقالوا : إنهم كفار ، وليس الحكم إلا لله رب العالمين ، فقدموا فضربت أعناقهم صبراً " [٥] ، فها هو ذا قد ساوى بين علي وعثمان في سؤاله ، ومعلوم تفضيل الأمويين عثمان ، كما هو معلوم مدى خصومه الحجاج لأعداء بني أمية ، ومنهم شيعة علي المدّعون ..

هذا عن حقيقة رأى بني أمية في علي وقومه ، وسوف نعرف مزيداً من ذلك عند الحديث عن معاملة الأمويين لآل البيت رغم الحروب بينهم ..

---

[١] القالي : الأمالي 147/2 ، البيهقي المحاسن والمساوئ ١/45ـــ46 وتجعل بعض الروايات صاحب علي هو عدي ابن حاتم بدل ضرار الصدائي (البيهقي السابق 46ـــ47)

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية 138/8

[٣] السابق 5/8

[٤] الدينوري : الأخبار الطوال 285

[٥] الفتوح 93/7

ثانيا : حقيقة لعن علي على لسان بني أمية :

معلوم أن سباب المسلم حرام [1]؛ ويعظم ذلك إذا كان من أصحاب النبي ﷺ، المشهود لهم، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : " لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " [2] ..

فإذا كان الأمر كذلك ، وقد مر بنا حديث عن التزام معظم الخلفاء والولاة الأمويين بأحكام الإسلام ، كما مر بنا حقيقة تقديرهم عليا ﷺ واعترافهم بفضله ، ولم يكن موقفهم من آل البيت في الحقيقة موقف عداء أو تصفية حسابات كما يردد الجاهلون ، فلماذا وقع الأمويون في ذلك التناقض بين ما يعتقدون وما يقولون ويروجون حين سبوا عليا على منابرهم ؟؟

إن دعوى سباب علي هذه قديمة تمتد بداياتها إلى أيام الفتنة الكبرى التي أعقبت مقتل عثمان ﷺ حيث اتهم الأمويون عليا ﷺ بالتحريض عليه ، أو التستر على قتلته ؛ لما استخلف على الأمة ، فثارت نفوس بني أمية وأهل الشام على قتلة الخليفة المظلوم ، وأصبح الجو مهيأ لسبابهم والدعاء عليهم .. ومنهم كما يظنون علي وقادة جيشه .. وفي هذه الأجواء المفعمة بالكراهية كان السبئية قتلة عثمان يروجون دعاياتهم المسمومة ضد عثمان وبني أمية ، ويثيرون الأقاويل عن ظلمهم وأثرتهم ؛ فأثاروا النفوس أيضا لسبابهم والدعاء عليهم .. وقد مرت بنا حجج الفريقين في تقاتلهم ، وهي نفسها حجج الفريقين في تلاعنهم ..

وعلى ذلك فقد زعم الرواة أن عليا كان " إذا صلى الغداة يقنت فيقول : اللهم العن معاوية وعمرا (أي ابن العاص) وأبا الأعور (السلمي) وحبيبا (بن مسلمة الفهري) وعبد الرحمن ابن خالد(بن الوليد) والضحاك بن قيس ، والوليد (بن عقبة) ، فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر (النخعي) [3] ، ولذلك يقول ابن تيمية : " وأما ما ذكره (أحد الرافضة) من لعن علي ؛ فإن التلاعن وقع من الطائفتين ، كما وقعت المحاربة ، وكان هؤلاء يلعنون رءوس هؤلاء في دعائهم ، وهؤلاء يلعنون رءوس هؤلاء في دعائهم ، وقيل إن كل طائفة كانت تقنت على الأخرى ، والقتال باليد أعظم من التلاعن باللسان ، وهذا كله سواء كان ذنبا أو اجتهادا مخطئا أو مصيبا ؛ فإن مغفرة الله ورحمته تتناول ذلك بالتوبة والحسنات الماحية (

---

[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (رواة بن ماجة 1299/2ـ 1300رقم الحديث 3939 ـ3941 ، أحمد : المسند حديث رقم ٣٩٠٣

[2] البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، مسلم : باب تحريم سب الصحابة ،الترمذي 358/5 ورقم الحديث 3952 وقال: حديث حسن صحيح ، أبو داود : السنن ، حديث رقم ٤٦٥٨

[3] ابن الأثير : الكامل 168/3 ، ابن كثير : السابق 283/7 وقال : ولا يصح هذا والله أعلم

للذنوب) والمصائب المكفرة ، وغير ذلك ، ثم من العجب أن الرافضة تنكر سب علي وهم يسبون أبا بكر وعمر وعثمان ويكفرونهم ومن والاهم ، ومعاوية وأصحابه ما كانوا يكفرون عليا " [1] ...
هذا عن سب علي ، وأما أهل البيت فيقول ابن تيمية : " وأما أهل البيت فلم يسبوا قط ، ولله الحمد " [2] ..

ولم ينته ذلك الصراع بقيام الدولة الأموية ، بل استمر طوال عهدها ، فقد قامت هذه الدولة على أساس الطلب بدم عثمان من قاتليه الظالمين ، الذين استباحوا دمه ، فوجبت استباحة أقدارهم ودمائهم ، وكذلك كان أعداء هذه الدولة من الرافضة خاصة يرون أن من تمام إسلامهم سب عثمان وانتقاصه ، ومعاوية وبني أمية ، وإعلاء شأن علي وآله ، ليتخذوا من ذلك ذريعة لإعلاء شأن أسلافهم من السبئية قتلة أمير المؤمنين عثمان ..

وإذا كانت هناك أدلة كثيرة — احتفي بها المؤرخون — على لعن علي وسبه ، فإن هناك أدلة كثيرة أخرى على استمرار سب عثمان وخلفاء الأمويين في دولتهم ، من ذلك أنه قد شاع فيما يبدو في أواخر عهد علي سب عثمان حتى تحول جرير بن عبد الله البجلي وحنظلة بن الربيع الكاتب وعدي بن حاتم من الكوفة إلى قرقيسيا ، وقالوا : لا نقيم ببلد يشتم فيه عثمان [3] .. وروى ابن عساكر أن أبا رجاء العطاردي كان يوصي أصحابه في مرض وفاته فيقول : اتقوا الله تعالى ، ولا تسبوا عليا ، وابغضوا من يسبه ؛ واتقوا الله ولا تسبوا عثمان ، وأبغضوا من يسبه " [4] ..

وقد شاع سب عثمان في العراق حتى اغتر بذلك بعض عوام الناس ، فربطوا بين حب علي وسب عثمان ! فقد جاء رجل إلى الحسن البصري فقال : إني أحب الله ورسوله ، وأحب عليا ، وأقوام عندنا يقولون : إن لم تسب عثمان لم يغن عنك حب علي ! فقال الحسن : يا بني إن الذي يأمرك بهذا لعثمان خير منه ومني ومنك ، ثم أخذ يعدد له من فضائله [5] ، ولقد كان حجر بن عدي وأصحابه الذين ثاروا ببني أمية فقتلوا في عهد معاوية سنة 51 هـ [6] يسبون عثمان ومعاوية وينتقصونهما [7] ، وزعم الرواة أن ذلك كان لسب الأمويين عليا في عهدهم ، ولكن حتى بعد أن أبطل

---

[1] منهاج السنة النبوية 225/2

[2] مجموع الفتاوى 79/35

[3] ابن عساكر تاريخ دمشق ترجمة عثمان ص 518

[4] السابق ص 253

[5] السابق 523

[6] راجع في أحداث هذه الثورة الطبري : السابق 253/5 — 278 ، وابن كثير : السابق 50/8—51 الدينوري : الأخبار الطوال 223—224 وراجع عن تقييمها : العواصم من القواصم هامش ص219 لمحب الدين الخطيب ..

[7] الطبري : السابق 254/5 ، وابن كثير : السابق 50/8

عمر بن عبد العزيز تلك البدع ونهى عن سب علي على المنابر ؛ ظل بعض المتهوسين يشتم معاوية ويسبه ؛ فاضطر عمر بن عبد العزيز أن يضربه أسواطا ليزجره عن عمله[١].

ومن ناحية أخرى فقد كان خصوم الأمويين من الرافضة يبالغون في أمر علي ، فيؤلهونه حينا ، ويقدسونه آخر ، ويزعمون أن له الوصية والرجعة .. إلى آخر هذه المخترعات ، وفي بيئات مثل العراق وفارس كانت هذه المزاعم تجد سوقا رائجة ، فقد كانت تتفق مع تراث فارس وأهواء أهلها ؛ الذين يرون أن ملوكهم يجري في عروقهم دم مقدس ، ويشدهم إلى تمجيد آل البيت مصاهرة طارئة حين تزوج الحسين بن علي ابنة أحد ملوكهم الهالكين [٢] .. وأقل ما في مبالغاتهم عن علي تفضيله على جميع الصحابة مع الغض من شأنهم ! فكان الأمويون يرون أنه لابد لهم لهز هذه المعتقدات الفاسدة ، وضرب أحلام الموالي في استغلال عاطفة السذج والبسطاء ، والدفع بهم إلى الثورة على بني أمية حبا في علي وآله، من انتقاص قدر علي ؛ معتمدين في ذلك على ما يتصورونه من دور له في قتل عثمان ، أو حماية قاتليه ، أو هجومه عليهم ومحاربتهم في صفين.

ولذلك يروون أن المغيرة بن شعبة عامل معاوية على العراق لما بلغه أن صعصعة بن صوحان — أحد الشيعة المقربين — يعيب عثمان ويكثر من ذكر علي وفضله ، قال له : " إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس ، وإياك أن يبلغني عنك أنك تظهر شيئا من فضل علي علانية ، فإنك لست بذاكر من فضل علي شيئا أجهله ، بل أنا أعلم بذلك ، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد أخذنا بإظهار عيبة للناس ، فنحن ندع كثيرا مما أمرنا به ، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بدا ، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقية ؛ فإن كنت ذاكرا فضله فاذكره بينك وبين أصحابك ، وفي منازلكم سرا ، وأما علانية في المسجد فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا ، ولا يعذرنا به " [٣]..

ورغم التحفظ على بعض ما في هذه الرواية من عبارات ؛ فإن الدلالة تظل واضحة على التفريق بين السر والعلن ، والاعتقاد والإعلان له ، مع التخوف من استمالة قلوب البسطاء بتهاويل الشيعة ومبالغاتهم ..

ويروون أن مروان بن الحكم كان يلي المدينة بالتناوب مع سعيد بن العاص ؛ فكان إذا ولي مروان بالغ في سب علي ، وإذا عزل عنها وولي سعيد كف عن ذلك ، فسئل محمد الباقر بن علي ابن الحسين عن ذلك فقال : كان مروان خيرا لنا في السر ، وسعيد خيرا لنا في العلانية [٤]

---

[١] ابن كثير: السابق 139/8

[٢] د. العدوى : تاريخ العالم الإسلامي 191/1 ، إحسان إلهي ظهير السنة والشيعة 57 ، نقله عن براون تاريخ أدبيات إيران 215/1

[٣] الطبري : السابق 189/5 وابن الأثير : الكامل 214/3

[٤] ابن الأثير : السابق 248/3

فكلاهما خير لهم ، ولكن كل منهما يجتهد فيما يحقق مصلحة الدولة والرعية ؛ ولم يكن أحدهما يرى في سب علي دستوراً ينبغي الحفاظ عليه وإلزام الناس جميعاً به [١] ؛ أو اعتقاداً لا يتنازل عن تبعاته ، ولذا فقد كان آل البيت يعلمون الفرق بين حقيقة رأي الأمويين فيهم ، وما تضطرهم إليه دعاوى السياسة ، فكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان الصلاة ، رغم أنه يسب أباهما ــ فيما يزعم الرواة ــ [٢] ، كما ذكروا أن الحسن والحسين لم يريا طوال حياة معاوية منه سوءاً في نفسيهما ولا مكروهاً ، ولا قطع عنهما شيئاً مما كان شرط لهما ، ولا تغير لهما عن بر [٣] ؛ وهذا يدل على أن سباب علي لم يكن أمراً مطرداً ، أو بسبب تعليمات صريحة من الخلافة كما يروى الكذابون من الرواة ...

وروى ابن طباطبا العلوي أن عمر بن عبد العزيز منع التهجم على علي ﷺ من فوق المنابر، ويروي سبب ذلك فيقول :" قال عمر بن عبد العزيز : كان أبي عبد العزيز بن مروان يمر في الخطبة يهزها هزّاً ، حتى إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين علي عليه السلام تتعتع ، فقلت له ذلك ، فقال : يا بني أدركت هذا مني ؟ قلت : نعم ، قال : يا بني ؛ اعلم أن العوام لو عرفوا من علي بن أبي طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا إلى ولده ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قطع السب ، وجعل مكانه قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ....) [٤].

ورغم كل ذلك فإن الرواة لا يخبروننا بماذا سب الأمويون علياً ؟ إنهم لا يذكرون من ذلك إلا الهامه في أمر عثمان ، وبعض الناس كان يرى أن في تسمية بعضهم لعلي بأبي تراب مثلاً سباباً له ، ونحن نعلم أن النبي ﷺ هو الذي سماه بذلك لما أغضب علي زوجته فاطمة بنت محمد ﷺ فذهب النبي مصالحاً له ، فوجده قد نام على التراب حتى علاه ، فسماه بذلك "وما كان له اسم أحب إليه منه" [٥].

٢ـ موقف الأمويين من آل البيت :

سبق أن ذكرنا أن الحسن والحسين لم يريا طوال حياة معاوية منه سوءاً في نفسيهما ولا مكروهاً ، وأنه لم يقطع عنهما شيئاً مما كان شرط لهما في صلحه مع الحسن ؛ ولا تغيّر لهما عن برٍّ، وذلك مما يتفق مع سياسة معاوية الذي كان يهدف إلى تجميع صفوف الأمة كلها تحت خلافته بعد

---

[١] ابن حجر : فتح الباري 29/7 ، ياقوت : معجم البلدان 458/3

[٢] ابن الأثير: السابق 248/3

[٣] الدينوري : الأخبار الطوال 225

[٤] الفخري 129 ، توجد روايات أخرى عن السبب . ذلك عند ابن الأثير : السابق 154/4 ، والديار بكري : تاريخ الخميس 317/2

[٥] ابن حجر : فتح الباري 87/7 ـــ 88

صراع طويل دام ، ويتفق مع حلمه وصلته ، حتى ليذكر ابن كثير ما يعد عجيبا في ذلك المجال حين يروي بسنده عن ابن أبي الدنيا أن الحسن وعبد الله بن جعفر قد أرسلا إلى معاوية في أثناء صراعه مع علي بن أبي طالب ﷺ يسألانه مالا ، فبعث إليهما ، أو إلى كل منهما بمائة ألف ، فبلغ ذلك عليا فقال لهما : ألا تستحيان ؟ رجل نطعن في عينيه غدوة وعشية تسألانه المال ؟ فقالا : بل حرمتنا أنت وجاد هو لنا [١] ..

وكان معاوية يجل الحسن ويعترف بفضله وبأنه أكرم الناس نسبا [٢] وكان كذلك يجل ابن عباس ، حتى إذا وفد عليه أكرمه وقربه وعظمه ، وألقى عليه المسائل المعضلة ، فكان يجيب عنها سريعا ؛ فيقول معاوية : ما رأيت أحدا أحضر جوابا منه [٣] ، وقد مر بنا أن ابن عباس كان يشهد لمعاوية بالفقه ، ولما مات الحسن بن علي اتفق كون ابن عباس عند معاوية ، فعزاه فيه بأحسن تعزية ، ورد عليه ابن عباس ردا حسنا ، ثم بعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس فعزاه بعبارة فصيحة وجيزة ، فقال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ، ثم أنشد يقول :

بعاد عن العورات لا ينطقونها وأهل وراثات الحلوم الأوائل [٤]

وإذا كان هذا موقف معاوية ويزيد إزاء وفاة الحسن ؛ فقد أصر مروان بن الحكم أن يحمل سريره في جنازته [٥] ..

وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وثيق الصلة بمعاوية ، حتى لقد سمى ابنا له باسم معاوية [٦] ، كما سمى ذلك الابن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابنه يزيد ؛ تيمنا باسم يزيد بن معاوية الذي كان صديقا له وقريبا منه [٧] ؛ ولما مات عبد الله بن جعفر رثاه عمرو بن سعيد الأشدق [٨] ، وقلم عمرو بن عثمان بن عفان فوقف على شفير قبره وقال : رحمك الله يا ابن جعفر ، إن كنت لرحمك واصلا ، ولأهل الشر لمبغضا ، ولأهل الريبة لقاليا [٩] ..

---

[١] البداية والنهاية 137/8

[٢] ابن عبد ربه : العقد الفريد 87/5

[٣] ابن كثير : السابق 304/8

[٤] ابن طولون : قيد الشريد 33 ، ابن كثير : البداية والنهاية 304/8

[٥] الأصفهاني : مقاتل الطالبين 82

[٦] الأصفهاني : الأغاني 222/12

[٧] السابق 223/12

[٨] السابق 220/12

[٩] السابق 219/12

ويحكي ابن سعد بسنده عن الزهري أن زين العابدين علي بن الحسين كان أقصد أهل بيته، وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى مروان بن الحكم وابنه عبد الملك [١] ، وروى عن عبد الله بن علي ابن الحسين أنه قال : لما قتل الحسين بن علي قال مروان لأبي : أن أباك كان يسألني أربعة آلاف دينار ، فلم تكن حاضرة عندي ، وهي اليوم عندي متيسرة ، فإن أردتها فخذها ، فأخذها أبي ، فلم يكلمه أحد من بني مروان فيها حتى قام هشام بن عبد الملك فقال لأبي : ما فعل حقنا قبلكم ؟ قال : موفر مشكور، قال : هو لك [٢] ..

ولما قتل ابن الزبير بايع ابن الحنفية عبد الملك بن مروان بالخلافة وأرسل إليه بذلك ، فكتب إليه عبد الملك يقول : " إنك عندنا محمود ، أنت أحب وأقرب بنا رحما من ابن الزبير ، فلك العهد والميثاق وذمة الله وذمة رسوله أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه ، ارجع إلى بلدك ــ وكان ابن الزبير أخرجه إلى الطائف لما رفض بيعته واختلف معه ــ واذهب حيث شئت ، ولست أدع صلتك وعونك ما حييت "، وكتب إلى الحجاج ــ واليه آنذاك على الحجاز ــ يأمره بحسن جواره وإكرامه ، فرجع ابن الحنفية إلى المدينة [٣] ، وزار ابن الحنفية عبد الملك برفقه الحجاج فقال له : " يا أمير المؤمنين إن هذا ــ يعني الحجاج ــ قد آذاني واستخف بحقي ، ولو كانت خمسة دراهم أرسل إلي فيها ، فقال عبد الملك للحجاج : لا إمرة لك عليه ، فلما ولي محمد بن الحنفية قال عبد الملك للحجاج : أدركه ، فسل سخيمته ، فأدركه فقال : إن أمير المؤمنين أرسلني إليك لأسل سخيمتك ؛ ولا مرحبا بشيء ساءك [٤] .. كما فرض عبد الملك لولد ابن الحنفية ولغيرهم من خاصته ومواليه ، وقضى عنه دينه وحوائجه [٥] ...

وكان عبد الله بن عباس ــ لما طرده ابن الزبير مع ابن الحنفية من مكة فذهبا إلى الطائف ــ أرسل ولده علي بن عبد الله بن عباس إلى عبد الملك بالشام ، وقال : لأن يربني بنو عمي أحب إلى من أن يربني رجل من بني أسد ، يعني ابن الزبير[٦] ، فلما أتى علي بن عبد الله بن عباس عبد الملك بالشام ذم إليه ابن الزبير ، وأعلمه ما كان أبوه وأهل بيته لقوا منه لامتناعهم عن بيعته ، وأن أباه أوصاه ليلحق به ، فأحسن عبد الملك إجابته وحمله وحمل عياله إلى الشام ، وأنزله دارا بدمشق ، ولم يزل يجري عليه الهدايا والعطاء أيامه كلها [٧] ، وكان مكرما له ؛ فلما أهديت إليه من خراسان جارية

---

[١] الطبقات الكبرى 215/5

[٢] السابق 214/5 ــ 215

[٣] ابن سعد الطبقات الكبرى 111/5

[٤] السابق 113/5

[٥] السابق 112/5 وابن الأثير : الكامل 376/3

[٦] أنظر ابن أعثم : الفتوح : 286/6 ــ288

[٧] اليعقوبي : السابق 17/3

وفص خاتم وسيف ؛ وكان علي معه في مجلسه قال عبد الملك : يا أبا محمد إن حاضر الهدية شـريك فيها ، فاختر من الثلاثة واحدا، فاختار الجارية ، فأولدها سليمان بن علي وصالح بن علي[١]، وكم كان لهذين الرجلين من دور في الانتقام من بني أمية بعد قيام ثورة العباسيين !

وأصهر عبد الملك بن مروان لآل البيت ، فقيل إنه تزوج ابنة لعلي بن أبي طالب[٢] ، كمـا تزوج أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب [٣] ، وكذلك تزوج عامله الحجاج إحدى بنـات عبد الله بن جعفر ؛ فلم يرض بذلك بنو هاشم ولا بنو أمية حتى فرقوا بينه وبينها ، حيث لم يـروه كفئا لها [٤] ، وكانت علاقات المصاهرة تتشعب بين الفريقين من بني عبد مناف ، فقد تزوج الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامل الأمويين على المدينة ومكة لبابة بنت عبيد الله بن العباس ، فولدت له ابنـه القاسم [٥] ، كما تزوج الوليد بن عبد الملك ــ وهو خليفة ــ نفيسة بنت زيد بن الحسن بن علـي ، ثم فارقها [٦].. وهكذا نجد الرغبة الصادقة عند بني أمية في كسب ود بني هاشم ، وأن هـذه الرغبـة كانت موجودة أيضا عند بني هاشم في معظم الأحوال ، حتى إذا فكر أحدهم في الثورة على الخلافـة التي بايعها المسلمون ؛ حاول الأمويون معالجة الأمر برفق ، ومنع أسباب الثـورة ، والحيلولـة دون اندلاعها، حتى إذا لم يبق سبيل إلى ذلك لم يجدوا بدا من قتال الثائرين ؛ نجد هذا واضحا كما مر بنا في ثورة الحسين ،ونجده أيضا في ثورات غيره من العلويين مثل زيد بن علي بن الحسين [٧] ويحيى بن زيد [٨]، كما نجده في معالجة الأمويين لدعاية العباسيين بخراسان أثناء التمهيد لثورتهم أواخر دولة بني أمية [٩].

حتى إذا نجح بنو العباس في الإطاحة بالخلافة الأموية انقسم البيت الهاشمي على نفسه ولقـي بنو طالب من بني عمومتهم أضعاف ما لقوه من الأمويين أثناء حكمهم ، من تضييق ومصادرة وقتـل ذريع ، حتى لقد سمع محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي ــ الذي ثار على أبي جعفر المنصور فيمـا بعد ــ رثاء أحد الشعراء من بني عبد شمس لهم فبكى ، " فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علـي : أتبكي على بني أمية وأنت تريد ببني العباس ما تريد ؟ فقال : والله ياعم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما

---

[١] ابن عبد ربه العقد الفريد 104/5

[٢] الطبري : السابق 420/6 وقد قال ابن الأثير عن ذلك انه لا يصح (الكامل103/4)

[٣] الطبري : السابق 420/6 وابن الأثير103/4

[٤] ابن تيمية : مجموع الفتاوى 79/35

[٥] الزبيري : نسب قريش 32

[٦] السابق والصفحة

[٧] راجع الطبري : السابق ١٦٠/٧-١٧١

[٨] راجع السابق ٧/ ٢٢٨-٢٣٠

[٩] الطبري : السابق 50/7 ــ 51 ، الدينوري : الأخبار الطوال 335

نقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم ، وإن الحُجة على بني العباس لأوجب منها عليهم ، ولقد كان للقوم (أي بني أمية) أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر" [١] ..

ثانيًا : ثورة أهل المدينة

ذهب من أهل المدينة وفد للقاء يزيد بن معاوية بالشام سنة ٦٢ هـ ثم عاد أفراده من هناك ليخلعوه بعد أن نالوا جوائزه ، بحجة أنهم رأوه فاسقاً لا تحل له خلافة المسلمين ، وتجرأ بخلعهم له بعض أهل المدينة الذين وثقوا بكلام زعمائهم هؤلاء ، غير أنه ليس من الصحيح أن جميع أهل المدينة خلعوا يزيد ؛ أو أن جميع زعمائهم رضوا ذلك ، فقد رفض جماعة من أفاضل الصحابة والتابعين خلع الخليفة الذي بايعوه ؛ مثل عبد الله بن عمر ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين بن علي وسعيد بن المسيب وغيرهم ، وبعض هؤلاء تصدى لمحاورة زعماء الثورة ومحاولة إقناعهم بالحفاظ على بيعتهم ، وبينوا لهم بطلان ادعائهم فسوق يزيد مثلما حدث من ابن عمر وابن الحنفية .

فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما أنه " لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال : إني سمعت النبي ﷺ يقول : يُنصب لكل غادر لواء يوم القيامة ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يُبايَع رجل على بيع الله ورسوله ثم يُنصب له القتال ، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه " [٢] ..

وقد تصدى محمد بن الحنفية لمناقشة دعاوى الثوار عن فسوق يزيد وتفنيدها لما سار إليه عبد الله بن مطيع العدوي وأصحابه من زعماء الثورة فأرادوه على خلع يزيد فأبى ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدى حكم الكتاب ، فقال لهم ابن الحنفية : ما رأيت منه ما تذكرون ؛ وقد حضرته وأقمت عنده ؛ فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازماً للسنة ، قالوا : ذلك كان منه تصنعاً لك ، فقال : وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا ، قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه ، فقال : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : (إلا من شهد بالحق وبه يعلمون) ، ولست من أمركم في شيء ، قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ؛ فنحن نوليك أمرنا ، فقال :

---

[١] الأصفهاني : الأغاني 279/11 — 281

[٢] البخاري : الصحيح : كتاب الفتن ، حديث رقم ٧١١١ ، مسلم : الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، ابن طولون : قيد الشريد 39 ، ابن حجر : فتح الباري 68/13—69 ، وقد ظل ذلك هو موقف ابن عمر تجاه ثورة ابن الزبير؛ فلم يبايعه رغم الضغوط العديدة (راجع البياسي : الإعلام بالحروب ورقة ٣٢ مخطوط) ..

ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعا ولا متبوعا ، فقالوا : قد قاتلت مع أبيك ، قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه ، قالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا ، قال : سبحان الله ، آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ؟ إذن ما نصحت لله في عباده ، قالوا : إذن نكرهك ، قال : إذن آمر الناس بتقوى الله ؛ وألا يرضوا المخلوق بسخط الخالق ، ثم خرج إلى مكة[1].

كما أن جماعات كاملة من أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار على السواء قد احتفظوا ببيعتهم ليزيد ؛ ولم يشاركوا في الموقعة التي نشبت إثر ذلك ، فعلى حد قول الإمام محمد الباقر: " لم يخرج أحد من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب في وقعة الحرة " [2] ؛ وكان بنو أمية ومواليهم يشكلون عددا ضخما من أهل المدينة بلغوا ألف رجل أو ثلاثة آلاف رجل على خلاف في الروايات [3] ، وكذلك ظل بنو حارثة من أهل المدينة من الأنصار على ولائهم للخليفة وساعدوا جيش الأمويين على دخولها فيما بعد [4].

وعلى ذلك فلا يصح القول بأن أهل المدينة ــ بهذا الإطلاق ــ قد خلعوا الخليفة الأموي أو ثاروا عليه ..

ولم يعجل يزيد بمواجهة تمرد ثوار المدينة وخلعهم البيعة ، فقد بعث النعمان بن بشير الأنصاري إليهم " ليفثأهم عما يريدون "، فذهب إليهم وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخوفهم الفتنة ، وأنه لا طاقة لهم بأهل الشام ، فلم تجد محاولته شيئا [5] ؛ وكذلك لم تجد وساطة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي وعده يزيد أن يعطي أهل المدينة ما أرادوا ويرضيهم إن رجعوا عن ثورتهم [6] ... وأمر يزيد قائده مسلم بن عقبة المري أن يدعو أهل المدينة ثلاثا قبل إن يحاربهم ، فلم ينههم ذلك عما أرادوا [7] ؛ وكان أهل المدينة من الثائرين قد حصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم ، فأرسلوا يستغيثون بالخليفة [8] الذي أخذ يعد العدة لتأديب الثائرين ، فلما علم الثائرون بذلك أخرجوهم ، ولم تجد معهم مناشدة واليهم الأموي لهم بألا يخرجوهم ، حتى لقد تحير مروان بن الحكم أين يدع عياله ، وهو يخرج من المدينة ، فقد خشي ابن عمر أن يضمهم إلى نسائه فيصيبه بذلك أذى ، ثم قبل علي

---

[1] راجع ابن كثير : البداية والنهاية 233/8 ، د. شعوط :أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص 227ــ228

[2] ابن طولون : السابق 40 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 215/5 ،ويذكر المسعودي خروج ثلاثة من بني عبد المطلب (مروج الذهب 79/3) ، وانظر الطبري : السابق 488/5 ــ 489

[3] الطبري : السابق 483/5 ، الأصفهاني : الأغاني 37/1

[4] الطبري : السابق495/5 ، الإمامة والسياسة 213/1 ، ابن عبد ربه: السابق 388/4 ــ489

[5] الطبري : السابق 481/5

[6] ابن سعد : السابق 145/5 ، الإمامة والسياسة 207/1

[7] الطبري : السابق 484/5

[8] السابق 482/5ــ483

بن الحسين أن يقوم بذلك العمل في هذه الظروف الحرجة [١] وكان إخراجهم على وجه قبيح حتى لقد تبعهم الصبيان وسفهاء الناس يرموهم بالحجارة [٢]..

حول دعوى استباحة الأمويين المدينة :

ولم يستغرق مسلم بن عقبة كبير وقت في قمع الثورة والقضاء عليها في ذي الحجة سنة ٦٣هـ في الموقعة التي عرفت بموقعة الحرة ، غير أن بعض المؤرخين زعموا أن جيش الأمويين قد استباح المدينة ثلاثة أيام بعد انتصاره ؛ مما يبدو محض اتهام وزعم ، فلا يعقل أن يرتكب جند الشام هذه الشناعات المنسوبة إليهم من قتل الآلاف وهتك الأعراض [٣] إلى غير ذلك وهم من المسلمين المجاهدين والفاتحين ، وربما وقعت بعض أحداث النهب من بعض الجنود المغتاظين ، ولكنها كانت أحداثا محدودة الوقوع والأثر ، وربما ظنوا أن في ذلك عقوبة ونكالا للثائرين ؛ ولكن لا يمكن أن نصدق أن يقوم المسلمون من جند الشام بهتك أعراض نساء إخوانهم في الدين في ذلك الوقت المبكر من عمر الإسلام ، كذلك يبدو الإسراف واضحا في تقدير أعداد القتلى الذين قتلهم جيش مسلم ابن عقبة من أهل المدينة ؛ حتى أوصلتهم بعض الروايات إلى عشرة آلاف رجل [٤] ؛ فإن جيش الشام لم يكن يعدو اثني عشر ألف رجل ، ويبدو أن أعداد جيش أهل المدينة كانت أقل من ذلك العدد ، أو قريبا منه ، إزاء ما نعرف عن التفريغ السكاني الذي تعرض له الحجاز كله مع هجرة كثير من سكانه إلى الأمصار والبلاد المفتوحة والثغور للسكنى والجهاد ، ومن جماع هذه الروايات تبدو رواية خليفة بن خياط عن بقي بن مخلد أجدرها بالقبول ، فهي تقدر أعداد القتلى بثلاثمائة رجل ، وهي لا تكتفي بذلك ، بل " ضمت بيانا بأسماء هؤلاء وانتماءاتهم ؛ حيث كانت الغالبية منهم من الأنصار" [٥] وذلك ما يؤكده ابن تيمية حيث قال "... لكن لم يقتل جميع الأشراف ، ولا بلغ عدد القتلى عشرة آلاف ، ولا وصلت الدماء إلى قبر النبي ﷺ ، ولا إلى الروضة (الشريفة) ولا كان القتل في المسجد " كما يدعي الرافضة [٦] ، وذلك أيضا ما يقرره فلهوزن بقوله : ".. فلم تخرب المدينة ، ولم يلبث أن رجع إليها أهلها الأمويون الذين كانوا قد أخرجوا منها ، .. وظلت المدينة كما كانت من قبل مدينة

---

[١] الأصفهاني السابق 35/1 ، الإمامة والسياسة 208/1

[٢] الإمامة والسياسة 208/1 ، والأصفهاني : السابق 35/1ـــ36

[٣] ابن طباطبا : الفخري 116 ، وابن كثير : البداية والنهاية 221/8

[٤] الإمامة والسياسة 215/1 وانظر ابن عبد ربه : العقد الفريد389/4 ـــ390 ، وزاد ابو الفدا على ذلك انظر المختصر 192/1

[٥] د.بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية 279 ، وانظر خليفة بن خياط : تاريخ خليفة 313/1

[٦] منهاج السنة النبوية 353/2

مرحة ؛ ومقرا لا للتراث الديني وحده ؛ بل لأرق طوائف المجتمع العربي وأرقاهـــا "[١]، ويلاحـظ فلهوزن أنه قد روي عن عوانة بن الحكم أن مسلم بن عقبة دعا الناس إلى البيعة ليزيد في اليوم التـالي للمعركة ، وقتل عددا من قادة الثورة الناجين رغم معارضة مروان بن الحكم لذلك ، وإذا كان ذلـك قد حدث فقد عادت الأمور سريعا إلى الهدوء لما تحققت هذه البيعة ، إذ لا معنى عندها لاســتمرار النهب والقتل بعد ذلك الأمان ، كما أن رواية وهب بن جرير لا تذكر شيئا عــن إسـلام المدينـة للنهب، فيما يرويه عنه الطبري ؛ ويختتم فلهوزن هاتين الملحوظتين بقوله : " بل إنه من المشكوك فيـه أن يكون (مسلم بن عقبة) بعد انتصاره قد أنهب المدينة للجند ثلاثة أيام ، ولقد أرغم أهل المدينـة على البيعة ليزيد ، لكن ذلك لم يكن على صورة كريهة غير مألوفة [٢]؛ حيث يزعم الرواة أنه اشـترط عليهم أن يبايعوه على أنهم خول ليزيد ، ومن رفض ذلك ضرب عنقه [٣]..

وأكد المؤرخون إكرام جيش يزيد من رفضوا الاشتراك في الثورة عليهم ؛ وكفهم عنـهم؛ مثل على بن الحسين [٤] وجابر بن عبد الله الذي حماه مروان بن الحكم وأغلق عليه بابه وهـو يجـاهر بالإنكار على بني أمية [٥] وأبي سعيد الخدري [٦] وعلى بن عبد الله بن العباس [٧] وبني حارثة الذيـن لم يشتركوا في الثورة فلم يقتل منهم أحد [٨] ..

وكذلك يبدو من قبيل التحامل الممجوج اتهام الأمويين بأنهم غزوا المدينة للثأر لقتلاهم مـن المشركين يوم بدر[٩] ، فمن المؤكد أن يزيد بذل جهدا واضحا في استصلاح أهل المدينة وكفهم عــن الثورة ، فلما فشل ووقعت الواقعة حزن حزنا بليغا على ما حاق بهم ، ثم بعث بالضحاك بن قيـس ليجبرهم ، ومعه الطعام والأعطيات [١٠] ؛ كما كان مروان بن الحكم ـــ رغم ما لاقاه من عنــت في

---

[١] تاريخ الدولة العربية 159

[٢] السابق 157 وانظر الطبري: السابق 491/5 ـــ 492 ، 495

[٣] الطبري : السابق5/493ـــ495

[٤] الطبري : السابق484/5ـــ 485 ، 493 ـــ 494 ، وانظر ابن سعد : السابق :215/5

[٥] الإمامة والسياسة 214/1

[٦] الطبري : السابق 491/5 وواضح تحامل الرواة على بني أمية في هذه الرواية رغم ذلك

[٧] المسعودي : مروج الذهب 80/3

[٨] الإمامة والسياسة 213/1

[٩] ابن عبد ربه : السابق 390/4 ،د. بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية281ـــ282 ، دوزى 73/1 ، سيد أمير علـي : مختصر تاريخ العرب ص70

[١٠] الإمامة والسياسة 218/1 ، وابن كثير : السابق 234/8 ، ابن طولون : السابق ص 40ـــ41

هذه الثورة ــ شديد التعاطف مع زعماء الثائرين لما قتلوا ، وقد سجلت كتب التاريخ رثاءه زعيميهم عبد الله بن حنظلة الغسيل [1] ومحمد بن عمرو بن حزم [2] وشهادته لهما بالخير والصلاح ..

وهكذا انتهت أحداث ثورة المدينة نهايتها المتوقعة من قوم خلعوا أميرهم بغير عدة ، ولما استعدوا لقتاله كانوا متفرقي الأهواء ، فكان لهم أميران أحدهما أنصاري والآخر قرشي [3]، وخالفهم بعض أهلهم وقادة الرأي فيهم ، ولم يكن يمكن للمدينة بظروفها الاقتصادية والسكانية أن تصمد للشام أو أن تقاوم قدراته البشرية والمادية ..

---

[1] ابن سعد : السابق 67/5 ــ 68 ، الإمامة والسياسة 212/1

[2] الطبري : السابق490/5 ــ 491 وانظر الإمامة والسياسة 213/1

[3] ابن عبد ربه : السابق 381/4 ، ابن خياط · السابق260/1 ؛ والأنصاري هو عبد الله بن حنظلة الغسيل أما القرشي فهو عبد الله بن مطيع العدوي

ثالثا : ثورة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

ويتمتع قائدها بنسب رفيع وشرف نفس وديانة وتاريخ جهادي طويل ، وتعد ثورته من أخطر الثورات التي واجهها الأمويون ، وكان ابن الزبير قد رفض بيعة يزيد بالخلافة ومضى إلى مكة البلد الحرام يلوذ بها ، فلما بلغه خبر استشهاد الحسين في كربلاء أعلن ابن الزبير خلع يزيد والثورة على بني أمية .. وشد من أزره مبادرة أهل المدينة أيضا إلى إعلان ثورتهم على الأمويين ؛ فأصبح الحجاز في قبضة ابن الزبير الذي تلقب بأمير المؤمنين .. غير أن الخليفة الأموي الشاب سارع بإرسال جيوشه لقمع الثائرين عليه ، فاستطاع قائده مسلم بن عقبة المري أن يقمع ثورة أهل المدينة وينهي خطرهم ؛ ثم سار بجيشه لمحاربة ابن الزبير بمكة إلا أن المنية عاجلته في طريقه إليها فخلفه على قيادة الجيش الحصين بن نمير السكوني الذي ألقى الحصار على مكة سنة ٦٤هـ ، ومضى يضيق الخناق على ابن الزبير ، غير أن خبر موت يزيد بن معاوية على نحو مفاجئ وتنازل ولده معاوية بن يزيد عن الخلافة ثم وفاته هو الآخر في أعقاب ذلك قلب خطط القائد الأموي الذي وجد نفسه بغير أمير ؛ فعرض على ابن الزبير أن يدخل ـ ومن معه من جيش الشام ـ في بيعته على أن ينتقل معه إلى الشام لتكون الخلافة هناك ؛ فرفض ابن الزبير ، ولم يجد الحصين بدا من الانسحاب .. وبذلك لم يعد للمسلمين علم منصوب ولا خليفة يدعو إلى نفسه إلا ابن الزبير الذي واتته الأقدار فاستولى على العراق [1]، وبادرت مصر إلى الدخول في بيعته ، كما أعلنت قبائل القيسية في الشام ولاءها له ، فغدا يحكم من مكة دولة المسلمين آنذاك عدا بعض نواحي الشام التي تهيمن عليها قبيلة كلب أقوى قبائل الشام التي ظلت على إخلاصها لبني أمية ..

وانتهى الأمر في الشام إلى مبايعة مروان بن الحكم الذي سرعان ما هزم أنصار ابن الزبير من القيسية في مرج راهط سنة ٦٤هـ ، فدانت له بذلك الشام ، واستعاد مصر إثر ذلك ، ثم مات سريعا بعدها تاركا الخلافة لابنه عبد الملك سنة ٦٥هـ ، الذي ورث واقعا سياسيا مرهقا عمل بمهارة فائقة وجهد دءوب على تعديله ، فقد سار بنفسه على رأس جيوشه إلى العراق واستطاع أن يقضي على وجود الزبيريين بها وقتل أميرهم مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ ، ثم سير جيوشه نحو مكة إثر ذلك يقودها الحجاج بن يوسف الثقفي لتضرب الحصار على آخر معاقل ابن الزبير ، وقد دافع ابن

---

[1] وقد استطاع أحد الزعماء المغامرين ويدعى المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أن ينتزع العراق من عامل ابن الزبير سنة ٦٦هـ ورفع شعار الثأر للحسين بن علي من قاتليه مستغلا عواطف أهله من الشيعة النادمين على تقصيرهم في نصرة الحسين ، وتمكن من هزيمة جيش الأمويين الذي حاول استرداد العراق سنة ٦٧هـ ، وقتل قائده عبيد الله بن زياد الذي كان أميرا على العراق لما قتل الحسين ؛ مما عد نصرا هائلا للمطالبين بثأر الحسين ..وقد أرسل ابن الزبير أخاه مصعبا إلى العراق في السنة نفسها ؛ فحارب المختار وقضى عليه وأخذ بيعة أهلها لأخيه ..

الزبير عن نفسه وملكه دفاعا مجيدا طوال سبعة أشهر؛ لكنه خر صريعا آخر الأمر في جمـــادى الأولى سنة ٧٣هـــ ..

نظرة عامة على ثورة ابن الزبير:

ويحسن منذ البداية أن نذكر بأن مكانة عبد الله بن الزبير عند الأمويين كانت عاليـــة ، وأن مواجهتهم له وصلبهم إياه بعد قتله لم تكن تعني انتقاصه ، فقد كانوا يعرفون قدره ومكانته وشـجاعته تماما كما كانوا يعترفون بذلك لأخيه مصعب بن الزبير [١] ، وكانت بين الفريقـــين أواصـــر القـــربى والمصاهرة وعلاقات الصداقة والود ؛ حتى لقد والى بعض الزبيريين أثناء ثورة ابن الزبير بني أميـة !! ، فقد ترك حمزة وحبيب ابنا عبد الله بن الزبير أباهما ، وأخـــذا الأمان من الحجاج لنفسيهما [٢] ؛ وكـــان عمرو بن الزبير قائدا للأمويين في حربهم لأخيه عبد الله في خلافة يزيد [٣]؛ بينما كان أخوه عروة بـــن الزبير وثيق الصلة بعبد الملك بن مروان ، حتى إنه راود أخاه مرارا أن يـــترك شـــقاقه وينضـــم إلى الأمويين [٤]، وكان عروة "على رأى عمه عبد الملك " كما يقول المسعودي ، وكانت كتـــب عبـــد الملك إلى الحجاج متصلة تأمره بتعاهد عروة ، وأن لا يسوءه في نفسه وماله [٥] ، وعبارة المســـعودي الآنفة شديدة الدلالة على ما كان بين الجانبين من قرابة وصلة ، وبالفعل فإنه ما إن قتل ابـــن الزبـــير وصلبه الحجاج حتى خف عروة إلى عبد الملك فسأله أن يهب جثة عبد الله لأمه ، فأجاب عبد الملـــك طلبه [٦]؛ ولقد كان عروة صهرا للأمويين فقد تزوج أم يحيى بنت الحكم بن أبي العاص بن أمية [٧] كمـــا تزوج خالد بن يزيد بن معاوية فيما بعد رملة بنت الزبير [٨] ..

حول دعوى حرق الأمويين الكعبة وضربها بالمجانيق:

إن أهم ما يوجه إلى الأمويين من نقد في مواجهتهم ثورة ابن الزبير هو انتهاكـــهم حرمـــة البلد الحرام مكة ، والبيت الحرام ، الذي تعرض أثناء القتال للرمي بالمجانيق وللتحريق ، مما يعد صدمة كبيرة للشعور الإسلامي ..

---

[١] ابن الأثير: الكامل 15/4

[٢] السابق 23/4 ، الطبري 188/6

[٣] الطبري : السابق:344/5 ـــ 347 وكان عمرو على شرطة عمرو بن سعيد والي الأمويين على المدينة ..

[٤] الإمامة والسياسة 29/2ـــ30

[٥] المسعودي مروج الذهب 120/3ـــ121

[٦] ابن الأثير : الكامل 26/4 ويوجد في رواياته بعض التحامل على الأمويين ، ولكن تحامل النويرى أشد .. راجع نهايـة الأرب 141/21 ـــ143

[٧] ابن سعد : السابق 178/5

[٨] الأصفهاني : الأغاني 343/17

وبداية فإن أي مساس بالكعبة لابد أن يتحمل ابن الزبير نصيبا من تبعته فهو الذي عرض مكة والبلد الحرام لتبعات الحرب وآثار القتال ، وكان بوسعه أن ينتقل منها إلى أي بقعه يريد في العالم الإسلامي ؛ عندما دانت له هذه البقاع بعد موت يزيد واختلال الأمر بالشام .. بل إنه قبل موت يزيد كان بوسع ابن الزبير أن ينتقل بجنوده إلى المدينة لما أعلنت الأخيرة القتال على بني أمية ، وأخرجتهم منها .

ولم يكن بنو أمية كما يصورهم بعض الرواة غلاظ الأكباد لا يقيمون وزنا للمقدسات الإسلامية بل كانوا مسلمين يفهمون قدسية هذه الأماكن ويجلونها ، كما كانوا غير مستعدين لإثارة عواطف الجماهير ضدهم ببساطة بل اضطرتهم ممارسات السياسة إلى ذلك الموقف البغيض .. وهنالك أدلة كثيرة على ذلك منها :

ـ ما روي في الصحيحين من أن أبا شريح الخزاعي قال لعمرو بن سعيد ـ عامل يزيد على المدينة ـ وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك حديثا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه وقال : " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، وإنه لم يحل القتال فيها لأحد كان قبلي ، ولم تحل لأحد بعدي ، ولم تحل إلا لي ساعة من نهار ، ثم صارت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب "، قال له عمرو بن سعيد : نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريح ؛ إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ، ولا فارا بخربة [1]

ـ وذلك الحوار الذي رواه الطبري بين الحصين بن نمير قائد الجيش الأموي ـ الذي يرمونه بحرق الكعبة ـ وابن الزبير ، لما وصلت إليه أخبار موت يزيد :" فقال ابن الزبير للحصين : ادن مني أحدثك ، فدنا منه فحدثه ، فجعل فرس أحدهما يجفل ـ والجفل: الروث ـ فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل ، فكف الحصين فرسه عنهن ، فقال له ابن الزبير: مالك ؟ فقال : أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم ، فقال له ابن الزبير : اتتحرج من هذا وتريد أن تقتل المسلمين ؟ فقال له الحصين لا أقاتلك ، فأذن لنا نطف بالبيت وننصرف عنك ، ففعل وانصرف " [2] .

فالرجل يتحرج من قتل حمام الحرم ، ثم هو يطلب أن يطوف بالبيت ويكف عن القتال بعد موت قائده ؛ إذ إنه قد أصبح في حل من ذلك الواجب الآن،والحصين ليس أعرابيا جلفا لا يفهم الفرق بين حرمة حمام الكعبة وحرمة الكعبة نفسها ، فهو سيد من سادات أهل الشام المعدودين .

وكان مروان بن الحكم يعارض غزو الكعبة أثناء خلافة يزيد ، فإنه لما علم أن عمرو بن سعيد أعد جيشا بقيادة عمرو بن الزبير لقتال أخيه عبد الله ، جاء إلى ابن سعيد وقال : لا تغز مكة

---

[1] البخاري : الصحيح ، كتاب العلم ؛ وكتاب المغازي ، مسلم : الصحيح ، كتاب الحج ، ابن كثير : السابق 148/8 ، عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان ٢/١ ، والخربة : الجناية ، فمن ارتكب جناية ثم فر إلى الحرم ـ يحتمي به ـ يقام عليه الحد ..

[2] الطبري : السابق 501/5

واتق الله ، ولا تحل حرمة البيت ، وخلوا ابن الزبير فقد كبر ، هذا له بضع وستون سنة ، وهو رجل لجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتن ، فقال عمرو بن الزبير : والله لنقتلنه ، ولنغزونه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم ، فقال مروان : والله إن ذلك ليسوءني [١].. وكذلك كان شأن عبد الملك بن مروان في معارضته غزو الكعبة زمن يزيد [٢] .. والأمر لا ينبغي تفسيره بأنه محض رغبة في إظهار الذات ، أو بسبب الخلاف بين فرعي العاص وأبي سفيان في البيت الأموي ، فإن تقدير ولي الأمر للحدث كان يخالف تقدير بعض رعيته ، ولما ابتلي عبد الملك بالحكم رأى ما كان يراه يزيد وإن شذ عنه في الوسائل التي اتبعها ..

لقد كان تقديس البيت الحرام جزءا من صميم العقيدة الدينية للعربي في الجاهلية ، وما زادها الإسلام إلا قداسة ، وفي أثناء توهج الصراع بين علي ومعاوية ، بعث معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي على رأس جيش ليقيم للناس الحج سنة 39 هـ وكانت مكة تحت سيطرة عامل علي ، وشدد معاوية على قائده في النصح بمراعاة حرمة الكعبة والموسم ، وقد التزم يزيد بن شجرة كل أسباب الحيطة ليتجنب الإلحاد في الحرم حتى نجح في أداء مهمته بغير قتال [٣] ..

حول روايات حريق الكعبة :

وأول هذه الروايات رواية عوانة بن الحكم التي تفيد أن أهل الشام زمن يزيد قذفوا البيت بالمجانيق ، وحرقوه بالنار ، ويروي في ذلك بعض أبيات الشعر [٤] ، ورواية عوانة هذه غير صحيحة كما يجزم بذلك فلهوزن [٥] ، والأبيات التي يستند إليها ليس فيها ذكر الحريق ، بل هي ــ كما وردت في ديوان الحماسة [٦] ــ تتعلق بمسألة أخرى هي حصار مكة زمن عبد الملك والحجاج ، وفي هذا الحصار الثاني ضرب أهل الشام الجزء الذي زاده ابن الزبير على بناء الكعبة بالحجارة ، ولكن لم يحرقوها ، فخلطت رواية عوانة بين الحادثين .. ويروى اليعقوبي أن الحصين بن نمير ــ قائد يزيد ــ ناوش ابن الزبير الحرب في الحرم ، ورماه بالنيران حتى أحرق الكعبة [٧] ، واليعقوبي واضح التحامل

---

[١] السابق 344/5 ،البلاذري : أنساب الأشراف 25/4

[٢] ابن الأثير: السابق 350/4

[٣] السابق 190/3 ، ابن أعثم الفتوح 39/4ــ40

[٤] ومن ذلك الشعر :

خطارة مثل الفنيق المزبد   ترمي بها أعواد هذا المسجد

(الطبري : السابق 498/5)

[٥] تاريخ الدولة العربية 162 ــ 163

[٦] أبو تمام : الحماسة 319

[٧] اليعقوبي : السابق 181/2

على بني أمية ، وكذلك ابن أعثم الكوفي الذي يزعم أن الحجاج أيضا حرق الكعبة ووقف يتفـــرج عليها وينشد الأشعار سعيدا [١] ..

أما الواقدي فقد روى أنهم كانوا يوقدون حول الكعبة فأقبلت شررة هبت بهـــا الريـــح ، فاحترقت ثياب الكعبة ، واحترق خشب البيت يوم السبت لثلاث ليال خلون من ربيع الأول (ســنة ٦٤هـــ وقبيل أيام من موت يزيد بن معاوية لأربع عشر ليلة خلت من الشهر نفسه) [٢] ، وذلك مـــا يرويه أيضا البلاذري [٣] والأزرقي [٤] ، ويلاحظ أن توقيت الحادثة يوافق منتصف الخريف عام 683 م؛ " مما يجعل احتمال هبوب الريح واردا حسب ما أجمعت عليه الروايات السابقة " [٥] ويضيف الواقـــدي رواية أخرى عن شاهد عيان هو عروة بن أذينة قال : " قدمت مكة مع أمي يوم احترقت الكعبة وقـد خلصت إليها النار ، ورأيتها مجردة من الحرير ، ورأيت الركن قد اسود وانصدع في ثلاثة أمكنـــة ، فقلت : ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير ، قالوا : هذا احـترقت بسببه ، أخذ قبسا في رأس رمح له فطيرت الريح به ، فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليمـــاني والأسود " [٦]؛ وذلك ما تؤكده رواية أخرى لابن عبد ربه [٧] وصاحب كتاب الإمامـــة والسياســـة [٨] تكاد تفسر رواية الواقدي الأخيرة حيث تقول : إن ابن الزبير كان قد أسند ألواحا من الســـاج إلى البيت ، وألقى عليها الفرش والقطائف ، فكان إذا وقع عليها الحجر نبت عـــن البيـــت ، فكـــانوا يطوفون تحت تلك الألواح فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبروا، وكـــان ابن الزبير قد ضرب فسطاطا في ناحية المسجد ، فكلما جرح أحد من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط ، فجاء رجل في طرف سنان رمحه بنار فأشعلها في الفسطاط ، فوقعت النار على الكعبـــة فـــاحترق الخشب وانصدع الركن ، واحترقت الأستار ، وتساقطت إلى الأرض ..

ورواية ابن عبد ربه تنص على أن ذلك الرجل ينتمي إلى أهل الشام ، بينما تخلـــو روايـــة الإمامة والسياسة من ذلك القول ، وهي الأقرب إلى الصواب ، فإنه ليصعب في هذه الظروف تعيـين هوية رجل ما على نحو دقيق بل إنه من الأرجح أن لا يستطيع رجل من أهل الشام اختراق دفاعات ابن الزبير ليصل إلى فسطاط جرحاه ، ثم يحرقه ، ثم يعود دون ذكر عن التعرض لـــه ، وبخاصـــة إذا

---

[١] الفتوح 276/6

[٢] الطبري : السابق 498/5

[٣] أنساب الأشراف 345/1 ، فتوح البلدان 59

[٤] أخبار مكة 1/ ١٣٩-١٤٠

[٥] بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية 302

[٦] الطبري : السابق 498/5 ـــ 499

[٧] العقد الفريد 392/4

[٨] الإمامة والسياسة 14/2

أخذنا في الحسبان ما رواه مصعب الزبيري من أن ابن الزبير كان يقيم على أبواب المسجد الحارس [١]؛ وهو أمر متوقع على أية حال .. وإذا كان الأمر كذلك ؛ وتكاثفت هذه الروايات التي تبرئ بني أمية من تهمة حرق الكعبة ، فقد آن لنا أن نلقي جانبا تلك الأقوال التي تحاول قدر جهدها التشنيع على الأمويين ، وبخاصة ونحن نعلم احتمال كون ابن الزبير قد استغل هذه الواقعة لإحراج خصومه من الأمويين ، واتهامهم بها ، ذلك الاتهام الذي نراه على لسان شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات ، وغيره ممن لهم مصلحة أكيدة في تشويه صورة الأمويين[٢].

ـ حول ضرب الكعبة بالمجانيق زمن عبد الملك :

أما في حصار الكعبة زمن عبد الملك فيمكن أن نؤكد أن خطة عبد الملك بن مروان في محاربة ابن الزبير كانت توحي برغبة صادقة في تجنب نزول جيشه مكة والمدينة ، ولذلك فقد أمر الحجاج بنزول الطائف وأن يبعث الخيل لقتال ابن الزبير من هناك دون الهجوم بالجيش كله [٣]، ولم يهجم الحجاج بكامل قواه إلا بعد أن استبان له أن ابن الزبير يحاول أن يستغل حرمة المدينتين المقدستين لأغراض سياسية معتمدا في ذلك على دقة موقف خصمه ، فلم يجد عبد الملك بدا من مهاجمته كي لا تتهدد وحدة العالم الإسلامي الذي يجب أن يظل تحت قيادة واحدة ، ولم يكن مستساغا آنذاك وجود خليفتين في آن واحد [٤] ، كما أن ضرب الحجاج الكعبة بالمجانيق آنذاك ـ وإن كان هناك من يشك في حدوثه [٥] ـ قد توقف في أثناء فريضة الحج [٦] ، واقتصر على الجزء الذي زاده ابن الزبير لما أعاد بناء الكعبة ، إذ كان بنو أمية يعتقدون أنها زيادة غير شرعية ، وأن ذلك الجزء ليس من الكعبة [٧] ..

---

[١] الطبري : السابق 190/6

[٢] بيضون : السابق 303

[٣] الطبري : السابق 174/6 ـ 175

[٤] دكسن: الخلافة ال 38

[٥] بيضون : السابق 340ـ341

[٦] ابن الأثير : السابق 23/4

[٧] راجع ص من هذا البحث

الفصل الخامس

موقف الأمويين من العصبية العربية والقبلية

مقدمة

تعرض الأمويون لحملة عنيفة من كثير من المؤرخين بسبب موقفهم حيال الموالي [1] في عهدهم ، فوصفوا معاملة الأمويين لهم بأنها معاملة إذلال وهوان ، تنم عن استعلاء واحتقار وتعصب شديد وإهمال لأحكام الإسلام وشريعته وفكره ، وحقوق هذه الشعوب التي دانت لهم .. فقد تعصبوا للعرب دون غيرهم ، وأهمهم جمع الأموال ، واكتناز الثروات، ففرضوا الجزية على هؤلاء الموالي ، وهم مسلمون ، لا جزية عليهم ، وشقوا عليهم في ذلك ، وأشركوهم معهم قسرا في القتال ، مشاة لا يركبون ، ثم حرموهم رغم هذه المشاركة من العطاء والغنائم ، وأبعدوهم عن مراكز الصدارة وأجهزة الحكم والإدارة وجعلوهم طائفة منبوذة في المجتمع ، فلا يتزوجون منهم ، ولا يمشون معهم ، بل لا يصلون عليهم إذا ماتوا إلا ليظهروا بذلك تواضعهم المكذوب [2].

---

[1] لكلمة "موالي" معان عدة في اللغة والشريعة والاصطلاح التاريخي : ففي اللغة : يطلق لفظ المولى على عدة معان تدور حول المحبة والنصرة فيطلق على الرب والمالك ، ومنه قوله تعالى (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) الأنعام آية 262 ، ويطلق على أبناء العم والعصبية ، ومنه قوله تعالى : (وإني خفت الموالي من ورائي) مريم آية 5 ، ويطلق على الناصر والمعين ومنه قوله تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) محمد 11 ، ويطلق أيضا على السيد والحليف والجار والصاحب والقريب والعبد . وفي الشرع : تطلق كلمة " مولى " على معنيين : مولى العتاقة : وهو الرقيق الذي أعتقه سيده ، فزال عنه الرق وبقي الولاء ، ومولى الموالاة : وهو الذي ينتمي إلى شخص أو قبيلة فينتسب إليها ، ويصير فيها بالولاء ، وقد أقر الإسلام هذا ، فقال رسول الله ﷺ " مولى القوم منهم ، وحليفهم منهم " ، ويكون هذا النوع من الولاء بأن يأتي رجل إلى آخر : فيقول له : أنت مولاي ، ترثني إذا مت ، وتعقل عني إذا جنيت ؛ أي تدفع الدية عني ؛ فيقول له قبلت (السرخسي : المبسوط38/30 ، 54) وقد كثر ذلك النوع من الولاء بعد الإسلام، إذ علا شأن العرب وعز مجدهم ، وفتحوا البلاد ، فكان أهل البلاد المفتوحة يحتمون بهم ، ويتحالفون معهم ، فيتم ذلك الولاء. .. وفي الاصطلاح التاريخي : يطلق لفظ موالي ويراد به المسلمون غير العرب وذلك لأن هؤلاء كانوا في الأصل أسرى حرب لأنهم من الشعوب المغلوبة ؛ فكان للعرب حق استرقاقهم ، فلما تركوهم أحراراً فكأنما أعتقوهم ، وكان من هؤلاء من يسلمون وينضمون للعرب ، ويدخلون في خدمتهم ، ويتحالفون معهم ، ليعتزوا بشوكتهم وقوتهم ؛ وبذلك يصبحون موالي أيضاً بالحلف والموالاة .. (راجع د. الطيب النجار : الموالي في العصر الأموي ص 13، 14 ، د. الخربوطلي . تاريخ العراق 253 ،254 ، 157 ، د.محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص 120، ابن عبد ربه : العقد الفريد 443/4، ابن خلدون : المقدمة 494/2)

[2] راجع في ذلك :جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 99/4 ــ101 ، د.الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي 157 ــ159 ، 254 ــ255 ، فلهوزن تاريخ الدولة العربية 67 ، د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ

وكثيرا ما يتهم الأمويين بإثارة العصبيات القبلية عند العرب وتشجيعها على حساب وحدة الكيان الاجتماعي للأمة ، وذلك بدعم وتأييد هذا الجانب القبلي أو ذاك ضد الآخر ، واستعداء بعض القبائل على بعض مما يفرض على هذه القبائل حالة من التوتر والتفرق ، تعجز معها عن معارضة الأمويين ، فيظل السلطان فيهم .. وبينما يرجع بعضهم سن هذه السياسة إلى معاوية يرجعها آخرون إلى الأسرة المروانية أيام موقعة مرج راهط ، مما يحتاج إلى مزيد دراسة ليستبين وجه الحق في هذه الشبهات .

الإسلام السياسي 542/1 ، د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 239/2 ، فان فلوتن : السيطرة العربية 94ـ95، 148 ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص 150 ، د. محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعوبية في الأدب العرب ص 129 ـ 139 ، د. عبد الحليم عويس : دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ص 62،66 ؛ وانظر في الاضطهاد الاجتماعي خاصة : المبرد : الكامل 312/2ـ313 ، ابن عبد ربه العقد الفريد 63/2 .. وقد اعتمد كثير من المراجع سالفة الذكر على ما ورد في هذين المصدرين وسواهما وبنوا عليها ..

Browne , A Literary History of Persia , vol. , I , PP 232-240

المبحث الأول

دعوى تعصب الأمويين للعرب ضد الموالي

نستطيع أن نصنف جميع أنواع الاضطهاد التي يزعم المؤرخون أن الموالي عانوا منها زمن بني أمية إلى نوعين هما الاضطهاد الاجتماعي والاضطهاد السياسي ؛ وسوف نتناول كلا النوعين بالدرس ؛ مع عرض أحوال الموالي ومكانتهم في العصر الأموي على امتداد ساحته المكانية والزمانية ..

أولا : الاضطهاد الاجتماعي للموالي :

والمراد به هو اضطهاد جماعة من المتعصبين للعربية هؤلاء الموالي ، فقد تحدثت بعض كتب الأدب العربي قديما عن ذلك ، فعقد ابن عبد ربه : بابا في كتابه " العقد الفريد " تحت عنوان . " باب المتعصبين للعرب "؛ كما تحدث عن ذلك المبرد في كتابه " الكامل في اللغة والأدب " والأصفهاني في كتابه " الأغاني " حيث قدموا نماذج عديدة لهذه النظرة المتعالية التي أصابت بعض العرب في تعاملهم ونظرتهم للموالى ، فمن ذلك انهم كانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة . حمار أو كلب أو مولى ، وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب (حيث كان النداء بالكنية أو اللقب دلالة على الاحترام والتوقير) ، ولا يرضون أن يمشي الموالي معهم في صفوفهم ، ولا أن يتقدموهم في الموكب ، وإن حضروا طعاما أقاموهم على رءوسهم لخدمتهم .. وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها أو أخيها ، بل إلى مواليها ، فإن رضي زوج وإلا رد، فإن زوج الأب أو الأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح ــ وإن كان قد دخل بها ــ وكان سفاحا غير نكاح [١]؛ ومن ذلك أن أحد أشراف العرب وهو نافع بن جبير بن مطعم كان يقدم الرجل من الموالي يصلي به فإذا قيل له في ذلك قال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ، وكان إذا مرت به جنازة قال من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا . عربي قال · وابلوتاه ، وإذا قالوا مولى قال · هو مال الله يأخذ ما شاء ؛ ويدع ما شاء [٢] ، كما يرددون أن بعض الشعراء كالفرزدق كان متعصبا للعرب ، فكان إذا هجا أحد مشاهيرهم وصفه بأنه من الموالي لا العرب ، كما فعل في هجائه

---

[١] ابن عبد ربه العقد الفريد٢/٦٣

[٢] السابق والصفحة ، المبرد : الكامل ٢/ ٣١٢

المهلب بن أبي صفرة حين وصفه بأنه نبطي[1]، وهم يبالغون في ذلك فيروون أخباراً تدخل في باب الطرائف والدعابة لا التحقيق والتاريخ[2] ..

وهذه النماذج التي ساقها المؤرخون على طولها ، والتي احتج بها بعض الكتاب المحدثين كأدلة على اضطهاد الأمويين للموالى ، لا تنهض للدلالة على ذلك ، فهؤلاء الأفراد المتعصبين للعرب اللذين ذكروهم لم يكونوا أمويين ، ولم يكونوا يشغلون منصباً في الإدارة الأموية ، وإنما هم في ذلك التعصب ضد الموالي يعبرون عن اتجاه اجتماعي وُجد في تلك الفترة الزمنية بين بعض العرب الذين اعتزوا بعروبتهم إلى درجة أنستهم بعض قيم الإسلام التي تجعل الناس سواسية كأسنان المشط ، وتجعل معيار التفاضل بينهم التقوى لا الجنس ولا اللغة .

ومن الحق أن نقرر أنه كان هناك أيضاً في صفوف الموالي من غلبت عليه عصبيته ، وبخاصة من الفرس الذين كانوا يعتزون ويفخرون بقوميتهم وحضارتهم قبل الإسلام ، في ذلك الوقت الذي كان فيه العرب في الجاهلية يعانون التخلف والفوضى ، وقد زخرت كتب الأدب والتاريخ بعديد من هذه النماذج التي تدل على أن العصبية القومية أو الجنسية لم تكن قصراً على بعض العرب فقط ، وإنما شاركهم فيها بعض الموالي ، بل غالوا في ذلك إلى درجة مثيرة ، وبخاصة بعد مضي فترة من عمر الدولة الأموية ..

فقد كان يزيد بن ضبة مولى ثقيف يفاخر بالفرس ويعلي شأنهم ، حتى في تلك الرسالة التي وجهها إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يقول فيها :

ولينا الناس أزماناً طوالاً وسُسْناهم ودسناهم وقدنا[3]

وكان إسماعيل بن يسار مولى بني تميم فارسي الأصل يخلط في فخره بقومه هجاءه للعرب فيقول :

واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب

إذ نربي بناتنا وتدسّون سفاهاً بناتكم في التراب[4]

بل إنه ليفخر بقومه في مجلس الخليفة هشام بن عبد الملك وقد استنشده شعره فأنشده قوله يفخر بنفسه وبقومه :

من مثل كسرى وسابور الجنود معاً والهرمزان لفخر أو لتعظيم ..

---

[1] ديوان الفرزدق ١/ ٢٥٤ ، د . الحوفي : أدب السياسة في العصر الأموي ص ٤٤٥

[2] راجع : المبرد : الكامل ٢/ ٣١٢- ٣١٣

[3] الأصفهاني : الأغاني 95/7 أو 146/6 ، الحوفي : أدب السياسة 449 ، لبيبه حجاب : مظاهر الشعوبية 162-163

[4] الأصفهاني : السابق ٤/ ٤١٢-٤١٣

لقد أثارت هذه الجرأة من ذلك الشاعر ــ الذي يفخر بنفسه وقومه في مجلس الخليفة الذي ينتظر مدحا له أو فخرا به ــ الخليفة نفسه ، الذي سب ذلك الشاعر وأمر به فألقي في بركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم نفاه إلى الحجاز [1] ..

ورغم حالات التعصب من الجانبين ــ السابق ذكر بعضها ــ فقد نال كثير من الموالي الذين أخلصوا للإسلام مكانة عالية عند المسلمين من عرب وموال ، وأصبحوا من أبرز علمائهم ومفكريهم ، كما وجد كثير من الموالي الذين يعترفون بفضل العرب عليهم ، إذ أخرجوهم من ظلمات الكفر والوثنية إلى نور الهداية والإسلام ؛ ورفعوا عنهم ظلمَ الساسة والطبقية الاجتماعية .

ومن خلال ذلك الحوار الطريف بين أحد المتعصبين للموالي أو الفخورين بهم وأحد المتعصبين للعرب تتضح المكانة العالية التي حققها علماء الموالي في العصر الأموي : " قال ابن أبي ليلى : قال لي عيسى ابن موسى ، وكان ديانا شديد العصبية ؛ من كان فقيه البصرة ؟ فقلت : الحسن بن أبي الحسن (وهو الحسن البصري) قال : ثم من ؟ قال : محمد بن سيرين قال فما هما ؟ قلت : موليان ، قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالي ، فتغير لونه ؛ ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأي وابن أبي الزناد قال : فما كانا ؟ قلت: من الموالي ، فاربد وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه وابن منبه ، قال فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ، فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدا ، قال فمن كان فقيه خراسان ، قلت عطاء بن عبد الله الخراساني ، قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت: مولى ، فازداد وجهه تربدا ، واسود اسودادا حتى خفته ، ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى ، فتنفس الصعداء ، ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قال : (أي ابن أبي ليلى) فوالله لولا خفته لقلت الحكم بن عتيبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكني رأيت فيه الشر، فقلت : إبراهيم والشعبي، قال : فمن كانا ؟ قلت : عربيان ، فقال : الله اكبر، وسكن جأشه " [2] ..

ومهما يكن في هذه الرواية من التصنع والمبالغة ، وإهمال لفيف من العلماء العرب في هذه الأمصار كلها ، إلا أنها تظل ثرية الدلالة على ما حققه هؤلاء الأعلام المخلصون لدينهم من مكانة في العلم والدين في المجتمع الإسلامي في العهد الأموي ، بل إننا يمكن أن نضيف أسماء عدد آخر من العلماء الموالي المبرزين مثل يزيد بن أبي حبيب بمصر ، وميمون بن مهران بالجزيرة ، والضحاك بن

[1] السابق 423/4

[2] ابن عبد ربه : العقد الفريد 64/2

مزاحم بخراسان وغيرهم [١] ؛ وقد ظفر هؤلاء العلماء من الموالي بحب العرب وإجلالهم حكاما ومحكومين ..

ومن أمثلة هذه المكانة الرفيعة التي نالها علماء الموالي عند العرب في العصر الأموي ، وعند خلفائهم وولاتهم : أن الحجاج بن يوسف الذي اشتهر عند المؤرخين بالقسوة والخشونة كان يثنى وسادته لطاووس اليمني ، ويجلسه عليها ، وذلك لما التقى به في موسم الحج بمكة [٢] ؛ ولما مات طاووس هذا لم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس حتى وجه إليهم أمير مكة بالحرس ، وقد حرص هشام بن عبد الملك على تشييع جنازته بنفسه، وكان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي يضع سرير طاووس على كاهله حتى سقطت قلنسوته من على رأسه ، ومزق رداؤه من خلفه [٣] ..

وكان الحسن البصري رفيع المنزلة عند الناس جميعا وكان صريح المعارضة لبني أمية يجاهر بذلك ؛ ويعارض في الوقت نفسه تلك الثورات التي لا طائل من ورائها ، إلا إراقة دماء المسلمين ، وقد وقف في وجه يزيد بن المهلب لما ثار على الأمويين ، وأخذ يعبئ أهل البصرة ضده ، مما أثار غضب ابن المهلب وبعض أنصاره حتى هم أحدهم بقتل الحسن ، فقال له يزيد : " اغمد سيفك فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا " [٤]، وسبق أن أشرنا إلى أنه لما مات الحسن البصري احتشد الناس لجنازته فلم تقم صلاة العصر بالمسجد الجامع بالبصرة آنذاك ، " وما علم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ ؛ لأنهم تبعوا الجنازة فلم يبق من يصلي بالمسجد" [٥] ..

ولقد ظل شريح القاضي ــ وهو أحد الموالي ــ قاضيا على الكوفة منذ عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج بن يوسف ــ خمسا وسبعين سنة ــ وكان فارسي الأصل [٦] ..

وكان سعيد بن جبير عظيم المكانة في الكوفة رفيع القدر عند عاملها الحجاج الذي ولاه إمامة الصلاة بالكوفة ــ معقل العصبية العربية ــ ولم يكن يؤم بها إلا عربي ، ولكنه خرج عليه ضمن من خرج في ثورة ابن الأشعث ، فقتله الحجاج صبرا ، فأثار على نفسه بذلك العمل نقمة كثير من المسلمين ــ عربا وموالي ــ على مدار الزمن ، " ولم يستنكر الناس عمل الحجاج في قتله الكثير من العرب والموالي كما استنكروا قتل سعيد بن جبير لعلمه ودينه وهو مولى " [٧] ..

---

[١] عمر أبو النصر: الحضارة العربية 306

[٢] ابن عبد ربه : السابق 67/2

[٣] اليافعي : مرآة الجنان 227/1 ــ 228

[٤] ابن خلكان :وفيات الأعيان 408/2

[٥] اليافعي : مرآة الجنان 231/1

[٦] الدميري : حياة الحيوان 19/1

[٧] أحمد أمين : ضحى الإسلام ج 1ص28

وكان عطاء بن أبي رباح شيخ الحرم المكي ، وإليه المرجع في الفتوى ، وهو أحد الموالي أيضا ، قال ابن خلكان : قال إبراهيم بن عمرو بن كيسان : أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحا يصيح : " لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح " [١] وهل يمكن أن ينادى بمثل ذلك في الحج بتفضيل أحد الموالي على غيره من جميع الناس وولاة الأمر كارهون ؟ [٢] ..

وعلى الجانب الآخر وجد عدد من الموالي ذوى المكانة الرفيعة يعرفون للعرب قدرهم وفضلهم ، من ذلك ما يروى من أن نصيبا الشاعر قد رفض أن يتزوج ابنه إحدى بنات سيده ، رغم موافقة أهلها على ذلك ، بل ضرب ابنه لأنه تجرأ هذه الجرأة ضربا مبرحا ، وطلب من أهل الفتاة أن يزوجوها أحد أشراف الحي من الشباب [٣] ..

وكان عبيد الله بن الحبحاب مولى لبني سلول ، وتناهت به الحال إلى أن أصبح واليا على مصر وإفريقية والمغرب والأندلس يبعث عماله إلى هذه البلاد ومنهم عقبة بن الحجاج السلولي ، الذي جعله عامله على الأندلس ، وكان والد عقبه قد أعتق والد عبيد الله ، وكان لعبيد الله بن الحبحاب أولاد قد أعجبتهم أنفسهم ، ورأوا إكرام أبيهم لعقبة بن الحجاج ،، فكان إذا دخل عليه قام ابن الحبحاب إليه وأعظمه وأقعده على سريره ، فأنكر أولاد ابن الحبحاب ذلك عليه ، فقال لهم أبوهم : ما رأيكم ؟ قالوا : أن تعطيه شيئا وتصرفه عنا فلا يكسر شرفنا ، فقال لهم: نعم ، فلما كان في غد أمر الناس فدخلوا عليه ، ودخل عقبة في جملتهم ، فقام إليه وأجلسه على سريره ووقف قائما فقال : أيها الناس إن بني هؤلاء غرهم غرة الشيطان لعزة السلطان ، وأرادوا أمرا أخرج به عن الحق، وأنكروا ما رأوا من بري هذا الرجل ، وإنما أخبركم أنه مولاي ، وأن أباه أعتق أبي، وأنا أكره كتمان أمر الله سبحانه شهيد به علي ، ثم خير عقبة في ولاية ما شاء من سلطانه فاختار الأندلس ، فولاه عليها ، وذلك في سنة 116 هـ وكان سبب اختيار عقبة لها أنه قال : إني أحب الجهاد وهي موضع جهاد [٤]..

وهكذا نرى أنه ليس صحيحا أن الموالي قد عانوا من الاضطهاد الاجتماعي من العرب في العصر الأموي ، بل الحق أن فريقا من العرب قل تمثله قيم الإسلام، وتعصب لعروبته ، فاحتقر الموالي، وفى المقابل لهم وجد فريق آخر من الموالي قد تعصب لقوميته وجنسه ، وبخاصة من الفرس ، فاحتقر العرب ، وبادلهم الهجاء .. وبعيدا عن هذين الفريقين كان جل العرب وكثير من الموالي يلتزمون بقيم

---

[١] ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٦١/١

[٢] عمر أبو النصر: الحضارة العربية 306

[٣] الأصفهاني : الأغاني 320/1

[٤] ابن عذاري : البيان المغرب 51/1 ـ 53 ، أخبار مجموعة 25ـ28

الإسلام الصحيح في المساواة بين البشر ، وتفضيل أصحاب التقوى وأهل العلم من الفريقين ، فأجل العرب علماء الموالي ، واعترف الموالي من هذا الفريق بفضل العرب ومكانتهم ...

وهذا التماوج في الحركة بين التعصب والسماحة إنما هو ضرب من الحركة الاجتماعية تحكمها قوانين المجتمع وخصائصه ، ولا دخل للدولة الأموية به إلا في قدر يسير ، كان دائما مرتبطا بالتوجه الإسلامي للدولة ، والمحافظة على نظامها ..

ثانيا : الاضطهاد السياسي للموالي :

يروي بعض المؤرخين أن معاوية دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب " فقال : إني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) قد كثرت ، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطرا ، وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ فقال الأحنف : أرى أن نفسي لا تطيب ، أخي لأمي وخالي ومولاي ، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب ، وظننت أني قد قتلت عنهم ، وأطرق ، فقال سمرة بن جندب : اجعلها إلي أيها الأمير، فأنا أتولى ذلك منهم ، وأبلغ منه ، فقال : قوموا حتى أنظر في هذا الأمر ، قال الأحنف : فقمنا عنه ، وأنا خائف ، وأتيت أهلي حزينا ، فلما كان بالغداة أرسل إلي فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة "[1] ..

وهذه الرواية ، ولا ريب ، تحمل قدرا عظيما من المبالغة والافتراء ، فمعاوية لم يكن ليفكر في قتل آلاف من المسلمين الموالي بغير جريرة أو ذنب ، سوى تخوفه من وثبة منهم محتملة على العرب ، وذلك مما ينافي بالتأكيد طبيعة الحلم الأصيلة عنده ؛ فضلا عن منافاتها أحكام الدين وشريعة الإسلام ، ولم يكن ذلك ممكنا على أية حال بعد كثرة عدد الموالي وتغلغلهم في الكيان الاجتماعي المسلم ، وتأثيرهم على ميزان القوى لدى القبائل العربية ، مما يهدد بانشقاق اجتماعي وسياسي جديد لا يعلم مداه، كما يشتم من الحديث المنسوب للأحنف بن قيس .

وبعيد أن يكون الأحنف أكثر حرصا على السلامة من معاوية ، غير أن لهذه الرواية مغزاها السياسي الذي استرعى انتباه واضعيها ، فقد كان التحول العددي لصالح الموالي قد أصبح أمرا ملموسا أو متوقعا ، وأصبح التخوف على مكانة العرب السياسية والاجتماعية إزاء ذلك أمرا له ما يبرره ..

ولم يكن التحول العددي لصالح الموالي هو كل ما يخيف في واقع الأمر؛ بل لقد كانت هناك تلك النزعة القومية ، وهذه العصبية التي لا تخطئها عين ؛ والتي تتبدى في كثير من مواقف التفاعل الاجتماعي بين العرب والموالي وبخاصة الذين ينتمون إلى أصول فارسية ، والتي فجرت كثيرا من الشكوك حول ولاء كثير من هؤلاء الموالي للدولة الإسلامية .

---

[1] ابن عبد ربه : العقد الفريد 3/2

والحق أن هذه الشكوك قديمة تعود إلى عصر الراشدين . حيث كانت حركة الفتوح الكبرى تقذف بهذه الأعداد المتزايدة من غير العرب في المجتمع العربي الإسلامي ، وكثير منهم كانوا يسارعون باعتناق الإسلام ، يتخلصون بذلك من الحرج الاجتماعي والديني الذي كانوا يعانونه ، ويتمتعون بالمساواة الكاملة مع العرب الفاتحين .. غير أن بعض هؤلاء المسلمين من غير العرب ، وبخاصة الفرس ، كانوا يحنُّون إلى مجدهم القديم ، وعزهم الزائل ، ويعتلنون حقداً تجاه هذا الدين الذي أباد ملكهم ، وأذهب مجدهم ، حتى نجح بعضهم في التآمر لقتل عمر بن الخطاب ﷺ الذي ذهب ضحية مؤامرة ثلاثية حاكها الهرمزان ــ القائد الفارسي الذي أسره المسلمون فأعلن في المدينة إسلامه ــ وجفينة النصراني وأبو لؤلؤة المجوسي [١] ؛ وقد أثار هذا الحدث خوف بعض المسلمين وشكوكهم ، كما يتضح من الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب بعد طعنه وابن عباس حيث قال له عمر : كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ، فقال ابن عباس وقد هزّه طعن أمير المؤمنين : أنقتلهم ؟ فقال عمر : كذبت ! أبعد أن تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ؟ " [٢] ..

ولما استخلف علي بن أبي طالب ﷺ سوّى بين العرب والموالي في العطاء ، وكان جيشه يضم الآلاف من هؤلاء الموالي [٣]؛ فأغضب تصرفه ذاك بعض أشراف العرب الذين قالوا : يا أمير المؤمنين اعط هؤلاء هذه الأموال ، وفضل العرب وقريشاً على الموالي ، ممن يُتخوف خلافه على الناس وفراقه ، فرفض علي ذلك قائلاً : " أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه " ؟ [٤] ، ولكن هؤلاء العرب لم يرضخوا لذلك فكان أحد زعمائهم وهو الأشعث بن قيس يقول له : يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك [٥] ..

ورغم ذلك فقد ثار عليه كثير من الموالي الذين عضدوا الخوارج وكانوا مدداً لهم ، فشاركوا في ثورة الخريت بن راشد من بني ناجية سنة 38 هـ [٦] ؛ وفى ثورة أبي مريم السعدي التميمي الخارجي ، الذي كان أكثر من معه من الموالي ، ولم يكن معه من العرب إلا ستة نفر هو أحدهم [٧] ..

وفى حياة على وبعد موته أثمرت دعوة السبئية أفكاراً غريبة عن التصور الإسلامي الصحيح ، مثل الوصية والرجعة وغيرها ، وكانت هذه الأفكار أكثر رواجاً في العراق وفارس حيث

---

[١] الطبري : السابق 240/4

[٢] ابن تيمية : منهاج الاعتدال 298

[٣] الإمامة والسياسة 145/1

[٤] السابق 153/1 ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 180/1 ــ 181

[٥] المبرد : الكامل 54/2

[٦] الطبري : السابق 122/5 ــ 123

[٧] د الريس: الخراج والنظم المالية 194ــ196

ناسبت معتقدات أهل هذه البلاد قبل الإسلام ، غير أن هذه الأفكار أصبحت أكثر خطورة لما ظاهرها القوة السياسية التي اكتسبها الموالي في الكوفة إبان سيطرة المختار بن أبي عبيد الثقفي عليها بعد وفاة يزيد بن معاوية ، واختلال الأمر بالشام .. فقد كان الموالي بالكوفة يؤلفون آنذاك أكثر من نصف سكانها ، وفي أيديهم الحرف اليدوية والمهن والتجارة ، وترك لهم العرب المشغلون بالحرب والقتال مرافق الحياة المدنية [١] ؛ فقربهم المختار واختار منهم حرسه الخاص ، وأشركهم مع العرب في العطاء ، وقدمهم معه في القتال ، فأثار عليه ذلك أشراف العرب الذين عبر عنهم شبث بن ربعي التميمي في قوله للمختار : " عمدت إلى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعا ، فأعتقنا رقابهم ، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا " [٢] ، غير أن غضب هؤلاء الأشراف على المختار مكن للموالي عنده ، حتى لم تكن تسمع كلمة عربية في معسكره [٣] ، وازداد عداؤهم لهؤلاء العرب وحقدهم عليهم [٤] ؛ ولقد أتاحت لهم هذه المكانة السياسية الفرصة لمزيد من التخريب العقدي للأمة ، ففشا الغلو في التشيع ، وظهرت الأفكار الدخيلة والتفسير الباطني لأركان الإسلام وعباداته ، وتطورت السبئية وتشكلت الكيسانية ، وغيرها من الحركات الهدامة [٥] ؛ تمدها روافد قديمة من العقائد الفارسية والنزعات الدينية المانوية والزرادشتية التي شعرت بخطر المبادئ الإسلامية على كيانها [٦] ..

وبعيدا عن المغالاة في التشيع ودور الموالي فيها ، فقد كان لهم أيضا دورهم في دعم حركات الخوارج ! فقد كانت الأسس النظرية لحركة الخوارج تقتضي المساواة الكاملة بين العرب والموالي ، بل إنها تجيز أن يكون أمير المؤمنين عربيا أو مولى ، حيث لا تشترط فيه القرشية، ولقد اشترك الموالي بشكل فعال في حركة نجدة بن عامر الحنفي في البحرين واليمامة وشرقي الجزيرة العربية ، حتى نجد هؤلاء الخوارج بعد أن ينقموا على أميرهم نجدة بعض أعماله يعزلونه ويولون عليهم أحد الموالي واسمه ثابت التمار ، مما يدل على قوة تمثيل الموالي بينهم ، وإن عزلوه بعد ذلك وولوا بدله أبا فديك عبد الله بن ثور [٧] ..

---

[١] فلهوزن : الخوارج والشيعة 211—212

[٢] الطبري : السابق 44/6

[٣] الدينوري : الأخبار الطوال 302

[٤] راجع الطبري : السابق 45/6

[٥] راجع فلهوزن : الخوارج والشيعة 248—250

[٦] د. الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 83 ، فلوتن : السيطرة العربية 141—142 ، د. شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي 148/2 ، د. العدوى : تاريخ العالم الإسلامي 189/1

[٧] راجع د. عبد الأمير دكسن: الخلافة الأموية 281 ، البلاذري : أنساب الأشراف 143/11 ، اليعقوبي : السابق 325/2

على أن اشتراكهم في ثورات الأزارقة في العراق وفارس كان أقوى وأظهر ، فقد كـــانت أصبهان وكرمان والأهواز وفارس مستراحا لهم وملجأ يلتجئون إليه كلما ضاقت عليهم الســـبل ، وهناك كانت حركتهم تترعرع وتكتسب أنصارا جددا ، ولم تستطع جيوش المهلب بن أبي صفـرة أن تتغلب عليهم فيما بعد إلا عندما وقع الاختلاف بين أفرادها العرب والموالي ، فقد انفصل ثمانية آلاف من الموالي وبايعوا واحدا منهم واسمه عبد ربه الصغير ، واتبعهم قليل من العرب مع عمرو القنا ، بينما ظل معظم العرب مع قائدهم السابق قطري بن الفجاءة ، ووقع الاقتتال بينهم ، فمكن ذلك المـهلب من هزيمتهم فريقا إثر فريق [1] ..

إن هذه الروح الثورية من بعض الموالي ضد الدولة الإسلامية في عصر الراشدين أو الأمويين ، والتي تمرست بالقتال واجترأت على الخروج على الدولة في جميع هذه الحالات الســـابقة ، قـد اصطدمت بقوة برغبة الحجاج بن يوسف في إعادة سلطان الدولة الأموية على العراق والمشرق بعـد سنوات طويلة من الفوضى والحروب الأهلية (64ـــ73 هـــ) كما اصطدمت بسياسة الدولة الأموية في التعريب ، وصبغ الدولة الإسلامية في دواوينها واقتصادها بالصبغة العربية ، وقد أدى هـذا وذاك إلى نشوب عدة ثورات ضد الحجاج كان أخطرها ثورة ابن الأشعث التي هددت وجـــود الأمويـين في العراق والمشرق بصورة خطيرة ، حيث خلع قائدها الخليفة وعامله على العراق ، وتمت له الســيطرة على شرقي العراق، وأحرج الحجاج في العراق نفسه وكان الموالي يشكلون عنصرا مهما من عنـاصر هذه الثورة ، ففي بعض معاركها كان عدد المقاتلة في صفوف ابن الأشعث مائة ألف عربي ومعهم مـن الموالي مثلهم [2] ..

ولما انتصر الحجاج على ابن الأشعث كان من المتوقع أن ينكل بأعدائه عربا كانوا أو موالي ، وقد اتخذ تنكيله بالموالي مسحة خاصة حيث اقترن بالشك في إيمانهم بالإسلام ، ولشد ما كان يختلط عند الحجاج الولاء للدولة والإيمان بالدين ، ولذا فقد فرض عليهم الجزية ، وردهم إلى قراهم الـــتي جاءوا منها من قبل ، وكان لتدبيره ذاك أصداء واسعة وأسباب وتأويلات سنعرض لها بــــالتفصيل فيما بعد [3] ؛ غير أن استمرار فرض الجزية على من أسلم من الموالي لم يستمر طويلا، إذ صحح عمـر ابن عبد العزيز ذلك المسار، وعاد إلى الأصل الإسلامي في رفع الجزية عمن يسلم ، ومساواة العــرب وغيرهم من المسلمين في الحقوق المدنية ..

ولكن لأسباب اقتصادية أيضا وجد عامل خراسان وما وراء النهر أشرس بـــن عبـــد الله السلمي نفسه مضطرا إلى استسهال نفس الحل الذي ابتدعه الحجاج ؛ لما فوجـــئ أشـــرس بنجـــاح

---

[1] فلهوزن : الخوارج والشيعة 105ـــ106

[2] الطبري : السابق 347/6

[3] راجع الفصل الخاص بالشبهات حول السياسة المالية للأمويين ..

سياسته في الدعوة إلى الإسلام في بلاد ما وراء النهر إلى درجة غير متوقعة ، إذ عظم عدد الداخلين في الإسلام وارتفعت شكوى الدهاقين المتولّين جمع الجزية والخراج من مخاطر قلة الداخل إلى خزينة الدولة بعد امتناع هذه الأعداد الغفيرة عن دفع الجزية ؛ فأمر أشرس بإعادة أخذ الجزية عمن رُفعت عنه لإسلامه ، فأثار ذلك ثائرة هؤلاء الموالي ومن تعاطف معهم من المسلمين ، كما سيأتي.

غير أن ذلك الخروج عن الأصل الإسلامي أيضاً لم يطل ، إذ إن هذه المشكلة التي ظهرت في سنة 110 هـ قد انتهت بتنظيم نصر بن سيار للخراج والجزية في هذه البلاد سنة 121 هـ [1] ؛ وعلى ذلك فلا يصح اعتبار هاتين الحالتين سياسة عامة للأمويين ، أو قصداً إلى اضطهاد الموالي ، أو موقفاً مبدئياً ضدهم ، إذ لا تخرج في الحقيقة عن كونها اجتهادات سياسية محكومة بمعطيات ذلك العصر وظروفه المتشابكة ، وجدت الفرصة لتصحيحها على يد الأمويين أنفسهم ، وفى عهدهم ، وقد وجد الموالي في هاتين الحالتين من يتعاطف معهم ويبذل لهم النصرة من العرب أنفسهم .. كما وجدوا من ينصفهم من الأمويين .. ولكن الروح القومية المتمردة في موالي القسم الشرقي من الدولة الأموية لم تفتر ، بل وجدت في مثل هذه التجاوزات أو الاجتهادات زاداً لها ، كما وجدت في دعوة الشيعة إطاراً فكرياً لحركتها ، وفى قيادة العباسيين الوعاء التنظيمي الثوري لهم ، حتى تم لهم ما أرادوا وقضوا على سلطان بني أمية وأقاموا دولة العباسيين التي كانوا أكبر عون لها ، والتي أتاحت لهم منذ وقت مبكر الفرصة الكافية لإظهار النفوذ الفارسي ، ثم تكوين الدويلات المستقلة التي تتحكم فيها تلك القوميات المختلفة ..

ثالثاً : أوضاع المسلمين غير العرب في غرب الدولة الأموية :

يلاحظ أن لفظ الموالي الذي يطلقه المؤرخون على المسلمين من غير العرب لا يطلقونه على البربر في شمال إفريقية أو الأندلس ؛ وإنما يسميهم المؤرخون باسمهم الأصلي " البربر" بينما يقتصر استعمال لفظ " الموالي " على المسلمين من غير العرب في العراق وشرقه .. مما يؤكد أن مشكلة الموالي في الدولة الأموية قد ارتبطت بهؤلاء المسلمين الجدد من بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر [2] ..

ولقد دخل البربر في نسيج المجتمع الإسلامي عضوا مشاركا وناشطا منذ استقرار الفتح الإسلامي هناك على يد حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير اللذين أشركا البربر في بعض الأعمال العسكرية والإدارية المهمة ؛ حتى صار منهم قادة مرموقون مثل طارق بن زياد وجنده الفاتحين

---

[1] الطبري : السابق ١٧٣/٧

[2] د. شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي 2/19—20

للأندلس ؛ وقد عومل هؤلاء البربر المسلمون منذ البداية علي قدم المساواة مع العـرب ؛ فاعتـبرت بلادهم كالمفتوحة صلحا وأصبحوا أحرارا في حياتهم كالعرب تماما [١] ..

وأول ما يزعم المؤرخون أنه عكر صفو هذه العلاقة الحميمة هو ما يرويه الطبري بغير إسناد من أن عامل الأمويين علي إفريقية يزيد بن أبي مسلم عزم أن يسير في أهلها مسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق من رد من أسلم من أهل القرى وهاجر إلى المدن إلى قراهم ؛ ووضع الجزيـة علـي رقابهم ؛ " فلما عزم علي ذلك تآمروا في قتله فأجمع رأيهم ــ فيما ذكر ــ علي قتله فقتلوه ؛ وولـوا علي أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم ــ وهو محمد بن يزيد مولي الأنصـار ــ وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم ؛ وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك : إنا لم نخلع أيدينـا مـن الطاعة ؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضي الله والمسلمون ؛ فقتلناه وأعدنـا عـاملك ؛ فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : إني لم أرض بما صنع يزيد بن أبي مسلم، وأقر محمد بن يزيد علـي إفريقية ؛ وذلك سنة 102هـ [٢] ..

ويضيف ابن عذاري وجها جديدا في أسباب قتل يزيد بن أبي مسلم وتحديد قتلته ؛ فـيروي أن حرس يزيد كانوا من البربر وأنه قام خطيبا فقال : " إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديـهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها ؛ فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره "حرسي" ؛ ليعرفوا بذلك مـن بين سائر الناس ؛ فإذا وقفوا علي أحد أسرع بما أمرت به " ، فلما سمعوا ذلك منه ــ أعني حرسه ــ اتفقوا علي قتله وقالوا : جعلنا بمنزلة النصارى ؛ فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه [٣] ..

والروايتان تتفقان علي أن ما عزم عليه يزيد بن أبي مسلم كان رأيا خاصا به ؛ لم تشـاركه فيه الخلافة ولم تعلم به ؛ بل إنها قابلت نبأ قتل الوالي وتعيين غيره بالرضا والقبول .

كما تتفق الروايتان علي أن يزيد بن أبي مسلم لم يتجاوز مرحلة التفكير والعزم والإعـلان إلى مرحلة التنفيذ والعمل لما أراده وعزم عليه ؛ فلم يقع بعد ظلم منه علي رعيته أو حرسه ؛ وعلـي ذلك فقد انتهت الأحداث إلى هذا الحد ، فلم يقع ظلم معروف حقيقي علي الرعية ؛ ولم تحدث ثورة حقيقية من البربر علي الخلافة ؛ بل إن ما أراد الوالي المقتول عمله لا يعدو في الواقع أن يكون عمـلا تنظيميا أراد به سرعة تنفيذ أوامره ومنع وسائل التمنع الممكنة من الرعية في تنفيذ هذه الأوامر ، كما

---

[١] راجع د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص 277 ، د. شعبان :صدر الإسلام والدولة الأموية 137ــ138

[٢] الطبري : السابق 617/6

[٣] البيان المغرب 48/1 ــ49 ، وتجعل الرواية ذلك سنة 103 هـ وتجعل خليفة يزيد بعد قتلـه محمـد بـن أوس الأنصاري بدل محمد بن يزيد ....

يبدو من رواية ابن عذاري ؛ وهي الأجدر بالقبول لما نعلمه من منهج الطبري في تاريخه ألا يولي اهتماماً موازياً بأخبار إفريقية والمغرب لما يوليه من اهتمام بأخبار المشرق والحجاز .

علي أنه يجدر بنا ألا ننسي ما رواه ابن عبد الحكم المؤرخ المصري من أن قتل يزيد بن أبي مسلم إنما كان نتيجة خلاف بينه وبين عبد الله بن موسى بن نصير والي إفريقية الأسبق ؛ وأن عبد الله كان له دور في قتل يزيد مما أدي إلى أن أمر الخليفة الأموي بقتله قصاصاً بسبب دوره في قتل ابن أبي مسلم [١] ..

وإذا كان سلوك ذلك الوالي وقتله حدثاً محدوداً فإن المغرب قد شهد ثورته الكبرى سنة122 هـ في ولاية عبيد الله بن الحبحاب ؛ ثم انتقلت هذه الثورة إلى بلاد الأندلس واستمرت آثارها حتي سقوط الدولة الأموية .. ويروي الطبري مقدمات هذه الثورة وأسبابها علي النحو التالي :

" ورجع عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى مصر وقد فتح إفريقية ؛ في عهد (عثمان بن عفان) وقتل الأجلّ (أي ملكها) ؛ فمازالوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك ؛ أحسن أمة إسلاما وطاعة ؛ حتى دبّ إليهم أهل العراق ؛ فلما دب إليهم دعاة أهل العراق واستثاروهم شقوا عصاهم وفرقوا بينهم إلى اليوم ؛ وكان من سبب تفريقهم أنهم ردوا علي أهل الأهواء فقالوا : إنا لا نخالف الأئمة بما تجني العمال ولا نحمل ذلك عليهم ؛ فقالوا لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ؛ فقالوا لهم : لا نقبل ذلك حتى نبورهم (أي نختبرهم) فخرج ميسرة في بضعة عشر إنساناً حتى يقدم علي هشام ؛ فطلبوا الإذن فصعب عليهم ؛ فأتوا الأبرش (الكلبي وزير هشام) فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال : هم أحق به ؛ فقلنا : هو أخلص لجهادنا لأنا لا نأخذ منه شيئاً إن كان لنا فهم منه في حِلّ ، وإن لم يكن لنا لم نرده ؛ وقالوا : إذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وأخر جنده ؛ فقلنا : تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد ؛ ومثلكم كفي إخوانه ؛ فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم ؛ ثم إنهم عمدوا إلي ماشيتنا ؛ فجعلوا يبقرونها علي السخال ؛ يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد ، فقلنا : ما أيسر هذا لأمير المؤمنين ؛ فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك ؛ ثم إنهم سامونا على أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا؛ فقلنا : لا نجد هذا في كتاب ولا سنة؛ ونحن مسلمون ؛ فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أو لا ؟ قال (أي الأبرش) : نفعل ؛ فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع ؛ ورفعوها إلى الوزراء ؛ وقالوا هذه أسماؤنا وأنسابنا ؛ فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه ؛ ثم كانت وجهتهم إلى إفريقية فخرجوا إلى عامل هشام فقتلوه ؛ واستولوا علي إفريقية ؛ وبلغ هشاماً الخبر وسأل عن النفر ؛ فرفعت إليه أسماؤهم فإذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا [٢] .

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 213ـ215

[٢] الطبري : السابق 254/4 ـ255

وهذه الرواية من أقسى ما يروى عن هذه الثورة ؛ وأشدها تحاملاً علي الأمويين والعرب في إفريقية ؛ فهي لا تكتفي بوصفهم بالظلم والطمع الذي لا يخلو منه زمان ، بل تصفهم أيضاً بالجبن والخور ؛ حتى إنهم ليقدمون البربر في القتال ويتأخرون ، وهم الذين فتحوا المشارق والمغارب ؛ ودانت لهم بلاد البربر نفسها ، وترميهم بالفاحشة مع المسلمات الغافلات ..

ومن المؤكد أن سبق الطبري جعل روايته أساساً لما جاء بعده ؛ وأنها تـرددت في كتب المؤرخين التالين بشكل أو بآخر ، غير أن فيها بعض الفجوات و الأخطاء التاريخية ترجح ردها ؛ ومن ذلك عدم إشارتها إلى انتقاض إفريقية المستمر؛ وثورات البربر المتعددة ، ونكبات جيوش المسلمين وقادتهم فيها منذ دخلها عبد الله بن سعد لأول مرة في عهد عثمان بن عفان ، حتى تم فتحها علي يد حسان بن النعمان وموسى بن نصير في عهد عبد الملك بن مروان .. ومن الأخطاء التاريخية أن هذه الرواية نفسها تحوي الزعم بأن الأندلس قد فتحت في عهد عثمان بن عفان ؛ وأنه أرسل جيشين لفتحها سنة 27 هـ ! وذلك ما لم يذكره مصدر تاريخي آخر ، فالمعروف أن الأندلس لم تفتح إلا بعد استقرار الفتح في إفريقية ثم الالتفات إلى ما وراءها في عهد الوليد بن عبد الملك سنة 92 هـ ، أي بعد ذلك التاريخ المزعوم بحوالي خمسة وستين عاماً .. وهذه الرواية تروى عن سيف بن عمر ورجاله ؛ وهم متخصصون في رواية أخبار العراق والحجاز ، ولم يعش أحدهم في إفريقية أو المغرب .

ويكاد الطبري ينفرد بذكر وفد إفريقية إلى هشام بن عبد الملك وسوف يظهر لنا أن هؤلاء الثائرين كانوا من الخوارج ، وأن ميسرة كان من زعمائهم ، وكان خارجياً ، وليس المعهود بهؤلاء مشاورة الخلفاء قبل ثوراتهم ، فإنهم يعدّونهم كفاراً تحلُّ دماؤهم ، كما أنه لم يعرف عن هشام ابن عبد الملك شدة احتجابه عن رعيته ، ناهيك عن وفد جاء في مثل هذا الأمر الخطير ، ولم تسجل لنا كتب التاريخ حادثاً شبيهاً بذلك ، بل المعروف عنه أنه كان سهل الحجاب كثير المخالطة للناس[1] ؛ ومن المثير أن يعجز هذا الوفد عن مقابلة الخليفة وهو يصلي بالناس في المسجد الجامع أوقاتاً عديدة ، ويخطب فيهم ، ويقرب منهم في أثناء ذلك ؛ ثم يستمر عجزهم هذا أياماً عدة حتى ينفد زادهم ؛ ويضطروا للعودة إلى بلادهم آيسين ..

إن الروايات المغربية تضفي مزيداً من الضوء علي أسباب هذه الثورة ؛ فتروي أن عمر بن عبد الله المرادي عامل ابن الحبحاب علي طنجة " أساء السيرة وتعدي في الصدقات والعشر ؛ وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين ؛ وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ".. " وكان الخلفاء في المشرق يستحبون طرائف المغرب ؛ ويبعثون فيها إلي عامل إفريقية ؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات ، فلما

---

[1] كما مر بنا من قبل ..

أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ؛ وتكلف لهم ؛ أو كلفوه أكثر مما كان ٠ فاضطر إلي التعسف وسوء السيرة "[١] ..

فمدار الأمر كله علي التعدي في الصدقات والعشر وتخميس البربر بزعم أنهم من الفيء ؛ ويدخل في ذلك سبايا البربر من النساء السنيات اللاتي يبعثن إلى الشام ؛ إن ذلك يفهم في ضوء العلم بأن بعض قبائل البربر كانت لا تزال علي كفرها وبخاصة في السوس الأقصى ؛ وكان علي جيوش المسلمين أن تقاتلها حتى تعلن إسلامها ؛ أو تدفع جزيتها ؛ فذلك ما يؤكده ابن خلدون بقوله :" ثم انتقض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة ؛ في ولاية عبيد الله بن الحبحاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس ؛ وأثخن في البربر وسبي وغنم ؛ وداخل البربر منه رعب ؛ وبلغه أن البربر أحسوا بأنهم فيء للمسلمين فانتقضوا عليه "[٢] ..

ويقول ابن عذاري أن ابن الحبحاب "بعث حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري غازيا إلى السوس الأقصى ؛ فبلغ أرض السودان ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه ؛ ولم يدع للمغرب قبيلة إلا دخلها ؛ وأصاب من السبي أمرا عظيما "[٣] ..

ومدينة طنجة التي ظهرت فيها بوادر هذه الثورة هي عاصمة إقليم السوس الذي شهد هذه الحروب[٤] وإذا علمنا أن العرب لما فتحوا إفريقية اعتبروا فتحها صلحا وساووا بينهم وبين البربر ؛ علي حين اعتبروا الأراضي التي كانت للروم مفتوحة عنوة[٥] ، فمن المحتمل أن يكون عامل طنجة قد اعتبر ما يفتحه من بلاد عنوة ؛ وحاول أن يطبق عليها أحكام ذلك الفتح ؛ فأراد تخميس أهلها ؛ وزعم أنهم فيء للمسلمين ؛ وجاء الرواة بعد ذلك فجعلوا تلك الحادثة موقفا عاما لذلك الوالي يستحق معه أن يثور عليه أهل البلاد ..

ويروي الطبري أن أهل إفريقية كانوا من أحسن أهل البلدان وأطوعهم حتى دب إليهم أهل العراق[٦] ، وأهل العراق قد تمرسوا بالتمرد والثورة ، وشاعت فيهم الآراء والنحل ؛ وكان جماعة منهم ممن يرون رأي الخوارج قد أتوا إفريقية ومازالوا ببعض أهلها حتى " نبضت فيهم عروق الخارجية ، فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ؛ وتعددت طوائفهم وتشعبت

---

[١] ابن خلدون العبر 110/6

[٢] السابق 110/6

[٣] البيان المغرب 51/1 ، ابن خلدون : العبر 189/4

[٤] ياقوت . معجم البلدان 172/5

[٥] د مؤنس فتح العرب للمغرب 277 د شعبان صدر الإسلام والدولة الأموية 168

[٦] الطبري السابق 254/4

طرقها من الإباضية والصفرية .. وفشت هذه البدعة وعقدها رءوس النفاق من العـــرب ، وجـــرت إليهم جذور الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء علي أولي الأمر" [١]..

وقد كان الثائرون علي عامل طنجة من هؤلاء الخوارج الصفرية ، يستحلون سبي النساء ؛ وسبي أهل الذمة [٢] وقتل الصبيان [٣] وقد كان علي رأسهم ميسرة المدغري وعبد الأعلى بن جريــج الإفريقي ؛ وكان أصله روميا وهو مولي لموسى بن نصير [٤] ؛ وتنص الروايات علي أن هذه الثورة إنمـا بدأت لما كانت جيوش ابن الحبحاب يقودها حبيب بن أبي عبدة تغزو صقلية ، وربما كانت هنـــاك صلة بين هذا الزعيم الرومي الأصل وبين الروم ؛ وقد أفلحت هذه الثورة بالفعل في تخفيف الضغــط علي صقلية وجزر البحر المتوسط ؛ فقد أرسل ابن الحبحاب يستدعي حبيب بن أبي عبدة وجيشه من صقلية لمواجهة خطر الخوارج بالمغرب [٥] ..

وهكذا تتعدد أسباب ثورة البربر في إفريقية وتحتاج إلى دراسة فاحصة لا يكتفي معها بإلقاء اللوم معها علي عامل إحدى المدن ؛ وتحميل بني أمية كل مسئولياتها ..

ومنذ قديم لم يقنع بعض المؤرخين بما يسوقونه من أسباب لهذه الثورة تعود إلى ظلم الـــولاة فقال : " وقد يقول من يطعن علي الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقا من سير عمالهم ، وأن الخليفة وولـــده كانوا يكتبون إلي عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية فتذبح مائة شاة ؛ فربما لم يوجد منها جلـــد واحد ؛ وهو قول أهل البغض للأئمة ، فإن كانوا صدقوا فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرءوس ؛ اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان وأصحاب الراسبي عبد الله بن وهب وزيـــد بـــن حصين" [٦] ..

ومن الغريب أن يؤكد دوزي بعد ذلك أن الولاة كانوا يطلبون من عمالهم جلود الخرفان العسلية [٧].

وقد تمكن هؤلاء الخوارج من الاستيلاء علي إفريقية وهزيمة الأمويين بها [٨]؛ وقد ارتكبوا في أثناء ذلك جرائم قاسية بالعرب ؛ كما سبق ذكره ؛ مما أدي إلى استثارة حماسة المســـلمين والخلافــة الأموية ضدهم ؛ فإنه لما هزم جيش كلثوم بن عياض وقتل قائده وهو يحارب هؤلاء الخوارج وبلـــغ

---

[١] ابن خلدون العبر 110/6

[٢] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 223 ، ابن خياط : تاريخ خليفة ٢/ ٣٧٠ .

[٣] أخبار مجموعة 28ـ29 ، الذهبي : تاريخ الإسلام 30/5

[٤] ابن عبد الحكم : فتوح مصر 219 ، ابن خياط : السابق ٢/ ٣٦٨

[٥] ابن عذاري : البيان المغرب 52/1

[٦] أخبار مجموعة ص 31ـ32

[٧] دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا 144/1

[٨] أخبار مجموعة 32، 36 ، الذهبي :تاريخ الإسلام 30/5 ، وترجع سبب هذه الهزيمة إلى الكـــثرة العدديـــة الهائلـــة للبربر مقارنة بأعداد المسلمين .

ذلك هشام بن عبد الملك حلف بالله لئن بقي ليخرجن إليهم مائة ألف كلهم يأخذ العطاء ؛ ثم ليخرجن مائة ألف ... حتى إذا لم يبق غير نفسه وغير بنيه وبنيهم أقرع بينه وبينهم ثم أخرج نفسه إن وقعت عليه القرعة [١]..

ولما أخرج إليهم حنظلة بن صفوان خرج معه " القراء والوعاظ ، وكثر الدعاء والاستغاثة بالله ؛ وضج النساء والأطفال ؛ وكانت ساعة مشهودة.؛ وسار حنظلة بين الصفوف يحرض علي الجهاد واستسلمت النساء للموت لما يعلمون من رأي هذه الصفرية " [٢]؛ ثم انتصر المسلمون عليهم بعد جهد وعناء في معركة الأصنام سنة 124هـ ، فكان الليث بن سعد فقيه مصر يقول : " ما غزوة كان أحب إلي أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة الأصنام بالمغرب " [٣] ..

يبقي بعد ذلك كله أن نقول إن عبيد الله بن الحبحاب عامل الأمويين بالمغرب الذي اتهمه الرواة والمؤرخون بالتعصب ضد الموالي والتسبب في إحداث ثورتهم كان هو نفسه أحد الموالي ! فقد مر بنا قريبا أنه كان مولي لبني سلول ؛ وأنه كان يعلن ذلك ولا يستحي منه ، ولا يستخفي به ، ويجل مواليه ويقدرهم ؛ وقد عين مولاه عقبة بن الحجاج السلولي واليا علي الأندلس ..

رابعا : دور كبير للموالي في النظام الأموي:

على خلاف ما يري هؤلاء المؤرخون الذين يتحدثون عن اضطهاد الموالي في العصر الأموي وتعصب الأمويين ضدهم لحساب العرب ؛ فإن حقائق التاريخ تثبت بغير شك أن كثيرا من الموالي قد احتل مكانة كبيرة في العصر الأموي ، سواء كان ذلك في الحياة السياسية أو الإدارية أو العسكرية ؛ وأن الأمويين قد أفسحوا لهم مكانا ظل يتسع تدريجيا للمشاركة في الحكم والإدارة ...

ومن الطبعي أن يكون هؤلاء الموالي المبرزون ممن ثبت ولاؤهم للدولة وإخلاصهم للإسلام ؛ أو عرفت عنهم الكفاية والعلم بأحوال بلادهم وأهلها ، ولم تجرب عليهم خيانة أو ضعف .. كما ينبغي أن نلحظ جهود الأمويين في تحقيق الانصهار الاجتماعي بين العرب والموالي مما يعد ضرورة للوحدة الاجتماعية ، وعاملا لتقوية الألفة والمودة والتفاهم بين عناصر السكان ..

لقد مر بنا تضعيف الرواية التي تزعم أن معاوية قد هم أن يقتل شطر الموالي في دولته ، ومما يعزز الآن ردها أن نعرف هذه المكانة المتميزة للموالي في عهد خليفة الأمويين الأول .. وقد استعمل عددا منهم في الوظائف الحساسة في الشام ، حيث كان صاحب حرسه رجلا من الموالي [٤] ، وكان

---

[١] أخبار مجموعة 36

[٢] الذهبي : تاريخ الإسلام 30/5

[٣] السابق 30/5 وانظر ابن عذارى :البيان والمغرب 56/1

[٤] الطبري : السابق 330/5

على حجابه سعد مولاه [١] وكان يكتب له مولاه عبد الرحمن بن دراج [٢]، وكان وردان مولى عمرو ابن العاص عظيم المنزلة عند عمرو [٣] ، كما ولي خراج مصر لمعاوية [٤] ..

وكان عامل معاوية علي العراق زياد بن أبي سفيان عظيم الاهتمام بالموالي ، فقد تزوج منهم وأنجب ولده عبيد الله بن زياد الذي حكم العراق فيما بعد ؛ وكان زياد يقول : ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج [٥] ، وقد اتخذ منهم كاتبه علي الخراج في العراق زادان فروخ [٦]..

وإذا كان عامل معاوية على العراق مهتما بالموالي واستغلال كفاياتهم فقد كان عامله على إفريقية هو أحد الموالي أنفسهم ، وهو أبو المهاجر دينار الذي قام بجهد مشكور في دعوة البربر إلى الإسلام كما مر بنا ..

ولم يكتف معاوية بذلك لتحقيق التقارب بين العرب ومواليهم ، بل لجأ إلى وسيلة أعظم لتحقيق الانصهار السكاني بين عناصر الأمة ، فقد نقل معاوية عددا كبيرا من الموالي إلى سواحل الشام وأنطاكية ليعمروها [٧] ، كما نقل عامله زياد خمسين ألف أسرة عراقية إلى خراسان ليستقروا هناك وسط المسلمين الجدد من أهلها ، وإذا كانت هذه التدابير تبدو أمنية بالدرجة الأولى فإنها واضحة الدلالة على اهتمام الأمويين بمشاركة الموالي في تأمين الدولة وتحقيق الاختلاط السكاني في الأماكن التي تكاد تخلو من أحد العناصر وتحوطها مخاطر الأعداء ، ومن خلال هذا الاختلاط كان يتوقع مزيد من تعرف الموالي على الإسلام وتعميق إيمانهم به ..

وفاق عبيد الله بن زياد أباه في تقريب الموالي والاعتماد عليهم ، وقد كان يمت إليهم بالقرابة ، فأمه واحدة منهم ، وقد نشأ فيهم حتى كان في لسانه لكنة تنبئ عن آثار معاشرته في صغره لهم [٨] ..

وقد ازداد تقربه لهم حتى قال فيه بعض المؤرخين إنه أول من جفا العرب [٩] ؛ وولى الدهاقين جباية الخراج بدل العرب ؛ لأنهم أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون في المطالبة من

---

[١] السابق والصفحة

[٢] السابق 180/6

[٣] السابق 48/5

[٤] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 86

[٥] اليعقوبي : السابق 209/2

[٦] الجهشياري : الوزراء والكتاب 26

[٧] البلاذري : فتوح البلدان 283 ، كرد على : الحضارة العربية 159/2

[٨] الجاحظ البيان والتبيين 109/2

[٩] الإمامة والسياسة 21/2

العرب [١]، وقد اتخذ منهم جيشا عدته اثنا عشر ألفا سماه " المحاربة " [٢] .. ولما فاجأ موت يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد تحير ماذا يصنع ، " فدعا بمولى له يسمى مهران ، وكان يعدل في الدهاء والأدب والعقل بوردان غلام عمرو بن العاص ، وهو الذي تنسب إليه البراذين المهرانية ، فقال : يا مهران إن أمير المؤمنين يزيد قد هلك ، فما الرأي عندك ؟ فأشار عليه باللجوء إلى الأزد مستجيرا ففعل " [٣] ..

وبعد موت يزيد دخل العراق في مرحلة من عدم الاستقرار تحت سيطرة القبائل المتنافسة والزبيريين والمختار بن أبي عبيد ، حتى عاد إلى حظيرة الحكم الأموي بعد قتل مصعب بن الزبير سنة 71 هـ ؛ غير أن السيطرة الأموية الفعلية على العراق لم تتم إلا بولاية الحجاج بن يوسف عليه سنة 75 هـ ، حيث عصف بالزعامات القبلية المناوئة ، وأزال خطر الأزارقة ، وواصل الفتوح الراكدة في المشرق ..

وفى ولاية الحجاج علا شأن بعض الموالي ، رغم ما اتهمه به المؤرخون من التحامل عليهم ، والحق أنه لم يكن يطيق معاني التمرد والثورة سواء جاءت من عرب أو موال .. ومن المأثور عنهم أنه ولى سعيد بن جبير أحد العلماء الموالي إمامة الصلاة بالكوفة ، ولم يكن يؤم الناس بها إلا عربي [٤]، وكان شريح قاضيه ـ وهو مولى ـ على الكوفة حتى سنة 79 هـ ثم استعفى الحجاج فأعفاه [٥]، وكان قد ظل قاضيا بها منذ عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج[٦].

وكان انسياح الفتوحات في شرق الدولة خلال عهد الحجاج فرصة لظهور دور أكبر للموالي في البلاد المفتوحة وفى ساحات القتال ، وذلك ما حدث بالفعل مع القواد الأمويين البارزين الذين علا عندهم شأن بعض هؤلاء الموالي ، مثل المهلب بن أبي صفرة ، وابنه يزيد بن المهلب وقتيبة ابن مسلم الباهلي .. فقد كان موالى المهلب ممن يشاركون معه في المعارك ، ويعتمد عليهم في الملمات [٧] ؛ ومن أشهرهم جبلة غلام حبيب بن المهلب [٨] ، ومنهم حريث بن قطبة مولى خزاعة الذي كان المهلب يستخلفه على بعض البلاد وراء النهر في أثناء غزوه وقتاله [٩]، وكذلك كان أخوه ثابت

---

[١] الطبري : السابق 523/5

[٢] الإمامة والسياسة 23/2

[٣] الدينوري الأخبار الطوال ص

[٤] ابن خلكان : السابق٢/ ٣٧٣ ، وولاه القضاء فضج أهل الكوفة فعزله (السابق والصفحة) .

[٥] الطبري : السابق 324/6

[٦] الدميري : حياة الحيوان 19/1 ، الخربوطلي : تاريخ العراق 260

[٧] الطبري : السابق 326/6 ، 351ـ353

[٨] الطبري : السابق 326/6

[٩] الطبري · السابق 352/6

ابن قطبة عالي الصيت ، فلما تناول المهلب حريثا هذا ببعض التأديب غضب . ولم يـرض بمحاولـة المهلب استرضاءه بل دبر لقتل المهلب ، فلما فشل تدبيره لجأ مع أخيه ثابت إلى موسى بن عبـد الله ابن خازم ـ أحد زعماء العرب المتغلبين على الترمذ (قتل سنة 85 هـ) ـ مع ثلاثمائة من شاكريتهما والمنقطعين إليهما من العرب [١] فلما صارا إلى موسى أصبح تدبير أمره إليهما [٢]، ومنهم موالي يزيد بن المهلب الذين أسدوا إليه أعظم المساعدة في أثناء هروبه من سجن عمر بن عبد العزيز [٣] وشاركوا معه في ثورته على الأمويين [٤] .

وقد اشتهر بين هؤلاء الموالي في خراسان وما وراء النـهر جماعـة عرفـوا بالنصحـاء ، واشتهروا برجاحة العقل وحسن السياسة والقدرة على اكتساب ثقة الآخرين ، فاستطاعوا أن يلعبوا دورا مهما في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية [٥] ؛ وكان منهم سليم الناصح الذين كـان ذا مكانة عالية عند قتيبة بن مسلم [٦] وحيان النبطي الذي كان يقال إنه من الديلم أو خراسان ، وإنمـا قيل إنه نبطي للكنته [٧] ؛ وكان يقود فرقة من الموالي في الجيش الأموي يصل عددها إلى سـبعة آلاف مقاتل [٨] ، ولما تمرد قتيبة بن مسلم في أواخر حياته على الخلافة ، وخلع سليمان بن عبـد الملـك ؛ خالفه حيان وانحاز إلى أنصار الخليفة وكان له الدور البارز في قتل قتيبة وإنهاء خطره [٩] ..

وبلغت أهمية الدور الذي لعبه الموالي في حروب قتيبة وصنع مجده العسكري أن قال له أحد قادة الترك " إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم " [١٠]، ولقد كان قتيبة يهدف مـن ذلـك إلى إحداث الانسجام بين العرب والموالي في ولايته ، وقد مرت بنا الإشارة إلى دوره في نشر الإسـلام هناك ، حيث كان يشترط على أعدائه أحيانا في عقود الصلح أن يمدوه بقوة مـن أهـالي بلادهـم ليكونوا معه في جيشه ؛ كما فعل مع خوارزم شاه لما صالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتـاع ،

---

[١] الطبري : السابق 353/6 ، والشاكرية (لفظ كان يطلق على بعض فرق الجيش من الموالي ، فلهوزن تاريخ الدولـة العربية 470)

[٢] الطبري : السابق 404/6

[٣] الطبري . السابق 564/6

[٤] الطبري : السابق 581/6 بينما ينفي ابن الأثير هذه المشاركة ويقول إن قوات يزيد بلغت مائة وعشرين ألفا ليـس منهم أحد من الموالي ؛ الكامل في التاريخ 172/4

[٥] راجع فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 470

[٦] الطبري : السابق 429/6 ، 431 ، 455ـ458

[٧] السابق 512/6

[٨] السابق والصفحة

[٩] السابق 512/6ـ 515

[١٠] الطبري السابق 474/6

وأن يعينه على بعض الملوك [١].. وبالطبع فقد كان من يسلم من هؤلاء يدخل في عداد الموالي المسلمين ..

ولم تقتصر جهود قتيبة على الاستعانة بهم في حربه ، بل بلغت ثقته ببعضهم إلى حد أن كان يستخلفهم على بعض ما يفتحه من بلاد أو يوليه بعض وظائف الإدارة .. مثلما استخلف ثابتا الأعور على مرو لما سار هو إلى خوارزم [٢]، كما جعل عبيد الله بن أبي عبد الله مولى بني مسلم على خراج خوارزم بعد فتحها [٣] ..

وإذا كان هذا بعض ما أصاب الموالي من حظ في شرق الدولة الإسلامية وفي ظل ولاية الحجاج بن يوسف المتهم عند جمهور المؤرخين بمحاربة الموالي واضطهادهم .. فقد نال الموالي مكانة عالية أيضا في الشام وشمالي إفريقية في تلك الفترة من عهد الخليفتين عبد الملك والوليد ابنه.

فقد كان أبو الزعيزعة مولى عبد الملك بن مروان على ديوان رسائله وكان عظيم المكانة عنده [٤] ؛ وكتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكتب إليه أن أردت رجلا مأمونا فاضلا وديعا مسلما كتوما تتخذه لنفسك ، وتضع عنده سرك ، وما لا تحب أن ينظر ، فاتخذ محمد بن يزيد " ؛ فجعله عبد الملك كاتبا له ، واستشاره في بعض المسائل المهمة مثل استخلاف ولديه الوليد وسليمان من بعده [٥]؛ ومحمد بن يزيد هذا هو الذي ولي إفريقية بعد ذلك ليزيد بن عبد الملك كما رأينا ، وكذلك فقد اتخذ الوليد بن عبد الملك عددا من الموالي على ديوان الخاتم والرسائل والمستغلات [٦] .. وفي عصر الوليد نال الموالي في غرب الدولة المنزلة الرفيعة دون تعصب أو تمييز ، فكان القائد الذي مكن للإسلام والنظام بصورة نهائية في شمال إفريقية هو موسى بن نصير أحد الموالي ؛ حيث كان أبوه من سبايا عين التمر الذين أسرهم خالد بن الوليد سنة 12 هـ [٧] ، ومن هناك أرسل موسى أحد الموالي من البربر ؛ وهو طارق بن زياد ؛ لفتح الأندلس ، ومعه بربري آخر يسمى طريف بن مالك ، وأحد موالي الشام الناهين واسمه مغيث مولى عبد الملك بن مروان [٨] ..

---

[١] السابق 470/6

[٢] السابق والصفحة

[٣] السابق 480/6

[٤] الطبري : السابق 180/6 وانظر ص 145

[٥] الطبري : السابق 414/6 ـ 415

[٦] السابق 181/6

[٧] السابق 377/3 ، ابن كثير : البداية والنهاية 118/9

[٨] ابن عذاري : البيان المغرب 9/2 ـ10

لقد كان لابد من شيء من الإطناب في بيان مكانة الموالي في خلافة عبد الملك والوليد بعدما كثر الحديث عن اضطهادهم في عصريهما، والاستشهاد على ذلك بمسلك واليهما الحجاج بن يوسف في إحدى فترات ولايته على العراق والمشرق ..

خامسا : مكانة الموالي أواخر الدولة الأموية :

ومن الطبيعي القول بأن مكانة الموالي كانت تعلو يوما بعد يوم ، ويزداد دورهم في الحياة السياسية والاقتصادية للدولة مع تكاثر أعدادهم وقلة أعداد العرب الذين انساحوا في بلادهم ..

ففي خلافة عمر بن عبد العزيز كان عدد من عماله البارزين من الموالي ؛ منهم سليمان بن أبي السري عامله على سمرقند [١] وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر عامله على إفريقية [٢] ، وفى خلافة يزيد بن عبد الملك تولى إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج ، فلما قتله أهلها ولوا بدله محمد بن يزيد مولى الأنصار فأقره الخليفة عليها ، وفى المشرق كان سليمان بن أبي السري على كس ونسف من مدن ما وراء النهر حربها وخراجها سنة 104 هـ [٣] ؛ كما ولى جبلة بن عبد الرحمن مولى باهلة كرمان ، وكان يستقلها ويطمع أن يلي خراسان كلها [٤] ..

وفى خلافة هشام بن عبد الملك الذي يتهمه بعض المؤرخين بأنه كان متعصبا للعرب ولا يحسب حسابا للموالي [٥] كان كاتبه أحد الموالي عظيمي المنزلة عنده واسمه سالم بن جبلة [٦] .. وكان كثير الإدلال عليه حتى " لكأنه هو أمر هشاما " [٧] ؛ وفى العراق وشرقي الدولة كان عمر بن هبيرة واليه عليها شديد الاهتمام بأمر الموالي والإفادة من كفايتهم ، فقد أوصى عامله على خراسان مسلم ابن سعيد بقوله : " ليكن حاجبك من صالح مواليك .... وعليك بعمال العذر ، قال وما عمال العذر ؟ قال : مر أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم ، فإذا اختاروا رجلا فوله ، فإن كان خيرا كان لك ، وان كان شرا كان لهم دونك ، وكنت معذورا [٨] ؛ واشتهر في عهده من الموالي توبة بن أسيد — مولى بني العنبر — وكان ابن هبيرة يمتدحه ويقول : مثل هذا فليول " أما مسلم بن سعيد عامل ابن هبيرة على خراسان فقد دفع إليه خاتمه وقال : هذا خاتمي فاعمل برأيك ، فلم يزل معه حتى

---

[١] الطبري : السابق 567/6

[٢] ابن عذاري : البيان المغرب ٤٨/١ ، الزركلي : الأعلام ١/ ٣١٦

[٣] الطبري : السابق 11/7

[٤] السابق 18/7

[٥] د. العش : الدولة الأموية 284

[٦] الطبري : السابق 148/7 ، د. الدوري مقدمة في تاريخ صدر الإسلام 87

[٧] الطبري : السابق 200/7—202

[٨] السابق 35/7

قدم أسد بن عبد الله القسري واليا على خراسان ، فأراد توبة أن يشخص مع مسلم بن سعيد فقـال له أسد : أقم معي فأنا أحوج إليك من مسلم ، فأقام معه [١] ..

ولمعت أسماء عدد آخر من الموالي في عهد هشام في خراسان وما وراء النهر غير توبة بـن أسيد ، مثل ثابت قطنة [٢] وأبي الصيداء صالح بن طريف مولى بني ضبة [٣] وعبد الله بـن أبي عبـد الله مولى بني سليم ، ذلك الرجل العليم بالحرب والخداع ، والذي أنقذ الله به المسلمين في مواطن خطيرة في ساحة القتال [٤] ، واشتهر أيضا من الموالي بالعلم بالحرب وحاجة الأمراء إلى رأيه ومشورته جماعـة مثل الفضل بن بسام مولى بنى ليث ، والبختري بن مجاهد مولى بني شيبان [٥] ومقاتل بن حيان النبطـي الذي ورث فضل أبيه ومكانته [٦] ..

وفى العراق نفسها اعتمد الخليفة هشام على بعض الموالي الميرزين في أعمـال اسـتصلاح الأراضي هناك مثل أبي المثنى فروخ وحسان النبطي[٧] ..

وقد شهدت نهاية العصر الأموي تألقا جديدا في وضع الموالي حيث ولي الخلافة ثلاثة مـن بني أمية كانوا من أمهات أولاد ، أولهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي كانت أمه إحدى بنـات فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، وكان يفخر بذلك ويقول :

أنا ابن كسرى وأبي مروان   وقيصر جدي ، وجد خاقان [٨]

ووليها بعده أخوه إبراهيم بن الوليد وكانت أمه أم ولد [٩] ، ولكن الخلافة لم تستقم له ، فقد تغلـب عليه مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين وكانت أمه أيضا أم ولد [١٠] ..

ومن الجدير بالذكر هنا أيضا الإشارة إلى دور الموالي في نقل السلطة الأموية بعد انهيارهـا في الشام إلى الأندلس ، وما بذلوه من جهد للتمكين لمعاوية الداخل حتى أقام هذه الخلافة هنـاك [١١] ..

---

[١] الطبري : السابق 357

[٢] السابق 38/7 ، 58

[٣] السابق 54/7

[٤] السابق 81/7 ـ 84

[٥] الطبري : السابق 79/7 ، 155

[٦] السابق 94/7

[٧] ابن الأثير : الكامل 235/4 ، النويري : نهاية الأرب 451/21

[٨] الطبري : السابق 298/7 ، ابن حزم : موجز تاريخ الإسلام ص 31

[٩] الطبري : السابق 299/7 ، ابن حزم : السابق ص 31

[١٠] الطبري : السابق 242/7 ، ابن حزم : السابق ص 32

[١١] ابن خلدون : العبر ١٢١/٤

ولقد بقي نفر من الموالي وفيا لبني أمية بعد انقضاء دولتهم ، يذب عنـــهم وينـــافح عـــن ذكراهم .. فقد كان سديف الشاعر مولى بنى هاشم ، وشبيب مولى بني أمية يخرجان إلى بعض شعاب مكة يتفاخران ، فكان هذا يخرج في موالي بني هاشم ، وهذا في مـــوالي بـــني أميـــة ، فيفتخـــرون ويتشاتمون، ثم يتجالدون بالسيوف ، وكان يقال لهم السديفية والشبيبية ، وكان أهل مكة منقســمين بينهم في العصبية [1] ..

[1] الأصفهاني · الأغاني 169/9

المبحث الثاني

موقف الأمويين من العصبية القبلية

أولا : العصبية القبلية قبل قيام الدولة الأموية :

نهى الإسلام عن هذه العصبية القبلية ، التي كانت عماد الحياة في المجتمع الجاهلي ، وأن الرسول ﷺ قد حذر من ابتعاثها بين المؤمنين فقال : "من قاتل تحت راية عمية ، يدعو إلى عصبية ، أو يغضب لعصبية ، فقتلته جاهلية " [1] ، وبذل جهودا مضنية في سبيل تحقيق الوحدة والمؤاخاة بين المسلمين ، غير أن هذه الروح القبلية ظلت موجودة عند بعض المسلمين ، مختفية تحت ضغط مشاعر الإيمان المتأجج ، لا تكاد تنبعث حتى تجد الإنكار لها والحرب عليها [2] ؛ إلا أنه بعد فتح مكة ودخول قبائل العرب المختلفة في الإسلام ــ ولم تكن حمية الإيمان عندهم موازية لما كان عند السابقين الأولين ــ وجدت العصبية القبلية متنفسا لها ، وكانت حروب الردة دلالة بارزة على ذلك [3] ، وتعاظم إحساس القبائل بأهميتها في أثناء حروب الفتوحات الكبرى في عصر الراشدين ، ثم كانت هجمة القبائل ونقمتها على قريش محركا بارزا للثورة على عثمان بن عفان ..

وكانت هذه العصبية القبلية تستمد جزءا كبيرا من زادها ومشروعيتها من اعتماد القبيلة كوحدة تنظيمية في الإدارة العربية الإسلامية آنذاك ، إذ لم يكن هناك بديل تنظيمي للإدارة المدنية أيسر من هذا الإطار القبلي الذي اعتاده العرب ، فكان سبيلهم في تنظيم الجيوش [4] وتقسيم المدن الجديدة [5] وتنظيم العطاء ، حيث وضع عمر بن الخطاب أساسه على القرب من الرسول ﷺ

---

[1] حديث شريف رواه ابن ماجة : السنن ، كتاب الفتن ، وانظر أبو داود : السنن ، كتاب الأدب ، مسلم : الصحيح، كتاب الإمارة ، البيهقي : السنن الكبرى 156/8

[2] مثلما حدث من تنادى أحد المهاجرين : يا للمهاجرين لما تشاجر بعض المهاجرين والأنصار بتحريض من زعيم منافقي المدينة عبد الله بن أبي وتنادى أحد الأنصار يا للأنصار ، لولا أن تدخل الرسول لإطفاء الأزمة (ابن هشام السيرة النبوية ١٩٣/٣)

[3] كان أحد رجال ربيعة قبيلة مسيلمة الكذاب يوقن بكذب مسيلمة وصدق النبي (ص) ، ولكنه كان يقول : كذاب ربيعة أحب إلى من صادق مضر (الطبري : السابق ٢٨٦/٣)

[4] حتى منذ عهد النبي (ص) نجد في فتح مكة بعض قبائل العرب تسير كوحدات مستقلة في الجيش (ابن هشام : السابق ١٥/٤)

[5] قسمت البصرة إلى خمسة أقسام قبلية؛ كذلك الكوفة التي قسمت إلى سبعة أقسام جعلها ابن زياد أربعة فيما بعد (راجع د. الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي 242 ــ 244 ، 295 ــ297) .

والسابقة إلى الإسلام ، فبرزت بذلك مكانة قريش ؛ فهم الأقرب إلى الرسول ﷺ وكان السابقون إلى الإسلام في تناقص مستمر بالموت والرحيل عن عالم الناس ..

ثم جاءت الحروب الأهلية بين المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان في الجمل وصفين فرصة لتكريس الإحساس العربي بالقبيلة ، حيث كانت كل قبيلة تواجه أختها ، فرأينا نماذج من التعاطف الحرج بين المتحاربين[1] ؛ والأسى على قتال أبناء القبيلة الواحدة بعضهم بعضا [2] ؛ ذلك فضلا عن محاولات بعض القيادات المتحمسة تفجير الحماس بين المتقاتلين بتذكيرهم بأمجادهم القبلية التالدة [3]..

وعلى هذا فقد كانت الظروف التي أسفرت عن قيام الدولة الأموية ثرية الدلالة على انتعاش العصبية القبلية وبروزها كواحدة من أهم القوى السياسية المؤثرة في المجتمع والدولة ، على خلاف ما يشيع بعض الباحثين من أن الدولة الأموية هي المسئولة أولا عن بعث العصبية القبلية في الحياة العربية .. غير أنه من المؤكد أن العصر الأموي شهد نشاطا بارزا للفعاليات القبلية فيه ، كما شهد عديدا من صور الصراع القبلي على نحو غير مسبوق ، وقد جاء ذلك استمرارا في التطور والصعود للخط البياني الممثل لتفشى هذه الروح القبلية وقوتها في الحياة العربية والإسلامية ..

ثانيا : العصبية القبلية في العصر الأموي؛ نظرة عامة :

لا نكاد نسمع عن صراع قبلي طيلة خلافة معاوية بن أبي سفيان التي استمرت حوالي عشرين عاما من عمر الدولة الأموية .. وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى تلك السياسة الحصيفة التي انتهجها معاوية وولاته في تأليف القلوب وسل سخائم النفوس واسترضاء المعارضين وتقريب زعماء القبائل والموازنة الدقيقة بين المصالح القبلية المتعارضة .. وقد استمر ذلك الحال في أثناء خلافة يزيد بن معاوية حيث انحصر الصراع آنذاك بين الخليفة وعصبيته الشامية وبين الثائرين عليه الذين لم يكونوا يعتمدون على عصبيات موازية في القوة لعصبية أهل الشام ، وقد استوعب ذلك الصراع الفعاليات القبلية فيه بحيث لم تتح أمامها فرصة الظهور كقوة مستقلة في التأثير ..

وقد تفجر أول صراع قبلي خطير في العصر الأموي عقب وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية حيث خلا بموته منصب الخلافة بالشام ، وغابت سيطرة الدولة المركزية مما أتاح لهذه القوى الاجتماعية فرصة الظهور القوي ، فدخلت في مرحلة صراع يحاول فيها كل طرف أن يثبت قوته وسيطرته ، ويحقق أهدافه ومصالحه ، ويبرهن على أنه الأجدر بالسيادة والنصر ..

---

[1] الطبري : السابق 528/4 ، 26/5

[2] الطبري : السابق 26/6ـــ27

[3] السابق 516/4

ففي الشام نشب الصراع بين القيسيين الذين بايعوا ابن الزبير ، والكلبيين الذين ظلوا على ولائهم للبيت الأموي [١]، وفى العراق حاول ابن زياد الحفاظ على وحدة ولايته السياسية والاجتماعية فعرض عليهم مبايعة أحدهم حتى يستقر رأي أهل الشام على من يبايعونه ، فأصروا على بيعته هو ثم ما لبثوا أن نكثوا بيعتهم ، فلجأ إلى الأزد بالبصرة الذين حاولوا بدورهم الإفادة من الموقف الجديد في بسط هيمنتهم على البصرة ، فتصدت لهم تميم ونشب صراع قبلي حاد ؛ فر فيه ابن زياد إلى الشام ، وبايعت العراق لابن الزبير ، وظلت أمورها في اضطراب فترة طويلة [٢] ..

وفى خراسان ــ في الفترة نفسها ــ انسحب واليها سلم بن زياد عنها ؛ وكتب لعبد الله ابن خازم عهدا على خراسان [٣] فبايع لابن الزبير وأيدته تميم وخالفته ربيعة [٤] ، لكنه نجح في فرض سيطرته على خراسان بالقوة ، فنشب الصراع هذه المرة بينه وبين تميم التي انقلبت عليه لتنكره لها [٥] ، وقد لقي ابن خازم حتفه في ذلك الصراع ، ولكن استمر القتال بين التميميين أنفسهم بعضهم بعضا [٦] حتى استتب أمر الأمويين بالشام ، فأرسل زعماء العرب بخراسان يسألون عبد الملك بن مروان أن يرسل عليهم واليا من قريش ؛ يستعلي على خلافات القبائل المتناحرة هناك [٧] ...

وفى منطقة الجزيرة قامت الحروب بين قيس ــ التي جاءت إلى هذه المنطقة زمن الفتوحات ــ وتغلب التي كانت تعيش هناك منذ مدة طويلة ، وبينما أيد القيسيون ابن الزبير أيدت تغلب الأمويين ، وصارت معهم في مرج راهط [٨] .. وبعد مرج راهط استمرت الحروب بين الجانبين وكانت لهم أيام مشهودة ، في هذه الفترة التي انشغل فيها عبد الملك بن مروان بالقتال ضد ابن الزبير [٩] ..

وبعد عودة الخلافة إلى البيت الأموي توحدت الدولة الإسلامية تحت رايتهم إثر جهود كبيرة ، ثم استطاعت هذه السلطة المركزية أن تعيد هيبة الدولة واحترامها ، فاستترت العصبيات القبلية ؛ لا تستطيع ظهورا إلا على استحياء ، وفى مظاهر أقل عنفا وخطورة .. وسوف نعود بعد قليل لبيان جهود الأمويين في السيطرة على مظاهر هذه العصبية ..

---

[١] سيأتي قريبا تفصيل لذلك الاختلاف

[٢] راجع الطبري : السابق 504/5 وما بعدها

[٣] الطبري : السابق 546/5

[٤] الطبري : السابق 550/5ــ551

[٥] السابق 623/5 وما بعدها

[٦] السابق 276/5ــ178 ، 199

[٧] السابق 199/6 ــ200

[٨] البلاذري : أنساب الأشراف 188/5

[٩] فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص 57ــ58

ويستمر الحال على ذلك حتى يدب الضعف من جديد في مركز الخلافة الأموية بعد مصرع الوليد بن يزيد الخليفة الأموي على يد ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فانفتح الباب واسعا أمام أصحاب الطموح من البيت الأموي فحاولوا استلاب الحكم بالقوة ، فانقسم البيت الأموي على نفسه ، وانقسمت حوله العصبيات القبلية تؤيد هذا الطالب الخلافة أو ذاك .. فثار مروان بن محمد على يزيد بن الوليد مظهرا الثأر للوليد بن يزيد ، واستطاع بأنصاره من الجزيرة ــ حيث مقر ولايته ــ وهم قبيلة قيس ، أن يحوز الخلافة لنفسه ، وينقل مقرها إلى حران بالجزيرة ، فخسر ولاء أهل الشام وعصبيتها اليمنية [1]، وانتقل ذلك الصراع القبلي إلى المغرب والأندلس بين العرب هناك [2] ، وإلى خراسان حيث أذكى أواره ، واستغل ثماره ، طلاب السلطة من دعاة بني العباس [3] ، واستمر الحال على ذلك حتى انهارت الدولة الأموية ..

إن ذلك العرض الموجز للخلافات القبلية في العهد الأموي ينتهي بنا إلى نتيجة واضحة هي أن الصراع القبلي في العصر الأموي لم يحتدم إلا في أثناء ضعف الخلافة الأموية ، أو غياب سلطتها المركزية ، وأن ذلك لم يستغرق شطرا كبيرا من عمر الدولة الأموية ؛ كما توهم بذلك بعض أقوال المؤرخين ، إن ذلك يؤدى بنا إلى القول بأن خلفاء بني أمية وولاتهم كانوا يبذلون جهودا ــ لابد أنها كانت كبيرة ــ للسيطرة على هذه العصبية القبلية القوية ، في معظم فترات حكمهم وأيام قوة خلافتهم .. مما سوف نبسط فيه القول فيما يلي ...

ثالثا :جهود الخلفاء والولاة في السيطرة على العصبية القبلية :

١ ــ عصر معاوية وابنه يزيد :

إن الخط العام الذي تتبناه كتابات كثير من المؤرخين هو تصور أن هناك صراعا دائما بين فرعي العرب الشماليين والجنوبيين ، أو القيسيين والكلبيين ، أو المضرية واليمنية [4].. وأن بني أمية كانوا دائمي التحريش بين هذين الفريقين ليضمنوا من خلال تفرق العرب بقاءهم وسيادتهم.

ويزعم بعضهم أن أول من نهج ذلك النهج منهم هو معاوية بن أبي سفيان ، حيث يروي صاحب "الأغاني " أن معاوية في خلافته كان لا يفرض عطاء إلا لليمن ، وأنه رفض أن يفرض للشاعر مسكين الدارمي ، لأنه ليس يمانيا ، وأن معاوية لم يزل يفعل ذلك حتى عزت اليمن وكثرت ، وضعفت عدنان ، فبلغ معاوية أن رجلا من أهل اليمن قال : هممت ألا أدع بالشام أحدا من مضر ،

---

[1] راجع ص من هذا المبحث

[2] محمود شاكر التاريخ الإسلامي 4/307ــ308

[3] الطبري : السابق 7/285 وما بعدها ، 353 وما بعدها

[4] للمؤرخين اجتهادات شتى في تصور أسباب ذلك العداء (راجع ملحق رقم ٦) من ملاحق هذا الكتاب

بل هممت ألا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزاري بالشام ، فلما بلغ ذلك معاوية فرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس .. وتمضي الرواية فتزعم أن معاوية كان يغزي اليمن في البحر، ويغزي قيسا في البر ، حتى قال أحد شعراء اليمن أبياتا يتضجر فيها من ذلك الصنيع ، فلما بلغت معاوية بعث إلى اليمن فاعتذر إليهم وقال : " ما أغزيتكم في البحر إلا لأني أتيمن بكم ؛ وإن في قيس نكدا وخلافا لا يحتملهما الثغر ... فأما إذا ظننتم غير ذلك فأنا أجمع فيه بينكم وبين قيس، فتكونون فيه جميعا ، وأجعل الغزو فيه عقبا بينكم "[١]..

ويعزز مؤرخون آخرون تلك الدعوى فيزعمون أن معاوية وبني أمية كانوا في أثناء خلافته يحابون كلبا على حساب قيس ، ولذا فقد تزوج منهم معاوية امرأته ميسون بنت بحدل أم ولده يزيد الذي ولي الخلافة بعده ..

إن دعوى محاباة معاوية يمن الشام على قيسها لا تثبت أمام البحث البريء .. فرواية تفضيله اليمن في العطاء وحرمانه قيسا تفوح منها رائحة الوضع ، فغير معقول أن يحرم معاوية قيسا كلها من العطاء ، دون جريرة ، وهو حقهم المتوارث منذ سن عمر بن الخطاب ديوان العطاء ، وغير معقول أن ترضى الأمة عن ذلك الضيم ، أو أن ترضى قيس بذلك ، وقد حاربت إلى جواره في صفين وغيرها ، وظلوا على ولائهم وطاعتهم له طوال خلافته ، وكان منهم قادة الجيوش ، وولاة الأقاليم ، فكيف رضي هؤلاء وأولئك خطة الخسف هذه حتى فجرها لهم مسكين الدارمي ؟

كما أنه ليس معقولا افتراض أن معاوية كان يغزي اليمن وحدها في البحر دون قيس ، حتى ضجروا من ذلك فتراجع ، وعاقب بين الجانبين في البر والبحر ، إذ أننا نطالع أسماء بعض أبطال البحرية الأموية من العرب الشماليين منذ وقت مبكر ، وعلى رأس هؤلاء بسر بن أرطأة العامري وعبد الله بن قيس الجاسي ، حليف بني فزارة[٢] وهل لم يجد معاوية وسيلة أخرى لحفظ التوازن القبلي بدلا من منع العطاء عن قبيلة والتثقيل في الغزو على أخرى ؟؟

إنه من المعروف أن معاوية كان يحاول الإفادة من كل ذي كفاية يمكن الإفادة منها في دولته ، قيسيا كان أو يمانيا ، بل إنه حاول تأليف قلوب من كانوا في صفوف أعدائه ، فاستمالهم ودفع بهم إلى الصف الأول من رجالات دولته ، ولعل نموذج زياد بن أبيه واضح الدلالة في ذلك المجال .. كما أن المطالع لأسماء ولاته وعماله يتبين بوضوح هذه الحقيقة[٣] ؛ ومن أهم هذه الشخصيات القيسية البارزة في عهد معاوية في دمشق نفسها ؛ الضحاك بن قيس الفهري زعيم القيسية بالشام ، وأحد أبرز رجال البلاط الأموي ، وهو الذي نعى معاوية إلى الناس لما مات ، وابنه

---

[١] الأصفهاني :: الأغاني ٢٠/ 171ـ173

[٢] الطبري : السابق 4 /260ـ261

[٣] راجع الجدول بأسماء ولاته وعماله عند محمود شاكر · التاريخ الإسلامي 4/94ـ99

يزيد غائب ، وصلى عليه [1] ، وظل الضحاك عظيم المكانة عند يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد ، فلما تنازل الأخير عن الخلافة بايع أهل دمشق الضحاك على أن يصلي بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى تجتمع أمر أمة محمد ﷺ [2] .. وهكذا يبدو وضع رواية صاحب الأغاني الذي " يكاد يتفرد برواياتها حيث لا يوجد مصدر آخر يؤكدها ، وربما تعرضت هذه الرواية إلى تحريف شديد ، أو مبالغة واضحة " [3] ..

أما مصاهرة معاوية لقبيلة كلب ، أقوى القبائل اليمنية بالشام ، فقد كان ذلك منذ وقت مبكر يعود إلى ما قبل استخلافه في أيام إمارته على الشام[4] وهو يحاول أن يكسب ود أهل هذه البلاد التي أصبح أميرها ، وهو غريب عنها ، وقد تزوج من غير كلب ومن قريش أيضا [5] ؛ وكذلك فعل ابنه يزيد فكانت نساؤه قرشيات [6] ، وهذه المصاهرة الأموية لكلب لم تمل بهم إلى محاباة أو ظلم ..

ولا ينبغي أن ننسى أن بني أمية عرب شماليون ، وفي مصاهرتهم لليمانية ما يحفظ التوازن القبلي في هذه البيئة المتوترة ..

٢- العصبية القبلية بعد موت يزيد بن معاوية :

وجاء موت يزيد بن معاوية وتنازل ابنه معاوية عن الخلافة نقطة تحول في تاريخ الحياة السياسية في الدولة الأموية مع ما صاحب ذلك من تداعيات اجتماعية .. إذ تفجرت العصبية القبلية على نحو غير معهود منذ مجيء الإسلام .

فبعد تنازل معاوية بن يزيد لم يبق من الفرع السفياني الذي احتفظ بإجماع أهل الشام عليه، ونجح في تحقيق التوازن بينهم ، والسيادة والعزة لهم ، شخصية يمكن أن تفرض نفسها ، أو تملأ الفراغ السياسي الهائل ، فلم يكن هناك مرشح سفياني للخلافة سوى خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو بعد غلام صغير لا تظاهره خبرة أو كفاية معروفة ، ولا يعضد من اختياره سوى تأييد أخوال أبيه من قبيلة كلب ، وعلى رأسهم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ..

---

[1] الطبري : السابق 227/5 ــ238

[2] السابق 530/5

[3] د. عبد الأمير دكسن الخلافة الأموية ص 143ــ144 ، وقد رواها أيضا البغدادي :خزانة الأدب 466/1 ، ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق 300/5) ، وهما مصدران متأخران ..

[4] حيث أولدها ولده يزيد بن معاوية سنة 22 هـ (الطبري : السابق 160/4)

[5] راجع الطبري : السابق 329/5 حيث تزوج من قريش زوجتيه فاختة بنت قرظة ثم أختها كنوة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف

[6] راجع الطبري : السابق 500/5 ، محمود شاكر التاريخ الإسلامي127/4 حيث تزوج أم هاشم بنت أبي هاشم ابن عتبة بن ربيعة ، وأم كلثوم بنت عبد الله بن عامر .

ومن ناحية أخرى كان نجم عبد الله بن الزبير يغزو أجواء الشام بعد غياب السلطة فيها، وهو شخصية قرشية تحظى باحترام جماعة من قادة الرأي حتى في بلاد الشام [1]، وإن كانت رؤيته للخلافة تقتضي إعادتها إلى الحجاز ؛ كما كانت في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، مما يعني حرمان الشام من مكانتها الرفيعة التي اكتسبتها كحاضرة للعالم الإسلامي في عصر بني أمية حتى ذلك الوقت ..

وقد كانت أفكار الكلبيين تتجه إلى استخلاف خالد بن يزيد ، حيث ستتيح لهم ظروف اختياره وصغر سنه وقلة خبراته وقرابتهم القريبة منهم نفوذا كبيرا عندهم ، وسيجعل ذلك لهم الكلمة الأولى في بلاط الخليفة ؛ إن لم تكن السيطرة عليه ، والحكم من خلاله ..

ولما كان ذلك الاختيار يبدو غير منطقي إزاء شخصية منافسة مثل ابن الزبير فإن بعض القادة اليمانيين الآخرين كانوا يبحثون عن زعيم أموي آخر يصلح لمنافسة ابن الزبير ، وتظل معه الخلافة في بلاد الشام ، وقد وقع اختيارهم على شيخ بني أمية مروان بن الحكم .. ولكن ذلك الفريق كان لا يستطيع أن يحسم الخلاف لصالحه دون موافقة اليمانية الآخرين الذين يرشحون خالد بن يزيد ؛ ويشفقون من قوة شخصية مروان بن الحكم وعصبيته مما سيقلل من نفوذ اليمانية عنده ، غير أنهم اضطروا في نهاية المطاف أن يقبلوا ترشيح مروان للخلافة ، بعد أن اشترطوا لأنفسهم بعض الامتيازات المادية والمعنوية المحدودة [2]..

وإذا كان الكلبيون في الشام قد حسبوا حساباتهم على ذلك النحو ، وسعوا في تحقيقها ، فإن الزعيم القيسي الضحاك بن قيس كان ينظر إلى الأمور على نحو مخالف .. فإن مكانته الرفيعة التي نالها في خلافة معاوية وابنه يزيد قد أصبحت الآن مهددة إذا تمت البيعة لخالد بن يزيد وهو بعد غلام صغير ، مما يعني سيطرة كبيرة لأقاربه الكلبيين ، يتأرجح معها التوازن القبلي في الشام ، وتضيع مصالح القيسية هناك ؛ ذلك في حين كانت مبايعته لابن الزبير حلا لمشكلات عديدة لديه ، فسوف تجنبه سيطرة الكلبيين إن بايعوا لخالد ، كما أنها سوف تضمن له استمرار سيطرته على الشام ، فسوف يكون أميرها ، ونائب ابن الزبير فيها ، لأن الأخير يفضل البقاء في الحجاز وإدارة الدولة من هناك ..

---

[1] عرض عليه الحصين بن نمير أن يبايعه بالخلافة إن ترك الحجاز ولجأ إلى الشام ، ولكنه رفض مغادرة الحجاز (الطبري : السابق 502/5) ، وامتدح روح بن زنباع الجذامي تدينه وفضله وحسبه (السابق 536/5) وكان عبد الملك بن مروان يعرف له عبادته وقدره وإن عابه لبخله (الطبري : السابق 422/6) وقد أيده الضحاك بن قيس كما نرى .

[2] الطبري : السابق 335/5 ـ536 ، المسعودي : مروج الذهب 95/3 وتبدو في رواية المسعودي المبالغة ..

ولما ظهرت الشكوك حول موقف الضحاك أرسل الكلبيون إليه يدعونه لبيعة بني أمية ويبدو أن هذه الجهود كادت تثمر لولا تحريض بعض زعماء قيس للضحاك الذي مال بأنصاره إلى مرج راهط حيث واجهته كلب التي اجتمعت كلمتها على مروان [1] ..

إن استعراض أحداث هذه الفترة يقدم لنا بعض الملاحظات : أولها : أن الاستقطاب القبلي الذي حدث في هذه الفترة كان نتيجة تفاعلات اجتماعية وقبلية خاصة ، ولم يكن نتيجة تدخلات الأمويين ، ثانيها : أن مروان بن الحكم الذي اختاره اليمانيون للخلافة لم يكن يطلبها لنفسه ابتداء بل وجد نفسه محطا لرغبات هذا الجانب القوى من أهل الشام ، وهو لم يعط بعض اليمانية امتيازات خاصة إلا بعد أن تابع القيسية الضحاك وبايعوا ابن الزبير وأصبح الوجود الأموي مهددا في الشام على وجه لم يحدث من قبل ، ولا تصح المبالغة في مغزى هذا العطاء ، إذ كانت مصالح الأمويين ومصالح اليمانية في الشام تبدو متشابكة إلى حد بعيد في ذلك الوقت ، ثالثها : لم يكن مروان بن الحكم سعيدا بهذه المواجهة المسلحة بين طائفتين من المسلمين اختلفت مشاربهما ، ولم يكن إلا متحسرا على ذلك القتال القبلي والتفسخ الاجتماعي ؛ ففي أوج انتصاره في مرج راهط لما قتل غريمه الضحاك بن قيس وجيء له برأسه ، نظر إليه في أسى ، ثم قال : الآن حين كبرت سني ودق عظمي ، وصرت في مثل ظمء الحمار أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض ! [2] .. رابعها : لم يكن القتال في مرج راهط ــ كما يذهب كثير من المؤرخين ــ قتالا بين قيس وكلب كتجمعين قبليين متقابلين ، فقد كان بعض اليمانية يؤيدون ابن الزبير ويقاتلون في صف أنصاره من قيس ، كما حدث مع شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري الذي كان في صفوف الضحاك [3] ، غير أن هذه كانت استثناءات على أية حال ، حيث كان معظم قيس أنصارا لابن الزبير ؛ كما كان معظم كلب واليمن مع مروان بن الحكم .. وهكذا أصبح الانقسام القبلي أمرا واقعا لا مفر منه ، بعد هزيمة القيسيين المروعة في مرج راهط ، والتي ظلت تثير الشجون وذكريات الثأر من حين إلى آخر ..

---

[1] الطبري : السابق 531/5 ــ534

[2] الطبري : السابق 538/5

[3] الطبري : السابق 535/5 ، وكان مع الضحاك أيضا أناس من قضاعة عليهم وائل بن عمرو (المسعودي : مروج الذهب ٩٥/٣) كما كان الأكدر بن حمام اللخمي أحد قادة جيش ابن جحدم الفهري أمير ابن الزبير على مصر (الكندي : ولاة مصر وقضاتها ص ٤٢) ؛ وذلك ما يؤكده البلاذري بقوله : " التقى الضحاك ومروان يوم مرج راهط ، وكان مع الضحاك خلق من أهل اليمن ؛ إلا أن قيسا كانوا رءوس الناس معه وعددهم " (انساب الأشراف 301/5)

٣ ـــ دور عبد الملك بن مروان في إضعاف العصبية القبلية :

ورث عبد الملك الخلافة من أبيه ، وورث معها هذه الثارات القبلية العصبيــــة ، ولكنــه واجهها دون هوادة ..

فقد ظل القيسيون الموتورون على ولائهم لابن الزبير ، وكان أحد كبار زعمائهم ـــ زفــر ابن الحارث الكلابي ـــ قد فر إلى قرقيسيا ، وتحصن بها وثابت إليه قيس ، واصبح تجمعــــه هنــاك مركزا لشن الغارات على كلب في المناطق المجاورة له ، مما كان يسبب إحراجا بالغا لعبد الملك الــذي كان يطمح إلى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامي إلى الوحدة تحت راية الخلافة الأموية ، وكان يوجه كل جهوده في هذه الفترة لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير ..

غير أن هذا الموقف القيسي المتوقع لم يجعل عبد الملك ينساق في تيــار العــداوة المتأججــة ضدهم ، أو يغريه بتلبية رغبات الكلبيين المتصرين في مزيد من حربهم ، وعلى ذلك فقد جعل عبــد الملك أحد كبار زعماء القيسية على ميمنة جيشه المتجه لقتال مصعب بن الزبير سنة 67 هـــ ، ورغـم ذلك فقد خانه ذلك القائد الموتور ـــ عمير بن الحباب السلمي ـــ وانسحب من ميدان المعركة بعــد اتفاقه مع قائد جيش مصعب ، فحلت الهزيمة المروعة بالأمويين ، وقتل قائدهم عبيد الله ابـــن زيــاد وبعض زعمائهم من اليمانية مثل الحصين بن نمير[1] ، والتجأ ابن الحباب إلى زفـــر بـــن الحــارث في قرقيسيا لينسقا جهودهما معا في الإغارة على اليمانية هناك ... ورغم ذلك فإنه لما ساءت علاقته مــع زفر منحه عبد الملك الأمان ، إلا أن إشاعات كاذبة أدت بعبد الملك إلى سجنه ، ولكنـــه اســتطاع الفرار من سجنه وعاد إلى منطقة الجزيرة ليستأنف شن الغارات على الكلبيين واليمنيين الآخريــن في المنطقة ، كما ساءت علاقته بجيرانه من تغلب فنشب نزاع قبلي جديد بين قيس وتغلب الذين كــانوا يعيشون في منطقة الجزيرة منذ مدة طويلة[2] ، وقد ذهب عمير ضحية له ، فأرسل التغلبيون رأســه إلى عبد الملك دلالة على ولائهم له[3] ..

وكان لابد لعبد الملك إذا أراد أن يضم إليه العراق ، وينهي سيطرة الزبيريين عليها ، مـــن أن ينهي اعتصام زفر بن الحارث في قرقيسيا ، فسار إليه في جيشه الذي كان جهزه لحرب مصعـــب ابن الزبير وبدأ بزفر أولا فحاصره ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة وانتزعوا إعجاب عبد الملــك الذي قال : " لا يبعد الله رجال مضر ، والله إن قتلهم لذل ، وإن تركهم لحسرة "[4]؛ ولجــأ عبــد الملك إلى المسالمة ، وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها ويهدده إن لم يقبل ذلك، وبعد جهود

---

[1] الطبري : السابق ج 6 ص 86 وقد كانت هذه المعركة على ضفاف نهر الخازر قريبا من الموصل .

[2] البلاذري : أنساب الأشراف 313/5ـــ314

[3] السابق 323/5ـــ325 ، ابن الأثير الكامل 258/4 ـــ 260

[4] النويري : نهاية الأرب 130/21 ، ابن الأثير : الكامل 18/4

ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه ، ويشترط عليه أن يبقي له الخيار في أن يظل مخلصا لابن الزبير ، أو ينضم إلى عبد الملك ، ورغم ذلك فقد وافق الخليفة على شرطه ، وأعطاه الأمان وابنه وقائده الهذيل بن زفر ، وجميع أتباعهما ، ولم يأخذهما بمال أو دم أهدراه ، بل أعطى عبد الملك الزعيم القيسي مبلغا من المال يوزعه بين أتباعه ، ثم اختتم ذلك العمل الجيد بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث ، كما أمر زفر ابنه الهذيل أن ينضم إلى جيش عبد الملك المتجه إلى حرب مصعب بن الزبير ، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة لابن الزبير [1] ؛ ورغم أن الهذيل هذا قد خان فيما بعد ، وحن إلى درب الفتنة ، فانضم إلى جيش مصعب وترك جيش بني أمية فقد تغاضى عبد الملك عن ذلك ، وشمله بعفوه [2].. ولا ريب أن كون عبد الملك نفسه قيسيا ، وكونه قد صاهر قيسا [3] كان يخفف من غلواء معارضتهم له ..

ولقد ظل تحقيق التوازن بين الفعاليات القبلية ومحاولة إنهاء الصراع بينها دأب عبد الملك ابن مروان فيما تبقى من خلافته ؛ فإنه لما أغار حميد بن حريث بن بحدل الكلبي على بني فزارة ، وقتل عددا منهم ، اشتد غضب عبد الملك الذي هدأ من روع زعماء فزارة الحانقين المطالبين بالقود ، وعوضهم عن قتلاهم أموالا حتى رضوا ، ورفض القصاص لقتلاهم ، كما لم يقتص لقتلى كلب من زفر بن الحارث سابقا ، وقال : " كنتم في فتنة ، والفتنة كالجاهلية لا قود فيها "[4]، ولكن ذلك الصلح الذي تم بين الفريقين كان صلحا على دخن إذ إن بني فزارة لم يقبلوا التعويض المالي فيما يبدو إلا ليتقووا به على الثأر، فلما أمكنهم ذلك أغاروا على بني كلب في مكان يسمى " بنات قين " فلوقعوا بهم هزيمة كبيرة مما أثار غضب الخليفة فأمر واليه على الحجاز الحجاج بن يوسف بمعاقبة بني فزارة بشدة غير أن الزعيمين الفزاريين المسئولين عن هذه الوقعة سلما نفسيهما طوعا للحجاج ليدفعا الضر عن قومهما ، فأرسلهما بدوره إلى الخليفة الذي دفع بهما إلى بني كلب ليقتصا منهما [5] ، غير أن الكلبيين لم يقنعوا بذلك وأخذوا يعدون العدة لمزيد من الانتقام ، وعندما نما إلى عبد الملك علم بذلك هدد بني كلب ، حالفا بالله لئن قتلوا من فزارة رجلا ليقيدنهم به ، فانتهوا عما كانوا بيتوه [6].. وانتهى بفضل حكمته ذلك الصراع الدامي بين قيس وكلب في الشام والجزيرة ، فلم نعد نسمع به أمدا طويلا ؛ حتى عاد لما ضعف أمر بني أمية بالشام بعد مقتل الوليد بن يزيد ..

---

[1] النويري : السابق 131/21 ، ابن الأثير : السابق 18/4

[2] النويري 131/21 ، ابن الأثير 18/4

[3] تزوج عبد الملك من ولادة بنت العباس بن جزء من بني عبس بن بغيض التي أنجبت له ولديه الوليد وسليمان .. الطبري : السابق 419/6 ـــ 420 ، ابن حزم موجز تاريخ الإسلام ص 27

[4] البلاذري : أنساب الأشراف 310/5

[5] البلاذري : انساب الأشراف 311/5 ، ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق 118/4

[6] البلاذري السابق والصفحة ، دكسن الخلافة الأموية 156

ولا ريب أن هذه السياسة التي انتهجها عبد الملك بن مروان في الاستعلاء على الخصومات القبلية ومحاولة تحقيق التوازن بين مصالح هذه القبائل المتنافرة ، قد أغضبت بعض الزعماء الكلبيين الذين كانوا يتوقعون أن يرد لهم عبد الملك الجميل ، بعد أن أعادوا الحكم لبني أمية بسيوفهم في مرج راهط ، ويفضل كلبا على ماعداها ، ويحقق لها السيادة على بلاد الشام ، وقد عبروا عن صدمتهم في سياسته المتوازنة هذه في أشعار كثيرة عددوا فيها فضائل الكلبيين على بني أمية ، فقال أحدهم مخاطبا الأمويين :

فلا تكفروا حسنى مضت من بلائنا ... ولا تمنحونا بعد لين تجبرا [١]

وقال آخر :

أعبد المليك ما شكرت بلاءنا ... فكل في رخاء الأمن ما أنت آكل

بجابية الجولان لولا ابن بحدل ... هلكت ولم ينطق لقومك قائل [٢]

وقال ثالث :

صبغت أمية بالدماء رماحنا ... وطوت أمية دوننا دنياها [٣]

ولكن عبد الملك لم يستسلم لهذه الضغوط ، بل ظل على نهجه الذي اختطه لنفسه ، فكنا نجد في أصحابه زفر بن الحارث الكلابي وابنيه الهذيل وكوثرا وعبد الله بن مسعدة الفزاري وغيرهم من زعماء قيس ، كما نجد حسان بن مالك الكلبي وروح بن زنباع الجذامي ورجاء بن حيوة الكندي وغيرهم من زعماء اليمنية ، وكما عدل بين الفريقين في وجهه عدل بينهم في وظائفه ، فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالبا بينما يختار موظفي بلاطه من اليمانية، فمن بين ستة وخمسين موظفا استخدمهم ولاة خلال فترة خلافته كان خمسة فقط من القبائل الجنوبية ، بينما نجد خمسة عشر من مجموع عشرين موظفا من موظفي بلاطه كانوا من القبائل الجنوبية [٤] ..

ولقد استطاع عبد الملك بطرق مشابهة إنهاء النزاع بين قيس وتغلب في منطقة الجزيرة [٥].
كذلك انتهى نزاع القبائل في خراسان ، فلما شبعت هذه القبائل تطاحنا أرسل رجالها في نهاية المطاف إلى عبد الملك يطلبون منه أن يبعث إليهم واليا قرشيا يستعلي بقرشيته على تنافس القبائل هناك ، فأرسل إليهم أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد سنة 74 هـ [٦] ؛ وقد حاول أمية أن يشغلهم بالجهاد

---

[١] أبو تمام :ديوان الحماسة 212/1 ـ 213

[٢] السابق 214/1ـ215

[٣] السابق 216/1

[٤] د. صالح العلي : موظفو بلاد الشام في العصر الأموي ص 53،61 مجلة الأبحاث عدد 19 سنة 1962 م ، د. دكسن :الخلافة الأموية 178

[٥] راجع دكسن . السابق 161ـ162 ، البلاذري : السابق 328/5ـ330

[٦] الطبري : السابق 199/6 ـ 200

عن الاقتتال الداخلي بينهم ، فلما لم ينجح في ذلك بصورة كاملة عزله عبد الملك وعين بدله المهلب بن أبي صفرة [١] ..

٤- حول دعوى تعصب بعض أبناء عبد الملك وولاته :

تذكر بعض مصادرنا التاريخية أن أمراء البيت الأموي كانوا منقسمين تجاه ذلك الصراع الدموي بين قيس وكلب ، فكان بعضهم يؤيد قيسا مثل بشر بن مروان ، الذي كانت أمه قيسية ، وكان بعضهم الآخر يؤيد كلبا ، مثل عبد العزيز بن مروان ، الذي كانت أمه كلبية، وأن كلا من هذين الأميرين كان لا يرضى لأقاربه الهزيمة ، مما أدى بهما إلى إثارة ذلك النزاع كلما هدأ ، والنفخ في ناره كلما خبت [٢] ...

والحق أن هذه الدعوى تحوطها شكوك كثيرة ، فلم يكن عبد الملك بن مروان ذلك الرجل الغافل عما يدور حوله حتى يستطيع بعض أفراد بيته العمل بخلاف سياسته ومصالح بيتهم نفسه ، ومصالح المسلمين ، وهو لا يعلم أو لا يوقف ذلك العبث الخطير ، كما أنه لم يعرف من تاريخ هذين الرجلين بشر بن مروان وعبد العزيز أنهما كانا ممن يوصف بعصبية قبلية ، ففي ولاية بشر على العراق كان يقرب الأكفاء من اليمنية مثل المهلب بن أبي صفرة وعبد الرحمن بن مخنف الأزديان ، وكانا يليان له قتال الخوارج في العراق والمشرق [٣] ، كما كان عبد الله بن إسحاق بن الأشعث الكندي من أصحابه ، وقد أوصاه به الخليفة خيرا [٤]؛ كما لم يعهد عن عبد العزيز بن مروان طوال حكمه لمصر الذي قارب عشرين سنة تعصب لليمانية ، أو صراع بين عرب الشمال والجنوب في مصر إبان ولايته .. ومع كل ذلك فلا تسلم هذه الدعوى الفارغة من تناقض تاريخي، إذ كان بشر بن مروان في هذه الفترة التي شهدت صراع كلب وفزارة واليا على العراق ، كما كان عبد العزيز حاكما على مصر ، فكيف يتآمران لمصلحة هذه القبيلة أو ذاك في بلاط الخليفة في دمشق ؟ وليس مقبولا اعتراض بعض الباحثين بأن هذه المؤامرات ربما حدثت أثناء زيارات الأميرين للخليفة [٥] ؛ إذ إن هذه الروايات التاريخية تصور هؤلاء الأمراء الأمويين في موقف التربص الدائم والمكر المستمر ، الذي يتطلب مقاما طويلا .. كما أنه مما يدخل في دائرة ذلك التناقض التاريخي أن تزعم هذه الروايات أن الحجاج بن يوسف كان واليا على العراق أثناء حروب كلب وفزارة في يوم "بنات

---

[١] السابق 320/6

[٢] البلاذري : أنساب الأشراف 310/5 .

[٣] الطبري : السابق 195/6 ـ 197

[٤] السابق 164/6

[٥] د دكسن الخلافة الأموية 154 ، الحاشية رقم 70 ص 184

قين "، وأن بشرا كان يتآمر آنذاك لصالح فزارة من دمشق[1]؛ إذ إنه من المعروف أن الحجاج لم يتـول العراق إلا سنة 75 هـ بعد وفاة بشر بن مروان ..

وشبيه بالاتهام السابق ما يؤكده بعض الباحثين من تعصب الحجاج بن يوسف ـ عامل عبد الملك على العراق ـ لقيس على حساب اليمانية ، أو تشجيعه العصبية القبلية بإثارة الشعراء ضـد بعضهم ، والتحريش بينهم، والشعراء آنذاك لسان قبائلهم الناطق ، حتى خلفوا لنـا ما عـرف بالنقائض مثل التي كانت بين جرير والفرزدق [2]؛ فالحقيقة أن الحجاج قد تولى العـراق في ظـروف عصبية ، واستطاع متأسيا بمنهج خليفته أن يلملم جهود القبائل العراقية المتنافرة ويدفع بها إلى الجـهاد والفتح ، وهو وإن كان قد عين بعض أقاربه على بعض الولايات مثل محمد بن القاسم الثقفي عاملـه على السند والحكم بن أيوب خليفته على البصرة ، فقد عين آخرين من اليمنية في وظـائف هامـة وأماكن حساسة مثل عبد الرحمن بن الأشعث الذي اختاره لولايـة سجسـتان ، وقيـادة جيـش الطواويس ، والمهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد في خراسان وغيرهم ، ولم يكن الحجاج ممن يفضـل أقاربه إذا كان ذلك ضد مصلحة الدولة ، فقد سجن صهره مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري لمـا اتهمه بالاختلاس ، ولم يستطع أبوه أن يشفع له عند الحجاج [3] ، ومن المعروف أن عزله يزيـد بـن المهلب وموقفه من عبد الرحمن بن الأشعث إنما كان لأسباب سياسية لا قبلية [4] ، أما التحريش بـين الشعراء ونقائض جرير والفرزدق فالحقيقة أنها قد ألفت للتسلية أكثر منها للعداء السياسي ، وكـان جرير والفرزدق صديقين حميمين [5] ؛ وعندما كانت تصل الأمور بالشعراء إلى حد إثـارة العصبيـة القبلية بصورة فعلية ، كان لولاة الأمويين معهم شأن أخر كما سوف نرى ..

٥ ـ موقف بني أمية بعد عبد الملك من العصبية القبلية :

أجهد بعض المؤرخين أنفسهم في تصنيف خلفاء بني أمية التالين إلى متعصبـين للقيسـية أو اليمنية ، واعتسفوا ليؤكدوا ذلك الأدلة والبراهين ، فإذا ولى الخليفة واليا قويا من قيس عدوه لذلك قيسيا ، وإذا مضى ذلك الخليفة وولى مكانه آخر ، وبطش بذلك الوالي القوى لأسباب وجيهـة ، وعزل أنصاره ، عدوا ذلك الخليفة الجديد يمانيا .. وهكذا دواليك ..

ومن ذلك اتهامهم الوليد بن عبد الملك بالقيسية لاحتفاظه بولاية الحجاج على العـراق ، ولأن أمه كانت من قيس ، واتهامهم سليمان بعده باليمانية لأنه عزل أصحاب الحجاج وأظهر عـداءه

---

[1] الأصفهاني :: الأغاني 115/15

[2] انظر د. إحسان النص العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي 262

[3] الأصفهاني :: الأغاني 41/6

[4] راجع د. دكسن الخلافة الأموية ص 176ـ177

[5] السابق 177

لهم [١] ؛ رغم ما هو معروف من أن عداء سليمان للحجاج وأصحابه إنما كان يصدر عن أسباب دينية لما كان يراه هو وخليفته عمر بن عبد العزيز من تجاوزات الحجاج ، ولأسباب سياسية لما كان الحجاج قد أيد عزل سليمان من ولاية عهد أخيه الوليد ، واستخلاف عبد العزيز بن الوليد بدله [٢] ..

٦- مواجهة ثورة ابن المهلب هل كانت مواجهة قبلية :

غير أن أهم الشبهات التي تثار في هذا الشأن تدور حول اتهام يزيد بن عبد الملك بالعصبية لقيس إلى الحد الذي أدى به إلى قتل يزيد بن المهلب ، والتنكيل بآل بيته الناهبين ، ثم إنه ولى بعده على المشرق أخاه مسلمة بن عبد الملك ، ثم عزله وولى بعده عمر بن هبيرة وهو قيسي ؛ "واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية ، وأصبح العنصر اليمني ضعيفا لا يملك من الأمر شيئا " [٣] ..

والحق أن استعراض أحداث ثورة يزيد بن المهلب وموقف يزيد بن عبد الملك منها يبرئ ساحة الأخير من هذا الاتهام ، فقد فر يزيد بن المهلب من سجن عمر بن عبد العزيز في مرض عمر الأخير ، وقيل في سبب هروبه أنه كان يخشى انتقام يزيد بن عبد الملك ـ ولي عهد عمر ـ منه ، ردا على ما فعله ابن المهلب بآل الحجاج بن يوسف من عذاب ونكال ، وهم أصهار الخليفة الجديد ؛ إذ كانت أخت الحجاج تحت يزيد بن عبد الملك [٤] ..

ولكن ابن المهلب لم يكتف بالهروب من سجن الخليفة بل مضى إلى البصرة ليستعين بعصبيته الأزدية وغيرهم من اليمانية هناك ، ويخلع الخليفة الجديد ، ويحشد الجيوش لمحاربته [٥] ؛ وليس يتوقع من الخليفة آنذاك إلا قتاله حرصا على وحدة الدولة الإسلامية ، وبقاء الحكم الأموي، وكلا الأمرين مرتبطان بشكل يصعب معه فصل أحدهما عن الآخر آنذاك .. ورغم ذلك فقد أرسل الخليفة ـ لما علم بهروبه من سجن عمر بن عبد العزيز ، وقبل وثوبه على البصرة ـ بأمانه هو وآهل بيته ؛ " وبكل شيء أراده " ، غير أن ابن المهلب سارع بإعلان الثورة والسيطرة على البصرة قبل وصول رسل الخليفة إليه [٦] ..

وكان المسلمون في ذلك العهد يدركون حقيقة طموح بن المهلب وخطره ودوافع ثورته ، ولم ينظروا إليها على أنها صراع بين العصبية القيسية للخليفة والعصبية اليمنية للثائر عليه ، يؤكد

---

[١] راجع دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا 211/1 ، ورد فلهوزن عليه تاريخ الدولة العربية 251ـ252

[٢] الطبري : السابق 506/6ـ507

[٣] د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 345/1

[٤] الطبري : السابق 564/6

[٥] راجع السابق 578/6ـ587

[٦] السابق 580/6 ، 584

ذلك توحد موقف العصبية اليمنية في الشام مع موقف الخليفة ، فقد روى الطبري أن يزيد بن عبد الملك كان قد أرسل عبد الرحمن بن سليم الكلبي عاملا على خراسان فلما بلغ عبد الرحمن هذا أنباء ثورة ابن المهلب ، كتب إلى الخليفة يقول :" إن جهاد من خالفك أحب إلي من عملي على خراسان، فلا حاجه لي فيها ، فاجعلني ممن توجهه إلى يزيد بن المهلب " [١] وذلك رغم كون عبد الرحمن بن سليم كلبيا يمانيا ، إضافة إلى ذلك كانت اليمانية بالشام ممثلة تمثيلا قويا في الجيش الذي حارب ابن المهلب [٢] بل إن الرجل الذي قتله كان يمانيا من كلب [٣]؛ وكان القائد الذي أرسله الخليفة ليتتبع آل المهلب بعد فرارهم إلى كرمان كلبيا أيضا ، هو مدرك بن ضب الكلبي [٤] ؛ وقد أراد عبد الرحمن بن سليم الكلبي الذي استخلفه مسلمة بن عبد الملك ـ قائد الأمويين ـ على البصرة ، أن يستعرض أهلها ليستأصل من أيد منهم ابن المهلب ، فلما علم مسلمة بذلك عزله عنها وولى بدله عبد الملك ابن بشر بن مروان [٥] .. ولقد أثار موقف القبائل اليمنية بالشام غضب أحد الشعراء الموالين لابن المهلب وهو ثابت قطنة مما جعله يهجوهم ويهددهم بالانتقام في أبيات تقطر مرارة [٦]..

غير أنه من المثير أن نعرف أن بعض أزد العراق أيضا كانوا ضمن جيش الأمويين [٧] ، تماما كما أيدت قبائل ربيعة وبعض تميم وقيس وبعض ناس من أهل الشام ابن المهلب في ثورته [٨]..

ولقد كان الفخر والاعتداد بالنفس اللذان يشعر بهما المهالبة وراء استمرار مقاومتهم للأمويين بعد هزيمتهم ، رغم أنهم عرضوا عليهم الأمان[٩] ؛ فانتقلوا إلى كرمان ، وتعقبهم الأمويون وقتلوهم حتى لم يبق إلا النساء والأولاد ، ويزعم المؤرخون أن مسلمة بن عبد الملك ـ الذي نعرف نبل أخلاقه وإيمانه ـ قد أقسم على بيع ذريتهم ، فقال له الجراح بن عبد الله الحكمي (وهو أحد القيسية) : فأنا أفتديهم منك لأبر يمينك ، فاشتراهم منه بمائة ألف ؛ فقال مسلمة : هاتها ، فقال الجراح : إذا شئت فخذها ، فعادت إلى نفس فارس بني أمية طبيعتها ووعيها ، فلم يأخذ منه شيئا ، وخلى سبيلهم إلا تسعة فتية أرسل بهم إلى الخليفة فقتلهم[١٠] ، ومما يذكر هنا أن آل المهلب لم يكونوا

---

[١] السابق 6/584ـ585

[٢] الطبري : السابق 6/595

[٣] السابق 6/597 واسم ذلك الرجل القحل بن عياش من بنى جابر بن زهير بن جناب الكلبي

[٤] الطبري : السابق 6/601

[٥] السابق 6/605

[٦] راجع الأبيات في الطبري : السابق 6/603

[٧] الطبري : السابق 6/584

[٨] السابق 6/580

[٩] السابق 6/602

[١٠] السابق 6/602ـ603

يخشون على نسائهم من غضب بنى أمية [1] لما يعلمون من طبيعة الخلق العربي والإسلامي الذي يـأبى امتهان الضعفاء ..

وكان من الطبيعي أن لا يولي الخليفة الأموي أحدا من القادة اليمـانيين علـى العـراق والمشرق بعد هذه الفتنة ، إذ ربما ثارت هذه النفوس الفائرة التي تعودت التمـرد في هـذه المنـاطق وتشجعت على ذلك بولاية أحد اليمانية عليها ، وربما كان ولاء يمانية آهل الشام للخليفة دافعـا ــ فيما لو ولى أحدهم على المشرق ــ إلى مزيد من إراقة الدماء ، في محاولة لإثبات الولاء المطلق لبـني أمية ، كما رأينا في صنيع عبد الرحمن بن سليم في البصرة ..

ولم تكن تولية الخليفة عمر بن هبيرة على العراق وهزيمة ابن المهلب تعنى أن الدولـة قـد اصطبغت بالصبغة القيسية أو أن الحكومة الأموية قد انقلبت حزبا يحكم باسم قيس كما يرى بعـض الباحثين [2] ؛ إذ إننا نرى أن ولاة الجزء الغربي من الدولة الأموية في مصر وإفريقية والمغرب والأندلس كانوا من يمانية الشام ! فقد ولى يزيد على مصر بشر بن صفوان الكلبي عام 101هـ، ثم بعـد مـدة أرسله واليا على إفريقية وجعل مكانة أخاه حنظلة بن صفوان الذي ظل أميرا حتى خلافة هشام بـن عبد الملك عام 105 هـ ؛ كما أرسل كلبيا آخر هو عنبسة بن سحيم على الأندلس ، فظل واليا عليها حتى استشهد سنة 107 هـ [3] ...

٧- العصبية القبلية في أواخر العصر الأموي :

وفى عهد هشام بن عبد الملك نشطت العصبية القبلية نتيجـة تراجـع حركـة الفتـوح الإسلامية ونشاط المعارضة في شرقي الدولة وغربها ، ومحاولتها استغلال هذه العصبية لصالحـها ، ولا يتهم هشام بالعصبية لقبيلة دون أخرى ؛ فقد كان يختار ولاته من قبائل شتى ، ولا يـتردد في عـزل أحدهم ــ ولو كان عالي الهمة واضح الكفاية ، إذا أيقن تعصبه لقومه ؛ وأن ذلك التعصب سـوف يفسد إدارة البلاد ، كما حدث مع أسد بن عبد الله القسري عامله على خراسان لما عزله عنها سـنة 109 هـ حين شعر بتعصبه ليمانيته ضد قيس هناك ، وولى بعده ولاة من القيسية أنفسـهم ، لكـن هؤلاء الولاة الجدد لم يبرءوا تماما من انحيازهم لذويهم ، فأعاد أسدا مرة أخرى ليحاول إصلاح مـا أفسد ، وذلك سنة 117هـ [4] ..

---

[1] السابق 602/6

[2] د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 345/1 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية 312

[3] راجع محمود شاكر تاريخ الإسلام السياسي 259/4 ــ 260 ، 271

[4] الطبري السابق 49/7 ، 105

غير أن عزل وال وتعيين آخر لم يكن حلا كافيا في هذه المرحلة التاريخية للتخلص من العصبية وخطرها ، إذ يبدو أنها قد أصبحت شيئا معهودا في طبائع القوم ، كما أصبحت عاملا ينبغي حسابه في سياسة الأمور ..

ولم يكن ذلك التطور الخطير غائبا عن ذهن الخليفة هشام ، فقد رفض أن يولي عامله على العراق يوسف بن عمر الثقفي سلم بن قتيبة بن مسلم على خراسان ، وكتب إلى يوسف يقول : " إن سلم بن قتيبة رجل ليس له بخراسان عشيرة ، ولو كان له بها عشيرة لم يقتل بها أبوه " [1].. وحين كتب يوسف بن عمر إلى الخليفة بأسماء جماعة يختار أحدهم لولاية خراسان كانوا كلهم من قيس ، ليس بينهم يماني واحد ، فكتب هشام إليه : "قد فهمت كتابك وإطراءك القيسية " ؛ ويقول له : ".. ولكنك تقيست علي " (أي واليت قيسا دون سواها) [2]...وقد أعيى الخليفة أمر خراسان وعصبياتها فاختار لهم نصر بن سيار الكناني لكفايته ومقدرته ، فلما قيل له : إن نصرا عشيرته بخراسان قليلة ، قال هشام تحدثه : لا أبا لك ، أتريد عشيرة أكثر مني ، أنا عشيرته [3] ؛ ولكن نصرا نفسه رغم مؤهلاته لا ينجو أحيانا من العصبية ، فيختار ولاته كلهم من القيسية ، فيقول له رجل من يمانية الشام : ما رأيت عصبية مثل هذه ، فيرد نصر عليه : " بلى ، التي كانت قبل هذه " [4] ..

ورغم كل ذلك فقد كان حذر الخليفة وكفاية العمال وذكاؤهم حاجزا دون انهيار الأوضاع تماما ، ولاشك أن سلامة جبهة الشام وتأييدها للخليفة كانت تتيح للأمويين قوة تكفي للاطمئنان والسيطرة على مواطن الخطورة المنبعثة من أطراف الدولة ..

لكن هذه الأركان الثابتة تعرضت لهزات مخيفة بعد موت هشام كانت كفيلة بانهيار الدولة الأموية ، فمع خلافة الوليد بن يزيد الذي اتهم بالضعف خسر الخليفة ولاء العصبية اليمانية بالشام لما قتل خالدا القسري زعيمها ، وانشق البيت الأموي على نفسه ، فعدا يزيد بن الوليد على ابن عمه الخليفة فقتله ، ثم جاء مروان بن محمد من الجزيرة خالعا إبراهيم بن الوليد ؛ مسيطرا على الخلافة بالقوة ، ونقل مقرها إلى الجزيرة بحران ؛ فخسر معظم ولاء أهل الشام ، الذين انقسموا على أنفسهم بين قيسيين ويمانيين ، وبين أنصار لهذا الأموي أو ذاك .. مما أتاح للثوار في أطراف الدولة أن يزحفوا على قلبها المتفسخ فيزيلوها ويقيموا بناء الدولة العباسية ، حيث ضعفت العصبية العربية ضعفا بليغا لحساب العصبية الفارسية الفتية ، ثم ظهرت قوميات أخرى أكثر قوة واتحادا فيما بعد في العصر العباسي الثاني ..

---

[1] السابق 154/7

[2] السابق 156/7

[3] السابق والصفحة نفسها

[4] السابق 157/7

الخلاصة :

يتضح من ذلك العرض للعصبية القبلية في العصر الأموي وموقف الأمويين منها أن بني أمية لم يكونوا هم المسئولين عن بعث هذه العصبية وتجاوز الأصل الإسلامي في تآخي المسلمين وتوحدهم ، فهذه العصبية قديمة عند العرب ، وإنما أخفاها الإسلام أول الأمر إبان توهج الروح الإسلامية ، فلما عظمت مكانة القبائل العربية بعد مضي فترة من عصر الراشدين ، وشعرت بأهميتها في الحياة السياسية الإسلامية عادت هذه العصبية إلى البروز تدريجيا ، ووجدت من الخلافات السياسية ما جذر دورها ، وزاده خطورة في أثناء الفتن زمن عثمان والصراع بين علي ومعاوية ...

وقد اجتهد معظم خلفاء البيت الأموي في إضعاف هذه العصبية والسيطرة عليها ، شاعرين بخطورتها على البناء الاجتماعي والسياسي للدولة فأصابوا في ذلك نجاحا كبيرا ؛ واستمر ذلك النهج حتى الفترة الأخيرة في حياة دولتهم لما كثرت الفتن والمؤامرات على الدولة وضعف خلفاؤها وأنصارها من أهل الشام ..

ملاحظات عامة :

ونلاحظ في نهاية هذا المبحث عدة ملاحظات عامة أهمها :

١ـ محاولة الأمويين استغلال الخلافات القبلية في تحقيق نصر سياسي ، وقد كان ذلك ـ للإنصاف ـ في بضع حالات كانت فيها الخلافة الأموية غير موجودة ، إما قبل قيامها ، كما حدث في حركة ابن الحضرمي ، أو بعد انهيارها في الشام عقب تنازل معاوية بن يزيد عنها ، كما رأينا في لجوء ابن زياد إلى حماية الأزد في العراق ..

أما في حركة ابن الحضرمي ، فقد أرسله معاوية إلى البصرة سنة 38هـ ليدعو إلى الطلب بدم عثمان ونصرة معاوية مستغلا انقسام أهلها ووجود بعض العثمانيين بها ، فنزل عند تميم مستجيرا بهم ، وظل يبث دعوته ولم يبدأ بقتال ، فلجأ زياد بن أبيه ـ وكان نائب ابن عباس أمير البصرة بها ـ إلى الأزد مستجيرا هو الآخر بهم ولما أرادت الأزد ـ بتحريض زياد ـ قتال تميم وابن الحضرمي أرسلت إليهم تميم : إنا لم نعرض لجاركم ولا لأحد من أصحابه ؛ فماذا تريدون إلى جارنا وحربنا ؟ فكرهت الأزد قتالهم ولم نفعله ، ثم أرسل علي بن أبي طالب ﷺ جارية بن قدامة السعدي التميمي ليفرق قومه عن ابن الحضرمي ، فنجح في ذلك بعض النجاح ، ثم قتل ابن الحضرمي [1] ..

---

[1] راجع الطبري : السابق 5/110ـ113 ويلاحظ أنه رغم صنيع الأزد مع زياد فانه لما ولي ولاية العراق في ظل خلافة معاوية لم يحابهم بشيء كما كانوا يتوقعون مما أثار حفائظ بعضهم عليه (راجع الطبري : السابق 5/509 ـ510)

وهكذا لم تعد هذه المحاولة مجرد الدعوة إلى فكرة معاوية وتأييده ــ في هذه المرحلة ــ ولم يلجأ ابن الحضرمي إلى إثارة العداوات القبلية ، واكتفى بحماية التميميين له ، ولكنه ذهب ضحية موقفه السياسي لا القبلي ، ولم يكن للأمويين آنذاك خلافة ..

وأما لجوء ابن زياد إلى الأزد بعد انهيار الخلافة الأموية عقب موت يزيد بن معاوية وتنازل ولده فقد كانت محاولة منه لحماية نفسه بعد ظهور عداء العراقيين له ومبايعة بعضهم لابن الزبير ، أما القتال الذي نشب بين القبائل العراقية عقب ذلك فقد كان نتيجة عداوات قبلية أخرى لا شأن لابن زياد بها [1] ؛ فلما رأى ذلك آثر الهرب إلى الشام عن المضي في محاولة استنصار بعض القبائل على بعضها .. ليساهم هناك في إعادة الخلافة إلى البيت الأموي من جديد والبيعة لمروان بن الحكم [2] ..

أما المحاولة الثالثة التي يذكرها المؤرخون فكانت لما سار عبد الملك بن مروان لحرب مصعب ابن الزبير سنة 71 هـ وأرسل خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد إلى البصرة ليسيطر عليها مستعينا بولاء بعض أهلها له ، فنزل على بكر بن وائل فحمته ، ونشب قتال شديد ، كان فيه عبد الملك يمد صاحبه ومصعب يمد أنصاره بالرجال ، ثم انتهى بغلبة مصعب وهزيمة خالد ولجوئه إلى عبد الملك ، ولكن بعد أن أفسد على مصعب ولاء أهل البصرة ، فكانت فاتحة الطريق إلى هزيمته [3] ..

وهكذا نرى أنه رغم معرفة بني أمية لما يتيحه الخلاف بين القبائل العربية من سبيل لنصرهم في أوقات احتياجهم إلى هذه النصرة إلا أننا نرى أنهم لم يلجوا هذه الطريق إلا في أضيق الحدود ، وكانوا غالبا يؤثرون كسب الأنصار باللجوء إليهم والدعوة لهم ، دون التمادي في إثارة العداء بين القبائل وضرب بعضها ببعض ..

2ــ محاولة الأمويين الإفادة من العصبية القبلية كذلك في حروبهم ضد المشركين ، وسعيهم لمد رقعة الإسلام على أرض جديدة ، فكانوا يثيرون أحيانا حمية بعض هذه القبائل للقتال لكسب بعض المواقف الحرجة في الحرب ، من ذلك أنه في فتح بخارى سنة 90 هـ خرج الترك والصغد لقتال المسلمين الذين كان يقودهم قتيبة بن مسلم ، فقالت الأزد : اجعلونا ناحية وخلوا بيننا وبين قتالنا ، فقال قتيبة : تقدموا ، فتقدموا وقاتلوهم ، حتى انهزم المشركون ووقفوا على نشز ، فقال قتيبة : من يزيلهم عن هذا الموضع ؟ فلم يقدم عليهم أحد من العرب ، فأتى بني تميم وقال لهم : يوما كأيامكم

---

[1] راجع الطبري : السابق 5/515ــ517 حيث قتل أحد بني ضبة التميميين رجلا يشكريا من حلفاء ربيعة ، كما كان ابن حازم في خراسان قد استعرض ربيعة هناك .

[2] راجع الطبري : السابق 5/507ــ523

[3] الطبري : السابق 6/152 ــ155

! فأخذ وكيع بن أبي سود التميمي اللواء ، وقال يا بني تميم أتسلموني اليوم ؟ قالوا : لا يا أبا مطرف ، فقاتلوا قتالا عجيبا حتى كان الفتح [1] ..

د ـ كان لبعض الشعراء دورهم في إثارة العصبية القبلية وذلك بافتخارهم بقبائلهم وحطهم من شأن غيرها ، وقد سبقت الإشارة إلى أنه يبدو أن العرب في ذلك الوقت كانوا لا يحملون جل ذلك الشعر محمل الجد ، ويعدونه وسيلة لإبراز مواهب الشعراء أكثر منه وسيلة لإبراز الاختلاف والضغائن بين القبائل العربية ، غير أن ذلك لا ينفي أن بعض الشعراء قد تمادوا في ذلك الأمر إلى حد أن هددوا العلاقات بين قبائلهم ، وأوشكوا أن يثيروا الصراع بينها ؛ وهنا كنا نجد بعض ولاة الأمويين يتدخلون لتفويت الخطر ، مثلما حدث حين تهاجي زياد الأعجم وكعب الأشقري واتصل الهجاء بينهما ، فأدى ذلك إلى وقوع الشر والحرب بين الأزد وعبد القيس؛ فتدخل المهلب بن أبي صفرة بتسكين الأمر وإصلاح ما بينهم ، وتحمل المهلب ما أحدث كل فريق على الآخر ، وأدى دياته [2] ..

ب ـ وقد حاول بعض أعداء الأمويين أن يستغل هؤلاء الشعراء في إثارة مزيد من العداء بين القبائل العربية ، وبخاصة في أواخر عهد الأمويين حين ضعفت سيطرة بعض خلفائهم ، ليحققوا من خلال ذلك بعض أغراضهم .. فلما مدح الكميت شاعر الشيعة آل البيت حاول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ـ الزعيم الثائر على بني أمية ـ مكافأته فأبي ، بزعم أنه ما قال هذه القصائد إلا تقربا لله ، فقال له معاوية : " إن أبيت أن تقبل مني فإني رأيت أن تقول شيئا تغضب به بين الناس ، لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب " ؛ وكان هذا سبب ما حدث بين الكميت ودعبل الخزاعي من مفاخرات وعداء ، فقد مدح الكميت نزارا وهجا اليمن ، فدافع عنها دعبل ، وتطاير الشر بين الفريقين [3] ؛ فمهد ذلك لزحف أعداء الأمويين من المشرق من خلال تأثيرات هذه الفتن ، ومن المشهور جهود أبي مسلم الخراساني قائد العباسيين في خراسان من أجل التفريق بين القيسية واليمنية هناك وإثارة الفتنة فيهم ، حتى إذا ما أثخن بعضهم في بعض وتضعضعت قواهم ، جاء هو بقوته الوافرة فسيطر على الأطراف كلها وخلصت له خراسان ..

ورغم جميع ما سبق فإننا ضد المغالاة في تصوير العصبية القبلية في العصر الأموي وكأنها هي السمة الاجتماعية الأكثر بروزا ؛ وكأن المجتمع الإسلامي كان منقسما متنافرا يتربص فيه كل فريق بفريق .. فقد كان القوم مسلمين يجمعهم الإسلام على كثير من القيم والعادات والتقاليد المشتركة ، وكانوا يعيشون تحت حكم واحد ، تجمع بينهم آمال مشتركة وتحوطهم مخاطر واحدة .. وكانوا يشتركون معا في القتال والفتح ، ويصوغون معا تاريخا مجيدا للأمة الناهضة ..

---

[1] السابق 443/6 ـ444 ، ابن الأثير : الكامل 113/4

[2] الأصفهاني :: الأغاني 270/14

[3] المسعودي · مروج الذهب 243/2 ـ 245

وقد رأينا أن فترات خطورة العصبية القبلية كانت محدودة ، ومرتبطة بضعف السلطة المركزية للخلافة ، وفيما عدا ذلك فإنها غالبا ما كانت تظل مستترة خاملة منشغلة عن عداواتها ، رغم تأصلها في نفوس كثير من العرب منذ عصور طويلة ..

وإننا لنلحظ أثر هذا التمازج الاجتماعي في بروز الروح الإقليمية ، وتزايد الإحساس بالانتماء إلى مصر واحد ، فإنه لما اختلفت تميم مع الأزد وربيعة بعد موت يزيد بن معاوية ندب الأحنف بن قيس نفسه — وهو زعيم تميم — للإصلاح بين الناس ، فخطب الأزد وربيعة قائلا :" أنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الصهر ، وأشقاؤنا في النسب ، وجيراننا في الجار ، ويدنا على العدو ، والله لأزد البصرة (وكان الأحنف بصريا) أحب إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام ، فإن استشرف شنآنكم ، وأبى حسد صدوركم ، ففي أموالنا وسعة أحلامنا لكم سعة "[1] ..

---

[1] الجاحظ البيان والتبيين 112/2

الفصل السادس

دراسة الشبهات حول سياسة الأمويين المالية

مقدمة

يتهم بعض المؤرخين والباحثين الأمويين بالخروج على منهج الخلفاء الراشدين في الاقتصاد وسياسة المال .. وذلك الاتهام قديم لاكته ألسنة أعداء الأمويين من خوارج [١] وشيعة [٢] وعباسيين [٣] ..

ومن المؤكد وجود بعض الفوارق بين سياسة الأمويين في الاقتصاد وسياسة الراشدين ، فالمجتمع الإسلامي الذي حكمه الأمويون ليس هو ذلك المجتمع الذي حكمه الراشدون ، فالبون ملحوظ بين درجة الالتزام العقدي في كلا المجتمعين ، ودرجة الانسجام الاجتماعي ، والتأثر بالحضارات الوافدة ، وتعدد الولاء بين الاتجاهات السياسية المتباينة ، والأحزاب السياسية المتعددة .. إلى غير ذلك من فروق واضحة يلحظها كل باحث وقارئ لتاريخ الدولتين .. وسوف نلحظ جلياً عند البحث في أسباب الاختلاف في سياسة هذين العصرين أن بعض أسباب ذلك الاختلاف تعود إلى ذلك التطور الاجتماعي الضخم ... كما أن أسباباً أخرى تعود إلى طبيعة الصراع السياسي في ذلك العصر ، وطبيعة تكوين الأسرة الأموية ذاتها ، حتى إن بعض ملامح هذه السياسة المالية يتغير في بعض فترات هذه الدولة عن بعضها الآخر ... كما أننا نلاحظ أن طبيعة العصر تترك آثارها حتى عند المخالفين لبني أمية من الخارجين عليهم ؛ والذين كانوا أشد الناس انتقادا لهم .

ومآخذ المؤرخين والباحثين على السياسة المالية للأمويين تشمل الحديث عن موارد هذه الأموال ووجوه صرفها ، مع التركيز على دور الخلفاء والولاة في صنع هذه التجاوزات التي رآها المؤرخون لاصقة بسياستهم المالية .. وسوف نعرض بالدرس والتحليل لهذه الشبهات فيما يلي ..

---

[١] راجع الطبري : السابق 191/5 ، 286/6

[٢] السابق 172/7

[٣] السابق 427/7 ، 91/8

المبحث الأول

شبهات حول موارد الدولة الأموية

وهي الشبهات التي تتعلق بطرق جباية الأموال في الدولة الأموية ، ومدى مشروعية هذه الطرق وعدالتها ، ومن أهم هذه الشبهات :

1. استباحة هدايا النيروز والمهرجان :

وهي الهدايا التي كان يقدمها الفرس لعمالهم في عيدي " النيروز" و" المهرجان " من أعيادهم [١]، وقد قيل إن معاوية طالب أهل السواد أن يهدوا عامله على الخراج في هذين اليومين ففعلوا ، فبلغ ما حصل عليه من ذلك عشرة آلاف درهم في سنة [٢]..

والحق أن إهداء الفرس عمالهم الأموال والهدايا في هذين العيدين عادة فارسية قديمة بلغ من تأصلها أنها كانت جزءًا من النظام المالي في الإمبراطورية الساسانية [٣] ، وقد ذُكر أمر هذه الهدايا في زمن الراشدين ؛ ففي خلافة أبي بكر أهدوا إلى خالد بن الوليد منها ؛ فاستشار الخليفة فأمره أن يقبلها ويحسبها من الجزية المفروضة عليهم [٤]، وفي خلافة عثمان بن عفان ﷺ سنة 32 هـ ، أهدوا أحد القادة العرب ــ وهو أسيد بن المتشمّس ــ الذي أنابه الأحنف بن قيس ليقبض صلح أهل بلخ ، فوافقت جبايته لهم يوم المهرجان ، فأهدوا إليه من آنية الذهب والفضة والدنانير والدراهم والمتاع والثياب ، فقال : هذا ما صالحناكم عليه ؟ قالوا : لا ، ولكن هذا شئ نصنعه في هذا اليوم لمن ولِيَنا ؛ نستعطفه به ، قال : ما أدرى ما هذا ، ولكن أقبضه وأعزله ، حتى قدم عليه الأحنف فعلم منه ومنهم الخبر ، فحمل هذه الهدايا إلى عبد الله بن عامر ، وهو أميره ، فقال له : اقبضه يا أبا بحر (يعني الأحنف) فهو لك ، قال : لا حاجة لي فيه ، فأخذه ابن عامر [٥]..

---

[١] النيروز والمهرجان عيدان من أعياد الفرس ، والنيروز أعظم عندهم من المهرجان ، حيث إنه بداية دخول الشتاء واستقبال السنة وافتتاح الخراج وتولية العمال وتقريب القربان .. أما المهرجان فهو بداية الحر أو الصيف عندهم (راجع : الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص 146)

[٢] الجهشياري : الوزراء والكتاب 24

[3] كريستنسن : إيران تحت حكم الساسانيين ص ١٠٧ ، شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ٨٠

[٤] راجع الطبري : السابق 3 /٣٦٢، ٤٥٢-٤٥٣ ، د.شكري فيصل : السابق 80ــ 81

[٥] الطبري : السابق 4/ ٣١٣-٣١٤ راجع الطبري : السابق 3 /٣٦٢، ٤٥٢-٤٥٣ ، د.شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية 80ــ 81

وليس هناك ما يدل على توقف إعطاء هذه الهدايا إلى العمال حتى قامت الدولة الأموية، إلا أننا نفترض إهمال أمرها فيما يلي هذه الفترة ؛ نتيجة سيطرة أخبار الفتنة الكبرى التي تلت مقتل عثمان ، حتى اجتمعت الأمة من جديد تحت خلافة معاوية ، ومن المحتمل أن يكون معاوية قد رأى في هذه الأموال وسيلة لدعم بيت المال هو في حاجة إليها لمواجهة النفقات المالية المتزايدة ، كما أنها لا تشوبها شائبة قهر للناس ، أو إجبار لهم على أدائها إذ إنها هدايا تطوعية اعتاد الفرس على تقديمها لعمالهم منذ أمد بعيد ، ومن المحتمل جدا أن يكون معاوية قد أراد " تقنين" هذا المورد المالي غير المنضبط ، وخلق مجال صحيح له ، عندما تتجه هذه الهدايا إلى بيت المال بدلا من تركها للعمال أو الجباة يجبونها جهرا أو سرا ، وقد حدث زمن الراشدين أن أضيفت ضريبة الخرزة ـ خرزة كسرى ـ وهي إحدى الضرائب التي اعتاد الفرس دفعها لأكاسرتهم ؛ إلى اتفاقات الصلح بين زعماء بعض البلاد المفتوحة والمسلمين الفاتحين [١] ..

وقد ظل الأمر على ذلك حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ؛ فأوقف جباية هذا النوع من الضرائب وغيرها التي استقر أمر الناس على إعطائها عمالهم قبل الإسلام [٢] ، ثم قيل إن عمر بن هبيرة عامل يزيد بن عبد الملك على العراق والشرق أعاد جبايتها من الأهلين [٣] ، وربما كانت حجته في ذلك مشابهة لحجة معاوية ، فاستحلها مادامت تخلو من شائبة الغرض والإجبار ..

2ـ اصطفاء جزء من الغنائم :

زعم بعض الرواة أن عامل زياد بن أبي سفيان على خراسان الحكم بن عمرو الغفاري قد غزا جبل الأشل فغنم غنائم عظيمة ، فكتب إليه زياد : إن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفي له الصفراء والبيضاء (أي من الذهب والفضة) ، والروائع ، فلا تحركن شيئا حتى تخرج ذلك ، فكتب إليه الحكم: "... فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقا على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجا ، ثم قال للناس : اغدوا على غنائمكم ، وعزل الخمس وقسم الباقي بينهم ، ثم قال : اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني ؛ فمات بمرو في خراسان [٤] .

---

[١] راجع عقد الصلح بين خالد بن الوليد وأهل الحيرة ، وكانت على كل رأس أربعة دراهم (الطبري : السابق ٣٦٧/٣

[٢] ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص 160 ، الطبري : السابق 569/6 .

[٣] اليعقوبي : السابق 48/3

[٤] الطبري : السابق 251/5 ـ 252 ، اليعقوبي . السابق 158/2 ، ابن الأثير الكامل 223/3

ولاشك أن عرض هذه الرواية على هذا النحو يزري بمعاوية ، ويجعله في موقف المتهم بتجاوز أوامر الله تعالى في تقسيم الغنائم ، حيث قضى سبحانه بأن خمس الغنائم فقط هي حق بيت المال وتوزع على أصحابها الذين حددهم الله في قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...) [1]، أما الأربعة الأخماس الباقية فتوزع على المحاربين .. بل إن هذه الروايات توحي أن معاوية قد أراد أن يصطفي هذه الأموال لنفسه ، وهذا ما تنفيه روايات أخرى شيعية ومحايدة ؛ تزعم أن معاوية إنما أراد اصطفاء هذه الأموال لبيت المال [2] ، وحتى على افتراض ذلك فإن فيه أيضا تجاوزا للحكم الشرعي ؛ إذ يخرج أصنافا بعينها من الغنائم ويحرم المقاتلة منها ...

ونحن نعلم أن معاوية وزيادا كانا أتقى لله من ذلك ، بل إن زيادا إنما اختار الحكم بن عمرو واليا على خراسان لما عرفه عنه من تدين ، ولما أكبره فيه من صحبة لرسول الله ﷺ [3]، فكيف يأمرانه بمثل هذه المخالفة الشرعية ؟ ثم إن هذه الواقعة المزعومة لا نجد لها مثيلا في التاريخ الأموي على كثرة ما شهده من مغانم وفتوح ، مما يعزز احتمالات الشك فيها ، ويوجب تجاوز مثل هذه الروايات التي لا تهدف إلا إلى التشنيع على بني أمية.

3ـ زيادة خراج بعض الأقاليم :

وأول ما يذكره الرواة في ذلك المجال أن معاوية كتب إلى عامله على خراج مصر " وردان " أن يزيد على كل رجل من القبط قيراطا ، فرد وردان عليه : كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم ؟ [4] ..

ونحن نعلم أن الجزية المفروضة على مصر لم تكن مرهقة لأهلها ، ولم تكن على غير القادرين ، حيث كانت دينارين على كل رجل قادر ، وخرج منها النساء والصبيان [5] ، ولم يكن القيراط الذي أراد معاوية زيادته بالذي يرهق الرعية ، فهو يساوي جزءا من عشرين جزءا من الدينار[6]، وعلى هذا فإن علينا أن نبحث عن سبب آخر لرفض " وردان " هذه الزيادة ، ولصمت

---

[1] سورة الأنفال آية (41)

[2] ابن أعثم الفتوح 200/4ـ201 ، ابن كثير : البداية والنهاية 47/8

[3] لطبري : السابق 225/5

[4] ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 86 ، البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٩ .

[5] البلاذري : السابق ص 226 ، المقريزي : الخطط 76/1

[6] روى البلاذري عن ابن سعد قوله :" وزن الدرهم من دراهمنا هذه أربعة عشر قيراطا من قراريط مثقالنا : الذي جعل عشرين قيراطا " (فتوح البلدان ص472 ، وقد انتهى بحث ، د. الريس في كتابه الخراج ص 376 إلى أن وزن القيراط يساوى 0,2125 من الجرام ، وعلى هذا فهو مقدار ضئيل بالفعل

معاوية بعد ذلك عن طلبها ... وقد فسر لنا ذلك أبو عبيد فقال [١]:" وأما كتاب معاوية إلى وردان فإنما نرى ذلك لأن مصر كانت عنده عنوة فلهذا استجاز الزيادة ، وكانت عند "وردان " صلحا ؛ فكره الزيادة ، فلهذا اختلفا " ؛ ثم قال : " وقد ذكرنا ما كان من اختلاف الناس في افتتاحها " ... ولهذا نجد أن عامل " إخنا " — إحدى كور مصر — لما طلب من عمرو بن العاص قبل ذلك أن يحدد مقدار ثابتا للجباية يجمع كل عام رفض عمرو وقال : إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم [٢]؛ ومعنى ذلك أنه يجبى ما تطلبه منه الخلافة ، وهو يرى أن من حقها أن تزيد عليهم [٣]؛ وهكذا لم يزد الأمويون شيئا على خراج مصر إلا زمن هشام بن عبد الملك لما كتب إليه عامله على خراجها عبيد الله بن الحبحاب أن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطا ، ورغم قلة هذه الزيادة ، ومضي أعوام طويلة منذ فتحت مصر دون زيادة في خراجها ؛ فقد ثار أهلها من القبط في الحوف الشرقي ؛ وانتقضوا أول انتقاض لهم بها سنة 107 هـ فواجههم جيش الأمويين وهزمهم [٤] .. وليس بعيدا أن يكون عمال الخراج من القبط الذين يتولون أمور الجباية وراء هذه الثورات حرصا على المبالغ الضخمة التي يقتنصونها من الفوارق بين ما يجبونه بالفعل وما يوردونه إلى خزانة الدولة الإسلامية، وقد ظل ذلك التلاعب حتى انتبه إليهم المسلمون وتدخلوا لتحقيق إشراف حقيقي على الجباية ، ثم تعريب الدواوين كما سوف يأتي ..

وفي عهد هشام زاد خراج مصر زيادة ملحوظة ، ولكن ليس مردها إلى ذلك التعديل الطفيف الذي تسبب في هذه الثورة ، بل إلى القدرة على تقدير الخراج على أسس واقعية صحيحة ، فقد قام ابن الحبحاب بمسح أرض مصر وتقدير الوظائف من جديد على وحدات المساحة [٥]، كما قام والي مصر الوليد بن رفاعة بإحصاء عدد سكانها ، وتعديل الخراج عليهم بعد ذلك ، فأقام من أجل ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان ، وثلاثة أشهر بالوجه البحري ، ويروي المقريزي أنهم وجدوا عدد القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، وأن أصغر قرية لم يكن بها أقل من خمسمائة رجل ممن تجب عليهم الجزية [٦] ، وربما كان في هذه الأعداد شيء من المبالغة

---

[١] أبو عبيد : الأموال 144

[٢] المقريزي : الخطط 77/1

[٣] د. حسين مؤنس : هامش كتاب تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان 23/2 وسوف يأتي قريبا أن مصر لم تكن طعمة لابن العاص كما يشيع عند كثير من المؤرخين .

[٤] المقريزي : الخطط 79/1 ، الكندي : ولاة مصر 62

[٥] المقريزي : السابق 75/1، 99 ، د. الريس : الخراج 263

[٦] المقريزي : السابق 74/1

أو عدم الدقة [١] ، ولكنه بعد هذا التقدير الجديد بلغ خراج مصر أربعة آلاف دينار بدلا من ثلاثة آلاف [٢] بغير إرهاق للرعية ، أو إضاعة لحق بيت المال ..

أما في الجزيرة فقد زاد الأمويون الجزية التي كانت مفروضة عليها منذ فتحها " عياض بن غنم الفهري " ، ولكن ذلك أيضا لم يكن ظلما لأهلها أو تعنتا معهم ... فقد كان عياض فرض على كل إنسان دينارا ومدين قمحا وقسطين خلا وجعلهم جميعا طبقة واحدة [٣] ، فلما ولى عبد الملك بن مروان عليها الضحاك بن عبد الرحمن استقل ما يؤخذ من أهلها ، فأحصى الناس ، وجعلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها (حيث لا يعمل الناس فيها عادة) فوجد الذي يفضل من ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعا ، وجعلهم طبقة واحدة ، وحملت الشام على مثل ذلك ، وحملت الموصل على مثل ذلك [٤] ..

ولعل في فرض هذه الجزية على أهل الشام ، وهي موطن الخلافة ؛ ورضاهم بها دليلا على أنها لم تكفلهم من أمرهم شططا ولا رهقا .. كما أنه من الحق أن نتذكر أن عياض بن غنم إنما فتح هذه البلاد صلحا وأنه قبل أن يصالح أهلها استشار أبا عبيدة في أمرها ، فشاور الأخير معاذ بن جبل الصحابي الفقيه ، فأفتاه أن يصالحهم على أن يؤدوا إليه قدر الطاقة إن أيسروا أو أعسروا [٥] ، فكان ما فرضه عياض قدر طاقتهم أيام الفتح ، وإذا كان عامل عبد الملك بن مروان فيما بعد قد أحصى كسبهم ، وجعلهم طبقة واحدة على أنهم عمال بأيديهم ، وترك لهم ما يكفيهم ، وبقي من بعد كفايتهم لكل واحد منهم أربعة دنانير ، فذلك قدر طاقتهم في عهده ، وإذا أخذ ذلك منهم فإنه إنما عمل بما اشترط عليهم عياض لما فتح بلادهم ، وليس في ذلك تجاوز للعهد معهم ، أو إخلال بشروط الصلح [٦].

---

[١] د. الريس : الخراج 264

[٢] المقريزي :السابق 98/1 ـ 99

[٣] أبو يوسف : الخراج 43ـ44

[٤] السابق 44

[٥] السابق 43ـ44

[٦] د. عبد الأعلى مهدى : قضية الجزية حتى نهاية العهد الأموي ص 378 مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي العدد الثامن سنة 1410 هـ/1990م

4.فرض الجزية على الموالي :

تذكر الروايات التاريخية أن الأمويين قد فرضوا الجزية على من أسلم من أهـــل البـــلاد ، متجاوزين بذلك أحكام الشريعة الإسلامية التي تقضي بفرض الجزية علـــى المشـــركين فحســـب ، وسقوطها عنهم إذا دخلوا الإسلام .

وتذكر الروايات أن ذلك حدث لأول مرة في خلافة عبد الملك بن مروان حين فرض عامله على العراق الحجاج بن يوسف الجزية على من أسلم من أهل العراق وفارس ، وأن ذلك كان في أثناء ثورة ابن الأشعث ، أما المرة الثانية فكانت في خلافة هشام بن عبد الملك حين فرض عاملـــه علـــى خراسان وما وراء النهر ــ أشرس بن عبد الله ــ الجزية على من أسلم من أهل هذه النواحي .

أ) فرض الجزية على موالي العراق :

روى الطبري بإسناده أن " عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكســـر ، وأن أهـــل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار ، فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخـــرج إليها ، فخرج الناس فعسكروا ، فجعلوا يبكون وينادون : يا محمداه ، يا محمداه ، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون ، فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم ويرون ، ... فقدم ابن الأشعث على تفيئة ذلك ، واستبصر قراء أهل البصرة في قتال الحجاج مع عبد الرحمن بـــن محمد بن الأشعث " [١] ..

وتتشابه رواية ابن الأثير والنويري مع رواية الطبري ، وان أضافت مزيدا مـــن التحديـــد لقرار الحجاج بشأن الموالي وأنه إنما أخرج الموالي إلى قراهم " لتؤخذ منهم الجزية " [٢] ..

ونحن نعلم أن التشريع الإسلامي استقر منذ عصر عمر بن الخطاب على اعتبـــار الأرض المفتوحة ملكا للمسلمين كافة ، وأن يترك فيها أهلها يؤدون عن رءوسهم الجزية ، وعـــن أرضـــهم الخراج ، وأما من يسلم منها فإن جزية رأسه تسقط عنه ، بينما يظل مطالبا بخراج الأرض لأنها ملـــك للمسلمين ، فإن شاء أقام فيها ودفع عنها خراجها ، وإن شاء تركها للمسلمين يزرعونها ويدفعـــون عنها الخراج ، هذا إذا كانت هذه الأرضين قد فتحت عنوة ، فإن كانت صلحا فإنما يدفع أصحابهـــا مبلغا من المال متفقا عليه مقابل الجزية والخراج ، ويتوزعون ذلك فيما بينهم ، فمن أسلم منهم رفعت عنه الجزية وظلت الأرض داخلة في نطاق ما يجب أن تدفع عنه ضريبة الصلح[٣].

---

[١] الطبري : السابق 381/6.

[٢] ابن الأثير : الكامل 79/4 ، النويري : نهاية الأرب 237/21

[٣] أبو عبيد : الأموال 52 ، 53 ، 57 ، يحيى بن آدم : الخراج 21 ،22 ، 60 ــ62 ، ابن رجب : الاســـتخراج لأحكام الخراج 95ــ96 ، وانظر د.الريس : الخراج 130 ــ 131

ومن المعروف أنه لم تكن قيمة الخراج على الأرض الزراعية كبيرة إلى حد يرهق الفلاحين ، ويدفعهم إلى الهجرة الجماعية إلى المدن ، على ما تحكي هذه الروايات ، كما أننا لا نلحظ هذه الهجرة فيما قبل عصر الحجاج ومنذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، مع العلم بأن بعض العرب كانوا يسارعون لشراء أراضي السواد وزراعتها ويدفعون عنها الخراج [1] ؛ مما ينفي بشكل قاطع دعوى إرهاق الفلاحين بالضرائب مما يضطرهم إلى ترك أراضيهم ..

فما هو السبب الذي أدى إلى هذه الهجرة من القرى التي اضطر الحجاج لمواجهتها ؟

لقد اختلفت تفسيرات الباحثين المعاصرين لها ، فعزاها بعضهم إلى القضاء على النظام الإقطاعي الذي كان سائدا بهذه البلاد قبل الفتح الإسلامي لها ، والذي كان يقضي بارتباط الفلاح بأرضه بشكل يستحيل معه انفصاله عنها ، على حين عزاه آخرون إلى إغراء الحياة في المدينة واتساع مجالات الرزق فيها ، وهي حجج لا تبدو مقنعة ، فقد انتهى نظام الإقطاع مع الفتح الإسلامي للعراق، ورغم ذلك لم تظهر الهجرة الجماعية إلا بعد سنة 80 هـ في أثناء ثورة ابن الأشعث ، كما أن إغراء الحياة الجديدة في المدن لا يبدو عاملا مغريا للفلاح شديد الارتباط بأرضه ، يدفع به إلى تركها والمغامرة في ميادين حياة مجهولة في المدينة ، مع ضعف احتمالات أن يستطيع الفلاح منافسة الصانع والتاجر فيها [2].. كما لا يبدو مقنعا التركيز على الدافع الاقتصادي وراء قرار الحجاج إعادة هؤلاء المهاجرين إلى قراهم ، لمواجهة ما ترتب على هجرتهم من أضرار نتجت عن إهمال الزراعة وتقلص قيمة الخراج ، مع حاجة من التحق منهم بالجيش إلى أخذ العطاء وحقه من الغنائم .. وحجتهم في ذلك هو تقلص قيمة خراج العراق زمن الحجاج عما كان يجبى قبله [3] ..

كما أن رواية الطبري السالفة الذكر تنص على كسر الخراج ، ولكننا نعلم أن هناك أسبابا أخرى لانكسار الخراج زمن الحجاج من أهمها مواجهة الفتن المائجة في العراق أول ولايته، ومواجهة نفقات جيوش الفتح التي استعادت نشاطها ، ومن المحتمل أن جباية العراق قد تحسنت في أواخر عهده لما استقرت الأمور هناك [4] ؛ ورغم هذا فإن الدافع الاقتصادي وحده لا يجيب على التساؤل

---

[1] قدر د. حسن إبراهيم قيمة خراج الفدان المزروع قمحا في عهد عمر بن الخطاب بأربعة عشر درهما ، وهي قيمة تبدو زهيدة (النظم الإسلامية 267) وقد كره جماعة من فقهائنا شراء أرض الخراج للمسلمين على اعتبار أنها ليست ملكا لأصحابها بل هي ملك للمسلمين كافة (يحيى بن آدم الخراج 55 ـــ57 الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 15/1 ـــ17)

[2] د. فهمي عبد الجليل : التنظيم الإسلامي للأرض الزراعية 117ـــ118 ، وانظر مراجعه هناك

[3] كان خراج العراق زمن عمر بن الخطاب مائة ألف ألف درهم ، ثم نقص زمن الحجاج إلى أربعين ألف ألف (البلاذري : فتوح البلدان 270)

[4] د. الريس : الخراج ص 254

الملح : لماذا تأخرت مواجهة الحجاج لهذا الوضع حتى بعد سنة80 هـ مع أن هذه الهجرة لم تحدث فجأة ، وإنما تمت في خلال سنوات عدة ..

إننا نفترض أن الهجرة من القرى تمت في خلال سنوات عديدة ، وأن عمادها لم يكن هم الفلاحين أصحاب الأرض والمرتبطين بطبيعتهم بها ، وإنما هم من الأجراء الذين كانوا يعملون في هذه المزارع ، وكانوا أصحاب أرض فقدوها في أثناء الفتح والحروب ، وهم الذين يسميهم سيف بن عمر الراوية " بالسكرات " عند حديثه عن أهل " أمغيشيا " التي فتحها خالد بن الوليد سنة 12 هـ وخربها " فعاد أهلها سكرات لدهاقين القرى " [1]، ويضاف إلى هؤلاء طائفة من أبناء الفلاحين دفعهم حب المغامرة إلى الرحيل إلى المدن ، ولم يكن ارتباطهم كارتباط آبائهم بالأرض ، وربما وجدوا أمامهم الفرصة للتدريب على بعض الحرف والمهن الملائمة لهذا المجتمع الجديد ، وربما كان هدف بعضهم ممن أسلموا أو أسلم آباؤهم السعي في طلب العلم ، ودراسة اللغة ، وحفظ القرآن ورواية الحديث ، فلم يكن أمامهم من سبيل إلى تحقيق هذه الغاية إلا الرحيل إلى الأمصار[2] ، ثم جاءت مشاركة الموالي النشيطة في ثورة ابن الأشعث ـ أخطر ما واجه الأمويون من ثورات حتى قامت ثورة العباسيين ـ وكان عدد الموالي في جيشه مساويا لعدد العرب الذين شاركوا في هذه الثورة ، ويصل إلى مائة ألف رجل [3] ! كما كانت مشاركة القراء ملحوظة في هذه الحرب مع ابن الأشعث ، وكان منهم عدد كبير من الموالي ، وذلك ما يؤكد وجود دافع سياسي قوي لدى الحجاج وراء قراره بإعادة هؤلاء الموالي إلى قراهم ، ليسقط بذلك أقدارهم ، حين يحولهم من طلاب علم ، ورجال دين ومهن وحرف إلى أجراء عند فلاحي القرى .. ويوضح ذلك رواية الجاحظ حيث قال [4] : وإن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ، ولقي ما لقي من قراء أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ، ويفرق جماعتهم ، حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا ، فأقبل على الموالي وقال : أنتم علوج وعجم ، وقراكم أولى بكم ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ، وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها ".. ويؤكد ذلك المبرد فيقول [5] : " ونظر الحجاج إلى كل من خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث من الموالي ، فأراد أن

---

[1] الطبري : السابق 358/3ـ359

[2] د. فهمي عبد الجليل : المرجع السابق 118ـ 119 ، د. صالح العلي :التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة 74

[3] الطبري : السابق 347/6

[4] روى ذلك ابن عبد ربه : العقد الفريد 64/2

[5] الكامل 96/2 ـ 97

يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ، ويخلطهم بأهل القرى والأنباط ، فقال : إنما الموالي علــوج ، وإنما أتي بهم من قراهم ، فقراهم أولى بهم ؛ فأمر بتسييرهم من الأمصار " ..

وقد عزز من عزم الحجاج على إعادة الموالي إلى قراهم ، وأخذ الخراج منهم أنه كان يربط بقوة دائما بين الولاء للدولة والإيمان بالدين ، وأنه رأى في اشتراك هؤلاء الموالي في هذه الثورة ؛ مــع من يكون ترك أرضه وزرعه منهم وذهب إلى الأمصار فكسر الخراج وأضر بالدولة ، رأى في ذلــك خروجا عن مقتضى الإيمان الذي يعني الطاعة لأولي الأمر ، والمساهمة في نهضــة الدولــة الإســلامية الاقتصادية ، فجاء شكه في إسلامهم مبررا له لإعادة أخذ الخراج منهم [١] ، كما أنه كان يرى أنهــم صالحوا المسلمين على أن لا يعينوا بعضهم على بعض ــ كما حدث في صلح الأســاورة والــزط والسيابجة مع أبي موسى الأشعري زمن عمر بن الخطاب ــ وأن اشتراكهم مع ابن الأشــعث ضــده وضد الخلافة يعني منهم تجاوزا لشروط الصلح ونقضا له ، يستحقون معه إعــادة الجزيــة عليــهم وتفريقهم ؛ ولذا فقد أضر الحجاج بهذا الفريق من الموالي ؛ " فهدم دورهم وحط أعطياتهم ، وأجلــى بعضهم وقال : كان في شرطكم ألا تعينوا بعضنا على بعض" [٢] ..

وأخيرا فإنه إذا كان الحجاج قد تجاوز الصواب في عمله ذاك ، فقد أصلح ذلك الأمر عمر ابن عبد العزيز الذي عاد إلى سيرة عمر بن الخطاب في جباية المال وإسقاط الجزية عمن فرضت عليه من الموالي [٣] ... فلما فعل ذلك اتهمه مؤرخون آخرون بالسلفية والرجعية وفقدان الحــرص علــى مصالح بيت المال [٤] ، وهي اتهامات مرفوضة دون شك تكفل بردها مؤرخون آخرون مســتندين إلى حقيقة واضحة هي أن عهد عمر بن عبد العزيز كان عهد رخاء وراحة نفسية ومادية قل أن تتحقــق على هذا النحو [٥] ..

ب) فرض الجزية على موالي ما وراء النهر :

روى الطبري أن هشام بن عبد الملك استعمل سنة 109 هـــ أشرس بن عبد الله السلمي واليا على خراسان "، وكان أشرس فاضلا خيرا ، وكانوا يسمونه الكامل لفضله عندهم [٦] ؛ فلما تــولى أشرس عمله قال : ابغوني رجلا له ورع وفضل أوجهه إلى من وراء النهر فيدعوهــم إلى الإســلام ،

---

[١] د. الريس : الخراج 235 ، وانظر د. الطيب النجار : الموالي في العصر الأموي ص 47

[٢] الطبري : السابق 13/4 ، البلاذري : فتوح البلدان 416

[٣] راجع د. الريس الخراج 285

[٤] فلوتن : السيطرة العربية 115 ، 127 ،د. حسن إبراهيم النظم الإسلامية 297ــ298

[٥] ابن سعد الطبقات الكبرى 347/5 ، ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز 69 ، ابن كثير البدايــة والنهايــة 200/9 ، د.الريس : الخراج251ــ256 د. عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الإسلامي 125ــ127

[٦] الطبري : السابق 52/7

فأشاروا عليه بأبي الصيداء طريف بن صالح مولى بني ضبة ، فقال أبو الصيداء : إنما أخـــرج علـــى شريطة أن من أسلم لا تؤخذ منه الجزية ؛ فقال أشرس : نعم ؛ فشخص أبو الصيداء إلى سمرقنـــد ، فدعا أهلها ومن حولهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية ، فسارع الناس إلى الإسلام ، فكتب " غوزك " ـــ وهو زعيم من زعماء الصغد [1] ـــ إلى أشرس : أن الخراج قد انكسر ، فكتب أشـــرس إلى صاحب الخراج ـــ وهو الحسن بن أبي العمرطة الكندي : " إن في الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة ، وإنما دخلوا في الإسلام تعوذا من الجزية ، فـــانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنـــه خراجـــه "، ثم عـــزل الأشرس ـــ بعد فترة ـــ ابن أبي العمرطة عن الخراج دون الحرب ، وصيره إلى هانئ بـــن هـــانئ ، وضم إليه الأشحيذ ، فقال ابن أبي العمرطة لأبي الصيداء : لست من الخراج الآن في شيء ، فدونك هانئا والأشحيذ ، فقام أبو الصيداء يمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم ، فكتب هانئ : إن الناس قـــد أسلموا وبنوا المساجد ، فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا : ممن تأخذ الخراج وقد صار النـــاس كلهم عربا (أي مسلمين) ؟ فكتب أشرس إلى هانئ وإلى العمال : خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونـــه منه ، فأعادوا الجزية على من أسلم ، فاعتزل من أهل الصغد سبعة آلاف ، فنزلوا على عدة فراســـخ من " سمرقند " ، وخرج إليهم أبو الصيداء وجماعة من أهل الرأي من المسلمين لينصروهـــم ؛ وقـــد استطاع عامل " أشرس " حبس أبي الصيداء ، واستخف هؤلاء العمال بعظماء العجـــم والدهـــاقين وألحوا في جباية الخراج ... فكفرت الصغد وبخارى ، واستجاشوا الترك ، وجرت وقائع عنيفة بـــين الترك والمسلمين لم تنته حتى عزل هشام بن عبد الملك أشرس وأعاد واليه الأسبق أسد بن عبـــد الله القسري ، فحارب الترك حتى انتصر عليهم ، وتفرقوا بعده [2].

ومن العرض الموجز السابق يتضح ما يلي :

ـــ إن حاكم هذه البلاد الذي فرضت الجزية في عهده على الموالي لم يكن متهما في دينـــه أو غيرتـــه الإسلامية ، كما لم يكن متهما بمعاداة الموالي ، حيث كان خيرا فاضلا ، يسمونه الكـــامل لفضلـــه ، كما أنه بادر بالدعوة إلى الإسلام في هذه المناطق التي عانت من التمرد والانتقاض عدة مرات فيمـــا مضى ، ولما أراد عملا منظما في هذه الدعوة أسند هذه المهمة إلى أحد الموالي البارزين ، ووافقه على شرطه برفع الجزية عمن يسلم ويستجيب لدعوته .

ـــ إن أول شكوى وصلت ذلك الحاكم كانت من دهاقين البلاد وجباة الخراج وزعماء الناس ، فهم الذين تعالى صياحهم ـــ بدءا من زعيم الترك غوزك ـــ بنقص الخراج وانكساره ، نتيجـــة إســـراع الأهالي إلى الإسلام ، وخطورة ذلك على جباية الأموال ؛ فأوعزوا إلى الوالي أشرس بالشك في إسلام

---

[1] الصغد : بلاد تتصل ببخارى وشرقيها ؛ وقصبتها سمرقند (معجم البلدان ٨٦/٥)

[2] الطبري : السابق 54/7 ـــ 55 ، ابن الأثير: الكامل 202/4

هؤلاء الموالي ، فأمر بامتحان من يسلم بالختان ليتأكد من أن إسلامهم قناعة بالدين وليس فرارا من الجزية ، ولكنهم استمروا في تخويف أشرس من نقصان الخراج ، وحملوه مسئولية ذلك ، وهو يعلم أنه مطالب بخراج ولايته من الخلافة ، فكان قراره الأخير بإعادة فرض الجزية على من يسلم من أهل البلاد .. '

ووقوف الدهاقين ضد تيار الدخول في الإسلام له أسبابه التي يعود بعضها إلى ظروف فتح هذه البلاد ، والامتيازات التي تمتع بها جباة الخراج من هؤلاء الدهاقين نتيجة هذه الظروف ؛ فقد فتح كثير من مدن خراسان وما وراء النهر صلحا ، وترتب على ذلك فرض ضريبة محدودة يتكفل جباة الخراج بتوزيعها على السكان ، وجبايتها منهم ثم تسليمها للحكومة ، مما كان يعني استمرار الامتيازات والمكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها هؤلاء الدهاقين قبل الفتح ، وربما أتاحت لهم هذه الحرية في تنظيم الجباية وحقيقة كون ديوان الخراج هناك بالفارسية ــ مما يعنى غياب عمليات المراجعة والمراقبة العربية اللصيقة ــ فرصة فرض ضرائب أكثر من المحددة لهم ، وضم هذه الأموال إليهم ..

وكان دخول كثير من هؤلاء السكان في الإسلام يعني سقوط هذه الضريبة عنهم ، وبالتالي زيادتها على من ظل على شركه منهم ، مما كان يهدد بثورة هؤلاء الغارمين من المشركين الذين ستزيد ضريبتهم ، أو بنقص قيمة الضريبة المحددة على المدى الطويل ، كما كان يقلل فرص الدهاقين في التلاعب في الضرائب لصالحهم ، ويهدد إحساسهم بالسيطرة على الأهلين الذين سيصبحون بإسلامهم مساوين لهم في الحقوق والواجبات والمكانة الاجتماعية ، بعد أن كانوا تابعين خاضعين لهم .. ولذلك كان البديل المتاح أمامهم هو محاربة دخول هؤلاء السكان في الإسلام ، وإثارة مخاوف الأمراء المسلمين منهم ، وتشكيكهم في حقيقة إسلام هؤلاء ، وأنهم إنما لجئوا إلى الإسلام تعوذا من الجزية .

وقد ذكرت عدة روايات تؤكد ذلك التصور، منها ما رواه النرشخي مؤرخ بخارى من أن تغشادة صاحب بخارى كتب إلى أسد القسري والي الأمويين على خراسان وما وراء النهر : إن ببخارى رجلا يلقى بذور الفتنة ويشق عصا الطاعة ، ويزعم أتباعه أنهم مسلمون ، وليسوا بمسلمين، فإنهم لم يسلموا إلا بألسنتهم ، وقد خدع أسد بهذا الكلام ، فكتب إلى نائبه على بخارى مقاتل بن شريك أن يقبض على هؤلاء ، ويسلمهم إلى تغشادة ، الذي أعدم أربعمائة منهم ، وأرسل الباقين إلى أسد بخراسان [1] .. وفيما بعد ــ في ولاية نصر بن سيار على خراسان ــ جاءه دهقانان من أقارب تغشادة يشكوانه إلى نصر لأنه غصب منهما أرضا باتفاق مع أمير بخارى العربي واصل بن

---

[1] راجع فان فلوتن : السيطرة العربية 105 ــ 107 ، 110 ــ 111

عمرو ، وقالا : لقد اتحد هذان ، وهما يأخذان أملاك الناس [١].. ولذلك فقد أصاب دينيت حين قال : " إن الموالي الذين كانوا يستغلون إنما كان يستغلهم أبناء جلدتهم " [٢]..

ولكن ما صنعه أشرس السلمي من فرض الجزية على من أسلم ممن وراء النهر لم يكن إجراء واسع النطاق ، إذ إن المدن فقط في خراسان وما وراء النهر هي التي فتحت صلحا علـــى وظيفـــة محددة ، وكانت تمر بالظروف السابق بيانها ، أما القرى والرساتيق التابعة لها فقد فتح معظمها عنـــوة ، وكان عليها جزية وخراج [٣] ؛ كما أن هذه المشكلة لم تستمر طويلا ؛ إذا إنما ظهرت في ولاية أشـرس سنة 110 هـــ ، وانتهت بتنظيم نصر بن سيار للخراج والجزية في هذه البلاد سنة 121 هـــ ..

* فكيف حل نصر هذه المشكلة ؟

لقد اكتشف نصر بعد توليه هذه البلاد ألاعيب الدهاقين وعمال الخراج فوجد مســـلمين يدفعون الجزية على حين يعفى منها مشركون كثيرون ! فقضى بأنه " أيما رجل من المســـلمين كـــان يؤخذ منه جزية من رأسه ، أو ثقل عليه في خراجه وخفف مثل ذلك عن المشركين فليرفع ذلك عنه، وليحول إلى المشرك " ؛ فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزيـــة عن رءوسهم ، وثمانون ألف رجل من المشركين قد ألقيت عنهم جزيتهم ؛ فحول ذلـــك عليـــهم ، وألقاه عن المسلمين ، ثم نظم نصر أمر الخراج وصنفه ووضعه مواضعه [٤] ، فأحسن الولاية والجباية ، " وعمرت خراسان في عهده عمارة لم تعمر قبلها " [٥] ، ثم صالح نصر أهل الصغد على شروط سخية، وأرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع إلى بلادهم وأعطاهم كل ما أرادوا وأجاز الخليفة هذا الصلـــح [٦]، فانتهت الحرب وعاد السلام ...

د.استغلال الصوافي :

الصوافي هي تلك الأراضي التي قتل أصحابها أو هربوا عنها أثنـــاء الفتـــح الإســـلامي ، ويدخل ضمنها أراضي كسرى وأهله في العراق والمشرق [٧] وعلى ذلك فهذه الأرضين " بمنزلة المـــال الذي لم يكن لأحد ، ولا في يد وارث ؛ فللإمام العادل أن يجيز منه ، ويعطي من كان لـــه غنـــاء في

---

[١] السابق 104 ـــ 105 ، د. فهمي عبد الجليل : التنظيم الإسلامي للأرض الزراعية 172 عن النرشخي : تـــاريخ بخارى 89

[٢] الجزية والإسلام 196نقله عنه د. فهمي عبد الجليل : مرجع سابق 173

[٣] راجع د. فهمي عبد الجليل : مرجع سابق 152 ــ 157

[٤] الطبري : السابق 73/7 ، ابن الأثير 243/4

[٥] الطبري : السابق 158/7

[٦] السابق 192/7

[٧] أبو يوسف : الخراج 57 ، البلاذري : فتوح البلدان 272

الإسلام ، ويضع ذلك موضعه ولا يحابي "[1] ، ويزعم اليعقوبي أن معاوية أخرج من كل بلد ما كانت الفرس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة ، وجعلها صافية لنفسه ؛ فأقطعها جماعة من أهل بيته[2]، كما زعم أن صاحب الخراج كان يحمل إلى معاوية من غلة صوافيه في العراق مائة ألف ألف درهم ، وأنه كان يعطي منها صلاته وجوائزه ، وأنه صنع في صوافي الشام والجزيرة واليمن مثلما صنع في صوافي العراق ، وأنه استصفاها وصيرها لنفسه خاصة، وأقطعها أهل بيته[3].

والرد على هذه الشبهة يتلخص في عدة نقاط :

أ) إن هذا الاتهام مما يتفرد به اليعقوبي المتحامل على الأمويين عادة ، ولا نجده في المصادر التاريخية الأخرى ؛ بل إن كتب الخراج وغيرها تنص على أن صوافي العراق ظلت ملكا عاما للدولة حتى احترقت الدواوين في موقعة الجماجم أثناء ثورة ابن الأشعث ، فذهبت سجلات هذه الأراضي ، " وذهب ذلك الأصل ودرس "[4]..

ب) وليس يعقل أن يجيء معاوية من صوافي العراق وحدها مائة ألف ألف درهم في حين لم يجب عمر ابن الخطاب من صوافي العراق إلا سبعة آلاف ألف درهم[5] وفي حين أن خراج العراق كله في عهده لم يتجاوز مائة ألف ألف وقد نقص بعده[6]..

ج) وإذا لم يصح ذلك الزعم عن العراق فإنه لا يصح كذلك أن معاوية استولى على صوافي الحجاز والشام ، فقد روى البلاذري أن معاوية اشترى أرضا بوادي القرى من أصحابها اليهود ، وأنه أصلح أرضا مواتا ضمت إليها[7] ؛ وبعيد إذا كانت الصوافي في سائر البلاد قد صارت لمعاوية أن يكون لديه باعث من أجل شراء أو استصلاح أراض جديدة بالحجاز ، إذ إن ثلثي أراضي وادي القرى صارت صافية للمسلمين منذ عهد عمر بن الخطاب عندما أجلى عنها اليهود[8] ، ولم يقطع معاوية أو خلفاؤه

---

[1] أبو يوسف : السابق 58

[2] اليعقوبي : السابق 233/2

[3] السابق 334/2

[4] البلاذري : فتوح البلدان 272 ، أبو يوسف الخراج 57

[5] البلاذري : السابق 272

[6] السابق 270 ، وقد سبق القول بأنه كان في عصر الحجاج أربعين الف ألف درهم ..

[7] البلاذري : السابق 238

[8] د. فهمي عبد الجليل . الأمويون والفيء ص 79—80 ، مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي كلية دار العلوم ، المجلد السابع سنة 1409 هـ ، 1989 م

شيئا من صوافي الحجاز إلا فدك التي أقطعها معاوية مروان بن الحكم إقطاع إجارة ، ثم آلت إلى عمر ابن عبد العزيز الذي ردها إلى ما كانت عليه على عهد النبي ﷺ فيئا لابن السبيل [١] ..

د) أما صوافي الشام فقد تصرف معاوية في بعضها فأقطع منها أناسا من قريش وأشراف العرب[٢]، ولكنه كان إقطاع إجارة لا إقطاع تمليك ، ولعله اقتدى في ذلك بصنيع عثمان بن عفان حين أقطع طائفة من صوافي العراق لنفر من الصحابة فقبلوا ذلك [٣] ..

ولكن ذلك لم يكن شأن معاوية أو غيره في كل صوافي الدولة ، والمرجح أن صوافي الشام كانت محدودة المساحة ، ولم تكن في الوفرة والاتساع كصوافي العراق [٤] التي لم يقطع الأمويون منها أحدا ، وإنما كانت قطائعهم من الأرض الموات التي تحتاج إلى الاستصلاح وشق الأنهار[٥] ...

هـ) ولكن طول العهد بما أقطع من صوافي الشام ، وقد استمرت زمن عبد الملك والوليد وابنه سليمان ، قد جعل أصحابها يتمتعون بكل حقوق الملكية من بيع وهبة وتوريث [٦] ، وقد أجاز ذلك بعض الفقهاء فقال أبو يوسف [٧] " إن من أقطعه الولاة المهديون فليس لأحد أن يرد ذلك " ، فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رد ما كان الخلفاء قبله أقطعوه من هذه الصوافي مما لم يكن قد تمت فيه تصرفات شرعية بالبيع أو الهبة أو الميراث [٨] ، إذ رأى في إقطاعها شبهة استغلال السلطة لإقطاع الأقارب ، ومن المرجح أن تكون هذه جزءا من المظالم التي تحدث المؤرخون عن رد عمر بن عبد العزيز إياها [٩] ، وكيلا تتحول هذه الإقطاعات بمضي الزمن من إقطاع إجارة إلى إقطاع تمليك طلب عمر من عماله أن يعطوها إلى الفلاحين مزارعة [١٠] ..

---

[١] راجع البلاذري : فتوح البلدان 42ـ46 ، ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز 136 السيوطي: تاريخ الخلفاء 231ـ232 د. فهمي عبد الجليل : المقال السابق 80ـ81

[٢] ابن عساكر تاريخ دمشق ج1 ص 595

[٣] د. فهمي عبد الجليل : مقال سابق 77 ، البلاذري : السابق 273

[٤] د. فهمي عبد الجليل : التنظيم الإسلامي للأراضي الزراعية 197 ، المقال السابق 78

[٥] د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والفيء ص 81

[٦] ابن عساكر : تاريخ دمشق 595/1

[٧] الخراج 58

[٨] ابن عساكر السابق 596/1

[٩] ابن سعد الطبقات الكبرى 341/5 ، 343، 373 ، ابن الأثير الكامل 164/4 ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 175/2

[١٠] يحيى بن آدم : الخراج 59

ـــ استغلال السلطة في إحياء الأرض الموات :

إذا كان ما مضى هو موقف الأمويين من إقطاع الصوافي فماذا كان موقفهم من إحياء الأرض الموات الذي كان ركيزة مهمة من ركائز النهضة الزراعية في عهدهم ؟

نحن نعلم أن الإسلام قد حض على إحياء الأرض وجعل " من أحيا أرضا ميتة فهي لــه"، ومن تشجيعه ذلك أن النبي ﷺ قد أقطع بعض الأرض الموات بعض الصحابة وكذلك فعل أبو بكر وعمر[١]، واستحسن العلماء ذلك الإقطاع فقال أبو يوسف[٢] : " ولا أرى أن يترك الإمام أرضا لا ملكٌ لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها ، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج " ؛ وقد أقطع الأمويون من هذه الأراضي بعض أشراف الناس القادرين على استصلاحها[٣] ؛ وكان زياد بن أبي سفيان يقطع الرجل قطعة من الأرض تبلغ مساحتها ستين جريبا ، ثم يدعه عامين ، فإن عمرها أصبحت له ، وإلا استردها منه[٤] ..

وقد ساهم رجال بنى أمية في ذلك الإنجاز ، فأحيوا موات أرض عديدة بعد أن أنفقوا عليها نفقات طائلة ، وبعض الأخبار الواردة عن ذلك تدل على عزم أكيد وتضحية كبيرة ؛ لا عجب أن عادت بعد على أصحابها بالخير .. فقد أقطع الوليد بن عبد الملك ـــ وقيل بل عمر بن عبد العزيز ـــ سعيد بن عبد الملك بن مروان ، وكان ناسكا يدعى بسعيد الخير ـــ أرضا كانت غيضة ذات سباع ، فحفر هنالك نهرا عرف بنهر سعيد وعمر ما حولها[٥] ..

وانبثقت البثوق من نهر دجلة في خلافة الوليد بن عبد الملك ، فهددت الأراضي المحيطة بها بالغرق ، وكتب الحجاج إلى الوليد أنه قدر لسد هذه البثوق ثلاثة آلاف ألف درهم ؛ فاستكثرها الخليفة ؛ فقال له مسلمة بن عبد الملك : أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ثلاثة آلاف ألف درهم ، يتولى إنفاقها ثقتك ونصيحتك الحجاج ، فأجابه الخليفة إلى ذلك ، فحصلت له أرضون واسعة ، وحفر لها نهرا ، وتألف الأكرة والمزارعين لعمارتها[٦].

واستقطع عنبسة بن سعيد من يزيد بن عبد الملك دار الروميين ، وكانت مزبلة لأهل الكوفة تطرح فيها القمامات والكساحات ، فأنفق عنبسة على نقل ترابها فقط مائة وخمسين ألف درهم[٧] ..

---

[١] البلاذري فتوح البلدان 26 ـــ 27

[٢] الخراج 61

[٣] راجع البلاذري : السابق 357 حيث يورد أمثلة عديدة على ذلك ..

[٤] السابق 310 ـــ 311

[٥] السابق 183 ـــ 184

[٦] السابق 292

[٧] السابق :280

ووجه الأمويون عنايتهم إلى استزراع منطقة البطائح ، وهي الأراضي التي تكونت نتيجة فيضان الأنهار منذ عهد كسرى ، وقد استصلح معاوية منها أرضا بلغ خراجها خمسة آلاف درهم [١]، واستمرت عناية الأمويين بها في خلافة عبد الملك حيث استصلح الحجاج هناك أراضي واسعة وحفر لها نهري النيل والزاب ، وبنى مدينة النيل ومصرها ، وبنى أيضا مدينة واسط ، وأتى بخلق كثير من إقليم السند ومعهم أولادهم وأهلوهم وجواميسهم فأسكنهم المنطقة الوسطى من نهر كسكر ، فنشطوا في الزراعة وغلبوا على منطقة بالبطيحة وتناسلوا بها [٢] ، ثم اهتم هشام بن عبد الملك بهذه المنطقة اهتماما خاصا لزيادة موارد الدولة فاختار لجبايتها نظام القبالة حيث يعطيها لمن يتعهد بدفع أكبر مبلغ مقابل استغلالها [٣]...

وهكذا اجتمعت جهود الدولة مع جهود القادرين من أفرادها على إحياء الأراضي الموات واستغلالها لمصلحة بيت المال في النهاية ..

ولكن ذلك العمل العظيم لم يخل من سلبيات وتجاوز كشأن أعمال بني البشر.. كما لم يخل من محاولات لتشويه بني أمية واختلاق الأخبار عليهم ..

ومن النوع الأخير ما يرويه البلاذري عن عباس بن هشام الكلبي عن أبيه أن يزيد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن هبيرة أنه ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب خرصة ، فسر على قطائع ، فخذ فضولها لأمير المؤمنين ، ففعل حتى ضج الناس فأمسك [٤] .. وابن الكلبي معروف بمغالاته في التشيع ، وبغضه بني أمية ، ويدل على فساد روايته أن الخليفة أقطع ابن هبيرة ألفا وخمسمائة جريب من أراضي آل المهلب ؛ ولو كان يرغب في اقتناء القطائع لأخذها لنفسه [٥] ، وقد تعرض تاريخ يزيد بن عبد الملك لتشويه كبير كما مر بنا ..

ومن أمثلة السلبيات والتجاوزات أن بعض الولاة استباح لنفسه استصلاح هذه الأراضي ، وهذا في الأصل أمر مباح ، فإن من أحيا موات أرض فهي له ، ولكن من المرجح أن يفتح ذلك الباب أمام الولاة الفرصة لاستغلال مناصبهم في ذلك العمل الذي سيعود عليهم بربح عظيم .. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك ما فعله خالد القسري في أثناء ولايته على العراق، فقد استصلح أرضا غلت عليه

---

[١] السابق :291

[٢] السابق :362

[٣] الجهشياري : الوزراء والكتاب 62ـ66 ، والقبالة : هو أن يجعل الشخص قبيلا ، أي كفيلا بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه ، وهو ما عرف فيما بعد بنظام الالتزام (راجع الفيروزابادي: القاموس المحيط : مادة : ق ب ل ، وانظر : د. الريس : الخراج 279 ـ 280)

[٤] البلاذري : فتوح البلدان 359 ـ 360

[٥] د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والفيء ص 83 حاشية 3 ، وكان سليمان قد أقطع يزيد بن المهلب هذه لأراضي من البطائح ..

ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ويبدو أنه استغل في ذلك منصبه ، حيث كسر الخراج في العراق فعزلـه هشام ، وأمر واليه الجديد يوسف بن عمر بحبسه وحبس عماله وتعذيبهم حتى استخرج يوسف منـه تسعين ألف ألف درهم [1] ..

وكما حدث من محمد بن مروان بن الحكم عامل الجزيرة الذي استغل بحـيرة الطريـخ ، وكانت مباحة للناس ، فحوى صيدها وباعه ، ثم صارت لابنه مروان من بعده [2] ، وربما رأى أن صيد البحيرة قبل ذلك كان لا قيمة له وأنه هو الذي أنفق عليها بغية استثمارها حتى آتت أكلها، فحازهـا لنفسه جزاء ما أنفق ..

ولكن هكذا دائما تظل أي محاولة للخلفاء أو الولاة موضع شك مادام الغرض منها تكثـير الأموال وهم مازالوا في دائرة الحكم مسلطة عليهم الأضواء .. غير أنه لا يصح بحال أن نجعل مـن هذه الاستثناءات السمة العامة للممارسات الاقتصادية في العصر الأموي ...

[1] الطبري : السابق 7 / ١٤٩-١٥١، الجهشياري : الوزراء والكتاب 62ـ66

[2] البلاذري : فتوح البلدان 203

المبحث الثاني

شبهات حول مصارف الأموال في العصر الأموي

وقد أثار بعض المؤرخين شبهات واسعة حول مصارف الأموال في ذلك العصر ، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية .. وسوف نستعرض في هذا المبحث أهم هذه الشبهات ..

١- التفريط في خراج بعض الأقاليم :

أ) إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص :

تتعدد الروايات التي تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص لقاء تأييد الأخير له في حربه ضد علي بن أبي طالب ، وجل هذه الأخبار تحوي روحا عدائية لعمرو ومعاوية ، وتصور اتفاقهما على حرب علي كما لو كان مؤامرة دنيئة أو صفقة مريبة ، خان فيها الرجلان ربهما ودينهما وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر سريع ، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصره لقضية اجتمع حولها آلاف الرجال في الشام وفي غيرها ـــ وهي الطلب بدم عثمان ـــ إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه ، وبعض هذه الروايات تحوى سبابا لهذين الصحابيين ؛ كأن تزعم أن عمرا فضل ولاية مصر على حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال : " إنما أردنا هذه الدنيا " [١] ، أو أنه قال لمعاوية : " لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك " [٢] أو قوله " : إنما أبايعك بها ديني " أي بمصر[٣] ، أو قوله لمعاوية : " ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها ، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده " [٤] ؛ إلى غير ذلك من روايات [٥] ..

وهناك عدة دلائل تضعف من قيمة هذه الرواية التي لاقت رواجا واستقرارا منها :

---

[١] الطبري : السابق 561/4 رواية الواقدي ، ابن الأثير الكامل 141/3

[٢] الإمامة والسياسة 98/1

[٣] ابن عبد ربه : العقد الفريد 345/4

[٤] المسعودي : مروج الذهب 29/3

[٥] نصر بن مزاحم : وقعة صفين 237 ، وسلسلة هذه الرواية كلهم من الروافض (راجع : محمد بن صامل السلمي منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص 267) ، الكندي : ولاة مصر وقضاتها 31 ، الدينوري : الأخبار الطوال 222 ، الطبري : السابق 98/5 ، ابن سعد : الطبقات الكبرى 255/4

ـــ ما عرف من تقوى معاوية وعمرو ، وتاريخهما المضيء في خدمة الإسلام منذ أسلما [1] ..

ـــ أنه من المرجح أن تكون بيعة أصحاب معاوية له آنذاك كانت على الطلب بدم عثمان ، وهو لم يكن خليفة ، ولم يكن يجاهر بطلب الخلافة حتى يتصور أن يوزع خراج أقاليم لا يملك من أمرها شيئا على أصحابه ، وهو آنذاك مهدد في ولايته بالشام ..

ـــ ذكر أبو مخنف أحد رواة الفرية السابقة ، أن دافع معاوية إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار علي بن أبي طالب سنة 38 هـ ـــ وكان عمرو قائده في هذه الحملة ـــ أنه كان " يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب علي لعظم خراجها " [2] .. فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمرو وهو في مسيس الحاجة إليه ؟ .

ـــ أن معاوية قد كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر ـــ وردان ـــ أن زد على كل امرئ من القبط قيراطا ، فرد عليه : كيف وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم ؟ [3] ، " ولم يل وردان خراج مصر لمعاوية إلا في ولاية عمرو بن العاص لأن من ولوا مصر بعد موت عمرو ـــ وهم عتبة بن أبي سفيان وعقبة بن عامر ومسلمة بن مخلد ـــ كانوا يتولون صلاتها وخراجها ، وهذه الرواية صريحة قاطعة في الدلالة على اهتمام معاوية بزيادة حصيلة الخراج في مصر ، في ولاية عمرو بن العاص عليها، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كان فائض الخراج في مصر يحمل إلى معاوية في دمشق ليواجه به وجوه الإنفاق المتنوعة [4] ..

ـــ أن معاوية لم يكن يستحل أن يتنازل عن خراج مصر ـــ وهي من أغنى أقاليم الدولة الإسلامية آنذاك ـــ لفرد واحد ، وهو يعلم أنه حق الأمة كلها ، وأنه لا يملك التنازل عنه ، وقد روى ابن تيمية عن عطية بن قيس قال : سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطبنا يقول : إن في بيت مالكم فضلا بعد أعطيائكم وإني قاسمه بينكم ؛ فإن كان يأتينا فضل عاما قابلا قسمناه عليكم ؛ وإلا فلا عتبة علي ، فإنه ليس بمالي ، وإنما هو مال الله الذي أفاءه عليكم " [5].

وكانت رقابة المجتمع المسلم في ذلك العهد المبكر من عمر الإسلام لصيقة ،لا ترضى الدنية في الدين ، فقد زعموا أن أهل الكوفة منعوا الحسن بن علي من حمل خراج إقليم دارابجرد في فارس والذي قيل إن معاوية صالحه عليه ؛ وقالوا : هو فيئنا ، وسيأتي بيان لذلك ، كما أنه في مصر نفسها ، وبعد فترة

---

[1] راجع ما سبق من هذا الكتاب عن تدين معاوية ومناقبه .. وراجع عن تدين عمر بن العاص وفضله : الترمذي :الجامع الصحيح 351/5 ،الحديثين رقمي 3933،3934 تحت عنوان مناقب عمرو بن العاص ، الواقدي : فتوح الشام 14/2 ، الكندي :ولاة مصر وقضاتها 32ـــ34

[2] الطبري : السابق 97/5

[3] البلاذري : فتوح البلدان 219

[4] د . فهمي عبد الجليل : الأمويون والفيء : مقال سابق ص 67ـــ68

[5] منهاج السنة النبوية 185/3

من موت عمرو بن العاص ، أعطى مسلمة بن مخلد عامل معاوية عليها أهـــل الديـــوان أعطيـــاتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم وأرزاق الكتبة وغير ذلك ، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضـــل خراجها ، فلما نهضت الإبل بهذه الأموال إلى الشام لقيهم برح بن كسحل المهري فقال · ما هذا ؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا ؟ ردوه ، فردوه حتى وقف على باب المسجد فقال : أخـــذتم أعطيـــاتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم ؟ قالوا: نعم ، قال : لا بارك الله لهم فيه ، خذوه ، فساروا بـــه [1] .. فمن لم يقبلوا ذهاب فضل الخراج بعد أخذ حقوقهم إلا بالكاد كيف يقبلون ذهاب الخراج كله إلى فرد واحد ؟!

ـــ إذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من تنافس الأمصار الإسلامية مع بعضها ، ووجود معارضة للأمويـــين في مصر كانت حديثة العهد منذ تبعية مصر لعلي بن أبي طالب حتى فتحها عمرو بن العاص ســـنة 38 هـــ ، لازددنا يقينا أن أهلها لم يكونوا يقبلون ما يزعمه الرواة حول إعطائها طعمة لابن العـــاص .. وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجال مصر من بذل في سبيل نصرة معاوية مثلما بذل عمـــرو بـــن العاص إن لم يفقه ؛ كمعاوية بن حديج وأصحابه من العثمانية ، وهؤلاء لا يقبلون بحـــال أن يمتـــاز عمرو عليهم كل هذا الامتياز ، لقد مر بنا فيما مضى أن معاوية بن حديج هذا قد أرجع ابن أخـــت معاوية ـــ عبد الرحمن بن أم الحكم ـــ الذي ولاه معاوية مصر ، من قبل أن يدخلـــها ، ورفـــض أن يتولى إمارتهم ، ورده إلى الشام على نحو غير كريم ، فما استطاع معاوية أن يغضب ابن حديج [2] ..

ب) التنازل عن خراج " دارابجرد " للحسن بن علي :

زعم بعض المؤرخين أن معاوية تنازل للحسن عن خراج "دارابجرد" وأن يعطيه مما في بيـــت مال الكوفة مبلغ خمسة آلاف ألف درهم مقابل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وأن الحسن قـــد أخذ ما في بيت مال الكوفة ولكنه لم يستطيع الحصول على خراج " دارابجرد " ؛ إذ إن أهل الكوفـــة قد منعوه منه ، ويزعمون أن ذلك كان بتحريض من معاوية [3] .. وهكذا لم يحدث أن استولى الحســـن على خراج هذا الإقليم ، سواء كان ذلك بتحريض معاوية أو بمبادرة من الكوفيين ..

على أن هذه الرواية تغض من شأن الحسن ومعاوية معا ، وتجعلهما في موقف التواطؤ علـــى أكل أموال المسلمين بالباطل [4] ، وقد روى الطبري بسنده عن الزهري أن الحسن كتب شـــروطه في سجل وأرسله إلى معاوية ، في ذات الوقت الذي أرسل إليه معاوية صحيفة بيضاء ليكتب فيـــها مـــا شاء، فطلب الحسن أضعاف ما كان طلبه في صحيفته السابقة ، فلما التقيا سأله الحسن أن يفي له بمـــا

---

[1] المقريزي : الخطط 127/1

[2] راجع الفصل الخاص بدعوى الاستبداد السياسي عند الأمويين ..

[3] ابن الأثير : الكامل 203/3

[4] د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والفيء ص 68

كتبه إليه آخرا ، بينما أصر معاوية على أنه ليس من حقه إلا ما طلبه أولا ، فاختلفا ، فلم ينفذ معاوية للحسن من الشروط شيئا [1] والزهري أولى بالثقة من عوانة الذي روى قصة التنازل السابقة ؛ فهو من رواة الحديث الذين لم يشكك أحد في أمانتهم في النقل والثقة بهم [2] ..

ولا يعني القول بأن معاوية لم ينفذ شيئا من مطالب الحسن أنه كان يبخل عليه بمال أو مكانة ، وسوف نرى فيما بعد كيف زاد عطاءه وكيف كان إنفاق الحسن !

2. التفرقة في العطاء :

أول من سن ديوان العطاء في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ أما قبل ذلك في عهد الرسول ﷺ فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك ، وقد قرر الفقهاء أن " الغنيمة ليست كمباح اشتراك فيه ناس؛ مثل الاصطياد والاحتطاب ؛ فإن ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال بخلاف الغنيمة فإن المقصود الجهاد وإعلاء كلمة الله ، والغنائم لم تبح لمن كان قبلنا؛ وإنما أبيحت لنا معونة على مصلحة الدين وأهله ، فمن نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم ؛ جعل منهم ؛ وإن لم يحضر (المعركة) فإذا رأى الإمام إشراك من فيه منفعة المسلمين في الغنيمة جاز [3]، كما يجوز أن يفضل بعض الغانمين على بعض للمصلحة في أصح القولين ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل ، ويدل عليه إعطاء النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ، وكان شيئا كثيرا لا يحتمله الخمس " [4] ..

فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس في توزيع الغنائم أمر مباح وقد يكون مستحبا إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك ؛ وإن كان ذلك يزيد في غنائمهم عن بقية المسلمين ، ثم كثرت بعد ذلك الغنائم المجلوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه على نحو معروف ، وفضل أصحاب السابقة والقرابة من النبي ﷺ على من عداهم ، ولعله من الجدير بالذكر هنا أن بعض الصحابة تخوفوا من تدوين ذلك الديوان مثل أبي سفيان بن حرب الذي قال لعمر : أديوان مثل ديوان بني الأصفر (يعني الروم) ، إنك إن فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة ، فقال عمر : لابد من هذا ، فقد كثر فيء المسلمين [5]، ومعنى هذا أن عمر كان يقر أبا سفيان على تخوفه ، ولكنه لم يجد وسيلة أخرى يلقي بها عن نفسه تبعة هذه الأموال خيرا من هذه الوسيلة ، ورغم ذلك فإنه من

---

[1] الطبري : السابق 5/162ـ163

[2] د. فهمي عبد الجليل :السابق 69

[3] كما أشرك النبي (ص) عثمان بن عفان وطلحة في غنائم بدر وكانوا عنهما غائبين ..

[4] ابن رجب الحنبلي : الاستخراج لأحكام الخراج ص 26

[5] البلاذري : فتوح البلدان 444

الضروري أن نتذكر أن أعداد المسلمين زمن عمر كانت أقل بكثير من أعدادهم زمن الأمويين لما فتحت عليهم المشارق والمغارب ودخل في الإسلام أجناس شتى ، وأنه بعد أن فضل عمر من سبق إسلامه وشهد مع النبي غزواته وأزواج النبي وعمه وقرابته ؛ وكان عطاء هؤلاء متميزا وكثيرا، كان عطاء من تأخر إسلامه كأهل مكة وعامة الناس ثمانمائة درهم في العام[1] ؛ وقيل إنه لم ينقص أحدا عن ثلاثمائة [2] ، وهذه المبالغ لم تكن كبيرة بمقياس ذلك العصر ؛ ولكن كان أمرا جديدا على العرب فيه ضمان لهم ومعونة .

ويجب أن نلاحظ أن ذلك العطاء يعطى في الأصل للمجاهدين ، وكان الأمر كذلك في عهد عمر حيث كان المسلمون جميعا تحت طلب الجهاد في الساحات المفتوحة أمامهم ؛ ولذلك فإن عمر لم يعط لأهل مكة أحيانا عطاءهم ولم يضرب عليهم بعثا للجهاد وقال : كذا وكذا [3] ، أي أن هذا العطاء مقابل ذلك الجهاد ؛ وكان كذلك الحال في عهد عمر بن عبد العزيز الذي كتب إلى عامله أبي بكر بن حزم أن لا يفرض لتاجر ، فقال سليمان بن يسار الفقيه لما علم ذلك " أصاب عمر ؛ التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين [4] ، وجاء إليه القاسم بن مخيمرة فطلب منه قضاء دينه فقضاه ثم قال له : اغنني عن التجارة ، قال عمر: بماذا ، قال بفريضة ؛ ففرض له [5] ، وكان عمر ابن عبد العزيز يكتب إلى ولاته حين يخرج العطاء : " لا يقبل من رجل له مائة دينار إلا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل" [6] ؛ أي عدة الجهاد .

إن هذه المقدمة لابد منها لنفهم مدى شرعية ما نسب إلى الأمويين من أنهم كانوا يفرقون بين المسلمين في العطاء ، فيفضلون أهل الشام على من عداهم[7]، فقد كانوا أنصارهم المخلصين ، وهم عماد الجيوش المجاهدة سواء في الشمال في جهاد الروم ، أو في الغرب في فتوح إفريقية والأندلس ، وهم المحافظون على سلامة الدولة وقمع مخالفيها ، وكم استنجد بهم ولاة الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند المصر في الدفاع عن أنفسهم ونظامهم ؛ كما حدث في قتال ابن

---

[1] راجع أبا يوسف . الخراج ص 42 ــ 44

[2] البلاذري . السابق 441 وكذلك ألحق عمر الموالي بالعطاء وقال . " ومن أعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وان أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم في العطاء " ص 444

[3] السابق 444

[4] ابن سعد الطبقات الكبرى 346/5

[5] السابق : 349/5

[6] السابق :351/5

[7] د الخربوطلي تاريخ العراق 417ــ418 ، عمر أبو النصر الحضارة العربية 240)

الأشعث [١] ومواجهة ثورة يزيد بن المهلب زمن يزيد بن عبد الملك [٢] وكما حدث في انتقاض البربر الخوارج بإفريقية في عهد هشام [٣] ..

وذلك ضروري أيضا لفهم مبرر الأمويين في منع العطاء عن الثائرين وأنصارهم في بعض الفترات مثلما حدث حين قطع الوليد بن يزيد العطاء عن أهل الكوفة الذين أيدوا ثورة زيد بن علي ابن الحسين [٤] ، أو حين قطع الأمويين العطاء عن بعض خصومهم في بعض الأحيان ، كما يتردد في كتابات بعض المؤرخين فيوردون عن ذلك مبالغات غير مقبولة ولا صحيحة [٥] فقد كان قطع العطاء في ظروف كالسابق ذكرها ولفترات محدودة ؛ وليس من النصفة أن يطلب من الأمويين إعطاء الثائرين على الدولة [٦] مالا جعل في الأصل لنصرتها وللمجاهدين تحت لوائها ، كما أنه ليس من العدل أن يعطوا أناسا اشتغلوا بالحرف والتجارات واعتقاد الأموال عن الجهاد والغزو حيث لم يصبح كل المسلمين آنذاك في صفوف المجاهدين ، وهؤلاء لم يكن العطاء يمثل لهم آنذاك أهمية واضحة ؛ فما أقله في مقابل ما يربحون في حياتهم الجديدة ..

والتفرقة بين المسلمين في العطاء بحسب ولائهم وجهادهم كان أيضا سمة خصوم الأمويين الذين يحاربونهم ، فقد زاد علي بن أبي طالب وابنه الحسن عطاء جند العراق مائة درهم تشجيعا لهم على الصمود في وجه معاوية وجند الشام [٧] ، ولما تغلب المختار بن أبي عبيد على الكوفة وبيت مالها فرق أمواله بين أصحابه [٨]، ولما أرسل ابن الزبير إليه عبد الله بن مطيع ليتولى بدله ولاية الكوفة أراد المختار ــ الذي كان يخادع ابن الزبير ويدعي الولاء له ــ أن يصرف عنه عبد الله بن مطيع ، فأرسل إليه من يهدده إن قدم الكوفة ويعرض عليه بدل ذلك مائة ألف درهم ، فقبضها ابن مطيع بالبصرة؛ ولم يرجع إلى خليفته فيما يزعم الرواة [٩] ، وكذلك فعل المختار مع عمر بن عبد الرحمن بن الحارث الذي أرسله ابن الزبير إلى الكوفة بعد ما فشل مع ابن مطيع ؛ حيث رشاه المختار بسبعين ألف درهم

---

[١] الطبري : السابق 6 /٣٣٨

[٢] السابق 6 /٥٨٤-٥٨٥

[٣] راجع الفصل الخاص باهتمام الأمويين بالعصبية العربية

[٤] الطبري : السابق ١٩١/٧

[٥] راجع : زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 84/4ــ85 ، ومن ذلك زعمهم مثلا بأن معاوية كان لا يفرض عطاء لقيس ويفرض لليمن ، وقد سبق مناقشة ذلك ..

[٦] وهناك دائما فرق بين المعارضة والثورة كما مر بنا ..

[٧] الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص 64 ، الخربوطلي : السابق 414

[٨] الطبري : السابق 6 / ٣٣ ، ابن الأثير : الكامل 3/ 95

[٩] الطبري : السابق 6 /٣٣

. فأقام بالبصرة هو الآخر بجوار سلفة ابن مطيع [١]، ولما استولى مصعب بن الزبير على العراق جعل لأهلها عطاءين كل سنة أحدهما في الصيف والآخر في الشتاء [٢] ولما تولى الحجاج العراق فيما بعد أعاد العطاء إلى ما كان عليه فأنقصه مائة درهم عن كل فرد ، فأدى ذلك إلى ثورة عبد الله بن الجارود ضد الحجاج [٣] ، وقطع عبد الله بن الزبير العطاء — فيما يروى الرواة — عن أبي صخر الهذلي الشاعر لأنه كان مواليا لبني أمية وقال له : عليك ببني أمية فاطلب عندهم عطاءك [٤] ..

3. الإسراف في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار :

ويتعلق بما سبق إنفاق الأمويين الأموال ليتألفوا بذلك قلوب الزعماء والأشراف ويوطدوا أركان الدولة الإسلامية التي قامت بعد فترات من الصراع والتطاحن بين الفعاليات السياسية فيها ؛ من ذلك زيادة معاوية عطاء الحسن بن علي إلى مائة ألف درهم وما حباه به من جوائز وعطايا [٥] ؛ وجوائزه لأخيه الحسين ، وعطاياه لابني عمه ابن عباس وعبد الله بن جعفر [٦] كما أنه كتب لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم ، وبعث معه بذلك الكتاب إلى رياد ليحصل عليها منه ؛ ففض عمرو الكتاب وجعل المائة ألف مائتي ألف درهم [٧] ، وغير ذلك

ومن الواضح أن هؤلاء الأفراد لم يقدموا للدولة خدمات خاصة ، ولم يبلوا بلاء متميزا يستحقون معه هذه الأموال ولكن هذه العطايا في الحقيقة لم تكن لهؤلاء الرجال بصفاقم الشخصية ؛ فإن كثيرا منها كان يئول في نهاية الأمر إلى أفراد قبائلهم وأقارهم وأمصارهم التي يعدون هم قادهم ؛ ولذلك كان يزيد بن معاوية يقول لمن يلومه على إعطائه عبد الله بن جعفر أربعة آلاف ألف فيما يزعم الرواة : " ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده إلا عارية " [٨].

كما أن الدولة الأموية قد قامت بغير رضا جماعة من الزعماء والقادة ممن غلب في الصراع ضدها ، أو كان يحيك في صدره غضب منها ، أو انتقاص لرجالها ، وكان بعض هؤلاء الزعماء ممن يستجيب لدعاة الثورة عليها ، من شيعة أو خوارج أو غيرهم ، أو يستغل الثائرون اسمه ، فرأى

---

[١] البلاذري . أنساب الأشراف 243/5 ، الطبري السابق ٧١/٦-٧٢

[٢] البلاذري السابق :280/5

[٣] الطبري : السابق 6 / ٢١٠-٢١١

[٤] الأصفهاني . الأغاني 269/23 — 272

[٥] ابن كثير السابق 37/8 ، وزعم ابن أبي الحديد أن معاوية كان يعطي كلا من الحسن والحسين وابن جعفر وابن عباس ألف ألف درهم (شرح نهج البلاغة 251/15)

[٦] جرحي زيدان تاريخ التمدن 82/4 ، عمر أبو النصر · الحضارة العربية ص 246

[٧] الجهشياري : الوزراء والكتاب 24

[٨] كرد على الإسلام والحضارة العربية 161/2 — 162

معاوية ومن تبعه أن إراقة بعض المال خير من إراقة كثير من دماء المسلمين في ثورات الطامحين أو الساخطين ، فأعطى هؤلاء الرجال المال يستميل به قلوبهم وقلوب أتباعهم وأنصارهم ، ويعلي به مكانتهم ويسد خلة من وراءهم ، ولعله قد فهم من إعطاء الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويسل سخائم نفوسهم ، أنه يجوز أن يعطي أمثال هؤلاء الرجال ليتألف قلوبهم ويضمن ولاءهم ، والولاء للدين والدولة يختلطان في فهم معاوية وبني أمية حيث قامت دولتهم فيما اعتقدوا لنصرة الدين وجمع شمل أهله [1] ..

وأخيرا فان كان معاوية مخطئا في ذلك فما القول في هؤلاء الكبراء الذين قبلوا عطاياه وجوائزه ، وفيهم من اشتهرت تقواه وورعه !!

إن من الحق أن نقول أن المجتمع الإسلامي في ذلك العهد كان يشهد تغيرا كبيرا عن زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعالياته السياسية ترى أن من حقها التميز في العطاء .. وتعطي ولاءها على ذلك الأساس ، ولعل تجربة عبد الله بن الزبير في الحكم دليل على ذلك ، فقد كان أخوه مصعب في العراق يتألف قلوب زعماء القبائل بالأموال فنجح في ذلك نجاحا ملحوظا ، ثم جاء إلى أخيه بمكة بأموال عظيمة فقسمها في جماعة من قريش وغيرهم وبعث إلى عبد الله بن صفوان وجبير ابن شيبة وعبد الله بن مطيع وغيرهم بأموال كثيرة [2] ، وفي سنة ٧١ هـ جاء مصعب للقاء أخيه عبد الله بن الزبير مصطحبا معه جماعة من وجوه أهل العراق فقال : يا أمير المؤمنين قد جئتك بوجوه أهل العراق ـــ لم أدع لهم بها نظيرا ـــ فأعطهم من المال ، فقال عبد الله : " جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ؟ وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم"، فلما انصرف مصعب ومعه ذلك الوفد ؛ وقد حرمهم ابن الزبير ما عنده ، فسدت قلوبهم، فاجتمعوا فأجمعوا رأيهم على خلعه ، وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا [3] ، وهكذا تحول ولاء أهل العراق السياسي بحسب مصلحتهم المادية ؛ فكان كل فريق يرى أن يستعمل أموال المسلمين في تحقيق مصالح الأمة ، ومصالح الأمة هي في نصر ذلك الفريق من وجهة نظره ! حتى أصبحت حجج المعارضين لبني أمية في أنهم يستعملون أموال الأمة من أجل تحقيق أهدافهم السياسية غير مقنعة إزاء ما وقع فيه هؤلاء المعارضون أنفسهم في ممارستهم السياسية العملية ، مثلما رأينا من صنيع مصعب بن الزبير في العراق ؛ ومثلما حدث من نجدة بن عامر الحنفي ـــ أحد زعماء الخوارج ـــ الذين طالما نادوا بالمساواة والعدل بين المسلمين ، فقد منح نجدة " مالك بن مسمع "

---

[1] د. فهمي عبد الجليل : الأمويون والفيء 72 ـــ 73

[2] الطبري : السابق 150/6

[3] ابن عبد ربه : العقد الفريد 406/4 ، الإمامة والسياسة 65/2

احد زعماء قبيلة بكر بن وائل عشرة آلاف درهم ليضمن ولاءه ونصره فأثار ذلك غضب أصحابه [١] . *غير أننا وإن تحسسنا الحجة لهذا الفريق أو ذاك في مثل ذلك التصرف لا تستطيع أن نقره أو ندعي مشروعيته المطلقة ، وبخاصة حين نرى استمرار ذلك التصرف المالي في الفترات التالية التي استقرت فيها أمور الدولة ، واختفت الفتن الكبرى ، وأنه ظل يخضع لتقديرات الخلفاء والولاة الذاتية دون ضوابط أو قواعد محددة ..*

ـــ إعطاء الشعراء :

واستعان الأمويون بالشعراء فأجزلوا لهم العطاء يتألفونهم بذلك ، ويجندون لهم ألسنة حدادا ، وجهازا إعلاميا مقتدرا ، ولهم في إعطائهم الشعراء حجة شرعية ، فمعروف أن النبي ﷺ لما امتدحه كعب بن زهير خلع عليه بردته ، وكان يشجع حسان بن ثابت على نصر الدعوة بلسانه ، ويطري صنيعه ، والعرب منذ قديم مغرمون بالشعر ويعطون عليه ما لا يعطون على سواه ؛ وقد روى أن علي بن أبي طالب أجاز شاعرا مدحه بمائة دينار وحلة[٢]. ولما تفشت مظاهر الترف في المجتمع الإسلامي في ذلك العهد وكثرت الأموال أسرف بعض الخلفاء والولاة وأشراف الناس ، وبعض خصوم الأمويين أيضا ، في إعطاء الشعراء وتقريبهم ، ومشهورة عطايا عبد الملك بن مروان ويزيد ابن المهلب وخالد القسري وغيرهم من خلفاء الأمويين وولاتهم للشعراء ، ومعلوم أيضا مدى تنافس الأحزاب السياسية آنذاك في تجنيد هؤلاء الشعراء لهم ، وأنهم أصبحوا إحدى وسائل الصراع السياسي آنذاك ، ولا يشذ عن هذا السبيل إلا عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد الذي رفض السير في هذه الطريق ورفض إجازة الشعراء من بيت المال ، وقصر عطاءهم على مالهم من حقوق مالية مقررة [٣]

ـــ مظاهر الترف عند الأمويين :

ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا، والحق أنه كان عندهم لون من ألوان البذخ في سكناهم وفى لباسهم وفى عطائهم ونفقاتهم ، ولقد لفت معاوية نظر عمر بن الخطاب إليه ؛ وهو بعد أحد ولاة الشام ؛ يغدو في موكب ويروح في آخر [٤] . ولكن من الحق أيضا ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربي والإسلامي آنذاك ، فهي جزء منه ، تتأثر به كما تؤثر فيه ، وفى ذلك العصر كان التطور الاجتماعي يتلاحق ، ومظاهر الغنى والنيال

---

[١] اليعقوبي السابق 273/2

[٢] ابن كثير البداية والنهاية 8/8

[٣] الأغاني دار الكتب 19 /209 ـــ 210

[٤] راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب في فصله الأول

الأموال والرغبة في التمتع الحلال به تصبح أمرا ظاهرا يدفع بالذوق العربي والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع .. وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة عن زهد معاوية ورقة ثيابه [1] أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع [2] ؛ فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك ، بل هي دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصا ، ولا ترى التنعم حراما ..

وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة إلى وجوه الإنفاق المالي في ذلك العصر لا نجد مظاهر الترف والبذخ قصرا على بني أمية ؛ خلفائهم وولاتهم ، فبعض العلويين والزبيريين وغيرهم من معارضي الأمويين لم يكونوا أقل سماحة بالمال من بني أمية ولا أكثر حرصا عليه ..

فقد قيل إن الحسن بن علي ربما أجاز الرجل الواحد بمائة ألف درهم [3] ، وأعطى شاعرا مدحه عشرة آلاف درهم [4]، وأنه كان مزواجا مطلاقا [5]، حتى إنه طلق امرأتين في يوم واحد ومتع كل واحدة بعشرة آلاف درهم [6] ، ولما هزم المختار الثقفي عبد الله بن مطيع واستولى على الكوفة أمر له بمائة ألف درهم ، وحفظ فيه قرابته لابن عمر صهر المختار [7] ، وقد مضت بنا صور لإنفاقه الأموال ، أما مصعب بن الزبير فإنه لما هزم المختار أعطى لمن قتلاه ثلاثين ألف درهم [8] ، ومشهور أن مصعبا أصدق امرأتيه سكنية بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ألفي ألف درهم حتى شكاه أحد المغتاظين لأخيه عبد الله ابن الزبير قائلا :

بضع الفتاه بألف ألف كامل ... وتبيت قادات الجيوش جياعا

لو لأبي حفص أقول مقالتي ... وأبث ما أبثثكم لارتاعا [9]

وكان من أثرياء العرب من تبلغ نفقاته وبذخه نفس الدرجات السابقة ، فيروى عن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب في ذلك أخبار عجيبة [10] ، وقد مدح أحد الشعراء طلحة الطلحات الخزاعي فأجازه

---

[1] ابن حنبل : الزهد 172 ، الخطيب : هامش العواصم 217

[2] الطبري : السابق 289/5 ـ 290

[3] ابن كثير: السابق 37/8

[4] البلاذري أنساب الأشراف 24/3

[5] قيل إنه أحصن سبعين امرأة (ابن كثير: السابق 38/8) وقيل بل تسعين امرأة (البلاذري السابق 25/3) ، وهي مبالغات لا بد أن لها أساسا تعتمد عليه ..

[6] ابن كثير : السابق 38/8 ، أبو نعيم : الحلية 38/2

[7] الدينوري : الأخبار الطوال ص 292 ، والرقم الذي يذكره هو مائة ألف ألف درهم وربما تعرض للتحريف ، وقد مر بنا أن المبلغ ـ كما أورده الطبري ـ كان مائة ألف درهم ..

[8] الدينوري : الأخبار الطوال 308

[9] الأغاني 357/3 ، وأبو حفص هو عمر بن الخطاب؛ انظر 170/11

[10] السابق 217/12 ـ 218

بأربعين ألف درهم وحجر من ياقوت [١]، وأجاز عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب أحد الشعراء بعشرة آلاف درهم ، وقضى دينه بعشرة آلاف أخرى [٢] ..

وكان من النساء من تضارع الرجال في بذخهم مثل سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة التي كانت تحج ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل [٣].

وإذا كان بنو أمية قد ابتنوا القصور فقد بنى رجال من أشراف العرب أيضا قصورا كان لها ذكر وبهاء [٤] .. لقد كان العرب يعدون ذلك كرما ، ويتفاخرون به ، ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرافهم ؛ وان لم يكن حاكما ، بل إن بعض المؤرخين لما يتحدث عن كرم الأمويين ينفي عنهم هذه الصفة ، ويقارن بين ما عرف عن كرم ملوكهم وكرم ملوك بنى العباس ؛ فيرى أن بنى أمية يفتضحون عند المقارنة فضيحة ظاهرة ، ويرى أن نساء خلفاء العباسيين أكثر معروفا من رجال بني أمية ، ويضرب على ذلك الأمثلة ! بل يرى أن مواليهم وكتابهم أكرم من الأمويين ، وأن لكل واحد من هؤلاء (الموالي) ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس [٥] ، وكان عديد من بني أمية موسرين أصحاب تجارات وعبيد وضياع ؛ وإن لم يتولوا خلافة أو ولاية ، على أنه لم يكن معروفا في ذلك العصر تحديد مرتبات خاصة بالخلافة ، وإن كنا نعرف أن المرتب الذي فرضه عمر بن الخطاب لمعاوية على عمله بالشام كان ألف دينار في السنة ، وهو أكبر من المرتب الذي خصصه المسلمون لأبي بكر وهو خليفة إذ لم يعد ستمائة دينار [٦] .. كما سوف نرى أن مرتبات الولاة والقضاة كانت كبيرة ، وكثير من هؤلاء كانوا من الأشراف المعروفين بالغنى واليسار أو الوجاهة الاجتماعية ، فكان الكرم من هؤلاء وأولئك أمرا متوقعا ومنتظرا ..

ـ مصارف شرعية لتحقيق أهداف الرعية :

مما يجب إبرازه في هذا المجال ما شهده العصر الأموي من زيادة كبيرة في النفقات التي وظفت في تحقيق مصالح الأمة ... ومن ذلك تعبئة طاقات الأمة وموارد الدولة من أجل الدفع بحركة الفتوح الإسلامية قدما إلى ساحات جديدة ، صحيح أن كثيرا من هذه الحروب كانت تعود على

---

[١] السابق 82/13

[٢] السابق : 51/12ـ52

[٣] السابق : 177/11

[٤] راجع ما سيلي في الفصل التالي ..

[٥] ابن أبي الحديد شرح النهج 52/15 حيث يروى ذلك عن الجاحظ.

[٦] د الريس الخراج ص 200 وراجع المقريزي الخطط 95/1

خزينة الدولة بالغنائم الوفيرة ، ولكن من المؤكد كذلك أن بعضها كان يحتاج نفقات هائلة وإعدادا عظيما [١] ، وأن قادة هذه الحروب وأبطالها كانوا ينالون عناية الخلفاء والولاة وجوائزهم [٢]..

كما شهد العصر الأموي توسيعا في دائرة العطاء ، حيث زادت أعداد المسلمين وتضخمت أعداد الجنود الفاتحين ، وقد رووا أن معاوية كان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب في مصر رجلا يدور في المجالس كل يوم فيسأل الناس : هل ولد فيكم مولود ، هل نزل بكم نازل ؟ ويأخذ أسماء هؤلاء إلى الديوان لتسجل به ، ويفرض لهم العطاء [٣].. كما زاد الأمويون عطاء الجند في بعض فترات دولتهم مثلما حدث حين زاد يزيد بن معاوية أصحاب العطاء في الكوفة من سبعين ألفا إلى ثمانين ألفا ، وزيادة عدد العمال الذين التحقوا بخدمة الدولة من تسعين ألفا إلى مائة وأربعين ألفا [٤] ..

وقد مر بنا أن الأمويين كانوا مضطرين في بعض فترات دولتهم إلى تأليف قلوب كثير من الزعماء والمعارضين والمتربصين بهم، ونذكر هنا أن الوليد بن عبد الملك كان يخصص الرزق للفقهاء، والضعفاء والفقراء ، ويحرم عليهم سؤال الناس ، ويفرض لهم ما يكفيهم ، كما فرض للعميان والمجذومين [٥] ؛ وكذلك فرض سليمان بن عبد الملك لثمانية آلاف رجل من قريش وحدها [٦] ؛ ولما ولي الوليد بن يزيد أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم ، وكساهم ، وأمر لكل إنسان بخادم ، وزاد الناس جميعا في العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة [٧] ، أما يزيد بن الوليد فقد فرض لثلاثين ألفا من أهل مصر لم يكن لهم عطاء في الديوان [٨] ..

وحتى عمر بن عبد العزيز الذي عرف بالحرص الشديد على بيت المال والاقتصاد في النفقات لم يشذ عن هذا الاتجاه ، فقد جعل مرتب العامل من عماله ثلاثمائة دينار ، ولما سئل عن ذلك قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة [٩] ، وقيل إنه كان يرزق الرجل من عماله مائة دينار ومائتي دينار في الشهر وأكثر من ذلك ، فلما حدثه بعض أصحابه في ذلك قال : أراه لهم يسيرا إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ، وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بمعايشهم ، وقال : ما طاوعني الناس على ما أردت

---

[١] راجع المبحث الخاص بالفتوحات الإسلامية .

[٢] راجع عن جوائز الحجاج لآل المهلب بعد فراغه من حرب الأزارقة سنة 78هـ ، الطبري : السابق319/6)

[٣] ابن عبد الحكم : السابق 146

[٤] الطبري : السابق 504/5

[٥] الطبري : السابق 496/6 ، السيوطي تاريخ الخلفاء 224

[٦] اليعقوبي : السابق ٢٩٨/٢

[٧] الطبري : السابق 217/7 ــ 218

[٨] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٩٢/١

[٩] ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز 46

من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئا [١] ، وكان له ثلاثمائة شرطي وثلاثمائة حرسي يأخذون عطاءهم [٢] .. كما توسع الأمويون في إفاضة المال على غير من سبق من عمالهم حتى كان قاضي مصر مثلا يرزق ألف دينار في السنة ، فقد كان ابن حجيرة الأكبر على القضاء والقصص وبيت المال بمصر (69 ـ 83 هـ) فكان رزقه من القضاء مائتي دينار ، ومن القصص مائتي دينار ، ورزقه من بيت المال مائتي دينار ، وكان عطاؤه مائتي دينار وجائزته مائتي دينار[٣].

وسوف نرى فيما بعد أن نصيبا لا بأس به من الأموال كان يوجه لرعاية الحركة العلمية والثقافية وترجمة تراث فارس والروم ورعاية العلماء والحدب عليهم [٤] ، وظفرت الناحية الزراعية باهتمام الخلفاء والولاة الأمويين الذين أنفقوا مبالغ طائلة في حفر الأنهار والترع واستصلاح الأراضي الزراعية [٥] .. ونشير من كل الإنجازات الأموية في هذا المجال إلى ذلك النموذج عن خلافة هشام بن عبد الملك حيث قام واليه على الموصل بإنشاء مشروع رئيس لجر المياه عبر المدينة ، وذلك بحفر قناة متفرعة من نهر دجلة مارة في المدينة ، تبنى عليها ثماني عشرة طاحونة كلفتها ثمانية ملايين درهم، وتم إنجاز المشروع بعد خمس عشرة سنة عام 121 هـ ، ومما يذكر أن عدد العاملين فيه كان نحو خمسة آلاف رجل ، ومما يؤكد الأهمية التي كانت معلقة على هذا المشروع أنه نفذ في وقت كانت الخزينة فيه رازحة تحت ضغط مواجهة الأخطار الخارجية ، ولابد أن هشاما أدرك تأثيرات الازدحام السكاني في هذه المنطقة ، فحاول معالجة الموقف بمشروع إنتاجي طويل المدى يحسن مجالات استخدام السكان المحليين على الأقل [٦] ..

---

[١] محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 181/2 وانظر ابن كثير : السابق 202/18ـ203

[٢] ابن كثير : السابق 202/9

[٣] محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية 171/2

[٤] كما سيأتي قريبا

[٥] د. الخربوطلي : تاريخ العراق 339 ـ 341

[٦] د. شعبان : صدر الإسلام والدولة الأموية 165 ـ 166 ، وانظر أبا زكريا الأزدي تاريخ الموصل 18/2 ، 24 ، 26 ، 32 ، 43 .

المبحث الثالث

حرص الأمويين على أموال الدولة

إن روايات عديدة تدل على حرص الأمويين خلفاء وولاة على الحفاظ على مبادئ العدالة في جباية الأموال ، والرفق بالرعية ، والرغبة في الحفاظ على مال الدولة ، وذلك على غير ما يشيع في كتابات المؤرخين عنهم ..

ولقد مر بنا ما رواه ابن تيمية من أن معاوية كان يوزع على رعيته ما فضل من مال بعد أعطياتهم ويقول : " فإنه ليس بمالي ، وإنما هو مال الله الذي أفاءه عليكم " [1] ، ولما مات معاوية أوصى في مرض موته بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال ، وكأنه أراد بذلك أن يطيب له الباقي ؛ لأن عمر بن الخطاب كان يقاسم عماله [2] ..

وكان عامله على العراق زياد بن أبي سفيان يختار كتاب الخراج من الموالي الخبيرين بطرق جبايته ويقول :" ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم " [3] ، وكان ابنه عبيد الله لا يستعين بالعرب في أعمال الخراج ، فلما عاتبوه على ذلك قال :" كنت إذا استعملت الرجل من العرب انكسر الخراج ؛ فإن تقدمت إليه أوغرت صدور قومه ، أو أغرمت عشيرته أضررت بهم ، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأهون في المطالبة منكم ، مع أني جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحدا " [4] ..

ولما استعمل ابن زياد حارثة بن بدر على جنديسابور [5] ؛ غاب عنه أشهرا ثم قدم فدخل عليه ، فقال له ابن زياد : ما جاء بك ولم أكتب إليك ، قال : استنظفت خراجك وجئت به ، وليس لي بها عمل ، فما مقامي ؟ قال : أو بذلك أمرتك ؟ ارجع فاردد عليهم الخراج ، وخذه منهم نجوما حتى تنقضي السنة وقد فرغت من ذلك ، فإنه أرفق بالرعية وبك ، واحذر أن تحملهم على بيع غلاتهم ولا مواشيهم ولا التعنيف عليهم " ، فرجع ففعل ذلك [6] ..

---

[1] منهاج السنة 185/3

[2] الطبري : السابق 327/5

[3] اليعقوبي : السابق 295/2

[4] الطبري : السابق 5 / 523

[5] جنديسابور : إحدى مدن خوزستان افتتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ٣/١٤٩-١٥٠

[6] الأصفهاني : الأغاني 488/23

وذكر جماعة من الرواة أن عبد الملك بن مروان كان " شديد اليقظة ، كثير التعاهد لعماله ، فبلغه أن عاملا منهم قبل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال له أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين بلادك عامره ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم ، فقال عبد الملك : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ، ولئن أنلت مهديك لا من مالك ، أو استكفيته ما لم يكن يستكفاه إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدي إليك من مالك ؛ وقبلت ما اتهمك به عند من استكفاك (أي الخليفة) ، وبسط لسان عائبك ، وأطمع أهل عملك ؛ إنك لجاهل ، وما فيمن أتى أمرا لم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، نحياه عن عمله "[١].

وقيل إن الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد، فمنعه الخليفة من ذلك ، وكتب إليه : " لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما "[٢] ..

وكان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر منذ سنة 64 هـ " فكان خراجها وجبايتها إليه "[٣]، فلما مات لم يوجد له مال نض (أي من الدراهم والدنانير) إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته عليها ما يقرب من إحدى وعشرين سنة[٤] ، ولما مات أرسل عبد الملك الضحاك بن عبد الرحمن إلى مصر ليقاسم كاتب عبد العزيز ماله[٥] ، ولعله حاك في صدره شيء من إنفاق أخيه الذي اشتهر بكرمه الفياض ، وأراد أن يطهر له ماله بمقاسمته على نحو ما صنع معاوية آنفا .

وعزل الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر لما شكاه بعض أهلها ، فخرج عبد الله من مصر بكل ما يمتلك من الأموال فتلقته رسل الوليد في الأردن فأخذوه إلى الخليفة

---

[١] الجاحظ : البيان والتبيين 275/3 ــ 276 ، المسعودي : مروج الذهب 125/3 ، الجهشياري : الوزراء والكتاب 43ــ44

[٢] الماوردي : الأحكام السلطانية 190

[٣] ولا يعني ذلك أنها كانت طعمة له كما فهم د. حسن إبراهيم (تاريخ الإسلام السياسي 300/1) ، وكما نص ابن كثير : السابق ٢٩/٩ ، من أن خراج مصر والمغرب ومتاعهما كانت لعبد العزيز ، بل يعني أنه كان أميرا على الصلاة والخراج معا ، ولا يعقل أن يترك عبد الملك خراج مصر لأخيه عشرين سنة وهو في أمس الحاجة إليه وبخاصة أيام مواجهته العصبية للزبيريين الذين كانوا يسيطرون على بقية العالم الإسلامي عدا الشام ومصر ، ومن المعروف أنه كانت بينهما خلافات أواخر حياتهما حيث كان عبد الملك يرغب في أن يتنازل أخوه عن ولاية العهد لولده الوليد ، ولو كانت مصر طعمة لعبد العزيز لهدده بحرمانه منها وهو ما لم يذكره أحد..

[٤] الكندي : ولاة مصر وقضاتها 49

[٥] الجهشياري : السابق 34

وأحاطوا بجميع ما كان معه من أموال لما ظن الوليد أن فيها غصبا أو رشوة [1] ، وكان الوليد قد عين بدله قرة بن شريك ، الذي كان حريصا على الخراج بعيدا عن الرشوة ، عظيم المراقبة لعماله [2] ..

وفى سنة ٩١ هـ قدم محمد بن يوسف الثقفي ـ أخو الحجاج ـ من اليمن بهدايا عظيمة، فأرسلت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد ، وبنت عمه ، فطلبتها منه ، فقال محمد ابن يوسف : حتى يراها أمير المؤمنين ، فغضبت ، ثم رأى الوليد هذه الهدايا وبعث بها إلى زوجته المغضبة فلم تقبلها ، وقالت : قد غصبها من أموال الناس ، فسأله الوليد ؛ فقال : معاذ الله ، فأحلفه الوليد بين الركن والمقام خمسين يمينا ؛ ما ظلم أحدا ، ولا غصبه ، حتى قبلتها أم البنين [3] ..

ولما مات محمد بن يوسف هذا كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يقول : إنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار ، فإن يكن أصابها من حلها فرحمه الله ، وإن تكن من خيانة فلا رحمه الله ، فكتب إليه الوليد : أما بعد ، فقد قرأ أمير المؤمنين كتابك فيما خلف محمد بن يوسف، وإنما أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له ، فترحم عليه ، رحمه الله[4].

وامتد حرص الحجاج على موارد الدولة إلى أن سجن صهره مالك بن أسماء بن خارجة لما اتهمه في خيانة ظهرت عليه ، حتى أشفق أبوه أسماء من الوساطة له عند الحجاج كي يطلقه ، وهو يعرف صلابته [5] ، كما عزل الحجاج صهره الآخر يزيد بن المهلب عن خراسان لما اتهمه بتبديد أموال الفيء في مظاهر الكرم والسخاء وطالبه وإخوته بستة آلاف ألف درهم ، وبسط عليهم العذاب ، ولم يبال بنواح زوجته هند بنت المهلب لما سمعت صراخ أخيها من الألم ، ثم كسف عنهم العذاب لما بدءوا يؤدون بعض ما عليهم، ولكنهم هربوا من سجنه ولحقوا بالشام حيث استجاروا بسليمان بن عبد الملك الذي أجارهم وضمن عنهم ما بقي عليهم من أموال الفيء [6]..

ولما تولى سليمان الخلافة تتبع بعض الولاة السابقين يستخرج منهم ما ظن أنهم اختلسوه من أموال ، ومنهم خليفة الحجاج يزيد بن أبي مسلم ، الذي أسلمه إلى غريم الحجاج ابن المهلب ليستأدى منه الأموال ، فشهد له ابن المهلب بالأمانة ، رغم كراهيته المتوقعة له ، وقال لسليمان : يا أمير المؤمنين ، أنا أعلم به ، لا والله ما عنده مال ، ولا كان ممن يحوي المال " [7] ..

---

[1] الكندي : السابق 55 ، ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة 210/1 ـ 211

[2] أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية 3/ 3 ـ 43

[3] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 222/1 ـ 223 ، الطبري : السابق 498/6

[4] المبرد : الكامل 305/1 ، وإن صدق ذلك ففيه مخالفة لمنهج الراشدين إذ في اشتغال العامل بالتجارة أثناء عمله شبهة استغلال النفوذ ..

[5] الأصفهاني : الأغاني 159/17 ـ 160

[6] الطبري : السابق 448/6 ، 451 ، انظر ابن أعثم الفتوح 208/7 ـ 209

[7] اليعقوبي : السابق 33/3

وكان عبد الله بن رفاعة عامل سليمان على مصر عفيفا يقول : " إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق " [1] ، كما كان عامله على مصر فيما بعد أسامة بن زيد التنوخي " لا يرتشي درهما ولا دينارا " [2] ..

وفيما بعد حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب بعد أن عزله عن خراسان طالبا منه أداء أموال كان قد أرسل إلى سليمان بن عبد الملك أنه غنمها في بعض المعارك ، وظل في حبسه حتى تمكن من الهرب ، ومضى ليثور على الأمويين بالعراق أوائل خلافة يزيد بن عبد الملك.

وقد مر بنا أن هشام بن عبد الملك عزل عامله عن العراق خالد بن عبد الله القسري وطالبه بأموال متأخرة من خراج العراق ، واستخرجها منه الوالي الجديد يوسف بن عمر الثقفي ..

وبصورة عامة يذكر المؤرخون أن الخلفاء الأمويين " كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد أن يأخذ كل ذي حق حقه " [3] ..

وهكذا تتكاثر الأدلة على حرص بنى أمية وعمالهم بوجه عام على موارد الدولة الإسلامية وحقوق بيت المال ...

---

[1] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 231/1

[2] السابق 232/1

[3] أخبار مجموعة في فتح الأندلس 22 ـ 23

الفصل السابع

منجزات حضارية في العصر الأموي

مقدمة

لقد رأينا فيما سبق من صفحات هذا الكتاب مدى التطور الذي أصاب المجتمع الإسلامي قبيل قيام الدولة الأموية ، وكيف واصل ذلك المجتمع طريقه إلى مزيد من التطور بعد قيامها ، ولقد كانت سمة الأمويين البارزة هي هذه الواقعية التي تواكب حركة الأحداث وتتفاعل معها ، ولذلك فإننا نراهم ـــ في معظم أحوالهم ـــ يسايرون سنن ذلك التطور ، بل يستشرفون من أطر العمل والإدارة ما يتناسب مع متطلباته .. ونستطيع أن نلمح من هذه الأطر جوانب ثلاثة ؛ أولها : تلك المنجزات الإدارية من تطوير دواوين الدولة ؛ باستحداث بعضها وتعريبها ؛ في أخطر حدث ثقافي شهده تاريخ الإسلام في هذه الفترة ، وتوحيد العملة المالية للدولة بعد تعريبها ، وثانيها : ذلك الشغف العجيب بالعمارة والبناء ؛ الذي ظهرت آثاره في بناء المدن وعمارة البلدان وبناء القصور الفخمة وتشييد المساجد الكبيرة ، وثالثها : تشجيع النهضة العلمية والثقافية والدفع بها إلى آفاق رحبة لم يعرفها العرب من قبل .. وسوف نحاول فيما يلي إلقاء مزيد من الضوء على هذه الجوانب ..

المبحث الأول

منجزات حضارية في مجال الإدارة

أدار الأمويون دولة شاسعة المساحة ممتدة الأطراف تتعدد أجناس سكانها وتختلف مطامحهم ورغباتهم ، كما تختلف أنماط إداراتهم الموروثة ، وكان يجب على الأمويين إدارة هذه البلاد بطريقة تحقق أهداف الدولة وأهداف الأقاليم معا ، وتحفظ سيطرة الخلافة في وقت يتربص بها فيه أعداء كثيرون وتشتد طموحات القادة والولاة ، ولما كانت أساليب الإدارة المعهودة عند العرب آنذاك قد وضعت لإدارة أمة أبسط من ذلك بكثير ؛ فقد كان لزاما على الأمويين ابتكار أساليب جديدة ، وتطوير القديم منها ليوائم الأوضاع الجديدة .. وعلى ذلك فقد أنشأ الأمويون بعض الدواوين ؛ وطوروا أداء بعضها الآخر .. كما واجه الأمويون حاجات الدولة المادية والمعنوية التي تهدف إلى الإحساس بالسيادة والمجد ؛ فعمدوا إلى استحداث الوسائل التي ضبطت الأداء المالي وأسهمت في نشر العروبة والإسلام معا ..

١-إنشاء ديوان الخاتم :

وقد أنشأ معاوية بن أبي سفيان ﷺ ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة فلا تطلع عليها عين جاسوس ، ولا تصل إليها يد خائن .. ويروى في سبب تفكير معاوية في ذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم يصرفها له زياد بن أبيه في بالكوفة ، ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين ، ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية ، وطالب بها عمرا وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله ، واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم [1] ..

وديوان الخاتم " عبارة عن الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو الحزم ، وقد يطلق على مكان جلوس هؤلاء الكتاب .. والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب ، وإما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل الشرق ، وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه ، فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك .. فيرسم النقش في الشمع، وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على

---

[1] ابن خلدون المقدمة ٧٧/٢ ، الطبري السابق ٣٣٠/٥ ، ابن طباطبا : الفخري ص ١٠٧

مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس في مذاق من الطين معد لذلك صبغه أحمر ، فيرسم ذلك النقش عليه "[١] ..

ويضيف ابن طباطبا مزيد بيان لمهمة ذلك الديوان فيقول: " ومعناه أن يكون ديوان وبه نواب ، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان ، وأثبت نسخته فيه ، وحزم بخيط وختم بشمع "[٢].. وبذلك " لا تخرج التوقيعات بدون ختم ، فلا يعلم ما تحتوى من أسرار غير الخليفة ، حتى لا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير"[٣] ..

٢-إنشاء ديوان البريد :

وأتم الأمويون إشرافهم على إدارة البلاد التابعة لهم باقتباس نظام البريد من البيزنطيين ، وكان معاوية واضع أسس هذا النظام الذي ظل يتطور طيلة العصر الأموي ، واستخدم البريد في نفس الأغراض التي اتبعت أيام البيزنطيين ؛ إذ اقتصر البريد على خدمة مصالح الدولة لا لتصريف شئون الأفراد والناس[٤]..

والمراد بالبريد أن تجعل خيل مضمرات في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة[٥]..

ويشير القلقشندي إلى أن هدف معاوية من وضع نظام البريد هو أن تسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها[٦]، وقد استطاع ذلك النظام أن يقوم بالمهمة المنوطة به ؛ فقد كان " يكفل للدولة الحصول على أدق المعلومات ، وتوجيه التعليمات في آفاق الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، كما كان يساعد الخليفة على الوقوف على تصرفات عماله ، وينقل للخليفة أفكار المعارضة وأقوالها وتصرفاتها ، ولذلك كانت تناط بديوان البريد أيضا مهمة مراقبة الولاة والمعارضة ..

ويبدو أن ديوان البريد وصل إلى درجة كبيرة من الإحكام في خلافة هشام بن عبد الملك[٧]، حيث يصف صاحب كتاب " الإمامة والسياسة " استقرار الأمر في أرجاء البلاد بقوله : " فصارت

---

[١] ابن خلدون المقدمة 707/2

[٢] ابن طباطبا : الفخري ص 107

[٣] د. محمد نبيه حجاب : الدعاية السياسية في العصر الأموي ص 127

[٤] د. العدوى :الأمويون والبيزنطيون ص 238

[٥] ابن طباطبا : : الفخري ص 106 ، د. حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظم الإسلامية ص 210

[٦] القلقشندى : صبح الأعشى 368/14 ، وانظر أبا هلال العسكري : الأوائل ص 237 حيث يذكر أن معاوية أول من وضع البريد .

[٧] د. حجاب الدعاية السياسية في العصر الأموي ص 129

البلاد المتباينة الشاسعة كدار واحدة ، فلا خبر يكون ، ولا قصة تحدث من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وهو يتحدث به في الشام ، وينظر فيه هشام " [١] ، ويعقب الدكتور نبيه حجاب على ذلك بقوله " ومهما يكن في هذا القول من مبالغة إلا أنه يعطي صورة تمكننا من القول إن جهاز الاستخبارات كان من الأجهزة الهامة في الدولة ؛ وكان تطرق الخلل إلى هذا الجهاز في أواخر الدولة من الأسباب التي أدت إلى سقوطها كما اعترف بذلك أحد أفراد البيت الأموي حيث قال : وكان زوال ملكنا استتار الأخبار عنا ، فزال ملكنا منا بنا "[٢]..

وقد أدخل بعض الخلفاء تطورا إيجابيا على نظام البريد، بحيث يقوم بالأعمال الطارئة المتعلقة بأمن الدولة وسلامتها ، والخدمات السريعة العاجلة، فقد استخدم عبد الملك البريد في نقل قوات جيشه من الشام على وجه السرعة إلى أماكن الاضطرابات ؛ ففي ثورة ابن الأشعث أرسل عبد الملك قواته من الجند على خيل البريد ، فكانوا يصلون من مائة ومن خمسين وأقل من ذلك وأكثر [٣]؛ كما كان الوليد بن عبد الملك يحمل على خيل البريد الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق [٤] ..

٣- تعريب ديوان الخراج:

وديوان الخراج هو الديوان الذي يحوي أسماء الأراضي ومقدار محاصيلها ومقدار الخراج الموضوع عليها [٥] ، وقد ظل ذلك الديوان بعد الفتح على الحال التي كان عليها قبل الفتح ، فكان ديوان العراق يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالقبطية ، وكان يتولى هذه الكتابة كتاب من الفرس أو الروم من أهل هذه اللغات [٦]...

وهكذا كانت حسابات الدولة في يد مجموعة من صغار الموظفين القادرين على التزوير والتلاعب فيها [٧] ، وكان ذلك أمرا تضطر إليه الدولة الإسلامية لما كان يكتنف هذا العمل من مصاعب ، وبمضي الزمن وجد بين المسلمين والعرب من يتقن لغة البلاد المفتوحة مع إتقانه العربية ،

---

[١] الإمامة والسياسة 118/2

[٢] د. نبيه حجاب : السابق ص 129

[٣] الطبري : السابق 339/6

[٤] القلقشندي : صبح الأعشى 368/14

[٥] د. العش : الدولة الأموية 232

[٦] ابن خلدون : المقدمة 676/2

[٧] الخربوطلي : تاريخ العراق 384

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

فأصبح من الممكن محاولة تعريب هذه الدواوين لتكون تحت بصر الحكومة الإسلامية ومراقبتها في أدق شئونها ...

ولا ريب أن ترجمة هذا الديوان إلى اللغة العربية أمر صعب جدا ، فهو لا يقتصر على نقل الأرقام إلى العربية ــ والأرقام كبيرة جدا لم تعتد عليها اللغة العربية بعد ــ بل يجب أن تنقل أسماء المناطق والأشخاص الذين يقومون على الأراضي ، وكانت أسماؤهم أجنبية لأنهم غير عرب [١] ..

وكانت الصعوبات تتلاشى في عهد عبد الملك بن مروان الذي تنبه جيدا إلى ضرورة تعريب هذه الدواوين وتذليل المصاعب التي تواجه ذلك العمل العظيم ... وكان العرب في ذلك الوقت قد أخذوا يألفون أسماء الأشخاص الأجانب ، وأحدثوا المقابل باللغة العربية للأماكن والأراضي ، وبقيت صعوبة تعريب الأرقام والحسابات .. وهذا ما اقتضى رجالا نابغين يتولون تحقيق ذلك الأمر [٢] .. ومن هؤلاء سليمان بن سعيد والي عبد الملك على الأردن الذي كلفه الخليفة بنقل ديوان الشام إلى العربية ، وكان عملا عسيرا استغرق سنة كاملة كي يتمه [٣] ، ويدلنا المبلغ الذي رصده عبد الملك مكافأة لسليمان على اهتمام الخليفة بذلك العمل ؛ فقد خصص له خراج الأردن لمدة سنة كاملة ؛ أي مبلغ مائة وثمانين ألف دينار [٤] ..

أما في العراق فقد وجد الحجاج ضالته في صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم الذي كان معاونا لعامل الحجاج على الخراج زادان فروخ ، فلما قتل زادان فروخ في فتنة ابن الأشعث تولى عمله صالح الذي استطاع نقل ذلك الديوان من الفارسية إلى العربية ، وقد كان ذلك عملا مجيدا دفع فيما بعد عبد الحميد بن يحيى الكاتب ــ كاتب مروان بن محمد ــ أن يقول : " لله در صالح ، ما أعظم منته على الكتاب " [٥] ..

وفيما بعد نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية أثناء ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة أخيه الوليد سنة 87 هـ [٦].

وبذا تكون الدواوين في أعظم الأمصار الإسلامية خطرا قد أصبحت عربية ، ولن يضر أن تتأخر بعض دواوين الدولة في عملية التعريب ، ريثما تتكون عندهم الكفاءات القادرة على القيام

---

[١] العش : الدولة الأموية ص 232

[٢] السابق والصفحة

[٣] ابن خلدون : المقدمة 677/2

[٤] العش : الدولة الأموية ص 232

[٥] البلاذري : فتوح البلدان 298 ، ابن خلدون : المقدمة 677/2 وكان ذلك فيما يرجح د . الريس (الخراج ص 229) في سنة 87 هـ وليس سنة 78هـ كما يروى الجهشياري :الوزراء والكتاب ص 38

[٦] المقريزي الخطط ١/ ٩٨

بذلك العمل وتسييره ، فقد نقل ديوان خراسان إلى العربية في ولاية نصر بن سيار عليها ؛ وذلك سنة 124هـ [1]..

ولم يقتصر جهد عبد الملك بن مروان على تعريب هذه الدواوين فحسب ، بل أراد أيضا أن يتم تعديل هذه الدواوين لتناسب تطور الدولة الإسلامية ؛ " ذلك أن سجلات الجزية كانت تحدد أهل الذمة في الأماكن القديمة التي كانوا يقطنونها في الماضي ، وقد غير قسم منهم مكان إقامته ، فاضطرب الديوان ، فينبغي أن تغير أماكنهم في السجلات ، وهكذا أحدث عبد الملك ما سمي بالتعديل ، أي أنه أمر أن يسجل أهل الذمة بأسمائهم وأولادهم وما يملكون في مكان ولادتهم ؛ وكانت نتيجة ذلك أن جدد السجل تجديدا يلائم العصر من الناحية اللغوية ومن الناحية الفعلية الواقعية معا ، وكأن سجل الجزية أصبح في الوقت نفسه سجل الأحوال المدنية لأهل الذمة " [2].

وقد كان عمل عبد الملك في هذا المجال عظيما ، وترك آثارا خطيرة ؛ إذ " لا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم في تأييد الدولة الإسلامية ؛ لأنه جعل اللسان العربي لسانا عاما في سائر أنحاء المملكة ، فأصبح أهلها بتوالي الأجيال وقد نسوا جنسياتهم ، وصاروا يعدون أنفسهم عربا ، وساعد على ذلك أن العربية هي لغة الدين أيضا " [3] ..

ولذا فليس غريبا أن نجد محاولات مستميتة من الموالي المتعصبين لقومياتهم لإيقاف تنفيذ ذلك العمل .. فقد وقف مروان شاه بن زادان فروخ أمام صالح بن عبد الرحمن وهو يقوم بتعريب ديوان العراق ليقول له متحسرا : " قطع الله أصلك من الدنيا ، كما قطعت أصل الفارسية " [4] ؛ وبذل له هؤلاء الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر عجزه عن نقل ذلك الديوان فأبى [5] ، ولما أتم سليمان بن سعيد نقل ديوان الشام قال سرجون بن منصور كاتب عبد الملك لكتاب الروم في حسرة : " اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم " [6] ...

٤- ضرب العملة الإسلامية وتعريبها :

كانت عوامل عديدة تتجمع في الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير في نظام العملة المتعارف عليه في العالم الإسلامي بعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير ، واستقرت

---

[1] الجهشياري : السابق ٦٧

[2] العش : السابق ص ٢٣٣

[3] جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 91/1 .

[4] البلاذري : فتوح البلدان ص 298

[5] البلاذري : السابق 298

[6] ابن خلدون . المقدمة 677/٢

أحواله الداخلية بعد مضي فترة من خلافة عبد الملك بن مروان ، فقد كان العالم الإسلامي يتعامل حتى ذلك الوقت بالعملة المالية لفارس والروم من دراهم ودنانير... وهذه العملات المالية قد تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية واضطراب الأحوال في إمبراطورية الروم ، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافر يكفي لتغطية النشاط التجاري والاقتصادي والحاجة المالية للدولة الإسلامية الواسعة والنشيطة [١]، وكان الغش والتزييف قد انتشر في الدراهم منذ أواخر عهد الدولة الفارسية ؛ وكذلك كان حال الدنانير الرومانية إثر اضطراب أمور الدولة منذ زمن بعيد ، وفساد ذمم بعض المتعاملين بها من العرب أنفسهم وممن دخل في دولتهم [٢]؛ فأدى ذلك إلى أضرار وخيمة منها : " هبوط قيمة العملة وارتفاع أسعار الحاجيات ، وزوال الثقة المالية ، ومن أهمها الغبن الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الضرائب ، فيؤدى ذلك إلى نقص كمية الخراج " [٣]..

كما كان الاختلاف في الأنظمة المالية السائدة في الدولة الإسلامية من نظم مالية ساسانية وبيزنطية سيما في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة ؛ في العراق وفارس عنها في الشام ومصر، مما قد يسبب بعض الصعوبات الاقتصادية [٤].. وكانت هذه العملات مختلفة الأوزان والقيمة [٥] ؛ دون أن يكون هناك مقياس ثابت موحد في جميع أنحاء الدولة يمكن به أن تحدد النسب بينها [٦]؛ مما كان يسبب عائقا ما للنشاط التجاري ، ويشكل حرجا وصعوبة للمسلمين حين يريدون دفع الزكاة [٧] ، زد على ذلك أن بعض الخارجين على الدولة كانوا يسارعون بسك عملات خاصة بهم ؛ ومن هؤلاء قطري بن الفجاءة الخارجي وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب وغيرهم [٨] كمظهر من مظاهر السيادة وتكريس الوجود والسيطرة السياسية ، كما أنه لم يعد مما يليق بدولة الإسلام الممتدة والقوية أن لا يكون لها عملتها الخاصة التي ترمز إلى استقلالها الاقتصادي وعزتها السياسية ...

---

[١] د.الريس: عبد الملك بن مروان ص220، الخراج والنظم المالية ص223ـ224

[٢] قدامة بن جعفر:الخراج، المنزلة الخامسة الباب الثامن (مخطوط) ص22 ، ابن خلدون :المقدمة ج2ص701

[٣] د.الريس:عبد الملك بن مروان ص221

[٤] حسان علي حلاق : تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ص45

[٥] البلاذري : :فتوح البلدان ص454ـ455

[٦] د.الريس : الخراج ص224

[٧] المقريزي :رسالة النقود ضمن مجموعة النقود العربية الإسلامية وعلم النميات ص43

[٨] حسان حلاق : مرجع سابق ص25،43، عبد الرحمن فهمي : النقودالعربية44

كل هذه العوامل كانت تتجمع لتشكل حافزا إلى ضرب سكة إسلامية [١] خاصة يتعامل بها المسلمون جميعهم وتكون أساس نظامهم المالي غير معتمدين في ذلك على غيرهم من الدول والشعوب .. وكان الذي فعل ذلك على هذا الوجه الشامل عبد الملك بن مروان في الشام سنة 74هـ [٢] ، ثم أمر بتعميمها في جميع النواحي سنة 76 هـ [٣] ، ثم جاء السبب المباشر والقريب والذي احتفى به بعض المؤرخين والرواة فجعلوه سبب تعريب العملة وسكها في دار الإسلام ..

فقد رووا أنه في نطاق المبادلات التجارية بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم " كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر، ويأتي العرب من قبل الروم الدنانير، فكان عبد الملك أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رءوس الطوامير مثل (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ؛ فكتب إليه ملك الروم : إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتابا نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه ، فكبر ذلك في صدر عبد الملك أن يدع سنة حسنة سنها " ؛ فاستدعى خالد بن يزيد بن معاوية وقص علية الخبر ؛ فقال خالد : " أفرخ روعك يا أمير المؤمنين ؛ حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككا ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير، فقال عبد الملك : فرجتها عني فرج الله عنك، وضرب الدنانير.. قال عوانة بن الحكم : وكانت الأقباط تذكر المسيح في رءوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية ؛ تعالى الله علوا كبيرا ، وتجعل الصليب مكان "بسم الله الرحمن الرحيم" فلذلك كره ملك الروم ما كره ، واشتد عليه تغيير عبد

---

[١] السكة:هي الحديدة التي تطبع عليها الدراهم ،ولذلك سميت الدراهم المضروبة سكة (الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٧) ويعرفها ابن خلدون من خلال تطور معناها فيقول : إنها " الختم على الدنانير أو الدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم ؛ فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه ؛ فيكون التعامل بها عددا ، وإن لم تقدر أوزانها يكون التعامل بها وزنا ، ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة ، فصار علما عليها في عرف الدول ، وهي وظيفة ضرورية للملك ، إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات، ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة (ابن خلدون ::المقدمة 700/2، 701)

[٢] سبق أن قام عمر بن الخطاب وعثمان ومعاوية وبعض عماله وابن الزبير وأخوه مصعب بجهود محدودة في ضرب بعض العملات ،ولكنها لم تكن جهودا شاملة ضمن خطة واضحة لإحلال عملة عربية موحدة محل ما عداها من عملات (راجع د.الخربوطلي :تاريخ العراق ص221،224، المقريزي : النقود الإسلامية ص38،40)

[٣] د.الريس :الخراج ص٢٢٠-٢٢١ .

الملك ما غيره " [١] .. وبذلك أرضى عبد الملك غيرته الإسلامية وحميته الدينية ؛ فضـــرب الدينـــار والدرهم ؛ وجعلهما " على شكلين مدورين ، والكتابة عليهما في دوائر متوازية ، يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبي وآله، وفى الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفـــة " [٢] ..

ولم يكتف عبد الملك بتعريب العملة ؛ بل وحد عيارها .. فقد " كانت الدراهم من ضـــرب الأعاجم مختلفة كبارا و صغارا ، فكانوا يضربون منها مثقالا ، وهو وزن عشرين قيراطا، ويضربـــون منها وزن اثني عشر قيراطا ويضربون عشرة قراريط ، وهى أنصاف المثاقيل ، فلما جاء الله بالإســـلام واحتيج في أداء الزكاة إلى الأمر الوسط أخذوا عشرين قيراطا واثني عشر قيراطا وعشرة قراريـــط ، فوجدوا ذلك اثنين وأربعين قيراطا فضربوا على وزن الثلث من ذلك ؛ وهو أربعة عشر قيراطـــا ، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطا من قراريط الدينار العزيز، فصار وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل " [٣] ، وهذا موافق لما سنه رسول الله ﷺ في فريضة الزكاة بغير وكس ولا اشتطاط ، فمضت بذلك السنة وأجمعت عليه الأمة [٤] ..

وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج ، حتى إذا فرغ الحجاج من ضرب الدراهم بعـــث بالسكة إلى سائر الأمصار لتضرب الدراهم بها ، وأمر عماله أن يرفعوا إليه تقريرا شهريا عن مقدار ما يضربونه من دراهم [٥] ..

محاربة تزييف العملة :

---

[١] البلاذري : :فتوح البلدان ص241ــ242، النويري : نهاية الأرب ج21ص223ــ224، المقريـــزي :النقـــود الإسلامية ص11،وقد انتهز رواة الشيعة هذه الفرصة فجعلوا من أشار على عبد الملك بضرب الدنانير هو محمد البـــاقر بن علي بن الحسين .راجع:البيهقي:المحاسن والمساوئ ج ص467،468 ، الدميري :حياة الحيوان ج1ص55ــ56)

[٢] ابن خلدون : :المقدمة ج2ص702 ، ويرجح بعض الباحثين في ضوء ما عثر عليه من دنانير عربية أن شكل الدينار قد تطور من الشكل البيزنطي إلى النمط العربي الكامل عبر ثلاث مراحل من التحسن التدريجـــي حـــتى تخلـــص مـــن التصاوير والشارات البيزنطية وكذلك التصاوير العربية ولم يعد يحمل إلا الكتابة العربية فقط (النقشبندي :الدينـــار الإسلامي في المتحف العراقي ص19،24)

[٣] البلاذري :فتوح البلدان ص 45 وكان النبي (ص) قد أقر ذلك من قبل (أن كل عشرة دراهم تزن سبعة مثـاقيل) وجعل هذا الوزن الشرعي إماما ، واستمر في القضايا الشرعية إلى اليوم (ناصر النقشبندي : الدينار الإسلامي ص 12) ، ويستبين من فريضة الزكاة أن في العشرين دينارا نصف دينار ، وفى المائتي درهم خمسة دراهم ، فيكون نصف الدينـار ، يساوى خمسة دراهم كبار ، والدينار عشرة دراهم ، (السابق ص 14)

[٤] المقريزي : النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود ص 13

[٥] السابق والصفحة

هذا وقد تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده وولاتهم في تعقب أية محاولة لغــش النقــود وتزييفها ومعاقبة من يثبت عليه ذلك ، فقد روي أنه أخذ رجلا يضرب على غير ســكة المســلمين فأراد قطع يده ، ثم ترك ذلك وعاقبه؛ " فاستحسن ذلك شيوخ المدينة " [١] .. " ولما ولي ابن هبــيرة العراق ليزيد بن عبد الملك خلص الفضة أبلغ من تخليص من قبله ، وجود الدراهم ، فاشتد في العيار، ثم ولي خالد القسري فاشتد في النقود أكثر من شدة ابن هبيرة ، حتى أحكم أمرها أبلغ من إحكامه ، ثم ولي يوسف بن عمر بعدة فأفرط في الشدة على الطباعين وأصحاب العيار، وقطع الأيدي وضــرب الأبشار، فكانت (العملة) الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية [٢] ..

---

[١] البلاذري : فتوح البلدان ص 454

[٢] السابق والصفحة ، ابن خلدون : المقدمة 701/2

المبحث الثاني

جهود معمارية عظيمة للأمويين

انتقل المجتمع الإسلامي في العصر الأموي من طور البساطة والزهد ومحاولة التزام المثل الإسلامي الرفيع في إيثار الآخرة والتخفف من متاع الدنيا ، إلى طور جديد فيه شيء من الترف وقدر من التنعم ، يقل أو يكثر ، وفيه أيضا ترخص في التلذذ بالدنيا ومتعها مادام ذلك لا يتنافى مع ما أباحه الدين وأحلته الشريعة ، وقد تركت هذه النقلة المدنية أثرها على مناحي الحياة المختلفة في العصر الأموي ؛ فإن اهتمام الأمويين بالإسلام وإعزازه لا يأخذ عندهم شكل الفتح والغزو ونشر الدين واللغة فحسب ، بل يشهد أيضا اهتماما بتشييد المساجد في البلاد المفتوحة وتعمير ما أنشئ منها من قبل ، وتزيينها وزخرفتها على نحو غير مسبوق ظل على مدار الزمن بعد ذهاب بني أمية مثار إعجاب وفخر ، وحرص الأمويين على قضاء مصالح الرعية ورعايتهم يتبدى أيضا في بناء مدن جديدة ، وتوسيع المدن القديمة ، ليتناسب ذلك مع اتساع رقعة الدولة ، وزيادة أعداد سكانها ، وشق الترع وحفر الأنهار وإقامة المنتزهات التي تضفي على حياة الرعية لمسة من الراحة والتيسير وإشعارا بالمحبة

وضرورات الحياة السياسية والعسكرية تفرض على الأمويين إقامة الحصون والقلاع ، وبناء المدن في البلاد المفتوحة لتكون مستقرا للجند وحماية لهم ، ومراكز إشعاع لنشر الدين وتعليم اللغة والاندماج الاجتماعي بين العرب وبعضهم ؛ وبينهم وبين أهل البلاد الأصليين .

والأمويون بعد ذلك لا ينسون حظ أنفسهم فيبنون القصور الفخمة في الحواضر والبوادي، وفيها من وسائل التنعم وأسباب الراحة الكثير ، ولا يقتصر الأمر عليهم في ذلك بل يشاركهم فيه مياسير الرعية ؛ فتكون لهم أيضا قصورهم وأسباب راحتهم في ذلك المجتمع الذي فاضت فيه الأموال وكثر الخير ؛ وسنعرض فيما يلي عجالة من مآثر الأمويين الخالدة في هذه المجالات

١.عمارة المساجد :

شهد العصر الأموي بناء عديد من المساجد في البلاد المفتوحة لتكون منارات لنشر الدين وتعليم القرآن واللغة والانصهار مع سكان البلاد المفتوحة [١] ، كما شهد تطويرا لكثير من المساجد القديمة .. وسوف نتناول فيما يلي نبذة عن بعض هذه المساجد ودور الأمويين في إنشائها على أعظم وجوه الفن والعمارة التي عرفها ذلك الزمان ..

[١] انظر المبحث الخاص بنشر الإسلام في عهد بنى أمية

أ) مسجد قبة الصخرة [1] :

يقدم لنا ابن كثير وصفا له فيقول : " ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجـه إليـه بالأموال والعمال ، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه .. وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس ، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة ، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغا ولا يتوقفا فيه ، فبثوا النفقات وأكثروا ، فبنوا القبة فجاءت من أحسن البناء ، وفرشاها بالرخام الملون وحفاها بأنواع الستور ، وأقاما لها سدنة وخداما بأنواع الطيب والمسك والعنبر والماورد والزعفران ، يعملون منه غالية ويبخرون القبة والمسجد من الليل ، وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئا كثيرا، وفرشاها بأنواع البسط الملونة ، وكانوا إذا أطلقوا البخور شم من مسافة بعيدة ، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئا كثيرا مما في الآخرة ، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله ﷺ ، ووادي جهنم وكذلك في أبوابه ومواضع منه ، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا "... " وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظرا ، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة ، ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه ، فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال ، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال ، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك ، فكتب إليهما قد وهبته لكما ، فكتبا إليه ، إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا ، فكتب إليهما " إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب ، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث " [2].

ب) عمارة المساجد في عهد الوليد بن عبد الملك :

كانت النهضة العظمى في عمارة المساجد في عصر الوليد بن عبد الملك الذي شهد استقرارا داخليا وفتحا عظيما في الخارج ، وكان الرجل مغرما يحب العمارة والبناء ، وفي عصره

---

[1] بناه عبد الملك سنة 691م ويسميه الإفرنج خطأ مسجد عمر والظاهر أن البناء تداعى بعد مائة سنة فرمم على عهد الخليفة العباسي المأمون ، فغير اسم عبد الملك في النقش وجعله عبد الله وأضاف إليه اسم المأمون إلا أنه سها عن تغيير التاريخ فجاءت الكتابة كما هي الآن : (بنى هذه القبة عبد الله عبد (الله الإمام المأمون أ)مير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين يقبل الله منه ورضي عنه ، آمين) ولقد سعى الرسام العباسي إلى التقريب بين حروف الاسم الجديد ، وحشرها في الفراغ الضيق الذي أحدثه ،وقد كان دوفوغوه أول من اكتشف هذا التزوير (فيليب حتى : تاريخ العرب ص286ـ287)

[2] ابن كثير : البداية والنهاية 8/280ـ281

اعتنى بالمسجد الحرام بمكة وأعاد بناء مسجد المدينة المنورة ؛ كما ابتنى مسجد بيت المقدس والمسجد الأموي فأتى في ذلك عملا عظيما وأنفق نفقات هائلة فخلف آثارا خالدة ...

فقد بعث الوليد إلى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسري بثلاثين ألف دينار فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التي داخلها وعلى الأركان والميزاب فكان أول من ذهب البيت في الإسلام [١]..

وأمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ﷺ بهدم مسجد الرسول ﷺ في المدينة وإعادة بنائه من جديد ، فتجرد عمر لذلك ومعه وجوه أهل المدينة وعلماؤها مثل القاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ؛ وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد النبي ﷺ وبنائه من جديد فأرسل إليه ملك الروم مائة ألف مثقال من الذهب ومائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملا وأمر أن يتتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت فبعث بها إلى الوليد [٢] ..

ـ المسجد الأموي :

وقد بناه الوليد بن عبد الملك على أنقاض كنيسة ماري يوحنا بعد أن عوض نصارى دمشق عنها [٣] ؛ فجاء على نحو مثير للدهشة والإعجاب ، ومازال يحتفظ ببعض جوانب العظمة حتى الآن ، وقد ترك لنا الحافظ ابن كثير وصفا منيرا لذلك المسجد نقتبس منه هذه الفقرات :

" وذكروا أن أرضه كانت مفضضة كلها ، وأن الرخام كان في جدرانه إلى قامات ، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب ، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض ، وقد صور بها سائر البلدان المشهورة ؛ الكعبة فوق المحراب وسائر الأقاليم يمنة ويسرة ، وصوروا ما في البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك ، وسقفه مقرنص بالذهب ، والسلاسل المعلقة فيها جميعها من ذهب وفضة ، وأنوار الشموع في أماكن مفرقة .. وكان في محراب الصحابة برنية حجر من بلور ، ويقال : بل كانت حجرا من جوهر ، وهي الدرة ، وكانت تسمى القليلة ،

---

[١] اليعقوبي :السابق24/3

[٢] الطبري : السابق 435/6 ، 436، اليعقوبي : السابق 24/3

[٣] ابن كثير : السابق 144/9 ، وذلك أن المسلمين لما فتحوا دمشق كان خالد قد فتحها عنوة من الباب الشرقي وأبو عبيدة فتحها صلحا من باب الجابية ، ولذلك أخذوا نصف كنيسة يوحنا عنوة فجعلوه مسجدا وتركوا للنصارى نصفها فظل كنيسة ، فلما ضاق المسجد بالمصلين وأراد الوليد توسيعه وبناءه من جديد أراد أن يضم إلى مساحته ما تبقى من الكنيسة ، فلم يوافق النصارى ، ثم تفاوضوا على أن يترك لهم كنيسة توما وبعض الكنائس الأخرى ولم تكن دخلت في عهد الصلح ويتركوها له فوافقوه على ذلك ، وكان أول من هدمها بيده (ابن كثير السابق 144/9ـ146)

وكانت إذا طفئت القناديل تضيء لمن هناك بنورها ... وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق ، وإنما كان عليها الستور مرخاة ، وكذلك الستور على سائر جدرانه إلى حد الكرمة التي فوقها الفصوص المذهبة ، ورءوس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير ، وعملوا له شرفات تحيط به.. والمقصود أن الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ولا أبهى ولا أجمل منه ، بحيث إذا نظر الناظر إليه أو إلى جهة منه أو إلى بقعة أو مكان منه تحير فيها نظره لحسنه وجماله ، ولا يمل ناظره بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى ، وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان ، فلا يدخل في هذه البقعة شيء من الحشرات بالكلية ، ولا من الحيات ولا من العقارب ولا الخنافس ولا العناكيب ،ويقال : ولا العصافير أيضا تعشش فيه ولا الحمام ولاشيء مما يتأذى به الناس ، وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة في سقف هذا المعبد " [١] ..

وقد بالغ المؤرخون وكثروا في رصف النفقات الهائلة التي أنفقت على ذلك العمل الهائل فقال بعضهم : " وأنفق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب ، وفى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار" ، وفى رواية في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، فعلى ذلك يكون ما أنفق على المسجد خمسة ملايين وستمائة ألف دينار ، أو أحد عشر مليونا ومائتي ألف دينار ، وقيل إنه صرف أكثر من ذلك بكثير [٢] ..

ويبدو أن الروايات كثرت في ذلك في عهد الوليد نفسه ، فجمع النّاس وخطبهم قائلا : " إنه بلغني عنكم أنكم قلتم أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها ، ثم قال : يا عمرو بن مهاجر : قم وأحضر أموال بيت المال ، فحملت على البغال إلى الجامع ثم بسط لها الأنطاع ثم أفرغ عليها المال ذهبا صبيبا وفضة خالصة ، حتى صارت كوما ؛ حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لا يرى الرجل من الجانب الآخر ، ثم أمر بها فوزنت فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة ، وفي رواية أخرى : تكفيهم ست عشر سنة مستقبلة ، لو لم يدخل للناس شيء بالكلية ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهما من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالي ، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين" [٣] ..

وهذه الروايات رغم ما قد تحمله من مبالغات فهي لا ريب تحمل عناصر صدق كثيرة ، فلا ريب أن هذا المسجد على هذا النحو من البناء قد تكلف تكلفة عظيمة ، وهذه التكلفة لا يستطيع أن يقوم بها مال الوليد بن عبد الملك وحده فيما نظن ، غير أنه من المرجح أن الوليد وغيره

---

[١] البداية والنهاية ٩-١٤٩-١٥٠

[٢] السابق ٩/١٤٨-١٤٩

[٣] السابق ٩/١٤٩

من الأمراء والكبراء قد تبرعوا بكثير من أموالهم لإتمام هذا العمل الجليل ، الذي جاء معبرا عن قدرات الدولة الإسلامية الفنية والإنشائية ؛ مما كان منار دهشة لأعدائها حين كان بعض رسلهم يأتون إلى دمشق فيروا هذا الأثر العجيب ، ولذا فإنه يقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة هم أن ينزع ما بمسجد دمشق من الرخام والفسيفساء والذهب ويجعله في بيت المال ، فقيل له : إن فيه مكايدة للعدو ، فتركه على حاله [1] ..

ولا ريب كذلك أن الوليد نفسه كان بصيرا بأمره إلى الحد الذي لا يذهب به إلى لون من السرف الغليظ المستهجن ، فقد رووا أنه أراد أن يجعل بيضه قبة المسجد من ذهب خالص ، فقال له مهندسوه : إن صنع لبنة واحدة يحتاج ألوفا من الذهب ، فقال الوليد : " إني لا أعجز عن ذلك ، ولكن فيه إسراف وضياع مال في غير جهة اللائق به ، ولا يكون ما أردنا من ذلك نفقة في سبيل الله؛ ورده على ضعفاء المسلمين خير من ذلك " [2] ..

٢- بناء المدن وعمارة البلدان :

ظفر العصر الأموي بجماعة من الولاة البارزين الذين امتازوا بقدرات عالية في الإدارة والحكم مثل زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله بن زياد وعبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير ويزيد ابن المهلب وخالد القسري وغيرهم .

وقد أفسحت طبيعة النظام الأموي القائم على اللامركزية في الإدارة المجال أمام هذه الشخصيات القوية لتترك بصماتها الواضحة على الحياة في الأمصار التي تولت قيادتها ..

ومن أجل أعمالهم فيها بناء المدن وعمارتها وشق الأنهار والتيسير على الرعية ؛ فزياد بن أبي سفيان لما ولي البصرة عاملا لمعاوية قام بإصلاحات عمرانية كثيرة فأعاد بناء المسجد الجامع وبناه بالجص والآجر وسقفه بالساج وزاد فيه ؛ كما أعاد بناء دار الإمارة على نحو أهاج بلابل الشعر عند بعض الشعراء فقال :

بنى زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تعاون أيدي الناس ترفعها إذا لقلنا من اعمال الشياطين [3]

وطلب أهل البصرة من معاوية أن يحفر لهم نهرا جاريا ؛ فأمر زيادا فحفر ذلك النهر وبعث بمعقل بن يسار ففتحه تبركا به لأنه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال الناس : نهر معقل ! [4] ..

---

[1] اليعقوبي : السابق ٣/٤٢-٤٣

[2] ابن كثير : السابق ٩/١٤٧-١٤٨

[3] ابن قتيبة · المعارف ٢٤٦ ، البلاذري فتوح البلدان ٣٤٢

[4] البلاذري السابق ٣٥٢

وسار ابن زياد على نهج أبيه فبنى قصر البيضاء [١] ؛ فكان مثار دهشة وعجب وكان الناس يقصدونه من كل مكان للتفرج عليه [٢] ؛ كما ابتنى مدينة صغيرة سماها مدينة الرزق ، وكان قد سبى خلقا كثيرا من أهل بخارى فأنشأ لهم مدينة ، عرفت باسمهم [٣] ، وقد حذا أهل البصرة حذو أمرائهم فابتنى أغنياؤهم القصور ، وأشهرها قصر أنس بن مالك ﷺ والقصر الأحمر الذي بناه عمرو بن عتبة ابن أبي سفيان ، وقصر المسيرين الذي شاده عبد الرحمن بن زياد ، وقصر النواهق الذي بناه زياد ، وقصر النعمان بن صهبان وقصر زربي مولى عبد الله بن عامر [٤] ، كما اهتموا بحفر الأنهار العذبة مثل نهر الأساورة الذي حفره عبد الله بن عامر؛ ونهر حرب الذي حفره مسلم بن زياد وغيرها [٥]، كما ابتنوا الحمامات الكثيرة المتنوعة [٦] ..

ولما ولي الحجاج العراق بنى مدينة واسط واتخذها مقرا له ، كما بنى مدينة أخرى تعرف بالفيل ومصرها وحفر أنهارا عديدة كنهر الصين والنيل والزابي ، وأحيا ما حول هذه الأنهار من أراض [٧] .

ولما وقع سيل الجحاف بمكة سنة 80 هـ وأحاط بالكعبة وذهب بالحجاج وأمتعتهم حتى حلت نكبة مفظعة بأهلها أرسل عبد الملك بن مروان إلى عامله على مكة أن يعمل على تصريف هذه المياه وتحصين دور الناس ففعل [٨] ..

فلما تولى خالد القسري العراق أظهر مواهبه في استصلاح الأراضي وشق الأنهار والتعمير والبناء فحفر بالعراق أنهارا عديدة من أشهرها نهر خالد والمبارك والجامع وغيرها [٩] ، كما استصلح كثيرا من الأراضي الزراعية [١٠] ، وابتنى بنايات عديدة بالكوفة [١١] ، كما قام ببناء أسواق جديدة

---

[١] الطبري : السابق 5 / ٥٢٢ ، الإمامة والسياسة 22/2

[٢] القز ويني : آثار البلاد ص 201 ، الخربوطلي : السابق ص 292

[٣] ابن الفقيه :مختصر كتاب البلدان ص 191

[٤] البلاذري : فتوح البلدان ص 349 ــ 350

[٥] البلاذري : السابق 342

[٦] البلاذري :السابق 248 ــ 350

[٧] البلاذري : فتوح البلدان 288

[٨] السابق 650

[٩] النويري : السابق 452/21 ، ابن الأثير: السابق 236/4

[١٠] الطبري : السابق ٧/ ١٤٣

[١١] ابن قتيبة : المعارف ٣٩٨

وجعل لكل أهل حرفة مكانا خاصا بهم [١] ، وبنى أخوه أسد بن عبد الله قرية جديدة عرفت باسمـــه ، ونقل الناس إليها ، فقيل سوق أسد [٢] ..

ولما قدم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عاملا على العراق من قبل يزيد بن الوليد أتاه أهـل البصرة فشكوا إليه ملوحة مائهم ؛ وطلبوا منه حفر نهر لهم ، فكتب بذلك إلى يزيد الذي أرسل إليـه يقول ، " إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق ــ ما كان في أيدينا ــ فأنفقه عليه " ، فحفر النــهر الذي يعرف بنهر ابن عمر ، فقال رجل ذات يوم في مجلسه : والله إني أحسب نفقة هذا النهر تبلــغ ثلاثمائة ألف أو أكثر ، فقال ابن عمر : لو بلغت خراج العراق لأنفقته عليه [٣] ..

وفى مصر أيضا تولى عبد العزيز بن مروان أمرها لنحو عشرين عاما (٦٤ ــ 85 هـ) فكـانت له فيها إنجازات واضحة .. وأدخل ضروبا من الإصلاح وبنى مقياسا للنيل ؛ وزاد في جامع عمرو بن العاص من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رحبة فسيحة ، وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عنـد الحمراء القصوى بطرف الفسطاط ونقش عليها اسمه سنة ٦٩ هـ [٤] .. وبنى مدينة حلوان واتخذهـا عاصمة لولايته سنة 73 هـ بعد أن تفشى وباء الجذام بالفسطاط ، ونقل إليها بيت المال وأنشأ بهـا بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم على قناطر معلقة مشيدة على أعمـدة تصل عيون الماء بالبركة ، وغرس عبد العزيز في حلوان الأشجار والنخيل ، وبنى بها المساجد وغيرهـا من البنايات الفخمة ، حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار [٥] ..

وفى الموصل شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم ، وكان واليا عليها في عهد هشام دارا أنيقة من الرخام الخالص والمرمر عرفت بالمنقوشة لما امتازت به من النقش البديع ، كما بنى فيها الفنادق ؛ ولما رأى الحر ما يعانيه أهل الموصل من المشاق في الحصول على ماء الشرب شق لهم قنـاة عمرت طويلا وغرس الأشجار على ضفتيها ، حتى أصبحت وكأنها منتزه عام لأهل المدينة [٦] ..

ومن آثار الأمويين الخالدة في دمشق مجاري مياهها ، فقد بلغ نظام مجاري الماء من الدقـة بحيث أصبح لكل دار في دمشق نافورة خاصة بها ، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التي شـقها

---

[١] اليعقوبي :كتاب البلدان ص 319

[٢] البلاذري : السابق 184

[٣] البلاذري :السابق 363

[٤] ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار 63/4 ، ١٢٠

[٥] د. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي 299/1 ، وانظر : ابن دقماق : السابق ٣٩/٤ ، ١٠٥

[٦] عمر أبو النصر : الحضارة العربية 385ــ386

الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة ؛ والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التي شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور[١] ..

وعلى ذلك يتضح لنا مدى التوجه المعماري وفلسفته عند الأمويين التي لا تغفل تلبية حاجات الناس والرغبة الصادقة في التيسير عليهم ..

٣- بناء القصور :

كان خلفاء بني أمية يصرفون كثيرا من سني خلافتهم في البوادي طلبا للصحة والهواء النقي وهربا من الأوبئة والطاعون الذي كان يكثر في المدن[٢].

ولم يكن خلفاء بني أمية بدوا جافي الطباع ، بل كانوا رجالا متنعمين يأخذون بحظهم من الحياة ، عارفين في الوقت ذاته أنهم أئمة الناس وقادتهم وأن عليهم أن يظهروا أمامهم بمظهر من يحترم قواعد الدين وأصول الشريعة .. ومنذ زمن بعيد خط لهم معاوية ﷺ هذا الخط ، فقد كان صحابيا جليلا تعرف له الرعية قدره ولكن في ذات الوقت جارى طبيعة عصره الذي ابتنى فيه أفراد الرعية الموسرون القصور[٣] ، وتنعم المسلمون بثمار الفتح وأموال الغنائم وسبل الرفاهية .. وعلى ذلك فقد ابتنى معاوية قصر الخضراء في عهد عثمان وهو بعد وال على الشام [٤] ..

ولقد أسفرت البحوث الأثرية الحديثة من اكتشاف عدد من القصور في بادية الشام يرجح الباحثون أنها كانت لبني أمية لأسباب شتى وأدلة متعددة ..

وإذا كنا لا نرد ذلك فإننا يجب أن نحذر من الإسراف في استنباط الأحكام عن حياة الأمويين في ذلك العصر أو أنماط معيشتهم من تلك الرسوم التاريخية الباقية التي وجدوها على جدران هذه القصور .. فقد ظلت هذه البنايات أمدا بعد بني أمية غير مهجورة ، وليس بمستبعد أبدا أن يضيف إليها من جاء بعدهم ما شاء من ألوان وظلال ..

ومن هذه القصور المكتشفة حديثا " قصر المشتى " الذي أهدى السلطان عبد الحميد جزءا كبيرا من إفريز واجهته إلى القيصر وليم الثاني فهي معروضة اليوم في متحف القيصر فردريك ببرلين[٥]، وقصر عمرة الذي اكتشفه ألوا موزل 1898م الذي نقتبس بعض وصفه الممتع الطويل الذي سجله كارل بروكلمان حيث قال : " فعلى أحد جدران القصر نجد رسوم أربعة ملوك يفترض أنهم يمثلون

---

[١] د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي 543/1، فيليب حتي : تاريخ العرب 198/1

[٢] عمر أبو النصر : الحضارة العربية 393

[٣] عن هذه القصور (معجم البلدان 97/7 وما بعدها)

[٤] البلاذري : انساب الأشراف 53/5 حيث اتهمه أبو ذر الغفاري بأحد أمرين إما بالإسراف الذي لا يقر إن كان المال ماله ، أو بالخيانة إن لم يكن المال ماله ..

[٥] بروكلمان :تاريخ الشعوب الإسلامية 185/1ـ189

الإمبراطوريات التي دانت للإسلام ؛ وقد نقش فوقها بالحروف العربية واليونانية ما يميز كلا منها عن كل في عين الناظر ، فهذا قيصر وهذا كسرى وهذا النجاشي وهذا لذريق (آخر ملوك إسبانيا القوط) .. ويشتمل البناء ـ الناهض من حجر كلسي يضرب إلى الحمرة ـ على قاعة رئيسية مسقوفة بثلاثة عقود أسطوانية ، وهي تؤدي مقابل المدخل إلى محراب ذي عقد أسطواني منخفض ؛ تقوم على كل من جانبيه غرفة هي بدورها ذات عقد أسطواني وعلى شكل هيكل ، ويدخل الضياء إلى هذه الفسحة من ست نوافذ صغيرة في جدران العقود الأسطوانية الأمامية ، وإلى جهة الشرق تجاور الغرفة الرئيسية ثلاث غرف صغيرة أولاها بمسقوفة بعقد أسطواني والثانية بعقد مصلب والثالثة بقبة ، وهذه تؤلف قسم الحمامات في القصر ؛ وهي مزودة بمقاعد تمتد على طول الجدران ، وبشبكة من أنابيب الماء ، وإنما تزدان هذه الغرف الأربع كلها برسوم حفظت لنا في حالة رائعة ، وهي تمثل آخر ما أبدعه الفن الهليني في البلاد الآسيوية.. "[1] ، وغير قصر المشتى وعميرة تتردد في كتب المؤرخين المحدثين أسماء قصور أخرى ثم اكتشافها مثل الأخيضر والموقر والقسطل والخير[2] ، والقصر الأخير كشف عن الأثري الفرنسي شلومبرجه ، ونقلت بعض بقاياه إلى دمشق حيث نصبت في مدخل المدينة الغربي[3] ، وقصر أخر يعرف الآن بخربة مفجر ـ قرب أريحا ـ كشف عنه الأثري ديمتري برامكي بين سنتي 1936 ـ 1948م[4] ..

---

[1] بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية 186/1ـ189

[2] الخير كلمة بمعنى البستان أو الحديقة (عمر أبو النصر : الحضارة العربية ص 377 ،376 ، 377 ، بروكلمان : السابق 189 ، فيليب حتي : السابق 338/1 ـ 339)

[3] فيليب حتي : السابق339/1

[4] فيليب حتي : السابق 34:2 ، تاريخ سورية ١٢٥/٢.

المبحث الثالث

نهضة الثقافة والعلوم في العصر الأموي

ظل كثير من الناس يظنون أن العرب في العصر الأموي كانوا يشتاقون إلى البداوة ؛ ويحنون إلى الحفظ والتلقين ؛ يتناقلون به العلوم فلا يكتبون ولا يدونون ويصنفون [1] .. غير أنه يتضح ــ كما مر بنا ــ أن الدراسات الحديثة تثبت أن العرب آنذاك عرفوا الكتابة وتأليف الكتب وتصنيف العلوم ، بل إنهم اهتموا بالترجمة إلى لغتهم والتفتوا إلى معارف الآخرين ينهلون منها ... كما أثبتت هذه الدراسات أن بني أمية كان لهم نصيب كبير في تشجيع ذلك ورعايته ، وضربوا بسهم وافر في النهضة الثقافية والمعرفية للآمة الإسلامية ؛ وأن هذه النهضة لم تكن قاصرة على رواية الشعر أو حفظ الأمثال أو معرفة القران والحديث فقط بل امتدت لتشمل جوانب شتى من العلوم النظرية والطبيعية على السواء ..

وفيما يلي سوف نلقي نظرة فاحصة وسريعة أيضا على هذه الجوانب المختلفة ودور الأمويين الثقافي والحضاري في هذه الحقبة من تاريخنا ؛ والذي يعد بحق واحدا من مآثرهم الخالدة وإنجازاتهم العظمى حيث لم يكونوا مجرد حكام أو ساسة ، ولم يكونوا محض فاتحين أو غزاة .. بل كانوا أيضا مساهمين بنشاط في بناء الحضارة الثقافية الإسلامية والإنسانية ..

أولا : العلوم العربية والشرعية :

مرت بنا في صفحات هذا البحث أمثلة عديدة لتدين الأمويين واهتمامهم بالعلوم الشرعية ، وحرصهم على تعليمها أبناءهم ، وقد كان بعضهم علماء مشهورين وقتها ، مثل معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز وغيرهم .. وسوف نستعرض فيما يلي نبذة عن تطور هذه العلوم ودور الأمويين في ذلك ..

١ – نهضة هذه العلوم في العصر الأموي :

شهد العصر الأموي نهضة كبيرة في التفسير وعلوم القرآن والفقه والعقيدة وعلم الكلام، وتألق فيه نجم عديد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم ، وليس ذلك بمستغرب على عصر عاش فيه جماعة من كبار الصحابة والتابعين وعدد وفير من العلماء على امتداد الدولة الإسلامية المترامية الأطراف آنذاك ، على اختلاف نواحي نبوغهم وتفوقهم ..

---

[1] جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي 50/3

فظهر منهم في التفسير أمثال ابن عباس وتلاميذه كسعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وغيرهما ، والضحاك بن مزاحم ومحمد بن كعب القرظي وقتادة بن دعامة السدوسي وغيرهم [١] .

وبلغ الاهتمام بالقرآن وعلومه شأوا بعيدا حتى ظهر في عصرهم عـــدد مـــن أصحـــاب القراءات القرآنية المشهورين ، وكان معظمهم من الموالى مما يدل على مدى تغلغل الإسلام في نفـــوس بعضهم ، فمنهم عبد الله بن عامر بن زيد اليحصبي (ت 118 هـ) [٢] وعاصم بن أبي النجود مولى بـــني جذيمة (ت 127 هـ) [٣] وأبو عمرو بن العلاء (ت 155 هـ) [٤] وحمزة بن حبيب الزيات (ت 156 هـ) [٥] ، وقد توفي العالمان الأخيران في العصر العباسي ، ولكن كان لهما عطاؤهما في العصر الأموي ، وفيه كانت جهودهم لتلقي العلم حتى نبغا فيه ، وعلى شيوخ ذلك العصر تعلما [٦] ، وكان لهؤلاء العلمـــاء تلاميذهم ومجالسهم ، وكانت لهم أيضا كتبهم في القراءات مثل كتاب "اختلاف مصاحف الشـــام والحجاز والعراق " لعبد الله بن عامر و" المقطوع والموصول" له أيضا ، و" الوقف والابتـــداء " لأبي عمرو بن العلاء [٧] ..

وبرز جماعة من الفقهاء مثل شريح بن الحارث الكندي القاضي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي الذي تولى الكتابة لعبد الملك بن مروان ، وكان مقربا منه ، وإبراهيم النخعي ومكحول بن أبي مسلم الدمشقي وحماد بن أبي سليمان وأبي الزناد عبد الله بن ذكوان وربيعه بن أبي عبد الرحمـــن التيمـــي المعروف بربيعة الرأي [٨] ..

كما ظهر آخرون في علم الكلام والجدل مثل الحسن البصري الذي تعددت نواحي نبوغه والحسن بن محمد بن الحنفية وغيلان الدمشقي القدري وعمرو بن عبيد وواصل بن عطـــاء إمـــامي المعتزلة وجهم بن صفوان رأس الجهمية ، بل إنه يروى أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز كان له جهد في بحث العقائد الإسلامية فألف رسالة في الرد على القدرية [٩] ..

---

[١] راجع : سزكين : تاريخ التراث العربي ١/١٧٩-١٩٦

[٢] راجع : ابن النديم : الفهرست ٤٣

[٣] ابن النديم : الفهرست ٤٣

[٤] ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦- ٤٧٠ .

[٥] السابق ٢/٢١٦، ابن النديم : السابق ص ٤٤

[٦] جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٢٤٠-٢٤٢

[٧] سزكين : السابق ١/١٤٧-١٤٨

[٨] السابق ٢/١٩-٢٦

[٩] راجع : السابق 254/1 وما بعدها ، وراجع أبا نعيم : حلية الأولياء 346/5 ـ 353

٢- دور الأمويين في هذه النهضة الثقافية :

أ) الاهتمام بالقرآن واللغة :

شهد العصر الأموي دخول كثير من الأعاجم في الإسلام وتعربهم ، مما كان له أثره الواضح على نطقهم اللغة العربية ، وانحراف ألسنتهم بها ، فاقتضى ذلك عملا مضاعفا للحفاظ على اللغة وتقويم ألسنة الناطقين الجدد بها وتيسير اطلاعهم على علوم الإسلام المكتوبة ..

وقد روي أن زياد بن أبي سفيان هو الذي أشار على أبي الأسود الدؤلي بوضع بدايات علم النحو ، وقيل إن معاوية نفسه هو الذي طلب من عامله على العراق ذلك لما دخل عليه أحد أبناء زياد فسمعه يلحن ، فأرسل إلى أبيه يلومه ، فتفتق ذهن زياد عن ضرورة وضع قواعد اللغة العربية [1] ، ويبدو أن إعجام المصحف بالنقط والشكل يرجع إلى نفس العصر ، فقد ذكر أبو داود السجستاني أن عبيد الله بن زياد والي البصرة كلف كاتبه يزيد الفارسي بهذا العمل [2] ، ولما ولي الحجاج العراق طلب من عاصم بن أبي النجود وضع النقط المميزة للحروف المتشابهة في القرآن ليسر على قارئيه ، وبخاصة من غير العرب ، فوضع بذلك أسس الإعجام في العربية [3] ؛ ثم وضع النحوي نصر بن عاصم علامات الأخماس والأعشار في القرآن ، فتم بذلك تقسيم كتاب الله إلى أجزاء مختلفة في عصر الحجاج [4] ..

وفي هذا المقام لا ينبغي أن ننسى الإشارة إلى دور تعريب الدواوين ــ الذي قام به الأمويون وولاتهم ــ في الدفع بالعربية والتعريب إلى آفاق جديدة ..

ب) تدوين الحديث والفقه :

واشتد حرص الأمويين على تدوين العلوم الإسلامية وبخاصة الحديث الشريف ، وقد لاقوا في سبيل ذلك عدة صعوبات نشأت في الأساس من تحرج العرب من التدوين واحتمالات الخطأ أو التحريف في الحديث بما له من أهمية تشريعية قصوى ..

وقد بدأ ذلك الاهتمام الأموي بالتدوين وحفظ تراث الإسلام منذ سنين ولايتهم الأولى ؛ فقد كان مروان بن الحكم أثناء ولايته على المدينة في خلافة معاوية حريصا على العلم وتدوينه خشية عليه من الضياع ؛ فقد أراد أن يحفظ معارف مشاهير الصحابة فاستقدم زيد بن ثابت إليه وطرح عليه

---

[1] ابن خلكان : السابق ٢/٥٣٦-٥٣٧ ، ابن نباتة : سرح العيون ١٥٨ ، ١٥٩

[2] السجستاني : المصاحف ص 117

[3] راجع سزكين : السابق ١/ ٨

[4] ابن الجزري : غاية النهاية 336/2 وقد توفي نصر بن عاصم سنة 90 هـ أو سنة 100 هـ

عددا من الأسئلة بينما كان الكتاب الجالسون خلف ستر يدونون الإجابات ، فلما لحظ زيد ذلك تحرج وقال : يا مروان عذرا، إنما أقول برأيي [١] ..

وأرسل عبد العزيز بن مروان عند ما كان واليا على مصر إلى التابعي كثير بن مرة الحضرمي (ت .7هـ) راجيا منه أن ينسخ عن الصحابة أحاديث رسول الله ﷺ التي لم يروها أبو هريرة ، إذ كانت أحاديث أبي هريرة لديه [٢] ..

وكانت الدفاتر المدونة عن علم الزهري كثيرة جدا في خزانة الوليد بن عبد الملك [٣] ، وكان عمر بن عبد العزيز عالما مرهف الحس عظيم الوعي ، فقد أراد أن يوقف تيار الكذب على الرسول ﷺ الذي فشا ، فرأى أن يسجل الحديث الصحيح من تلك الثروة الهائلة ، فكتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم الأنصاري (ت .12هـ) يأمره أن يدون حديث رسول الله ﷺ قبل أن يدرس العلم ويفنى العلماء ؛ ويحضه على الجلوس للناس ونشر العلم كيلا يكون سرا فيضيع ؛ فقال له : " انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ؛ ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا " [٤] ، وقد كتب ابن حزم بعض ذلك ولكن ضاع منه ، وتوفي الخليفة ولم ير نتاجه [٥] ، وقد وضع هشام بن عبد الملك من يكتب أخبار الزهري عنه [٦] ..

ج) تدوين التاريخ والاهتمام به :

يشير بعض الباحثين إلى معاوية بن أبي سفيان على أنه كان "المؤسس الأول لعلم التاريخ الإسلامي ؛ أو على الأقل كان الراعي الذي عمل على أول تدوين باللغة العربية " للتاريخ " بمعناه العام لا على أنه المغازي النبوية وقصص الأنبياء ؛ ولا على أنه الأنساب وأيام العرب ، ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة ، وسير الملوك والحروب وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على الملوك " [٧] ..

وهذا الحكم يعتمد على مبررات تاريخية حقيقية ؛ فقد روى المسعودي أن معاوية " كان ينام ثلث الليل ؛ ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد ؛

---

[١] ابن سعد : الطبقات 361/2

[٢] السابق 448/7 ، سزكين: السابق 234/1

[٣] ابن سعد : السابق 236/2

[٤] البخاري : الصحيح ، باب كيف يقبض العلم 31/1 ، الدارمي : السنن ١٢٦/١ ابن سعد : السابق ٣٥٣/8

[٥] ابن حجر : تهذيب التهذيب 39/12 ، سزكين : السابق 228/1

[٦] راجع : شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ٩٥/١

[٧] راجع السابق ١٢٥/١

فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والآثار وأنواع السياسات "[١] .. وقد استقدم معاوية إلى دمشق أحد علماء اليمن البارزين في التاريخ وهو عبيد بن شرية الذي ألف عدة كتب منها "كتاب الملوك وأخبار الماضين" [٢] ، ولم يكن عبيد هذا هو العالم الوحيد الذي استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات وصيرها كتبا ؛ بل إن كثيرا من الأخباريين أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وفدوا على معاوية أيضا [٣] ..

ثانيا : الاهتمام بالشعر والشعراء :

استمر الشعر العربي في تألقه في العصر الأموي وقد ساعدت ظروف الحياة ومنجزات الدولة آنذاك على توسيع مجالات القول وإثراء اللغة، فقد وجد الشعراء في تعدد الآراء السياسية وتباين الأحزاب والجماعات وإيمان القادة بدور الشعر وأهميته ؛ وجدوا في ذلك كلـه سبيلا إلى الاهتمام بأمور الدولة ؛ فظهر الشعر السياسي الذي يعد من أبرز ملامح التطور الشعري في العصر الأموي ؛ ووجدوا مجالا جديدا للإبداع الفني في معارك الفتح ومواطن الظفر والنصر وساعات القتال والخوف ، وكان الشعراء يواكبون هذه الحياة الثرية بمشاركتهم الفعلية أو مساهمتهم الفنية ، ثم جاءت مظاهر الرفاهية التي وفدت على العالم الإسلامي مع اتساع مساحته ومشاركة غير العرب في نواحي نشاطه ووفرة الغنائم وكثرة الأموال ؛ جاءت هذه الرفاهية لتهيج بلابل الشعر عند جماعة من الشعراء توهجت عواطفهم وتيسرت حياتهم ؛ فأفرغوا جهودهم في شعر الغزل الصريح ، يلقونه واثقين من عفتهم وتفهم المجتمع الإسلامي لهم ؛ مع ما نالهم أحيانا من سوء ظن وكدر صفو .. بينما أطلق آخرون لأنفسهم الخيال وراء غزل عفيف يتغنون به وينسجون حوله القصص والخيالات عن عشاق عشقوا وماتوا ضحايا الهوى مخلصين لمن أحبوا ...

والأمويون شريحة من ذلك المجتمع النابض بالحياة ، ولكنها شريحة فعالة ومؤثرة ؛ وهم الحاكمون الموجهون دولاب النشاط السياسي والاجتماعي في ذلك العصر، ونحن نرصد بعض إسهاماتهم في تقدم مسيرة الشعر العربي الذي حظي دائما في هذه الفترة بالرعاية والاهتمام ..

---

[١] المسعودي : مروج الذهب 2/٤١

[٢] ابن النديم : الفهرست ١٣٢ ، المسعودي : مروج الذهب 2 /٨٥

[٣] المسعودي : السابق 406/2 ، شاكر مصطفى : السابق:125/

أ) علاقة الأمويين بالشعراء :

لقد أدرك الأمويون أهمية الشعراء في الدعاية السياسية لهم إزاء الأحزاب السياسية الأخرى ؛ وأهميتهم في إبراز منجزات الدولة ودحض حجج الخصوم ؛ ولذلك فقد جمعوا حولهم جماعة من أكابر الشعراء في ذلك العصر، منهم من اختص بهم وانقطع إليهم ؛ ومنهم من مدحهم بين الحين والآخر، وكان ذلك دأب ولاتهم أيضا [١] ، وبعض هؤلاء الشعراء ظل على ولائه لبني أمية حتى في أيام محنتهم أو تسلط خصومهم ؛ كأبي صخر الهذلي الذي عانى اضطهاد ابن الزبير له وسجنه إياه [٢] ؛ وكذلك أبو العباس الأعمى الذي نفاه ابن الزبير إلى الطائف [٣] ، ثم لم يزحزحه ذلك عن ولائه للأمويين حتى إذا جاء سلطان بني العباس عرفوا ذلك فيه فتنكروا له [٤] ، وكذلك فعل العباسيون مع أبي عطاء السندي لعلمهم بميله إلى بني أمية ، حتى هجاهم وأنشد شعرا يترحم فيه على أيام الأمويين وعزهم [٥] ..

ووجد بالمثل شعراء آخرون منحرفون عن الأمويين ، منحازون لأعدائهم ، وكم لاقى الأمويون من لسانهم وقولهم ، فإذا ما انهزمت أحزابهم وأتوا إلى الأمويين من جديد عرفوا لهم قدرهم وخطرهم فغفروا لهم ، وكان هناك فريق آخر من الشعراء الذين لا ينتمون إلى حزب بعينه ، فإذا لم يعجبهم من أحد شيئا سلقوه بألسنة حداد ، كما فعل يزيد بن مفرغ الحميري مع ابن زياد ، حيث هجاه هجاء مقذعا ، فلما خاف تبعة عمله استجار بمعاوية فأجاره، ثم صفح عنه ابن زياد [٦] ، وكذلك صفح الحجاج عن العديل بن الفرخ ؛ وتناسى هجاءه إياه واستهانته بوعيده [٧]، وكان ابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين محاربا في صفوفهم مع مصعب بن الزبير ، فلما انتصر عليه عبد الملك عفا عن الشاعر ونال مدائحه [٨] ، وبالمثل فعل هشام بن عبد الملك مع الكميت بن زيد شاعر الشيعة ؛ بعد أن كان أمر بالتنكيل به وسجنه لما أسرف في هجاء بنى أمية ، ثم عفا عنه في النهاية [٩] ، والأمثلة على ذلك عديدة ... وبصورة عامة فإن حلم الأمويين قد امتد ليشمل كثيرا من الشعراء المعارضين ،

---

[١] الحوفي : أدب السياسة في العصر الأموي ٢٣٢-٢٣٣

[٢] الحوفي : السابق ١٥٣

[٣] الأصفهاني : الأغاني 243/16

[٤] راجع السابق 228/16 ـ 230

[٥] السابق 250/17 ـ 251

[٦] راجع الطبري : السابق 5 / ٣١٧-٣٢١ ، الأصفهاني : السابق 60/17 ـ 61

[٧] راجع الحوفي : السابق ص 251

[٨] راجع السابق ص 250 ، الأصفهاني : الأغاني ٥/ ٦٩-٧٠

[٩] الأصفهاني : السابق ١٦/ 338ـ ٢39

اللهم إلا في حالات قليلة كان فيها الشاعر خارجا عن الجماعة محاربا للدولة ، مثلما حدث مـــع أعشى همدان الذي اشترك في ثورة ابن الأشعث فقتله الحجاج [1] ..

وهكذا استطاع الأمويون تجميع كثير من هذه الألسنة الحداد ، وجعلها خادمة لأهدافـــهم ورؤيتهم ، وساعدهم على ذلك ثراؤهم ؛ وظنوا أن إعطاء هؤلاء من بيت المال ليس حراما ، إذ إنهـم يدعون إلى تمكين سلطان الإمام وحرب الخارجين عليه ، وتمجيد منجزات الدولة ، فـــهم بمثابـــة جهاز إعلامي خطير لابد من وجوده ؛ ولا ضير من معاونته وتقويته ...

ب) اهتمام الأمويين بالدور الاجتماعي والتربوي للشعر :

ومن ناحية أخرى كان الأمويون تواقين للشعر ، مدركين أهميته ودورة الاجتماعي بغـــض النظر عن نفعه السياسي ..

فقد كتب معاوية إلى زياد أن أوفد إلي ابنك ، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شـــيء إلا نفذ منه ، حتى سأله عن الشعر، فلم يعرف منه شيئا، فقال له : ما منعك من تعلم الشعر ، فقال: يـــا أمير المؤمنين إني كرهت أن أجمع في صدري مع كلام الرحمن كلام الشيطان ، فقال معاوية : اغرب ؛ فوالله ما منعني من الفرار يوم صفين إلا قول ابن الاطنابة حيث قال :

أبـــت لي عفـــتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثـــمن الربيح
وإعطائي على الإعـــدام مالي ... وإقدامي على البطل المشيـــح
وقولي كلما جشأت وجاشـــت ... مكانك تحمدي أو تستريحـــي

ثم كتب إلى أبيه أن روه الشعر، فرواه حتى كان لا يسقط عنه شيء منه [2] ..

وروى ابن عساكر بإسناده عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب : " قال معاويـــة لعبـــد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص : قد رأيتك تعجب بالشعر (وكان عبد الرحمن شاعرا) ؛ فإذا فعلـــت فإياك والتشبيب بالنساء ، فتعر الشريفة وترمي العفيفة ، وتقر على نفســـك بالفضيحـــة ، وإيـــاك والهجاء فإنك تحنق به كريما وتستثير به لئيما ، وإياك والمدح الوقاح ، وطعمة السؤال ، ولكن افخـــر بمفاخر قومك ، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك وتؤدب به غيرك " [3] ..

---

[1] الطبري : السابق ٦/ 377ـــ 378

[2] ابن كثير : البداية والنهاية ٨/283 ـــ 284

[3] ابن عساكر تاريخ دمشق مجلد ٤/272 ، 407

ج) تذوق الأمويين الشعر وعنايتهم بتدوينه :

وكان عبد الملك خبيرا بالشعر ناقدا له ؛ وقد أحس أن مدح بعض الشعراء لـــه جـــاف ؛ يصدر عن عاطفة باردة فقال : " تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر ومرة بالجبل الأوعر ؛ ومـــرة بـــالبحر الأجاج ؛ ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خزيم في بني هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم　　　　وليلكم صلاة واقتراء

إلى آخر الأبيات [١] ..

ولما وفد عليه ذو الرمة ومدحه بقصيدة أطال فيها وصف الناقة ولم يذكـــر الخليفـــة إلا في بيتين اثنين قال له عبد الملك : ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك فخذ منها الثواب .. [٢]

بل كان عبد الملك يختبر رعيته في الشعر ويحزنه تضييع بعضهم له ؛ فقد رووا أنه كـــان معجبا بشعر عبد الله بن جحش فكتب إليه بالقدوم ؛ فورد كتابه وقد مات ؛ فجاءه ابنه يرجو ثوابه ؛ فلما سأله عن بعض شعر أبيه لم يعرف ؛ فقال : أف لك ، ورحم الله أباك ، فقد ضيعـــت أدبـــه ؛ وعققته إذ لم ترو شعره ، أخرج فلا شيء لك عدنا [٣]..

ولما قدمت عليه قبيلة عدوان تقدمهم رجل وسيم عفيف ، وكان فيهم معبد بـــن خـــالد الجدلي ؛ وكان دميما فتأخر فيهم ، فأنشد عبد الملك بعض أبيات ذي الإصبع العدواني وسأل عنـــها الرجل الوسيم فلم يحر جوابا ؛ وكان معبد يجيب في كل مرة ؛ فأنقص عطاء الجميل من ســـبعمائة إلى ثلاثمائة وزاد عطاء معبد من ثلاثمائة إلى سبعمائة [٤] ..

وهكذا كان كثير من خلفاء بني أمية يطرب للشعر ويجزي عليـــه [٥] ، وكـــان هـــذا دأب أمرائهم ؛ حتى لقد أوصى مسلمة بن عبد الملك بثلث ماله لأهل الأدب وقال : " إنها صنعة جحـــف بأهلها " [٦] ، بل كان بعضهم شعراء معروفين بجودة شعرهم ؛ مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيـــد من الخلفاء ؛ وعبد الرحمن بن الحكم ــ الذي سبق ذكره ــ من الأمراء ...

---

[١] الحوفي : السابق ص 157

[٢] الأصفهاني : الأغاني 150/10 ، الحوفي : السابق ص236

[٣] الأغاني 158/19 ـ 160

[٤] الطبري : السابق 163/6 ـ 164

[٥] راجع عن مواقف لهشام بن عبد الملك : الحوفي : السابق ص236

[٦] ابن كثير : السابق ٣٢٩/٩

ومن الجدير بالذكر هنا أن اهتمام الأمويين بالشعر لم يقتصر على هذه الجوانب المتعددة بل امتد أيضا إلى محاولة جمعه وتدوينه ، حيث كلف الوليد بن عبد الملك حمادا الرواية بجمع الشعر الجاهلي في ديوان [١] ..

ثالثا : اهتمام الأمويين بالعلوم التجريبية والترجمة :

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم .. وكان لابد — للإفادة من ذلك التراث — من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا " تراثا تقليديا تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية " [٢] ..

وقد كان بعض هذه الترجمات حافزا على الاهتمام بالعلوم التجريبية وربما كان العكس صحيحا أحيانا .. ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين؛ ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة على نحو ما سنرى ..

فقد كان معاوية سباقا إلى رعاية العلوم وأهلها فأنشأ بيتا للحكمة " أي مركزا للبحث ومكتبة ، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى في أسفارهم وحروبهم، يسألون عنه ويهتمون به" [٣] كما بنى الأمويون مرصدا في دمشق ، والمراصد تدل على قوس عريض في العلم لما تقتضيه من أدوات وقتية ومن خبرة ومن علم [٤] ، ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصراني طبيب معاوية في نقل بعض معارف الطب إلى العربية [٥]، وكان يحيى الدمشقي النصراني من علماء دينه والقادرين على الترجمة إلى العربية ؛ وكان صديقا ليزيد بن معاوية ؛ واتسع له حلم الخليفة ووزرائه حتى ألف عدة مؤلفات في العقيدة المسيحية والدفاع عنها ؛ وفي التاريخ والفلسفة والخطابة والشعر؛ منها كتاب لإرشاد النصارى في جدالهم مع المسلمين؛ وكانت بعض مناقشاته تحدث في مجلس الخليفة نفسه [٦] ..

على أن بداية الجهود الحقيقية في الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد بن معاوية حكيم بني أمية، وقد تتلمذ للراهب الرومي مريانس وتعلم منه صنعة الطب والكيمياء ؛ وله ثلاث رسائل في الصنعة ؛ ذكر في إحداها ما كان بينه وبين مريانس ؛ وكيف تعلم منه الرموز التي أشار إليها [٧] ؛ ويعتبر خالد أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية ؛ فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانين ممن

---

[١] الأغاني 144/5 — 165 ، شاكر مصطفى : السابق 95/1

[٢] فيليب حتي : تاريخ سورية 132/1

[٣] العش الدولة الأموية ص 348

[٤] السابق والصفحة

[٥] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ١٧١

[٦] حتي : تاريخ العرب 314/2 ، الخولي : أدب السياسة ص 402

[٧] ابن خلكان : السابق 2/٢٢٤ ابن النديم الفهرست ص ٤٩٧

درسوا بمدرسة الإسكندرية في مصر وتفصحوا بالعربية كذلك ؛ فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي ، وكان هذا أول نقل في الإسلام [١] ، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب ، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية [٢] ، وهو أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجمت لـه كتـب النجـوم والطـب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات ، وهو أول من جمعت له الكتـب وجعلـها في خزانـة الإسلام .. ففي دمشق إذن أنشئت أول دار للكتب في العالم العربي [٣] ..

وفى عهد مروان بن الحكم ترجم طبيب يهودي فارسي الأصل اسمه ماسـرجويه كتابـا في الطب عن السريانية ؛ وكان قد ألفه باليونانية راهب نصراني في الإسكندرية يدعى أهرون [٤] ..

أما عبد الملك بن مروان فقد قام بأعظم هذه الأعمال جميعها في الترجمة وأكثرها خطرا وأثرا حين أمر بتعريب الدواوين ؛ ففتح للعربية بابا واسعا للانتشار والثراء ... وفى عهد عمر بن العزيز أمر الخليفة بنقل معاهد الطب من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران [٥] ، وأشار عمر على بعـض الـروم الذين كانوا في قصره وكانوا يعرفون العربية أن يترجموا له بعض كتب اليونان ، فترجموا له كتابـا في الطب ، وأخرجه للناس بعد أن استخار الله أربعين يوما [٦] ..

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك مشغوفا بالاطلاع على الآثار الأدبية الخاصـة بـالأمم الأخرى ، فقد أمر بترجمة كتاب عن تاريخ فارس يحتوى على صور الأكاسرة الذين ورد ذكرهم فيـه ؛ وذلك سنة 113هـ ، ويخبرنا المسعودي أنه رأى هذا الكتاب سنة 303هـ في إصطخر [٧] ، وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين بالخليفة ؛ فترجم سالم مولاه بعض كتب أرسطو إلى العربية ؛ كما ورث ابنـه جبلة بن سالم عن أبيه كثيرا من معارفه وعلومه فترجم بعض الآثار التاريخية الفارسية إلى العربيـة [٨] ، ثم جاء ابن المقفع الأديب الفارسي الأصل بعد ذلك في أواخر العصر الأموي فترجم آثاره الجليلة مثل كليلة ودمنة وغيرها عن الأدب الفارسي [٩] ..

---

[١] ابن لنديم : الفهرست ص 352 ، وراجع د . عمر فروخ : العلم في العصر الأموي ص ١٥٠ ، مقال بمجلة المجمـع العلمي العراقي ج١ مج ٤٠ يناير سنة ١٩٦٥م

[٢] راجع : د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ٥٢٤/١

[٣] كرد علي::خطط الشام 23/4 ــ 24

[٤] ابن النديم : السابق ٤١٣ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص 192

[٥] ابن أبي أصيبعة : السابق ص ١٧١

[٦] الحوفي : أدب السياسة ص 403

[٧] المسعودى التنبيه والإشراف ص ١٠٦ ، عمر أبو النصر : الحضارة العربية ص 355

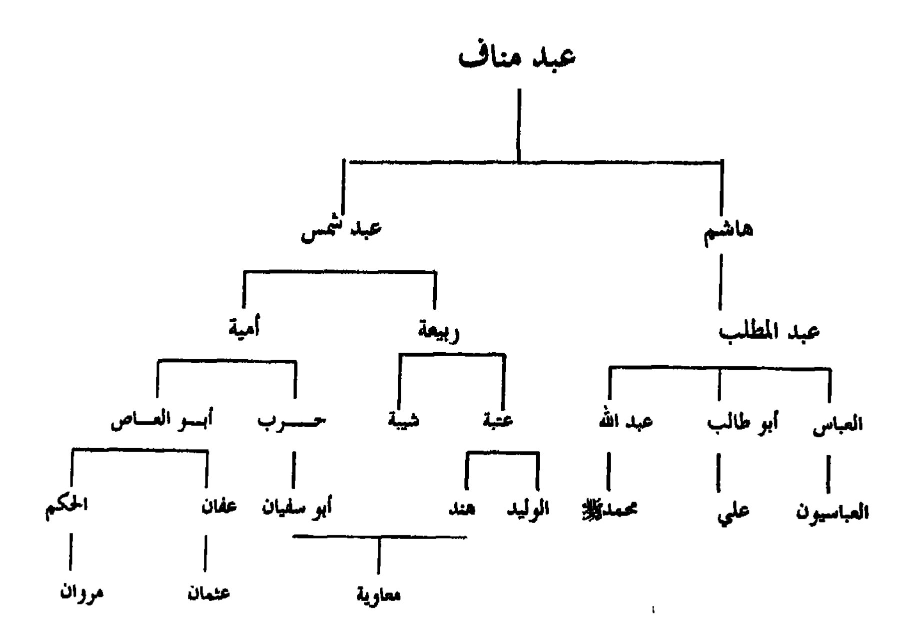
[٨] ابن النديم الفهرست ص ١٧١ ، عمر أبو النصر : السابق والصفحة

[٩] ابن النديم : السابق ١٧٢

الملاحق

ملحق رقم (١)

نسب بني أمية وقرابتهم لبني هاشم



ملحق رقم (٢)

الخلفاء الأمويون وسنوات حكمهم

١- معاوية ين أبي سقيان ٤١-٦٠هـ ، (٦٦١-٦٧٩م)

٢- يزيد بن معاوية ٦٠-٦٤هـ ، (٦٧٩-٦٨٣م)

٣- معاوية بن يزيد ٦٤هـ ، (٦٨٣-٦٨٤م)

٤- مروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ ، (٦٨٤-٦٨٥م)

٥- عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٦هـ ، (٦٨٥-٧٠٥م)

٦- الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ ، (٧٠٥-٧١٥م)

٧- سليمان بن عبد الملك ٩٦-٩٩هـ ، (٧١٥-٧١٧م)

٨-عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١هـ ، (٧١٧-٧٢٠م)

٩- يزيد ين عبد الملك ١٠١-١٠٥هـ ، (٧٢٠-٧٢٤م)

١٠- هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ ، (٧٢٤-٧٤٣م)

١١- الوليد بن يزيد ١٢٥-١٢٦هـ ، (٧٤٣-٧٤٤م)

١٢- يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦هـ ، (٧٤٤م)

١٣- إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦-١٢٧هـ ، (٧٤٤م)

١٤- مروان بن محمد ١٢٧-١٣٢هـ ، (٧٤٤-٧٤٩م)

ملحق رقم (٣)

موقف الإسلام من الغنائم

ينص الإسلام على وجوب إخلاص نية الجهاد لله ؛ لتكون كلمة الله هي العليا ، وقد ورد تعبير " في سبيل الله " مرتبطا بالجهاد والقتال ٣٢ مرة في القرآن الكريم ، ولا يكاد أمر بالقتال يخلو من ذلك التعبير [١].. وقد أوضح النبي ﷺ أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، وليس من قاتل لمغنم أو ذكر [٢]، وقد نظم القرآن أمر الغنائم والأنفال تنظيما دقيقا ، وبين مصارفها كما اعتبرها منة من الله على المؤمنين ما دامت تأتي كنتائج للقتال ، إذ إنها " في وضع الشرع غير مقصودة " [٣] ، وقال النبي ﷺ في معرض تعداده نعم الله عليه : " وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي " [٤] ، كما أمر النبي أصحابه بالخروج يوم بدر قائلا : هذه عير قريش فيها أموالهم ، اخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها [٥] ؛ وكانت ممارسات أبي بكر وعمر في قيادة حركة الفتوح والتخطيط لها تضع حافز الغنائم كأحد المثيرات النفسية للجهاد ؛ بخاصة عند القبائل العربية التي أسلمت بأخرة ، مثلما حدث عندما حرض أبو بكر العرب عند دعوتهم لقتال الروم [٦]، وكما رغبهم عمر كي يتجهوا لقتال الفرس ـــ وكانوا يكرهون قتالهم ـــ حتى جعل لبجيلة ربع ما غلبوا عليه إن ساروا نحو العراق [٧]، وقال أحد جنود العرب وقادة القبائل محرضا إياهم على قتال الروم يوم اليرموك : " وكيف ندع هذه الأنهار المتفجرة والزروع والأعناب والذهب والفضة والديباج ؛ ونرجع إلى قحط الحجاز وجدبه وخبز الشعير ولباس الصوف " ، وقد أيده في حديثه قائد المسلمين أبو عبيدة بن الجراح المشهور بزهده وورعه [٨]، لأنه يعرف أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للتقوى ،

---

[١] د. جميل عبد الله المصري : الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ، مقال بمجلة المنهل السعودية ص ٧٠ ، وراجع : محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لملاحظة هذه الظاهرة ..

[٢] البخاري حديث رقم ٢٨١٠

٣ الجويني : غياث الأمم ٢٠٧ ، وراجع سورة الحشر ، وسورة الفتح ١٩–٢٠ ، وسورة الأنفال ٧ ، وسورة الأحزاب ٢٦–٢٧

٤ راجع مسلم : صحيح مسلم كتاب الجهاد ١٢/٥٣ ، وأحمد : المسند رقم ٧٤٢٧

[٥] ابن هشام :السيرة النبوية ٢/١٠٨

[٦] البلاذري : فتوح البلدان ١١٥

٧ السابق ٣٥٣

٨ الواقدي : فتوح الشام ١/ ٩٨–٩٩

وأن المال في الحقيقة مال الله الذي استخلف فيه عباده ، ليطيعوه ؛ فإذ لم يفعلوا أدال منهم وأورثـــه قوما آخرين ...

ملحق رقم (٤)

آراء الفقهاء حول تعيين أهل الحل والعقد

اختلفت آراء فقهائنا في المراد من مصطلح أهل الحل والعقد ، فمنهم من يقوا إنهم الفقـهاء والعلماء الذين يمتازون بالحصافة وعمق الدراية والإخلاص لدين الله عز وجل ، ممن أطلق عليهم فيما بعد اسم : المجتهدين ، وقد فسروا بذلك لفظ : أولي الأمر في قوله تعالى : " وأطيعـوا الله وأطيعـوا الرسول وأولي الأمر منكم " [١] ، وممن قال بذلك من الصحابة ابن عباس ، ومن التابعين مجاهد ، ومـن المتكلمين الماوردي ، وبعض المحدثين [٢] ، ويمكن وصف هذه النظرة في تحديد معنى أهل الحل والعقـد بأنها نظرة تجريدية تتخطى الواقع التاريخي للأمة ؛ حيث لم تكن طائفة العلماء والفقهاء هـي صاحبـة الكلمة الأولى في اختيار الحكام في معظم فترات تاريخنا ، بل كانت في بعض الأحيان طائفة مسـتبعدة من دائرة الاختيار ؛ تتعرض للأذى والنكال وتسلط المتغلبين على الحكم ، وهي نظرة مثالية تفـترض وجود مجتمع فاضل يجعل على قمة جهازه السياسي والإداري طبقة مثقفة واعية تقـوده نحـو المثـل الأعلى؛ وربما بدت هذه النظرة متأثرة إلى حد كبير بما ينبغي أن يكون ، وبما كان حادثا بـالفعل في دولة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، تلك الفترة التي كانت فيها دائرتا السياسة والعلم منطبقتـين انطباقا يكاد يكون كاملا ، فكانت الطليعة البارزة في ذلك المجتمع ـ أو أهل الحل والعقـد فيـه ـ أعلم الناس بالإسلام وأخلصهم له ، وكانت الأمة من حولهم مدفوعة بدافع التديـن الصـادق إلى الالتزام بآرائها وتبجيلها ، غير أنها للأسف كانت فترة صغيرة من عمر تاريخنا لم تستغرق أكثر مـن بضع وثلاثين سنة ، وبدأت في أواخرها دائرتا السياسة والعلم تفترقان تدريجيا وبدرجة متزايدة ...

وفي عصر متأخر من عصر الصحابة والتابعين الذين حددوا غالبا مفهوم أهل الحل والعقـد كما سبق ، كانت مساحة الرؤية أكثر اتساعا ووضوحا ورصدا للتطور الحادث في ذلك المصطلـح ؛ كما نجد عند ابن تيمية وابن خلدون والجويني وغيرهما ، فابن تيمية يقول : " ولا يصير الرجل إمامـا

---

[١] سورة النساء آية ٥٩

[٢] راجع : ظافر القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ص ٢٣٥-٢٣٦ ، وممن ذكر أن ذلك رأيهم من المحدثين : د. سعيد رمضان البوطي من فقهاء الشام المعاصرين .

حتى يوافقه أهل الشوكة الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة ، فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان " [١] ..

ويسير ابن خلدون في نفس الاتجاه فيرى أن الشورى والحل والعقد " لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك ، وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا ولا من حمايتها إنما هو عيال على غيره ، فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها " [٢] ، ويقول الجويني : " فالوجه عندي في ذلك أن نعتبر في البيعة حصول مبلغ من الأتباع والأنصار والأشياع يحصل بهم شوكة ظاهرة ومنعة قاهرة " [٣] ، ثم يقول في الرد على من يعتبرون أهل الحل والعقد هم أهل الاجتهاد الفقهي : " فلا أرى لاشتراط كون العاقد مجتهدا وجها لائحا ، ولكن أشترط أن يكون المبايع ممن يفيد مبايعته منة واقتهارا .. " [٤] .

ومن علمائنا المعاصرين يرى الإمام محمد عبده أن أهل الحل والعقد هم : " الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء ، الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح بعامة " [٥]، وهذا القول كأنه تفسير عصري لمعنى أهل الشوكة والعصبية في عصرنا والتي تحدث عنها العلماء السابقون [٦] ..

---

[١] منهاج السنة ١٤٢/١

[٢] المقدمة ٦٣٤/٢

[٣] غياث الأمم ٥٥-٥٦

[٤] السابق ص ٥٧

[٥] مجلة المنار ص ٣٨٣-٣٨٩ الجزء الثاني عشر من المجلد الثالث عشر ، عدد الأحد ٣٠ ذي الحجة ١٣٢٨ هـ ، ١ يناير سنة ١٩١١م

[٦] راجع :محمد عبده : تفسير القرآن الحكيم ٢٠٣/٤ -٢٠٤

ملحق رقم (٥)

دراسة حول أسباب العداء بين القيسية واليمانية

حاول بعض المؤرخين رد العداء بين القيسية واليمانية إلى جذور تعود إلى العصر الجاهلي ، على أن ذلك لا دليل عليه ، فقد عاش العرب الشماليون والجنوبيون معا قبل الإسلام دون صراع خاص ، إلا ما كان من شأنه أن يحدث بين القيسية أنفسهم أو اليمانية أنفسهم في مجتمع الجاهلية [١]، ويميل جولدسيهر إلى اعتبار العداوة بين عرب الشمال وعرب الجنوب نتيجة ثانوية للخصومة المزعومة بين قريش والأنصار ـــ الذين يعدون من عرب الجنوب ـــ ويبدو ذلك الافتراض تعسفا للأحداث والنتائج ، أما فلهوزن فيؤكد وجهة النظر القائلة بأن العداء بينهما لم يظهر قبل فتح الشام وهجرة قيس إلى هناك [٢] ، هذا في حين يرجع بروكلمان أن العداوة بين الفريقين قائمة على أساس الفروق الجنسية بين عرب الشمال وهم شرقيون خلص وعرب الجنوب الذين تسري في عروقهم دماء عربية مختلطة [٣] ا.. ويفترض آخرون أن الصراع بينهم يعود إلى أسباب اقتصادية خالصة ؛ حيث يرى أن كلا الفريقين كان يمثل حزبا سياسيا ذا رؤية متميزة ، وبخاصة فيما يتصل بالفتوحات الإسلامية والموقف إزاء الاندماج مع الشعوب في البلاد المفتوحة [٤] ..

ولاشك أن تفجر الصراع بين القيسية واليمانية في مرج راهط لم يكن له صلة بالفتوحات والموقف من الشعوب المفتوحة مما يشكك في سلامة التصور السابق ..

ومن الواضح وجود فروق ثقافية واجتماعية بين عرب الشمال ـــ الذين كانوا أكثر بداوة وأقل غنى وثروة قبل الإسلام ـــ وعرب الجنوب الذين كانوا أكثر تحضرا واحتكاكا بالثقافات الأجنبية ؛ حبشية كانت أو فارسية أو رومية [٥]، وقد استمرت بعض هذه الفروق في التأثير بعد الإسلام ، ثم تجاور الفريقان في البلاد المفتوحة وحدث تنافس اجتماعي واقتصادي وجد الغطاء السياسي المناسب له في فترة ضعف الخلافة الأموية ، فتفجر على ذلك النحو المثير في مرج راهط ، وكان من الطبيعي أن يستمر بعد ذلك لاستمرار بعض أسبابه وطروء أسباب أخرى تتعلق بالثأر والكرامة وغيرها من خصال متحكمة في الشخصية العربية ...

---

[١] د. يوسف العش : الدولة الأموية ص ١٨٥-١٨٦

[٢] راجع عن ذلك : د. العش : السابق ١٨٦-١٨٧ ، د. عبد الأمير دكسن : الخلافة الأموية ص ١٣٩-١٤٠ ، فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ص٥٥ ، ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٢/ ٩٣-٩٤

[٣] تاريخ الشعوب الإسلامية هامش ص ١٥٦-١٥٧

[٤] د. شعبان : السابق ١٣٥-١٣٩.

[٥] راجع : د. فتحي عثمان : السابق ٥٨-٥٩

خاتمـــة الكتاب

استهدف هذا البحث : إظهار حقيقة التاريخ الأموي ، وتجلية ملامحه الأساسية ، ودراسة أهم شبهات المؤرخين عنه ؛ بغية إنصافه ورد حملات التشويه عنه ، وقد انتهى الباحث إلى عدة نتائج ـــ بسط أسبابها وشرح مقدماتها في صفحات هذا البحث ـــ أهمها :

1 ـــ إن دراسة الظروف التاريخية التي أحاطت بتدوين التاريخ الأموي توضح بجـــلاء أن عملية التدوين تمت في مناخ معاد للأمويين ، وخضعت لعدة عوامل ساعدت على تشويه كثير مـــن أحداث ذلك التاريخ . وأبرز هذه العوامل تأثير الأحزاب السياسية المعادية للأمويين على رواة ذلـــك التاريخ وكتابه ، حيث كان عديد منهم من الشيعة أو الشعوبيين أو المعتزلة ، كما أن ذلك التدوين تم في العصر العباسي حيث سيطرت روح العداء للأمويين ، والرغبة في تشويه تاريخهم ومنجزاتهـــم .. علاوة على ذلك فقد ضاع كثير من النتاج التاريخي الباكر الذي روي أو كتب عـــن الأمويـــين في عصرهم ، أو بيد أنصارهم وأوليائهم .. كما صنعت الدعاية ضد الأمويين في أواخر عـــهدهم وفي العصر العباسي الأول طبقة من الغوغاء والعوام معادية للأمويين ، وموالية لأعدائـــهم مـــن الشـــيعة والعباسيين ، وكان تأثيرها عظيما على الرواة والمؤرخين ، حيث أشاعت جوا من الإرهاب والخـــوف ألجم كثيرا من الألسنة ، وحال بينها وبين إظهار كثير من محاسن الأمويين ..

2 ـــ ودراسة ما كتب عن الأمويين في كتابات المؤرخين القدماء تظهر أن هذه الكتابـــات اعتمدت اعتمادا كبيرا على تسجيل الروايات التاريخية دون نقدها ، مع الوقوع تحت تأثير الـــرواة النشطين من المتحاملين على الأمويين ، من شيعة ومعتزلة وشعوبيين .. لقد كان بعض كبار مؤرخينـــا أيضا مستعدين لإفساح المجال لهذه الروايات ، حيث كان بعضهم من الشيعة كاليعقوبي والمسعودي ، وكان آخرون يرددون ما يصلهم مما اشتهر من هذه الروايات تاركين للقارئ مهمة قبولها أو تركـــها كما فعل الطبري ..

3 ـــ وعند بحث ما كتبه الأدباء البارزون من القدماء عن بني أميـــة اتضـــح أن الغـــرض الأساسي من كتاباتهم كان تحقيق المتعة الفنية والأدبية ، مع ضمور النقد التاريخي عندهم ، وقـــد أدى ذلك إلى قبولهم كثيرا مما يحقق هدفهم ، وإن لم يكن صدقا أو يعبر عن حقيقة هذه الفترة التاريخيـــة ، وإضافة إلى ما سبق فإن عديدا من هؤلاء الأدباء كالجاحظ والأصفهاني وابن أبي الحديد كانوا مـــن المتحزبين ضد الأمويين والمتحاملين عليهم بسبب اعتزالهم أو تشيعهم .

4 ـــ على أن كثيرا من العدالة والإنصاف نجدها في كتابات الفقهاء التاريخية عـــن الدولـــة الأموية ، فقد تحررت من الحزبية السياسية والأهواء المذهبية ، وعمدت إلى نقد الأخبار والروايات ؛ مع أنه من المؤسف حقا أن هؤلاء الفقهاء لم يكتبوا تاريخا متصلا إلا نادرا ، إذ كان منهجهم المتشـــدد

في قبول الروايات يحول بينهم وبين ذلك ، وقد قدمت في هذا الكتاب نماذج لإنصاف اثنين من أبرزهم الأمويين ؛ وهما ابن العربي وابن تيمية .

٥ـ واستمرت اتجاهات التحريف والتشويه في كتابات المؤرخين المعاصرين ، فكان للمستشرقين دورهم في التشويش على التاريخ الأموي ، وكان ذلك نتيجة متوقعة لمؤثرات منهجية أثرت على كتاباتهم في التاريخ الإسلامي عامة ..

وعند مؤرخينا من العرب والمسلمين اتضح وجود عدة تفريعات لتيار التحامل على الأمويين ؛ منها التأثر بالاستشراق ، والتعلق بالتفسير المادي للتاريخ ؛ وهو مذهب فلسفي غربي في فلسفة التاريخ حاول بعضهم تطبيقه على التاريخ الأموي ، ثم جاءت كتابات فريق من غير المختصين في التاريخ لتضيف مزيدا من التشويه للتاريخ الأموي ، وقد قدمت نماذج لكل من هذه الاتجاهات في صفحات هذا الكتاب ..

على أنه ظهر في عصرنا اتجاه آخر حاول إنصاف الأمويين وتحسس الطريق لذلك الهدف في وسائل ثلاث ؛ أولها : الحذر من روايات المؤرخين القدماء ؛ وثانيها : رد شبهات المتحاملين على الأمويين أو مناقشتها ، ثم إظهار مآثر الأمويين وحضارتهم ..

وعند بحث شبهات المؤرخين عن الدولة الأموية اتضح لنا ما يلي :

٦ـ إن بني هاشم وبني أمية لم يكونوا في موقف عداء وتربص قبل بزوغ شمس الإسلام ، فالفريقان ينتميان إلى جد واحد هو عبد مناف ، وكان بينهما تعاون وتصاهر ، فلما جاء الإسلام آمن به فريق من بني أمية مع أول من آمن من قريش ، وكان آخرون في صفوف أعدائه مثل غيرهم ، ثم إنهم لم يكونوا ــ عند تحليل مواقفهم أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ولا أكثرهم كفرا به ، ولكن الذي أساء إليهم هو زعامة أبي سفيان للمشركين في عدة معارك ضد الإسلام ، ثم آمن أبو سفيان قبيل الفتح بقليل ؛ وتبعته زوجته هند بنت عتبة بعد الفتح وحسن إسلامها.. وولى النبي ﷺ من بني أمية الولاة والعمال ، واتخذ معاوية كاتبا للوحي ..

٧ـ وساهم الأمويون في صنع مجد الإسلام وتاريخه ــ زمن أبي بكر وعمر ــ فكان لهم دور بارز في حرب المرتدين ثم في الفتوح الكبرى ، وولي معاوية الشام فقام بجهود بارزة في الدفاع عنها ضد الروم وتكوين أسطول بحري إسلامي ..

٨ـ وفي خلافة عثمان ﷺ اشتد بروز الدور الأموي ، ولكن ليس صحيحا أن الخليفة قد حاباهم بغير حق ، أو انهم قد استغلوا خلافته .. ولما قتل عثمان طالب معاوية بالثأر له ، ولذا فقد امتنع عن البيعة لعلي ﷺ ، كما امتنع آخرون ، حيث كان يرى قتلة عثمان في مقدمة جيشه ، مع براءة علي ﷺ المعروفة من قتل عثمان .. واختلفت اجتهادات الرجلين فاقتتلا في صفين ، ثم كان التحكيم ، ثم قتل علي ، وبويع لمعاوية ، وليس صحيحا أن معاوية كان يستغل قتل عثمان أو يتستر

وراء ذلك لتحقيق مآربه ، كما أنه ليس صحيحا ما اشتهر من أن التحكيم كان خدعة لكسب الحرب ، بل كان حلا لا بد منه لوقف إراقة الدماء ، وكان رغبة صادقة عند الطرفين آن أوانها .. كما أنه لا صحة لخداع عمرو أبا موسى الأشعري وتبادلهما السباب القبيح ؛ فذلك من وضع الشيعة الكذابين الذين يسعون إلى إسقاط أقدار رجال لهم تاريخهم وفضلهم .

٩ـ ولما قامت الدولة الأموية كان شعارها الإسلام ، فكان جل الخلفاء والولاة ملتزمين به، ومجاهدين في سبيله ؛ والشبهات التي تثور حول مواقفهم الإسلامية لا تصمد أمام البحث البريء ، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين ثار حولهم لغط شديد كالحجاج بن يوسف وخالد القسري ... وراجت سوق الفتوحات في عصرهم وبذلوا الجهود لحراسة المجتمع الإسلامي من عوامل التفسخ الخلقي ، والمذاهب الضالة ، كما رعوا العلم والعلماء ، وكان المجتمع في عصرهم ـ بصورة عامة ـ ملتزما بقيم الإسلام ، وإن ظهرت ألوان من الترف لا تذهب بحقيقة الإيمان.

١٠ـ واحتلت الشورى مكانة مهمة في النظام السياسي الأموي عند معظم خلفائهم وولاتهم ، واحتفظ الأمويون بالاتصال المكثف بالرعية ، أما اعتماد الأمويين ولاية العهد مذهبا في توريث الخلافة ـ رغم مخالفة ذلك للنسق الإسلامي الأعلى الذي يؤثر الشورى الكاملة في اختيار الخلفاء ـ فهو أمر كانت ظروف المجتمع الإسلامي توحي به ، وكان عدم وجود طريقة واحدة للاستخلاف في عصر الراشدين ، وما جرى بين المسلمين من تقاتل ودماء بسبب اختلافهم حول منصب الخلافة ، دافعا لمعاوية للتفكير على ذلك النحو ، ولم يكن الأمويون وحدهم في الحقيقة هم الذين يعتمدون هذه الطريقة في الحكم ، بل كان خصومهم من الشيعة على ذات الطريق، بل هم في الحقيقة أول من ابتدعها وطبقها ، ثم أصبحت فكرة راسخة في النظام السياسي الإسلامي عدة قرون، فلم يغيرها العباسيون أو من تلاهم ..

١١ـ ولم يمنع الأمويون معارضيهم من التعبير عن آرائهم ومعارضتهم ، مادام ذلك يتم بطرق مشروعة ، أما إذا لجأ هؤلاء المعارضون إلى الثورة المسلحة فإن النظام الإسلامي نفسه لا يقرها إلا بشروط معينة ، وفي مراحل مخصوصة ، ومن هذا المنطلق كانت معالجتهم ثورة أهل المدينة وابن الزبير فحاولوا منع حدوث الثورة ، فلما اندلعت وهددت وجودهم ، حاربوها وقضوا عليها ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لثورة الحسين ﷺ التي شابها عدم الاستعداد والتسرع.

وليس صحيحا ما يزعمه المؤرخون من عداء بين بني أمية ـ في خلافتهم ـ وبني هاشم ، فقد كان الأمويون يجلون عليا ﷺ في الحقيقة ؛ أما ما شاع عن لعنهم له فتم في ظروف معينة ، وكرد فعل على تطاول الشيعة على زعماء الأمويين ؛ وتغريرهم بالبسطاء من الناس مستغلين حبهم آل البيت .. بل إن ما ناله آل البيت من مكانة في ظل الحكم الأموي لم ينالوها فيما بعد عند بني عمومتهم من العباسيين .

١٢- وإن ما ترويه كتب الأدب والتاريخ عن الاضطهاد الاجتماعي للموالي في العصر الأموي لا يعبر عن سياسة مقصودة للأمويين ؛ بل كان مرتبطا بتفشي روح العصبية القبلية عند بعض العرب الذين لم يتمثلوا بشكل كامل روح الإسلام التي تنص على المساواة بين البشر وأن لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى ، والأمثلة التي ترد عن ذلك التعصب الاجتماعي ضد الموالي لا تذكر دورا للأمويين فيه أو مشاركة ...

١٣- أما ما يذكرونه عن الاضطهاد السياسي للموالي في العصر الأموي فلم يكن عقيدة سياسية للأمويين ؛ وإنما صدرت بعض ممارسات العنف من الأمويين ضد الموالي ردا على حالات التمرد والثورة المتكررة من الموالي ذوي النزعة العنصرية القومية من الفرس ، ولذا فقد تركزت هذه الممارسات بصورة أساسية في العراق وفارس في أثناء الفترة الأولى من ولاية الحجاج بن يوسف على العراق ؛ حيث زخرت هذه الفترة بالثورات التي واكبت إعادة فرض سلطة الدولة بعد سنوات من التمرد والثورة .. ولم يحدث مثل ذلك النزاع في غرب الدولة الأموية ـــ حيث لا يسمي مؤرخونا أهلها الموالي ، بل يطلقون عليهم لفظ " البربر " ـــ إلا حينما تسلل إليه دعاة الفتنة من خوارج العراق والشرق في عهد هشام بن عبد الملك ..

١٤ – وعلى عكس ما يشيع عن الدولة الأموية فقد احتل كثير من الموالي المخلصين للدين والدولة مكانة كبيرة في العصر الأموي ، سواء كان ذلك في الناحية العلمية والدينية ، أو الحياة السياسية والإدارية والعسكرية ، وتتكاثر الأدلة على ذلك في مختلف المجالات .

١٥- وليس صحيحا أن الأمويين أحيوا العصبية القبلية عند العرب من جديد ؛ فالحق أن هذه العصبية كانت موجودة في التاريخ العربي منذ أمد بعيد ؛ وإن اختفت لفترة محدودة في عصر النبوة ثم عادت لتظهر تدريجيا في أواخر حياة النبي ﷺ نفسه ، وبلغت مرحلة خطيرة بالثورة على عثمان ﷺ وفي الحروب التي أعقبت قتله ، بل إننا نرى أدلة عديدة على محاربة الأمويين هذه العصبية القبلية طوال فترات طويلة من تاريخهم ، على حين كان أعداؤهم يجتهدون في استغلالها لمصلحتهم الضيقة ..

١٦- وتثور شكوك قوية حول الروايات التي تتهم الأمويين بإساءة التصرف في أموال المسلمين أو استغلالها لمصلحتهم الخاصة ، ومن هذه الشبهات ما يثار حول فرضهم ضرائب عديدة لا يحق لهم فرضها ، أو أخذهم الجزية ممن أسلم من الموالي .. وبالنسبة إلى هذه النقطة الأخيرة فإن ذلك لم يحدث إلا لفترة محدودة من تاريخ الدولة ، ولأسباب سياسية واقتصادية عمقت الشكوك في حقيقة إسلام هؤلاء الموالي ، وقد وجدت هذه الممارسات الأموية في المرتين اللتين حدثت فيهما من عارضها من العرب والأمويين أنفسهم ، وأبطل عمر بن عبد العزيز ما فعله الحجاج في المرة الأولى ، كما أبطل نصر بن سيار ـــ الوالي الأموي على خراسان ـــ ما فعله سلفه الأسبق أشرس السلمي ..

ولقد رأينا في أثناء البحث أن الأمويين كانوا في معظم الأحوال شديدي الحرص على مصارف بيت المال ، وأنهم وجهوا نصيبا عظيما منها إلى تحقيق مصالح الرعية وتلبية حاجاتها .

١٧- وقد شهد العصر الأموي عديدا من المنجزات الحضارية الكبرى التي واكبت حاجات الأمة وتطورها السياسي والإداري والنفسي .. فكان منها ما اتجه إلى تطوير الإدارة الإسلامية بابتكار بعض الدواوين مثل ديوان البريد وديوان الخاتم .. والاتجاه إلى صهر الأمة الإسلامية مختلفة الأجناس في الإطار العربي ؛ وذلك ببدء حركة التعريب الكبرى ؛ سواء بتعريب أهم دواوين الدولة وهو ديوان الخراج ؛ أو بتعريب العملة وذلك بسك العملة الإسلامية ؛ مما حقق الاستقلال الاقتصادي للدولة الإسلامية ، ومن هذه الإنجازات الحضارية ما اتجه إلى ميدان العمارة التي افتتن بها بعض الخلفاء والولاة ، فخلفوا لنا عديدا من المساجد الخالدة كالمسجد الأموي ، وعديدا من المدن الباقية كالقيروان وتونس وغيرها،وعديدا من القصور التي ما زالت بعض آثارها ماثلة في بادية الشام.

١٨- وشارك الأمويون مشاركة ناشطة في نهضة العلوم والمعارف في دولتهم ، فدفعوا باللغة العربية إلى الأمام خطوات واسعة بالتقعيد لها والتعريب لغيرها ، وأثروا الحركة الشعرية في عصرهم إثراء واسعا ، كما اهتموا ــ على نحو مثير ــ بالترجمة إلى العربية ونقل العلوم التجريبية وتيسير النبوغ فيها أو المعرفة بها للعرب والمسلمين ...

وهكذا فإن تاريخ الدولة الأموية ــ على كثرة ما كتب فيه ــ ما زال يحتاج إلى مزيد من البحث والعناية ، ولكن من منظور جديد يضع في اعتباره ما تعرض له تاريخ هذه الدولة من تحريف والفتراء ؛ حيث كتب كتاريخ دولة مهزومة بيد أعدائها ..

ورغم ما ورد في هذا البحث ؛ وأبحاث أخرى قليلة من محاولة لإنصاف الأمويين إلا أن تاريخهم يظل بحاجة إلى مزيد من البحث التفصيلي الذي يتتبع جوانب ذلك التاريخ المختلفة ، ويحاول بحث شبهات المؤرخين عنها بشيء من الاستقصاء والإنصاف ، مما سيؤكد الرؤية الصحيحة لذلك التاريخ الذي يحتل مساحة واسعة من خير القرون في عمر أمتنا المديد بإذن الله ، ذلك التاريخ الذي ينبغي أن يظل عاملا من أهم عوامل الإحياء في هذه الفترة العصيبة ... والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل ..

الخرائط

١ ــ مسرح عمليات معاوية الأمير

٢ــ مسرح عمليات معاوية الخليفة

٣ ــ فتح المغرب (أ)

ـ فتح المغرب (ب)

٥ ـ فتوح قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم

٦ ـ فتح الأندلس

المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات:

البياسي جمال الدين بن يونس بن محمد (ت ٦٥٤ هـ) :
الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٣٩٩.
السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١م) :
– الأساس في مناقب السادة بني العباس ، مخطوط بالمكتبة الأزهرية تحت رقم ٤٠٢٢ تاريخ .
ابن العديم أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (٥٨٨-٦٦٠ هـ) :
– بغية الطلب في تاريخ حلب ، نسخة مصورة عن مخطوط بأيا صوفيا رقم ٣٠٣٦ ، نشره معهد تاريخ العلوم بفرانكفورت سنة ١٩٨٨م .
ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (٤٩٩- ٥٧١ هـ) :
– تاريخ مدينة دمشق ، نسخة مصورة عن مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٥١ علم وأدب ٢٠٥ ، نشر دار البشير (د. ت)

ثانيا: المصادر:

ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ) :
– الكامل في التاريخ ط٤ ، دار الكتاب العربي ببيروت سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٥١-١٨٧٦م .
– أسد الغابة في معرفة الصحابة ،تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين طبعة دار الشعب(د.ت)
الأزدي أبو زكريا يزيد بن محمد (٣٣٤هـ) :
– تاريخ الموصل ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م
الأزرقي أبو الولي محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٣٤هـ) :
– أخبار مكة شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار ، طبع مدينة غتنغة سنة ١٢٧٥هـ
الإسفراييني أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن مهران (ت ٤١٨هـ) :
– نور العين في مشهد الحسين ، ط٣ ، مكتبة الحلبي بمصر ، سنة ١٣٧٤هـ /١٩٥٥م .

الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ) :
– الأغاني ، ط٦ ، دار الثقافة ببيروت سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٧م
– مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد محمد صقر ، ط٢ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن خليفة السعدي الخزرجي (٦٠٠-٦٦٨هـ) :
– عيون الأنباء في طبقات الأطباء؛ تحقيق د. نزار رضا؛ دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت).
ابن أعثم الكوفي أحمد بن علي (ت ٣١٤هـ) :
– الفتوح ، ط١ بالهند ، نشر دار الندوة ببيروت ، سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٢٥٦هـ) :
– التاريخ الكبير ط١ ، الهند سنة ١٣٦١هـ.
– الجامع الصحيح ، ط٥ ، عالم الكتب ، بيروت ، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤-٥٧٨هـ) :
– الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الثقافة الحديثة ، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م .
البغدادي الخطيب أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) :
– تاريخ بغداد ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٤٩هـ – ١٩٣١م .
– الكفاية في علم الرواية ، مراجعة عبد الحليم محمد وعبد الرحمن حسن محمود ، ط١ ، دار الكتب الحديثة ، سنة ١٩٧٢م .
البغدادي عبد القادر بن عمر (١٠٣٠- ١٠٩٣ هـ) :
– خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، سنة ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م .
البغدادي عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩هـ) :
– الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، (د.ت).
البغوي أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٣١٧ هـ) :
– معالم التنزيل (بهامش تفسير ابن كثير) ، تحقيق محمد رشيد رضا ، ط١ ، مطبعة المنار ، سنة ١٣٤٥هـ .
البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٣٧٩هـ) :
– أنساب الأشراف ج١ ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٥٩م .

ج٤ ، طبعة القدس ، سنة ١٩٣٦م .

ج٥ ، طبعة القدس ، سنة ١٩٣٦م ، وطبعة مكتبة المثنى ببغداد (د . ت) .

– فتوح البلدان ، نشرة دي غويه ، بريل ؛ ليدن ، سنة ١٨٦٦م .

البيهقي إبراهيم بن محمد (ت ٣٢٠هـ) :

– المحاسن والمساوئ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ) :

– السنن الكبرى ، ط١ ، الهند ، سنة ١٣٥٤ .

الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩– ٢٧٩هـ) :

– الجامع الصحيح، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة ،(د.ت)

ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ) :

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط١ ، دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م .

أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١ هـ) :

– ديوان الحماسة بشرح التبريزي ، ط٢ ، المكتبة الأزهرية ، سنة ١٣٣١هـ /١٩١٣م .

ابن تيمية الحراني ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨هـ) :

– مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، طبعة الرباط بالمغرب مكتبة المعارف ، سنة ١٤٠١هـ .

– منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، ط١ ، بولاق سنة ١٣٣١هـ .

– المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال (وهو مختصر منهاج السنة النبوية السابق ذكره ، اختصره الحافظ الذهبي) تحقيق محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، سنة ١٣٧٤هـ .

الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت ٤٢٩هـ)

– لطائف المعارف ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٦٧م .

الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ) :

– البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط٢ ، سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .

– التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا ، ط١ ، القاهرة سنة ١٣٢٢هـ / ١٩١٤م .

– المحاسن والأضداد ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٩٨م .

-رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة محمد ساسي المغربي ، مصر ١٣٢٤هـ .

- رسالة في النابتة ، ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م .

ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) :

- تلبيس إبليس ، مكتبة المثنى ، بيروت ، (د . ت)

- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير ، مكتبة الآداب سنة ١٩٧٥م .

- سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، تحقيق د. السيد الجميلي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م .

- صفة الصفوة ، ط١ ، الهند ، سنة ١٣٥٥هـ .

- الموضوعات ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، ط١ ، سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) :

- غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق برجستراسر ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م .

الجهشياري محمد بن عبد الملك بن عبدوس (ت ٣٣٠ هـ) :

- الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، مكتبة الحلبي بمصر ، سنة ١٩٣٨م .

ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) :

- سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، تحقيق د. السيد الجميلي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م .

الجويني إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت ٤٧٨هـ) :

- غياث الأمم في التياث الظلم ، تحقيق د. مصطفى حلمي ود. فؤاد عبد المنعم ، دار الدعوة سنة ١٩٧٧م .

ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) :

- الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر .

- تهذيب التهذيب ، ط١، حيدر أباد الدكن ، نشر دار صادر ببيروت سنة ١٣٢٢هـ.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي وآخرين ، ط١ ، دار الريان للتراث ، سنة ١٤٠٧ هـ .

ابن أبي الحديد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (٥٨٦ -٦٥٥ ، أو ٦٥٦هـ)

- شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .

ابن حزم الظاهري أبو محمد علي بن أحمد (٣٨٣- ٤٥٤هـ) :

- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ط٢ ، دار المعرفة ببيروت ، سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

- موجز تاريخ الإسلام ، تعليق بديع السيد اللحام ، ط١ ، دار الإيمان سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م

ابن حنبل : الإمام أحمد الشيباني (ت ٢٤١هـ) :

- الزهد ، دار الكتب العلمية ببيروت ، سنة ١٩٧٦م .

- المسند ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م .

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢- ٨٠٨هـ) :

- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٥١م .

- العبر وديوان المبدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر ، ط بيروت .

- المقدمة ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، ط٣ ، دار نهضة مصر ، سنة ١٤٠١هـ.

ابن خلكان أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) :

- وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ببيروت .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) :

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، ط١ ، النجف الأشرف ، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢- ٢٧٥ هـ)

- سنن أبي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية (د ت).

ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (٨٠٩هـ) :

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج٤ ، ٥ ، ط١ ، المطبعة الأميرية ببولاق ، سنة ١٣٠٩هـ.

ابن أبي الدم الحموي ، شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٦٤٢هـ)

- التاريخ الإسلامي ، المعروف بالتاريخ المظفري ، تحقيق د حامد ريان غانم . دار الثقافة ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥م .

الدميري ، كمال الدين محمد بن موسى (ت ١٤٠٥م) :

- حياة الحيوان ، ط٢ ، القاهرة ، سنة ١٣١٣هـ .

الدياربكري ، حسين بن محمد (توفي في القرن السادس عشر الميلادي)

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ببيروت ، سنة ١٢٨٣هـ

الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) :

- الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة د. جمال الدين الشيال ، ط١ ، مكتبة الحلبي ، سنة ١٩٦٠م .

الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مكتبة القدسي ، سنة ١٣٦٧هـ .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزملائه ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ابن رجب الحنبلي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ) :

- الاستخراج لأحكام الخراج، تحقيق السيد عبد الله صديق ، دار المعرفة ببيروت ، (د . ت).

الزبيري مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت (ت ٢٣٦ هـ) :

- نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٣م .

ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد البصري الزهري (ت ٥٢٣هـ) :

- الطبقات الكبرى ، دار صادر ببيروت (د . ت) ، وطبعة سخاو ، ليدن سنة ١٩٠٥م.

سعيد بن البطريق (٢٦٣- ٣٢٨ هـ) :

- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق في معرفة التواريخ ، بيروت ، سنة ١٣٠٥هـ/ ١٩٠٩م

السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي (٥٠٨ -٥٨١هـ)

- الروض الأنف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط١ ، دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م

السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٩٤ - ٩١١ هـ)

- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط١ ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م

الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ) :

– الملل والنحل (بهامش الفصل لابن حزم) ط٢ ، دار المعرفة ببيروت ، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الصنعاني (١٢٥٠ هـ) :

– فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، ط١، مكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٠هـ .

ابن طباطبا العلوي ، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ)

– الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت (د . ت) .

الطبري محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) :

– تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط٤، دار المعارف ، سنة ١٩٧٩م.

– جامع البيان في تفسير القرآن ، ط١ ، المطبعة الأميرية الكبرى ، بولاق ، سنة ١٣٣٨ هـ .

الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد (٢٦٠-٣٦٠هـ) :

– المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، مكتبة التوعية الإسلامية ، سنة ١٤٠٥هـ

ابن طولون ، شمس الدين محمد (ت ١٠٤٦هـ) :

– قيد الشريد في أخبار يزيد تحقيق فاطمة عامر ، دار العلوم للطباعة ، سنة ١٩٧٨م .

ابن عبد البر النمري ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

– الدرر في اختصار المغازي والسير ، تحقيق د. شوقي ضيف ، ط٢، دار المعارف سنة ١٤٠٣هـ

– الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، (د .ت)

عبد الجبار بن أحمد الأسدأبادي القاضي المعتزلي (ت ٤١٥هـ) :

– شرح الأصول الخمسة ، تحقيق د. عبد الكريم عثمان ، ط١ ، مكتبة وهبة ، سنة ١٣٨٤هـ .

ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) :

– فتوح مصر والمغرب ، طبعة توري ، ليدن ، سنة ١٩٢٠ م .

ابن عبد الحكم ، أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ) :

– سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، ط٢ ، مكتبة وهبة ، سنه ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م

ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)

– العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م

ابن العبري ، أبو الفرج غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ) :

– تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الأب أنطون ملحاني اليسوعي ، دار الراشد اللبناني ، بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) :

– الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ،مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٢م

ابن عذاري ، أبو عبد الله محمد المراكشي (توفي في مطلع القرن ٨هـ)

– البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، ط٣ ، بيروت ، سنة ١٩٨٣م .

ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد القاضي المعافري (٤٦٨– ٥٤٣هـ)

– العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، ط١ ، دار الكتب السلفية ، سنة ١٤٠٥هـ

ابن أبي العز الحنفي ، صدر الدين علي بن علي بن محمد(٧٣١ – ٧٩٢ هـ)

– شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار التراث بالقاهرة ، (د.ت)

ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ) .

– تاريخ مدينة دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٠ ، ترجمة عثمان بن عفان ﷺ ، تحقيق سكينة الشهابي ، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م

الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ) :

– الاقتصاد في الاعتقاد ، ط١ ، مكتبة الحسين التجارية بالقاهرة .

أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ) .

– المختصر في أخبار البشر ، ط١ ، المطبعة الحسينية بالقاهرة

الفرزدق ، تمام بن غالب (ت ١١٢ هـ)

– ديوان الفرزدق ، دار صادر ببيروت ، سنة ١٩٦٦م .

ابن الفقيه الهمداني ، أبو بكر أحمد بن محمد (ت حوالي ٣٨٩هـ) :
– مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دي غويه ، طبعة ليدن ، سنة ١٩٦٧م
الفيروزابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ١٤١٤– أو ١٤١٥م) :
– القاموس المحيط ، ط٤ ، المكتبة التجارية الكبرى ، سنة ١٩٣٨م .
القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٢٨٨– ٣٥٦هـ) :
– الأمالي ، دار الكتب العلمية ببيروت ، (د . ت) .
ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣ – ٢٧٦هـ) :
– (ينسب إليه) : الإمامة والسياسة ، بكتبة الحلبي بمصر ، الطبعة الأخيرة ، سنة ١٣٨٨هـ.
– عيون الأخبار ، ط١ ، دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٠م .
– المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، ط٤، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب،(د . ت).
قدامة بن جعفر بن قدامة أبو الفرج البغدادي الكاتب (توفي لبضع وثلاثمائة) :
– الخراج وصنعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، سنة ١٩٨١م .
القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري :
– الجامع لأحكام القرآن ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ج١٦ ، سنة ١٣٦٥هـ /١٩٤٦م ، ج١٨ ، سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م .
القرماني ، أحمد بن يوسف (١٥٣٢–١٦١٠م) :
– أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، مكتبة المثنى بالقاهرة (د . ت)
القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٣هـ) :
– آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ببيروت ، (د . ت) .
القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ) :
– صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣م
ابن القوطية ، أحمد بن علي (٧٥٦–٨٢١هـ) :
– تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط١ ، دار الكتب الإسلامية ، سنة ١٤٠٢–١٩٨٢م .
ابن القيم ، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) :

– زاد المعاد في هدي خير العباد . دار الريان للتراث ط ١ . سنة ١٩٨٧م

ابن كثير ، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)

– البداية والنهاية ، مطبعة السعادة بمصر ، (د ت)

– تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد رشيد رضا ، ط١ ، مطبعة المنار ، سنة ١٣٤٥هـ

الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ)

– تاريخ ولاة مصر وقضاها ، ط١ ، مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت . سنة ١٩٨٧م

ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٠٧-٢٧٥هـ)

– سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٢م .

مالك بن أنس ، الإمام الفقيه (ت ١٧٩هـ) :

– الموطأ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية .

المالكي ، (أبو بكر عبد الله بن عبد الله المالكي) :

– رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، نشرة الدكتور حسين مؤنس ، مكتبة النهضة بمصر ، سنة ١٩٥١ م .

الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ) :

– الأحكام السلطانية ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد النحوي (ت ٢٨٥هـ) :

– الكامل في اللغة والأدب ، مؤسسة المعارف ببيروت ، (د . ت) .

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)

– التنبيه والإشراف ، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي ، دار الصاوي للطبع والنشر والتوزيع بمصر ، سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

– مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ببيروت ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ) :

– صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (توفي في القرن الرابع الهجري)

– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ، سنة ١٩٦٧م .

المقري التلمساني ، أحمد بن محمد (٩٨٦ – ١٠٤١هـ) :

- نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق سنة ١٣٢٤هـ .
- النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، مكتبة الأهرام بمصر ، سنة ١٩٣٧م.
- النقود الإسلامية ، تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم ، ط ٥ ، النجف الأشرف ، ونشرها الأب أنستاس الكرملي ضمن مجموعة النقود العربية الإسلامية وعلم النميات .

ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (٦٣٠ - ٧١١هـ) :

- لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير وزميلاه ، دار المعارف.

المنقري ، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ) :

- وقعة صفين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٢ ، المؤسسة العربية الحديثة بمصر ، سنة ١٣٨٢هـ .

الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ) :

- مجمع الأمثال ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٥٢هـ .

ابن نباتة المصري ، جمال الدين محمد بن محمد (ت ٧٦٨هـ) :

- سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ، ط١ ، طبعة الحلبي بمصر، سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م

أبو نعيم ، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٣٤٠هـ) :

- حلية الأولياء ، ط١ / مكتبة الخانجي ، سنة ١١٣٥١هـ / ١٩٣٢م
- كتاب ذكر أخبار أصفهان ، طبعة ليدن ، سنة ١٩٣١م .

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ - ٧٣٣هـ) :

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢١ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م .

ابن هشام المعافري ، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ) :

- السيرة النبوية ، تحقيق د . محمد فهمي السرجاني ، المكتبة التوفيقية بمصر ، (د . ت) .

الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ) :

- صفة جزيرة العرب ، ليدن ، مطبعة بريل ، سنة ١٨٨٤م .

أبو هلال العسكري : الحسن ين عبد الله (ت ٣٩٥هـ) :

– الأوائل ، تحقيق د محمد السيد الوكيل ط١ دار البشير للثقافة والعلوم الإسلاميه سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م .

الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)

– فتوح الشام ، المكتبة الشعبية ببيروت ، (د ت)

– كتاب المغازي ، تحقيق د . مارسدن جونس ط٣ . عالم الكتب ببيروت . سنه ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

اليافعي ، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨هـ) .

– مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط٢ ، مؤسسة الأعلمي، بيروت ، سنة ١٣٩٠هـ ٩٧٠م .

ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ) .

– معجم البلدان ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م

يحيى بن آدم : أبو زكريا بن سليمان (ت ٢٠٣هـ) :

– كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة ببيروت .

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ) :

– كتاب الخراج ، دار المعرفة ببيروت ، (د ت)

اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ) .

– تاريخ اليعقوبي ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٨٣م . وطبعة دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٠م

مؤلف مجهول :

– أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، طبعة مدريد . سنة ١٨٦٧م

ثالثا : المراجع العربية :

إبراهيم بيضون (دكتور)

– الحجاز والدولة الإسلامية ، ط١ . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

– الدولة الأموية والمعارضة ، ط٢ . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ

إبراهيم شعوط (دكتور)

– أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الإسلامي ببيروت

إبراهيم العدوي (دكتور) :

– الأمويون والبيزنطيون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٥٣م.

– تاريخ العالم الإسلامي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٨٣م.

إحسان إلهي ظهير :

– الشيعة والتشيع : فرق وتاريخ ، ط١ ، إدارة ترجمان السنة ، باكستان ، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

– الشيعة والسنة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، (د . ت) .

إحسان النص (دكتور) :

– العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، بيروت ، سنة ١٩٦٤م.

أحمد أمين (دكتور) :

– ضحى الإسلام ، ط٢ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

– فجر الإسلام ، ط١٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٨٦م .

أحمد الحوفي (دكتور) :

– أدب السياسة في العصر الأموي ، ط١ ، مكتبة نهضة مصر ، سنة ١٩٦٠م .

أحمد زكي صفوت :

– جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية ببيروت (د . ت).

أحمد شلبي (دكتور) :

– موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج٢ ، ط٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٨٤م .

– موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، ج٣ : السياسة في الفكر الإسلامي ، ط٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٨٣م .

إسماعيل بك جول :

– اليزيدية قديما وحديثا ، تحقيق د . قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٣٤م

إنستاس الكرملي (الأب) :

– النقود العربية وعلم النميات ، ط٢ ، مكتبة الثقافة الدينية بمصر ، سنة ١٩٨٧م .

بدر الدين حي الصيني :

– العلاقات بين العرب والصين ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م .

بسام العسلي :

– معاوية بن أبي سفيان ، ط٦ . دار النفائس ، بيروت سنة١٩٨٦م

جرجي زيدان .

– تاريخ آداب اللغة العربية ، تعليق د شوقي ضيف ، دار الهلال ، سنة ١٩٥٧م

– تاريخ التمدن الإسلامي ، تعليق د . حسين مؤنس. دار الهلال بمصر . سنة ١٩٥٨م.

حسان علي حلاق :

– تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني – دار الكتاب المصري ، سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

حسن إبراهيم (دكتور) :

– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط١٠ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

حسن إبراهيم وعلي إبراهيم (دكتور) :

– النظم الإسلامية ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٣٩م .

حسين مؤنس (دكتور) :

– أطلس التاريخ الإسلامي ، دار الزهراء للإعلام العربي ، ط١ ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٥م .

– فتح العرب للمغرب ، مكتبة الآداب ، سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م.

راضي آل ياسين :

صلح الحسن عليه السلام ، ط٤ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م

سعيد البوطي (دكتور) :

– فقه السيرة ، ط٧ ، دار الفكر ، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

سعيد حوى :

– الرسول صلى الله عليه وسلم ، ط٤ ، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م

السلاوي ، ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن حماد الناصري :

– الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، القاهرة ، سنة ١٣١٢هـ .

سيدة كاشف (دكتورة) :

– مصر في فجر الإسلام ، دار الفكر العربي ، سنة ١٩٤٧م

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

– تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبـــة ، دار المعارف بلبنان ، سنة ١٩٦٢م .

سيد قطب (الشهيد) :

– معالم في الطريق ، دار الشروق .

شاكر مصطفى (دكتور) :

– التاريخ العربي والمؤرخون ، ط١ ، بيروت ، سنة ١٩٧٨م .

شكري فيصل (دكتور) :

– المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ، ط٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٨١م

صفي الرحمن المباركفوري :

– الرحيق المختوم ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، سنة ١٣٩٦هـــ

ضياء الدين الريس (دكتور) :

– الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية ، ط٣ ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٩م .

– عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ، ط٣ ، مطابع سجل العرب ، سنة ١٩٦٩م .

– النظريات السياسية الإسلامية ، ط٥ ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٩م

طه حسين (دكتور) :

– حديث الأربعاء ، دار المعارف بمصر .

– الفتنة الكبرى ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣م .

عباس محمود العقاد :

– الحسين أبو الشهداء ، مكتبة سعد بالفجالة ، (د . ت) .

– عبقرية علي ، دار نهضة مصر (د . ت) .

– عثمان بن عفان ذو النورين ، مكتبة العروبة ، (د . ت) .

– معاوية ين أبي سفيان في الميزان ، دار الهلال ، (د . ت) .

عبد الأمير دكسن (دكتور) :

– الخلافة الأموية (٥٦– ٨٦ هــ) دراسة سياسية ، ط١ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٧م .

عبد الحليم عويس (دكتور) :

– دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ،ط٢ ، دار الشروق ١٩٨٢م .

عبد العزيز الدوري (دكتور) :

- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت . سنة ١٩٦١م.

- مقدمة في تاريخ صر الإسلام ، مطبعة المعارف ، بغداد ، سنة ١٩٤٩م

عبد المنعم ماجد (دكتور) .

- التاريخ السياسي للدولة العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م

عثمان موافي (دكتور) :

- منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، سنة ١٩٨٤م .

علي جريشة (دكتور) ومحمد شريف الزيبق

- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، القاهرة، سنة ١٩٧٨م

علي حسني الخربوطلي (دكتور) :

- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٩م

- المسعودي ، ط٢ ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٠م

علي سامي النشار (دكتور)

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ، ط٨ ، سنة ١٩٨١م

عماد الدين خليل (دكتور)

- التفسير الإسلامي للتاريخ ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، سنة ١٩٧٨م

- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ط٧ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

عمر أبو النصر .

- الحسين بن علي ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، سنة ١٣٥٣هـ

- الحضارة العربية في دمشق ، مكتبة ربيع ، حلب ، سنة ١٩٤٨م.

فتحي عثمان (دكتور) :

- أضواء على التاريخ الإسلامي ، المكتب الفني للنشر ، سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٥٦م

- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، دار الكاتب العربي ، القاهرة

محسن الأمين .

- أعيان الشيعة ، دار التعارف ، بيروت ، سنة ١٩٨٠م

محمد أبو زهرة (الشيخ)

– ابن تيمية : حياته وعصره ؛ آراؤه وفكره ، ط١ ، دار الفكر العربي ، سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م

محمد أحمد خلف الله (دكتور) :

– صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية ، دار الكاتب .

محمد باقر الخوانساري :

– روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، تحقيق أسد الله إسماعيليان ، طبعة طهران ، نشر دار المعرفة ببيروت ، سنة ١٣٩٢هـ .

محمد البهي (دكتور) :

– الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ط ٨ ، مكتبة وهبة ، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

محمد جاسم حمادي المشهداني (دكتور) :

– موارد البلاذري عن الآسرة الأموية في أنساب الأشراف ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ؛ سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

محمد جبر أبو سعدة (دكتور) :

– ابن أعثم الكوفي ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح ، ط١ ، مطبعة الجبلاوي بمصر،سنة ١٩٨٧م

محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

– الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، ط٢ ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، سنة ١٩٦٤م .

محمد حلمي محمد أحمد (دكتور) :

– الخلافة والدولة في العصر الأموي ، ط١ معادة ، القاهرة ، سنة ١٩٧١م .

محمد الخضري (الشيخ) :

– محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، ط٥ ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٣٦٦هـ.

محمد بن صامل السلمي :

– منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه ، ط١ ، دار الوفاء ، سنة ١٩٨٨م

محمد الطيب النجار (دكتور) :

– الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، مكتبة الجامعة الأزهرية ، سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م

- الموالي في العصر الأموي ، ط١ ، دار النيل للطباعة ، ١٩٥٤م

محمد عبد الحي شعبان (دكتور)

- صدر الإسلام والدولة الأموية ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، سنة ١٩٨٣م

محمد عبد الله عنان :

- تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ، دار أم البنين للنشر والتوزيع ، (د.ت)

محمد عبده (الإمام) :

- تفسير القرآن الحكيم ، جمعه محمد رشيد رضا ، ط١ ، مطبعة المنار سنة ١٣٢٥هـ

محمد فؤاد عبد الباقي :

- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، الكتبة العلمية ببيروت

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ط١ ، دار الحديث ؛ القاهرة ، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

محمد قطب :

- حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ط٣ ، نشر المجموعة الإعلامية، جدة ، (د . ت).

محمد كرد علي :

- خطط الشام ، دمشق ، سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٣٨م .

- الإسلام والحضارة العربية ، ط٣ ، دمشق ، سنة ١٩٦٨م .

محمد منير حجاب (دكتور) :

- الدعاية السياسية في العصر الأموي ، طنطا ، سنة ١٩٦٨م .

محمد مهدي شمس الدين :

- ثورة الحسين · ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية ، ط٦ ، دار التعارف ، بيروت ، سنة ١٩٨١م .

محمد نبيه حجاب (دكتور) :

- الدعاية السياسية في العصر الأموي ، طنطا ، سنة ١٩٦٨م

- مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ، ط١ ، مكتبة نهضة مصر ، سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

محمود إسماعيل (دكتور)

- الحركات السرية في الإسلام ؛ رؤية عصرية ، ط١ ، دار القلم، بيروت ، سنة ١٩٧٣م.

محمود شاكر .

- التاريخ الإسلامي ، ط١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

مصطفى حلمي (دكتور) :

- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الأنصار ، سنة ١٩٧٧م .

ناصر الدين الألباني (الشيخ) :

- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ط١ ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ج١ ، سنة ١٩٦٩م . ، ج٢، سنة ١٩٧٢م .

ناصر النقشبندي :

- الدينار الإسلامي في المتحف العراقي , بغداد ، سنة ١٩٥٣م .

نجيب العقيقي :

- المستشرقون ، ط٣ ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٥م .

نيفين عبد الخالق مصطفى (دكتورة) :

- المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي ، ط١ ، مكتبة الملك فيصل الإسلامية ، القاهرة ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

ياسين إبراهيم الجعفري :

- اليعقوبي ؛ المؤرخ والجغرافي ، دار الحرية ، بغداد ، سنة ١٩٨٠م .

يوسف العش (دكتور) :

- الدولة الأموية ، ط٢ ، دار الفكر ، دمشق ، سنة ١٩٨٥م .

رابعا : المراجع الأجنبية والمترجمة :

Browne , E ,G ,

A Literary History of Persia , London , 1909 .

Gibbon , E ,

The decline and fall of the Roman Empire , London , 1911.

Encyclopedia of Islam .

أرنولد ، توماس :

- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمةحسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصريـة ، (د ت)

بالنسيا ، جونزاليز :

– تاريخ الفكر الأندلسي ،ترجمة د . حسين مؤنس ، طبعة الجامعة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥م

بامات ، حيدر :

– مجالي الإسلام ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٩٥٦م .

بتلر ، ألفرد :

– فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ،ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٤٦

بروكلمان ، كارل :

– تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة د . نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٤٨م .

بلات ، شارل :

– الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرا ـ ترجمة د .إبراهيم الكيلاني ، ط١ ، دمشق ، سنة ١٩٦١م .

جروهمان ، أدولف :

– أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمة د .حسن إبراهيم ومراجعة عبد الحميد حسن ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥م ,

جوزي ، بندلي :

– من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، دار الروائع ، بيروت (د.ت) .

جولدسيهر ، أجناس :

– العقيدة والشريعة في الإسلام ، ترجمة د . محمد يوسف موسى وآخرين ، ط١ ، القاهرة ، سنة ١٩٤٦م .

حتي ، فيليب :

– تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة د . كمال اليازجي و د . جبرائيل جبور ، ط٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٧٢م .

– صانعو التاريخ العربي ، ترجمة د . أنيس فريحة ومراجعة د . محمود زايد ، ط١ ، دار الثقافة، بيروت ، سنة ١٩٦٩م .

حتي ، فيليب (مع د . إدوارد جورجي و د . جبرائيل جبور) :

– تاريخ العرب (مطول) ، ط٣ ، دار الكشاف ، بيروت ١٩٦١م .

دوزي ، رينهرت :

– تاريخ مسلمي إسبانيا ، ج١ ، ترجمة د حسن حبشي ، دار المعارف ، سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م

روزنثال ، فرانز :

– علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د. صالح أحمد العلي ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة . بيروت ، سنة ١٩٨٣ م .

سزكين ، فؤاد :

– تاريخ التراث العربي ، ترجمة د . محمود فهمي حجازي ، و د . فهمي أبو الفضل ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م

علي ، سيد أمير :

– مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ترجمة رياض رأفت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، سنة ١٩٣٨م .

فلهوزن ، يوليوس :

– تاريخ الدولة العربية ، ترجمة د . محمد عبد الهادي أبي ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .

– الخوارج والشيعة ، أحزاب المعارضة الرئيسية في الإسلام ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، (د . ت)

فلوتن ، فان :

– السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدوية ، ترجمة د . إبراهيم بيضون ، ط٢ ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ، سنة ١٩٨٥م .

مرجليوث :

– دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة د . حسين نصار ، المطبعة العصرية ، بيروت ، سنة ١٩٢٩م .

ونسنك ، ر . أ . ي . :

– المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي – طبعة ليدن ، سنة ١٩٣٦م

خامسا : الرسائل الجامعية :

عبد الباري محمد الطاهر

- الأتراك والخلافة في العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

عبد الرحمن أحمد سالم :

- التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، سنة ١٩٧٤م .

عبد المرضي محمد عطوة :

- العلاقات بين المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، سنة ١٩٨٩م .

علي بكر حسن :

- الطبري ومنهجه في التاريخ ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم، سنة ١٩٨٣م .

ناهد عبد المجيد مصطفى :

- مسائل الخلاف الفقهي بين الشيعة الإمامية وأهل السنة ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم، سنة ١٩٨٨م .

سادسا : الدوريات :

جميل عبد الله المصري (دكتور) :

- الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ، مقال بمجلة المنهل السعودية ، مجلد ٥٠ ، العدد ٤٧١ ، السنة ٥٥ ، رمضان وشوال سنة ١٤٠٩هـ/ أبريل ومايو سنة ١٩٨٩م.

جواد علي (دكتور) :

- موارد تاريخ الطبري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج١ ، السنة الأولى ، ذو القعدة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ، ج٢ ، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م .

حسنين محمد ربيع (دكتور) :

- منهج السيوطي في كتابة التاريخ ، مقال ضمن مجموعة بحوث في كتاب :جلال الدين السيوطي ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٨م .

حسين عطوان (دكتور) :

– المرجئة بخراسان في العصر الأموي ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربيـــة الأردني ، العـــدد المزدوج ٢٨، ٢٩ ، السنة التاسعة ، شوال ١٤٠٥هـ ربيع ثان ١٤٠٦هـ / تمـــور ـــ كانون الأول ١٩٨٥م .

حسين نصار (دكتور) :

– الاستشراق بين المصطلح والمفهوم ، مقال بمجلة المنهل السعودية ؛ العدد ٤٧١ ، ســـنة ١٤٠٩هـ ، (السابق ذكره) ..

طه الحاجري (دكتور) :

– أبو عبيدة ، مقال بمجلة الكاتب المصري السنة الثانية ، العدد السادس ، سنة ١٩٢٦م.

عبد العزيز صالح الهلابي (دكتور) :

عبد الله بن سبأ ، مجلة حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثامنـــة ، ســـنة ١٤٠٧–١٤٠٨هـ / ١٩٨٦– ١٩٨٧م .

علي حسني الخربوطلي (دكتور) :

– دراسات نقدية وتحليلية لكتاب " تاريخ الخلفاء " للسيوطي ، مقال بكتـــاب " جـــلال الدين السيوطي " السابق ذكره ..

عمر فروخ (دكتور) :

– الاستشراق ؛ ما له وما عليه ، مقال بمجلة المنهل ، العدد السابق ذكره ..

– العلم في العصر الأموي ، مقال بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الأول مـــن المجلد الأربعين ، شعبان سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩٦٥م .

فاروق عمر فوزي (دكتور) :

– حول طبيعة الحركة الشعوبية ، مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الثاني من المجلد السادس والثلاثين ، شوال سنة ١٤٠٥هـ/ حزيران ١٩٨٥م .

فهمي عبد الجليل (دكتور) :

– الأمويون والفيء ، مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي ، كلية دار العلوم ، مج ٧ ، سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

– فرقة السبئية ونشاطها الهدام في خلافة عثمان وعلي وعلاقاتها بالفرق السياسية في تـاريخ الإسلام ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم ، مـــج٧ ، ســـنة ١٤٠٩هــــ/ ١٩٨٩م .

محمد عبد المنعم خفاجي (دكتور) :

– حركة الاستشراق ، مقال بمجلة المنهل السعودية ، العدد السابق ذكره

محمد عبده (الإمام) :

– مقال في تفسير قوله تعالى " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " ، مجلة المنار ، عدد الأحد ٣٠ ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ ، ج١٢ من المجلد الثالث عشر ..

محمد بن عبود :

– منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ، مجلة المنهل السعودية ، العدد السابق ذكره ..

محمود شيت خطاب (اللواء الركن) :

– جيش المسلمين في عهد بني أمية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج١ ، مج ١٤ ، سنة ١٩٥٦م .

– فتح كاشغر ، مقال بمجلة الأمة القطرية ، العدد ٥٠ ، السنة الخامسة ، نوفمبر ١٩٨٤م.

وفاء محمد علي (دكتور) :

– سليمان بن عبد الملك وعهد تصفية الحسابات ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم ، العدد ٨ ، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية ، عدة مقالات ..

الفهرست





الملاءة ـ دار السلام ٥٦ ش حسين الفخراني من ش الفيوم ت ٣١٧٤٧٨٢



